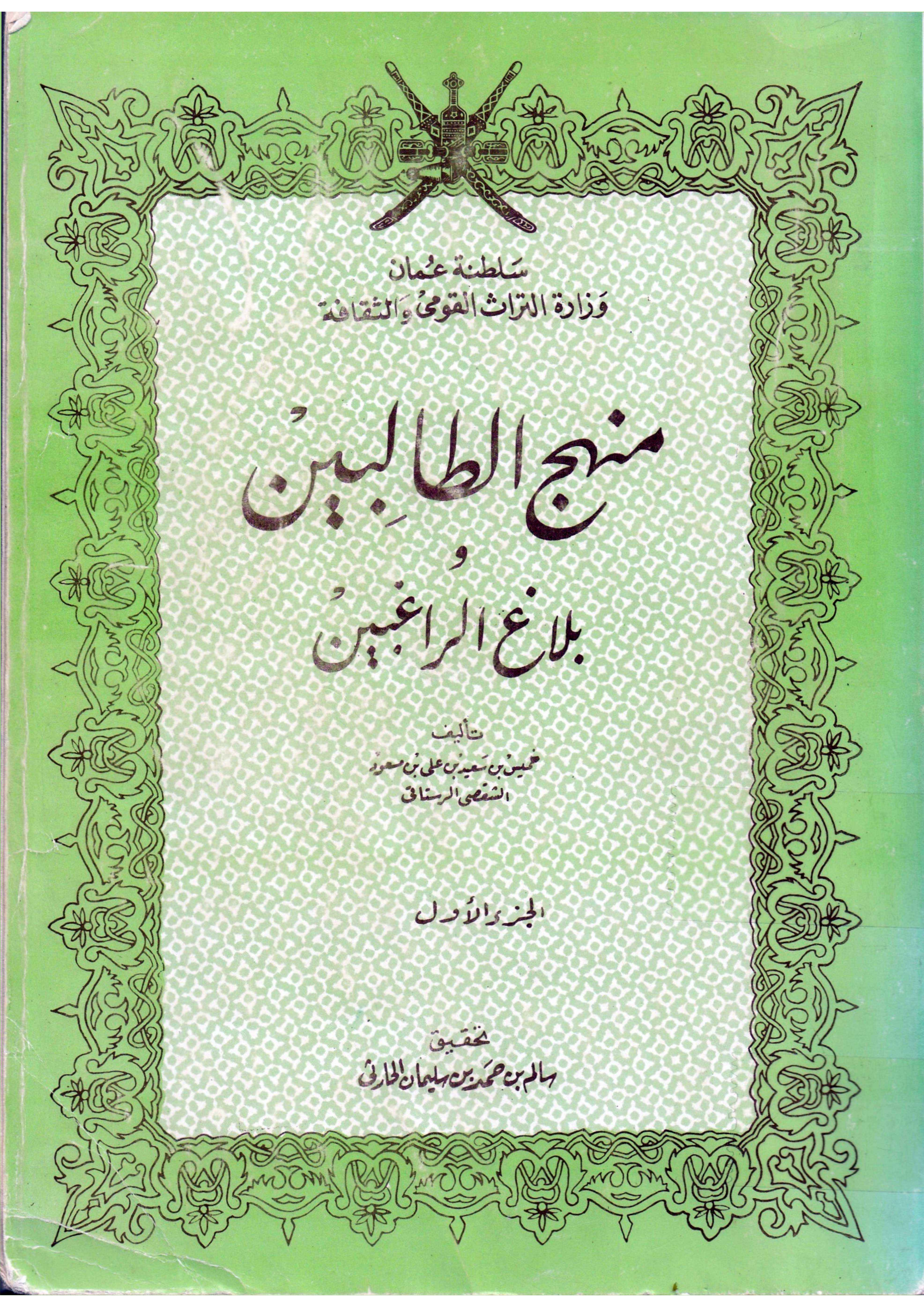
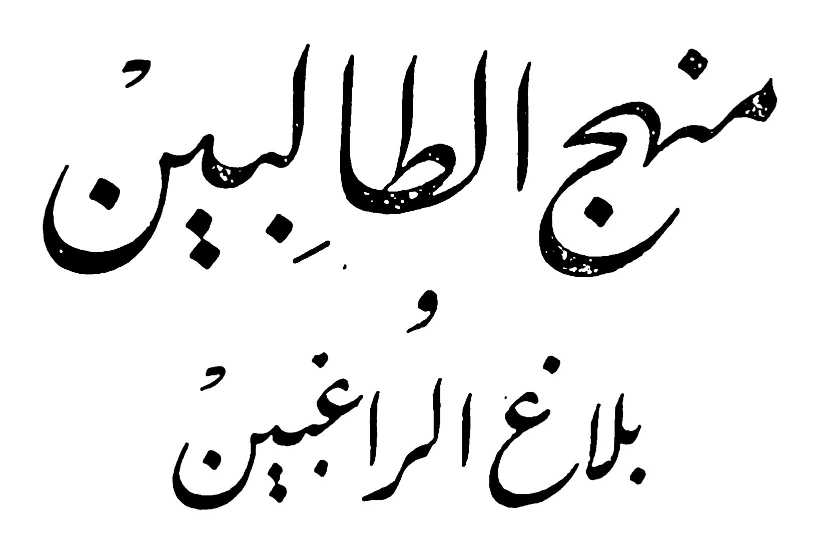

سلطنة عُمان
وزارة التراث القومي والثقافة
منهج الطالبين
و
بلاغ الراغبين
تأليف
خميس بن سعيد بن علي بن مسعود
الشقصي الرستاقي
الجزء الأول
تحقيق
سالم بن حمد بن سليمان الحارثي

سلطنة عمان

وزارة التراث القومى والثقافة



تأليف

خميس بن سعيد بن على بن مسعود

الشقصى الرستاقى

الجزء الأول

تحقيق

سالم بن حمد بن سليمان الحارثى

مطبعة عيسى البابى الحلبى وشركاه
٥ شارع خان جعفر بسيدنا الحسين

طبع على نفقة

حضرة صاحب الجلالة السلطان قابوس بن سعيد
سلطان عمان المعظم

أعدّ الكتاب للطبع وراجعه الأستاذ

عبد المنعم عامر

سلطنة عمان

وزارة التراث القومى والثقافة

مكتب الوزير

تقـــديم

التعاليم الإسلامية والمسائل الشرعية قمة عالية لما يمكن أن يصل إليه السلوك البشرى فى معترك الحياة الإنسانية والمعاشية ، أيًّا كان مكانها ، وأيًّا كان زمانها .

ولقد جهد علماء المسلمين منذ عهد الرسول الأمين،صلوات الله وسلامه عليه، فى أن يبرزوا هذه التعاليم فى مسائل ، وأن يضعوها صورة حية ومعالم واضحة فى كتب عنوا بتأليفها وبتصنيفها ، لتكون هدى للناس فى حياتهم الدنيا وزاداً لهم فى حياتهم الآخرة ، ولتكون نوراً يهتدى به الناس أجمعين إلى ما فى الإسلام من رشاد وفلاح ونعيم فى الدارين .

ومن بين هذه الكتب كتاب « منهج الطالبين وبلاغ الراغبين » الذى تنشره الوزارة، حرصاً منها على أن تقدم للقارئ المسلم زاداً روحيًّا ومراداً دينيًّا يتبع تعاليمه وأحكامه فينال مرضاة ربه ورضى الناس .

ولقد شاءت إرادة صاحب الجلالة السلطان قابوس أن يكون طبع هذا الكتاب القيم على نفقة جلالته الخاصة .

وإن الوزارة فى تقديرها لهذه اللفتة الكريمة لتضرع إلى الله تعالى أن يحفظ للبلاد جلالة السلطان قابوس المفدى ، راعياً ورائداً لها فى ميادين البعث الحضارى ، وفى مجالات العلم والإيمان .

فيصل بن على بن فيصل

وزير التراث القومى والثقافة

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــــدمة المحقق

الحمد لله الذى فتح لمعرفته منهج الطالبين[1] ، فكان الوصول إليها - بلاغ الراغبين ، والصلاة والسلام على رسوله الذى قوله ، وفعله ، وسكوته : بيان شرع رب العالمين ، وعلى آله ، وصحبه الذين جاهدوا فى سبيله قصد البيان ، والتبيين ، وعلى التابعين لهم بإحسان : الذين خاضوا فى قاموس الشريعة ؛ فصنفوا كل ثمين ، وحملوا ضياء الحق للأمة فى كل حين ؛ ما سعى ساع ، واجتهد مجتهد ؛ وقام قائم ، وقعد قاعد ، وقصد قاصد لإحياء تراث الأولين .

أما بعد :

فإنه لما تفرقت الأمة بعد نبيها ، والتبس الحابل بالنابل ، وأخذ بعض

---

(١) استعملت البراعة فى خطبتى تنويهاً بذكر أمهات الكتب العمانية . وكلها مخطوطة موجودة بوزارة التراث كمنهج الطالبين الذى نحن الآن بصدده فى عشرين جزءاً متوسطة الحجم .

وكتاب بيان الشرع فى اثنين وسبعين جزءاً للشيخ محمد إبراهيم الكندى .

وكتاب المصنف للشيخ أحمد عبد الله الكندى فى أربعين جزءاً وكلاهما من علماء القرن الخامس الهجرى .

وكتاب الضيا لسلمة بن مسلم العوبى فى عشرة مجلدات وهو من قدماء العلماء .

وكتاب قاموس الشريعة فى اثنين وتسعين جزءاً للشيخ جميس السعدى من علماء القرن الثالث عشر .

وكتاب الكشف والبيان للشيخ محمد سعيد القلهاتى فى جزأين ضخمين .

وكتاب جامع ابن جعفر فى ثلاثة أجزاء ضخمة وعليه حواش من علماء القرن الثالث .

وكتاب المعتبر وكتاب الاستقامة لأبى سعيد الكوفى من علماء القرن الرابع .

كل هذه الكتب مهمة ، ومراجع معتبرة لدى علماء عمان رضى الله عنهم - محقق .

يضرب رقبة بعض ـ تجرد من عمان عامة ، ومن بيضة عمان خاصة : رجال أشداء العزيمة ، أقوياء الشكيمة ، أخلصوا عملهم لله تحت راية : « وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا ؛ لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا ، وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ » .

فنزلوا مدينة الرسول (ﷺ) : طيبة ، فوردوا المنهل الصافي ـ ولا غرابة ـ فتلقوا خالص الدين من السادة المهاجرين ، والأنصار ، وأمهات المؤمنين الأطهار ، وعلى رأسهم : عبد الله بن وهب الراسبي ، وجابر بن زيد الفرقي النزوى ؛ فتزودوا منها ما يسره الله لهم .

ونشره جابر على الرجال العمانيين ، وغيرهم بالبصرة الغراء ؛ فذهب به تلامذته غربا ، وشرقا ؛ يؤدون الرسالة ، ويبلغون الأمانة .

وفى مستهل القرن الثانى : بدأ انتشار غرس جابر فى عمان ؛ حتى أينع ونضج ، وكذلك فى المغرب العربى ، وفى حضرموت واليمن .

فقام به أئمة ، وعلماء متلاحقون ؛ ربما يفتر حينا ، وينشط أخرى ؛ إلى أن ألقى الزمام فى عمان فى أول القرن الحادى عشر ـ على عاتق العلَم العلّامة ، صاحب السيف والقلم ، ذى الهمة والهمم ، البحر الزاخر ؛ الذى يقال فى حقه : « كم ترك الأوّل للآخر » : خميس بن سعيد بن على بن مسعود الشقصى الرستاقى .

فبذل جهده مخلصاً لله ، وحمل سيفه وقلمه فى سبيل الله ؛ فبسيفه قامت دولة اليعاربة التى دوخت الهند ، وإفريقية ، واهتزت من أجلها أوروبا ، ودخلت فى طاعتها السند ، وحمت العراق ، وما يليها .

ومن قلمه ولسانه : دونت الدواوين ، وتخرج عليه العلماء الأساطين ، وتخلدت آثارهم ؛ مستمرة منذ أربعة قرون ، وإلى يوم الدين .

وهكذا شأن من أخلص لله ، وجاهد محتسباً فى سبيل الله ، فرحم الله تلك الأرواح الطاهرة ، ورضى عنهم ، وأرضاهم .

وفى آخر هذا القرن الجارى : قيض الله ، لإحياء تراثه ، وجمعه ونشره ــ سلطان عمان : قابوس بن سعيد بن تيمور المعظم .

فأمر بتشكيل هيئة خاصة تجمع المخطوطات حفظاً لها ، وصيانة ، وتكريماً للأوائل ، وتخليداً لذكر السلف الصالح ، ثم طورها إلى وزارة تجمع الآثار ، وتطبع الكتب الثمينة .

فوقع اختيار معالى وزير التراث القومى والثقافة السيد : فيصل بن على بن فيصل آل سعيد ــ على نشر كتاب « منهج الطالبين ، وبلاغ الراغبين » تأليف عالم عصره ، ووحيد دهره الشيخ : خميس بن سعيد ، رضى الله عنه وأرضاه .

وهو كتاب جليل القدر ، عظيم الخطر ، يجمع أصول الفقه والدين ، وفروعه ، رتبه المؤلف فى عشرين جزءاً ؛ كل جزء منه فى أبواب متعددة ، ومعان متنوعة ، وأقوال متفرعة ؛ فهو موسوعة من موسوعات الفقه الإسلامى ، وقد عوّل المؤلف فى كتابه : على كتاب « بيان الشرع » .

فكان لى الشرف ؛ إذ طلب منى معالى الوزير : أن أحققه ، وأصححه ، فقمت مجتهدا ، وبذلت جهدى فى تخريج أحاديثه ، وتصحيح ما وقع من أغلاط الناسخين .

فراجعت أصوله ، وما يسر الله لى من كتب الحديث ، والفقه : قدر استطاعتى ، مع ضعف بصيرتى ، وقلة زادى ؛ فجاء بعون الله ــ تعالى ــ على هذا القالب الذى أخرج به الجزء الأول ابتداء . وهو المسئول أن يعين ، ويوفق لإتمام الباقى من الأجزاء ، وهو حسبى ، ونعم الوكيل .

المؤلف :

من المؤسف جدا أن تضيع علينا حياةُ هذا العالم العظيم ، ووفاته ؛ فمتى ولد؟، ومتى توفى ؟ ، وما نسبه ؟ كل هذا لا علم عندى عنه ، وقد راجعت المؤلفات ، والسِّيَر ، وعلماء العصر ، وكلهم لم يفدنى بشىء .

والذى أتحراه: أنه من مواليد آخر القرن العاشر الهجرى، وذكره مشهور؛ إلى سنة ستين بعد الألف ؛ أى: فى إمامة الإمام: سلطان بن سيف ؛ ثانى إمام من اليعاربة حسبما ذكر فى هذا الجزء .

وكان قد خلف على أم الإمام : ناصر بن مرشد ؛ بعد خروجها من زوجها الشيخ مرشد ، وعاش الإمام ناصر ربيباً له ، وطالباً معه ، حتى جهزه إماماً للمسلمين فى سنة أربع وثلاثين بعد الألف للهجرة ، وكان سن الإمام فى ذلك الوقت نيفاً وعشرين فيما ذكر لى بعض المشايخ .

وما زال الشيخ خميس عضداً ، وساعداً للإمام : مرة يقود الجيوش ، ومرة يحافظ على المراكز ، ومرة ينضم تحت القيادة التى يقودها غيره ، حتى انتهى سبيله مخلصاً لله فى عمله .

وترك للمسلمين كنزين عظيمين ؛ لا ينفدان ؛ هما : الإمامة العظمى ، وهذا الكتاب الحافل الذى نحن بصدد نشره .

رحمهم الله ، ورضى عنهم، ورزقنا الاقتداء بسيرتهم، والاستضاءة بأنوارهم المستمدة من نور الله ، ورزق قادتنا ، وألهمهم التمسك ، والاسترسال فى نشر دعوتهم ، وحفظ كرامتهم ، وصيانة آثارهم — إنه ولى التوفيق ، ولا حول ، ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

انتهى : بقلم : سالم بن أحمد بن سليمان الحارثى

٧ من شعبان الموافق ١٣٩٨ هـ
الموافق : ١٣ / ٧ / ١٩٧٨ م

مقدمة المؤلف

بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه نستعين ، وعليه أتوكل ، وهو حسبى ، ونعم الوكيل .

الحمد لله الأول بلا بداية ، والآخر بلا حد ولا نهاية ، ولا مدة ولا غاية ؛ الظاهر بالدلالات على وجوده، الباطن الذى لا يغيب شىء عن علمه « الَّذِى عَلَّمَ بِالْقَلَمِ ، عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ » .

أحمده على ما أولى وأنعم ، وأعان وكرم ، والصلاة والسلام على محمد ﷺ .

أما بعد : فإنى لما رأيت العلم قد قل طالبه ، وتقاصر أكثر الناس عن الرغبة فيه ، وكلّت الهمم عن الوصول إلى مقامات السلف الماضين ، وعجزت عن درك مقاصد السابقين ـ استعملت خاطرى فى تصنيف مختصر أجمع فيه معالم الشريعة وأنظم فيه شتات الفقه، وأبين أصله وفروعه ، وأجعل مسائله مشروحة مجموعة ، متجاورة متتابعة مشروعة .

فجمعت فيه بغاية الإيجاز الذى لا يكون معه ملال ، واختصار لا يزرى به إقلال ولا إخلال ، وسميته كتاب منهج الطالبين ، وبلاغ الراغبين .

وجعلته مجزأ عشرين جزءا . . يحتوى على ضروب من علوم الشريعة ، وفنون من العلم مجموعة ، وجعلته معلما بالأقوال ، ومفصلا بالفصول ؛ لمطالعة المسائل ، تقريبا عن الإطالة والملالة

فالجزء الأل :

ـ فى العلم وصنوفه ، والحث على تعليمه ، ودرسه .

ـ وفى ذكر العلماء ودرجاتهم ـ وفى العقل والفتيا ، ولزوم الحجة ، وتعليم القرآن ، واختلاف العلماء فى خلق القرآن .

ـ وفى المحكم والمتشابه ، والناسخ والمنسوخ منه ، وفى تفسير شيء منه .

ـ وفى التوحيد ومعرفة الله تعالى ، وأسمائه وتفسيرها ، ونفى الشبه عنه ، والرؤية ، والكلام ، والوعد والوعيد ، والمشيئة والإرادة ، وخلق الأفعال ، والاستطاعة ووجوب التكليف ، والعلم ، والهدى والضلال ، والصراط والميزان ، والاستواء ، والموت والقبر والبعث والحساب ، والجنة والنار . وفيما يسع جهله ، ومالا يسع جهله ، وفى الإيمان والإسلام والكفر والنفاق ، وذكر الملائكة والجن وإبليس لعنه الله ، وفى ذكر العلماء وأسمائهم ، وفى رفع مذهب أهل الاستقامة .

الجزء الثانى :

ـ فى الولاية والبراءة ، وصنوف ذلك ومعانيه .

ـ وفى صغائر الذنوب وكبائره .

ـ وفى التوبة وفضلها ، وتهذيب النفس وتقويمها ، وأعمال القلب ، وما تستقيم به العبادة ، وإخلاص العمل .

ـ وفى ذنوب الأنبياء ، والملائكة عليهم السلام .

ـ وفى فضائل نبينا محمد ﷺ ، وأصحابه ، وأمته ، وفضائل الذكر .

ـ وفى الجنة والنار والدنيا والآخرة ، وذكر الطيب ، وستر البدن ، وأدب الأكل والشرب والجماع ، وما يستحب من القول وجواز التقية ، والعتب ، والعذر ، والحب ، والبغض ، وحسن الجوار والعاشرة ، وصلة الأرحام ، والاستئذان فى البيوت ، والسلام ورده ، وما يجوز للرجال والنساء من بعضهم لبعض ، وحق الوالد على الولد .

ـ وفى الفرائض والسنن ، وفى النيات وألفاظها ، وفى الشك المعارض للعبد فى حلاله ، وفى مسائل فى البحر ، وما جاء فى الجبابرة وعمالهم ، ومن ابتلى بهم .

الجزء الثالث :

ـ فى المياه ، والطهارات ، والنجاسات ، وفى الحيض ، والاستحاضة ، والنفاس والغسل من الجنابة .

ـ وفى صلاة الحائض ، وصومها .

ـ وفى الوضوء والتيمم ، وغسل الميت ، والصلاة عليه ، وذكر القبر ، والتعزية فى الموتى .

ـ وفى شيء من الأسفار .

الجزء الرابع :

ـ فى الصلاة ، ووجوبها ، وجميع صنوفها ، وضروبها ، وما يجب على العبد فيها .

الجزء الخامس :

ـ فى الزكاة ، وصنوفها ، ومن تجب له .

ـ وفى الجزية ، والصوافى والأموال المنسوبة إلى أولاد نبهان من عمان وحكم المسلمين فيها .

الجزء السادس :

ـ فى الصوم ، وزكاة الفطر .

ـ وفى الأيمان وكفارتها ، وفى النذور وكفارتها .

ـ وفى الاعتكاف ، وتحريم الحلال ، وتحليل الحرام ، ومن جعل نفسه هديا أو نحيرة .

ـ وفى صنوف الكفارات ، وفى الذبائح ، والصيود ، وما يحل منها .

ـ وفى الأشربة ، وما يحل منها ، وما يحرم ، وتصنيف جميع ذلك .

الجزء السابع :

– فى الحج ، ومن يجب عليه ، ومن لا يجب عليه ، وفى الضحايا وصفتها ، وما أشبه ذلك .

الجزء الثامن :

– فى الأمر بالمعروف، والنهى عن المنكر ، والعقوبة بالحبس ، والتعزير .

– وفى الإمامة وشروطها ، ومن يجوز أن يكون إماماً ، وفى أحداث عساكر الأئمة ، وما يجب على الأئمة ورعاياها ، ومن يجوز عزله ، وخلعه .

– وفى الجهاد ، ومحاربة أهل الشرك والباغين .

– وفى الغنائم وأحكامها ، وقسمها ، وفى الأسارى ، والمرتدين ، ومخيفى الطرق على الناس .

– وفى الولاة ، وما يجوز لهم ، ومن يجوز أن يولى .

– وفى الحدود ، وأحكامها ، ومن تجب عليه ، ومن لا تجب عليه .

الجزء التاسع :

– فى الدعاوى ، والأحكام ، وإنفاذ الحكم على الحاضر ، والغائب ، وما أشبه ذلك .

الجزء العاشر :

– فى الشهادات ، وألفاظها ، ومن تجوز شهادته ، ومن لا تجوز .

– وفى ألفاظ الصكوك ، وفى الأيمان ، والنصب وألفاظ ذلك .

– وفى الوكالات وأحكامها ، وما يثبت فى ذلك وما لا يثبت .

الجزء الحادى عشر :

– فى الديون ، والحوالة والضمان ، والكفالة والخلاص من ذلك

ـ وفى الدماء ، وأروشها ، والديات فيها .

ـ وفى القتل ، وما يجب على العاقلة منها ، وفى القسامة ، وما أشبه ذلك .

الجزء الثانى عشر :

ـ فى القسم ، والشفع ، وفى العمل ، وفى الأصول والعمال ، وفى الصنائع ، والإجارات ، ومن يلزمه الضمان ، ومن لا يلزمه .

ـ وفى أجرة الدواب ، والعبيد ، والمنازل ، والسفن وأحكام ذلك .

الجزء الثالث عشر :

ـ فى الأنهار ، والآبار ، والطرق ، والسواقى ، والمنازل ، وقياس النخل .

ـ وفى المبانات ، والمفاسلة ، ومعانى ذلك .

ـ وفى تحليل الأموال ، وتحريمها ، والعرف ، والعادة بين الناس

ـ وفى الغصوب ، والخلاص منه ، والخلاص من السرقة ، والضمان ، والتبعات ، والاستحلال من ذلك .

ـ وفى الضمان الذى لا يُعرف ربه ، وما يجوز به الانتفاع من الأموال ، والمنازل .

ـ وفى الراكبين فى السفن، وما يجوز لهم فيها من الانتفاع ، وما أشبه ذلك.

ـ وفى المساجد ، وفضلها ، ومن تلزمه عمارتها والقيام بها ، وبأموالها ، وبنائيها .

ـ وفى الرسوم ، وأحكامها ، والإحداث فيها ، والانتفاع منها .

ـ وفى الفلوات ، والصحارى ، والأودية ، وما ينبت ، والجبال .

ـ وفى مال الفقراء ، والسبل ، والغائب ، والوقوف ، والمقابر .

الجزء الرابع عشر :

ـ فى البيوع وصنوفها ، وما يحل منها وما لا يحل .

ـ وفى الأحكام فيها وفى العيوب ، وما يحرم منها .

ـ وفى الصرف ، والقرض ، والسلف ، والمضاربة والرهن .

الجزء الخامس عشر :

ـ فى النكاح ، وجوازه ، ومن يجوز تزويجه من النساء ، ومن لا يجوز ، وما تحرم به الزوجة على زوجها .

ـ وفى الأولياء ، والوكالة فى التزويج ، وفيمن الأولى له من النساء .

ـ وفى تزويج المتعة .

ـ وفى الرضاع .

ـ وفى الصدقات ، وما جاء فيها ، وأحكام ذلك .

الجزء السادس عشر :

ـ فى معاشرة الأزواج ، وما يجب فى ذلك : من نفقة وكسوة ، ومباشرة ، وما يجب للمطلقات ، وللمميتات ، والبائنات ، ونفقة الزوجة : الصبية والرتقاء ، والمجنونة .

ـ وفى سفر الرجل برأى زوجته ، وغير رأيها .

ـ وفى القسمة بين النساء .

ـ وفى الوطء ، وما يحل منه .

ـ وفى المفاوضة بين الزوجين .

ـ وفى الطلاق ، والخلع ، والبرآن ، والإيلاء ، والظهار ، وتحريم الزوجات ، وتخييرهن .

ـ وفى عدة النساء المطلقات ، والبائنات ، والمميتات .

ـ وفى المواعدة فى العدة فى التزويج ، وفى رد الزوجات .

الجزء السابع عشر :

ـ فى الأولاد ، وتربيتهم ومن أحق بهم،ووجوب نفقتهم ، ونزعة أموالهم وتصرف الوالد فى مال ولده .

ـ وفى لحوق الوالد وفى أدب الصبيان ، وفى اللقيط ، وفى أمر اليتامى ، والقيام بهم ، وبأموالهم ، وفى أحداثهم ، والإحداث فيهم ، وإيناس رشدهم ودفع أموالهم .

ـ وفى الأعمى ، والمجنون ، والأصم ، والغائب ، والمفقود ، والخناث ، وأحكام ذلك .

ـ وفى نكاح العبيد ، وطلاقهم وخلعهم ، واستبراء الإماء ، وفى عتق العبيد ، ونفقاتهم ، وجناياتهم وإقرارهم .

ـ وفى أم الولد ، والمدبّر ، والمكاتب ، وفى ولاء العبيد ، وأحكام ذلك .

الجزء الثامن عشر :

ـ فى الإقرار ، والعطية ، والعمرا ، والرقبا ، والسكنى ، والعارية ، والأمانة والهدية ، والصدقة ، واللقطة ، والضالة

ـ وفى صرف المضار ، وفى الحدود والموات بين الأرضين .

ـ وفى الرّحى ، والتنور .

ـ وفى جنايات العبيد ، والصبيان ، وأحداث الدواب ، وأحكام الميزاب ، وما أشبه ذلك .

الجزء التاسع عشر :

ـ فى الوصايا ، وأحكامها ، وفروعها ، وأقساطها ، وما كان من معانيها .

الجزء العشرون :

ـ فى المواريث ، وقسمها بين أهلها ، وشرح ما يتعلق على فنونها ، وأحكام ذلك .

ووسمت هذا الكتاب بالأقوال مكان الأبواب ؛ لئلا يشتبه بغيره من الكتب ؛ لأنى وجدت كثيراً من الكتب قد ذهب أولها وآخرها ، ولم تعرف أيها أى كتاب هى ؟ ! ! ، ولا من أى تصنيف ؛ فجعلت علامة لا يشبهها شىء من تصانيف أهل (عمان) .

ولا مزيد على ما صنفه السلف الماضون ، ولا يدرك غايتهم المتأخرون ؛ ولكن لابد فى كل زمان من تجديد ما طال به العهد ، ودرس منه البعض ، تنبيها للغافل ، وتعليما للجاهل ، وتقريبا للمطالعة ، وتخفيفا لمن أراد جمع أصول الشريعة .

لأن كتب أهل (عمان) السالفة ـ منها المختصرات التى هى دون الوصول إلى المراد ، ومنها المطولات التى يشق جمعها على أهل الطلب والارتياد .

وهذا كتاب يكتفى به عن المختصرات ، والمطولات ؛ لأنه جامع لأكثر المعانى بألفاظ مختصرة ، فجمعت فيه بعون الله وحسن توفيقه ـ ما يسّره الله لى من آثار أصحابنا (رحمهم الله) ، وما رأيته موافقا للحق من آثار غيرهم .

وأرجو أن يكون مفيداً لمن أقبل إليه ، هاديا لمن اعتمد عليه ؛ تعصّباً لإحياء آثار أهل هذه النحلة الزهراء ، والدعوة الغراء ، وهم أهل الاستقامة

من أمة محمد ﷺ أرجو أن يكون لى ذخراً عند الله فى المآل ، وهو المحمود على كل حال .

فمن وقف على ما كتبته ، وألفته ، ورسمته ، وصنفته ـ فليمهد لى العذر فى تقصيرى ، ويسد الخلل من خطئى فى تسطيرى ، وليأخذ ما وافق الحق ، وليصلح منه ما خالف آثار أهل العدل والصدق .

فإنى أعترف على نفسى بالقصور عن الوصول إلى المراتب الشريفة ، والهمم العالية المنيفة ؛ إلا أنى معتمد على فضل الله ، وتيسيره ، وعونه وإرشاده ، وتسديده وله المن علينا بما أولانا من ضروب النعمة .

فرحم الله امرأ لزم العلم وأهله ، وقبل الحق ، وأخذ به ، ورغب فى تعليم العلم ودرسه وجعل هذا الكتاب شعاره ، ودثاره .

و « ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » وصلى الله على رسوله محمد النبى وآله وسلم تسليما .

* * *

[القول الأول
فى العلم وصنوفه وضروبه، والحث عليه]

بسم الله الرحمن الرحيم ، وبه نستعين .

العلم من طريق اللغة : هو المعرفة والفهم ، ومن المجاز : هو علم ما أثره الأولون ، وحفظه عنهم الآخرون ، ويقال : فلان عالم فى فن كذا ؛ إذا كان عارفا وحافظا له ، وهو العلم المكتوب بالتعليم ، والنقل والدرس .

وأما العلم الحقيقى : فالذى هو غير مكتسب ، ولا يتغير ولا يتبدل - هو علم الله ، جل وعلا وهو عالم الغيب والشهادة ، وهو علام الغيوب ، وهو العليم الخبير ، عالم بجميع الكائنات .

والعلم عند أهل الكلام ، وما يعقله الناس : هو نقيض الجهل ، وكل من وصف بعلم شىء ؛ فقد نفى عنه الجهل به .

والعلم بنفسه : هو تمييز حقيقة الأشياء على ماهى عليه ، ووضع الأمور على أماكنها من غير تغاير ولا تناقض .

وقيل : العلم ؛ درك المعلوم على ماهو به ، وقيل : هو إدراك الحق .

وسمى العلم علما ، لأنه علامة يهتدى بها العالم إلى ما قد جهل به الناس ، وهو بمنزلة العلم المنصوب على الطريق .

والعلم والعلامة والمعلم : اشتقاقهن من لفظ واحد .

والعالم من الخلق[١] غير العلم، وعلم الله - تعالى - لا يقال : إنه غيره؛ لأن علم الخلق حادث فيهم عقيب جهل ، والله - تعالى - جل عن الحوادث ، وهو العالم بذاته ، كما لا يقال : إن له قدرة هى غيره ، وهو القادر بذاته - جل وعلا .

---

(١) فى خ : والعالم من الخلق غير العلم .

فصل :

والعلم : أصناف كثيرة ، وضروب مختلفة ، وكلها شريفة ، ولكل علم منها فضيلة ، والإحاطة بها ، وبجميعها محال .

قال النبي ﷺ : « العلم أكثر من أن يحصى ، فخذوا من كل شيء وأحسنه »(١) .

ومن ظن أن للعلم غاية فقد بخسه حقه ، ووضعه فى غير منزلته التى وصفه الله بها ، قال تعالى : « وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا » .

قال بعض الفقهاء : لو كنا نتعلّم العلم لنبلغ غايته لكنا بدأنا العلم النقيصة ، ولكنا نطلبه لننقص كل يوم يوم من الجهل ، ونزداد كل يوم من العلم .

والعلم ثلاث درجات : فمن بلغ الدرجة الأولى استكثر ما علمه ؛ فإذا بلغ الثانية : استقلّ ما علمه ، والدرجة الثالثة — لم يبلغها أحد .

وقال بعض الحكماء : العلم علمان : علم دينى ، وعلم دنياوى ؛ فالعلم الدينى هو قسط العلماء الذين أرادوا به الآخرة ، والنجاة من سخط الله تعالى ، والعلم الدنياوى(٢) ، وهو ما أريد به اكتساب الأموال فى الدنيا .

فالعلم الدينى : ينقسم على قسمين : ظاهر عام ، وخاص باطن خفى .

فالعلم الظاهر : كالعلم فى الحلال والحرام ، والفرائض والسنن والأحكام ، وحفظ الكتب والأخبار والحديث، وأمثال ذلك قد اشترك فيه الخاص والعام.

---

(١) رواه فى بيان الشرع ، والضيا والشامل .

(٢) هناك بالنظر إلى المنفعة الدنياوية ، وعند إخلاص النية ، فهو لاحق بالدين ؛ لأن الكسب على العيال ، وستر العرض عن الرجال ، وقصد نفع المحتاج من الأرحام والفقراء ، وتقريب البعيد فى التجارة لإكثارها ، وإراحة المواطنين أمر محمود شرعا ، وجهاد فى سبيل الله تعالى . م

والعلم الخاص الباطن الخفي : هو علم الأنبياء ، والصديقين ، والأولياء المخصوصين ، قد خص به قَوْم ، وهو في كل أمة مثل : تأويل الكتب ، وإسرار الأنبياء والرسل ، وما كان بينهم وبين أوليائهم المخصوصين ، دون عوام الناس .

ثم ينقسم العلم الخاص : قسمين بين الأنبياء وخواصهم . . . وقسم خص الله به الأنبياء ، وهم بينهم وبين الله عز وجل قال الله تعالى : « عَالِمُ الْغَيْبِ فَلَا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ، إِلَّا مَنِ ارْتَضَى مِن رَّسُولٍ » فأعلمنا الله جل وعلا : أنه إذا ارتضى رسولا من خلقه أطلعه على ما شاء من علمه .

ثم ينقسم العلم قسمين : علم بين الله وأنبيائه ورسله ، وعلم تفرد به ؛ فلم يطلع عليه أحداً من خلقه ؛ كما قال الله تعالى : « يَسْأَلُونَكَ عَنِ السَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَاهَا ؟ ، قُلْ : إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّي لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَا إِلَّا هُوَ » ، وقال الله تعالى : « يَعْلَمُ[1] مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى ، وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ » ، ومثله : « إِنَّ اللَّهَ عِندَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ، وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ » الآية . ومثله كثير في القرآن ، مما يدل [على] أن الله جل وعلا تفرد بعلمه دون خلقه .

ثم قسم الله العلم بين خلقه أقساما ، ورتبهم مراتب ؛ فقال : « وَفَوْقَ

---

(١) هذه من الأشياء التي اختص بها المولى سبحانه وتعالى ! لا يقال : إن المتأخرين ليعرفون ما في بطون الأرحام من الحمل ، ويعرفون نزول المطر قبل أن ينزل ؛ فإنا نقول : إن معرفة هؤلاء مقيدة بالأسباب ، والأدلة التي يستدلون بها على ما في الأرحام التي تصورت خلقتها ، ويستدلون على الأمطار بالرياح التي هي أسبابه ، وعلم الله أسبق من هذا ؛ فالنطفة والعلقة كانتا في الرحم ، ولا يعرف الإنسان مصيرها .

كُلِّ ذِي عِلْمٍ عَلِيمٌ » ، وقال: « يُؤْتِي الحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ » ، وقال : « وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ » .

وأما العلم الدنياوى فينقسم على قسمين : علم روحانى ، وعلم جسمانى ؛ فالعلم الروحانى ، مثل علم النجوم ، والحساب ، والطب ، وما أشبه ذلك .

والعلم الجسمانى فهو علم الصناعات ، كالبناء ، والنجار ، والحداد ، والجزار ، والصايغ ، وأمثالهم ، ومثل حمل البحر ، وغير ذلك من الصناعات .

وروى عن النبى (ﷺ) أنه[1] قال : « العلم علمان : علم بالقلب ، وهو العلم النافع ، وعلم باللسان ، وهو حجة الله على ابن آدم » .

ومن العلوم النافعة أن يعرف المخلوق خالقه ، وأنه الله الذى أحياه ورزقه ، فإنه لا يعرفه قلب إلا خشع ، ولا بدن إلا خضع .

ثم شرح الله صدره ، ورفع ذكره ، وجعله حكيما عليما ، وكرمه فى الدنيا والآخرة ، تكريما .

وقيل : إن العلم علمان : علم الأديان ، وعلم الأبدان .

ويقال : إن العلوم أربعة :

علم الأديان ؛ وهو معرفة الحلال والحرام ، وما يجوز وما لا يجوز ، وما يجب على العبد فعله أو تركه .

وعلم الطب ؛ لأن بالصحة للبدن يكمل وصف العبادة ، وتأدية الفرائض واللوازم .

---

(١) رواه ابن أبى شيبة ، والحكم عن الحسن مرسلا، والدارمى فى مقدمته ص ٢٤ فالخطيب عن جابر .

وعلم اللسان ؛ وهو تقديم المنطق الذى يستقيم به الخطاب عند تلاوة القرآن، ومذاكرة العلم ، وتمييز المعانى ، وهو علم جليل شريف .

وعلم الإنسان ؛ وهو أن يعرف الإنسان نسبه ، ومن أى أصل هو ؛ فإذا عرف نسبه ، وأصل حاله ؛ أنه من تراب ، ثم من نطفة ، ثم من علقة ، ثم من مضغة ، ثم يكون جنينا فى بطن أمه ، مجاوراً فيه لما يجتمع فيه من فضول الطعام والشراب .

ثم يخرج من هناك إلى حجر أمه ؛ حيث لا يجلب لنفسه نفعا ، ولا يدفع عنها ضرا ؛ فيجرى الله له لبنا من بين فرث ودم ، ويجعل الله له الرحمة والرأفة، والمحبة فى قلب والدته .

ثم تغذيه حتى يصير خلقا سويا ، عاقلا مميزا ؛ فإما مؤمن نوّر الله قلبه بالإيمان ؛ كأنه قد ألف الأنبياء ، والمرسلين ، والملائكة المقربين فى حضرة رب العالمين .

وإما كافر قد شغله الكفر ، والعصيان ، وعوقه عن الوصول إلى حضرة الرحمن ، وانقطع به إلى مجالسة الشيطان فى درجات المنافقين ، نعوذ بالله ، ثم نعوذ بالله من همزات الشياطين ، ثم أعوذ بالله أن يحضرون .

ثم إن هذا الإنسان ؛ إذا نظر بعين بصيرته ، واستعمل ما فى فكرته — لم يجد بينه وبين آدم أبا ، ولا جدا حيا، كلهم أموات قادمون على ما قد قدموا من أعمالهم ؛ فإما إلى راحة ونعيم ، وإما إلى عذاب مقيم . وإذا اعتبر أمور من مضى منهم لم يجد لأحد منهم كرما إلا بالتقوى ، وما بقى من أمورهم ضلال ، وهباء ؛ فهذا من علم الإنسان .

ولجميع هذه العلوم أبواب ومسائل، لا تحيط بها معرفة عارف، ولا وصف واصف، والله يهدى من يشاء من عباده إلى طريق رضاه، ولا هادى لمن أضله الله.

فصل :

وقيل : إن كل أحد يفوق أهل زمانه من العلماء فى فن من فنون العلم ؛ كما قيل فى الحديث : إن « أبا بكر الصديق » (رضى الله عنه) أعلم الصحابة بالله، وأتقاهم له .

و « عمر بن الخطاب » (رضى الله عنه) أعرفهم بالسياسة ، ومصالح الخلافة.

و « عثمان بن عفان » يفوقهم فى الخط ، وفنون الكتابة .

و « على بن أبى طالب » أحكمهم فى القضاء ، والبلاغة ، وفنون العلم .

وأفرضهم فى علم المواريث « زيد بن ثابت » ، وأعلمهم بالحلال والحرام « معاذ بن جبل » ، وأصدقهم لهجة « أبو ذر الغفارى » ، وأقرأهم للقرآن « أبىّ بن كعب » ، و « عبد الله بن عباس » أعلمهم بتأويل القرآن .

وأمين هذه الأمة « أبو عبيدة بن الجراح » ، وصاحب سر رسول الله (صلى الله عليه وسلم) « حذيفة بن اليمانى » .

وعليكم بهدى ابن أم عبد ـ يعنى عبد الله بن مسعود ـ ، و « عمار بن ياسر » لا يضل ، و « الزبير بن العوام » حوارى هذه الأمة .

وكثير من الصحابة غير المذكورين مخصوص كل واحد منهم بفضيلة ، وكذلك التابعون لهم .

والعلماء من بعدهم ، كل واحد منهم صرف همته إلى فن من فنون العلم : فمنهم من برع فى علم الفقه ، والفتوى فى الأحكام ، ومعرفة الحلال ، والحرام .

ولهذا الفن ـ أيضاً ـ فنون كثيرة ، وضروب مختلفة ، وهذا يفوق فى فن منه ، وهذا يفوق فى فن آخر منه ، ومنهم من يفوق فى علم النحو ، والعربية ، والصرف ، وشبه هذا ، ومنهم من يفوق فى تعبير الرؤيا ، ومنهم من يفوق فى علم الفلك ، ومنهم فى علم الطب ، ومنهم فى علم التفسير ، وتاريخ الأمم ، وأحاديث الماضين ، وقصصهم ، وأخبارهم ، ومنهم فى حفظ القراءات ، وتجويد القرآن ، وتلاوته وحفظه .

وأجل هذه العلوم وأنفعها ، عاجلا وآجلا ـ معرفة الله تعالى ، ومعرفة حدوده ، والعمل بما أمر الله ، والانتهاء عما زجر عنه .

وهذه العلوم كلها ثمرتها العمل ، والعمل على قدر نية العبد ، وإرادته ؛ فمن أراد به وجه الله، وطلب به رضاه ؛ فهو موفق سعيد ، ومن أراد به غيرالله؛ فهو حجة عليه ، وذلك كله بتوفيق الله ، وتأييده وإرشاده وتسديده « والله يختص برحمته من يشاء ، والله ذو الفضل العظيم » .

وقيل : إن القرآن أصل العلوم كلها ، وجامعها ومستنبطة منه ؛ لما روى أن النبى (ﷺ) قال : « إن هذا القرآن فيه علم الأولين والآخرين ، وفيه علم من كان قبلكم ، وما يكون بعدكم ؛ فمن عزب عنه شيء فليتنوّر القرآن من أوله إلى آخره ؛ فإنه يجد فيه ما يشفيه » .

وروى عن ابن مسعود (رضى الله عنه) أنه قال : « تعلموا القرآن والحج، فإنه من دينكم » .

والعلم إمام العمل ، والعمل تابع ، وهو أولى بالتقدم، لأنه الأصل والدليل، ولا تحصل معرفة العبد نفسه ، ومعرفة معبوده ، وما يجب عليه من آداب عبادته إلا بالعلم .

فأهم الأمور إذن؛ طلب العلم لحصول خيرى الدنيا والآخرة ، قال الله تعالى: « يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ، وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ، وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ » .

فإذا عرف العبد ربه ، وأنه مستحق للعبادة ، وعرف كيف يؤدى العبادة التى يستوجب بها رضا سيده ، ويسلم بها من سخطه ـ أقبل على العمل بما أمره به ، والانتهاء عما زجره عنه .

وأما من لا يعرف نفسه ، ولا يعرف ربه ، ولا ما أمره به ، ولا ما نهاه عنه ـ فهو متحيّر فى تيه الضلالة ؛ لا يهتدى لصلاحه سبيلا .

أعوذ بالله أن أكون من الجاهلين ، والحمد لله على ما أولى ، وهدى ، وأنعم ، وأعطى ، ورحم ، وآوى ، وصلى الله على رسوله محمد النبى ، وآله ، وسلم تسليما .

القول الثانى

فى فضل العلم ، وفضل طالبه ، ولزوم تعليمه

وبيـــان ذلك

قال الله تعالى : « وَلَقَدْ يَسَّرْنَا الْقُرآنَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِنْ مُدَّكِرٍ ؟ » قيل معناه : هل من طالب علم فيعان عليه ؟ وقال النبى ﷺ : « طلب العلم فريضة على كل عالم[1] » وقال : « اطلبوا العلم ولو بالصين[2] » ، قال : « عليكم بالعلم؛ فإن أحدكم لا يدرى متى يختل إليه » أى يحتاج إليه ، و (الخلة : الحاجة) .

والمعنى فى ذلك ـ والله أعلم ـ : أن النبى ﷺ ؛ أمر المؤمنين أن يستعدوا لما يعينهم من العمل ؛ قبل أن يعينهم إشفاقا منه عليهم ؛ قبل أن يقعوا فى مالا يجوز لهم ؛ فيهلكوا من حيث لا يشعرون .

وقال عمر رضى الله عنه : « تفقهوا قبل أن تسودوا » يقول : تعلموا فى الصغر قبل أن تكونوا منظورين ، فتستحيوا من التعلم عند الكبر ، وبقيتم جهالا لا تأخذون العلم [إلا] من الصغار فيزرى ذلك بكم .

وقيل : أتى رجل إلى أبى ذر (رضى الله عنه) ، وقال : لا أريد أن أتعلم العلم ، وأخاف أن أضيعه ، فقال له : تعلم العلم ؛ فإنك إن توسد العلم خير لك من أن توسد الجهل .

وجاء رجل إلى أبى الدرداء ، فقال له كالرجل الأول : فقال له أبو الدرداء :

---

(١) فى الطبرانى ، والبيهقى طلب العلم فريضة على كل مسلم .

(٢) رواه الربيع والعقيلى ، وابن عدى ؛ والبيهقى فى الفرايض .

تعلم العلم ؛ فإنك إن تمت عالما ، خير لك من أن تموت جاهلا ، وقال : اغد عالما ، أو متعلما ، أو مستمعا ، ولا تكن الرابع فتهلك .

وقال عبد الله :ـ أرجو أنه ابن عباس ـ : والذى لا إله غيره ؛ لو أعلم أحدا أعلم بكتاب الله منى ؛ تبلغنيه الإبل لرحلت إليه .

وأحوج الناس إلى تعليم العلم ، وطلبه ـ العلماء : لأنهم أعلام يقتدى بهم ، وقيل : لو كان الذى يعلم الدين فى مشرق الأرض ، والذى يتعلمه فى مغرب الأرض ـ لكان عليه أن يخرج إليه ، ويتعلم منه دينه الذى تعبده الله به ، ولو حبًا على بطنه .

وقيل : أوحى الله إلى داود عليه السلام ؛ أن اتخذ نعلين من حديد ، وعصا من حديد ، واطلب العلم ؛ حتى ينكسر العصا ، وينخرق النعلان .

فسر مكحول قوله عزوجل :« فَإِذَا قَضَيْتُم الصَّلَاةَ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ، وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللهِ » يعنى به طلب العلم . وروى عن النبى (ﷺ) أنه قال : « اطلبوا العلم ؛ فإن فيه حياة القلوب من الجهل ، ومصباح الأبصار من الظُّلَم ، وقوة الأبدان من الضعف ، يبلُغ العبد منازل الأحرار ، ويبلغ الأحرار منازل الملوك ومجالسهم والدرجات العلى فى الدنيا والآخرة ، وقال الله تعالى : « وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُون لِيَنْفِرُوا كَافَّةً ؛ فَلَوْلَا نَفَرَ مِنْ كُلِّ فِرْقَةٍ مِنْهُم طَائِفَةٌ ؛ لِيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ ، وَلِيُنْذِرُوا قَوْمَهُم ؛ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِم » .

وترغيبا فى العلم روى أبو سعيد (رضي الله عنه) أن النبى (ﷺ) قال: « من مشى فى تعليم شىء من العلم ؛ كتب الله [له] بكل خطوة من خطاه على ذلك عبادة ألف سنة قائما ليلها ؛ صائما نهارها » وروى على عن النبى (ﷺ)

أنه قال : « ما تنفل عبد ، ولا تخفف ، ولا لبس ثوبا ؛ ليغدو فى طلب العلم - إلا غفر الله له حيث يخطو عتبة بيته . » وقال أبو الحسن (رحمه الله) : نظر المؤمن فى كتاب ؛ ولو قبل موته بساعة - زيادة له فى دينه ، وقال رسول الله (ﷺ) « سيأتى بعدى ناس من أقطار الأرض ، يلتمسون العلم ؛ فاستوصوا بهم خيراً » .

وكان ابن مسعود (رحمه الله) إذا رأى الشباب يطلبون العلم - قال : مرحبا بكم ينابيع الحكمة ، ومصابيح الظلمة ، خلقان الثياب جدد القلوب حرس البيوت ريحان كل قبيلة ، وكان يقول - ابن مسعود - منهومان لا يشبعان : طالب علم وطالب دنيا ، أما طالب العلم فإنه يزداد للرحمن رضا ، وتلا : « إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » ، وأما طالب الدنيا ؛ فإنه يزداد طغيانا ، ثم قرأ : « كَلَّا إِنَّ الْإِنْسَانَ لَيَطْغَى أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى » وخير أيام المرء أيام أفناها فى طلب العلم ، ودرسه .

وقيل : إن حفظ مسألة خير من عبادة ستين سنة ، وإن الملائكة لتضع أجنحتها لطالب العلم رضا لما يطلب[١] . ومن سلك طريقاً يلتمس فيه علما سهل الله له طريقاً إلى الجنة[٢] وقال (ﷺ) : لطالب العلم شجرة فى الجنة ؛ أصلها من المسك ، وأغصانها من اللؤلؤ ، وعودها من الياقوت ، وورقها من النور ، وثمرها من الحور العين ، تنبت كل يوم من الحور سبعين حورية . الواحدة

---

(١) رواه الربيع بن حبيب عن أنس وقال الربيع : الأجنحة بدلا من الأيدى فى باب الدعاء ، ورواه الطيالسى عن صفوان بن عسال ، والبيهقى .

(٢) رواه الربيع بن حبيب عن أبى هريرة » ورواه الترمذى عن أبى هريرة أيضا ، ورواه مسلم عنه ، وأبو داود والنسائى وابن ماجة ، وابن حبان فى صحيحه ، والحاكم .

منهن خير من الدنيا وما فيها . كل ذلك لطالب العلم ، وقيل : قال النبي (ﷺ) : سألت جبريل (عليه السلام) ، فقلت : أى الجهاد أفضل ؟ قال : طلب العلم ، قلت ثم من بعد ؟ قال : زيارة العلماء .

وروى ابن عباس عن النبى (ﷺ) أنه قال : « صحبة العلماء دين ، ومجالستهم كرم ، والنظر إليهم عبادة ، والمشى معهم فخر ، ومخالطتهم عزّ ، والأكل معهم شفاء ، تنزل عليهم ثلاثون رحمة ، وعلى غيرهم رحمة واحدة ، هم أولياء الله طوبى لمن خالطهم ، خلقهم الله شفاء للناس ؛ فمن حفظهم لم يندم ؛ ومن خذلهم ندم » وشرف الله قلوب العلماء فسوى بين قلوبهم وبين اللوح المحفوظ ، فقال: « بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ »، وقال:« بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ » وروى ابن عمر عن النبى (ﷺ) قال:« جلوس ساعة مع العلماء أحب إلى الله من عبادة ألف سنة لا يعصى الله تعالى فيها طرفة عين ، والنظر إلى العالم أحب إلى الله من اعتكاف سنة فى بيت الله الحرام ، وزيارة العلماء أحب إلى الله من سبعين حجة مقبولة ، ويكتب لمن جلس عند أهل العلم بكل حرف سمعه سبعين حجة وعمرة ، وترفع له درجة ، وينزل الله عليه الرحمة ، وتجب له الجنة يوم القيامة » .

والناس عالم ومتعلم ، فأما العالم فمستغنٍ بعلمه ؛ يزداد كل يوم بصراً وعلماً ؛ فإذا فقه أبصر ، وإذا أبصر عمى ؛ وإذا عمل رجا ، وهذه الدرجة القصوى ، وأما المتعلم فهو فى زيادة ؛ فمثله كمثل السراج كلما كان ذهنه أصفى ، وفتيلته أغلظ — كان أضوأ وأنور ؛ وذلك إذا كان المعلم ناصحا شفيقا أثبت الله ذلك العلم فى قلب المتعلم ، ويزداد علما إلى علمه ؛ وإذا كان المتعلم يتواضع لمن يتعلم

منه استوجب من الله الإلهام فى قلبه ، وكان أقوى وأبصر وهذه الدرجة الوســطى .

وأما الجاهل فيزداد كل يوم جهلا إلى جهله ، ولا يتواضع فيتعلم ، ولا ينظر فى أبواب الحـكمة فيفهم ، ومن أراد أن يستضىء بنور الحـكمة ؛ فليألف أهل الفهم والعقل ، ومن استخف بحقها نزع الله منه بركة العمل بها .

وقيل : الإيمان عافية القلب ؛ فإذا سكنت العافية القلب داوته ، [و] إيمان القلب : هو أن يخاف الله خوفا لا يخاف مثله دونه ، ويرجو الله رجاء لا يرجو مثله دونه .

وقال أبو على (رحمه الله) : العالم يسأل مسألة الجاهل ، ويحفظ حفظ العاقل وقال أبو عبد الله : أول العلم الصمت ، والثانى : الاستماع ، والثالث : الحفظ ، والرابع : نشره والعمل به ، وروى أن النبى ﷺ قال: « من يرد الله به خيرا يفقهه فى الدين ، وقال : اطلبوا العلم قبل أن يرفع ، ورفعه ذهاب أهله .

فصل :

وقيل : إن الله خالق العلم ، وجعل له من خلقه من يحفظه ، ويفتى به ، ويذب عنه ، ويحميه ولولا ذلك لبادت فنون العلم ، وفنى ، ودرس ونسى ، وقال النبى ﷺ : « إن الأرض لا تخلو من قائم لله بعلم »، وقال : « طلب العلم فريضة على كل مسلم » ، وقال : « العلم حياة الإسلام وعماد الدين » ، وقال : العلم يزيد الشريف شرفا ، ويرفع المملوك حتى يدرك رتب الملوك » ، والعلم خير من المال ، المال محروس والعلم حارس ، والمال ينقصه الإنفاق ، والعلم يزداد على

الإنفاق ، قال عبد الله بن العباس : تذللت طالبا فعززت مطلوبا ؛ وإذا أراد الله بالناس خيرا ، جعل العلم فى ملوكهم ، والملك فى علمائهم .

وقال ابن عباس (رضى الله عنه) : وجدت عامة علم رسول ﷺ عند هذا الحى من الأنصار، وإنى كنت لأقيل بباب أحدهم من الهواجر ، ولو شئت لأذن لى ؛ ولكنى أبتغى طيبة نفسه ، والخفة على قلبه .

وقال عمر بن عبد العزيز : ما قرن شىء أحسن من حلم إلى علم ، وقال : العلم زين للغنى ، وعون للفقير ، وقال عروة بن الزبير لبنيه : تعلموا فإن تكونوا صغار قوم فعسى أن تكونوا كبار آخرين ، وقال معاذ بن جبل رضى الله عنه : تعلموا العلم ؛ فإن تعليمه لله خشية، وطلبه عبادة ، والبحث عنه جهاد، ومذاكرته تسبيح ، وتعليمه لمن لا يعلمه صدقة ، وبذله لأهله قربة .

العلم أنيس فى الوحشة ، وصديق فى الغربة ، ومحدث فى الخلوة ، وصاحب فى السراء ، والضراء ، وزين عند الأخلاء ، وسلاح على الأعداء ، يرفع الله به أقواما فيجعلهم فى الخير أئمة تقتص آثارهم، ويقتدى بأفعالهم وينتهى إلى رأيهم وقال ﷺ : العلم خليل المؤمن ، والحلم وزيره ، والرفق أخوه ، والبر والده ، والصبر أمير جنوده .

وينبغى لطالب العلم أن يجتهد فى طلبه ، ولا يدخله فتور ولا ملل ، ولا يدخله حياء فى محفل ، ولا يرق وجهه عند السؤال ، وقيل لبعض ملوك العجم : أيحسن للشيخ الكبير أن يتعلم ؟ قال : ماحسنت الحياة فالعلم يحسن ، وقيل : كتب رجل لابنه يا بنى : اطلب العلم ؛ فإنه خير لك من أبيك وأمك ؛ فإن استغنيت كان لك جمالا ، وإن افتقرت كان لك ثروة ومالا .

وكتب رجل إلى أخيه: إنك قد أوتيت علما أنار الله به قلبك؛ فلا تطفئ نور علمك بالذنوب؛ فتكون فى الظلمة يوم يسعى أهل العلم بما آتاهم الله فتكون من الخاسرين.

وقيل لرجل: ما بلغ بك حبك للعلم؟ فقال: إذا اغتممت أسلانى؛ وإذا غضبت كفانى؛ وإذا شكوت إليه دلنى وأشكانى؛ وإذا دهمنى أمر خلصنى.

وقيل: كتب رجل إلى عبد الله بن عمر، أن اكتب لى بالعلم كله؛ فكتب إليه عبد الله بن عمر:

العلم كثير ولكن إن استطعت أن تلقى الله خميص البطن من أموال الناس سليم الظهر من دمائهم، كافا لسانك عن أعراضهم، لازما لجماعتهم — فافعل. جمع له مجامع العلم، ومحاسن الأدب فى أربع كلمات.

وقيل: للعالم خصال يعرف بها، ويمتاز بها من غيره: يحلم عمن ظلمه، ويتواضع لمن دونه، ويسابق من هو فوقه، وإن رأى باب معروف انتهزه، ولا يفارقه الخوف، إن تكلم غنم، وإن سكت سلم، وإن عرضت له فتنة اعتصم بالله عز وجل.

وقيل: العلم ذكر يحبه ذكور الرجال، ويبغضه إناثهم، وقيل: العالم ذهب والمتعلم فضة، والجاهل نحاس لا خير فيه، وقيل: لا يحب العلم إلا من أحبه الله، ولا يبغضه إلا من أبغضه الله، وقيل: لا تقوم الساعة حتى يصير العلم جهلا.

فصل :

ويروى عن النبي ﷺ أنه قال : باض العلم بمكة، وفرّخ بالمدينة، وانتشر بالبصرة ، ونهض إلى عمان .

وقيل : إن الذين نقلوا العلم من البصرة إلى عمان : « موسى بن أبي جابر الأزكوي » ، وهو من بني ضبة من سامة بن لؤي بن غالب ، و« بشير بن المنذر النزواني » ، وهو من بني زياد أيضا من بني سامة بن لؤي بن غالب ، و «محمد ابن المعلا الفشحي » ، وهو من كندة . و « منير بن النيّر الجعلاني » وهو من بني ريام من قضاعة بن مالك بن حمير . رحمهم الله ، وغفر لهم ، وجزاهم عنا وعن الإسلام وجميع المسلمين خيراً كثيراً ، وفضائل العلم أكثر من أن تحصى .

فصل :

ونقيض العلم الجهل ، يقال : جهلت هذا الأمر ؛ إذا لم تعلمه ، وتعرف حقيقته ، والجاهل : هو الذي غلب عليه الجهل ، والمتجاهل المتعمد للجهل القاصد له[1] ، وبينهما فرق ؛ والجهل مأخوذ من الأرضين المجاهل ؛ وهي التي لا أعلام لها ، ولا يهتدى لطرقها الواحد بجهله ، والجهل مستقبح بإجماع .

وقيل : الجهل داء ، والعلم دواء ، والجهل عورة تستتر ، والعلم زينة تظهر ، والجهل أقبح ما في الإنسان ، فالعلم أصلح ما فيه ، ومن جهل شيئا فقد عاداه ، وقيل : المرء عدو ما جهل .

وكذلك الأمم : لما جهلوا فضل أنبيائهم ونبوتهم عادوهم ، وحاربوهم إلا من عرف فضلهم وصدق نبوتهم .

---

(١) في الضياء : القاصد له بالفعل ص .

ومن علامة الجاهل : أنك تجده للعلم معاديا ، وعليه رازيا ، وعنه منصرفا ، يظلم من خالطه ، ويعتدى على من هو دونه ، ويتطاول على من هو فوقه ، ويتكلم بغير تدبير ، وإن سكت سها ، وإن عرضت له فتنة وقع فيها ، وإن رأى فضيلة أعرض عنها ، وقلما تكون محنة فاضل إلا من ناقص ، وبلوى عالم إلا من جاهل ، وقد نهى العلماء عن صحبة الجهال ، وقال أبو الدرداء : علامة الجاهل العجب ، والنطق فيما لا يعنيه ، وأن ينهى عن شىء ويأتيه ، وقال عمر ابن عبد العزيز : يعرف الجاهل بكثرة الالتفات ، وسرعة الجواب ، وليست حالة أوضع لقدر الإنسان ، ولا أضر عليه ولا أجلب للشر إليه ، ولا أقبح لذكره ، ولا أذم لأمره من الجهل ، وهو الداعى للعار ، والهاوى [بصاحبه] إلى النار ، والمبعد [عن] السلامة ، والمدنى من الندامة ، والسبب لكل معرة ، والجالب لكل مضرة ، والذاهب بخيرى الدنيا والآخرة ؛ فالجاهل ميت وإن كان حيًّا ، معدوم وإن كان شيئًا ، فقير وإن كان غنيًّا .

وقيل لبعض الحكماء : ما لكم لا تعاتبون الجهال ؟ فقال : إنا لا نكلف العمى أن يبصروا ، ولا الصم أن يسمعوا ؛ فهم كما ذكرهم الله تعالى : « صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ ؛ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ » .

وقيل : ينبغى للعاقل أن يخاطب الجاهل مخاطبة المتطبب للمريض ، وقيل : لا يعرف الجاهل إلا العالم ، ولا المعصية إلا المطيع .

وأصل طبع بنى آدم الجهل ، والعلم حادث فيهم كما قال الله تعالى : « وَاللهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا » ؛ فبالعلم يعرف الله وحده ؛ وبه يطاع ويعبد ، يلهمه الله السعداء ، ويحرمه الأشقياء .

وروى الحسن عن النبي (ﷺ) أنه قال : « من لم يتعلم العلم عذبه الله على الجهل ؛ ولا شيء أفضل عند الله من العلم والفقه ، والفقيه واحد أشد على الشيطان من ألف عابد ، ولكل شيء دعامة ودعامة هذا الدين الفقه » .

فصل :

قيل لأبي سعيد (رحمه الله) : ما أفضل للمتعلم ؛ إذا قام بما يجب عليه ، أن يتعلم علم الأصول في الدين ، أو يتعلم الحلال والحرام ، ومسائل الأحكام ؟ قال : لا أحب أن يتعرى من أخذ ذلك ؛ إن أمكنه أن يأخذ من كل فن شيئاً ؛ لحاجة الناس في هذا الزمان لذلك ، وإن كان لا يمكنه ذلك ، ولا بد له من الانفراد بشيء من ذلك ؛ فالأصول أوجب ؛ إلا أن يكون في موضع الحاجة إليه من أهل زمانه أكثر في علم الظواهر كان تعلم ذلك أولى ؛ على اعتقاد معونة أهل الحاجة إليه بما أمكنه ، وبلغ إليه طوله .

ويكون اعتقاد المتعلم للعلم لوجه الله تعالى ، وابتغاء مرضاته ، واستعداداً لما يعنيه من تأدية فرائضه ، واجتناب محارمه ؛ قبل أن يعنيه ، ولما يلزمه قبل أن يلزمه ؛ لئلا يترك طاعة بجهل ، ولا يدخل في محجور بعلم ، وللإرشاد من قدر على إرشاده ، وتعلم من قدر على تعليمه .

وقيل : سئل رسول الله (صلى الله عليه وسلم) عن العلم . فقال : العلم كله القرآن ، وهو الأصل ، والتنزيل ، وما بعده من العلم تفسير له وتأويل . وقال علي بن أبي طالب : كفى بالعلم شرفا أن كل أحد يدعيه ، وإن لم يكن من أهله ، وكفى بالجهل خزيا أن كل أحد يتبرأ منه ، وإن كان به موسوما ،

وقليل العلم خير من كثير العبادة ، والملوك حكام على الناس ، والعلم حاكم على الملوك .

وقيل لبعض الحكماء : لم لا يجتمع العلم والمال ؟ قال : لعز الكمال ، وقيل : خيّر سليمان بن داود (عليه السلام) بين العلم والمال ؛ فاختار العلم ؛ فأعطاه الله الملك والعلم والمال ، لإختياره العلم ، وقيل إن المتعبد بلا علم كالحمار فى الطاحونة !! .

وقيل إن أعمال البر كلها عند الجهاد فى سبيل الله كتفلة فى بحر ، وأعمال البر كلها ، والجهاد فى سبيل الله عند الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر كتفلة فى بحر لجىّ ، وكل ذلك عند طلب العلم كتفلة فى بحر .

والعلماء ورثة الأنبياء ، وملح الأرض ، ومصابيح الدنيا ، والأدلاء عند العماء ، ومشهورون فى الأرض والسماء ، قواد الناس إلى الجنة ، وقيل : مداد العلماء يوازن دم الشهداء يوم القيامة ، ومن لم يحزن على موت العالم فهو منافق ، وتبكى لموت العالم سكان السموات سبعين يوما ؛ فلا مصيبة أعظم من موت العلماء ، وما من مؤمن يحزن على موت العالم إلا كتب الله له ثواب ألف ألف عالم ، وألف ألف شهيد ورفع له فضل عمل ألف شهيد .

وقال النبى ﷺ « من حقر العالم فقد حقرنى ، ومن حقرنى فله النار ، ومن مشى خطوتين فى طلب العلم ، أو جلس فى حلقة العلم قدر فواق ناقة ؛ فقد وجبت له الجنة ». (وفواق الناقة مابين الحلبتين ، ورجوع اللبن فى الضرع بعد الحلب) .

وقال النبي (ﷺ): « سألت جبريل عن صاحب العلم . فقال : هو سراج أمتك فى الدنيا والآخرة ، طوبى لمن عرفهم وأحبهم ، وويل لمن أنكر معرفتهم وأبغضهم » وكفى بكتاب الله حجة ، وشفاء فى تفضيل العلم وأدله ؛ قوله تعالى : « بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ » ، وقال : « إنما يَخْشَى اللهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ » ، وقال : « قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الَّذِينَ يَعْلَمُونَ وَالَّذِينَ لا يَعْلَمُونَ ، إنما يَتَذَكَّرُ أُولُوا الألْبَابِ » .

فأى كلام أبلغ وأوعظ ، وأنفع وأبين من كلام رب العالمين ، وهو الشفاء من كل داء ، والنور والضيا [ء] .

جعلنا الله ممن تعلمه ، ويفهم معناه ، وعمل بما فيه ، وتأدب بمعانيه ، وقبل منا تلاوته ؛ إنه سميع الدعاء ، فعال لما يشاء .

وروى ابن مسعود رضى الله عنه : أن النبى (ﷺ) قال : لا حسد إلا فى اثنين : « رجل آتاه الله مالا ، وسلطه فى إنفاقه فى الحق ، ورجل آتاه الله علما ؛ فهو يقضى به ، ويعلمه الناس » ، وقال « من يرد الله به خيراً يفقهه فى الدين ؛ يرفع الله بالعلم أقواما ، ويجعلهم فى الخير قادة ، وأئمة تقتص آثارهم ، وترفع أعمالهم ، وترغب الملائكة فى خلتهم ، وبأجنحتها تمسحهم ، وكل رطب يابس يستغفر لهم ؛ حتى حيتان البحر وهوامه ، وسباع البر وأنعامه ، والسماء ونجومها والأرض وتخومها .

وقيل : سأل موسى عليه السلام ربه تبارك وتعالى : أى عبادك أعلم ؟ قال : عالم لا يشبع من العلم ، يجمع علم الناس إلى علمه ، قال يا رب : أى عبادك

أتقى ؟ قال : الذى يبتغى علم الناس إلى عامه عسى أن يجد كلمة تهديه إلى هدى أو ترده عن ردى .

فصـــل :

وقيل : مثل العالم الذى يعلم الناس يريد به وجه الله تعالى - كمثل الشمس تضىء للناس ولا ينقص منها شىء ، ويقال : إن العلماء غرباء لكثرة الجهال ، وفى مناجاة موسى ربه جل وعلا : من دق فى الدين نظره جل فى القيامة خطره ، ومثل العالم مثل الريحانة ؛ الحسن منظرها ، الطيبة رائحتها تزداد طيبا بتقبيلك لها ؛ كذلك العالم إن قارنته زانك ، وإن سألته اقتبسك علما .

والعالم أكبر من الفقيه ، والفقيه اسم مدح لا يستحقه إلا من كان به عاملا .

وقيل : مثل جليس الصدق كحامل الطيب ؛ إن لم يصبك منه أصابك من عَرفه ، ومثل جليس السوء مثل الكير (يعنى كير الحداد) إن لم يصبك شرره أصابك دخانه .

فصـــل :

وسئل أبو سعيد رضى الله عنه : ما أفضل عندك ؟ الجهاد على العيال ، وطلب الحلال أو التعليم ، والاتصال بالإخوان ، وترك المكسبة ؟ قال : هذا مما اختلف فيه ؛ وكله فضيلة ، ولا أعلم شيئا أفضل من طلب العلم ؛ وإذا كان طلب المعاش فريضة ، وطلب العلم فضيلة ؛ فالفرض أولى من الفضيلة ؛ وإذا صح للعبد قوت يومه يجرى عليه زررا كل يوم قد سبق له ، أو عرفه من وجه

ولو كان يوما بيوم ؛ فطلب العلم أولى ؛ وإن خاف عدم ذلك كان طلب المعاش أولى من طلب العلم ، ويعتقد السؤال عما يلزمه فى دين الله ، وأن يطلب العلم متى قدر على ذلك .

ومن قدر على المكسبة له ولعياله ، وطلب العلم أيضا ، وأعطاه الله قوة على ذلك ؛ فقد أدى الفرض ، وحاز الفضل ؛ فإن لم يقدر على ذلك : أعتقد أنه متى قدر طلب، والله تعالى أولى بالعذر، « وَلَا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا » ، « وَهُوَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ » .

* * *

القول الثالث

فى أصناف العلماء ، ودرجاتهم ، وترغيبهم ، وتحذيرهم ، ومدح العلماء ، وما ينبغى تعليمه

قال الله تعالى : « يَرْفَعُ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُم ، وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ » ، وقال: « نَرْفَعُ دَرَجَاتٍ مَنْ نَشَاء ، وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ » ، وقال : « وَمَا يَسْتَوِى الْأَحْيَاء وَلَا الْأَمْوَاتُ » . قيل : الأحياء ـ العلماء ، والأموات ـ الجهال . وقيل : الأحياء ـ المؤمنون . والأموات : الكفار . وقال النبى[1] (صلى الله عليه وسلم) : الناس موتى إلا العالمون ، والعالمون سكرى إلا العاملون ، والعاملون هلكى إلا المخلصون ، والمخلصون على خطر عظيم .

وقال (صلى الله عليه وسلم) : « يا ابن مسعود : أتدرى أى الناس أعلم ؟ قال : قلت : الله ورسوله أعلم . قال : أعلم الناس أبصرهم للحق ؛ إذا اختلف الناس ، وإن كان مقصرا فى العمل ». وقال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : « يبعث الله العباد يوم القيامة ثم يميز العلماء ؛ فيقول : يا معاشر العلماء : إنى لم أضع فيكم علمى لأعذبكم به ، انطلقوا فقد غفرت لكم » ، وقال : « إن العالِم يستغفر له من فى السموات والأرض ، والحيتان فى جوف الماء . وفضل العالِم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ؛ لأن العلماء ورثة الأنبياء ، ومصابيح الهدى ، وأمناء الله على وحيه ، ما لم يركنوا إلى الدنيا » .

---

(١) فى نسخة : العالمين والعاملين والمخلصين . م

وقال (ﷺ) : « من وقر عالماً فقد وقر ربه عز وجل » . وقال : « من إجلال الله تعالى إكرام ثلاثة : قارئ القرآن غير الغالى فيه ، ولا الجافى عنه ، والعالم ، وللشيبة المسلم » . وقال (ﷺ) : « ليس منا من لم يرحم صغيرنا ، ويوقر كبيرنا ، ولم يعرف الفضل لعلمائنا » ، وقيل : أراد زيد بن ثابت الركوب ، فأخذ عبد الله بن العباس بركاب زيد ، وقال : هكذا نفعل بعلمائنا ، وقيل : كان يحضر مجلس ابن عباس حبشى أسود ، وكان ابن عباس يجله ، ويرفع قدره ، ويصدره فى المجلس ؛ فقيل له فى ذلك : فقال : هذا رجل أكرمه الله بالعلم ، وقيل : لا يزال الناس بخير ما عظموا الأشراف ، وفضلوا العلماء ، وأجلوا الشيوخ . .

وروى ابن عباس عن النبى (ﷺ) : أنه قال : أقرب الناس درجة من درجة الأنبياء — أهل العلم ، وأهل الجهاد فى سبيل الله ، وقرأ الحسن قوله تعالى : « إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا » قال: هم العلماء زينة الأرض ، وقوله تعالى : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنْقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا » إن نقصان الأرض موت العلماء ، وقال : مثل العلماء فى الأرض مثل النجوم فى السماء ؛ يهتدى بها فى ظلمات البر والبحر ؛ فإذا طمست النجوم يوشك أن تضل الهداة ، وموت العالم ثلمة فى الإسلام ، لا تجبر ، وموت قبيلة أيسر من موت عالم ، وقيل : خير من العلم حامله ، وخير من الذهب باذله .

وروى عن النبى (ﷺ) : أنه قال : يشفع يوم القيامة ثلاثة : الأنبياء ، والعلماء ، والشهداء ، ويقول الله تعالى يوم القيامة للعابد : ادخل الجنة ، وللعالم : قم فاشفع فى الناس .

والله تعالى حبس على العلماء عقولهم ، وأفهامهم ؛ فلا يسلبها إلى الممات .

وقيل : تشاجر قوم فى مسجد البصرة – وهو مشحون برجال من العرب – فتراضوا بالحسن البصرى ؛ فتحاكموا إليه ، وازدحموا عليه ، فقال الأحنف : كاد العلماء يكونون أربابا ، وكل عز لم يوطد بعلم فإلى ذل مّا يصير .

وقال النبى (ﷺ) : « جالسوا العلماء ، وسائلوا الكبراء ، وخالطوا الحكماء » .

وقال بعض الحكماء . من صاحب العلماء وقر ، ومن صاحب السفهاء حقر.

واتباع العلماء واجب ، قال الله تعالى حاكيا عن خليله إبراهيم (عليه السلام) : « إِنِّى قَدْ جَاءَنِى مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ ، فَاتَّبِعْنِى أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا » .

وجعل الله العلماء حجة فى الأرض بينه وبين عباده ، وأمرهم أن يقبلوا قولهم ، ويهتدوا بهداهم ، فقال جل وعلا : « فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ »

وكان عبد الله بن مسعود (رضى الله عنه) يقول بأبى وأمى العلماء ؛ بروح الله انتفعتم ، وكتاب الله تلوتم ، ومساجد الله عمرتم ، ومن رحمة الله استكثرتم ، العلماء منار البلاد ، وغيث العباد .

وقيل : خمس من طبائع العلماء : لا يأسون على ما فاتهم ، ولا يحزنون على ما أصابهم ، ولا يرجون ما لا يجوز لهم فيه الرجاء ، ولا يشغلون عند الشدة ، ولا يبطرون عند الرخاء .

وقال النبى (ﷺ) : أتدرون ما قال جبريل (عليه السلام) ؟ قالوا : لا . قال : قال : « يا محمد لا تحقرن عبداً آتاه الله علما ؛ فإن الله لم يحقره حين علمه ،

إن الله جامع العلماء فى بقيع واحد ، وصعيد واحد ؛ فيقول الله عز وجل : يا عبادى : إنى ما استودعتكم علمى إلا لخير أردته بكم ؛ اشهدوا أنى غفرت لكم على ما كان منكم .

وقيل : الغرباء فى الأرض ثلاثة : مصحف معلق لا يقرأ فيه ، وقرآن فى قلب فاسق لا يعمل به ، ومسجد بين ظهرانى قوم لا يصلون فيه ، وعالم بين جهال لا يسألونه ، ويتلاعبون به . وفى الحديث : إن مثل العالم كالعين الخرّارة يستقى منها ولا تنزح .

فصل :

وقيل : العلماء ثلاثة : عالم لنفسه ولغيره ، وهو أفضلهم ، وعالم لنفسه فحسن ، وعالم لا لنفسه ولا لغيره ؛ فهو أشر القوم ، ويقال : عالم ربانى ، ومتعلم على سبيل النجاة ، وهمج رعاع أتباع كل ناعق ، يميلون مع كل ريح ؛ لم يستضيئوا بنور العلم ، ولم يلوا إلى ركن وثيق (الهمج هم أرذال الناس) ، وقيل : عالم بالله ، وبأمر الله ؛ وهو الذى يخشى الله ويعلم الحدود ، وعالم بالله ليس عالما بأمر الله ؛ وهو الذى يخشى الله ، ولا يعلم الحدود ؛ وعالم بأمر الله ليس عالما بالله ؛ فهو الذى يعلم الحدود ، ولا يخشى الله .

وقال معاذ بن جبل (رحمه الله) : سبعة من العلماء يصلون بأعمالهم النار : عالم يخزن علمه ، ويرى أنه إن حدّث به ؛ فقد ضيّعه ، ؛ وعالم يتخير له وجوه الناس ، وأشرافهم ، ولا يرى المساكين لعلمه أهلا . ؛ وعالم يأخذ فى علمه كمأخذ السلطان ، ويغضب إن قُصّر فى شىء من حقه ، أو يُرد عليه شىء من

قوله « وعالم يتخذ علمه مروءة وعفة » : وعالم إن وعظ عنّف ، وإن وُعِّظ أنف . ، وعالم ينصّب نفسه ، ويقول : استفتونى ؛ فيفتى بما لا يعلم ؛ فيكتب عند الله من المتكلفين ، وعالم يتعلم كلام اليهود والنصارى يغزّرُ به علمه ، ويكثر حديثه . نعوذ بالله من النار ، ومما يقرب إليها .

وقال الخليل : الرجال أربعة : رجل يعلم ويعلم أنه يعلم ؛ فذلك عالم فاسألوه ، ورجل : يعلم ولا يعلم أنه يعلم ؛ فذلك غافل فنبهوه ، ورجل : لا يعلم ويعلم أنه لا يعلم ؛ فذلك جاهل فعلموه ، ورجل : لا يعلم ، ولا يعلم أنه لا يعلم ؛ فذلك أحمق فاجتنبوه .

وقيل : من تعلم العلم ليباهى به العلماء ، أو يمارى به السفهاء ، أو يأكل به الأغنياء ، أو ليستخدم به الفقراء ، أو ليصرف به وجوه الناس إليه — فليتبوأ مقعده من النار ، وقال عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) : تعلموا العلم ، وتعلموا له السكينة والوقار ، ولا تكونوا من جبابرة العلماء ، فلا يقوم علمكم بجهلكم ، وقال ابن مسعود (رضى الله عنه) : كونوا ينابيع الحكمة حلس البيوت ، خلقان الثياب ، جدد القلوب ، تعرفون فى السماء ، تُخْفون فى الأرض .

ومن جامع ابن جعفر : فأغمضوا فى العلم أبصارا ، وازدادوا فيه تخشعا ووقارا . ولا تذهبنّ بكم فتنة الجبابرة ؛ فتخسروا فى الدنيا والآخرة ، وتواضعوا لمن تتعلمون منه ، واتخذوا الإسلام منهاجا وادخلوا فى دين الله أفواجا ؛ بالإعظام لله ، والتنزيه له ، والرد على أهل الضلال والتشبيه .

وينبغى للعالم أن يوفى العلم حقه بلزوم التقوى لله ، والعمل بعلمه ، ويروى عن النبى (ﷺ) أنه قال : إذا ظهرت البدع فعلى العالم أن يظهر علمه ، فإن لم يفعل فعليه لعنة الله ، ولعنة اللاعنين ؛ إلا أن يمنعه من ذلك تقية ؛ لا يقبل منه صرف ولا عدل (فالصرف : الفريضة ، والعدل : النافلة) .

قال جابر بن زيد (رحمه الله) فى قوله عز وجل « ثُمَّ لَنَنزِعَنَّ مِن كُلِّ شِيعَةٍ أَيُّهُمْ أَشَدُّ عَلَى الرَّحْمَٰنِ عِتِيًّا » قال : هم علماء السوء .

فصل :

ومن مواعظ عيسى (عليه السلام) : بحق أقول لكم : إن شر الناس عالم يطلب الدنيا بعلمه ، بحق أقول لكم : يامعشر العلماء لا تأخذوا للعلم ثمنا ؛ فإنكم إن فعلتم ذلك سبقتم الزناة إلى النار ، وقال حذيفة بن اليمانى : ويل لطالب الدنيا بالدين ؛ ومستحل الشبهة بالشهوة ، والمفرق بين الناس بالنميمة ، وجاء عن النبى (ﷺ) أنه قال : « من أكل بعلمه جاء يوم القيامة وليس فى وجهه مغرة[١] لحم ، وجاء عنه (ﷺ) أنه قال : « أشد الناس عذابا يوم القيامة عالم لم ينفعه الله بعلمه ، ولكن تعلموا العلم لوجه الله والدار الآخرة » وقيل : أوحى الله إلى داود (عليه السلام) يا داود : الويل كل الويل لعالم أسكره حب الدنيا عن سلوك طريق محبتى ، أولئك قطاع الطريق على عبادى المريدين لى ، إن أدنى ما أنا صانع بهم أن أنزع حلاوة مناجاتى من قلوبهم .

---

(١) كذا فى الأصل والصواب: مزعة .

وقال أبو معاوية فى سيرته بعد نسبة أئمة المؤمنين : نسأل الله تعالى اللحاق بهم ، والاتباع لهم ، والأخذ بسيرتهم ، وأن يجعلنا ممن يطلب العلم للعمل به ، ولا يطلبه للجدل ؛ فإنه أفضل الأعمال بعد أداء الفرائض لمن أراد الله هدايته ، وهو زين لمن يعلمه يريد به رضا الله ، فعلمه وعمل به ؛ فهو زين له فى دنياه ، ونجاة له فى عقباه ؛ ذلك للعاملين بما علمهم الله ، لم يتعلموا العلم لطلب رياسة ، ولا لسياسة ، ولا طلبوا به شرف المنازل ، ولا المطامع ، ولا للمآكل ، ولا يطلبون أن يكونوا به يكرمون ، ولا به إلى السلطان يتوصلون ، ويتقربون ، قد أكروه على الأدناس ، ولم يتقربوا به إلى الناس ؛ فأولئك زادهم الله علما ، وزادهم حلما وفهما ؛ فهم أولى بالعلم ممن أراد به تقربا إلى السلطان ، وأمكن من نفسه كيد الشيطان ، فسعى به إليهم ، وتوسل به عندهم ، وكان جمعه للعلم لهم ؛ فأولئك قد جعل الله لهم فى القلوب البغضة؛ وأولئك قد استحقوا من الله سخطه؛ فلا جعلنا الله كذلك ، ولا سبيل أولئك .

والرواية عن ابن عباس أنه قال : لو أن أهل العلم أخذوه بحقه لأحبهم الله وملائكته ، والصالحون من عباده ، ولهابهم الناس ، ولكن طلبوا الدنيا ؛ فمقتهم الله ، وهانوا على الناس، وقال ابن مسعود (رحمه الله) : لو أن أهل العلم وضعوه عند أهله لسادوا أهل زمانهم ، ولكن وضعوه عند أهل الدنيا لينالوا منهم ؛ فزهدوا فيهم؛ وقال وهب بن منبه: من طلب الدنيا لعمل الآخرة نكس الله قلبه ، وجعل اسمه فى أهل النار .

وقال النبي (ﷺ) إن للحكمة أهلا؛فإن منعتها أهلها كنت جاهلا ، وإن بذلتها لغير أهلها كنت جاهلا .

وتعليم الجاهل على العالم فرض ، وليس بتطوع ، وقيل : إن حفظ مسألة يعدل عبادة ستين سنة ، وقيل أكثر من ذلك ، وهى المسألة التى هى فرض على الإنسان مثل : التوحيد ، ومالا يسع جهله مما لا يعذره الله بجهله مما يكون به خلاصه من النار .

وقال أبو سعيد (رحمه الله) : ينبغى لطالب العلم والحكمة أن يذاكر كل شخص رآه ؛ فإن وجده أعلم منه فعند ذلك غنيمته ، وإما أن يكون هو أعلم من ذلك الشخص فذلك موضع ربحه، وإما أن يكونا سواء فذلك موضع تجارته؛ يعطى ويأخذ ؛ إذا صدقت نيته فى ذلك .

وقال الخليل بن أحمد : كن على مدارسة مافى قلبك أحرص منك على مافى كتبك ، واجعل ما فى كتبك رأس مالك ، وما فى قلبك النفقة ، وقيل:لا كنز أنفع من العلم ، ولا مال أربح من الحلم ، ولا حسب أرفع من الأدب .

وقال بعض البلغاء : من تفرد بالعلم لم توحشه خلوة ، ومن تسلى بالكتب لم تفته سلوة ، ومن آنسته قراءة القرآن لم توحشه مفارقة الإخوان .

فصل :

روى عن النبي (ﷺ) أنه قال: « استودعوا العلم الأحداث،إذا رضيتموه»، ومن آداب العلماء: النصح لمن علموا ، والرفق بهم ، فلا تعنفوا معلما ولا تحقروا

قاسيا متعلما ، ولا تستصغروا مبتدئا ؛ فقد روى عن النبي (ﷺ) أنه قال : « علموا ولا تعنفوا ؛ فإن المعلم خير من المعنف » ومن آدابهم ألا يمنعوا طالبا ، ولا ينفروا راغبا ، ولا يؤيسوا متعلما ، ولا متفهما ، قال النبي (ﷺ) : « ألا أنبئكم بالفقيه كل الفقيه ؟ قالوا : بلى يارسول الله . قال : من لم يقنط الناس من رحمة الله ، ولا يؤيسهم من روح الله .

وينبغى للعالم أن يكون أوسع الناس صدرا ، وأكثر صبرا ، وأجملهم لقاء ، وأحسنهم خلقا ؛ لأن المتعلمين منه والمتحملين عنه يأخذون خلائقه ، ويحتذون طرائقه ؛ ليكون لهم إلى أسنى الأفعال منهاجا ، ومن غى الضلال سراجا .

ويجب على العالم أن يوقر المتعلم ، كما يجب على المتعلم ذلك أيضا ؛ لما روى أن النبي (ﷺ) قال: وقروا من تتعلمون منه ، ووقروا من تعلمونه العلم .

وقال بعض الحكماء : من تعلم العلم بغير تكلف مؤنة ، واحتمال نصب فقد التمس مالا يجد ، وقيل : كثرة العلم بكثرة الأذى ؛ فمن ازداد علما ازداد نصبا .

وقال النبي (ﷺ) : العلم خزائن ومفاتيحها السؤال، فاسألوا ، يرحمكم الله ؛ فإنه يؤجر فيه أربعة : السائل ، والمسئول، والمتبع ، والمجيب لهم، وقيل : تكلموا فى العلم مالم ينزل الفخر والمراء ، فإذا نزل الفخر والمراء فكفوا عن الكلام ، وقيل : من سئل عن علم فكتمه – وهو يعلمه – جيء به يوم القيامة ملجما بلجام من النار ، وقيل : خرج النبي (ﷺ) على ناس من قومه، وهم يتذاكرون

العلم فيما بينهم ؛ فقال : « تعلموا ماشئتم أن تعلموا ؛ فلن تكونوا بالعلم عاملين حتى تعملوا به »[١] .

فصـــل :

ذكر جابر بن زيد رحمه الله أن النبى (ﷺ) قال : ويل لمن لايعلم مرة ، وويل لمن يعلم ثم لايعمل سبع مرات ، الجاهل لايعذر بجهله ، والعالم ملوم إن لم يعمل بعلمه ، العالم غير العاقل به مدحوض الحجة ، مبخوس النصيب ، وقيل : من علم بما علم كان حقا على الله أن يعلمه ما جهل، وقال مالك بن دينار : إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب ؛ كما يزل القطر عن الصفا. وقال عبد الله بن العباس : تذاكروا هذا الحديث لاينفلت منكم ؛ فإنه ليس بمنزلة القرآن المجموع؛ فإنكم إن لم تذاكروه انفلت منكم ، ولا يقولن أحدكم : حدثت أمس فلا أحدث اليوم ؛ بل أحدث أمس ، وأحدث اليوم وغدا ، وقال : علم علمك ، وتعلم علم غيرك ، وقال رسول[٢] الله (ﷺ) : « نضّر الله عبداً سمع منا حديثا فحفظه حتى يبلغه غيره ، ورب صاحب فقه ليس بفقيه ، ورب حامل فقه إلى من هو أفقه منه » .

---

(١) رواه جابر بن زيد مرسلا . ورواه ابن عدى والخطيب عن معاذ ، وابن عساكر عن أبى الدرداء ، وفى رواية أبى الحسن فى أماليه بلفظ: تعلموا من العلم ماشئتم،فوالله لا تؤجر و[ن] بجمع العلم حتى تعملوا . م .

(٢) روى معناه الترمذى ، والضياء عن زيد بن ثابت ، ورواه أيضا أحمد والترمذى ، وابن حيان عن ابن مسعود بلفظ نضر ، وروى أبو داود الترمذى ، وابن ماجه « نضر الله أمرا سمع حديثا منى » .

فصــل :

قيل : لايدرك العلم من لايطيل درسه ، ولا يكد نفسه ؛ ولا يصبر عليه إلا من يرى العلم مغنما ، والجهالة مغرما ، وربما استثقل المتعلم كثرة الدرس والحفظ ، واتكل على الرجوع إلى الكتب ، فهو كمن أطلق ما صاده ثقة بالقدرة عليه ؛ فأعقبته الثقة خجلا وندما ، والعرب تقول : حرف فى قلبك خير من ألف فى كتبك ، وقال النبى (ﷺ): « مذاكرة العلم ساعة أحب إلى الله من عبادة عشرة آلاف سنة .

وقال أبو محمد رحمه الله : هذا علم لايدركه إلا من أسهر ليله بالتلاوة ، واشتغل نهاره بالبحث عنه ؛ حتى يحفظ لفظ الروايات ، ويعرف المحكمات من المتشابهات ، والناسخات من المنسوخات .

فأما من نبذ القرآن وراء ظهره ، وقطع بالبطالة أيام عمره ثم لم يتعرض للخوض فيها ، وهو لايقف على معانيه لم يكن له عدو أعدى من لسانه ، ولا ناصح أعدل من شانه .

فرحم الله من اقتدى بفرائض الله ، وسنة نبيه ﷺ ، وجعل العلم دثاره وشعاره ، وأخذ نفسه بالتعليم ، وجعل الفقه همه ، واقتدى بأشياخه السالفين ، واتبع آثارهم ، واهتدى بمن أدرك منهم ، وأجاد الاستماع عنهم ، وصدق الرواية عنهم ، ونصح لله جل اسمه ، وأحب لله ولرسوله ، وأبغض لهما ، وراح متعلما ، أو عالما ، أو مستمعا ، واهتدى بقول النبى ﷺ وأخذ به .

وقال أبو الدرداء : إن أخوف ما أخاف : أن يقال لى : علمت فما عملت فيما علمت .

فصـــل :

روى عن عيسى (عليه السلام) أنه قال : يا صاحب العلم ؛ إنه لايجتمع الماء والنار فى إناء واحد ، كذلك لايجتمع العلم والدنيا فى قلب واحد ، ثم قال : بحق أقول لكم : لا تريدون الدنيا ، ولا الآخرة ؛ لو كنتم تريدون الآخرة لأكرمتم العلم الذى به تدركون الدنيا؛لا أنتم عبيد أتقياء ، ولا أحرار كرام .

وقال الأعمش : إذا رأيتم الفقيه يأتى باب السلطان ؛ فاعلموا أنه لص .

وقال (ﷺ) : « هلاك[1] أمتى من رجلين : عالم فاجر ،وجاهل متعبد »، وقال : « أشر الناس العلماء ؛ إذا فسدوا » ، ويقال : زلة العالم لا تقال ، ولا تستقال ، وقيل : زلة العالم كالسفينة تغرق ، ويغرق فيها خلق كثير ، وقيل لعيسى (عليه السلام) : من أشد الناس فتنة ؟ قال : زلة العالم ؛ إذ زلّ زل بزلته خلق كثير .

وقال[2] النبى (ﷺ) : « من ازداد علما ؛ فلم يزدد هدى لم يزدد من الله إلا بعداً » ..

وقال عمر (رضى الله عنه) : خير العلم مادخل معك قبرك،وشر العلم ماخلفته ميراثا ، قيل له : وما ذاك يا أمير المؤمنين ؟ قال : ما عملت به دخل معك قبرك ثوابه ؛ وإذا لم تعمل خلفته ميراثا عليك لا لك .

---

(١) رواه الغزالى .

(٢) رواه فى مسند الفردوس عن على .

وروى[1] عن النبي (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : «العلماء أمناء الله فى أرضه على عباده وبلاده ودينه ؛ ما لم يدخلوا فى الدنيا ، ويخالطوا السلطان ؛ فإذا فعلوا ذلك ، فقد خانوا الله ورسوله ، فاحذروهم واتهموهم على دينكم» وقال (صلى الله عليه وسلم) : «لا تزال هذه الأمة فى يد الله ، وتحت كنفه ؛ ما لم يمل قراؤها لأمرائها ، ولم تذل صلحاؤها لفجارها ، وما أخذ خيارها على يد أشرارها ؛ فإذا لم يفعلوا ذلك — رفع الله يده عنهم ، ثم سلط عليهم جبابرتهم ؛ فساموهم سوء العذاب ، وضربهم بالفاقة ، والفقر ، وملأ قلوبهم رعبا » .

وقيل : إذا ترك العالم العمل نودى يا هـذا : تركت الطريق . وقيل : أوحى الله إلى داود (عليه السلام) ، لا تجعل بينى وبينك عالماً محبًّا للدنيا ؛ فيصدك عن طريق محبتى ، أولئك قطاع الطريق على عبادى ، إن أدنى ما أنا صانع بهم : أن أنزع حلاوة مناجاتى من قلوبهم .

وقال[2] معاذ بن جبل (رحمه الله) : كنت أطوف مع النبي (صلى الله عليه وسلم) بالبيت ؛ فقلت : يا رسول الله — صلى الله عليك — من أشد الناس عذاباً ؟ ، فأعرض عنى ، ثم سألته ، فأعرض عنى ، ثم سألته ؛ فقال : « من يرى الناس فيه خيرا ، ولا خير فيه » ، وفى موضع[3] آخر أنه شرار العلماء ، فقال كعب : هم أرباب

---

(١) الحسن بن سفيان ، والعقيلى عن أنس .

(٢) رواه فى مسند الفردوس عن ابن عمر .

(٣) روى الطيالسى فى الصغير ، وابن عدى والبيهقى عن أبى هريرة ولفظه : «أشد الناس عذابا يوم القيامة : عالم لم ينفعه علمه » .

العلوم الذين لا يعملون بها، وقال : يُذهِب العلم من قلوب العلماء بعد إذ وعوه ـ الطمع ، والشره ، وطلب الحوائج إلى الناس .

وقال ابن مسعود (رحمه الله) : كان أهل العلم فيما مضى يضنون على أهل الدنيا بعلمهم ؛ فيبذل أهل الدنيا دماءهم، وأموالهم للعلماء ؛ فلما بذل العلماء علمهم لأهل الدنيا ضن أهل الدنيا بدنياهم ، وقيل : لا ينتفع عالم بعلمه حتى يعمل به ، وقيل،قال الخضر (عليه السلام) لموسى (عليه السلام) : تعلم العلم ؛ لتعمل به ، ولا تعلمه لتحدث به الناس ؛ فيكون لغيرك نوره ، وعليك بوره (أى وزره). وقيل : لا خير فى عبادة ليس فيها تفقه ، ولا علم ليس فيه تفهم ، ولا قراءة ليس فيها تدبر . وقيل : الفقيه بلا ورع كالسراج فى البيت ؛ يضىء للناس ، ويحرق نفسه .

وحدث رسول الله (ﷺ) أصحابه بذهاب العلم ؛ فقالوا : يا رسول الله ، لا ندرى كيف يذهب العلم ؟ ونحن نقرأ القرآن ، ويقرؤه آباؤنا ، وأبناؤنا ، وأبناؤنا يقرئونه أبناءهم ؟ فقال (ﷺ) : أوليس هؤلاء اليهود والنصارى يقرأون التوراة والإنجيل لا ينتفعون بما فيهما لشىء ؟ .

وقال أبو الحسن (رحمه الله) : من طلب العلم لله لم يجز منه باباً ؛ إلا زاد فى نفسه تواضعاً وذلًا ولله خوفاً، وفى الدين اجتهاداً ورغبة ، ومن طلبه للدنيا، والحظوة عند الناس ؛ لم يجز منه باباً إلا زاد فى نفسه تكبراً ، وعن طاعة الله توانيا ، وعلى العباد استطالة ؛ فليمسك عن هذا ، وليذكر حجة الله عليه .

والقول فى العلم والعلماء – أكثر من هذا ؛ ولكن العلم فى زماننا هذا قد عفت آثاره ، ودرست سبله ، ولم يبق منه إلا الاسم ، وبقايا كبقايا الرسم ، وصار أعلم أهل زماننا ينسب نفسه إلى جملة المقصرين ، ولا يعد نفسه إلى عداد المبصرين ، والجاهل نرى أنه أعرف العارفين ، وأعلم من العلماء السالفين ، لجهلهم أنفسهم رغبوا عن امتثال أمر ربهم ، ولم يعرفوا الجهل من العلم ، ولا الجاهل من العالم ، وأقبلوا على جمع الأموال من حرام وحلال ؛ كأنهم بذلك تعبدوا ، وإليه ندبوا ، وأعرضوا عما جاء به القرآن ، وضمن لهم به الرحمن ، فصار العلم أغرب الغرباء ، وأهل الفضل مع أهل زماننا فى أشد الازدراء ؛ فالله تعالى المستعان ، ولا حول ولا قوة إلا بالله ، عليه توكلنا ، وإليه أنبنا ، وإليه المصير ؛ نعم المولى ، ونعم النصير .

فصل :

فإذا صار الإنسان بحد من يعقل ؛ فينبغى له أولا : أن يتعلم الطهارة ، لمخالطة الطاهرين من البالغين ؛ فإذا عقلها ، وعقل الاعتقاد لها ؛ فينبغى لأبويه أو لمن يقوم بتربيته – أن يدفعه إلى المعلم ليتعلم فى صغره الحروف ، ونسقها ، ونسق كتابتها ، ومعرفة ما ينقط منها ، معرفة إعراب الكلام من : فتح ، وكسر ، وضم ، وتسكين ، ومعرفة المنون من غير المنون من الحروف .

ثم معرفة الأيام ونسقها ، وهى : سبع : الأحد ، والاثنين ، والثلاثاء ، والأربعاء ، والخميس ، والجمعة ، والسبت .

ثم يتعلم عدد الشهور القمرية : محرم ، وصفر ، وربيع الأول ، ربيع الآخر ، جمادى الأولى ، جمادى الآخرة ، رجب ، شعبان ، رمضان ، شوال ، ذو القعدة ، ذو الحجة .

ثم يتعلم : الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ ، مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ ، إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ ، اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ ، صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ غَيْرِ الْمَغْضُوبِ عَلَيْهِمْ ، وَلَا الضَّالِّينَ . فإذا حفظ الحمد تلاوة ، وكتابة فليتعلم القرآن فى الصغر ، والكتابة ؛ لينشأ على حب التعليم ؛ إذا لازمه فى الصغر ، وآلفه صغيرا ؛ تمكن فى قلبه ، ولم يسبقه إليه شىء من أشغال الدنيا ، وهمومها ، وصار حبه له طبعا لا تطبعا ؛ إن وفقه الله لذلك .

وإن لم يتيسر له تعليم القرآن كله ، وإلا تعلم ما تيسر من السور التى لابد منها ، ليقرأها فى الصلاة ، وهذا كله قبل أن يبلغ الحلم ؛ لأن العبد ؛ إذا استعبد لما يعنيه قبل أن يغنيه — لم يفتة شىء من الواجبات .

وهذا ينبغى أن يكون من القوام بتربية الصبيان ؛ لأن الصبى فى الصغر طبعه النفور عن الذى ينفعه فى غالب الأحوال ، ويميل طبعه إلى مايضره ؛ فإذا قارب بلوغ الحلم فينبغى أن يتعلم الغسل من الجنابة ، وقلم الأظفار ، وحلق العانة ؛ ليرى عليه زى المسلمين ، وعلامات أهل الإسلام ، ويكون لباسه لباس أهل الصلاح ، لينشأ على ذلك .

فإذا بلغ الحلم ، ودعته نفسه إلى التزويج ؛ فليتزوج ؛ فإن تزوج ثيبا ، فهى تخبره وتعلمه كيف يأتى منها موضع ما أحل الله له منها ؛ إن كانت المرأة ممن تعرف ذلك ، وتدين بدين الإسلام ، وإن كانت بكرا علمه أهله ، أنه لا يحل له منها إلا القبل ، ولا يحل له وطؤها ؛ إذا أتاها الحيض ، حتى تطهر ، وتغتسل من الحيض بالماء عند وجوده ، وبالتراب عند عدمه .

ويتعلم الوضوء ، والصلاة ، وأوقات الصلاة المفترضات ـ قبل بلوغه ، ويصوم شهر رمضان قبل أن يبلغ ؛ إذا أطاق ذلك ؛ لئلا يفجأه البلوغ فى شهر رمضان ، وقد فاته منه شىء ؛ فيفوته عمل شىء من الفرائض .

ثم يأخذ فى تعلم العلم . أولا : فى معرفة نفسه ، وأنه عبد لله مملوك لله تعالى ؛ لا يملك لنفسه نفعا ولا ضرا ، ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ، وأن الله تعالى عالم بسره وجهره ، وعلمه محيط بخطراته ولحظاته ، وسكونه وحركاته ، وأن الله تعالى : واحد أحد ، فرد صمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ، لا إله إلا هو عالم الغيب ، والشهادة ، ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ، وينفى عن الله جميع صفات المخلوقين .

فإذا عرف هذا نظر بعين الاعتبار ؛ أنه مملوك لمالك ، وأن المالك غنى عن المملوك ، ولكن لم يخلقه عبثا ، وإنما خلقه ليطيعه ، ويوحده ، ويعبده ، ويتبع لأمره ، وينزجر لزجره ؛ فإذا فهم هذا ، وفكر فى نفسه ؛ علم أن ربه وسيده حكيم عليم قادر على كل شىء ؛ لم يكلفه فوق طاقته ، ولا يلزمه من خدمته ما لم يقم به ، وبمعرفته ، ولا يتوصل إلى معرفة ذلك إلا بواسطة بينه وبين ربه ،

فيسأل عن ذلك من يعبر له الحجة ، فتقوم له الحجة بما يسمع من أهل زمانه ؛ فيجد الحجة بالواسطة بينه وبين الله ؛ وهو : النبي المرسل من رب العالمين محمد ابن عبد الله بن عبد المطلب (ﷺ) وعلى آله الطيبين الطاهرين ، وسلم عليه وعليهم أجمعين .

فإن لم يتحقق فى نفسه صحة ثبوته ، ولم يتضح له الأمر فى ذلك بالسماع من أهل زمانه ؛ فيجد الحجة القاطعة لكل حجة دالة على صحة ثبوته ، كتاب الله المجيد الذى «لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ ، تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ» ؛ فإنه الشفاء من كل داء ، والضياء من كل ظلمة ، والهادى من كل ضلالة ، والدليل من كل حيرة ، من تركه ندم ، ومن لزمه وعمل به سلم .

فإذا تعلم منه أحد ، وتعلمه فى صغره أغناه فى كبره ، ونظر فى دين الإسلام ، وتمكن من قلبه الإيمان ، واحترز به من مكائد الشيطان ؛ وذلك بفضل الله يؤتيه من يشاء من عباده ، والله ذو الفضل العظيم .

فإذا عرف هذا فعليه الاعتقاد بالقلب ، واللفظ ، واللسان ، والعزيمة على الجوارح ، وأن يشهد أن لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأن محمداً (ﷺ) عبده ، ونبيه ، ورسوله إلى كافة العالمين ؛ من الجن والإنس أجمعين ، كما وجد ذلك فى كتاب الله تعالى ، وقامت عليه الحجة من أهل زمانه ، بما يسمع من قولهم ، ويرى من فعلهم .

ويعتقد أن ما جاء به محمد النبى (ﷺ) عن الله تعالى ؛ فهو الحق المبين ،

من وعد ووعيد ، وجنة ونار ، وحساب وعقاب ، وأن وعد الله حق ، وأن الساعة آتية لا ريب فيها ، وأن الله يبعث من فى القبور ، وأن نعيم أهل الجنة لا يبيد ولا يفنى ولا يبلى ، وأن عذاب أهل النار إلى غير غاية ولا انقضاء ، ولا إلى أجل ولا انتهاء ، وأن من عمل بطاعة الله ، وتجنب معاصيه فله من الله الرضا ، ورضاء الله الجنة ، وأن من عمل بمعاصى الله تعالى ، ولم يجتنب ماحرم الله ومات غير تائب من ذلك إلى الله — فله من الله السخط وهو النار .

وعليه أن يعتقد الإيمان بالله ، وملائكته وكتبه ، ورسله ، وأنبيائه ، من عرفه منهم ، و [من] لم يعرفه ، سمع به أو لم يسمع به ، وأن جميع أولياء الله تعالى — من الأولين والآخرين — أولياؤه ، وجميع أعداء الله — من الأولين والآخرين — أعداؤه ، وأن إبليس (لعنه الله وأخزاه) ، وجنوده وأولياؤه ، ومن أطاعه ، وأصر على المعصية كإصراره — هو عدو الله ، وملائكته ورسله ، وجميع أوليائه من الأولين والآخرين إلى يوم الدين — هم أعداؤه .

وأن آدم النبى (ﷺ) ، وجميع الأنبياء ، والمرسلين ، وجميع التائبين المؤمنين من الأولين والآخرين إلى يوم الدين — هم أولياؤه .

فإذا عرف هذا واعتقد ، فينبغى له أن يأخذ فى تعلم فنون العلم ، ويأخذ من كل فن من فنون العلم ما يحتاج إليه ، فيتعلم من فرائض المواريث ، ومعرفة من يرث ومن لا يرث ، وكيف القسم بين الورثة ، ويتعلم لذلك معرفة الحساب ، والضرب ؛ لئلا يلتبس عليه قسم ، ولا يأكل مالا حراما بخطأ ولا عمد ولا جهالة فى ذلك ، وربما حصل مع قوم لا علم لهم بذلك ؛ فيأكلون الحرام ، وهو بين

ظهرانيهم ؛ فلا يعذر هو ولا هم بأكل الحرام ، والدخول فيما لا يحل ، وقد قال النبي (ﷺ) : « تعلموا[1] فرائض المواريث ، فإنه من دينكم » .

ولا بد له من تعليم شيء من النحو لإصلاح المنطق ، وفهم تمييز معنى الكلام ، وألفاظ القرآن الكريم ، ومعرفة لغة العرب ؛ لأنه لا تحصل فائدة المعاني من غير معرفة الكلام ؛ لأن القرآن العظيم نزل بلغة العرب .

وأما من لا يعرف لغة العرب ؛ فلا يتوصل إلى معاني القرآن ، وأما العلوم المبسوطة غير القرآن ؛ فكل أهل لغة يعرفون علومهم بلغتهم ، ويفهمون على معاني كلامهم .

وإن تيسر له فهم الشعر ؛ فينبغي له أولا ألا يتعرى منه ؛ لأنه دليل على فهم المعاني ، وصحيح اللغة ، واستخراج المعاني الجليلة والمناقب العالية .

وينبغي له أن يتعلم من علم الحلال والحرام ما يحجره عن الدخول في الآثام أو شيء من الشبهات بجهل منه ؛ لأن الجاهل لا يعذر بجهله فيما يرتكبه مما لا يحل له ارتكابه من قول أو عمل ، أو نية .

وينبغي له ألا يخلو نفسه من معرفة من يحل له تزويجه من النساء ؛ لئلا يرتكب فرجا حراما بجهل منه من سبب نسب ، أو رضاع ، أو من قبل ما نكح آباؤه أو تسرًّ من الإماء ، ويتعلم من أمر الحيض والنفاس ما يجتنب به مالا يحل من نسائه ، أو إمائه في حين ذلك .

---

(١) الحديث رواه ابن ماجه ، والحاكم وفيه زيادة ونقص .

وينبغى له أن يتعلم ما يحل من البيوع ، وما يحرم منها ؛ لئلا يتناول شيئا من البيوع التى نهى الله ورسوله عنها ، فيقع فيما لا يحل من حيث لا يدرى ، وهو غير معذور فى جهله بذلك .

وينبغى له ألا يغفل نفسه من تعلم الطلاق ، والعتاق ، وأبواب ذلك : كالظهار ، والخلع ، والإيلاء ، وأشباه ذلك ؛ لئلا يركب فرجا حراما بجهل فى ذلك ، ويتولد من علم ذلك الاحتراز من أمور كثيرة ؛ كوجوب الصدقات والمواريث ، والعدد ، وأشباه ذلك .

وينبغى له أن يتعلم شيئا من الطب ، لما ينوب الإنسان من العلل التى تحدث به ، لأن الإنسان محل الحوادث ، والدواء مندوب إليه لما روى أن النبى ﷺ احتجم وتداوى ، ويأمر أصحابه بذلك ، وقال[1] : « تداووا ؛ فإن الذى أنزل الداء أنزل الدواء » ، وكثير من الأخبار تدل على التداوى من العلل ، وقيل : إن الأديان لا تستقيم إلا بصحة الأبدان ، وهذا معلوم ؛ أن اللوازم كلها من الفرائض والسنن ، لا تؤدى بكمالها إلا بكمال الآلة كلها ، ولا يكمل ذلك إلا بكمال الصحة ، والصحة وسيلة لأمور كثيرة من أمور الدنيا والآخرة عن وفق للعمل الصالح ، واستعمال الجوارح فيما أمر الله تعالى باستعمالها فيه .

وأن يتعلم من تعبير الأحلام ، وما يفهم به التيسير ، والتحذير ، ليكون

---

(١) رواه الحاكم وأحمد ، وابن حبان عن أسامة بن شريك م .

من أمره على بال ؛ فكثير من الناس سبب نجاته بالرؤيا الصادقة ، رأى رؤيا تدل على موته ، فأخذ من الأهبة من قضاء دينه ، والتخلص من تبايعه ، وأحكم وصاياه ، وبر من عتب عليه من أرحامه ، وجيرانه وتاب مما سلف منه من المعاصى ، واجتهد فى إصلاح العمل فيما بقى من عمره ؛ فتكون خاتمته حسنة ، وكذلك ينفعه لكثير من أمور الدنيا .

والعلوم كثيرة الضروب إلا أن من شأننا الاختصار فى هذا الكتاب .

فصـــل :

يروى عن محمد بن محبوب (رحمه الله) أنه قال : كان سليمان بن عبد العزيز إمام حضرموت من الأئمة الكبار ، وكان يعيب على أهل عمان ثلاثا [١] : قتل الصقر بن محمد الجلندائى ، ويقول : إن كان دمه قد حل عندهم فيقدمونه ويقتلونه صبراً ، ويعيب عليهم : أن الإمام ؛ إذا ولى الأمر عمد إلى بنى عمه ، وأهل بيته فولاهم ، وينبغى له أن يولى أفاضل المسلمين ، ويعيب عليهم الشراب لأنهم يحلون النبيذ [٢] وأهل خراسان يحلونه ، وقال أبو محمد (رحمه الله) : ترك القائمون بعمان ثلاثة أشياء : الوزارة ينبغى للإمام أن يكون معه وزراء

---

(١) الصقر بن محمد قتل فى زمان الإمام غسان عام ٢٠٧ هجرية على يد عسكر الإمام بين سمائل ونزوى بسبب تهمة لم تحقق ، وهى خروج أخيه ضد الإمام ولم يكن قتله بأمر الإمام ، ولا أنكر على القاتلين .

(٢) النبيذ على نوعين : خليط وغير خليط أما الخليط فقد اختلف العلماء فى تحليله وذلك إذا كان من زبيب وتمر ، فقال أبو عبيدة بتحليله مالم يشتد ، وقال غيره بتحريمه وقوفا مع الحديث الناهى عن الخليطين ، وأما غير الخليط فهو حلال متفق عليه ثم اختلفوا فى النبيذ إذا اشتد سواء كان خليطا أو غير خليط هل يحل إذا كسرت حدته ؟ أولا يحل ؟ قولان . اهـ محقق.

مؤتمنون ثقاة يشيرون عليه بالأمر ؛ فقد ترك ذلك . والخطبة : لا ينبغى أن يخطب الناس إلا رجل ثقة يؤمنون على دعائه .. والتعديل : قد صار وراثة لا ينظرون له أهل الفضل والورع ..

وقيل : إن المختار لما ظهر على المدينة ؛ دخل على قبر رسول الله (ﷺ) وسلم عليه ، وعلى صاحبيه ، وشكا إليه ما يفعله [أهل] هذه الأمة من بعده والله أعلم ، وبالله التوفيق .



القول الرابع

فى العقل ، والعاقل ، والقلب والفؤاد ومعرفة ذلك

وقيل : إن أفضل ما أنعم الله به على العبد ـ العقل ، لأنه يعرف به الحسن من القبيح ، ويحب به الحمد والذم ، ويلزمه به التكليف ؛ لأن الله تعالى إنما خاطب العقلاء لما يعقلون .

ومن لم يكن به عقل سقط عنه التكليف بإجماع الأمة ؛ قال الله تعالى : « فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ » ، وقال : « إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَذِكْرَىٰ لِمَن كَانَ لَهُ قَلْبٌ » أى : عقل ، ومن حرم العقل ؛ فقد حرم [العلم] ، والعقل هو العلم ، والعلم هو العقل ؛ لأن من علم شيئاً عقله ، وقال النبى (ﷺ) : « لكل شىء[1] دعامة ؛ وآلة ؛ وآلة المؤمن ، ودعامته العقل ، والعقل أول حجة لله على العبد .

واسم العقل مشتق من عقال البعير ؛ لئلا ينفر ، وكذلك العقل : يمنع الإنسان ، ويعقله عن شهواته ؛ كما يمنع العقال البعير عن الشرود .

فصل :

روى عن النبى (ﷺ) [أنه] قال : « العقل نور فى القلب يميز به

---

(١) رواه أبو داود ، ولم يذكر الآلة ، ورواه داود بن أبى أسامة وزاد فيه : وبقدر عقله تكون عبادته . عن أبى سعيد الخدرى : الحديث الثالث الآتى .

بين الحق ، والباطل » ، وقال : « ما اكتسب[1] الإنسان مثل عقل يهديه إلى هدى ، أو يرده عن الردى » ، وقال : « بقدر عقل المرء تكون عبادته لربه » ، قال الله تعالى حاكياً عن الجهال : « وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ؛ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا ؛ وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا؛ وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا : أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ » .

فصل :

ولكل شيء آفة ، وآفة العقل الهوى ، وسمى الهواء هواء ؛ لأنه يهوى بصاحبه ، وقيل : اسم الهوى مشتق من الهوان .

وقيل لبعض الحكماء : من أشجع الناس ، وأولاهم بالظفر؟ قال : من جاهد الهوى طاعة لربه ، واحترز من ورود خواطر الهوى على قلبه ، وقال بعضهم : أشجع الناس من غلب هواه ، وأمات شهوته ، وأطاع ربه ، وأحيا مروءته .

وقال بعض العلماء : خلق الله الملائكة من عقل بلا شهوة ، وخلق البهائم من شهوة بلا عقل ، وخلق ابن آدم من كليهما ؛ فمن غلب عقله شهوته فهو خير من الملائكة ، ومن غلبت شهوته عقله فهو شر من البهائم .

---

(١) الحديث رواه الطبرانى فى الأوسط بعبارة مختلفة ونصه : « ما اكتسب مكتسب ، مثل فضل علم يهدى صاحبه إلى هدى ، أو يرده عن ردى ، ولا استقام دينه حتى يستقيم عقله اهـ والحديث الذى بالأصل رواه الحارث بن أبى أسامة ، عن داود بن المحبر ، ورواه الطبرانى عن عمر ولفظه : ما اكتسب المرء مثل عقل . الخ .

وشرح ذلك: أن الله تعالى خلق الخلق أربعة أصناف : ملائكة، وآدميين وشياطين، وبهائم ؛ فأما الملائكة فعقول بلا شهوة تقارنها ، وأما البهائم فشهوة بلا عقول ، وأما الشياطين والجن فركبت فيهم العقول ، والشهوات ، والهوى ؛ كما ركبت فى بنى آدم ؛ فغلبت شهوات الشياطين على عقولهم ؛ فقطعوا أوقاتهم بالأخلاق الذميمة[1] : كالكبر والعجب والفخر والحسد ، والأذى والأفعال المهلكة ؛ وأما البهائم فقضت أوقاتها بشهوات البطون ، والفروج ؛ وأما الآدميون : ففيهم العقول ، وأخلاق الشياطين ، وشهوات البهائم ؛ فمن غلب عقله منهم على هواه فكأنه من عالم الملائكة ، والأنبياء ، والرسل والأولياء ، والأصفياء ، وقليل ماهم ، ومن غلب هواه ، وشهوته على عقله ، ولم يخرج من الحلال ، والمباحات من المطاعم والملابس والمراكب ، والمنكوحات إلى شىء من المحرمات ؛ فهو من عالم البهائم ؛ لأن البهائم لا تكليف عليهن ، وهذا من جملة المكلفين .

وإن كان الغالب عليه أخلاق الشياطين من الكبر ، والحسد ، والعجب وسائر الأخلاق المذمومة ؛ فهذا من عالم الشياطين؛ فمن اجتمع فيه من الآدميين: الشهوة ، واتباع الهوى ، والأخلاق المذمومة ؛ فيكون شيطانا فى صورة آدمى فى أخلاق بهيمة لا يصلح لصحبة ، ولا قرب من مؤمن .

فهذا شرح ما ذكروا ، والله تعالى أعلم .

وروى أن النبى (ﷺ) قال : العاقل من غلب شهوته ، وصدق رسول الله (ﷺ) .

(١) فى المذموقة .

وأقول إن العبد لا يقدر أن يجلب لنفسه نفعا ، ولا يدفع عنها ضرًّا ؛ فمن سبق له من الله السعادة جعل له عقلا مبصراً ؛ يقوده إلى ما فيه نفعه ، ويمنعه مما فيه ضرره بتوفيق الله تعالى ، وتأييده ، وإرشاده له ، وتسديده ؛ فالخير كله من عند الله ، ولا يصرف الشر إلا الله،وهو القادر على كل شيء ، وهو بعباده خبير بصير .

فصل :

روى أن النبي (ﷺ) قال: « العقل عقلان ؛ فعقل صاحب الدنيا عقيم ؛ وأما عقل صاحب الآخرة فمثمر » ، وقال[1] (ﷺ) : « من أعطى ثلاث خصال فقد كمل عقله ، وهي : المعرفة بالله ، وحسن الطاعة لله ، والصبر على بلاء الله » .

وقال : « إن لله عباداً اختصهم من جميع خلقه؛ يسكنهم رفيع الدرجات[2] لأنهم كانوا فى الدنيا أعقل الناس ؛ كانت همتهم المسابقة إلى طاعة الله ، وهانت عليهم الدنيا وزينتها» ، وقال (ﷺ) : « لا فقر أشد من الجهل ، ولا مال أعود من العقل ، ولا عبادة كالتفكر » .

وقال (ﷺ) لأبى الدرداء : « يا عويمر ازدد عقلا تزدد من الناس حبًّا ، ومن ربك قربا ، وقال : بأبى وأمى من لى بالعقل ؟ قال : اجتنب محارم الله ، وأدّ فرائض الله تكن عاقلا » .

(١) رواه دواد بن المحبر عن أبى سعيد بألفاظ مختلفة .
(٢) خ : رفيع الجنان .

وقيل[١] : إن الله عز وجل لما خلق العقل قال له : أقبل فأقبل ، ثم قال له : أدبر فأدبر ؛ فقال: وعزتى وجلالى ؛ ما خلقت خلقاً أحب إلىّ منك؛ بك آخذ، وبك أعطى ، ولك الثواب ، وعليك العقاب .

وقيل : أتى جبرائيل آدم (عليهما السلام) ، فقال له : إنى أتيتك بثلاث خصال ، فاختر منهن واحدة ؛ فقال آدم (عليه السلام) : وما هن ؟ فقال له جبرائيل (عليه السلام) : العقل ، والحلم ، والإيمان ، فقال آدم (عليه السلام): قد اخترت العقل ، فقال جبرائيل (عليه السلام) للحلم ، والإيمان : انصرفا ؛ فقد اختار عليكما العقل ، فقالا : أمرنا أن نكون مع العقل حيث كان .

وقال وهب بن منبه : قرأت اثنين وسبعين كتابا ؛ فوجدت فى جميعها ــ أن الله تبارك وتعالى لم يعط جميع الناس من بدء الدنيا إلى انقضائها من العقل فى جنب عقل رسول الله (ﷺ) ؛ إلا كحبة رمل بين رمال ، وأن محمداً نبينا (ﷺ) أرجح الناس عقلا ، وأفضلهم رأيا ، وكان يقول (ﷺ) : «أمرنى ربى أن أكلم الناس على قدر عقولهم» ، ورأس العقل بعد الإيمان بالله ــ التودد إلى الناس .

وقال بعض العجم : أفضل ما يؤتى المرء عقل يولد معه ، قال : فإن عدم العقل ؛ فأدب يعيش به ، وإن حرم الأدب فمال يستر به عورته ، وإن حرم المال فجائحة لا تبقى له نسلا .

---

(١) قال العراقى فى شرح الإحيا: روى من حديث أبى أمامة ، عائشة ، وأبى هريرة، وابن عباس م .

وقال أنو شروان لبزرجمهر : أى الأشياء خير للمرء ؟ قال : عقل يعيش به ، قال : فإن لم يكن له عقل ؟ قال : فإخوان يسترون عورته ، قال : فإن لم يكن ؟ قال : فمال يتحبب به إلى الناس ، قال : فإن لم يكن ؟ قال : فعىٌّ صامت ، قال : فإن لم يكن ؟ قال : فموت جارف .

وقال النبى (ﷺ) : « أفضل الناس أعقل الناس » ، وقال : « سيد الناس أعقلهم » ، وقال : « لكل شىء معدن ، ومعادن التقوى قلوب العاقلين » ، وقال : « لو صور العقل لأظلمت معه الشمس ؛ ولو صور الجهل لأضاء معه الليل » .

وقيل : إذا تم العقل نقص الكلام ، وقيل : كل شىء إذا كثر رخص إلا العقل ؛ فإنه إذا كثر غلا ، وقيل : إن عقول كل أمة على قدر زمانهم ، وعن النبى (ﷺ) : ما انتقصت جارحة فى ابن آدم إلا كانت ذكاء فى عقله.

فصـــل :

والعقل رأس الفضائل ، وينبوع الأدب .

وقيل : العقل عشرة أجزاء : تسعة منها فى الصمت ، وواحد منها فى الهرب عن الناس ، وقيل لعابد انقطع عن الناس فى صومعته : لِمَ فعلت ذلكَ ؟ قال : هربت عن اللصوص سراق العقول فلا يسرقون عقلى .

وعدو الإنسان هواه ، وصديقه عقله . وقيل : عقل المرأة فى جمالها ، وجمال الرجل فى عقله .

فصـــل :

واختلف الناس فى صفات العقل ، وفى مسكنه ، فقال قوم : هو جوهر لطيف يفصل به بين الحقائق والمعلومات ، واختلفوا ـ أيضا ـ فى محله ، فقال بعضهم : محله الدماغ ، لأن الدماغ محل الحس ، وقال بعضهم : محله القلب ، وقال آخرون : العقل هو مدرك الأشياء على ما هى عليه من حقائق الأمور ، وقال بعضهم : العقل هو جملة علم ضرورى ، أو علوم ضرورية ، وقيل : العقل هو العلم بالمدركات الضرورية ، وقيل : العقل نور يصيره الله فى القلب يفرق به العبد بين الحق والباطل ، ويميز به ما يخطر على قلبه . وقال محمد بن محبوب (رحمه الله) : العقل فى الرأس ، وهو من الرأس فى الدماغ ، وقيـل : العقل فى القلب ؛ والعرب تقول : ما له عن قلب ولا عقل ؛ بمعنى واحد .

ومن ذهب أن العقل فى القلب فهو فى الجانب الأيسر من الصدر ، وكل من نفى أن يكون العقل جوهرا ـ أثبت محله فى القلب ؛ لأن القلوب محل العلوم كلها .

وقال أبو على (رحمه الله) : محل العقل فى الدماغ ، وتدبيره فى القلب ؛ لأن العرب تسمى رءوس الجبال معاقل ، والحصون العالية معاقل ؛ فالعقل فى أعلى الجسد .

وقال الخليل : القلب مضغة من الفؤاد معلقة بالنياط ؛ قال الله تعالى : « فَإِنَّهَا لا تَعْمَى الأَبْصَارُ ، وَلَـكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِى فى الصُّدُورِ » .

فصل :

وأما العقل المكتسب ؛ فهو نتيجة العقل الغريزى ، وهو نهاية المعرفة ، وأصله الفكر ، وليس له حد ينتهى إليه ؛ لأنه ينمى ؛ إن استعمل ، ويقصر ؛ إن أهمل ، ونماؤه يكون عند شباب الطفل يقارنه ذكاء ، وحسن فطنة ، ينشأ ذلك معه ، أو يكون لذوى التجارب بطول ممارسة الأمور ، وكثرة التجارب ، ومرور التغير على مسامع ذوى العقول ، ومشاهدة عيوبهم ، وتقلب الأيام ، وتصرف الحوادث ، وقال بعض الحكماء : كفى بالتجارب تأديبا ، وبتقلب الأيام عظة .

وقيل : التجربة مرآة العقل ؛ ولذلك حمدت آراء الشيوخ ؛ حتى قالوا : المشايخ أشجار الوقار ، وينابيع الأخيار ؛ لا يطيش لهم سهم ، ولا يسقط لهم وهم؛ ولو عدموا ذكاء الطباع ؛ فقد أفادتهم الأيام تجربة .

وللعقل آفات لا يسلم منها إلا من عصمه الله تعالى ، وهى: الهوى ؛ والشهوة اللذان تجنبه فيهما حيلة الحازم، وهما أغمض مسلك فى الإنسان من الروح فى الجثمان؛ فمن أراد أن يكون حرا ، فلا يهوى ، وإلا صار عبدا .

وقيل : قال الأصمعى لغلام صغير من أولاد العرب : أيسرك أن تكون لك مائة ألف درهم ، وأنك أحمق ؛ قال الصبى : لا . والله ، قال له : ولم؟ قال : أخاف أن يجنى على حمقى جناية تذهب بمالى ، ويبقى على حمقى ؛ فعجب الأصمعى من ذكاء الصبى ! ؛ لأنه استخرج بعقله معنى لا يدركه من هو أكبر منه سنا .
وقيل : وقعت فتنة ؛ ودهاة العرب ستة :

معاوية بن أبى سفيان ، وعمرو بن العاص ، والمغيرة بن شعبة ، وزياد ابن أبيه ، وقيس بن سعيد[١] بن عبادة ، وعبد الله بن يزيد بن ورقاء .

وكان معاوية : للأناة فى الأمور ، وعمرو : للبديهة ، وزياد : للصغار والكبار ، والمغيرة : للأمور العظام وقال : ما رأيت أطول إناءة ، ولا أثقل حلما من معاوية ، ولا رأيت أغلب للرجال ، وأقواهم حين يجتمعون من عمرو ابن العاص ، ولا أشبه سرًّا لعلانية من زياد بن أبيه ؛ ولو أن المغيرة بن شعبة؛ كان فى مدينة لها ثمانية أبواب ؛ لا يخرج من باب منها إلا بالمكر ـ لخرج من أبوابها كلها ! ! .

وقال بعض الحكماء : العاقل من عقله فى ازدياد ، ورأيه فى امتداد ؛ فقوله سديد ، وفعله حميد ، والجاهل قوله سقيم ، وفعله ذميم .فمن صرف عقله إلى الدهاء والمكر والشر ، والخداع والحيل ـ كالحجاج وزياد ، وأشباههم ـ فعقولهم مذمومة .

وقال عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) : لست بالخب ، والخب لا يخدعنى ، وقال المغيرة : كان ـ والله ـ عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) أفضل وأعقل من أن يخدع ، وقيل: أمر عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) أبا موسى الأشعرى أن يعزل زيادا عن ولايته ، فقال زياد : أعن موجدة أو خيانة يا أمير المؤمنين؟ فقال : لا (ما من) واحدة منهما ؛ ولكن كرهت أن أحمل على الناس فضل عقلك .

---

(١) خ : سعد . وهو الصواب .

فصـــل :

وقيل : إن القلب له ثلاث تجويفات : إحداهن فى أعلاه فيما غلظ منه ، وهو نور يسطع ، وهو محل الإيمان والإسلام ، والقوة النـــاطقة فى الإنسان ، والقوة المدبرة لمعانى الإرادة المنبعثة من النفس .

والثانية : فى وسط القلب ، وهو محل التفكير والتذكير ، وهو نور ساطع ، وهو محل السكينة ، والخيال الذى تلقيه الروح .

والثالثة : فى آخره ، وهى محل الرقة ، واللطف ، ويعبر عنه بالفؤاد ، وهو محل العقل ، والنور ، والتصرف ، وميزان العقل ، ولطائف الحكم ، وهو محل الحب ، والحياة الطبيعية من الحرارة اللطيفة .

ولهذا الفؤاد عين نورانية بها تدرك حقائق الأمور ، وأسرار الأشياء الخفية عن العيون ، وأسرار العلوم وتلك [هى] البصيرة التى ينظر بها أهـل البصائر ، قال الله تعالى : « فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ ؛ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ » .

وفى التجويف الوسط : يكون محل العشق ، وبه ينبعث الجـــد والطلب ، والشوق إلى درك المطلوب ، وهو أسرع تعلقا بالأشخاص المزينة ، وبها يقـع الاستحسان للمستحسنات وضد ذلك .

وقيل : إن أرواح الوحى فى كتاب الله ثلاثة :

الروح الأمين ، وروح القدس ، وروح الأمر .

فالوحى من الروح الأمين ، نزل على التجويف الأول ؛ لأنها بين النطق واللسان ، وهى أول مراتب الوحى فى التنزيل، وهو إلهام الله تعالى على القلوب، وبعده روح القدس ، وهو تفييض ما يرد فى اللوح المحفوظ إلى المرتبة الثانية من القلب : فيثبت الإيمان ، والبصر [و] البصيرة الفكرية ، وتظهر أنواع الحكم واللطائف الإيمانية .

ثم للمرتبة الثالثة : وهى محل النور الأقدس ، وهى محل السمع والعقل ، قال الله تعالى : « فَإِنَّكَ لَا تُسْمِعُ الْمَوْتَى ، وَلَا تُسْمِعُ الصُّمَّ الدُّعَاءَ » .

ولم يرد موت الحس ؛ ولكن يريد به موت الكفر والعصيان ،ولم يرد به الصمم من الأذن ؛ لأن حاسة السمع موجودة ؛ وإنما أراد به السمع الذى هو العلم .

ومحل العقل وهو محل روح الأمر الذى يشير إلى التمكين ، وحقيقة الجمع : ما اختص به التنزيل إلى نبينا محمد (ﷺ) .

قال الله تعالى : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَيَجْعَلُ لَهُمُ الرَّحْمَنُ وُدًّا » أى : يوجد فى قلوبهم وداً فيودونه بأنواع الأذكار ، وأطوار القربات ، فلا يتركون من أعمال القلب مالا يبصرون به ، ولا يودون لأنفسهم إلا بقطع العوائد المألوفات ؛ إلى أن يحصل بها ود من الله تعالى ؛ فينقلب حديثها نطقا وحكمة ، وحركاتها ارتقاء درج ؛ فيؤدونه بالحقائق الإيمانية والأسرار الشرعية ، والأنوار الدينية ؛ إلى أن يظهر على الروح آثار الود ؛ فينظر المعاد

كشفا ، وما أعد الله فيه من أنواع التنعيم لأوليائه، والعذاب لأعدائه؛ فيتزايد اشتياقهم إلى طلب الرجعة إلى الله تعالى ، ولقائه ، ويزهدون فى جميع العلائق ، والمألوفات غير الله تعالى؛ فإذا توجه القلب إلى الود إلى الله تعالى ؛ نظر فى أسرار عجائب صنع الله تعالى ، والتفكر فى ذلك .

وقيل لامرأة من المتعبدات : أين محل الحب ؟ وأين محل الشوق ؟ وأين محل الوجد ؟ فقالت : الحب فى القلب ، والشوق فى الفؤاد ، والوجد فى السرّ ، فقيل لها : الفؤاد غير القلب ؟ قالت : نعم . إن الفؤاد نور القلب ، والسر نور الفؤاد؛ فالقلب يحب، والفؤاد يشتاق، والسر يجد ، قيل لها: وماذا يجد؟ قالت : الحق . قيل لها : وكيف يوجد الحق ؟ قالت : وجدان الحق بلا كيف ، والله أعلم وبه التوفيق .

* * *

القول الخامس

فى ذكر الأخبار المروية عن النبى (ﷺ)

وبيان معرفتها

وهى التى تتعلق بها أحكام الشريعة ، وتختلف الفقهاء فى تأويلها .

فمنها : أخبار المراسيل وهو : أن يروى التابعى الخبر عن النبى (ﷺ) ، ولم يشاهد النبى (ﷺ) ؛ فيجب أن يكون بينه وبين النبى (ﷺ) صحابى؛ فلا يذكره ؛ إما أن يكون قد سمع من الصحابى ، فاقتصر على ما قد روى له ، ولم يحتج إلى ذكر من أخبره، أو يكون قد صح عنده الخبر عن النبى (ﷺ) بالإخبار عن ذلك الصحابى ، وبسنده عن النبى (ﷺ) .

ومنها : أخبار المقاطيع، وهو أن يروى الرجل الخبر عن النبى (ﷺ) ؛ فيسقط فى الوسط رجلا لا يذكره فى إسناده؛ فإذا ترك ذلك الرجل ــ انقطع الخبر إلى حيث ترك الرجل .

ومنها الخبر الموقوف من الأخبار ؛ وهو أن يروى الخبر عن الصحابى ، والتابعى ؛ فيوقف الخبر عليهما .

ومنها أخبار المتن : وهى التى تروى عن النبى (ﷺ) ، ولا يذكر من رواها عنه من أصحابه ، ويعتمد على صحتها .

ومنها خبر الصحيفة : وهو أن يروى الراوى الخبر إلى أن ينتهى به إلى

رجل ، فيقول عن أبيه عن جده ، ولم يرِ ذلك المذكور النبى (ﷺ) فإذا كان الخبر على هذا الوصف ونحوه ـ سمى خبر الصحيفة

ومنها الخبر الزائد على الخبر الناقص وهو: إذا ورد خبر عن النبى (ﷺ) من وجه ، وروى ذلك الخبر ـ أيضا ـ من وجه آخر ، وأحد الخبرين ـ فيه زيادة لفظ ـ استعمل الزائد من الخبرين، لأن فيه فائدة لم تذكر فى الخبر الآخر، ولم يوردها الراوى الثانى معه ؛ لما قد يجوز أن يكون أحدهما شاهد القصة إلى الموضع الذى أخبر به،والآخر مشاهد القصة إلى آخرها؛ فيسمع مالا يسمع الآخر ، ويشاهد مالم يشاهده الآخر ؛ فلذلك وجب استعمال الزائد من الأخبار .

ومنها أخبار المعارضة ، وهو مثل : أن يروى عن النبى (ﷺ) خبرا بإباحة شىء ، ويروى خبرا آخر بحظر ذلك ؛ فيوقفان جميعا ، وينظر المتقدم من المتأخر بالتاريخ ؛ ليعلم الناسخ من المنسوخ نحو : ما روى عن النبى (ﷺ) أنه سها فى صلاته ، فسجد قبل التسليم[1] ، وروى : أنه سجد بعد التسليم ، فاختلف الناس فى الناسخ منها من المنسوخ ، والمتقدم منها من المتأخر .

ومنها الخاص والعام من الأخبار ، وهو مثل : قول النبى[2] (ﷺ) حيث ما أدركتك الصلاة .

---

(١) رواه مسلم وأحمد

(٢) فى البخارى ، ومسلم والنسائى وابن ماجه بلفظ :فأيما رجل من أمتى أدركته الصلاة فليصلها .

فصـــل :

فهذا عموم يوجب جواز الصلاة فى كل موضع ، وروى[١] ، عنه (ﷺ) أنه نهى عن الصلاة فى المقبرة ، والمنحرة ، والمزبلة ، والحمام ، وقارعة الطريق ، ومعاطن الإبل .

فكأن هذا الخبر خص بعض ما اشتمل عليه عموم الخبر الآخر ، والخاص يعترض على العام ، ولا يعترض العام على الخاص ، وكذلك الخبر المفسر يقضى عن المجمل ، ولا يقضى المجمل على المفسر .

وأما الناسخ والمنسوخ ، فهو نحو : ما روى عن النبى (ﷺ) أنه قال : « كنت قد نهيتكم عن زيارة القبور ؛ ألا فزوروها ، ولا تقولوا هجرا »[٢] .

ومنها الأخبار التى تنازع الناس فى تأويلها على مبايعتهم ؛ إذا عقدوها على شروط بينهم ؛ فمنها ما روى عن النبى[٣] (ﷺ) أنه نهى عن شرطين فى بيع، فهذا ما اتفق على إبطال البيع به، وهو : أن يبيع الرجل الغلام لغيره بثمن معلوم على أن يبيع له المشترى غلاما له بثمن معلوم ، أو ثمن يتفقان عليه ؛ فهذا ونحوه لايجوز فى البيع باتفاق الأمة .

---

(١) روى أبو داود والترمذى ، وابن ماجه : النهى عن الصلاه فى الحمام ، والمقبرة وهذا الحديث رواه الربيع بسنده إلى ابن عباس ، ورواه الترمذى عن ابن عمر وزاد : فوق ظهر بيت الله ، ومواطن الإبل م

(٢) أخرجه مسلم والطبرانى وأحمد .

(٣) الحديث رواه الربيع بسنده إلى ابن عباس، وأخرجه الخمسة عن ابن عمر ، ولفظه: لايحل سلف وبيع ولاشرطان فى بيع . م .

وأما ما اختلفوا فى فساده ، وجوازه ؛ فنحو ما روى[1] عن النبى (ﷺ) أنه اشترى من جابر بن عبد الله بعيرا ، وشرط جابر ظهره من مكة إلى المدينة، فأجاز النبى (ﷺ) البيع ، والشرط . وروى عنه (ﷺ) أن عائشة اشترت بريرة لتعتقها ، فاشترط البائع ولاءها لنفسه ، فأجاز النبى (ﷺ) البيع ؛ وأبطل الشرط ، وقال : « الولاء لمن أعتق » وروى: أن تميم الدارى باع دارا واشترط سكناها ؛ فأبطل النبى (ﷺ) الشرط والبيع .

واختلف الرواة فى مقدار السكنى ؛ فقال بعضهم : إنه اشترط السكنى سنة، وقال بعضهم : اشترط سكنه أيام حياته ؛ فيحتمل أن تكون هذه الأخبار بعضها ناسخا ، وبعضها منسوخا ، ويحتمل أن يكون النبى (ﷺ) تركهم ، وهذه الأخبار ؛ ليجتهدوا فيها آراءهم .

وعندنا أن خبر بريرة كان شرطه غير جائز ، لأنه اشترط مالا يجوز ملكه وهو الولاء ؛ الذى جعله النبى (ﷺ) كالنسب ؛ لقوله[2] : الولاء لُحمة كلُحمة النسب ، والنسب لا يجوز تملكه ؛ لهذا الخبر ؛ فلذلك أبطله النبى (ﷺ) .

وأما خبر جابر بن عبد الله فى بيع البعير ؛ إذ اشترط ركوبه من مكة إلى

---

(١) الأحاديث الثلاثة : أخرجها الربيع عن ابن عباس إلا حديث بريرة فمن عائشة وأخرجها أرباب السنن عن جابر ، وابن عمر وعائشة (رضى الله عنهم) .

(٢) أخرجه الربيع عن ابن عباس ، والطبرانى عن عبد الله بن أبى أوفى والحاكم والبيهقى عن ابن عمر .

المدبنة فلم يكن فى نفس عقد البيع ، وأنه كان على وجه العارية ، وقد روى هذا أيضا .

وأما خبر تميم الدارى؛ فإنه يحتمل أن يكون الخبر الذى يروى أنه اشترط فى البيع ـ سكنى الدار فى أيام حياته ؛ فتدخله الجهالة بمدة حياته ؛ فلا يصح البيع معها ، لأن ذلك غير معلوم ، ولذلك بطل البيع ، والشرط ، ولو كان شرط السكنى مدة معلومة لـكان البيع جائزاً ؛ لأن البيع إذا شرط فيه شرط له قسط من الثمن معلوم جاز البيع .

فصل :

وإذا ورد خبران أحدهما ينفى فعلا ، والآخر يوجب إثباته ؛ كان الإثبات أولى ؛ إذا لم يعلم المتقدم من المتأخر منهما ، ولا الناسخ من المنسوخ .

وهذا ما يذهب إليه أصحابنا فى الحظر والإباحة ، والأوامر ، وقد وافقنا الشافعى فى هذا المعنى .

وأما الأخبار الموقوفة ؛ لتعارضها ، وطلب الدلالة على المتقدم منها من المتأخر ، وأريد به بعض دون بعض نحو: ما روى[1] أن النبى (ﷺ) نهى عن الشرب قائما ، وروى أنه شرب من زمزم وهو قائم ، فأوجب توقيف الخبرين وكان المرجوع على الأصل ، وهو قول الله تعالى : « وَكُلُوا وَاشْرَبُوا » فهذه الآية تبيح الأكل ، والشرب على أى حال كان عليها الآكل والشارب ؛ إلا أن تخص دلالة فى بعض الأوقات ، وبعض الأحوال .

---

(١) رواه الربيع عن ابن عباس ، ورواه فى الضياء عن أنس وكذا عند أحمد ، ومسلم ، والترمذى عن قتادة عن أنس ، ورواه أحمد ومسلم عن أبى سعيد .

وروى[1] عنه (ﷺ) : أنه نهى عن الشرب من فم السقاء، وروى : أنه خنث سقاء فشرب منه ، (خنثه أى أعطفه) ، وأما الشرب من فم السقاء الذى ورد النهى ، فقيل : إنه للإشفاق منه على أمته ؛ مخافة أن يكون فى الماء دابة ، أو شيء من المضرات .

ومنها : أخبار التواتر ، وهو أن يخبر جماعة لا يجوز عليهم التواطؤ على الكذب ؛ فإذا سمعنا منهم خبرا وقع لنا علم ضرورى بخبرهم ، وخبر التواتر يكون عن مشاهدة ؛ ويستفد إليه كالأخبار عن البلدان ونحوها .

وحد الخبر عن طريق اللغة هو كل كلام يحتمل الصدق والكذب ، والله أعلم وبه التوفيق .

فصل :

وأما الخاص والعام : فمثل قول النبى (ﷺ)[2]: الصلاة خير موضوع ؛ فمن شاء فليقلل ، ومن شاء فليكثر ؛ فهذا عموم فى كل وقت .

والخاص المعترض عليه قول النبى (ﷺ) «لا[3] صلاة بعد صلاة العصر ؛ حتى تغرب الشمس ، ولا صلاة بعد صلاة الصبح حتى تطلع الشمس ، فالخاص يعترض على العام ، والعام لا يعترض على الخاص .

---

(١) رواه الربيع : ورواه أبو داود ، والترمذى ، وابن ماجه عن ابن عباس .

(٢) رواه الطبرانى فى الأوسط .

(٣) رواه البيهقى والنسائى وابن ماجه عن أبى سعيد ، ورواه أحمد وأبو داود وابن ماجة عن عمر ، ورواه الربيع عن ابن عباس .

والدليل على من قال : إن العموم لا يستغرق الجنس — قول الله تعالى : « وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا ، وَلَا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْضِ ، وَلَا رَطْبٍ ، وَلَا يَابِسٍ ؛ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » ، وقوله عز وجل : « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ إِلَّا عَلَى اللهِ رِزْقُهَا » ؛ فهذا حكم عام ؛ لا يجوز أن يدخل فيه خصوص .

وأما الذى نزل خاصا فى ظاهر التنزيل، وثبت حكمه عاما على الخلق بدليل؛ فمثل قوله تعالى : « فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ .. » ، وقوله تعالى : « أَوَ لَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ؛ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ »، وقوله: « وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ » ، وقوله: « وَالْعَصْرِ إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ »؛ فهذه الآيات كلها فى لفظ الخصوص فى الظاهر ؛ إذ الذكر فيها وقع باسم الإنسان ، ولم يقع باسم الناس ، ومتيقن حكمها فى معنى العموم ؛ لأن دخول الألف واللام فى الإنسان : دال على التعريف ، والمعرف ؛ إذا لم يتقدم له ذكر لنفسه، فيكون التعريف له : إشارة إلى الجنس كله .

وأما قوله : « وَبَدَأَ خَلْقَ الْإِنْسَانِ مِنْ طِينٍ » ، فآدم (عليه السلام) ؛ وإذا كان آدم من طين ، فالناس كلهم مبتدأون من طين ؛ لأنهم ذريته إلا حواء وحدها ، فإنا لا ندرى ما نسبها ؟ [هل] تسمى ذرية له أولا ؟ غير أنا نعلم أنها خلقت منه ؛ لقوله تعالى : « خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ ، وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا » .

وأما قوله تعالى : « والْعَصْرِ إِنَّ الإِنْسَانَ لَفِى خُسْرٍ » ، إلّا من استثنى ـ يدل على ما قلنا ؛ لأن الاستثناء : لا يكون إلا من جملة .

وأما قوله تعالى : « أَوَ لَمْ يَرَ الإنسانُ أنَّا خَلَقْنَاهُ مِن نُطْفَةٍ » يخرج لفظه مخرج الخصوص، ومعنى العموم ، وخرج آدم (عليه السلام) من هذه الجملة ؛ بدليل قوله تعالى : « وَلَا تَنْكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّى يُؤْمِنَّ » ، فحرم جميع المشركات بهذه الآية ، ثم خص من جملة ما حرم ـ نكاح الشركات الكتابيات بقوله : «وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الْمُؤْمِنَاتِ ، وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ » فخص المشركات الكتابيات بالتحليل من جميع ما حرم من المشركات.

ونحو ذلك : ما نهى[1] النبى (ﷺ) عن بيع ما ليس معك ، ثم خصّ من جملته : السلم ، وهو السلف ، وهو بيع الإنسان ما ليس معه .

وقال الشيخ عثمان بن أبى عبد الله الأصم (رحمه الله): وجدت فى الآثار ؛ أنه لايجوز لأحدٍ أن يفتى أحداً بالمطلق فى موضع المقيد ، ولا بالمقيد فى موضع المطلق ، ولا بالمجمل فى موضع المفصّل ، ولا بالمفصل فى موضع المجمل ، ولا الناسخ فى موضوع المنسوح ، ولا المنسوخ فى موضع الناسخ .

وقد قال المسلمون : إن المفسر يقضى على المجمل ، ولا يجوز العمل بالمجمل عند المفسر ؛ فإن اغتر أحدٌ بقول المسلمين ؛ أنه جائز الأخذ باختلاف المسلمين فى الفروع ؛ فإن ذلك ليس فى المجمل والمفسر . والله أعلم وبه التوفيق .

---

(١) رواه أبو داود ، والترمذى ، والنسائى ، وابن ماجه ، وفيه زيادة عما هنا . م

القول السادس

فى أصول علم الدين ، ومعرفة الإجماع ، والقياس

وبيان ذلك

وأصول الدين : هو ما جاء فيه حكم من كتاب الله تعالى ، ومن سنة نبيه محمد (ﷺ) ، أو من إجماع المهتدين من علماء الأمة .

فإذا حكم الحاكم ، وأفتى المفتى بقول يوافق هذه الأصول الثلاثة ، أو ما يشبهها [أ] و ماهو مثلها ؛ فلا يجوز لغيره أن يقول بخلافه ، وهو المصدق على جميع من قال بخلافه ؛ ولو خالفه جميع أهل الأرض كلهم .

وقيل : الأصل ما عرف به حكم غيره ، والفرع ماعرف حكمه بغيره ، وقيل: الأصل مقدمة العلوم ، والفرع بنتيجته .

فالواجب علىّ من أراد التفقه فى العلم ـ أن يعرف أصول الفقه وأمهاته ؛ ليكون بناؤه على أصول صحيحة ، ليجعل كل حكم فى موضعه ، ويجريه على سنته ، ويستدل على ذلك بالأدلة الصحيحة ، والاحتجاجات الواضحة ، وألا يسمى العلة دليلا ، ولا الدليل علة ، ولا الحجة علة ، وليفرق بين معانى ذلك ، ليعلم افتراق حكم المفترق ، واتفاق المتفق .

فما وجد فى الأصول الثلاثة وهى : الكتاب ، والسنة ، والإجماع ؛ فهو أصل ، وما لم يوجد ؛ فهو فرع ، ويقاس عليهن ما لم يذكر فى أحدهن .

ويقال لما جاء فى الكتاب فريضة ، ولما جاء عن النبى (ﷺ) سنة ، ولما جاء عن الأئمة فى العلم أثر ، وأحكام الشريعة كلها مأخوذة من طريق واحد ، وأصل واحد ، وهو : كتاب رب العالمين .

وقال الله تعالى: « اتَّبِعوا مَا أُنْزِل إليكم مِنْ رَبِّكم » ، وقال: « ومَا آتَاكم الرَّسُولُ فَخُذُوه ، وَمَا نَهاكُم عَنْهُ فَانْتَهُوا » ، وقال : « فَإِنْ تَنَازَعْتُم فى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى الله ، والرَّسُولِ » ، وقال : « مَنْ يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللهَ » وقال : « وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوى ؛ إن هُوَ إِلَّا وَحْىٌ يُوحَى » .

فوجب اتباع السنة بكتاب الله تعالى ، والإجماع أيضا علم بكتاب الله تعالى، وبالسنة التى هى من كتاب الله تعالى، لأن الإجماع توقيف، والتوقيف لا يكون إلا عن الرسول (ﷺ) .

والسنة على ضربين : مجتمع عليها ، ومختلف فيها ؛ فالمجتمع عليها وهى التى لا تحتاج إلى البحث عن طلب صحتها ؛ لإشاعتها عند الرواة ، وأهل التأويل ، وموافقتها لحكم التنزيل .

وأما المختلف فيها : فهى التى لم تبلغ الكل علمها ، ويقع التنازع بين الناس فى صحتها ؛ فلذلك تجب الأسانيد ، والبحث عن صحتها ، ثم يقع التنازع فى تأويلها ؛ إذا صح نقلها ؛ فإذا اختلفوا فى حكمها كان رجوعهم فيها إلى كتاب الله تعالى .

وقيل إذا وقع حدث من محدث، فلم يجمع العلماء على صوابه ، حقه، ولا على باطله وخطئه ، واختلفوا فيه، فحكم بعضهم بحقه، وحكم بعضهم بباطله – لم يصح فيه إجماع لأحدهم ؛ لأنه لو أجمع بعضهم على حقه ، وأجمع بعضهم على باطله – كان الإجماع منهم هو الاختلاف بعينه ؛ لأنه لا يكون شيء واحد مجتمع عليه مختلف فيه ، وليس لأحدهم أن يحكم فيه بحكم الإجماع عليه ؛ لثبوت الاختلاف فيه ؛ ولا يجوز لأحد أن يحكم بالاختلاف فى موضع الإجماع ، ولا بالإجماع فى موضع الاختلاف .

وإن كان الحدث مما فيه الاختلاف من المسلمين بولاية فاعله ، والبراءة منه، والوقوف عنه ، فأجمع العلماء المشاهدون لذلك الحدث على ولاية محدثه، أو البراءة منه ، والوقوف عنه – لم يكن هذا الإجماع منهم مزيلا لحكم مافيه من الاحتمال، والاختلاف؛ لأنه قد يجوز أن يكونوا كلهم قد أخذوا بقول من أقاويل المسلمين؛ إذ ذلك كله جائز لهم من الولاية ، والبراءة ، والوقوف .

ولكنهم لو أجمعوا على باطل المحدث ، والإنكار عليه ، أو صوابه ، وحكموا بذلك فى حين ما يكون حكاما عليه ، وفيه – لم يجز لهم ، ولا لغيرهم أن ينقضوا ذلك الحكم الذى قد ثبت منهم ، لأن ذلك حجة لمن اتبعه ، محكوم بالصواب فى اتباعه ، فمن ادعى نقضه كان مدعيا على متبعيه ، فمن غاب عليه سريرته فى إزالته عن صوابه .

وهكذا الحجج؛ إذا ثبتت لم يجز تحويلها عن موضعها إلا بحجج مثلها تنقضها حيث يجوز ذلك .

والإجماع حجة تقطع العذر ، وهو توقيف ، والقول به واجب ، وهو : إجماع الصحابة ؛ فإذا أجمعوا على شيء وجب التسليم لهم ، وإن اختلفوا فى شيء وجب على الناس الرجوع إلى حكم كتاب الله ، وسنة نبيه محمد (ﷺ) .

والإجماع : هو أحد وجوه الحق . قال النبى (ﷺ) : « لا تجتمع أمتى على ضلال » .

والإجماع هو : كل قول أو فعل صح لأمة محمد (ﷺ) ، ولا يوجد فيه مخالف منهم .

وقال أكثر أهل العلم : إن أهل العصر ؛ إذا انقرضوا على الذى أجمعوا عليه كان ذلك شرط صحة الإجماع .

وقول : إذا وقع الإجماع مرة: صار حجة، وإن لم ينقرض أهل ذلك العصر عليه ، وإلى هذا القول : يذهب بعض أهل الرأى .

وقال بعضهم : الأصح عندنا أن الإجماع لا يعلم إلا بانقراض أهل العصر عليه ؛ لأن بعض الصحابة كاد يكون على قول ، ثم يرجع عنه ، كما يروى أن على بن أبى طالب كان موافقا لعمر بن الخطاب (رضى الله عنه) فى أيامه على تحريم بيع أمهات الأولاد ، ثم رأى جواز بيعهن فى أيام خلافته .

وأن أبا بكر (رضى الله عنه) سوّى بين الناس فى العطاء ، ولم يكن له مخالف ، ثم فاضل عمر بن الخطاب بينهم فى العطاء ، ثم ساوى بينهم على ابن أبى طالب .

ولو كان الإجماع : قد ثبت لسكان على وغيره قد خالفوا الإجماع ، وهذا لايجوز عليهم ، فدلّ بهذا على صحة ماذكرناه .

وحقيقة معنى الإجماع فى عبارة أهل اللغة : استفاضة القول ، وانتشاره فى الجماعة الذين ينسب إليهم الإجماع .

فإذا ثبت أن كل واحد منهم قد قاله، أو قال به بعضهم: فلم ينكره الباقون- أضيف ذلك القول إلى جماعتهم؛ على معنى التقدير منهم له، والرضا به، ووقعت العزيمة منهم بإمضائه ، فصار ذلك الحكم إجماعاً .

وقيل : هو مشتق من الإجماع ، والإجماع حجة ؛ لقول الله تعالى : « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطاً ، لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدا » ، فجعلهم شهداء على الناس ؛ كشهادة الرسول عليهم .

وقيل : إن الإجماع - يؤلف الله بين قلوب العلماء من أهل كل زمان ، فيجمعهم على حكم .

وقول : إذا ظهر الإجماع - علم أنه توقيف ، وإن لم يكن التوقيف الذى من أجله أجمعوا عليه .

والدليل على أن الإجماع توقيف - وإن لم يعلم - فى قوله تعالى: « وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا » ، فقد أجمعوا على أن العبد غير داخل فى وجوب الحج عليه - علم أنه توقيف من النبى (ﷺ) ، وإن لم ينقل إلينا لفظ النبى (ﷺ) .

وقال محمد بن إبراهيم بن سليمان الكندى (رحمه الله): إن الإجماع حجة لا تجوز مخالفتها ، وكل ما خالف الحجة ـ فهو محجوج .

ومن شهدت له حجة الله أنه محق فهو محق فى الحكم الظاهر فى دين الله ـ تعالى ـ ومن شهدت عليه الحجة أنه مبطل فهو مبطل فى ظاهر الحكم فى دين الله ولو كانت الحجة قد خانت فى سريرتها ، وحاشا حجة الله من ذلك ؛ ولكن لا نتقلد من الأمور ما غاب عنا صحته ، نتعاطى علم الغيب بذلك .

وقيل: إن الإجماع من كل أهل كل زمان من المسلمين إجماع ؛ إذا كانوا أهل رأى ، والاختلاف منهم اختلاف ؛ ولو كان رجل واحد منهم سبق على قول ، وكان عالم أهل زمانه كان حكمه قد سبق على الإجماع ، وكان على من خلف اتباعه على ذلك ؛ وكذلك إن قال ـ ولم ينازعه العلماء فى عصره ، وسلموا له ـ كان ذلك إجماعا أيضاً .

ولا تقاس الأصول بعضها ببعض ، وما لم يأت فى الأصول فيقاس على الأصول ، والأصول: كتاب الله ، وسنة نبيه (ﷺ) ، وإجماع العلماء من أهل طاعته ، وما أشبه الأصول فهو أصل ، وما لم يكن أصلا قيس على الأصل .

فصل :

والمنصوص : ما ذكر فى كتاب الله ، وسنة نبيه (ﷺ) ، وإجماع الأمة ، ومعنى المنصوص : أى المذكور بعينه بلفظ ظاهر بيّن .

والنص أيضاً : رفعك الشىء ؛ تقول : نصصت الحديث إلى فلان : أى

رفعته إليه . قال الشاعر :

وَنَصُّ الْحَدِيثِ إِلَى أَهْلِهِ   فَإِنَّ الْوَثِيقَةَ فِي نَصِّهِ

فصل :

واختلف الناس فى القياس ؛ فذهب بعضهم إلى جوازه ، وإثباته فى التوحيد ، والأحكام جميعاً ، وذهب بعضهم إلى إثباته فى التوحيد ، ونفيه فى الأحكام ، وذهب آخرون إلى إثباته فى الأحكام ، ونفيه فى التوحيد ، وذهب آخرون إلى نفيه فى الحالين جميعاً .

والقياس فى نفسه : هو تشبيه الشىء بغيره ؛ والحكم به هو الحكم للفرع بأصله ؛ إذا استوت علته ؛ وقع الحكم من أجله ، وذلك مثل : تحريم قفيز البر بقفيزين نسيئة على لسان نبى الله تعالى (ﷺ) .

فأجمع القائلون بالقياس ؛ أن القفيز من الأرز بقفيزين منه حرام مثله ؛ لأنه مساوٍ له فى العلة التى وقع التحريم بها ، ثم اختلفوا فى العلة التى وقع التحريم من أجلها ، فقال بعضهم : إن العلة فيه لأنه مكيل ، والبر مكيل مثله ، وقال بعضهم : إن البر مأكول ، والأرز مأكول مثله ، وقال بعضهم : لأنه مكيل ومأكول مثله ، وقال بعضهم : إن البر مقتات ، ومدخر ، والأرز مثله ، وقال بعضهم ؛ لأن البر يزكى ، والأرز مثله يزكى .

وكذلك قولهم : بالقياس فى الربا الذى حرمه الله ؛ فرجع كل واحد إلى ما روى عن النبى (ﷺ) أنه قال : « الذهب بالذهب ، والفضة بالفضة ،

والبر بالبر ، والشعير بالشعير ، والتمر بالتمر ، والملح بالملح سواء بسواء ؛ فمن زاد، أو استزاد ؛ فقد أربى » .

فقال قوم : قد ذكر النبي (ﷺ) ما حرمه فيما يكال ويوزن ؛ فكل ما يكال ويوزن مما نص عليه بعينه ففيه الربا فى قول من جعل العلة الكيل والوزن .

وقال قوم : الربا فى الأجناس الستة التى ذكرها رسول الله (ﷺ) .

وقال قوم : الربا فيما أنبتت الأرض بما أنبتت .

واحتج من نفى القياس ، ولم يعبر قول النبي (ﷺ) فيما حرم من البيوع من معنى النص ، واقتصر على المذكور دون غيره ، واحتج بقول الله عز وجل: « وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ ، وَحَرَّمَ الرِّبَا » ؛ فأحل الله البيع عموما ، وحرم الربا خاصة ، وهو ما أخرجه من جملة المباح من البيع بالنسيئة .

يقال لهم : لو كان قول الله عز وجل : « وَأَحَلَّ اللهُ الْبَيْعَ . . . » يبيح التفاضل فى كل عقد إلا ما خصته السنة — لوجب أن يكون قوله : « وَحَرَّمَ الرِّبَا » مانعاً من التفاضل ؛ لتساوى الظاهرين ، وورودهما فى سياق واحد ، ووجودهما معاً فى سياق واحد ، بل الواجب أن يكون الاستدلال بتحريم ثمن الربا على تحريم التفاضل — أصح — وأولى فى الاستدلال على إباحة التفاضل ؛ بإباحة البيع ؛ لأن الربا فى اللغة — هو الزيادة — والفصل فى الجنس واحد :

ومما يدل على جواز القول بالقياس : ما روى عن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) أنه كتب إلى أبى موسى الأشعرى ، وإلى شريح : أن قس الأمور، وانظر الأشباه، والأمثال، ولا يمنعك قضاء قضيته بالأمس؛ ذهبت فيه لرشدك — أن تراجع الحق فيه ؛ فإن مراجعة الحق خير من التمادى فى الباطل .

والحكم حكمان : حكم بأصل متفق عليه ، وحكم بفرع بقياس مستخرج بأصله ، ولو كان الحكمان واحدا — لكان لا فرق بين الفرع وأصله ، ولكان الفرع أصلا ، والأصل فرعا ، ولكن لا يجوز القياس إلا على أصل متفق عليه، وكل قد قاس واجتهد .

وشبه الحادثة إذا وردت بأصل متفق عليه من الكتاب ، أو السنة ، أو الإجماع كما روى : أن النبى (ﷺ) قاس ، واجتهد فى بعض الحوادث .

من ذلك : أن الخثعمية لما سألته ؛ فقالت : يا رسول الله : إن أبى شيخ كبير ، ولا يستمسك على الراحلة ، وقد أدركته فريضة الحج ؛ أفأحج عنه ؟ ، فقال (ﷺ) : « أرأيت لو كان على أبيك دين ، فقضيته أكنت قاضية عنه؟ قالت : نعم ، فقال : « دين الله أحق ، أو قال « أولى » فقد شبه لها ، وتركها والاستدلال بما عرفها بوجه القياس .

وسأل عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) رسول الله (ﷺ) فقال : هششت وأنا صائم ، فقبلت ، فقال (ﷺ) : « أرأيت لو مضمضت فاك أكنت مفطراً ؟ قال : لا . قال : فذاك ذاك .

وقيل : اجتهد فى الحروب ، والغزو برأيه .

وروى عن عائشة (رضى الله عنها) : أنها كانت توجب إعادة الطهارة من الكلمة الخبيثة ، والغسل من الأكسال ، وتقول : كيف يجب الحد بالتقاء الختانين ، ولا يجب صاع من ماء ، يعنى للغسل ، وكانت ترى نقض الطهارة بالكذب المتعمد عليه ؛ على مايذهب إليه أصحابنا .

وقد قال بالقياس كثير من الصحابة فى الحوادث ، واجتهدوا آراءهم فيها و [فى] الحوادث التى كانت بينهم من الاختلاف فيها ؛ فالواجب على المتفقه أن يتأمل هذه المعانى ، ويعتبر أحكامها عند النوازل به منها .

واختلاف الصحابة فى الحوادث قيل : إنه كان منهم على طريق الاجتهاد، وقيل : كان على سبيل استخراج الحكم بالدليل المستنبط به .

ويقع الاختلاف بين العلماء فى نفس المنصوص ؛ لأن من العلماء من يقول بالعموم ، ومنهم من يقول بالأوامر على الوجوب ، ومنهم من يقول هى على الندب ، ومنهم من يقول : الأوامر إذا وردت كانت على الوقف ؛ لاحكم لها حتى يرد بيان يرفع الشبهة عن المأمورين ، ويزيح العلل عنهم .

ولو كان هذا هكذا فالاختلاف قد يقع عليه فى المنصوص عليه بعينه ، و [قد] يقع فى المنصوص عليه فى الجملة ؛ ألا ترى إلى قول النبى (ﷺ) حيث يقول : « إذا اختلف الجنسان فبيعوا كيف شئتم » ، ثم أجمعوا على أن بيع الذهب والفضة إذا كان أحدهما غائبا لايجوز .

ونهى عن بيع المنابذة ، والملامسة ، ولم يقل : كيف شئتم ؛ إلا المنابذة ، والملامسة ؛ فهذا يدل على أنه قد قال : بيعوا كيف شئتم : إلا ما نهيتكم عنه من البيوع .

وقال أبو عبد الله (رحمه الله) فى رجل معه عشرة آلاف درهم ، فأخذها السلطان كلها من بعد حلول زكاتها ، وقبل أن يخرج زكاتها ؛ فإن عليه أن يعطى زكاتها ؛ ولو باع من أصل ماله : كالتى يجيئها الحيض من بعد دخول وقت الصلاة ، ولم تُصلّ ، حتى جاءها الحيض ؛ فإن عليها بدل تلك الصلاة إذا طهرت — يقاس هذا بهذا .

وقيل : إن نجدة بن عامر قال لابن عباس : كيف معرفتك لربك ؛ فإن من قبلنا قد اختلفوا علينا ، فقال له ابن عباس : ويحك يا نجدة !!! إن من نصب دينه على القياس لا يزال — الدهر — فى القياس ، مائلا عن المنهاج ، طاغيا فى الاعوجاج ، ضالا عن السبيل ، قائلا غير الجميل .

أعرف ربى بما عرّف به نفسه من غير رؤية ، وأصفه بما وصف به نفسه من غير صورة : لايدرك ربنا بالحواس ، ولا يقاس بالناس .

وقيل : إن ما من موضع حكم فيه رسول الله (ﷺ) برأيه إلا عاتبه الله عليه ، ثم أمسك بعد ما عوتب ، فأنزل الله تعالى: « وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى » .

وروى على عنه (ﷺ) أنه قال : « لا تقيسوا الدين ؛ فإن الدين لا يقاس » وأول من قاس ـ إبليس (لعنه الله) .

وقيل : قال عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) أيها الناس ، إياكم والقياس؛ فإن أصحاب القياس أعداء السنن ، أعيتهم الأحاديث أن يعوها ، واستحيوا ؛ إذا سئلوا : أن يقولوا : لا نعلم ؛ فقاسوا برأيهم ؛ فإياكم وإياهم .

فصل :

والقياس لا يجوز إلا على علة ، ولا يجوز أن يقاس إلا على معلول ، وهو: أن يردّ حكم المسكوت عنه إلى حكم المنطوق به لعلة تجمع بينهما ، ولا يجب تسليم العلة لكل من ادعاها ؛ إلا بدليل له عليها .

والدليل على صحة العلة يستدرك من وجهين :

أحدهما : أن ينصب العلة فيجرى فى معلولاتها ، ولا يمنع من جريها نص ؛ فإذا جرت فى جميع معلولاتها ، ولم يكن هناك مانع من جريانها على صحتها .

والوجه الآخر : يجب الحكم بوجودها ، ويرتفع بارتفاعها ، ومثل ذلك :

أن التحريم فى الخمر معلق بالشدّة ، والدليل على ذلك أن العصير حلال ؛ فإذا حصلت فيه الشدة ـ حصل التحريم ، وإن زالت عنه الشدة ، وصار خلا ـ حلّ ، وارتفع عنه التحريم .

فلما كان التحريم معلقا بالشدة ؛ يوجد بوجودها ، ويرتفع بارتفاعها ؛

فإذا رأينا هذه الشدة فى غير الخمر ـ ألحقناه بها ؛ للعلة الجامعة بينهما .

فإن قال من ينفى القياس : إن قولكم يؤدى ألّا يحكم بصحة العلة إلا من علم جميع الشريعة ، ولا يشذ عنه خبر ؛ وهذا ما لا يضبط ؛ لأنا لا نعلم صحتها ، إلا أن نعلم جريانها فى جميع المعلولات ، ولا نعلم جميع جريانها فى جميع المعلولات؛ إلا أن نعلم الشرع كله، وألا يكون فى الشريعة خبر يمنع من جريانها فى معلولاتها؛ وذلك لا نعلمه إلا أن نعلم الأخبار كلها ؛ فإذا علمنا جميع المعلولات ، وجميع الأخبار ـ حكمنا بصحتها ، وهذا ما لا يضبط ؛ وهذا أقوى ما عارضوا به ـ فيما علمنا ـ فى كسر حجة القائسين .

ويقال لهم : هذا إلزام فاسد ؛ لأنكم تحكمون بالخبر ، وإن كنتم تخبرون بخبر لم تعلموه ؛ فإن لزمنا ألا نحكم بصحة العلة ، حتى نعلم الأخبار كلها ـ لزمكم ألا تقولوا بخبر حتى تعلموا جميع الأخبار كلها .

وقال بعض مخالفينا ، وفرقة من أصحابنا : إن الخمر لا يجوز الانتفاع به لتحريم الله إياه ، وإن نقل [إلى] خل بعلاج من ملح أو غيره ، واحتجوا فى ذلك : أن العين محرمة لا يجوز أن تتحول حلالا ، واحتجوا أن الشريعة قد أقرت على حكم بعد النبى (ﷺ) ، واحتجوا أيضا بالحديث الذى روى يوم فتح مكة فى الخمر ؛ لما وصل الثقفى بها ، وقد كان صديقاً للنبى (ﷺ) قبل الهجرة ؛ فلما دخل النبى (ﷺ) مكة ـ جاء براوية خمر يهديها إليه ، فقال له النبى (ﷺ) : « يا أبا فلان أما علمت أن الله قد حرمها » ؟ فأمر غلامه بأمر فيها ، فقال : بم أمرته ؟ فقال : أمرته أن يبيعها ، فقال له النبى (ﷺ) :

« إن الله الذى حرم شربها حرم ثمنها » خ - لعله بيعها - وأمر النبى (ﷺ) فصبت فى بطحاء مكة ، فقالوا : لو كان الخمر صنع ينتفع به فى حال ثانية : لم يأمر النبى (ﷺ) بإراقته ، وهو نهى عن إضاعة المال ، وقال النبى (ﷺ) : « بعثت بكسر الصليب، وقتل الخنزير، وإراقة الخمر ، ولا يجوز للمسلم إمساكها بعد علمه بتحريمها دون إراقتها .

فالجواب لهم فى ذلك : أن جلد الميتة قد حرمه الله، ورسوله؛ كما حرم الخمر ، فمنع من ذلك ؛ فإذا جاز الانتفاع به بعد الدّباغ ، وأجاز حبسه بعد التحريم له إلى أن يعالج ، فيتغير حكمه ، فيصير حلالا ، فكذلك الخمر يعالج حتى يتغير فيصير حلالا .

وجلد الميتة أصل متفق عليه ، فيجب أن يرد إليه المختلف فيه من الدباغ به من الخمر : كجلد الميتة ، والمحرم يجوز الانتفاع به بعد الدباغ . والله أعلم .

فإن قال قائل : ولم قلتم : إن الملح يحول النبيذ خلا ؟ قيل له : لما كان تحريم النبيذ لشدة الحادثة فيه ، وكان الملح يذهبها - زال التحريم ، لزوال العلة ، وانتقل عما كان عليه ، وجاز الانتفاع به .

فإن قال : فعين واحدة حرمها الله تعالى - تصير حلالا ، والعين قائمة - قيل له : نعم ؛ إذا كانت محرمة لعلة لا للعين نفسها فزالت العلة التى وجب بها التحريم - زال حكم التحريم ، وصار المحرم حلالا ، والله أعلم .

ومن الدليل على أن بعض أصحابنا : كان لا يقول بالقياس فى الأحكام -

أنهم أجمعوا مع مخالفيهم أن المرتدة عن الإسلام : يبطل صداقها من زوجها ، وتحرم عليه .

واختلفوا فى الزانية : فردّها بعضهم قياساً على المرتدة ، فأبطل صداقها ؛ لأن الحرمة جاءت من قبلها كالمرتدة .

وقال بعضهم : لها الصداق ، ولم يجمع بينها وبين المرتدة بعلة إدخال الحرمة بفعلها مع اتفاقهم على أنها تحرم على زوجها بفعلها للزنا .

ويوجد فى الأثر عن عبد الله بن محمد بن مسلمة المدنى ، وكان فقيها ، وابن فقيه ، وكان أبو عبيدة مسلم يعظمه ، ولا يقوم من مجلسه إلا له .

وكان يقول فى المرأة ؛ إذا حلف عليها زوجها بطلاقها : ألا تفعل مما له أن يمنعها منه ، فارتكبت نهيه ، وفعلت ما حلف عليها ألا تفعله — أنها تطلق ، ويبطل صداقها ؛ لأنها هى التى أدخلت الحرمة عليهما — وهذا يدل : على أن صاحبنا قاسه على المرتدة فى بطلان صداقها ، لإدخالها الحرم على زوجها .

ويدل على أن بعض أصحابنا لم يقولوا بالقياس : أنهم أجازوا إطعام أهل الكتابيْن ؛ لإجازة ظاهر الكتاب: لقول الله عز وجل ذكره: « وَطَعَامُ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ حِلٌّ لَكُمْ ، وَطَعَامُكُمْ حِلٌّ لَهُمْ » ، ولم يعتبروا نجاستهم ، واستعملوا الظاهر .

ولم يجز بعضهم التعريض للبوائن من المطلقات قياساً على البوائن من المميتات ، وتركوا القياس ها هنا ، ولعلهم ذهبوا إلى ما روى عن ابن عباس ؛ لما قال : من حمل دينه على القياس لم يزل — الدهر — فى التباس .

وأيضاً فإنهم يريدون فى القىء ، والرعاف ؛ أنهما لاينقضان الصلاة ؛ إذا انفلت المصلى بهما ـ توضأ ، وبنى على صلاته ، ولم يقيسوا على هذه السنة غيرها من الأحداث .

وكذلك أجمعوا[١] على أن المحدث من الجنابة ؛ إذا صلى بقوم ـ وهو غير عالم بجنابته ـ أن صلاته ، وصلاتهم فاسدة ، وعلى الجميع الإعادة ؛ وإن خرج الوقت ، ثم تركوا القياس على ما أجمعوا عليه من هذا الحديث ، ليقيسوا عليه غيره من الأحداث ، والله ولى التوفيق .

* * *

---

(١) فى حكاية الإجماع نظر لوجود الخلاف فيها ، والأصل فيه : هل صلاة المأموم مرتبطة بصلاة الإمام ؛ لأنه إنما جعل إماما ليؤتم به ، فصلاته فى حكم الشرط لصحة صلاة من خلفه ، أو غير مرتبطة ، لأنه إنما جعل إماما فى حال صحة صلاته ، فأما إذا فسدت : فليس بإمام ، وذلك أن كل واحد منهم مؤد لفرضه وهذا الأخير قول أكثر أشياخنا (رضى الله عنهم) م.

القول السابع
فى تشبيه المسائل بعضها ببعض
والقياس أيضاً

وقال محمد بن محبوب (رحمه الله) عن موسى بن على (رحمه الله) : إذا تزوجت امرأة المفقود بأزواج ، ثم قدم واختار الصداق ؛ فله أقل الصداقين الذى عليه والذى على زوجها الذى هى معه ، وضرب موسى لذلك مثلا : كرجل باع شفعة لرجل ثم باعها الآخر لآخر ؛ أنه يأخذها من الذى هى فى يده .

وقيل : إذا كانت مسألة لها أصل وصفة ، وجاءت مسألة فرعية تشبهها فى الصفة أنها مثلها .

وقيل : فى رجل أصاب من زراعته أربعمائة صاع ، فأخذ السلطان الجائر مائة صاع ، وبقى منها ثلاثمائة صاع : أنه يعطى الزكاة من أربعمائة صاع ، ولا تسقط عنه الزكاة من الذى أخذه السلطان ؛ ولو أخذ الأربعمائة كلها — من قول أبى عبد الله الخراسانى .

قال أبو عبد الله : إلا أن يكون لما كال الحب أخرج زكاته ؛ فأخذه السلطان كله ؛ فليس عليه ، وإن هو أخرج زكاة أربعمائة فعزلها ؛ فجاء السلطان فأخذ ما عزل من الزكاة وحده ، ولم يأخذ الباقى — فإنه يخرج زكاة ما بقى عنده .

وكذلك فى رجل عنده عشرة آلاف درهم ، فجاء السلطان ، فأخذها كلها من بعد محل زكاتها ، ومن قبل أن يخرجها ـ أن عليه أن يعطى زكاتها ولو باع من أصل ماله ، ليؤدى الزكاة كالمرأة ، إذا جاءها الحيض من بعد دخول وقت الصلاة ، ولم تصلها حتى جاءها الحيض فإن عليها بدل تلك الصلاة، إذا طهرت .

وعن الوضاح بن عقبة عن هاشم بن غيلان (رحمهما الله) : فيمن نسى مسح الأذنين حتى صلى ـ أن صلاته جائزة ، وإن ذكر قبل الصلاة مسح أذنيه ـ فكتبت أنا بهذه المسأله إلى أبى زياد ـ ما تقول : (رحمك الله) إن ذكر ، وقد أحرم ، وقد دخل فى الصلاة ؟ فأجابنى بخط يده ، أقول : يرجع[1] يتوضأ ، ثم يصلى برأى منى ؛ لأنى حفظت . أن من نسى مسح رأسه ؛ حتى صلى ـ أعاد الوضوء والصلاة ؛ فمن أجل ذلك ، رأيت ذلك .

وقال بشير فى رجلين قتل كل واحد منهما ابن صاحبه ، فقال كل منهما أنا أقتل أولا : قال : يقتل أولا الذى قتل قبله ، ثم يقتل الآخر ، وإن لم يعلم أيهما بدأ بالقتل : فإنهما يقترعان ؛ كالذى يدعى على رجل حقا ، فيدعى المدعى عليه على المدعى حقًّا أيضًا ؛ فإن المدعى أولا يبدأ الحاكم بإنصافه ، ثم يمسك المدعى الثانى من المدعى الأول ، وقاس هذه بالأولى .

---

(١) اختلاف العلماء فى مسح الأذنين : هل هما من الرأس ، ويجب مسحهما معه ؟ أو هما من الوجه ويجب غسلهما معه ؟ ، أو هما مستقلتان ، ولا يلزم فيهما شىء ؟ وهو الصحيح عندى ، فلا يجوز تركهما عمدا ؛ لثبوت مسح النبى (صلى الله عليه وسلم) لهما والعفو عن الجاهل والناسى

وكذلك الشاهد عليه أداء الشهادة فرضاً ؛ فإذا شغله الذهاب إلى تأدية الشهادة عن معاشه ومعاش أهله ، وكان عليه فى ذلك ضرر ـ فقد أجازوا له أخذ الكراء على ذلك .

وشبهوا بهذا الذين يقبرون الميت ، ويغسلونه ؛ إذا لم يكن لهم قوت ، ويضر بهم الإشغال بأمر الميت ـ فلهم أن يأخذوا من ماله العوض .

وكذلك قالوا : فى رجل تزوج امرأة ، فاختلف الزوج ، والولى فى الصداق ـ قبل أن يدخل بها ـ قال الولى : زوجتها بمائة ، وقال الزوج : بخمسين ، فقيل : إن شاء الزوج سلم ما قال ولى المرأة ، أو المرأة ، وإن شاء سلم نصف ما أقر به من الصداق ، وطلقها ، وهذا ؛ إذا لم يكن معهم بينات على دعاويهم .

وقاسها أبو على على البيع ؛ إذا كانت السلعة فى يد البائع ، وقال البائع للمشترى : بعتكها بعشرة دراهم ، وقال المشترى : اشتريتها بخمسة دراهم ؛ فإن لم يكن معهما بينات ؛ فإن شاء المشترى أخذها بالعشرة ، وإن شاء تركها ، وهذا إذا لم يكن لهم بينات على دعاويهم .

وقال أبو محمد (رحمه الله) : اتفق علماؤنا فيما تناهى إلينا عنهم : أن من لزمه فرض الحج والصلاة ، والزكاة ، والعتق ، والصدقة عن يمين حنثها ، ونذرٍ وجب الوفاء عليه به .

وما كان من سائر الحقوق التى أمر الله بفعلها ، ولا خصم المأمور من

المخلوقين فيها مما هو أمين فى أدائها ، ولم يؤدها ، ولا أوصى بها ؛ أنه لا يتعلق على الوارث ـ أداؤها ، ولا أداء شىء منها ـ كان الهالك تاركاً لذلك من طريق النسيان ، أو العمد .

واختلفوا فيه ؛ إذا أوصى بها ، أو أمر بإنفاذها ؛ فقال سليمان بن عثمان ، وغيره من الفقهاء : يجب إخراج ذلك من جملة المال ؛ لأنه واجب على المأمور إخراجه فى أيام حياته من جملة المال ؛ فلا يجب زواله منه بعد الموت ، وسبيله سبيل سائر الحقوق المأمور بإخراجها من جملة المال ، وشبهوه بالدَّيْن الواجب على الهالك .

وقال موسى بن على ، ومحمد بن محبوب ، وأبو معاوية ، وأبو المؤثر ، وغيرهم من الفقهاء : ما كان من هذه الحقوق التى ذكرناها ـ ترجع إلى الثلث إذا أوصى بها الميت ، لأن الديْن يجب قضاؤه ، ولو لم يوص به ، وأما الأشياء التى ذكرناها : فلا يجب قضاؤها إلا إذا أوصى بها ، لاتفاقهم جميعاً على ذلك ولأن الدين لو قضى عنه فى حياته ـ بغير أمره ـ لسقط عنه أداؤه ، وكذلك بعد وفاته باتفاق .

ولأن المريض إذا كان عليه دين وحج ، ولم يخلف وفاء لقضائهما ـ أنه يبدأ بالدين ، فيقضى ، ولو كان سبيلهما سبيل الدين لضُرب معه .

وفى بعض القول أنه يبدأ بالحج ، وبحقوق الله الواجبة قبل الدين ، وقول : إن حقوق الله وحقوق العباد تتزاحم ، ولا يقدم أحدهما على الآخر ، وقول : تقدم حقوق العباد على حقوق الله تعالى .

وكل هذه الأقاويل : يجعلون حقوق الناس من رأس المال .

وقيل : كل مسألة لم يخل الصواب فيها من أحد قولين . ففسد أحدهما لقيام الدليل على فساده ـ صح أن الحق فى الآخر .

فصـــل :

وسئل أبو محمد « رحمه الله » عن القياس ، فقالوا : وهو أن يقاس الفرع على الأصل ، كما قال الله تعالى : « وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ، ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ ، فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً » فكل من القيّاس جلد قاذف المحصن من الرجال ؛ لاستواء العلة به .

وكذلك جاءت السنة فيمن أعتق حصة من عبد له فيه شريك ـ عتق العبد كله ، والقياس فى الأَمَة إذا كانت بين شركاء ، فأعتق أحدهم نصيبه منها ، إنها تعتق كلها ؛ لاستواء العلة فى الأَمَة والعبد .

وكذلك جاءت السنة عن النبى (ﷺ) فى امرأة مست فرجها ، وهى متوضئة ـ أنها تعيد طهرها ، فالقياس فى الرجل إذا مسّ فرجه : أن يعيد طهره .

كذلك : فى سؤر الفأر ـ من ذهب أنه من السباع ؛ فسؤره عنده نجس ، ومن ذهب أنه من الوحوش ، فسؤره ـ معه ـ طاهر ، وكذلك بَعره .

وقال تعالى : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمُ الْمَيْتَةُ » ، فعم بهذا الخطاب جميع الميتة ، وقال (ﷺ) : أحل لكم ميتتان : الجراد والسمك .

فقاس المسلمون باجتهادهم : أن كل دابة لا دم فيها كالجراد[١] ، مثل : العقرب ، والدبى ، والذباب ، والصرص[٢] ، والذرة ، وما أشبهها — أن حكمه الطهاوة كالجراد .

وكذلك القياس فى زرق الطير الذى يؤكل لحمه من أين كان فيه : نجس وطاهر ، فالوحشى طاهر ، والأهلى نجس ، لأن طرح الدجاج معه مفسد ، فكذلك الطير الأهلى — مفسد ؛ لاستواء علته بعلة الدجاج .

والطير الذى يسميه بعض الناس : الصفصوف ، ويسميه بعضهم الغبير ، وهو من العصافير ؛ يفرخ فى المساجد ، وفى البيوت ، وفى الثياب ، ولم نعلم أن أحداً من المسلمين اجتنبه ، ولا قال : إنه مفسد ، ولا نجس ، فقاسوا عليه ما كان وحشيا مثله ؛ لاستواء العلة ؛ لأن طرح الطير الوحشى طاهر .

وكذلك قال المسلمون : إن أقل الصداق أربعة دراهم ؛ قياساً على جواز قطع يد السارق ؛ إذا سرق من حرز أربعة دراهم فصاعداً ، أو قيمتها ؛ لاستواء العلة فى البضع . فهذا ومثله مما يجوز فيه القياس للقائسين من أهل العلم بكتاب الله ، وسنة رسوله نبيه (ﷺ) ، وإجماع أهل العدل ، وأهل العلم . والله أعلم وبه التوفيق .

* * *

---

(١) فى نسخة : لادم لها

(٢) هو الصرصر المعروف ، وتسميه العامة الشرص .

القول الثامن

فى الحجج ، ومن يكون حجة من العلماء ، وفى القياس أيضا

قال أبو سعيد (رحمه الله) : إن قول الواحد من علماء المسلمين حجة فيما أفتى به من الدين فى أكثر القول ، وأن الواحد يقوم فى الفتوى مقام الاثنين فى أمر الدين ، وإذا قام مقام الاثنين : قام مقام الأربعة ، وإذا قام مقام الأربعة : قام مقام الأربعين ؛ وإذا قام مقام الأربعين : قام مقام ألف ، أو يزيدون ؛ وإذا قام مقام ألف ، أو يزيدون ، قام مقام أهل الأرض كلهم ، وكان هو الحجة عليهم ، إذ كان الحق فى يده من الدين ، ولم يكن لأحد عليه حجة فى الدين من جميع العالمين .

ولولا أن الحق والدين على هذا ــ ما كانت الحجة من الله تقوم ، وينقطع بها عذر الشاك فيها بالرسول الواحد إلى أهل الأرض كلهم ؛ ولو كان لا تقوم إلا بجماعة ؛ لكان ذلك أولى به النبيون والمرسلون .

ولو اعتل معتل برسالة هارون مع موسى (صلى الله عليهما) ــ ما كان له بذلك حجة ؛ لأن الحجة على كل أمة ما جاءهم به رسولهم من الحجة والشريعة .

وقد كان نبينا محمد (ﷺ) خاتم النبيين ، والمرسلين ، وناسخاً لجميع شرائعهم ، وكان رسول الله (ﷺ) واحداً أرسله إلى الجن والإنس كافة ، وقامت الحجة به على جميعهم .

وإنما موسى : سأل ربه أن يرسل معه أخاه هارون وزيرا ، وكان موسى ـ هو الرسول إليهم ، والحجة عليهم ؛ لأنه لا تقوم الحجة على فرعون إلا باثنتين

فالعالم المحقق حجة الله فيما أفتى به من دين الله ، وليس لأحد أن يجهل حجة الله ؛ إذا قامت عليه ، فإذا كان العالم الواحد حجة الله فيما يسع جهله على من قام به : فهو الحجة ، وإن لم يكن الواحد حجة ، فالاثنان ليسا بحجة ، وكذلك الأربعة ، والجماعة إلى ما لا يحصى .

لأن العالمين إذا اختلفا فى الدين لم يكونا ـ جميعا ـ بعالمين محقين، ولم يكن بدٌّ لواحد منهما أن يكون هالكا فى الدين ، كاذبا على رب العالمين فى عقول السامعين ؛ لاختلافهما من العالمين والجاهلين ، لأن الحق فى الدين لا يكون إلا مع واحد من المعبرين .

فلا يجوز أن يطلب معه غيره فيما يصح فى العقول، أنه لابد من أحد أمرين: إما أن يقول مثل ما قال بلا زيادة ولا نقصان ، وإما أن يقول غير ما قال ؛ فيكون مخالفا له فى الدين فى عقول العالمين ، لأن الدين لا يكون أبدا إلا مع واحد من المختلفين ، ولا يحتمل فى العقول إلا أن يكون أحدهما كاذبا على الله ، ويمكن أن يكون أحدهما كاذبا ، والآخر صادقا ، ولا يمكن أن يكونا جميعاً صادقين : هذا من المحال .

والدين ما جاء به حكم من الكتاب أو السنة ، أو من الإجماع من علماء المسلمين .

فإذا كان القول من العالم بأحد هؤلاء ، أو بما يشبه ذلك ، أو ما هو مثله ، فلا يجوز لغيره أن يقول بخلافه ، وهو الصادق على جميع من قال بخلافه؛ ولو خالفه جميع أهل الأرض ؛ فهم الكاذبون فى أصل الدين الذى أجمع عليه معاشر المسلمين ، وجميع أهل الاستقامة من الموحدين .

فصـــل :

وقيل مما كتب به أبو الحوارى (رحمه الله) إلى أهل حضرموت : أن الذى فرق بين أموال أهل الشرك ، وأهل القبلة ـ السنن الماضية التى يهتدى بها والآثار المتبعة ؛ التى يقتدى بها ؛ ليس لأحد فيها اختيار ، ولا رأى ، ولا قياس .

كما أن أهل الشرك من غير العرب ـ تغنم أموالهم ، وتسبى ذراريهم ، ولهم العهد . والذمة .

وأما أهل الشرك من العرب فتغنم أموالهم ، ولا تسبى ذراريهم ، ولا لهم عهد ولا ذمة ، ولا يقبل منهم إلا الدخول فى الإسلام ، أو القتل ، وكلا الفريقين مشركون .

فجاءت السنة ، والأثر عن رسول الله ﷺ ؛ فيبطل ها هنا الرأى والقياس .

قال الله تعالى : « الزَّانِيَةُ والزَّانِى ؛ فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ » وكان الجلد على البكر مائة جلدة بكتاب الله ، وعلى المحصن الرجم بسنة رسول الله ﷺ ، وكلاهما زان نسخه زانيان .

وقال الله تعالى « الطَّلَاقُ مَرَّتَانِ ، فَإِمْسَاكٌ بِمَعْرُوفٍ ، أَوْ تَسْرِيحٌ بِإِحْسَانٍ » ؛ فكان طلاق الحرة ثلاث تطليقات بكتاب الله ، وطلاق الأمة اثنتان فى الأثر .

وقال محمد بن محبوب (رحمه الله) : بلغنا عن النبى ﷺ : أنه حدّ على شرب الخمر أربعين جلدة ، وحدّ أبو بكر الصديق (رضى الله عنه) على شرب الخمر أربعين جلدة ، وحدّ عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) على شرب الخمر ثمانين جلدة بعدهما ، فروى عن الربيع (رحمه الله) أنه قال : مضت السنة ؛ من تركها هلك ، والمسلمون على ذلك إلى يومنا هذا : يحدون على الخمر ثمانين جلدة .

فلو أن إماما أحدّ على شرب الخمر أربعين جلدة ، وقال : هكذا فعل النبى (ﷺ) ، وأبو بكر (رضى الله عنه) من بعده ـ ما قبل منه ذلك .

وبلغنا عن النبى[1] (ﷺ) : أنه لما وادع المشركين عام الحديبية ، وكتب المدنة بينهم « من محمد بن عبد الله رسول الله (ﷺ) فقال المشركون ـ فيما بلغنا ـ : لو نعلم أنك رسول الله ما حاربناك ؛ فضرب النبى (ﷺ) على اسم الرسالة ، وكتب : من محمد بن عبد الله .

فلما وقعت المكاتبة بين على بن أبى طالب ، ومعاوية بن أبى سفيان فى الحكمين ـ كتب على بن أبى طالب : من على بن أبى طالب أمير المؤمنين إلى

---

(١) رواه البخارى وغيره .

معاوية بن أبى سفيان ، فكتب إليه معاوية بن أبى سفيان ـ لو نعلم أنك أمير المؤمنين ؛ لما حاربناك ، فدع عنك اسم الإمارة ، ونتكاتب بالآباء .

فبلغنا أن ابن العباس أشار عليه بذلك ، وروى له ما فعل النبى (ﷺ) عام الحديبية فى ترك اسم الرسالة؛ لما كره المشركون ذلك، فترك على اسم الإمارة، وكتب من على بن أبى طالب إلى معاوية بن أبى سفيان .

فلما بلغ ذلك المسلمين وصلوا إلى على ، وأنكروا عليه ذلك ، وقالوا له : ماحملك على أن تخلع اسما سماك به المسلمون ؟ ولم يقبلوا من ابن عباس ماأشار به عليه ، وفارقوا عليا على ذلك ؛ حتى رجع إلى اسم الإمارة .

وكذلك الإمام إذا حدّ على شرب الخمر أربعين جلدة لم يقبل منه، ولو احتج بما فعل النبى (ﷺ)؛ لأنه قد يجوز للنبى (ﷺ) مالا يجوز لغيره من الناس، ويجوز للناس مالا يجوز للنبى (ﷺ) ؛ فقد أحل الله للنبى (ﷺ) هبة المرأة نفسها ، وحرم ذلك على غيره ، وحرمت عليه الصلاة على المنافقين ، وحلت لغيره من الناس، وحرم عليه الطلاق ، والاستبدال بنسائه،وحل ذلك لغيره من الناس. وكل ذلك فى كتاب الله تعالى . قال الله تعالى : « لَا يَحِلُّ لَكَ النِّسَاءُ مِنْ بَعْدُ، وَلَا أَنْ تَبَدَّلَ بِهِنَّ مِنْ أَزْوَاجٍ ؛ وَلَوْ أَعْجَبَكَ حُسْنُهُنَّ » .

وقال جل ذكره: « يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ إِنَّا أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَاجَكَ اللَّاتِي آتَيْتَ أُجُورَهُنَّ، وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ ؛ مِمَّا أَفَاءَ اللهُ عَلَيْكَ، وَبَنَاتِ عَمِّكَ ، وبناتِ عَمَّاتِكَ ، وبَنَاتِ خَالِكَ ، وبناتِ خَالَاتِكَ اللاتِي هَاجَرْنَ مَعَكَ ، وامْرَأَةً

مُؤْمِنَةً ، إِنْ وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ ؛ إِنْ أَرادَ النَّبِيُّ أَنْ يَسْتَنْكِحَهَا خَالِصَةً لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ » .

وقال الله تعالى عند ذكره المنافقين : « وَلَا تُصَلِّ عَلَى أَحَدٍ مِنْهُم مَاتَ أَبَداً ، وَلَا تَقُمْ عَلَى قَبْرِهِ » ، وغير هذا مما يحل له ، ولم يحل لغيره من أمته ، والله أعلم .

فصل :

ومما يوجد عن أبى عبد الله (رحمه الله) فى الذى يتزوج من المسلمين يهودية ، أو نصرانية ؛ هل يأكل مما تعمل له من الطعام ؟ قال : قد قيل : إذا غسلت كفيها ثم عجنت له عجينا ، أو عملت له طعاما ـ وهو ينظر إليها فلا بأس بأكله ، مالم يحدث بكفيها عرق ، أو غيره ، وماخرج منها من رطوبة من عرق ، أوغيره ـ أفسد ما أصابه .

قيل له : كيف حلّ أكل الخبز من طعامهم ، وهم يعملونه رطبا ، ويعلمون ذلك ؟ قال : هكذا جاء الأثر ، والآثار لاتحمل على القياس .

وقيل : سأل سائل أبا عبيدة (رحمه الله) ، فقيل له : إن السمن يؤتى به من الأهواز من بلاد المجوس ، فلم جاز أن يشترى غير مضمون ؟ ولا يجوز أن يشترى الجبن إلا مضمونا ، فقال أبو عبيدة : هكذا جاء الأثر فى الجبن ، ولم يجىء ذلك فى السمن .

ويوجد عن هاشم بن غيلان (رحمه الله) أنه قال فى رجل أفطر شهر رمضان متعمدا : أن عليه كفارة ، قضاء شهر ، والتوبة إلى الله تعالى من فعله ، ولم يوجب

عليه كفارة ، ولا غيرها ، ولعله كان ممن لا يقول بالقياس ، لأن الناس أجمعوا على من وطأ فى شهر رمضان متعمدا ـ أنه مفطر ، وعليه القضاء ، والكفارة .

وقال أكثر من قال بالقياس : من أكل أيضا فعليه القضاء ، والكفارة ، لأنه مفطر ، كما أن المجامع مفطر .

ولما لم يوجب الكفارة هاشم بن غيلان رحمه الله ، وترك القياس فى هذا الموضع ظننا أنه كان ممن لا يرى القياس .

وقيل : فيمن وطأ امرأته فى شهر رمضان نهاراً ، فإن عليه القضاء والكفارة فإن أفطر يوما ثانياً وثالثاً ـ فليس عليه غير تلك الكفارة ، مالم يكفرها .

فإن قال قائل : لِمَ لم تجعلوا لكل يوم كفارة ، واليوم الأول غير اليوم الثانى ؟ قيل له : إن الله جل ذكره ، جعل الكفارة زجراً لعباده ، وردعا لهم ، ألا ترى إلى الحدود ، إذا اجتمعت من جنس واحد ـ أنها لا تتكرر على الجانى بل يقام عليه حدٌّ واحد ، إذا كان الفعل من جنس واحد ما لم يقم عليه الحد ، وإن عاد إلى الفعل بعد أن أقيم عليه الحد أعيد عليه حد ثان كما قلنا فى الكفارة إذا كفرها ثم عاد إلى الإفطار لزمته كفارة ثانية .

فإن قال قائل : فإن لم يكفر ، حتى أفطر يوما آخر من سنة أخرى ، هل تجزيه كفارة واحدة ؟ قيل له : لا ، لأن كل سنة فرض غير الفرض الأول ، وهو كالجنس الآخر ، لأن السنة الأولى غير السنة الثانية ، فصار الفعل فيهما كالفعل فى الجنسين .

فإن قال : فإن المرأة التى وطأها غير المرأة الأولى التى وطأها أولا ـ قيل له : هذا كله وطء كما [أن] ذاك كله شهر واحد ، فإن قال : فإن اليوم الأول الذى أفطره غير اليوم الذى أفطره بعده ، وكل يوم منها فرض غير الفرض الأول ، قيل له : هذا كله كالحدود التى هى عقوبات مختلفة ، وإن كانت زجراً وردعا .

فصـــل :

وأما العلة : فهى المعنى الذى يطلب منه الدليل ، والدليل هو حجة الله على الخلق ، والحجة هى الحجة التى يحتج بها الإنسان مع خصمه ، وهو فعله ، ولن يعدم صحة معرفة هذا ، وما يشاكله من ناصح نفسه ، واجتهد لها ، ورغب إلى الله تعالى فى إرشاده ، وطلب بتعليمه وجه الله تعالى وما التوفيق إلا بالله ، وهو العاصم ، والمتفضل على عباده وهو على هداية عبده قدير .

* * *

القول التاسع

فى الفتيا ومن يجوز قبول فتياه

وقيل: لايجوز الأخذ بفتيا قومنا ، ولايجوز الأخذ بفتيا غير العدل الولى ، ويجوز الأخذ عن الثقة ، إذا رفع عن غيره من المسلمين ، وأمن على رفع ذلك وضبطه .

وإن كان الرجل من أهل الولاية ، معروفا بالصلاح ، والتزهد ، إلا أنه ليس من الفقهاء ، وطلاب العلم فإنه لايجوز أن يؤخذ عنه العلم .

ولو كان من أهل الولاية ، إذا كان لايضبط عن العلماء مايسمعه منهم من دقيق العلم ، وخفيه ، لأنه إذا شهد اثنان من أهل هذه الصفة على أحد من المسلمين ـ بما يوجب منه البراءة فإن شهادتيهما لا تجوز ، حتى يفسرا ما شهدا به .

ولم يكلف العلماء ذلك ، إذا شهدوا ، وتقبل شهادتهم على ذلك بغير تفسير .

ومن ابتلى بالسؤال عن أمو الحلال ، والحرام ، وكان يحفظ من الكتب وعرف ذلك أنه عن المسلمين ، أجابهم على ما عرف أنه الحق ، ولم يعرف عدلا ولأنه عن المسلمين ، فلا يجيبهم بما لا يعرف عدله ، وإن قال : وجدت فى الأثر ، فليس لهم الأخذ بذلك ، إلا أن يقول : فى آثار المسلمين .

والذى يقبل فتواه : هو العدل المعروف بالسير ، والصلاح المنسوب إليه الفقه ، وإن كان ثقة ، وليس له ولاية ـ فلا يقلد فى الفتيا إلا أهل العلم من أهل العدالة ، والموافقة لدين الإسلام .

وإن كان أحد من أهل الخلاف ثقة فى دينه ، فلا يقبل منه ما رفع أهل الفتوى من المسلمين ، فلا يصدق فيما يروى من الأخبار عن رسول الله (ﷺ) إلا أن تقوم الحجة بصحة ذلك ، لأنهم يستحلون تحريف الكلام ليثبتوا به مذاهبهم ، ولا يرفع خبرا يوجب تصويب مخالفيهم .

فصـــل :

عن الشيخ أبى سعيد (رحمه الله) : وأما القول فى أنه لا يجوز لأحد أن يأخذ بما فى الأثر ، ولو صح أن ذلك من قول المسلمين من أهل البصر ، وذلك معنا ، إذا كان ذلك باطلا ، وأما إذا كان حقًّا ، فالحق واجب الأخذ به .

والباطل فى ذلك على وجوه : منه ما يكون القائل فى ذلك الأثر محقًّا ، والقابل منه ذلك على ما يوجد فى الأثر عنه مبطلا ؛ وذلك كلما خرج على وجه التقليد فى الأحكام لا فى الشريعة فى الإسلام فى شهادة شهد بها على غيره ، أو براءة تبرأ بها من غيره ، خصه ذلك بعلمه ، فأنفذ فيه الحق بحكمه ، وأشباه هذا ؛ مما هو مثله ، فذلك جائز له هو .

ولا يجوز لغيره أن يتبع أثره فيه ، ولا يقلده [فى] ذلك ، ولو سمعه يشهد ويبرأ مما جاز له أن يشهد بشهادته ، ولا يبرأ لبراءته ، إلا حتى يعلم كعلمه ، فالأثر أحرى ، وأجدر ألا يجوز الأخذ بذلك عنه فيه .

ومن ذلك ما يكون من نقل الشريعة ، والقول فيه فى الدين ، كالقول فى الباطل المأثور عن العالم المشهور ؛ أن يكون الباطل منه على هفوة ، أو زلة مخالفاً فى ذلك الحق ، ويؤثر ذلك من قد عرفه وهو صحيح عنه ، وهو باطل فى الأصل .

ولا يجوز قبول الباطل ، ولو سمعه السامع ينطق ذلك بلسانه ، وحصره بعيانه – ما جاز له أن يقبل منه ذلك الباطل المخالف للحق من كتاب الله أو من سنة نبيه ، أو من إجماع المحقين .

وقد يكون ذلك الباطل من العالم على وجهين :

أحدهما : أن يقصد إلى العدل فى ذلك ؛ على علم منه بذلك الحق ، ويخطئ بغيره ، ولا نعلم أنه أخطأ بغيره ، وقد قال بالباطل الذى يعلم هو أنه باطل ؛ وإنما قصد إلى ضد الباطل ، وإلى إصابة الحق ؛ فلا خطأ على مسلم ، وقد يقال : عن النبى (ﷺ) أنه قال : « عُفِىَ لأمتى الخطأ والنسيان »[١] وهذا من الخطأ الذى عفى للمسلمين عنه ؛ فالقائل فى هذا على هذا الوجه مصيب عند الله فى دينه ، لا تبعة عليه إلا أن يعلم ، فيرجع عن ذلك ، والقابل منه ذلك ، والعامل به مبطل لا عذر له فى ذلك أن يقبله من أثر ، ولا عن سماع له ، وبصر ، ولا عن صحيح سريرة .

---

(١) الحديث فى رواية رفع عن أمتى الخ رواه الطبرانى عن ثوبان ؛ وتمامه : وما استكرهوا عليه م .

ووجه آخر : أيكون القائل يقصد إلى ذلك القول الذى قال له على أنه يعنيه حق فيما يوهمه، وظن أنه قد علمه ، أو سمعه،أو نقله ، أو تجاهل على ذلك ؛ فقال بذلك الباطل ؛ فوافق فى ذلك ما خالف فيه الكتاب ، والسنة ، والإجماع ؛ فهو هالك بذلك ، لا عذر له فى ذلك ، ولا يجوز أيضاً قول ذلك عنه ، ولا يخرّج هذا إلا على وجه الخاص فى الباطل ، لا فى الحق .

ولا يجوز فى ذلك القول ؛ أن يقول قائل : لا يجوز قبول الحق فى الأثر ، وإنما هو لا يجوز لأحد أن يقبل الباطل ، ولا يجوز لأحد أن يأخذ بما فى الأثر من الباطل .

ولو قال قائل : لا يجوز أن يؤخذ بما فى كتاب الله تبارك وتعالى ـ لجاز ذلك على ظاهر الكلام ـ فى أحكام الخاص والعام ؛ لأن فى كتاب الله : المنسوخ الذى لا يجوز الأخذ به ، ولا العمل به ، وفى كتاب الله : المتشابه الذى لا يجوز أن يعمل به على ظاهره ـ إلا بالتأويل ، وفى كتاب الله : الخاص الذى لا يجوز أن يحمل على العام ، وفى كتاب الله : العام الذى لا يجوز أن يحمل على الخاص ، وكذلك فى سنة رسول الله (ﷺ) : الناسخ ، والمنسوخ ، والخاص والعام .

ولا يجوز أن يوضع شىء من الأمور إلا فى موضعه ؛ كذلك لا يجوز لأحد أن يأخذ بما فى الأثر من الباطل : الذى هو فى حكم دين الله الأخذ به باطل ؛ كان عند الله فى علمه ثابتا أو زائلا ، حقا عند الله أو باطلا .

كما أن موسى (عليه السلام) اتبع الخضر (عليه الرضوان) ؛ ليعلمه مما

علمه الله رشدا ، وكان الخضر عند موسى (عليهما السلام) من أهل الهدى الراشدين السعداء ، فأمضى الخضر من أحكام الله ، وعلم غيبه ـ ما لم يطلع عليه موسى ؛ فأنكر عليه ذلك موسى ؛ إذ كان ذلك فى الحكم عند موسى منكرا ، ولم يكن بلّغ من ذلك علما ، ولا خبرا ، وكان الخضر (عليه السلام) لذلك عالما مبصرا . فلو اتبع موسى الخضر على ما قد جاز للخضر خاصة ـ ماوسعه ذلك عند الله فى حكم الدين ؛ لأنه أتى ما هو عليه محجور فى الحكم .

وكان الخضر (عليه السلام) فى أفعاله تلك محقا ، وكان موسى (عليه السلام) فى إنكاره ذلك محقا ، ولم يكن لموسى أن يخطئ الخضر فيما أتاه ؛ ولكن ينكر عليه أن يظهر ما أتاه من المحجورات عنده فى حكم دينه الذى تعبده الله به ، ولم يكن ليفعل كفعله ، ولا يعمل كأعماله ؛ حتى يحدُث لموسى فى ذلك علم ؛ كما حدث للخضر (عليهما السلام) ، والقول فى هذا بيّن واضح إن شاء الله .

فكل ما أثر فى الكتب : فهو أثر ، والحق منه حق ، والباطل منه باطل ، والصدق منه صدق ، والكذب منه كذب .

لا يجوز قبول الباطل من الكتب ؛ كما لا يجوز قبول الباطل من الكلام المسموع ، ولا يجوز رد الحق من الكلام المسموع ، ولا يجوز الشك فيما لا يجوز الشك فيه ؛ مما يسع جهله ، كما لا يجوز الشك فيه مما لا يسع جهله ، ولا يجوز رد الحق منه كما لا يجوز الشك فيه فيما لا يسع من الخبر المسموع وأصل ذلك ، وأثبته ، وأقواه ـ ما صح من تنزيل الله تبارك وتعالى على أنبيائه ورسله

صحفًا مكتوبة ، وألواحًا ؛ فكان ذلك حجة عليهم ولهم على قومهم ، وقام ذلك مقام الخبر فيما قطع به عذر من جهله ، وهدى الله برحمته من قبله .

كما كان الوحى خبرا بغير كتاب حجة ؛ بل قد احتج المشركون على النبى (ﷺ) ، ولم يكن لهم بتلك حجة ؛ ولكن ، لما جاءهم بما لم يأت به الرسل من قبله إلا ما شاء الله ؛ فقال [وا] : « لَنْ نُؤْمِنَ لَكَ — وهم أهل الكتاب — حَتَّى تُنَزِّلَ عَلَيْنَا كِتَابًا مِنَ السَّماءِ ؛ فأوحى الله تبارك وتعالى إليه أن يصبر ؛ فقد سألوا موسى أكبر من ذلك ؛ فقال الله : « إِيتُونِى بِكِتَابٍ مِنْ قَبْلِ هٰذَا ، أَوْ أَثَارَةٍ مِنْ عِلْمٍ ؛ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ » .

فما وجد فى الأثر من حق — كان أقوى حجة من الخبر ، لأن الأثر ؛ إذا صح صح بالإجماع عليه ، فوجدنا الله قد قطع العذر بالكتاب ؛ كما قطعه بالوحى ، وهدى بالكتاب كما هدى بالوحى . ومن ذلك ما صح من كتاب الله تبارك وتعالى : أنه قد انقطعت حجة بلقيس وقومها بما ورد عليهم من كتاب فى منقار طائر ، أو فى عنقه ؛ إلا أنه هو الموصل له ، والملقى له إليهم ، وما صح من سليمان (صلوات الله عليه) فى كتابه لهم : « إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ ، وَإِنَّهُ بِسْمِ اللهِ الرَّحْمٰنِ الرَّحِيمِ ، أَلَّا تَعْلُوا عَلَىَّ ، وَأْتُونِى مُسْلِمِينَ » ؛ فكان ذلك حجة عليهم من سليمان (عليه السلام) ، وقطعًا لعذرهم .

ومن ذلك : قوله الله مخبرا عن سليمان ، أنه قال : « يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ أَيُّكُمْ يَأْتِينِى بِعَرْشِهَا قَبْلَ أَنْ يَأْتُونِى مُسْلِمِينَ » ؟ ؛ فكان هذا دليلا على أنه قد استحل غنيمة العرش ؛ بقيام الحجة ، وقطع العذر بكتاب الطائر .

ومن ذلك : مالا نعلم أن أحدا ينكره ـ أن النبى (ﷺ) كان يحتج بالكتاب على يد رجل على أهل الأمصار ، والقرى ، والأقطار ؛ فتقوم بذلك لهم وعليهم الحجة من أثر قامت له الحجة .

وكذلك سائر أئمة العدل ، وكذلك الكتاب بإنفاذ الأحكام من الإمام إلى الإمام ، ومن الإمام إلى القاضى ، والوالى ، أو القاضى إلى الوالى ، أو الوالى إلى القاضى ـ حجة ، وتقوم مقام الخبر .

ولو أخبر الذى فى يده الكتاب ـ إذا كان ثقة ـ مازاد على ما فى الكتاب مما هو حجة من الحق فى موضع الحجة ، وأنه يقوم مقام الخبر ، وهذا مما لا تحصى فيه الحجج .

ثم قال : ما عرفنا من قوله : أنه لا يؤخذ بما فى الأثر إلا من عرف عدله ، فياسبحان الله ؛ فإذا كان قد عرف هذا من قوله ؛ فلا يجوز أن يؤخذ بحدود المنطق إن كان صدقا ، أو صوابا ، أو خارجا على الصواب .

فينبغى أنه ؛ إذا عرف من قول أحد ومذهبه شيئا ، ثم سمع عنه غير ذلك أن يحسن به الظن ؛ فإنه قد يجوز أن يتكلم المتكلم على وجه المذاكرة ، والمناظرة ، والاستخبار ، والكشف عن الحجة ، والمساءلة لطلب الفائدة .

وقد يحقق الواحد من المحقين حجة من حجج المبطلين ، ويناظر عليها ؛ إذا كان قد عرف غير ذلك ، فلا يكون ذلك مأخوذا به ؛ بل له فى ذلك المدح ؛ إذا أبصر حجة المخالفين له وأقاويلهم .

وقد بلغنا : أن بعض أهل الاستقامة ، يناظره بعض أهل العلم على الأديان في الخلاف ؛ حتى يفلج عليه ، ويقول له : لو كنت أعلم أنك على هذا لبرئت منك ، ولم يبرأ منه ؟ وقد ناظره على دين أهل الخلاف ، وأقام عليه حجة أهل الخلاف للدين ؛ فهذا معنا ؛ لو كانت هنالك سلامة صدور لما يراد به من تلك الأمور أن يكون هذا الكلام يصلح بعضه بعضا ، ويوافق بعضه بعضا ، [إذ] لو كان باطلا ؛ لوجدنا فيه اختلافا كثيرا .

وأما القول في أنه لا يؤخذ بما في الأثر إلا من عرف عدله : فذلك خاص لمعنيين .

فمعنى على وجه التوقيف عن الأمر ؛ أن لا يقبل حتى يعرف عدله .

ويبصر عدله أن يكون هو عدلا في أصل دين الله ، ويشرح له صدره ، ويطمئن إليه قلبه، وذلك : معنى أبصر عدله؛ لأن الله تبارك وتعالى يقول: « فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ »، « وَمَنْ يُؤْمِنْ بِاللهِ يَهْدِ قَلْبَهُ ».

وسئل بعض الفقهاء : أيهلك من يأخذ بالرخص عند الضرورة ؟ قال : لا يهلك وهو واسع له ؛ إذا أخذ ببعض الأقاويل عند الاضطرار إلى ذلك ، وقيل[1] : إن الله يحب أن يؤخذ برخصه كما يحب أن يؤخذ بعزائمه .

وقال : إذا جاء في المسألة اختلاف ، وأخذ فيها أحد بقول من أقاويل المسلمين ، وعمل به ، وهو له بصر ، وتمييز ، وتحرّى العدل في ذلك ، ورآه أقرب شبها بكتاب الله ، أو سنة رسوله محمد (ﷺ) ، أو إجماعَ المهتدين من الأمة ـ فجائز له ذلك

---

(١) هذا حديث رواه أحمد ، والبيهقي عن ابن عمر ، ورواه الطبراني عن ابن عباس ، وعن ابن مسعود ، ولفظه عندهم : « إن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه » . م .

وأما سائر المسلمين غير العلماء فاختلاف المسلمين لهم رحمة ، وجائز لهم أن يتمسكوا بقول من أقوال المسلمين ما لم يحكم عليهم حاكم من حكام المسلمين ممن يجوز جبره للرعية على الحكم بخلافه ؛ فلا يجوز خلاف ما حكم به الحاكم .

فصل :

قال أبو سعيد : إذا أفتى العالم بشيء يعلم الأصل فيه ؛ فزلت لسانه فى فتياه ، نخالف الحق ـ أنه لايسع المفتى [له] أن يعمل بما أفتاه العالم من الباطل، ولو لم يعلم أنه باطل ؛ فإن مات وهو على ذلك الباطل الذى يخالف الكتاب ، والسنة ، والإجماع ـ فهو هالك ، ولا إثم على العالم فى ذلك .

وإن كان المفتى لا يعرف الأصل ؛ فتحرى فى فتياه الصواب ، وأفتى ، وخالف الكتاب والسنة والإجماع فالمفتى ، والمفتى [له] ـ هالكان كلاهما ، وإن وافق قولا من أقوال المسلمين مما يجوز فيه الرأى ـ فالمُفتِى سالم إذا وافق الحق ، والمفْتَى [له] بعض عذره ؛ لأنه وافق الحق .

وبعض رآه آثما ؛ لأنه تكلم فى الإسلام بغير علم ؛ لقول الله تعالى : « كَبُرَ مَقْتًا عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا عَلَى مَا لَا تَعْلَمُونَ » . والمفتى إن أفتاه هذا العالم بالأصول ، نخالف الحق المجتمع عليه ؛ فلا يجوز أن يعمل بالباطل ، ولو اعتقد السؤال عما يلزمه .

وإن هو عمل بما يفتى ، وهو معتقد السؤال ؛ فلم يزل على ذلك يعمل بما يفتى ، ويسأل حتى مات قبل أن يصيب الحق ، فإذا دان بأداء ما يلزمه فى ذلك ، وتاب فى الجملة من جميع ما خالف فيه رضا الله ، ومن جميع ذنوبه .

وهو دائن بالسؤال عن جميع ما يلزمه فى جملة دين الله ، وعمل بما يفتى به على غير قصد منه إلى ركوب الباطل ؛ إلا لسبب الفتيا — وأظن أنه عسى أن يكون كذلك — وهو معتقد للسؤال عما يلزمه ؛ فلا أقول : إنه هالك ، وإن حسن فى عقله خلاف ما يفتى به ، وهو إلى الحق أقرب ؛ إلا أنه باطل فى الأصل — فليس له أن يعمل بالباطل على حال من حجة عقل ، ولا قول معين .

فصل :

وسئل محبوب[1] : هل بين المسلمين اختلاف فى الحلال والحرام؟ فقال :— أما كل ما جاء فى كتاب الله — تحليله — أو تحريمه — فليس بينهم فيه اختلاف ، واختلفوا فى أشياء : فقال بعضهم قولا ، وقال آخرون غير قولهم ، وهم يتولى بعضهم بعضا ، ولا يخطئ بعضهم بعضا ؛ وذلك ما يجوز فيه الاختلاف .

وكل منهم يتعلق بأصل يبنى عليه ، وينتهى إليه ، فمن عرف تأويل الأقاويل ، وتمييزها ، وأحسنها ، وأعدلها كان عليه التحرى فى ذلك من نفسه إذا بلغت إليه معرفته ، وأحب استعمالها ، أو استعمل شيئا منها .

---

(١) محبوب بن الرحيل بن سيف بن هبيرة القرشى ، وسيف من فرسان النبى صلى الله عليه وسلم — كذا فى التواريخ العمانية — وهم أهل بيت علم ، وفقه ، وفضل .

ومحبوب أحد تلامذة جابر ، وأبو عبيدة ، وكان ربيب الربيع بن حبيب صاحب المسند : لم أقف على تاريخ وفاته ، وعنده أولاد علماء مشاهير منهم محمد ، وعبر ، ومن أولاد محمد : بشر ، وعبد الله ، ومن أولاد عبد الله سعيد الإمام ، وبيتهم يسمى : بيت آل الرحيل ، ولهم عقب موجود إلى اليوم بصحار .

وإن لم يبن له ذلك منها ــ شاور من بحضرته ، ومن قدر عليه من أهل العلم من أهل دعوته فى ذلك ؛ حتى يدخل بعلم وبيان .

فإن عدم ذلك من المعبرين له ممن يأمنه على عبارة ذلك ؛ فعمل به إلى أن يتبين له غير ذلك ، فعلى هذا يكون حاله إن شاء الله .

فمتى ما لقى من هو أعلم منه بعبارة ذلك وتفسيره ، وفسّر له ذلك ، وبان له عدل ما فسر رجع إلى ما فسر له مما قد بان له صوابه ، من غير تخطئة منه لنفسه ، أو من قد عمل بقوله .

وهذا سبيله مما يلزمه لنفسه فى جميع ما يُختلف فيه بالرأى : من ولاية ، أو براءة ، أو صلاة ، أو صيام أو حج ، أو زكاة ، أو نكاح ، أو طلاق ، وجميع ما يلزمه فى دينه فى ذات نفسه ، وكذلك : إن صار إلى منزلة ــ احتاج إليه فيها غيره : فتكون دلالته لغيره على سبيل ما يحتذى لنفسه .

وأرجو أن يهجم الله به على الصواب ؛ إذا استجاب له ، وتاب ، وتوكل عليه فى جميع الأسباب ، واستعمل الاجتهاد ، بمبلغ ما يقدر عليه من جميع ما وقع عليه من أمر نفسه ، وغيره .

ومن كتاب المعتبر ، وقيل فى خطأ العالم الذى يجوز له ؛ أن يفتى بالرأى : مرفوع عنه ، وصوابه مأجور عليه .

ولا يسع أحداً أن يفتى بالرأى إلا من علم ما فى كتاب الله ــ تعالى ــ ، وسنة نبيه ، وآثار أئمة العدل ، وقيل : من أفتى برأيه فأخطأ ــ وليس هو ممن يجوز له الرأى ــ يضمن .

وقال أبو سعيد (رحمه الله) : قد اعتبرنا معانى هذه الآثار ، فوجدناها صحيحة محكمة من الأخبار ؛ إلا أنها مجملة غير مفسرة ، وتشتمل عليها معانى الخاص والعام ، ويحتاج الناظر فيها إلى تفسير معانيها ، فأحببنا أن نذكر من ذلك ما فتح الله منها .

وأما قوله خطأ العالم الذى يجوز له أن يفتى بالرأى : مرفوع عنه ، وصوابه مأجور عليه فمعنى هذا : أن الخطأ على ضربين : خطأ ضلال ـ وهو أن يقول بالرأى فيما لا يجوز فيه الرأى ؛ مما جاء فيه حكم من كتاب الله ـ تعالى ـ وسنة رسوله ، أو إجماع أمته ، أو ما أشبه ذلك ، فإذا قال : بشىء من هذا برأيه مما يخالفه ـ ولو كان ممن يجوز له أن يقول بالرأى ، فأخطأ فيه ـ فهو هالك ضال فيما قال ؛ لأنه قال بالرأى فى غير موضع الرأى ، وليس بمرفوع عنه خطؤه ، بل آثم فى ذلك ، ضامن ظالم ، وإن قال بالرأى فى موضع الرأى ـ وهو ممن يجوز له القول بالرأى ، باجتهاده بالرأى ، فوافق الصواب ـ كان مأجوراً مصيباً وإن كان خالف الصواب باجتهاد رأيه ـ وهو من أهل ذلك ـ كان معذوراً من الحق قريبا ، لا فرق بينه وبين من أصاب الحق على الحقيقة الذى طلبهُ ؛ كما لا فرق بين من تحرّى القبلة عند مَن عدم معرفتها بالعين ، أو بالشواهد الدالة عليها فتحرى القبلة ، وأدى اللازم من الصلاة ، ومعه غيره يتحرون ذلك مثله ، كل منهم يجتهد رأيه ، فأصاب بعض وجه القبلة باجتهاد ، وأخطأه بعضهم ، وصلوا الصلاة على ذلك ، فنى الإجماع أنهم مسلمون متفقون غير مفترقين ، وفى تعقب ذلك : إذا كان أحدهما أخطأ وجه ما أراد باجتهاده ؛ فنى أكثر ما قيل عندنا : أنه لا يدل عليهم جميعا ، وأنهم كلهم سواء فى الفعل ، وفى العاقبة .

وقد قيل ـ ولا أعلم صحيحا من قول أصحابنا ـ : أن على المخطئ منهم البدل ؛ إذا علم ذلك ، ولا يبعد ذلك إلا شيئا يلحق معانيها .

وأما التارك للقبلة للدلائل الظاهرة للمصلى باجتهاده إلى غير القبلة بهوى ، أو بعمى ، ولو ظن أن ذلك يجوز له ؛ إذا رأى من هو مثله ـ فى بقعته ـ يصلى إلى مثل ذلك ؛ فلا عذر له ولا نعمة عين .

وكذلك القائل : بالرأى فى غير موضع الرأى ؛ فإذا قال : بالرأى فى الدين ؛ فقد خالف معنى الرأى ، وليس ذلك معنى وجه الرأى ؛ وإنما هو مخالف فى الدين فافهم معانى الرأى من معنى الدين ؛ فإنه لايجوز الرأى فى الدين ، ولا الدين فى الرأى ، وذلك خارج من القسمية ، ومن المعنى ، والرأى حكمه : ماعدا الدين والدين حكمه : ماعدا الرأى .

ومن أخذ بقول أحد من أهل العلم من المسلمين ، يقدر أن يراه عدلا أو يتعمده ، وهو لايبصر مواضع الأعدل فأرجو أنه لايضيق عليه .

وإذا ثبت معنى الضرورة ، وجواز الرخصة بشىء من دين الله ؛ فقد يخرج معنى قولهم : ـ من الاختلاف ـ أن من قبل الرخصة على معنى الشكر لها ، كان كمن اجتهد فى الأخذ بالتشديد فى دين الله ؛ ما لم يحمل على نفسه فى ذلك ضرورة ؛ فإنه مصروف ، وقبول الرخصة على هذا أفضل .

وأما من قال : إنه لايسع أحداً ؛ أن يفتى بالرأى ؛ إلا من علم ما فى كتاب الله ، وسنة رسوله ، وآثار أئمة العدل ـ فهو صحيح عندنا ؛ وذلك أنه لايجوز القول بالرأى فى شىء ؛ إلا أن يكون عالما بأصول الدين فيه .

وأصول الدين : ما جاء فى كتاب الله ، أو سنة رسوله، أو إجماع المهتدين من الأمة فى كل وقت ، وزمان .

فمن علم فى شىء من الأمور من فن من فنون العلم ، أو باب من أبوابه ، أو فى شىء منه بعينه حكم بما جاء فيه من الكتاب ، والسنة ، وإجماع المهتدين من الأمة ، وهو عالم فى ذلك الشىء .

فإذا أبصر وجه الرأى ، والقول بالرأى فيه ، واهتدى له ـ كان فقيها فيه ، وعالما به ، وكان من أهل الرأى فيه .

كما كان غيره من العلماء فيما هو أكثر منه من الفنين والثلاثة ، والبابين والثلاثة : بل هو أقوى فيه ، وفى بابه ، وفى معناه ـ إذا كان عالما به ـ من الفنين ، والثلاثة . والأربعة . ولو كان العالم لا يكون عالما ؛ حتى يحيط بجميع فنون العلم لكان هذا محالا ، والمحال ضلال ؛ إلا أن يكون عالما ، وقد ثبت حكم العلماء ، أو أن يكون يثبت أن أحدا يحيط بالعلم ، وهذا كله لا يجوز .

والثابت جائز أن يكون من علم شيئا كان عالما به، وجاز له فيه ما يجوز للعالم به: من حفظ ، أو قياس ، أو رأى .

كما أنه : لو علم عالم فنونا كثيرة ، وأشياء كثيرة من العلم؛ حفظا ، ودراسة من الأشياء ـ لم يعلمه ـ وعلمه غيره ؛ حفظا ، ودراسة من الغيبيات : ما جاز أن يقال : إن ذلك العالم عالم بهذا الذى لم يعلمه ، وما جاز أن يقال : إن هذا العالم به غير عالم به ، وهذا من المحال .

وقربها فى المعانى : ولا يجوز نفى الصحيح ، ولا إثبات المعدوم ، ولو جاز هذا ـ لجاز أن يسمى صانعا لشىء من الصنائع ؛ حتى يحيط بتلك الصنعة كلها ، وإن ذلك يجوّز أن يسمى صانعا من جميع الصناعات مثل : الحداد ، والصائغ ، والنساج ، والحجام، والطبيب ، وأشباههم ، وقد ثبت لهؤلاء كلهم اسم الصنعة ؛ لمعرفة شىء منها ـ ولو لم يحيطوا بجميع الصنائع ـ .

وكذلك التاجر يلحقه اسم التاجر ؛ إذا اتجر ولو فى شىء واحد ، ـ ولو لم يجمع فنون التجارة ـ كذلك .

كذلك : العالم بالشىء من الأشياء يلحقه اسم العلم به ؛ فإن خص بالتسمية جاز وإن أطلق عليه اسم العلم : فى معنى ما أريد من العلم فيه وبه ـ جاز ذلك ؛ لمعنى ما ذكرنا من عدم الإحاطة بجميع العلم .

والمعنى ثبوت اسم العلم على غير اسم الإحاطة ، والقول فى ذلك يتسع ، ومن دون هذا كفاية إن شاء الله .

فصل :

سئل عبد الله بن محمد بن إبراهيم السموألى : هل يجوز للرجل أن يأخذ بجميع ما يجده فى الكتب ؟ قال : فيه اختلاف بيّن قيل : لا يجوز إلا من عرف عدله ، وقيل : يجوز ، ولو لم يعرف عدل المسألة ، وقيل: إذا وجد المسألة فى ثلاثة مواضع ـ جاز .

وقال : إن كان فى المسألة اختلاف؛ فقول: يجوّز له الأخذ بالرخصة، وقول:

إن كان يعرف عدل الأقاويل ـ تحرّى الأعدل منها عنده، وإذا لم يعرف الأعدل منها ـ أخذ بما أراده .

وقول : عليه أن يعرف الأعدل من الأقاويل ، ويكون فيها كابن عباس؛ وإلا هلك ، قال : من أخذ بقول من أقاويل المسلمين فهو سالم .

فصل :

وأما الضمان على من أفتى ـ وهو لا يجوز له القول فى الرأى ـ فأخطأ ، هذا معناه : إن كان أراد العبارة لما علمه ، ولا يشك فيه ، فأخطأ بغيره من لفظه .

فخطأ هذا كخطأ العالم الذى يجوز له أن يقول : الرأى ، فقال به ، فأخطأ ـ بل هذا أبين عذرا ، وأثبت حجة ؛ لأنه قصد إلى معروف بعينه ، فأخطأ بغـــيره .

وإن خالف بذلك الدين ؛ فلا إثم عليه ، وذلك : كالذى يعلم أن ميراث الأم مع الأولاد ـ السدس، ولا مع غير الأولاد ـ الثلث، فنزل به حكم، أو فتيا يجب فيه للأم ـ السدس ، فجعل لها الثلث ، قصدا منه إلى السدس ، وإلى علمه الذى معه لاشك فيه .

ولو نسى معنى ماخوطب به، أو أخطأ لسانه بالكلام بغير ماأراد من اللفظ ـ فهذا معذور سالم لا إثم عليه ولا ضمان .

وأما الخطأ الذى لا يسعه أن يكون قد حفظ ، وعلم أن للأم مع الأولاد ـ السدس، ولم يحفظ كم لها مع غير الأولاد، والإخوة ؛ فجعل لها مع غير الإخوة ـ السدس؛ إذ قد عرف ذلك مجملا من حكمها، أو جعل لها مع الأولاد ، والإخوة ـ الثلث؛ إذ قد علم ، وحفظ أن لها الثلث مع غير الإخوة ، والأولاد .

وكذلك فى الزوجين : حفظ أن للزوج ـ الربع مع الأولاد ، فجعل له الربع مع غير الأولاد ؛ فهذا حفظ لا ينفعه ، ولا عذر له فى ذلك الذى خالف فيه الأصل .

كما خالف من أفتى بالرأى فى الدين الأصل ، وكما خالف من قال بالدين فى الرأى الأصل ، وكذلك أمثال هذا .

فعلى من أخطأ الخطأ الذى يجوز له فيه السعة ؛ إذا علم بخطئه ـ أن يُعلم من أفتاه بالخطأ أنه قد أخطأ ، وأن الحق غير هذا ، ولا خروج عليه فى طلب المفتى ؛ ولكن يرسل إليه ، ويكتب إليه ؛ إن قدر على مثل ذلك .

وأما من خالف الدين بفتيا ، أو حكم بما لا يسعه ، ولا يعذر فيه ـ فمعناه : أن عليه الخروج فى طلب المخرج ؛ مما يلزمه من إعلام ذلك ، ومن ضمانه ؛ إذا قدر على الخروج ـ كما يقدر من وجب عليه الحج : من صحة البدن ، وأمان الطريق ، والزاد ، والراحلة .

وقيل : إن المفتى ؛ إذا خالف الحق الذى لا يعذر فيه عالم ولا ضعيف ، فأتلف بفتواه مالا ، أو تعلق عليه شىء يوجب الضمان ـ أن عليه الضمان .

وأما العالم ـ فلا ضمان عليه فى خطئه الذى يعذر به ؛ مما قد وصفنا، أو شبهه، وكذلك الضعيف ؛ إذا أفتى على وجه ما : يكون له العذر فى الخطأ ، فلا ضمان عليه ، ولا إثم .

وأما الجاهل الذى يعرف بالجهل ، وليس هو ممن يؤتمن على العلم ، ولا هو من أهله ؛ إذا أفتى بما يخالف فيه الحق ؛ مما يجوز فى الرأى ، وهو مخالف لأحكام الدين ؛ فقال فيه بجهله ـ ولو لم يعتمد فى ذلك شيئا من الحق ـ فهو ظالم آثم بقوله بخلاف الحق بجهل ، أو بعلم ، ولا أعلم عليه ـ بعد التوبة ـ ضمانا ؛ لأنه ليس من الدالين على الحق . وإن قال فى ذلك بجهله قصداً منه إلى الحق ، على ما يظن أنه واسع له ، فوافق الحق فى دين ، أو رأى فيما يسع فيه الرأى ـ فهو سالم ؛ ولا إثم عليه ؛ إذا قصد إلى الحق على ما نظن أنه واسع له ، فوافق الحق الذى يجوز له فيه القول لمن علمه . ولعل بعضا يقول : إنه لا توبة عليه ؛ إذا وافق الحق ، وكان قصده إليه ؛ على ما يرجو ويظن أنه واسع له .

وأما ضمانه : فلا أعلم أحدا يقول بذلك؛ إذا كان من الجهال الذين لا يؤتمنون ولا يعرفون بالعلم .

وأما : إذا كان من الضعفاء ؛ الذين لا يؤتمنون على العلم ، وكان منهم من الفتيا ما يخالفون فيه الدين ، ولا يخرج فى الرأى، ولا فى الدين ؛ بلا وجه عذر من خطأ يخرج على ما وصفنا ، وما يشبهه لعالم ، أو ضعيف ، وهما سواء ؛ إذا خالفا الحق فيما لا يسعهما ، ولا يكون لهما فى الخطأ عذر ؛ كما وصفنا ، أو ما يشبهه من عذر العالم ، أو الضعيف .

واختلف فى ضمانهما :

فقول : عليهما الضمان ؛ لأن المفتى بمنزلة الدليل ، والدال ضامن ، ولو لم يفعل بيده .

وبعض يقول : ليس عليهما ضمان ؛ لأنهما إنما هما دالان على القول الذى به أتلف من قبل غيرها ؛ وكانت تلك الدلالة محجورة ؛ على القابل أن يقبلها ، ولم يكن الدال دل على شىء بعينه ، ولا أمر بإتلافه — فلا ضمان عليه . وهذا يشبه مذاهب أصحابنا .

وللعالم أن يبصر الرأى فى الخطأ فيما أخطأ به فى حفظه ، ومعرفته بالشىء بعينه — ما للضعيف فى مثل ذلك .

وليس للضعيف فى الرأى ، إذا لم ينزل بمنزلة الرأى فى الخطأ — ما للعالم الذى يجوز له القول بالرأى ؛ لأنه قد خالف الأصل الذى ليس فيه حجة .

وقال عثمان بن أبى عبـد الله الأصم (رحمه الله) : إذا تنازع الفقهاء ذوو الرأى من المسلمين فى شىء من الحلال ، والحرام — فخذوا بأيه شئتم .

وإذا كان الاختلاف فى حكم الحادثة بالرأى — لم يجز لكل فريق من أهل الرأى أن يخطىء صاحبه ، ولا يبرأ منه على خلافه فى رأيه الذى قد حكم به فى الحادثة لأن المسلمين قالوا : من نصب رأيه دينا ، ثم برىء ممن خالفه عليه — فقد ضل ، ومن نصب رأيه دينا ، وادعاه على الله — فقد كذب على الله ؛

لأن الله تعالى ؛ إذا تقدم فى حكم ـ لم يجعل للعباد فيه الخيار ، وإذا تركهم واجتهاد الرأي : جاز الاختلاف فيه بالرأى ، وكان كل مؤتمنا على رأيه ، واجتهاده ؛ إذا كان من أهل الرأى ، والاجتهاد ـ والله أعلم .

وقال سعيد بن أحمد بن محمد بن صالح (رحمه الله) : ولا يجوز تخطئة أحد من المختلفين بالرأى من علماء المسلمين ؛ بل يلزم ، ويجوز ، وتجب ولاية جميعهم .

وعلى العلماء المختلفين بالرأى : أن يتولى بعضهم بعضا ؛ ولو تضادّوا جملة بالرأى :

مثل : أن يحل أحدهم بالرأى شيئا ، ويحرمه آخر بالرأى ، ويتولى أحدهم بالرأى ، ويبرأ أحدهم بالرأى ؛ ويبرأ آخر ، وما أشبه ذلك .

فمن عمل بقول من أقاويل المسلمين ، أو أخذ به ؛ فقد عمل بالحق ، وقال : بالصدق ، ولا تجوز تخطئته ، فمن خطأه فى ذلك برأى ، أو بدين ؛ فقد خالف الحق ، ووجبت البراءة منه بالدين فى موضع أحكام الرأى .

ومن حكم بحكم الدين فى موضع أحكام الرأى ، أو حكم بحكم الرأى فى موضع أحكام الدين ـ فقد خالف هو ـ بذلك أحكام الدين ، وكان من الضالين الفاسقين ؛ لأنه أصل ، والرأى أصل ، وكل أصل على حاله ، ولا يجوز أن ينقل حكم واحد منها إلى الآخر برأى ، ولا بدين ، بجهل ، ولا بعلم و والله أعلم .

وقيل : إذا كانت الحادثة فى الدين من الأصول المنصوص عليها من الكتاب ، أو السنة، أو إجماع الأمة ـ كان الاختلاف بين الفقهاء خلعًا منهم لبعضهم [بـ] بعض ، وبراءة وتضليلا ، وكأن الحق فى واحد ، ومن خالفه كان ضالا .

وإن كانت الحادثة مما يجوز القول فيها بالرأى، ووكل الفقهاء فيه إلى عقولهم، واجتهاد رأيهم ؛ فما ليس عليه نص من كتاب ، ولا سنة ، ولا إجماع ـ جاز لكل منهم أن يجتهد [بـ] رأيه ، ويتحرى الصواب فى حكمها .

فإذا اجتهد ، وناصح نفسه فى حكم الحادثة ، وظن كل واحد منهم : أنه أصاب أمر الله تعالى فى حكمها، وحكم له بذلك ، وحكم له بالثواب على اجتهاده، ومبلغ علمه ، لا يجوز لهم تخطئة بعضهم لبعض ـ وهم بعد الاختلاف على ما كانوا عليه قبل الاختلاف عند بعضهم بعض .

واختلاف المسلمين فى الفروع رحمة ، وفى الأصول نقمة .

وليس للحاكم أن يتحرى فى الرأى ؛ إلا ما يرى أنه هو الصواب ، ويرجو أنه أقرب إلى الحق ، ومن لا يعلم تمييز الأعدل ؛ من الأقاويل ـ وسعه أن يأخذ بما أراد من رأى الفقهاء .

وقال أبو سعيد (رحمه الله) : إذا كان الحكم الذى ينزل بالحاكم من أصول الدين : لم يجز له أن يخالف فيه الأصل ، ولو اختلف فيه من يضاف إليه العلم من حاضر ، أو سالف ، والاختلاف فى ذلك باطل ؛ إلا القول الذى يوافق الحق ـ فهو الحجة .

وعلى العالم ، والضعيف ، والجاهل اتباعه ، وقبوله فيما لزمه من الحكم ، ولا يجوز قبول الباطل لعالم ، ولا ضعيف ، ولا جاهل .

وأمّا إذا كان القول فيما يجوز فيه الرأى ، وكان فيه اختلاف — يخرج فى الرأى كله صواب ؛ فإن كان الحاكم ممن يبلغ علمه إلى تمييز ذلك ، والنظر فى عدله ، وإلى ما هو أقرب منه مما هو أبعد فى نظره — فعليه الاجتهاد فى النظر فى ذلك .

كما كان على العالم القائل بالرأى — الاجتهاد فى ذلك ، ليس له أن يتخير ما شاء من الآراء ، إذ كان على هذه الصفة ؛ إلا أن تكون الآراء فى ذلك متساوية فى العدل معه .

فإذا تساوت فى العدل معه فى نظره — وهو ممن يبصر العدل — فله أن يختار ما شاء ، ويحكم به ؛ لأنه خارج كله فى العدل عنده ، وليس شىء أعدل من شىء .

وإن لم تتساو الآراء عنده ؛ فعليه أن يختار الرأى الواحد — من الآراء — الذى يرى أنه صواب ، وإلى الحق أقرب ؛ فيحكم به فى ذلك الحكم الحاضر ، وفيما يستقبل ؛ حتى يتبين له أن غيره من الآراء أصوب ، وإلى الحق أقرب ، ثم يرجع إليه ، ويدع هذا ؛ فلا يزال على هذا ما ابتلى بالحكم ، وامتحن به .

ولا يحكم بالاختيارات على سبيل اتباع الهوى ، ولا إهمال النظر ؛ فيحكم لهذا بهذا القول ، ولغيره بغيره ، وهو يرى أن الأول أصوب ، أو غيرهما . وليس هذا سبيل الرأى ؛ فإذا فعل الحاكم هذا — فقد خرج من سبيل الرأى .

وأما إذا كان كل ذلك عنده عدلا، وهو ممن يبصر عدل ذلك ، فذلك له جائز ويحكم بما شاء ؛ لأن ذلك كله عدل .

وإن لم يكن الحاكم يبصر العدل ـ فتمييز ذلك بنظره ، و [إن] كان بحضرته من العلماء من يبصر عدل ذلك ، وتمييزه ـ فعليه مشاورة أهل العلم ممن يبصر ذلك ؛ فإن ذلك من النظر والرأى ؛ لأنه قد وجد السبيل على الدلالة على حكم الرأى ، وسبيل الرأى ، فيضع الرأى فى موضعه ، ويستدل عليه بغيره ؛ كما يستدل عليه بنفسه ؛ إذا يبلغ هو على الاستدلال عليه .

كما أنه لو لم يعلم فيه شيئا من القول ـ كان عليه الاستدلال بمن قدر عليه من العلماء من أهل الرأى ، وإن كان بحضرته ـ لم يؤخر ذلك ، وإن لم يكن بحضرته ـ شاور العلماء من أهل مصره ممن قدر عليه ، وإن لم يكن من أهل مصره ـ كان عليه من حيث يقدر عليه ، ولا يضيع ما يلزمه ولا يقدم على شىء من ذلك : لغير علم .

وكذلك : هذه الأقاويل التى قد صحت مختلفة ـ لا يعرف أقربها إلى العدل، وبحضرته من يرجو أنه يميز ذلك ـ فعليه مشاورته فى الأقوال المختلفه ؛ كما عليه مشاورته فيما لم يأت فيه قول ؛ لأن الأقاويل المختلفة ـ يمكن عدلها كلها ، ويمكن باطلها كلها ، ويمكن صواب بعضها ، وباطل بعضها : فهى معلومة على من لم يعرف عدلها ، وعلى من يريد العمل بها ـ التماس معرفة عدلها .

وإن عدم الحاكم هذا ، ولم يعرف ـ هو ـ تمييز ذلك : فما أخذ به من الأقوال ، وعمل به ، فوافق الحق ـ فواسع له .

وقول : ليس له هذا ، ولابد من أن يقصد إلى ماهو أصوب عنده ، ولا يهمل ذلك ، ولا عذر له : أن يعمل بباطله ، ولا أن يقبله من قائل .

وقول : إذا عدم هذا - أخذ بقول أعلم القائلين ، فإن لم يعرفه - أخذ بقول أوليائه من القائلين ، فإن استووا - أخذ بقول أفضلهم .

وإذا نزل العالم بمنزلة الفتوى ، وقصد إلى الفتيا - كان عليه ما على الحاكم مما مضى كله ، وليس له الإهمال ، ومامضى فهذا القول فى الحاكم : فهو على العالم مما وصفنا فى الحالات كلها فى الفتيا ، والمفتى كالحاكم .

وكذلك : الذى يبتلى بمسألة يريد العمل بها فى نفسه ، أو غيره - فهو بمنزلة الحاكم ، والمفتى ، وكلهم فى ذلك سواء .

والحاكم فى نفسه ؛ كالحاكم على غيره ، والمفتى كالقابل ، وما وسع الواحد : وسع الجميع ، وما ضاق على الواحد : ضاق على الجميع ؛ إذا نزلوا بمنزلة واحدة .

وكل من خصه حال : لم يلزم غيره ما خصه ، وليس لأحد موافقة غير الحق : بقول ، ولا عمل ، ولا نية ، ولا ينجو من ذلك ؛ إلا من عصمه الله برحمته .

فصـل :

وفى كتاب « التاج » : أنه جائز الأخذ بالرخصة لمن اضطر إليها ، لما روى عن رسول الله (ﷺ)[1] أنه قال : « إن الله يحب أن يؤخذ برخصه ؛ كما

---

(١) رواه أحمد ، والبيهقى عن ابن عمر ، ورواه الطبرانى عن ابن عباس وعن ابن مسعود بلفظ : « أن تؤتى رخصه ، وأن تؤتى عزائمه » .

يحب أن يؤخذ بعزائمه » ، وفى رواية . إن الله يحب أن يؤخذ برخصه ؛ كما يحب أن تترك معاصيه ، وقال ابن عمر : من ترك رخصه ؛ عنى عنها يوم القيامة على ظهره مثل جبل أحد ، ويروى عن بعض الفقهاء : أنه سأله سائل ، وقال له : اطلب لى فى ذلك رخصة ، فقال له : إنما نفتى برأى المسلمين ، وليس علينا فى ذلك طلب رخصة .

وقال أبو المؤثر (رحمه الله) : ينبغى للمفتى أن يتحرج ، ولا يضيق على الناس ما هو واسع له ، ولا يوسع لهم ما هو ضيق عليهم .

وقيل : إن الأثر كله معمول به ؛ إلا ما صح باطله ، وقول : لايعمل به [إلا من] عرف عدله .

وأما الضعيف الذى يسأل المسلمين ، وينظر فى الآثار ، ولا يبصر عدل ما يحفظ ، ويسأله غيره عن شىء لايعرف عدله ، وهو يعلم أنه يأخذ بفتياه ، ويقول له : سمعنا كذا ، وكذا ، ورأينا فى الأثر كذا وكذا ، فيوافق الحق ، أو الباطل — إنه لابأس عليه ؛ إذا كان صادقا فيما قال : أنه سمع أو رأى ، ويرجو ، أو لم يعلم باطل ما قال له به .

وإن وافق الحق لم يخب من الثواب ، وإن وافق الباطل فلا بأس عليه ، وعلى السائل ألا يقبل الباطل ، و[أ]لا يعمل به .

وقال أبو الحوارى (رحمه الله) : إن الكتب لا يؤخذ بما فيها إلا [من] من عرف عدلها ؛ وذلك لايكون إلا فقيها .

وروى بعض الإخوان ـ بحضرة الشيخ أبى سعيد (رحمه الله ـ أنه قيل لأبى عبيدة: إن أهل عمان يفتون بالرأى، فقال: ما سلموا من الدماء، والفروج!! فقيل لأبى سعيد: فعندك أن القائل بالرأى فيما سوى الدماء والفروج؛ ترجى له الإصابة فى الحق؟ قال: هكذا أحسب على تأويل قول أبى عبيدة؛ لأنه جاء فى بعض الروايات: كادت العلماء أن تحيط بالعلم، لولا الدماء، والفروج؛ لأن أمرها عندهم دقيق[1].

فصل:

وقيل فى السائل إن جاء يسأل عن شىء فى التعارف والحكم: وله وجهان: أن يخبره بالوجهين جميعا فى التعارف، والحكم ليدخل عليه الفرج من وجهين، والضيق من جهة؛ فطلب السائل السلامة لنفسه، وإن أراد السائل أن يأخذ لنفسه بمعنى التعارف، وترك الحكم؛ إذا كان التعارف يبيح له الترك، والحكم يحجره عليه.

فإن كان ذلك كله عدلا، وصوابا ـ لم أضيق عليه أن يأخذ بالعدل، وإلا: فعليه أن يأخذ بأعدل الأمرين عنده، وإن لم يبصر العدل، فأعدلهما عند أهل العلم ـ إن أبصر من يعبر له ذلك ممن يبصر العدل فى ذلك.

---

(١) ذلك لأن الخطأ فيها لا يمكن تداركه؛ فإذا سفكت الدماء خطأ وقتل من قتل، وجرح من جرح، فمن ذا يعيد بنيان الله فى ذلك الشخص التالف، «ومن يقتل مؤمنا متعمدا، فجزاؤه جهنم، وغضب الله عليه، ولعنه، وأعد له عذابا عظيما».

وكذلك لو وطىء فرجا محرما فاستحل حراما، وولد [ا] حراما، واستباح الاكتشاف على المحارم، والميراث الحرام الذى لا ينقطع مادام ذلك النسل موجودا، ويتواجد. م ...

وكذلك ما كان من الاختلاف فى الرأى فله أن يأخذ بأحد الأقاويل ، إن كان كله من قول المسلمين .

لأنه : لايجوز أن يكون كله عدلا [أ]و يكون بعضه أعدل من بعض [أ]و يكون كله متساويا فى العدل .

وإن بان عند المبتلى شىء — يدخل فيه الاختلاف — أنه أعدل من غيره ، فأخـذ بدون ذلك من الأقاويل ، للتخفيف على نفسه ، إذ كله من أقاويل المسلمين .

فإن قصد إلى غير العدل ، فهو غير محسن ، ويخاف عليه الإثم فى ذلك ، وإن لم يقصد فى ذلك إلى مخالفة العدل ، وإنما أراد أن يتوسع برأى المسلمين بقصد الرخصة ، لا إلى مخالفة الحق على الاعتماد لذلك ، وإنما أراد [من] ذلك : قبول الرخصة .

ولو كان غير ما أخذ به من الآراء — أعدل منـه عنده ، فإذا أبصر عدل الآراء ، لم يجز له أن يفتى — ولا يعمل إلا به ، إذا أراه أعدلها وهو يبصر العدل .

وتارك العدل على بصيرة — هو أخذ بالجور ، وإنما يقصد فى الاختلاف : اجتهاد الرأى بأعدل الأمور ، فإذا ترك وجه الرأى الذى يجوّز من طريقه — خرج من معناه .

وإن استوت الآراء كلها عنده فى العدل ، وكان ممن لا يبصر عدلها : فهو مخير ، أن يأخذ منها بما شاء على قصد منه إلى العدل فى اعتقاده ، لا على الإهمال لمعنى القصد .

وآراء المسلمين التى قد صحت بينهم ، وثبت فى آثارهم كلها عدل إلا ما كان من العلماء ؛ على سبيل الغفلة ، والغلط ، والنسيان .

والاجتهاد فى الأخذ بأعدل الآراء : لازم على كل من أراد أن يعمل بشىء منها ، أو يفتى به : من عالم وضعيف ومجتهد ، لإصابة العدل بخصوص كل شىء من الإسلام ، وعمومه ، ولا يصاب العدل : إلا بفضل الله وتوفيقه .

والاجتهاد : يتصرف فى أحوال السعة ، والضيق ، والمسكنة ، والاضطرار ولكل حال : حكم يخصه من ذلك . والله أعلم وبه التوفيق .

القول العاشر
فى قيام الحجة فى قبول الفتيا ، والقول فى آخر الجوابات

قال الله تعالى : « فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ ، إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ » [أى] : فتعلموا ، وتفهموا فى الحلال والحرام ، وأبصروا ما تصيبون تمييز الأمور : بعضها من بعض ، ثم حينئذ يسع العالم أن يفتى ، ويجتهد رأيه فيما يسع .

وإن ورد عليه أمر ثبت فيه حكم من رسول الله (ﷺ) ، فلا يفتى بغيره .

وإن ورد عليه شىء ؛ قد اختلفت فيه الرواية عن النبى (ﷺ) ، وروى ذلك الثقات من المسلمين — فينبغى له أن يجتهد رأيه فيما روى ؛ فينظر أشبه ذلك بالحق ، وأحسنه ، ويفتى به .

وإن ورد عليه شىء لم يبلغه فيه شىء عن النبى (ﷺ) ، وجاء فيه عن أصحاب النبى (ﷺ) ، وأجمع عليه الثقات من بعدهم — فينبغى أن يفتى به .

وإن ورد عليه شىء لم يبلغه فيه حديث عن النبى (ﷺ) ، وقد اختلف فيه ؛ فينبغى له أن يجتهد رأيه ، وينظر أى أقاويلهم أشبه عنده بالحق الواضح ، فيفتى به .

وإن ورد عليه شىء لم يطلبه منه شىء عن النبى (ﷺ) ، لا عن أصحابه ، وقد أجمع عليه التابعون ؛ فبلغه ذلك عن ثقاتهم — فليسلم لهم ما قالوا ، ويفتى بقولهم ، ولا ينبغى له أن يفتى بغيره .

ومن طلب الفقه ، والعلم ، وصحت فيهما نيته ـ كان أفضل من العبادة ، وجميع أعمال البر .

وينبغى للذى يبتلى فى أمر دينه : فى حلال ، أو حرام ـ أن يسأل أفقه من يقدر عليه من أهل المصر الذى هو فيه ؛ فإن أفتاه بقول ، والمُستفْتَى جاهل بالعلم أخذ بقوله .

وإن كان فى المصر فقيهان كلاهما يؤخذ عنهما ، فاستفتاهما فيما ابتلى به ، واتفقا ـ أخذ بقولهما ، وإن اختلفا ـ نظر أيهما يقع قوله فى قلبه : أنه أصوبهما وسعه أن يأخذ به .

وإن كانوا ثلاثة فقهاء فى مصرٍ من الأمصار ؛ بعضهم قريب من بعض فى الفقه ، فاتفقوا فى الفتيا ـ أخذ بقولهم ، وإن اختلفوا ، فاتفق اثنان منهم على أمر ، وخالفهم الثالث ـ أخذ بقول الاثنين ، ولم يسعه أن يتعدّى إلى قول الثالث ، ولا قول نفسه ، وإن اختلفوا ، فأفتاه كل واحد بقول ، ولم يتفق اثنان منهم ـ اجتهد هو رأيه فيما أفتوه به ، فأيهم كان أصوب عنده قولا ـ أخذ به ، ولم يكن له أن يترك ما قالوا ، ويعمل هو بغير ذلك

وإن كان المفتى [له] فقيها فى العلم كالمفتى ، وخالفه ـ أخذ بقول نفسه ، ولم يلتفتوا إلى قول من خالفهم ، وإن لم يستفت ـ كان فى سعة أن يعمل برأيه ؛ إذا كان ممن يجوز له أن يفتى .

وإن كان فى الذى ابتلى به رأى ، فمكث بذلك زمانا ، ثم رأى غيره أحسن منه ـ رجع إلى الذى هو أحسن منه عنده ، ولا ينبغى له أن يثبت على

الذى صار عنده خطأ وإن قضى عليه القاضى فى حلال أو حرام ـ سلم ذلك لما قضى عليه القاضى .

ولو أن رجلا جاهلا أفتاه عالم بشىء فى شىء قد ابتلى به ـ فأفتاه فيه ، وأخذ به الجاهل ، فمكث يعمل به زمانا ، ثم قال العالم الذى أفتاه : قد رأيت أن غير ذلك أحسن منه ـ كان ينبغى للمبتلى أن يجتهد رأيه ، وإن كان جاهلا فإن كان الأمر الذى رجع عنه العالم أصوبهما عنده لم يرجع عنه برجوع العالم ومضى عليه ، وإن كان الذى رجع إليه العالم أحسن عنده من الأول الذى رجع عنه ـ أخذ بما رجع إليه العالم ، ولم يسعه [أن] يثبت على ما أفتاه به العالم أولا .

ورجوع العالم من قول إلى قول ؛ كقول العالمين ؛ إذا اختلفا : قوله الأول قول ، وقوله الآخر قول ، وللمستفتى أن يجتهد رأيه فى أحد القولين ، وليس له أن يتعداها .

وما اختلف الناس فيه من الحلال ، والحرام : فما كان القول فيه بالدين ؛ فالحق فيه واحد ، وما سواه باطل ، وما كان القول فيه بالرأى ؛ فكله جائز .

فمن كان له معرفة باختلاف الفقهاء ؛ مما قالوا فيه بالرأى : فعليه أن يأخذ بأعدلها معه ، ومن لم يكن له معرفة باختلاف الفقهاء بالرأى[1] ؛ فما عمل به مما قال به فقهاء أهل الدعوة من الرأى جاز له ذلك .

---

(١) خ : فى القول بالرأى .

قال أبو المؤثر : ما أفتى به العلماء من الحلال ، فواسع لمن استحله ، وما كرهوه ، أو شكوا فيه ، أو ارتابوا — فينبغى ألا يتقدم عليه ، ولا ينتهكه .

وإن اختلف الفقهاء — أخذ بقول أورعهم ، وأكثرهم علما بتفسير القرآن ، وبسنة النبى (ﷺ) ، وأهل السلف من أصحاب رسول الله (ﷺ) الذين لم يحدثوا حدثا [فى الدين] ، والذين لم يقتتلوا على الدنيا ، ولم يحكموا غير الله ، ومن بعدهم [من] التابعين بإحسان ، السالكين سبيلهم ، فهذا رأى المسلمين : آخرهم يتبع أولهم ، ويعترفون لهم بفضائلهم .

وقيل : إذا اختلف الفقهاء فى شىء من الرأى ؛ فمن كان يبصر عدل الأقاويل — أخذ بأعدلها ، وأقربها إلى الحق فى بصيرته ، وإن كان لا يبصر ذلك — أخذ بقول وليه منهم ، وإن كانوا كلهم أولياء — أخذ بقول أعلمهم بكتاب الله ، وسنة نبيه محمد (ﷺ) ، وآثار المسلمين ؛ فإن كانوا كلهم سواء فى ذلك ، واستووا — أخذ بقول أورعهم ، وأفضلهم ، وأزهدهم ، فإن استووا فى ذلك كله — أخذ بقول أسنهم ، [أ]و أقدمهم فى الإسلام ؛ لموضع تقدمه ، فإن استووا فى ذلك ، ولم يكن هو يبصر عدل الأمور — أخذ بما شاء من أقاويلهم ، ووسعه ذلك ، فكان ذلك جائزا له .

ويوجد عن الشيخ محمد بن إبراهيم بن سليمان — أرجو أنه مؤلف كتاب « بيان الشرع » — : وأما اختلاف الرأى : فهو كل حادث لم يأت فيه حكم من كتاب الله ، ولا من سنة رسوله محمد (ﷺ) ، ولا من إجماع المسلمين ، ولا ما أشبه ذلك .

وللعلماء أن يجتهدوا رأيهم فى ذلك الحادث ، وعليهم ولاية بعضهم لبعض ، ولو تضادوا فى رأيهم ، واختلفوا ؛ فأحل بعضهم شيئا ، وحرم بعضهم شيئا ، وتولى بعضهم ، وبرئ بعضهم — فعلى المحل أن يتولى المحرِّم ، وعلى المحرِّم أن يتولى المحلّ ، وعلى المتبرى أن يتولى المتولى ، وعلى المتولى أن يتولى المتبرى ، ولا يجوز لهم الافتراق فى هذا الموضع .

وعلى من علم باختلافهم ذلك ، وتضادّهم ، وافتراقهم — أن يجمع بينهم فى الولاية ، ولا يجوز له أن يفرق بينهم ، والجمع بين الأضداد هاهنا حلال ولازم ، والتفريق بينهم هاهنا حرام ، وضلال .

وأما ما كان من الادعاء على الله فى الدين ، والعداوة والولاية ، والحلال الذى أحله الله ، والحرام الذى حرمه الله ؛ فإذا اختلف فيه الفقهاء ؛ فقال بعضهم : هذا حلال من الله ، وقال بعضهم : هذا حرام من الله ، وقال بعضهم : هذا كفر ، وقال الآخر : هذا إيمان ؛ فإن هذا الاختلاف يوقع بينهم البراءة ، ويقطع ولاية بعضهم من بعض .

ولا تحل ولاية المختلفين على هذه الصفة ؛ فمن جمعهم فى الولاية [وهم] على هذا [الاختلاف] هلك .

وعند هذا : يجب تكليف العلم على الجاهل ؛ إذا قامت عليه الحجة بالحق فى ذلك — لزمه قبوله ، وتحرم عليه ولاية المخطئ من هذين المختلفين فى دين الله .

فإذا قامت عليه الحجة بهلاك المخطىء وإيمان المصيب لزمه قبولها ؛ وإن ردها بجهل — هلك ، وصار بمنزلة من جهل ما كلفه الله علمه من الجاهلين

فصل :

وأما الخطأ فى الرأى : فعلى وجهين : أحدهما يجوز ، والآخر لا يجوز .

فأما الذى لا يجوز : فالرأى فيما لا يسع جهله لا يجوز أن يشك فيه، وذلك حرام لا يسع ، أو فيما قد علم أنه من دين النبى (ﷺ) ، فلا يسع الشك فيه ؛ بعد العلم .

والوجه الآخر : يجوز فيه الرأى فيما سوى ذلك مما يقول [فيه] الرجل : أرى كذا وكذا ؛ مما يسعه أن يراه ، ولو كان الأمر على غير ما رأى — لم يكن عاصيا ، ولا آثما ، لأنه أخبر بما أنه يراه ، وهو صادق فى ذلك .

فصل :

سئل أبو محمد (رحمه الله) : هل يجوز للإنسان أن يقبل الفتيا من غير الولى . إذا كان ثقة ، أو كان من أهل الدعوة ، أو كان لا يعرف قوله ولا علمه إلا أنه ثقة — ؟ قال : لا تقبل الفتيا إلا من أهل العلم ، والدين .

وأما قبول الرفيعة — إذا كان الرافع ثقة ، وكان ضابطا بنقل الفتيا — فجائز قبول رفيعته ؛ إذا كان من أهل الرأى .

قال : ولا يجوز لأحد أن يدل المستفتى على غير الولى العالم الورع ، وسئل عن المفتى : هل له أن يخبر المستفتى بالآراء ؛ ليختار منها المستفتى ما أراد ؟ وهل

يجب عليه ذلك ؟ . فقال : المفتى إذا كان مخبرا بالمستفتى ـ أخبره بالاختلاف ، وإن كان مفتيا لمن استفتاه ـ لم يفته إلا بما يقول هو به مما يراه عدلا عنده ، وإن أخبر المفتى المستفتى بالاختلاف ، ونقل له عمن لايعرفه المستفتى ـ لم يأخذ بقول الرافع ؛ ولو كان ثقة ضابطا للنقل من أهل الرأى ، ولكن يُنظر فى فتيا المرفوع عنه ؛ فإن كان ممن يؤخذ بفتياه ، أو برفيعته ـ أخذ بذلك ، وإن كان ممن لا يجوز منه ذلك ـ لم يأخذ بقوله ؛ حتى يعرف عدل ذلك القول .

وإن قال المفتى : قد قالوا فى هذه المسألة كذا ، وكذا ـ [ف] إن هذا ليس بفتيا ، وقول يجوز الأخذ بذلك؛ وإن قال: قد قال فيها المسلمون : كذا، وكذا ـ فجائز الأخذ له بذلك .

وإن قال المفتى المستفتى : لاتأخذ بقولى ـ لم يجز [له] الأخذ بقوله ؛ لأنه حجز عليه ؛ إلا أن يعلم المستفتى أن ذلك حق قد أبصر عدله من الكتاب ، والسنة ، فعليه العمل بالحق ، ولا يلتفت إليه .

وقيل : فى رجل متعلم من ضعفاء المسلمين؛ يحفظ فى مسألة قولين من أقاويل المسلمين ، فابتلى بعمل هذه المسألة ، وهو لايعرف عدل أقاويلهم ، فأخذ بأحد أقاويلهم ـ جاز له ذلك .

وقد كان مثل هذا بحضرة الشيخ ـ فقال : على هـذا أن يجتهد ؛ كما يجتهد جابر بن زيد (رحمه الله) وينظر لنفسه .

وإن علم أن الحق فى أحد أقاويلهم ؛ فأخذ من قولهم بخلاف مايراه عدلا ـ لم يجز له أن يعمل بخلاف الحق ، ويضمن ما فيه الضمان .

وإن أفتى بخلاف الحق ، وهو يرى [أن] الحق غيره ، فقد قالوا : إنه يضمن ، إذا كان لا يعرف أن غير ذلك هو الأعدل ، فأخذ به [على] أنه الحق عنده ، لأن الفروع يجوز فيها الاختلاف، ويمكن أن يكون الذى عمل ـ أعدل من الذى رأى هو أن يكون أعدل ، ويكون الذى عمل به صوابا ، ولا يضمن ، ولا يأثم ، لأنه قد أخذ بقول من أقاويل المسلمين فيما قالوا به .

ومن سمع من المسلمين قولا من آثارهم فأفتى الناس به ، وأخذوا ذلك عنه، فإنه هو ، وهم سالمون إن شاء الله .

وإن عرف ذلك من آثار المسلمين الصحيحة ، وعرف عدل ذلك جاز له ، وأما أن يفتى ، فحتى يكون من أهل الفتيا فى ذلك .

وقال الحسن بن أحمد (رحمه الله) فى المفتى : إذا كان ممن يفتى ، أفتى بما يراه عدلا من أقاويل المسلمين، وليس له أن يفتى بقول، وهو يرى غيره أعدل منه ، وإن كان ممن لا يفتى ـ أخبره بالأقاويل التى وجدها ، أو حفظها ، وعلى المفتى ، أن يأخذ بالأعدل منها ، إذا عرف الأعدل منها ، وإن كان لا يعرف الأعدل ـ أخذ بما شاء من أقاويل المسلمين ، والاختلاف فى هذا كثير .

وقال أبو إبراهيم : إن العالم ، إذا كان يعرف الحق من الباطل ـ يؤخذ بفتياه ، وإن كان غير ثقة، وأما الثقة ، إذا كان غير عالم، وقال إنه يحفظ كذا، وكذا ـ جاز الأخذ بقوله .

وقيل : إذا رفع الثقة من المسلمين مسألة فى الحلال والحرام ، عن أحد من

علماء المسلمين ممن يؤخذ بقول ــ إنه يقبل ذلك منه ، ويؤخذ بقوله عنــه ، وكذلك إذا لم يسمّ من حفظ ذلك عنه ، إلا أنه حفظ كذا ، وكذا ، ووجد فى الآثار كذا وكذا عن المسلمين ــ [فـ] إنه يقبل قوله فى ذلك ، ويؤخذ بما قال .

وأما إذا لم يقل : إنه حفظ ذلك ، ولا وجده فى آثار المسلمين ؛ وإنما هو أفتى به هكذا ــ فلا يقبل قوله فى ذلك ؛ حتى يكون فقيها فى المسائل ، أو يعرف السائل عدل مارفعه إليه الثقة ، ولم يرفعوه عن حفظ ، أو أثر .

فإذا عرف السائل عدل المسألة ــ قبلها بمعرفته ، وكان جائزا له [فى] ذلك أن يأخذ بالعدل ــ والله أعلم .

فصل :

ومن سئل عن شىء لايعلمه ــ فعليه : أن يقول : لاأدرى ، ولا أعرف ذلك ، أو يقول : الله أعلم ، أو علم الله ذلك [أو] والعلم لله ، وقوله : لاأدرى ولا أعرف ــ أحب إلينا .

وقال أبو سعيد (رحمه الله) فى قول القائل ؛ إذ سئل عن مسألة لايعلمها ــ الله أعلم : فعاب عليه من عاب ، وقال له : إذا سألك أحد عن شىء ــ فقل : سل غيرى ؛ لئلا يترك السائل فى شبهة . واعلم ــ رحمك الله ــ أنه قد بلغنا : أن عبدالله بن عمر كان من أهل العلم والفقه؛ فسأله سائل عن مسألة ، فقال ابن عمر : الله أعلم ، فقال له السائل : أمثل ابن عمر يقول : الله أعلم !! ، فقال له ابن عمر : ماذا على ابن عمر ؛ إذا قال : الله أعلم لما لايعلم .

وبلغنا عن ابن عباس ـ وكان هو ، وعبد الله بن عمر بن الخطاب من فقهاء الأمة ـ أنه دخل عليه نافع بن الأزرق ، فجرى بينهما كلام فى جرأة عبد الله ابن عباس فى الفتيا فى التفسير و [فى] الحلال والحرام ، فقال نافع بن الأزرق لابن عباس : ما أجرأك على الله !! فقال له ابن عباس ، فيما بلغنا أجرأ منى من لا يقول لما لا يعلم : الله أعلم ، وفى بعض الحديث ـ أجرأ منى: من يقول لما يعلم : الله أعلم .

وكل ذلك : صواب[1] ؛ لأن المتكلف للقول فيما لا يعلم غير معذور ، وكاتم لعلمه إذا احتج إليه كالقائل مالا يعلم .

وبلغنا أنه سئل بعض الفقهاء عن شىء لا يعلمه ؛ فقال : الله أعلم ، فقال السائل : رددت العلم إلى عالمه ؛ غير أن الضعيف الذى ليس له كثير علم ، وفقه يستحب له ؛ إذا سئل عن شىء لا يعلمه : أن يقول فى ذلك : لا أدرى ، ولا أعرف [أ] وليس لى فيه معرفة ، ولا يقول : الله أعلم ، فتوهم السائل [أنه] إنما يقف وقوف الفقهاء ، فمن هذا الحرف كانت العلة داخلة على أهل الضعف .

---

(١) « لقد أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتبيننه للناس ، ولا تكتمونه » كما ألزم الجهال ـ السؤال عما لا يعلمون ، فقال : « فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون » . واختلف العلماء : هل يلزم العالم أن يعلم ، ولو لم يسأل ؟ أم يلزمه ؛ إذا سئل ؟ والتعليم بدون سؤال : شعار الأنبياء ، والرسل والعلماء العاملين . « ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله ، وعمل صالحا ، وقال : إننى من المسلمين » م .

وإن قال : الله أعلم بإخلاص من نيته ، وردا منه للعلم إلى عالمه ، وطلب السلامة لنفسه إلى أن يوهم السائل له ـ أمرا يدخل عليه ما قد كره له من ذلك ، فلا بأس به ـ إن شاء الله ـ .

وقيل : إذا أفتى العالم ـ ولم يقل : الله أعلم ـ أصيبت مقاتله ، قال الشاعر :ـ

وَمَنْ كَانَ يَهْوَى أَنْ يُرى مُتَصَدِّراً   وَيَكْرَهُ : لَا أَدْرِي ـ أُصِيبَتْ مَقَاتِلُهُ

وقال أبو سعيد (رحمه الله) : من تشجع بعلم كمن تورع بعلم .

فصــل :

عن أبى سعيد (رحمه الله) فى آخر جواب له ؛ فهذا : ما فتح الله لى مما حضرنى من جواب ما سئلت عنه مع ضعفى ، وقلة بصيرتى ، إلا ما فتح الله ، ووفق ، ولو حسن الاعتذار ـ لكان أولى من بمثلى مما يخاف عليه التكاليف ، والخطأ ، والزلل ، ولكن لم نرمع الاضطرار وجه اختيار ، والله الموفق للصواب .

فتدبر ـ أخى ـ جمع ما كتبت به إليك ، وأجبتك به ، وتدبره حرفا حرفا ، ولا يمنعك عن الاجتهاد فى النظر فيه ـ حسن ظن ، ولا اتكال علىّ ، ولا تقليد ؛ فإن ذلك كله لا يسعنى ، ولا يسعك .

وإنما يجوز قبول الحق لاغيره من أمين ، ولا خائن ؛ فإن وافق ذلك الحق ـ فاقبله ، وتمسك به ، وإن خالف الحق ؛ فإنه من الشيطان ، وأعوانه من الإنس ، والجن ؛ يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً . ، وإن لم يبن لك صوابه ، ولا خطؤه ـ فاعرضه على آثار المسلمين ، وأهل البصر منهم ؛ فما وافق

الآثار ، وصح مع ذوى الأبصار ــ فهو ولا شك ــ أنه من الحق ، وما خالف الآثار ، وخالف رأى ذوى الأبصار ــ فدعه ؛ فإنه طريق النار ، نعوذ بالله من النار .

وفى آخر جواب لأبى على الحسن بن أحمد (رحمه الله) انظر فى ذلك ، ولا تأخذ إلا بما وافق الحق ، والصواب ، والعدل . وتأمل ما كتبت به إليك ، فإن كان فيه زلل ، أو غلط ؛ فأصلحه ؛ فإنى كتبته ــ ولم أقرأه ، ولم أتأمله .

وعنه ــ أيضا ــ فى الذى يسأل عن أمر دينه ؛ فيصل إليه الجواب ، وفيه : لا تأخذ منه إلا ما وافق الحق ، والصواب ؛ فليس هذا مما يمنعه مما أجابه به الفقيه ؛ إذا كان المجيب ممن تؤخذ عنه الفتيا .

وعن أبى الحوارى (رحمه الله) ، وازدد من سؤال المسلمين ، واعلم أنى ضعيف الرأى ، كثير الخطأ ، قليل المعرفة ؛ فما كان من صواب فمن الله ، وما كان من خطأ فمنا ــ ونحن نستغفر الله من ذلك الخطأ ، ونحمد الله على الصواب وما توفيقنا إلا بالله عليه توكلنا ، وإليه أنبنا ، وإليه المصير ، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على رسوله محمد النبى وآله وسلم .

وقال أبو المؤثر (رحمه الله) : ومن ديننا اجتناب كل شىء شك فيه العلماء وردّ ما اختلف فيه إلى عدل كتاب الله تعالى ، وسنة ، نبيه محمد (ﷺ) ، وترك ما يريب إلى ما لا يريب ، واتباع رأى العلماء من المسلمين الذين جعلهم الله ورثة الكتاب ، والسنة ، وللناس أئمة [فيه] مالم يأت فيه كتاب ولا سنة ، ولم يقع فيه التكفير ، والاستحلال ، والتحريم .

وعن أبي إبراهيم (رحمه الله) : قدر الله لك أن تسلم ، وقضى لك بذلك وحكم ، والحمد لله رب العالمين وصلى الله على رسوله محمد (ﷺ) : وصل إليّ كتابك — أكرمك الله — فقرأته ، فهمت ما ذكرت فيه ، وإني أسأل الله التوفيق للصواب ، والنجاة من العذاب ، وأن يوفقنا لما فيه الثواب ، وأن يصرف عنا جميع السوء ، وأن يعيننا على ابتلائه ، لقلة علمنا ، وضعف رأينا ؛ إنه جواد كريم .

وقيل : كتب عزان بن تميم ، إلى الفضل بن الحواري ومن قبله : سلام عليكم ؛ فإني أحمـــد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ، وأوصيكم ، ونفسي بتقوى الله .

فأجابه الفضل بن الحواري: بسم الله الرحمن الرحيم : من الفضل بن الحواري إلى عزان بن تميم .

وكتب الصلت بن مالك إلى جعفر بن محمد ، حين رمى أهل عمان بالفسق ، والضلال : بسم الله الرحمن الرحيم من الصلت بن مالك إلى جعفر بن محمد :

سلام عليكم ، فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو ؛ الذي إياه نرجو أن يكون لديننا حرزاً ولفقرنا كنزاً ، ولدنيانا عزاً ، لا إله إلا الله ، وأوصيكم بتقوى الله ، ولزوم طاعته .

ومثل هذا من الألفاظ كثير تركته طلب الاختصار ، والله أعلم ، وبه التوفيق .

* * *

القول الحادى عشر

فيمن يجوز له أن يفتى ، وضمان المفتى

والذى مضى عليه أئمة المسلمين ، ما كان من الأحكام التى تجرى بينهم ، وكذلك ما كان من مسائل الحلال والحرام التى يقولون فيها بالرأى ، والقياس فقد كانوا يقولون فى ذلك ، وكلهم على الصواب فى ذلك .

وإنما يجوز ذلك لمن كان عارفا بالكتاب ، والسنة ، وآثار المسلمين ، واجتهد رأيه فى رجاء التوفيق من الله ، وإنما لايسع القول بالرأى فى الذى يوجد فى كتاب الله، وسنة نبيه ؛ فذلك الذى لايسع فيه القول بالرأى فى كتاب الله تعالى وسنة نبيه .

فمن قال : فى الدين بالرأى، والقياس ـ فقد أخطأ ، وضل عن سواء السبيل وذلك أن الدين قد سبق ، وسبقت المعرفة فيه ، وقامت الحجة على من جهله .

وليس الدين بحادث مثل ما يحدث بين الناس من قبل أحكامهم فى الطلاق، والعتاق ، والصلاة ، والصيام ، والحج ، وأشباه ذلك .

ولو أن رجلا أفتى ، [فى] مسألة برأيه ، فأحل ، أو حرّم ، فبرئ أحدهما من الآخر على ما خالفه ـ فهذا هو الدين ، ويبرأ من هذا : الذى برئ ، لأن السنة قد سبقت والآثار قد تقدمت بالقول بالرأى منهم فى الحلال ، والحرام .

ولم تفترق هذه الأمة على الفتيا ؛ وإنما تفرقت على النِّحل بما يكون من

أحكام الآخرة ، وقد قال الله تعالى فى الحكم بالرأى : « وَدَاوُدَ ، وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ ؛ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ » ، فأفتى كل واحد منهم برأيه ، فقال الله تعالى مبينا ذلك : « فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ ، وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا » فلم يبطل قول داود ، ولا ذمه ، ولا خطأه ، وشبه هذا يطول به الكتاب .

وقال أبو[1] قحطان : خطأ العالم الذى يجوز له أن يفتى بالرأى مرفوع عنه ، وصوابه مأجور عليه ، ولا يسع أحدا أن يفتى بالرأى ؛ إلا من علم ما فى كتاب الله عز وجل ، وسنة نبيه ، وآثار أئمة العدل .

وقال عثمان بن أبى عبد الله الأصم (رحمه الله) : ولا ينبغى المفتى أن يفتى بالرأى حتى يعلم الكتاب ، وناسخه من منسوخه ، وخاصه ، وعامة ، وفرضه ، وآدابه ، وأن يكون عالما بسنن رسول الله (ﷺ) ، وأقاويل أهل العلم قديما ، وحديثا ، وعالما بلسان العرب ، عاقلا مميزا بين المشتبه ، ويعقل القياس .

فإن علم واحدة من هذه الخصال — لم يحل [له] أن يقول قياسا .

قال أبو عبد الله محمد بن إبراهيم (رحمه الله) : أما اختلاف الرأى فهو أن يختلف علماء المسلمين فى حكم حادثة ؛ لم يأت فيها نص من كتاب الله ولا من سنة رسوله (ﷺ)، ولا إجماع من علماء الأمة ، فصار اختلاف البدع أصلا،

---

(١) أبو قحطان خالد بن قحطان : من العلماء الكبار فى دولة الإمام : الصلت بن مالك ، وكان يقارن عزان بن الصقر ، حتى قيل : إنهما عينان فى جبين .

واختلاف الدعاوى أصلا ، واختلاف الرأى أصلا ، ولا يسع فى الدين أن يُجعل حكم أحد هذه الأصول فى غير موضعه ، والله أعلم .

فصـــل :

عن محمد بن محبوب (رحمه الله) من قال : الحلال عليه حرام ، فأفتاه مُفت ؛ أن زوجته تطلق — وقد كان طلقها من قبل اثنتين — فأخذ بقول المفتى ، وتركها ، ولم ير أن له عليها رجعة ، وتزوجت ، ثم سأل ؛ فرأوا أنها لاتطلق ، وأنها زوجته ، فرفع على الذى أفتاه بالخطأ فقال : ما أقرب المفتى أن يضمن له بالصداق ، ويحاول فيها حتى يخرجها من زوجها الآخر ، فقال له الزوج الأخير : لا أخرجها حتى تضمن لى بالصداق ، والذى أديت إليها قال : فعليه أن يضمن له بالصداق أيضا .

وأما إذا قال المفتى : إنى لست بفقيه، ولا تأخذ برأيى؛ فإن ذلك عذر له ، ولا شىء عليه من الضمان .

وإن قال له : إنى لست بفقيه ، والفقيه غيرى ؛ فإن أحببت أن نأخذ برأى ، فرأى كذا وكذا — فإنه يضمن على هذا القول؛ حتى يقول : سل غيرى ولا تأخذ برأى .

وأما الذى تقبل منه الفتيا بالرأى، فأخطأ فى فتياه — فقول: يضمن، وقول: لايضمن. وعليه التوبة، إذا لم يكن فقيها من يجوز له أن يقول بالرأى ، وقول: حتى يقول : إن هذا قول المسلمين — ثم حينئذ يضمن .

ومن كان من أهل الاجتهاد ، فاجتهد ، وأفتى برأيه ، فخرج رأيه من

جميع أقاويل أهل القبلة ـ أنه لايضمن ، وإنما يضمن من لم يكن من أهل الاجتهاد ؛ إذا خرج بقوله عن جميع أهل القبلة ، وعلى هذا : الإثم إلا أن يتوب .

وأما من كان من أهل الرأى ، فأفتى بشىء مجتمع على خلافه ، وتخطئته ، أو محرم فى كتاب الله أو فى سنة رسول الله (ﷺ) ، أو اجتمعت الأمة على تحريمه ، وتخطيه قابله ـ فإنه يضمن .

وإذا لم يكن فى هذا الحادث حكم من أحد هذه الثلاثة الأصول ؛ وإنما فيه اجتهاد من الفقهاء ، فأفتى هو بغير ما أفتوا [به] ـ فهو سالم .

وأما إن كان من غير أهل الرأى ـ فإنه يضمن ؛ إذا خالف أقاويلهم ؛ إذا كان هو ليس من أهل الاجتهاد .

ورفع نجاد بن منذر : فى الذى يحكم بغير الحفظ ، أو يفتى أنه لا يهلك ؛ حتى يخرج من اختلاف جميع الأمة . على قول بعضهم .

وقال أبو محمد (رحمه الله) : من أفتى بفتيا ، أو أخطأ ، ولم يخرج من جميع قول الفقهاء من المسلمين ، والمخالفين كلهم لم يكن عليهم ضمان .

وقيل : إن الملائكة تلعن الذى يفتى بما لم يعلم ، و[أن] أضعف الناس أعجلهم فى الفتيا . والله أعلم .

ويروى عن أبى[1] سعيد (رحمه الله) أنه قال : ليس العالم من حمل الناس

---

(١) أبو سعيد محمد بن سعيد الناعبى الأصل ، الكدمى المسكن قريبا من بهلا من أجل وأعظم ، وأبرك علماء عمان فى القرن الرابع ،له تآليف متعددة وآراء معتمدة ، وإذا وقع خلاف فى مسألة ، فينظر رأى العلماء فيها والعمل على مايقول أبو سعيد حتى إن الشيخ السالمى (رضى الله عنه) لايرى له مثيلا إلا ابن عباس (رضى الله عنهم ، وأرضاهم) م .

على ورعه ولـكن العالم من أفتاهم بما يسعهم من الحق ولقد أحسن فى قوله (رحمه الله) .

فصـــل :

وقيل : إن العالم ؛ إذا أخذ أجرا على فتواه بالحق ، فخالته عند المسلمين خسيسة ، وتلزم منه البراءة إلا أن يتوب ، ويرد ما أخذ من المال على الفتوى ، ويجوز للسائل قبول ما أفتاه به من الحق ؛ إذا كان حقا .

ومن أرسل من يسأل له الفقيه عن مسألة ، فأفتاه الفقيه بغير الصواب غلطا منه وحمل المرسل بما أخبره الرسول .

فأما الفقيه : فإذا أفتى على وجه السهو والغلط بباطل ، وإرادته وقصده إلى الصواب والحق ، فغلط لسانه ، ولم يعلم ـ فهو سالم ، ولا غلت على مسلم ، وكذلك الرسول سالم ؛ إذا لم يعلم أن الذى أفتاه به العالم باطل ، وبلغ الرسالة إلى المرسل بحكاية الغلط من جواب الفقيه ؛ بلا زيادة ولا نقصان .

وأما المرسل : فليس له أن يقبل الباطل من فقيه ، ولا غيره ، علم به ، أو لم يعلم به ؛ فإن قبله ، وحمل به ، ولم يتب منه حتى مات ـ فهو هالك .

فصل :

عن أبى الحوارى[1] (رحمه الله) فى رجل يصل إليك ليسألك عن مسألة

---

(١) أبو الحوارى محمد الحوارى من أهل تنوف من أعمال تروى عالم جليل أخذ العلم عن أبى المؤثر الصلت بن خميس ، وأبو المؤثر من علماء دولة الإمام الصلت بن مالك الخروصى فى القرن الثالث الهجرى م .

مما يوجب الطلاق بينه ، وبين زوجته ، ثم يذهب إلى فقيه آخر ، فيسأله خلاف ما سألك عنه ؛ فيفتيه أنه لا بأس عليك في زوجتك ؛ فإذا كانت المسألة مما فيه الاختلاف بالرأى ـ وسع المسئول الأول : السكوت ؛ فإن قال للسائل : اتق الله فحسن .

وقد كان محمد بن محبوب (رحمه الله) ؛ إذا سأله سائل عن مسألة : يقول فيها بالتحريم ، يقول : اكتبوها إلى القاضى ، ليقول لهم بإحلالها .

فإن كانت المسألة مما يجتمع على تحريمها ، فأفتيته أنت بتحريمها ، وكان عليك أن تأمره بتقوى الله ، وأن تعلم المرأة بذلك ، وتعلم الفقيه بما سألك عنه ، وأقربه عندك .

وذلك : مثل الإيلاء والظهار ، إذا وطىء قبل أن يكفر ، وقبل أن يفعل ؛ إذا آلى عنها بالطلاق .

وحدثنا نبهان بن عثمان : عن رجل ، كان قد آلى عن امرأته بالطلاق : ليفعلن كذا ، وكذا ، ثم إن الرجل أشهد على رجعتها من قبل أن يفعل ، وجعل ذلك تطليقة ، ثم وطأها : فأفتاه نبهان بتحريمها ، وخرج الرجل إلى محمد ابن على ، فكتب له بإحلالها ، فوصل نبهان بالكتاب إلى محمد بن محبوب (رحمهم الله) فأنكروا ذلك ، ثم كتبوا بذلك إلى عمر بن محمد ، وكان هو الكاتب لمحمد بن على ، فرجع محمد بن على عن قوله ذلك ، وقال : إنما أفتاه برأيه ، فافهم الفرق فى ذلك .

فصل :

قال أبو سعيد (رحمه الله) إنه ينهى أن يُستفتى فى أمر الدين من يعالج البول ، والغائط ، أو ذو دنيا ، قد أشغلته دنياه ، أو ذو فقر يكابد أمر فقره ، أو ذو مصيبة قد عرضت له ـ فى حين مصيبته ؛ لأن قلوب هؤلاء تشتغل عن الأمر الذى يُسأ ل عنه .

فإذا اشتغلت القلوب ـ تكدرت عن أسباب الطاعة ؛ وإذا تكدرت خيف عليها أن يضعف نورها ؛ وإذا ضعف النور أظلم القلب ؛ وإذا أظلم القلب ، أبصر بعين الظلمة ؛ فيخاف أن يؤدى إليه عين الظلمة غير الصواب ، وينطق لسانه عن قلبه بما أدت إليه عين الظلمة فى ذلك .

وكانت تلك زلة وفتنة ؛ حتى إنهم قالوا : لا تسأل العالم ؛ إذا رأيت منه مللا ، أو كسلا ؛ وإنما : يصطاد منه حين نشاطه ، وحين إقباله ـ وهذا شيء مبصّر .

وقد قيل عن بعض الفقهاء : جمعوا القلوب ، لمعنى أنه لا يكثر من السؤال على كل حال ؛ وإنما ينظر له جمة من السائل ، وجمة من المسئول ؛ وإنما هى قلوب تؤدى إليها الحواس فى حينما يعرض لها النظر ؛ فربما عدمت نور الحواس ؛ بإشغالها ببعض ؛ فلم تؤدّ ما كانت تؤديـ[ه] عن الخلوة والجمة .

وليس الشيء ممكناً فى القلب ، وإنما هو يصطاد بنور القلب مع الجمة ؛ فإذا أكثر على الجمة النزح خيف عليه الفراغ ، وإذا فرغت ـ لم يؤمن على القلب

الإشغال ؛ وإذا جاء الإشغال ؛ لم يؤمن عليها قبول ما يؤدى إليها فى حين وقتها من خطأ ، أو صواب ؛ لعدم الخلوة .

فصـــل :

وقيل : يجوز لمن علم أن العبد جاهل بدينه ؛ أن يعلمه بدينه ، ولو لم يسأله العبد ، وأما إذا سأله : فإنه يعلمه ، ويرد عليه ما سأله عنه ـ علم أنه جاهل ، أو لم يعلم .

وعلى أهل العلم ؛ إذا سئلوا عما يعلمونه ؛ أن يخبروا به كل من سألهم ، أو جاءهم ؛ لما أوجب الله عليه مما افترضه عليهم ، وألزمهم العمل به ، والانتهاء عما نهاهم عنه ؛ ما لم يكن الطالب للعلم من عند أهل العلم إنما يطلب متعنتا لهم ، أو طالب حجة يحتج بها على المسلمين ، وهو معتقد فى دينه ، أو معين لظالمين ، يريد بذلك [أن] يتقوى به على معصية الله ، ليزداد فى دنياه عند أعداء الله رفعة ؛ لأنه روى عن بعض الفقهاء ، أنه قال : لاتلقوا الدر فى أفواه الكلاب .

ويروى أن النبى (ﷺ) قال[1] : «لا تطرحوا الدر فى أفواه الكلاب» يعنى : العلم .

وقيل : من أعطى الحكمة غير أهلها ـ خاصمته الحكمة إلى ربها .

---

(١) رواه الخامس عن أنس رضى الله عنه ، وفى رواية ابن النجار : الخنازير بدل الكلاب .

قال الشاعر[١] :

وَمَنْ مَنَح الجُهالَ عِلْماً أَضَاعَهُ ... وَمَنْ مَنعَ المُسْتوْجِبِينَ فَقَدْ ظَلَمْ

ومانِـعُ علمِ الدّينِ مِمَّنْ يُرِيدُهُ ... يَبُوءُ بأوْزارٍ ، وإثمٍ ، إذَا حَرَمْ

فصـــل :

والعالمُ الذى يُلزِمُ العامة قَبول فتواه : هو العالم المشهور بالعلم ، والمعرفة فى عصره ، ومصره ، و [هو] من أهل نحلة الحق الصادقين الذين أمر الله باتباعهم ، وهم الذين يهدون بالحق ، وبه يعدلون ، و [هو] من جملة المختلفين من أهل الذكر .

فإذا كان بهذه الصفة ، وعالمًا بالحلال والحرام ، [و] من أهل العدالة ، والولاية ـ كان حجة ، واجبٌ قبول فتواه ، وكل من كان عالما بفن من فنون العلم معروفا به مشهوراً فى مصره ، وعصره ـ كان مقبولا فتواه فيه .

---

(١) القائل : الإمام الشافعى ، وقبلهما :

سأكتم علمى عن ذوى الجهل طاقتى ... ولا أنثر الدرّ النفيس على الغنمْ

فإن يسّرَ الله الكريم بفضـــله ... وصادفت أهلا للعلوم وللحكمْ

بثثت مفيداً ، واستفدت ودادهم ... وإلا فمخـــزون لى ، ومكتتم

ورواها مسلم بن مسلمة فى « الضياء » فقال :ـ

أأنثر درا وسط سارحة النعم ... أأنظم منثورا لراعية الغنم

لعمرى لئن ضيعت فى شر بلدة ... فلست مضيعا عندهم غرر الكلم

فإن فرج الله اللطيف بفضـــله ... وصادفت أهلا للعلوم وللحكم

صبرت مفيدا . . . البيت

والعلماء مختلفون فى الدرجات ، والعلم ، والتفاضل . فمنهم البصير ، والمبصر ومنهم دون ذلك .

ومن ابتلى بالسؤال عن أمر الحلال والحرام ، وكان يحفظ من الكتب ، واحتاج إلى ذلك ؛ فإنه يجيب بما عرف من الأثر عن المسلمين ، وبان له عدله ، وما لا يعرف عدله ، ولا أنه من المسلمين ـ فلا يجيبهم من أثر لا يعرف عدله ، وليس له أن يعرفهم .

وإن قال : وجدت فى الأثر كذا وكذا ، فليس لهم الأخذ بذلك ، إلا أن يقول : وجدت فى آثار المسلمين ـ فجائز .

ومن كان من أهل العلم ، ويحتاج الناس إليه يسألون ، وهو تعتريه الشكوك ؛ فإذا سألوه عمّا هو به عالم ـ فعليه أن يعرفهم ، ويدع عنه وساوس الشيطان ، ويستعيذ بالله من شره .

واليقين : الأخذ به أولى ، والشك متروك ، والشاك حيران ، فليتق الله ، وليترك عنه الشك ، ويعلمه بما علمه الله به ، ويفتى بما أراه الله من الحق ، إلا ما لا يعلمه ؛ فليس عليه أن يتكلف ما لا علم له به ، ولا [بما لا يتعبد الله به العباد ، بما لم يظهرهم عليه .

وقال أبو محمد (رحمه الله) : من سأله سائل عن مسألة واقعة محتاج إليها صاحبها ، وهو يعلمها ـ فعليه أن يخبره بها ، ولا يكتمه إياها ، وإن كانت غير واقعة ، والسائل عنها مستحق للحكمة ، ولتعليمها ـ فعليه : أن يخبره ، ولا يكتمه ، وإن كان يخاف ألا يكون ذلك السائل ـ أهلًا للحكمة ـ فليس عليه أن يخبره .

وإن قال الفقيه للسائل من بعــد أن أفتاه : لا تأخذ بقولى إلا ما وافق الحق ، أو قال : وسل هل يأخذ بقوله ؟ قال : نعم ، ولا يحجر عليه بهذا القول. وإن قال : لا تأخذ بقولى ؛ فلا يجوز له أن يقول ذلك ؛ لأنه : إن كان حقا ؛ فلا يجوز أن يمنعه عن الحق ، وإن كان كاذبا ؛ فعليه أن يعلمه أنه كاذب ، ويتوب إلى الله تعالى من الـكذب .

وذكر أن أبا عبيدة (رحمه الله) سأله رجل عن شيء لم يتضح له ، فقال : فرج عنى ؛ فإنى مغموم ، فقال له أبو عبيدة : أنت أحق بغمك منى ؛ يخلطون ثم يطلبون منا التصحيح !!!

وقال أبو سعيد (رحمه الله) : « الله أعلم » لا يختلف العلماء فيه ـ قولك لما لا تعلم : الله أعلم ـ .

وقال : الشاك فى دينه المحيّر فيه أشكُّ فتنة على ضعفاء المسلمين من ألف لص، أو ألفى لص .

وأما الذى يبعث بمسألة ، أو مسائل إلى من يثق به ، فيبعثه على يد من لا يثق به ، ثم يأتيه بالجواب ، وهو بخط المفتى ، أو لا يعرفه ـ فمعى : أن هذا سواء ، وإذا وقعت الاطمئنانة مع السائل أن الحامل : لا يبـدل ما حمله ، ولا يقصد غير من أرسل إليه؛فهذا سبيل مجاز أمور الناس من عامتها فى حلالهم، وحرامهم ، وبيعهم ، وشرائهم، وقضاء ديونهم ، وعامة أمورهم ـ إذا اطمأنت نفوسهم إلى ذلك : كان ذلك جائزا لهم ، أو حجة لهم ، وعليهم .

وإذا وافق هذا السائل فيما بلغ إليه مما يوافق الحق ـ فلا يضره من ذلك كل شيء .

وقال أبو محمد (رحمه الله) من رفع إليه ثقة من المسلمين عن فقيه متقدم، وكان عدلا ـ قبلت شهادته عنه فيها على سبيل الشهادة ؛ لا على سبيل الفتيا ـ وأما المفتى ، فيكون أعلى درجة من هـــذا ، وأبصر ، فإذا أفتاه أيضا قبل ؛ وإن كان الذى رفع ، والذى أفتى ـ أخطيا قول أهل القبلة جميعا : ضمن المفتيان، وعلى السائل أن يرجع ؛ إذا علم بذلك، أو أعلماه ـ هما ـ برجعتهما ؛ إذا خالفا قول أهل القبلة جميعا ؛ فعليهما أن يعلماه ، ويضمنا ما تلف بفتواهما من مال .

وإن لم يعلم السائل ، ولا المسئول بالخطأ ، وماتوا على ذلك ـ فهم سالمون ؛ إذا كانت المسألة فى الفروع ، فيما يكون الحق فى اثنين .

وأما ما يكون الحق فيه فى واحد : فلا يجوز فيه الاختلاف بين أهل القبلة ، والمفتى فى ذلك ، والمستفتى ـ سالمان ؛ إذا وافقا الحق ، وإن أخطيا الحق:هلـكا جميعا ، وإذا ماتا على الباطل ، ولم يتوبا .

وعلى المفتى أن يعلم المستفتى بخطئه ، إذا أعلم به ، ويضمن ما تلف من مال .

وأما العالم الذى يجوز له أن يفتى بالرأى: فلاضمان عليه ـ إن أخطأ ـ ومأجور إذا أصاب ، [وذلك] فيما يكون الحق فى اثنين، وأما ما يكون الحق فى واحد ـ فهالك بالخطأ من عمل به .

وقال أبو سعيد (رحمه الله) : فى المفتى ؛ إذا قال : يسع، ويجوز أولا يجوز؛ فقد حكم بالقطع فيما قال ، وأما إذا حكى ؛ فقال : سمعت فى كتاب كذا وكذا ، أو جاء فى السنة كذا ، وكذا ـ ولو قال هذا ـ فى شىء مفسوخ من السنة ، أو الكتاب ولم يرد بذلك أن يفتى بباطل : فلا إثم عليه ؛ إذا لم يعلم بنسخه ، وكذلك إذا قال: أرى أنه يجوز كذا وكذا، أو حفظت كذا وكذا، أو سمعت كذا وكذا ، وكان هذا مضيقا له إلى من قاله ـ فلاشىء عليه، مالم يعلم أنه باطل، ويقصد إلى الفتيا بالباطل ، وأما قوله : أرى أنه يجوز ؛ فإن كان يرى ذلك ـ لم يكن هذا بمنزلة المفتى .

وسئل أبو إبراهيم عن العالم؛ إذا كان غير ثقة : هل يؤخذ بفتيواه ؟ قال: نعم ؛ إذا كان يعرف الحق من الباطل ، وقال : إنه يحفظ ذلك ـ جاز الأخذ بقوله .

وسئل أبو الحسن البيسانى (رحمه الله) : عن رجل معى فى الولاية يرفع لى مسألة ، وقال : إنه وجدها فى الأثر ، أو قال : سمعت فيها، أو عندى فيها كذا وكذا ؛ أيجوز لى أن أعمل بها ؟ قال: لاأقول عندى فيها [فهى] ليست رفيعة، ولا فتوى ؛ إنما أقول : فى قياسى ، ولا يقبل ذلك إلا من أهل الرأى ، والفتوى .

وإن قال : سمعت فيها ـ لم يعمل بها عنه ، حتى يرفع ذلك سماعا عن الفقهاء من المسلمين؛ فيقول فيها : سمعت فلانا الفقيه يقول كذا، وكذا ـ وكان هو ممن يضبط المسائل .

وقوله : وجدت فى الأثر لايقبل منه ؛ إلا أن يكون يعلم أنه فقيه يعرف عدل الأثر ، وإن قال : وجدت فى الأثر عن المسلمين ، أو عن فلان ، رجل فقيه ، وكان ممن يضبط المسائل - قبلت رفيعته ؛ إذا رفع عن المسلمين. والله أعلم، وبه التوفيق .

* * *

القول الثانى عشر

فى التقليد فى الفتوى ، وذمه

قال الله تعالى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنْزَلَ اللهُ ، وَإِلَى الرَّسُولِ ، قَالُو : حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا ، أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُم لا يَعْلَمُون شَيْئًا ، ولَا يَهْتَدُون » ، وقال : « وَيَوْمَ يَعَضُّ الظَّالِمُ عَلَى يَدَيْهِ ، يَقُولُ : يَا لَيْتَنِي اتَّخَذْتُ مَعَ الرَّسُولِ سَبِيلًا يَا وَيْلَتَى لَيْتَنِي لَمْ أَتَّخِذْ فُلَانًا خَلِيلًا ؛ لَقَدْ أَضَلَّنِي عَنِ الذِّكْرِ بَعد إِذْ جَاءَنِي، وَكَان الشيطَانُ للإِنسانِ خَذُولًا » ، وقال : « إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتُّبِعُوا مِنَ الَّذِين اتَّبَعُوا ، وَرَأَوُا الْعذَابَ ، وتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ » ، « وقَالَ الَّذِين اتَّبَعُوا : لَوْ أَنَّ لَنَا كَرَّةً ؛ فَنَتَبَرَّأَ مِنْهُم كَمَا تَبَرَّءوا مِنَّا ، كَذَلِكَ يُرِيهِمُ اللهُ أَعْمَالَهُمْ حَسَرات عَلَيْهِم ، وَمَا هُم بِخَارِجِينَ مِنَ النَّارِ » .

ومثل هذا المعنى فى القرآن كثير .

ومن السنة : ماروى ، أن رجلا قد أصابته شجة ، فأجنب — وقد اندملت عليه — فاستفتى له فأمر بالغسل ، ولم يروا له عذرا — فاغتسل فكزّ [1] فمات ، فأخبر النبى (صلى الله عليه وسلم) بذلك فقال : قتلوه — قتلهم الله .

ففى هذا دليل على أنه لم يجعل للمستفتِي والمستفتىله عذرا — والله أعلم ، ولعل المفتى لم يكن أهلا لذلك .

---

(١) الكزاز بالضم : داء يأخذ من شدة البرد ، وقد كز الرجل بضم الكاف ، وهو مكزوز إذا تقبض من البرد — رواه أبو داود عن ابن عباس ، ورواه الربيع عن جابر بلاغا ولم يذكر فكز، وكأنه قاله (صلى الله عليه وسلم) فى ثلاثة نفر ، واحد مجدور ، وواحد مشجوج ، وواحد صحيح ، والثلاثة هلكوا بالبرد بعد الغسل ، محقق.

ونحن نعوذ بالله من غلبة الأهواء ، ومن مسامحة الآراء ، وتقليد الآباء ، وإياه نسأل : أن يجعلنا من المتبعين لكتابه ، الذابين عن دينه ، القائمين بسنة نبيه محمد (ﷺ) .

وقيل : إذا رفع الصحابى خبرا عن الرسول (ﷺ) بإيجاب عمل ، وجب العمل به على من بلغه من المكلفين ؛ إلى أن يأتى خبرا غيره ينسخ ذلك الخبر ، [و] كان على من عمل بالخبر الأول ـ الرجوع إلى الثانى ، وترك العمل الأول .

وكذلك . الحاكم ، يعمل بما قام عليه الدليل عنده من أقوال العلماء ؛ فإذا قام له الدليل بعد ذلك على قول آخر أرجح عنده من الأول ـ عمل بالثانى ، وترك العمل بالأول الذى حكم به واستعمله .

وإذا لم يرجح عنده أحد القولين ، واستويا معه من كل الوجوه ـ أخذ بأى الأقاويل شاء .

وقال أبو محمد (رحمه الله) : كل مسألة ؛ لا يخلو الصواب فيها من أحد قولين ، ففسد أحدهما ؛ لقيام الدليل على فساده ـ صح أن الحق فى الآخر ، وإن صح أن الحق فى أحدهما فسد الآخر . قال الله عز وجل : « فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ » . فإذا اختلفت الأمة فى حكم : على قولين ؛ فأخطأ أحدهم ، وأصاب الآخرون ، ولا يخرج الحق من أيديهم جميعا .

وإذا كان الحق فى بعضهم ـ كانوا كالأمة وحدهم ـ فكان قولهم محكوما به فى كل مكان ؛ إذا كان الحكم مطلوبا من الأمة ، وقام الدليل على خطأ بعضه ـ كانت الطائفة المصيبة : كإجماع الأمة ، وكانت هى الأمة ، وجاز أن يحتج بقولها .

وسئل أبو محمد (رحمه الله) عمن تعبّده الله بشيء من الدين ، فأخذ في ذلك ببعض الآراء ، فاجتهد ، ودان الله به ، ومعه : أنه مصيب فيه ، فأخطأ : قال : إذا دان بما تعبده الله به من حيث أوجب الله عليه قبول ذلك ، والتدين به ، والاعتقاد له ، فأصاب ، ولو كان الشيء الذى دان هو فيه بما دان بخلاف ذلك مع الله — فهو سالم ؛ إذا فعل ما ألزمه الله فى الحكم بالظاهر ، وإن أخطأ طريق الاستدلال ، فدان بالذى دان به من حيث لم يجز له بحجة الله له فى ذلك ، ولم يوجب عليه قبوله من ذلك الوجه ، ولم يتعهده به بتلك الحجة ؛ وإنما تعبده به من وجه آخر ، وبأدلة أخرى . قال : هالك ، وهو غير معذور .

وإن دان الله بما دان ؛ من حيث : أوجب الله عليه من اللغة ، والكتاب ، والسنة ، والإجماع ، والقياس عليهن من العقل من حيث بلغته الحجة ، فأخطأ » . فقال : لا يجوز أن يخطئ ؛ لأنه : إذا دان الله من حيث أوجب الله عليه — فهذا سالم كأن استحق به ذلك الحكم عند هذا المتعبد ، وكان يُسرّ إلى الله خلاف ما يُظهر إلى هذا الذى قد تعبّده الله أن يحكم بالظاهر — فهو عند الله سالم بتلك الحال التى هو بها ، وهذا سالم عند الله ؛ حيث أطاعه فيما أوجب عليه من إنفاذ حكمه .

وكذلك كلما تعبده الله أن يدين به فأطاع الله فيما أمره — كان سالما ، وإن كان الأمر بخلاف ذلك فى علم الله .

فأما : أن يكون قد أتى من حيث كلف ، ولم يخطىء ، فيكون عاصيا ، والأمر مع الله بخلاف ذلك ؛ فهذا لا يجوز أن يدان به [بحجة] أن الله يفعله

بعباده ، لأن الله العادل : لم يكلف عباده إلا [بـ] ما وضع له عليه دلالة ، وأوجد [لـ] هم السبيل إلى معرفته ؛ فإن أخطأوا ذلك الدليل كان من قبلهم ؛ فأما إن أصابوا ذلك ـ فلا يجوز أن يلزمهم على ما لم يجعلوا لهم عليه دليلا .

فصـــل :

قال أبو سعيد (رحمه الله) : لا يجوز التقليد فى الدين عند مخالفة المقلّد ، أو المقلَّد شيئاً من الدين المجتمع عليه من كتاب الله أو [من] سنة رسوله محمد (ﷺ) ، أو [من] إجماع الأمة المحقين ، أو ما أشبه ذلك ، أو ساواه فى قول ، أو فعل ، أو معنى .

وكذلك لا يجوز التقليد للمستفتى ، ولا المحكوم عليه بمخالفة ذلك ؛ إذا علم أصل ذلك الأمر الذى قد أفتى به ، وحكم به ، ولو جهل مخالفته للحق .

وذلك باطل لا يجوز فى الدين بعلم ، ولا بجهل، برأى ولا بدين على معنى: الإقامة عليه بالرأى [وهو] غير باغ ، ولا تائب ، ولا دائن بالسؤال عن ذلك ؛ ليرجع إلى إصابة الحق .

وقد قيل : لا يجوز التقليد فى الفتيا على [أى] حال ، ولا يجوز اعتقاد التقليد فيه ، وإنما يكون اعتقاد القائل بشىء من الفتوى ؛ أنه متبع فى جميع ذلك ؛ ما علم منه، أو جهل بكتاب الله، وسنة رسوله، وإجماع الأمة من المحقين، وصواب الرأى الذى لا يخالف شيئا من أصول الدين . وإنما هو خارج على معنى أصول الدين ـ ولا يجوز اعتقاد التقليد فى ذلك على [أى] حال .

وقيل : يجوز التقليد فى الفتيا للعلماء فى الرأى الذى يجوز فيه الاختلاف ؛ إذا كان العالم [م]من يجوز له القول بالرأى فى الوجه الذى يجوز فيه القول بالرأى ؛ إذا وافق معنى الرأى الذى يجوز أن يقال ، ولم يخالف من ذلك شيئا من الدين . وهذا إنما يخرّج على معنى الاتباع على حالٍ للحق ؛ لأنه لو خالف الدين — لم يجز تقليده على حال ؛ فيبطل — معنا — إجازة التقليد فى الفتيا على حال دون إصابة الحق فى معنى ما قيل من ذلك .

فصل :

قال أبو المؤثر (رحمه الله) : أنه [لو] قال قائل : فى ماذا يتبع الناس فقهاءهم ، وهم يسألونهم عن الطلاق ، والحيض ، والصلاة ، والصيام ، والحدود ، والأحكام ، ويقلدونهم فى ذلك ، وفيما لا يعلمونه ؟ فنقول [له] : إن الحوادث على منزلتين : منها ما فيه الحجة من كتاب الله ؛ فمن أفتى من الفقهاء بتحليل ما كان حراما فى حجة الله — كان هالكا ، ومن أحل بقوله ما حرم الله ؛ فهو هالك ، وكذلك إذا حرم شيئا مما هو حلال عن الله ، والحجة من الله قائمة بتحليله : هلك ، وهلك من حرم ما أحل الله بقوله .

والمنزلة الثانية : ما ليس فيه حجة ، وهو مما لا كتاب فيه ، ولا سنة ، وهو مما يسع المسلمين فى الرأى ، والاختلاف : فرأى الفقهاء فى ذلك مقبول ؛ لأن هذا مما يقبل فيه الاختلاف من الفقهاء ، وهم على ولاية بعضهم [لـ]بعض .

وأما ما كان من الادعاء على الله فى الدين ، والولاية ، والبراءة ، والعداوة

والحلال الذى أحله الله ، والحرام الذى حرمه الله : فإذا اختلف فيه الفقهاء ، فقال واحد : هذا حلال ، وقال آخر : هذا حرام من الله ، أو قال واحد : هذا كفر ، وقال آخر : هذا إيمان — فإن هذا الاختلاف يوقع البراءة بينهم ، ويقطع ولاية بعضهم من بعض ، ولا تحل ولاية المختلفين جميعا على هذه الجهة .

فمن جمعهم فى الولاية على هذا هلك ، وعند هذا يجب : تكليف العالم على الجاهل ؛ إذا قامت عليه الحجة بالحق فى ذلك [و] لزمه قبوله ، وتحرم عليه ولاية المخطئ ، من هذين المختلفين فى دين الله .

فإذا قامت عليه الحجة بهلاك المخطئ ، وإيمان المصيب لزمه قبولها ؛ فإن ردها بجهل هلك ، وصار بمنزلة من جهل ما كلفه الله علمه من الجاهلين .

وقال محمد بن إبراهيم الكندى (رحمه الله) وحجة الله لاتكون حجة فى دينه ؛ حتى تكون محقة فى سرّها ، وجهرها ، وذلك : مثل العالم الذى قد شهر فضله ، وعدله ، واستقامته ، وعلمه ؛ فإنه إذا أفتى فيما يسع جهله عند مَن علم منه هذه الشواهد — كان حجة عليه فى أكثر القول ؛ إذا وافق الحق فى فتياه ، وإن خالف الحق فلا يكون حجة فى ذلك ، ولا مستقيما ، ولا مهتديا بالحق ؛ بل هو كاذب سفيه ضال ، منافق جاهل ؛ يشهد على كذبه ، وباطله كتاب الله، وسنة رسوله (ﷺ) ، والعلماء بدينه . ولولا ذلك كذلك لبطل دين الله ، ولكان لله أديان شتى ، ولكان كل من قلد عالما فى الدين : كان بتقليده سالما ، بل حلال الله حلال ؛ إلى أن تقوم الساعة ، وحرام الله حرام إلى أن تقوم الساعة .

وليس لأحد أن يحل ما حرمه الله ، أو يحرم ما أحله الله فى دينه ، وشريعة نبينا محمد (ﷺ) ناسخة لجميع الشرائع ، ولا نبى عنده ، ولا بعده .

والتقليد فى الدين حرام ؛ لايجوز ، ولا يسع التقليد فى دين الله لأحد من الخلائق قال الله تعالى : « وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَنْ ذِكْرِنَا ، وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا » .

وقال جل ذكره : « وَلَا تُطِعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا » .

وسئل أبو سعيد (رحمه الله) عن التقليد الذى لايجوز للسائل أن يقلده العالم : قال : ذلك — إذا خالف المفتى فى قوله كتاب الله، أو سنة رسوله (ﷺ) أو إجماع المحقتين من الأمة .

فإذا خالف المفتى أحد هذه الوجوه فى قوله — كان ذلك باطلا ، ولم يسع قوله لمن علمه ، أو جهله على التصويب منه له ، ولم يجز العمل به ، وهذا فى أحكام الشريعة من أحكام الفتيا ، وهذا هو موضع التقليد فى الدين فيما قيل .

ولا يجوز لأحد أن يقصد إلى قبول ما قيل منه على وجه التقليد على حال من الحال ، لأن التقليد يخرج معنى تأويله : أنه يقبل منه كل ما قال من خطأ ، أو صواب [من] حق أو باطل ، وهذا هو التقليد المنهى عنه ؛ لأنه يقلد أمر ذلك الذى يقبل منه .

[وذلك] : كما يقلد الحاكم الشاهدين أمر ما شهدا عليه ، ويحكم بقولهما ، أو [بـ]شهادتهما [سواء] كانا صادقين أو كاذبين ، وهما حجة له عند الله ؛

إذا كانا عدلين ؛ لأنه إنما خوطب بعدالتهما ؛ إذا كانا عدلين ؛ فذلك : موضع ما خوطب به ، وأبيح له قبول شهادتهما .

ولو كانا ـ فيما بينهما وبين الله ، فيما غاب عنه ـ شهدا زوراً : فالله غير سائله عند ذلك ؛ ولو ترك شهادتهما ؛ لظنه أنهما شهدا زورا ، ووافق ذلك ظنه وكأنما شهدا زوراً لـكان من حكمه جور ، وكان هالـكا بذلك فى حكم العدل .

[وذلك] : لأنه لم يجعل الله له ذلك فى حكمه : أن يرد شهادة العدلين بالظن ، فيكون قد حكم بالظن ؛ لأن الظن لايغنى من الحق شيئا ـ والحق ـ قبول شهادة العدلين ، وترك الظن فيهما .

وكذلك الحاكم ؛ إذا حكم بحكم ـ وهو ممن يثبت حكمه ـ كان حجة على المحكوم عليه ، وللمحكوم له ، حتى يعلم باطل أحدهما ؛ لأن هذا موضع ماجعله عليهم ، وخاطب الله عباده جميعا أن لا يقولوا عليه إلا الحق فى دينه ، ولا فى شىء ممـا تعبدهم به ، وخاطبهم جميعا أن لا يطيعوا أحدا فى غير طاعته ، لأشياء كثيرة ؛ دل عليها الكتاب : منها : قوله تبارك وتعالى « وَلَا تُطِـعْ مِنْهُمْ آثِمًا أَوْ كَفُورًا » وقال النبى (ﷺ) : « لاطاعة لأحد فى معصية الله تعالى[١] إذا كان ذلك لايخرج فى حكم دين الله ، جهل ذلك من جهله ، أو علمه من علمه .

---

(١) الحديث تمامه : إنما الطاعة فى المعروف رواه البخارى ومسلم ، وأبو داود والنسائى عن على ، وفى معناه لاطاعة لمخلوق فى معصية الخالق . رواه أحمد ، والحاكم عن عمران ، والحكم ابن عمرو الغفارى ، وفى معناه : لاطاعة لمن لم يطع الله . رواه أحمد .

والتقليد فى الدين حرام محجور ، ولكن الله تبارك وتعالى : أمر عباده أن يتبعوا ما أنزل إليهم من ربهم ، ولا يتبعوا من دونه أولياء ، وأمرهم بطاعة أولى الأمر منهم ، وهم العلماء فى الدين ، والأئمة المنصوبون فيما قيل ؛ فجعل لهؤلاء طاعة فيما قالوه من الحق فى أمر الدين ، ولم يجعل لأحد منهم طاعة فيما يخالف الدين فى أمر نقل الشريعة ، ولا فى الأحكام ؛ إذا خالف ذلك حكم الإسلام ، علمه العوام أو لم يعلموه .

فإذا أفتى العالم بشىء مما يخرج أحكامه من دين الله ، أو من الرأى الذى يوافق العدل فقد : قيل : إنه حجة ، لأن [ه] لا يخالفه أحد فى ذلك بعلم ، ولا بجهل ، وعلى من علم ذلك منه قبول ذلك على سبيل الاتباع لا التقليد ، لأن ذلك مما يخرج حكمه مما أنزل الله عليهم ، وعليه اتباعه لقوله تعالى : « أَطِيعُوا اللَّهَ ، وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ ، وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ » فهذا من أولى الأمر فى هذا الموضع ، وعليهم اتباعه ـ عالمهم وجاهلهم ـ وليس لهم أن يأتوا بخلافه فى الدين .

وأقل ما يكون من حجته ـ إذا كان عالما ـ أن لا يوقف عن ولايته ، ولا يبرأ منه على ما قال : برأى ، ولا بدين ـ فكفى بهذا حجة .

وكل ما وافق فيه العالم الحق ؛ فاتبعه فيه الضعيف من أمور نقل الشريعة فى الدين ، أو فى الرأى ـ فهو سالم فيه ، ومثاب عليه ، ومتبع فيه أمر الله تبارك وتعالى الذى أمره به : من اتباعه لما أنزل الله عليه ، ومن طاعته لأولى الأمر الذين أمر الله بطاعتهم ، وهو حاكم فى ذلك بما أنزل الله ، ومتبع ما أنزل الله عليه ، بقبوله من العالم [بـ] ما جاء به من الحق [و] لما قد أمره به ، وغير خارج ذلك على سبيل التقليد ؛ وإنما هو على سبيل الإتباع ، والطاعة .

وقال أبو محمد (رحمه الله): تقليد الصحابة جائز في باب الأحكام، وما كان طريقه طريق السمع : ألا ترى؟ أنك تحكى عنه الإجماع؛ وإن كان الخبر منقولا عن بعضهم ؟ [هذا] إذا لم ينقل عن أحد منهم خلافٌ لذلك .

ويجوز تقليد الواحد منهم أيضا [وذلك] إذا قال قولا ، ولم ينكر عليه غيره ، و [أمّا] إن عُلم له مخالف فى الصحابة : فلا [يجوز] .

وخلاف التابعى لهم ؛ ليس كخلاف بعضهم على بعض ؛ لأنه ليس فى طبقتهم [و] لأن الصحابة هم الحجة التامة .

ألا ترى ؟ أن الله تعالى جعل شهادتهم على الناس كشهادة الرسول (عليه السلام) عليهم ؛ لقوله تعالى : « وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ؛ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ، وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا » ؛ فلا يجوز وقوع الخطأ فى شهادتهم ؛ إذا كانت شهادتهم كشهادة الرسول (عليه السلام) .

وهذا عندى ـ والله أعلم ـ مثل قوله : « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا ؛ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ، وَمَن يَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى، وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ، وَسَاءَتْ مَصِيرًا » ، والخارج عن قول الصحابة متبع لغير سبيل المؤمنين ، وقال النبى (ﷺ) : « لا تجتمع أمتى على ضلال »[1] .

---

(١) فى رواية : ضلالة . رواه ابن أبى عاصم ، وفى مسند الربيع بن حبيب عن ابن عباس قال: ماكان الله ليجمع أمتى على ضلال .

فإذا لم ينقل الاختلاف فيهم ، وكان المنقول عن بعضهم ، وترك المخالفة من الباقين ـ وهم حجة الله فى أرضه على عباده ـ دل تركهم لمخالفة القائل منهم على تصويبه .

ومن ادّعى على أن فى ضمائر بعضهم ؛ غير ما كان فى الظاهر منهم ، أو تقية منهم كان مخطئا ، وطعن على الصحابة الباقين أنهم لم يقيموا الحجة لله للنهى عن المنكر ، والأمر بالمعروف .

ولا يجوز التقليد لأهل الاستدلال ، والبحث والأخبار فى غير عصر الصحابة مع الاختلاف ، ويجوز الاعتراض عليهم فى أدلتهم ، ولا يجوز الاعتراض على الصحابة ؛ كما ذكرنا .

ويجوز للعامة تقليد العلماء ، والاتباع لهم فيما هو دليل لهم على التفرقة بين أعدل أقاويلهم فى باب الشرع ، و [فيـ] ما طريقه طريق الاجتهاد ، واستسلامهم للعلماء ، كاستسلامهم للحكام فيما يحكمون به ؛ لهم [أ]و عليهم ؛ فيما لا علم لهم بصوابه .

وكذلك تقليد الجاهل لمن لا يتهم فى الدين ، والله أعلم .

فصل :

وعن أبى الحوارى (رحمه الله) : وذكرت ؛ هل يكون فى الدين تقليد [فى] أن يسأل الرجل عن مسألة ؛ فيحل حراما ، أو يحرم حلالا غلطا ، ولا يعلم المفتى ، ولا المفتى [له] ؛ هل يكون أحدهما ـ فى هذا ـ هالكا ؟

قال : ليس فى الدين تقية إلا للأنبياء ، فإن الأنبياء (عليهم السلام) قد قيل [فيهم] ، يقلدون ، ولا يقولون على الله إلا الحق ، وأن الله عاصم أنبياءه ، وهاديهم إلى الحق ، والعدل ، والصواب ، وليس بعدهم لأحد - تقليد .

فإذا أحل المسئول حرامًا ، أو حرم حلالا مما أحل الله ، أو أحل ما حرم الله ؛ فالسائل والمسئول - هالكان جميعاً ؛ إذا اتبع السائل المسئول على ذلك ، وهذا على قول المفتى بغير علم ، فأخطأ المخالف الكتاب والسنة ، أو ما أجمع عليه علماء المسلمين .

وأما إن كان عالما بما يفتي ، فأراد الحق بعلم ، فأخطأ بغيره غلطا - فلا هلاك على المفتى ؛ فإن عمل بذلك : المفتى [له] ودان به - فهو هالك ، ولا هلاك على المفتي على هذا ؛ لأنه لا غلط على مسلم ، والله أعلم ، وبه التوفيق .

* * *

القول الثالث عشر
فى العلم بالواجبات

قال أبو سعيد (رحمه الله) : معى أنه يخرج على قول بعض أهل العلم .

فمن يذهب على أنه من وجب عليه الفرائض : أن عليه أن يعلم وجوبها [و] أنه إذا وجبت عليه الزكاة والحج لم يسعه جهل ذلك اللازم ؛ فإن جهله على معنى قوله ـ بعد أن وجبت عليه ـ لم يسعه ذلك ، وإن علمه ، وأخر تأديته على اعتقاد منه لأدائه ـ لم يكفره ذلك التأخير [فيه] ما اعتقده ، مالم تأت حالة لايقدر على أداء ذلك ، أو يحضره الموت ، فلا يوصى به .

وعلى مذهب من يقول : إنما عليه تأدية لذلك الواجب عليه فى وقته الذى يخاطب به بأى وجه بلغ إلى تأدية ذلك مما هو خارج فى أصل ما دان به من جملته فيخرّج عندى على هذا القول : أنه لايضره جهل لزوم الحج له ، ولا الزكاة ، ولو كان قادراً على علم ذلك، والسؤال عنه مالم يدن بتركه ، أو يعتقده أو يموت فلا يوصى به .

وكل ما كان من الفرائض ، واللوازم يخرّج على معنى الحج والزكاة فهو مثله فى هذا .

وقيل : فيمن صلى ، وصام ، وحج ، وزكى بلا نية ، ولا قصدٍ منه لأداء فرض قد وجب لله عليه بجهل منه بذلك : أيجزيه على هذه الصفة أنه إذا أدى ذلك على جهله بلزومه ، وإلى غير قصد منه للازم الذى لزمه ؟ فلا ينفعه ذلك ،

وعليه أداء ما لزمه من ذلك بالقصد منه لأدائه ؛ لما قد لزمه بعد العلم منه بذلك لأنه لازم له .

[أو على الجهل منه لأدائه لما قد لزمه بعد العلم منه بذلك ، لأنه لازم له . . .] مكرر فى الأصل .

أو على الجهل منه مع عدم العلم له بذلك؛ إذا علم من يعلمه بذلك من المعبرين، وقصد إلى أداء ذلك عما قد لزمه فى دين خالقه ، فوافق الحق الذى قد لزمه على مايوجبه الحق فى دين خالقه ــ وقع ذلك موقع أداء الفرض ، وكان مجزيا له .

وكذلك ؛ إذا أداه عند عدم المعبرين له على [اعتبار] أنه إن كان لازما له فى دين خالقه : فقد أداه [و] كان ذلك مجزيا له على هـــذه الصفة والنية .

وأما : إذا أدى ذلك ، أو شيئا منه على غير قصد منه بأدائه للازم ــ قد لزمه وإن كان قد لزمه ؛ فلا يجزيه ذلك .

وأما : إذا كان مقرًّا بأدائها ، عارفا معناها ، وحضره شىء من أداء الفرائض ، وجهل لزوم أداء فرضها ، ولزومها ؛ فأداها على ما يرى الناس يفعلونه ؛ لغير نية لأداء اللازم ــ فذلك لا يجزيه ، وهو هالك بذلك ، وعليه أداؤه باعتقاده الأداء له فيما يلزمه فى جملته .

وأما إن جهل ذلك وأداه عما يلزمه فى جملته التى أقر بها ، فلم يعلمه بعينه؛ أنه لازم له ؛ إلا أنه قاصد بجميع ما يعمل من ذلك أنه يؤديه عما يلزمه فى جملته التى أقر بها ــ فقد قالوا : إن ذلك يجزيه ، وهو سالم ما لم يضيع فرضها ،

أو يرتكب محرما فى جهله ، أو يلزم نفسه فى جهل ؛ ذلك ما لم يلزم ، أو يحرم عليه باعتقاد الدينونة فى ذلك .

وقول مالم يعلم فرض ذلك فى وقته ، ويؤديه بعلم منه أنه لازمله بعينه ـ فلا ينفعه ذلك ، وعليه حكم تأديته بعد العلم منه بذلك .

فإن أداه على ذلك بغير علم منه بلزوم ذلك : فقيل : إن عليه بدل ذلك ، والكفارة .

وأما إذا كان مقرًا بالجملة عالما بمعناها ، دائنا بها ، فجهل علم شىء من الفرائض الحادثة من جملة الداخلة فيها ، فأعدم المعبرين أنه علم ذلك فى وقت لزومه ، فدان بالسؤال عما يلزمه فى ذلك الذى قد لزمه ، وأداه على مايحسن فى عقله مع الدينونة منه بالسؤال عما يلزمه من ذلك .

و [إن] عدم المعبرين فى حضرته التى قد لزمته فيها هذه الفريضة ، فأداها على مايحسن فى عقله من تأديتها عما يلزمه فيها ، ودان بالسؤال عما قد لزمه فيها، وكان عاجزا عن الخروج فى الالتماس لمعرفتها عن المعبرين المعروفين لعبارتها فى موضعهم .

وكان عجزه عن الخروج فى ذلك [بـ] منزلة من لزمه أداء الفريضة من الحج ، وكان عاجزًا عن الخروج لخوف من طريق ، أو عدم عدة ، أو [عدم] راحلة ، وهو لايقدر على الوصول إلا بالركوب ، أو [به] علة فى بدنه ؛ لايقدر معها على الركوب .

فإذا كان عاجزا بإحدى هذه العاهات ـ وقد علم لزومها ـ ولم يعلم تفسير ما يلزم فيها ، و [لا] على أى وجه أداها ـ فهو سالم إذا اعتقد السؤال عن ذلك على هذه الصفة ، إذا أداها بما يحسن فى عقله تأديتها .

وليس له أن يضيع الدينونة بالسؤال ، والالتماس للمعبرين لها بمبلغ قدرته ؛ فإذا بلغ إلى علم ذلك على هذه الدينونة ، وعلى هـــذه الشريطة ـ نظر فيما أدى منها ؛ فإن كان قد أداها على وجهها ـ فقد سلم من الإثم،وأدى الفرض ولا بدل عليه ، وإن كان قد أداها على غير وجهها فى جهله ذلك ـ كان عليه تأديتها على وجهها .

وهو سالم من الإثم مع اعتقاد السؤال ، وعدم المعبرين ، وحلول الآفات ، أو العاهات التى ذكرنا [أنها] المانعة له عن الخروج فى التماس ذلك ؛ حتى يؤديه على ما يلزمه .

وإن لزمه ذلك ؛ فلم يدن بالسؤال عما يلزمه فى ذلك ، و [كذا] لو علم بلزومه ولم يعلم بتفسير ما يلزمه فى تأديته فلم يدن بالسؤال عما يلزمه فى ذلك .

ولو عدم المعبرين له فى حضرته ـ فهو هالك يترك الدينونة بالسؤال عما لزمه من ذلك متى قدر على ذلك ، والقدرة على ذلك [هى] ما قد وصفت لك من بلوغه إلى ذلك ، والله أعلم ، وبه التوفيق .

* * *

القول الرابع العاشر

فى معلم الصبيان ، وما يجوز له فيهم ، ومنهم

قال ابن عباس : سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : « المعلمون[١] خير الناس » : كلما خَلِقَ القرآن جددوه ، أعطوهم ، ولاتستأجروهم ، فتحرجوهم فإن المعلم إذا قال للصبى : بسم الله الرحمن الرحيم – كتب الله براءة للصبى ، ولأبويه ، وبراءة للمعلم .

وقيل : أوصى مسلمة مؤدب أولاده ؛ فقال له : إنى وصلت جناحك بعضدى ، ورضيت بك قرينا لولدى ؛ فأحسن سياستهم ، وقوّمهم ، فإن لك استقامتهم، وسهل بهم فى التأديب عن مذاهب التأنيب ، وعلمهم معرفة أخلاق الكرام ، وجنبهم مذاهب أهل الذام ، وامنعهم أن [ ] يهرجوا أمرا ما لم يعرفوه ، وكن لهم سايساً شفيقاً ، ومؤدباً رفيقاً ، تكتسب منهم المحبة ، والرفق ؛ فى حسن القبول، ومحمود المغبة ، ويمنحوك ما يرون أثرك عليهم عندك، وعليهم وحسن تأديبك لهم جميل الرأى ، وفاضل الإحسان ، ولطيف المعاناة .

وقيل : إن يحيى بن زياد الفراء – كان يعلم ابنى المأمون النحو ، فلما كان فى بعض الأيام : أراد الفراء أن ينهض إلى بعض حوائجه ، فابتدرا إلى تقديم نعل الفراء ؛ فتنازعا : أيهما يقدمه له ، ثم اصطلحا على أن يقدم كل واحد منهما فردا ، فقدماها .

---

(١) رواه ابن مردويه ، وفيه بعض اختلاف فى الألفاظ؛ فقد روى: عظوهم بدل أعطوهم، وقال السيوطى: وضعه الهروى . م .

وكان المأمون له على كل شيء صاحب خبر ، فرفع ذلك إليه ، فوجه إلى الفراء ، فاستدعاه ، فلما دخل عليه ـ قال [للفراء] : من أعز الناس ؟ قال : ما أعرف أعز من أمير المؤمنين ، قال : بل من إذا نهض تقاتل على تقديم نعليه ، ولياً عهد المسلمين ! ! .. حتى رضى كل واحد منهما : أن يقدم له فردا .

فقال : يا أمير المؤمنين ؛ لقد أردت منعهما من ذلك ؛ ولكن خشيت أن أدفعهما عن مكرمة سبقا إليها ؛ فأكسر نفوسهما عن شريفة حرصاً عليها .

فقال له المأمون : لو منعتهما من ذلك ، لأوجعتك لوما ، وعتبا ، وألزمتك ذنباً ، وما وضع ما فعلا من شرفهما ، وعلو قدرهما ؛ بل رفع من قدرهما ، وبيّن عن جوهرهما ، ولقد تبينت لى مخيلة الفراسة بقولهما ، فليس تكبر الرجل ـ وإن كان كبيرا ـ عن ثلاث : لسلطانه ، ولوالديه ، ولمعلمه ، وقد عوّضتهما مما فعلا : عشرين ألف دينار ، ولك عشرة آلاف درهم على حسن أدبك لهما .

وقد يروى عن ابن عباس ، أنه أمسك للحسن والحسين ركابهما ؛ حتى خرجا من عنده .

وأراد زيد بن ثابت الركوب ، فأخذ ابن عباس بركاب زيد ، فقال له بعض : [أ] يمسك لهؤلاء ركابهم ؟ فقال ابن عباس : اسكت ياجاهل ؛ لايعرف الفضل لأهل الفضل إلا ذوو الفضل .

فصل :

واختلف فيمن يعلم الصبيان ، وهو غير متوضىء ؛ فقول : يجوز وقول : لا يجوز .

[وقال أبو سعيد (رحمه الله) : من علم شيئا من العلم من كتاب الله أو من سنة رسول الله (ﷺ) ، أو الإجماع ، أو الرأى بأجر ؛ فلا يحل له ذلك ، وهو من السحت ، وكذلك ؛ إن أخذ أجرا على شىء من الحرام ؛ فلا يحل له ، وهو من السحت ، ولا نعلم فى ذلك اختلافا[1] _ وأما قيام شهر رمضان ، وتعليم الحساب بالأجر _ ففيه اختلاف : فقول : لا يجوز ؛ لأنه من الطاعة ، وقول : يجوز ؛ لأنه من غير اللوازم .

وأما القسام : فجائز لهم أخذ الأجرة على العناء فى القسم من مال الأيتام وغيرهم .

وقيل : لا يجوز لمعلم الصبيان أن يرسلهم إلى من تخلف من الصبيان عن

---

(١) قوله : ولا نعلم فى ذلك اختلافا بناء على من علم شيئا لوجه الله فهذا صحيح لا يحل أخذ الأجرة عليه .

أما من علم بقصد الأجرة _ فالخلاف فيه مشهور مع الموافقين ، والمخالفين ، ودليل الجواز قوله (صلى الله عليه وسلم) : « أحق ما اتخذتم عليه أجرا كتاب الله » رواه البخارى وهو الصحيح عندى وقد أخذ الخلفاء الراشدون نفقة من بيت المال وهو مذهب الأقل من الإباضية ، ومذهب مالك والشافعى.

وذهب الأكثر من الإباضية ، والحنفية إلى تحريم أخذ الأجرة على تعليم القرآن مستدلين بحديث عبادة حين علم ناسا من أهل الصفة _ القرآن ، فأهدى إليه رجل منهم قوساً فقال له رسول الله (صلى الله عليه وسلم): « إن كنت تحب أن تطوق طوقا من نار _ فاقبلها » رواه أبو داود ، والحديث الأول : أصح ، وهذا معلول ، ومحمول على أنه علم لوجه الله. اه محقق .

المكتب ؛ إلا بأمر من آبائهم ؛ فإن أرسل أحدا منهم، فعقره كلب ، أو ركضه حمار – خيف على المعلم من الضمان ؛ إذا لم يكن بأمر من والد الصبي .

وإن أمر المعلم الصبيان أن يحصبوا أمكنتهم بالحصى من الوادى ، فكان ذلك من مصالحهم – فأرجو أن يجوز ذلك [سواء أ] كانوا يتامى أم غير يتامى، ولا أحب ذلك إلا برأى آبائهم ؛ إذا كان ترك ذلك لايضرهم .

ولا يضرب المعلم الصبيان بغير رأى آبائهم ، أو رأى أوصيائهم ، وإن ضربهم ضربا مؤثرا – فلا يبين لى براءته من الضمان ؛ وإذا لزمه الضمان للصبي: ففى الحل له من والده اختلاف .

وإن أمر المعلم الصبي بأمر له فيه الصلاح، مثل قوله: اقرب منا ، أو اكتب كذا ، وكذا ، أو اعمل المداد ، أو امح لوحك ، وأمثال هذا ؛ من مصالح الصبي ؛ فجائز له ذلك .

وأجاز أبو الحوارى (رحمه الله) للمعلم ما أعطى على التعليم بغير شرط له على التعليم ، وقال : ما اشترطه المعلم على تعليم القرآن فهو من السحت ، وقيل : يجوز للمعلم أن يشترط أجرة له على التعليم ، وقيل: إن للمعلم أن يؤدب الصبيان، ويضربهم ضربا غير مبرح ، ويأخذ ما أتوا به عليه من عند آبائهم ، وأمهاتهم؛ وإن كانوا أيتاما .

والضرب الذى هو غير مبرح: هو ضرب الأدب الذى لا يؤثر ، ولم يجرح؛

فإذا أثر وجرح لزمه أرش ذلك، وكذلك الوالد؛ إذا ضرب ولده ضربا مبرحا ـ لزمه أرش ذلك لولده ، وليس ذلك ضرب أدب .

ومن قاطع آباء الصبيان ، أو من يقوم بأمرهم بشيء معلوم من الدراهم ، أو الحب، أو التمر على حساب الشهور، أو الأيام: على تعليم القرآن ـ ففي أكثر القول أن ذلك لا يثبت ، ولا يجوز ، وذلك باطل .

وإن عفا معهم في شيء غير تعليم القرآن كان عليهم له أجر مثله في ذلك المعنى ، وإن قاطعهم على التعليم ، ولم يقاطعهم على تعليم شيء معروف ـ فذلك مجهول ، وله أجر مثله ، وإن قاطعهم على تعليم الكتاب، أو الحساب ، أو شيء من الآداب مما يعرف: بأجر معروف في أجل معلوم ـ فذلك ثابت عليهم، ولهم، وأما إذا قصر عن شيء مما يلزمه؛ فإنه يترك من الأجر بقدر ما قصّر ، أو يستحل من قد لزمه الأجر في ذلك .

وقال بشير : للمعلم أن يضرب الصبيان ؛ يؤدبهم ، ويأخذ ما أعطوه [له] ، وقيل: لمعلم اليتيم أن يقبض منه مايصل إليه به : من رطب ، وبسر، وغيرذلك؛ إذا خرج ذلك في التعارف أنه مرسل به من والده ، أو محتسب ، أو وكيل ، أو وصى ، أو من يكفله ؛ فإن ذلك جائز ، ولو كان في التعارف أنه من ماله ؛ إذا خرج ذلك بمعنى المعروف من ماله ؛ وإذا لم يعلم أنه من ماله ـ فذلك جائز على حال إذا خرج في التعارف أنه مرسل به .

ومن جامع الشيخ أبي الحسن (رحمه الله) : ومن أمر المعلم أن يضرب ولده،

فضربه يؤدبه فمات . فإن على المعلم الدية ، ويتبع المعلم والد الصبي بالدية .
وسل عن ذلك .

وللمعلم أن يأمر الصبي أن يمحو لوحه ، ويصلح دواته ، وكذلك يكتب له بأقلامه ، ودواته .

وإن أتى الصبي إلى المعلم فى موضع تعليمه ، ولم يأمره ولى الصبي أن يعلمه القرآن : فإذا كان تعليم القرآن لا يشغله عن مصالحه من القيام بأمر نفسه لجائز له ذلك ، والأولى به ـ بعد صلاح نفسه ـ تعليم الأدب ، وتعليم القرآن مع مكارم الأخلاق الحسنة ، وللقائم بذلك ثواب عظيم ـ إن شاء الله ـ ولو لم يأمره بذلك والد الصبي ، ولا غيره .

وإن أتى إلى المعلم صبي لا يدرى أنه ممن يقوم بمعاشه ، أو يقوم به غيره ، فغفل عن السؤال عنه ؛ أنه يكفى أمر معاشه أم لا ، أم الصبي مدفوع إلى طلب معاشه وكفايته ، قال : إذا تظاهر من أمره حين مشاهدته ؛ أن له قائما بأمر معاشه ، وكسوته ، ولم يبن عليه فى ذلك ضرر ـ فهو مأخوذ من طريق ظاهر أمره ، لأنه فى حال الكفاية ؛ حتى يعلم غير ذلك .

وللمعلم أن يقبل الهدية من الصبي ، والخادم مثل : الرطب ، والنبق ، والقضيم ، ومثل ذلك ، وهو له حلال .

وللمعلم أن يعلم الصبيان القرآن ، والعلم ، والأدب : من غير رأى آبائهم ، ولا أوليائهم ، ولا أذنوا له بذلك ـ ولا حجروا عليه ـ أنه لا بأس عليه

فى ذلك ؛ ما لم يشغلهم عما هو أعود عليهم فى عاجل صلاحهم ـ ولا ضمان عليه، وهو مأجور فى ذلك ـ إن شاء الله تعالى ـ .

وإن أجبرهم على تعليم القرآن ، والعلم والأدب ، وقهرهم على ذلك من غير إذن آبائهم ، وكان ذلك صلاحا فلا ضمان عليه ؛ ما لم يبن فى ذلك تعطيل مصلحة هى أعود عليهم من ذلك. وإن غاب عليه أمر مصلحتهم، وكان الغالب ـ عنده ـ من أمرهم ظاهر العين ، فهم على حالهم ؛ حتى يعلم غير ذلك ، وإن كان ظاهر أمرهم التفرغ عن مثل ذلك فى مصالحهم ، أصلح لهم ، وكانوا ممن يقومون بأنفسهم ـ فاشتغالهم بمصلحتهم الحاضرة أولى بهم ؛ إلا أن تقام لهم لمصلحة أنفسهم ؛ فإن أدبهم أفضل .

وعن أبى عبد الله (رحمه الله) : لا بأس على من يعلم القرآن إن أعطوه شيئاً ؛ إذا لم يشترط ذلك عليهم ، وله أن يضرب الصبيان على الأدب بإذن آبائهم ، وأما اليتامى : فلا أحب أن يضربهم .

وقيل : أربعة لا يضربون : الولد ، والمرأة ، والخادم ، والدابة .

ومن أراد أن يعلم القرآن لوجه الله تعالى، ولا يأخذ عليه أجرا ، وفى بلاده معلم بأجر ؛ وإذا علم هو : يخاف أن ينحاز إليه الصبيان ، والمعلم الأول فقير محتاج فلا إثم على هـذا المعلم فى ذلك ، والمعلم الأول رزقه على من خلقه ، وإن توقف عن ذلك لطلب أرفق بذلك الفقير ـ فذلك وجه أيضا .

وللمعلم قبول ما أعطاه اليتيم، والصبى؛ إذا اطمأن قلبه أنهما كانا مرسلين

إليه بذلك ، وعليه أن يسألها عن ذلك ، وإن اطمأن قلبه أنهما لا يأتيان ذلك إلا عن رسالة ـ جاز له ذلك .

ويجوز للمعلم أن يأمر الصبيان ؛ أن يتماصعوا[١] إذا كتبوا ؛ ليجتهدوا فى تحسين الخط ، وأراد بذلك ؛ ليحرصوا على حسن الكتابة . وقيل : إن التعليم فى طلب المعيشة ـ أفضل من الحج فى طلب المعيشة ، وجاء فى الأثر : أن النائحة ، والفاجرة : المشترطون على ذلك أجرا ـ لا توبة لهم ؛ حتى يؤدوا ما أخذوا على ذلك ، وقد كره كراء المعلم المشترط على تعليم القرآن ، وإن لم يشترط ، وأعطوه بلا شرط ـ فلا بأس عليه .

وقال محمد بن محبوب (رحمه الله) : ولو أهدى إليه من مال اليتيم على تعليم اليتيم ـ فلا بأس ، عليه ، مالم يشترط ، وإن علمهم الخط ، واشترط أجرا على تعليم الخط ـ فلابأس ؛ لأن الخط صنعة ، ومن أخذ أجرا على تعليم الصنعة ـ فلا بأس عليه .

وقيل فى معلم الصبيان يرسلهم يسألون عن الصبيان ، وفيهم يتامى : فلا نرى له أن يرسلهم إلى بعضهم [لـ] بعض ؛ إلا أن يذهبوا من قبل أنفسهم

(١) فى القاموس ، وشرحه ، ومصع فلانا : ضربه بالسيف أو ساقه بالسوط ، أو ضربه به ضربات قليلة ثلاثا أو أربعا. اهـ وفى اصطلاح العمانيين ، المصع ضرب الطفل زميله فى كفه ؛ إذا ثبت أن خط المضروب أردأ من خط الضارب ، وذلك بواسطة أستاذهما ، أو اتفاق يجرى بينهم بذلك . ويكون الضرب بآلة الكتابة ككتف ناقة كانوا قديما يتعلمون فيه الخط ، ويتبارون فيما بينهم .

بغير أمره ، وأما من كان منهم له أب ، فأذن له أبوه بإرساله ـ فما أرى بذلك بأسا .

وأما ضربهم على الأدب ، والتعليم للقرآن ـ فلا بأس بذلك مالم يكن ضربا مبرحا ، والله أعلم ، وبه التوفيق .

* * *

القول الخامس عشر

فى تعليم القرآن ، وقراءته ، وما يجوز فى ذلك للطاهر وغير الطاهر .

روى أن رجلا جاء إلى النبى (ﷺ) ، فقال : علمنى العلم ، فقال : اذهب، وتعلم القرآن . ثم عاد إليه ، فقال له مثل ذلك ، ثم عاد إليه فقال ، له مثل ذلك، ثم عاد إليه ، فقال له فى الرابعة : اقبل الحق ممن جاءك به ؛ بعيدا كان أو قريبا، بغيضا كان ، أو حبيبا ، وردّ الباطل على من جاءك به ؛ بغيضا كان ، أو حبيبا .

وقال (ﷺ) : خيركم من تعلم القرآن ثم علمه[1] ، فقيل : من تعلم القرآن، ثم نسيه جاء يوم القيامة أجذم ، وأحب أن يجتهد ، ويتعلم ، وإن كان مغلوبا ـ وهو يعمل بفرائضه ـ لم يلزمه شىء .

ومن يقرأ القرآن ، وهو متوضئ ؛ فتعجبه قراءته وصوته ـ فلا يأثم ، إلا أن يعجب بقراءته ؛ فلا يجوز له ذلك ؛ لأن ذلك يحبط الأعمال ، ومن قرأ القرآن ، وهو متوضئ ، وعليه ثوب غير طاهر ـ فقد رخص بعض الفقهاء فى

(١) رواه ابن ماجه عن سعد ، ومافى معناه : « خياركم من قرأ القرآن وأقرأه . رواه ابن الضريس ، وابن مردويه عن ابن مسعود ، ورواه أبو داود فى ثواب قراءة القرآن عن عثمان بلفظ : « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » قال شارحه : وأخرجه البخارى ، والترمذى والنسائى ، وابن ماجة .

ذلك ، وكرهه آخرون ؛ كأن يقرأ القرآن . من مصحف أو غيره ، وقال عبدالله ابن عمر : لا يسجد الرجل إلا وهو طاهر ، وقيل : إن عمر بن الخطاب ، وعلى ابن أبى طالب وغيرهما ، أجازوا القراءة على غير وضوء ولم يجيزوا مس المصحف.

ولا يقرأ القارئ القرآن وهو جنب ، إلا الآية ، والآيتين ، وقيل : سبع آيات، وقيل : ما لم يبدأ بالسورة ، أو يختمها ـ جاز ذلك ، وروى[1] : أن النبى (ﷺ) : أجاز قراءة القرآن على كل حال ؛ إلا راكعا ، أو ساجدا ، أوجنبا؛ إلا أنه يثبت [فى] معانى القول عنه : أن الجنب لا يقرأ القرآن ، ولا يبعد حكم الحائض أو النفساء من معانى الجنب ؛ إلا المستحاضة ، وأما المستحاضة ـ فأحكامها أحكام الطاهر .

وقال الله تعالى : « فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ ؛ لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ »، وقال : « فِي صُحُفٍ مُكَرَّمَةٍ مَرْفُوعَةٍ مُطَهَّرَةٍ ، بِأَيْدِي سَفَرَةٍ ، كِرَامٍ بَرَرَةٍ .

ولا يقرب المشرك إلى شراء المصحف ، والقرآن ؛ إلا لمعنى الحجة عليه ، والدعوة إليه لمعانى القرآن، وإذا ثبت معنا منع المشرك عن ذلك لمعنى النجاسة لم يتغير ذلك من ثبوته فى الجنب ، والحائض أشد ؛ مالم تطهر .

وقيل فى الحائض ، والجنب : إنهما لا يحملان المصحف ، وقيل : لا بأس إن حملاه بسيره الذى يعلق به ، والقول الموجود فى الأثر : لا يقرأ القرآن جنب، ولا حائض ، ولا نفساء ، ولا أقلف[2] ، ولا مشرك ، وقيل : لا يقرأ الجنب ،

---

(١) رواه مسلم ولم يذكر الجنب م . (٢) الأقلف هو الذى لم يختن .

والحائض ، والنفساء ـ القرآن ؛ إلا من عذر ، أو لعذر ، يقرأ الآية ، والآيتين؛ يستأنس بذلك عن الوحشة ، أو يتعلم ذلك ؛ لما يلزمه علمه من علم التوحيد ، أو الوعد ، أو الوعيد أو شيء مما يلزمه علمه ، أو لايقدر عليه إلا بالتلاوة ـ فذلك عندى من العذر ، وقيل : التلاوة تكون عند ذلك فى الأنفس ؛ بغير تحريك اللسان ، ولا إثم فى ذلك ؛ لأن ذلك ليس بكلام ، وإذا لم يكن كلاما ـ فليس بقراءة .

وقيل : إذا لم يبلغوا إلى تذكرة ذلك : بغير تلاوة ، [أ] وخاف من تعلم شيئا أن ينساه ؛ إذا لم يتعاهده بالتلاوة فى ذلك الوقت ، ورجا أن يدرك علم ذلك بالتلاوة له ـ فعلى قول من يلزم التارك لذلك حتى ينساه الإثم ـ فجائز له أن يتلو القرآن ؛ لمعنى خروجه من الإثم لما يلزمه ، لأنه لايستقيم أن يلزمه شيء يؤثمه ، ولا يؤثمه ترك شيء يقدر عليه ، فلا يلزمه ـ فهذا يخرج معناه فى معانى هؤلاء فى قراءة القرآن على هذا النحو .

ويروى أن النبى (صلى الله عليه وسلم) قال: « اقرأ القرآن بأى حالة شئت، إلا جنبا[1] ،

---

(١) الحديث رواه الخمسة بألفاظ مختلفة ، وللعلماء فى جواز قراءة القرآن للحائض ، والنفساء والجنب ثلاثة أقوال : المنع إلا لضرورة ؛ لحديث الربيع بن حبيب رضى الله عنه ، عن جابر مرسلا قال : قال رسول الله (صلى الله عليه وسلم) : فى الجنب والحائض والذين لم يكونوا على طهارة : لايقرءون القرآن ولايطئون مصحفا بأيديهم ، حتى يكونوا متوضئين ، ولقوله تعالى : « لايمسه إلا المطهرون » .

والقول الثانى : الإباحة مطلقا ، وهو قول ابن عباس ، واختاره الشيخ عامر ونسبه لأكثر العلماء ، وحملوا النهى على التنزيه وهو الأليق بعظمة القرآن . والقول الثالث : الجواز للحائض ، والمنع للجنب بدليل حديث على المذكور ، ذلك لأن حدث الجنب يمكن زواله بأسرع وقت ، لأنه عارض بخلاف الحائض ؛ فحدثها لايزول إلا بزوال الحيض . انتهى محقق .

أو بأى حالة كنت فيها إلا جنبا ، وادخل المسجد فى أى حالة شئت إلا جنبا ، واحمل المصحف على كل حالة إلا جنبا ، ومعنى الرواية : يدل على إطلاق هـذه المعانى للإنسان ، إذا لم يكن جنبا .

وإذا ثبت معانى كراهية ذلك ، أو حجره للجنب ـ فذلك لا يكون إلا لمعنى ، إذ ليس هو بمتطهر ، لأن الجنب ليس بنجس فى الأصل ، وإنما هو ليس بمتطهر ، والطهارة عليه عبادة ، لالمعنى أنه نجس البدن ، لأنه لو مس شيئا من الطهارات بشىء من رطوبات بدنه ـ لم يكن ذلك نجسا ، وكذلك عرقه، وجميع رطوباته : ما سوى النجاسات ، وما مسّها .

وأما الذى به شىء من أحداث النجاسات من : بول، أو غائط ، أو ودْىٍ، أو مذْى ، أو دم ـ فقيل : يجوز له أن يقرأ القرآن ، وقول : لايجوز أن يقرأ القرآن المحدث الذى فيه شىء من الأحداث من النجاسات، إلاأنه ليس بمتوضىء، ووضوؤه منتقض به، وأما إذا كان ليس فيه شىء من النجاسات إلا أنه ليس بمتوضىء ، وحدثه بغير نجاسات فى نقض وضوئه ـ فإن له أن يقرأ القرآن على حسب ما مضى من الاختلاف فى القول فيه .

وقول : إنه إذا لم يكن على طهر تام ، ولا وضوء تام كالوضوء للصلاة ـ فهو بمنزلة المحدث ، لأنه معذور غـير متطهر ، لأن الجنب لو غسل موضع النجاسة ، ولم يبق فيه شىء من النجاسة، ولم يغسل جميع بدنه ـ أنه ليس بخارج من أحكام الجنابة .

وكذلك الذى ليس بمتطهر طهور الوضوء المتعبد به بمعنى الطهارة للصلاة ـ لم يجز له القراءة ، كما لم يجز للجنب بمعنى ما أشبهه فيه لمعنى التعبد، لأن الجنب لو تطهر من الجنابة قام ذلك له مقام التطهر للوضوء ،فالتطهر من الجنابة يقصده إلى التطهر من الجنابة ، وكذلك بعد غسله من النجاسة وإزالتها منه ، فيقصده إلى التطهر لما جرى عليه التطهر من جوارح الوضوء بالغسل عن التطهر من الجنابة ، خرج معناها فى ذلك واحد ، وسبيلهما فى ذلك واحد فى معانى الاشتباه والإتفاق ، فتشابها فى معنى قراءة القرآن التى لا تجوز الصلاة إلا بها، ولا تجوز الصلاة إلا بالتطهر بالوضوء ، فكانت القراءة مشبهة للصلاة التى لا تجوز إلا بالطهارة إذا كانت الصلاة لا تجوز إلا بها ، وإذا أشبه معانى الذى ليس بمتطهر بالوضوء معانى الجنب لثبوت التطهر عليه ، وإذا تشابها بمعنى واحد فقد لحقهما معنى التشابه ، وقد يتشابهان بمعان كثيرة من جسده ، ولو لم يكن يشبهه إلا بغسل جارحة من جوارحه للوضوء لكان قد أشبهه لاتفاق القول فيهما ، أو تشابههما فى هذا المعنى ، أن الجنب لو لم يبق منه إلا جارحة واحدة لم يطهرها لم يزل عنه حكم الجنب فى معنى الطهارة فى هذا ، وتساوى الذى ليس بمتطهر بالوضوء ولو كان ليس فيه شىء من النجاسة ، واتفاق القراءة من القرآن والصلاة، لأنه لا تجوز الصلاة إلا بالقراءة ، ولا تجوز الصلاة إلا بالوضوء ، فمن هنالك ثبت أن القراءة لا تجوز إلا بالوضوء ، فإن قيل: إن كانت الصلاة لا تجوز إلا بالقراءة والتكبير للإحرام فهو كذلك، ولكن ثبت جواز التكبير للجنب والحائض والنفساء ، وكذلك التسبيح ،

وما يقال فى الصلاة ، كل ذلك جائز منهم إلا القراءة ، لأنها لا تجوز منهم إلا من عذر أو لعذر ، وأما الصلاة كلها من فريضة أو سنة أو نفل فلا تجوز إلا بالوضوء التام ، لقول النبى ، ﷺ : لا صلاة إلا بطهور[١] ؛ وكل صلاة كانت بالركوع والسجود فهى مشبهة بمعانى صلاة الفريضة من جميع الفرائض والسنن والفضائل والنوافل والأعياد والخسوف والكسوف لا تتم إلا بالوضوء لمن يجد الماء ، والتيمم لمن لم يجد الماء ، وإن كانت النوافل ليست بلازمة لا يجوز الدخول فيها إلا بوضوء ، ومن صلى بغير وضوء ـ وهو قادر عليه ، أو تيمم عند وجود الماء ـ على التعمد منه لذلك بغير علة ولا عذر ، فهو عاص لله ؛ بخلافه للسنة ، وما عليه الأمة . وأما سجود القرآن ، فالاختلاف فيه على سبيل الاختلاف فى قراءة القرآن ، وقد مضى القول فى ذلك .

وكل من جاز له أن يقرأها جاز له أن يسجدها ، إلا الجنب ، والحائض ، والنفساء على قول من يجيز ذلك للقارئ ، وفى بعض القول : لا يسجدها إلا بوضوء تام .

فإذا ثبت أنها بمعنى القراءة : كانت لمعنى الذكر والطاعة ، وجاز أن يسجدها الساجد لها حيث كان وجهه إلى القبلة ، أو إلى غير القبلة ، أو إلى غير القبلة ، وبعض لا يجيز سجودها إلا بوضوء تام إلى القبلة ، لثبوتها أنها

---

(١) الطهور: الوضوء ، وفى معناه ، لاصلاة لمن لاوضوء له ، ولاوضوء لمن لم يذكر اسم الله عليه ، رواه أحمد وأبو داود وابن ماجه والحاكم ، وهو بفتح الطاء والواو وبالضم ، الفعل المعروف شرعا لإباحة الصلاة ، كالوقود والسحور ، قال الله تعالى : « وأنزلنا من السماء ماء طهورا » ، وأخرجه أيضا النسائى والترمذى من حديث ابن عمر .

لايترك سجودها فى صلاة فريضة ، ولا نافلة ؛ فكان مخرجها مخرج الصلاة فى شبهها معانيها .

وهى سنة من سنن النبى (ﷺ) ، ومن تركها على الدينونة بتركها ، أو الاستخفاف بها ـ كان هالكا ، وتسجد بعد صلاة الفجر ، وبعد صلاة العصر ، لأنها سنة ثابتة لمعنى تلاوة ، أو إنصات إليها ، ولا نعلم أن وقتا من الأوقات لاتجوز فيه قراءتها ، أو الإنصات إليها ، ومن ترك قراءتها بعد صلاة الفجر . وصلاة العصر ، لما ثبت عنده أنه لا صلاة فى هذين الوقتين ـ لا يعاب بذلك ، ولا يخطأ ، إذا كان قصده فى ذلك أن يقع فيما لايسعه ، وسجدة القرآن إنما جاءت بها السنة سجدة واحدة .

وأما الصلاة على الجنازة ؛ إذا حضرت جازت الصلاة عليها فى كل وقت ، إلا أن يغيب من الشمس قرن ، أو يطلع منها قرن ؛ فلا يصلى عليها ؛ حتى يستوى طلوعها ، وغروبها ، ولا تجوز الصلاة عليها بغير وضوء ؛ إن أمكن الماء ، فأما : [إن كان] فى المسكنية ـ فلا تجوز الصلاة عليها إلا بالوضوء ، فإن وقع خوف فى فوت الوقت ، أو لضرر فى الميت ، أو ضيق وقت يخشى فيه وقوع ضرر فى معانى الميت ، أو لسبب من الأسباب .

وتجوز الصلاة عليها بالتيمم لمعنى العذر ، وكذلك إذا خاف الواحد أن تفوته الصلاة على الميت إذا تشاغل بالوضوء ، ولو حضر الماء ـ فقيل إنه يتيمم ، ويصلى على الجنازة ، ولا يدعها تفوته ـ إن شاء ذلك ـ وفى بعض القول : أن الصلاة على الجنازة ؛ إذا قامت بغيره أنه لايصلى صلاة الجنازة ؛ إذا حضر الماء إلا

بالوضوء ؛ ولو فاتته الصلاة على الجنازة ؛ لأنها صلاة ، ولا تكون إلا بوضوء وتجوز صلاتها بالتيمم لمعنى العذر ، إذا خيف الضرر على الميت أو غيره من أسباب الضرر فإذا قامت الصلاة لم يكن هنالك ضرر ، وكان الداخل فيها بعد تمامها وقيامها بغيره بمنزلة الوسيلة ، والفضيلة - ليس بموضع الضرر .

وفى جملة القول : أن الصلاة على الميت تجوز بالتيمم ، وبالثوب النجس ، لأنها وإن كانت صلاة : فهى بمعنى الذكر لا بركوع ، ولا سجود ، وإنما فى تكبير ، وتسبيح ، ودعاء ، وقراءة، ولا تكاد صلاة الجنازة تخرج فى معانى الاختيار .

وأما صلاة التطوع : فلا تجوز إلا بالوضوء ، أو التيمم عند عدمه كالفرض ، وأما صلاة العيد فلا تجوز بالتيمم ؛ إذا حضر الماء ، ولو خاف فوت صلاة الجماعة فيها ، ويتوضأ ، ويصلى ركعتين أفضل من الصلاة لها بالتيمم للجماعة .

وقيل : إذا خيف فوت السنة فيها وهى صلاة الجماعة - فله أن يتيمم ، ويصلى السنة فى الجماعة ؛ إذا خاف فوتها ولو لم يعدم الماء ، ويعجبنى ذلك ؛ إذا خاف أن لا يدرك الجماعة فيها بعد تلك الجماعة ، أو كانت تلك الجماعة هى صلاة إمام العدل ، أو صلاة أولى الأمر من أهل العلم من ولاة المسلمين ، وأولى الأمر منهم - ولو كان يجد جماعة غيرهم .

وإذا خاف أن لا يدرك الجماعة على حال من صلاة العيد فصلاتها عندى

بالتيمم ، والقيام بسنتها أفضل ؛ لأنها سنة فى الجماعة لا على الانفراد ، ولا تقوم إلا بالجماعة ؛ فصلاتها جماعة : هى السنة الواجبة .

وصلاة الجنازة ، وإن كانت ألزم فى شىء ؛ فإنها أعذر عند القيام من البعض بها ، وهذه سنة جماعة ، وثبوت وقتها أن تدرك فى صلاة الجماعة ، وانقضاء وقتها انقضاء وقت الجماعة التى لا يدرك مثلها فيها ، ولو كان فى وقتها بعد ؛ فلا تدرك صلاة العيد فى الجماعة ؛ كما لا يدرك فرض الجمعة إلا بالجماعة .

وكذلك القراءة بالتيمم عند غير المسكنة من الماء الذى لا تدخل فيه المشقة ولو لم يكن من خوف ، ولا عدم ـ أحب إلى من ترك القراءة ، إلا أن يدخل الإنسان فى شىء من الطاعات من سائر الذكر ، ولا يخاف فى ترك القراءة بسبب لمعنى ذلك وتركه يولد عليه نسيان شىء مما قد تعلمه من القرآن الذى يخاف الإثم فى نسيانه .

وأما سائر أداء الفرائض ؛ فلا أعلم ، يلزمه فيها تطهر بالوضوء ما سوى الصلاة ، وأشباهها ، والقراءة والطواف بالبيت ؛ فإنه قد جاء فيه أنه بمنزلة الصلاة ، لا تجوز إلا بالطهارة التامة من الوضوء ، كان الطواف طواف فريضة أو سنة ، أو نافلة ـ لا يصح إلا بالطهارة ، وكذلك [فى] ركعتى الطواف [فـ] هما صلاة ، ولا يجوز فى الحج ، ولا فى العمرة ، ولا فى سائر الطواف ، ولا ركوع ؛ كسائر الصلوات

وأما سائر المناسك كلها من الإحرام ، والسعى بين الصفا والمروة ، والوقوف بعرفات ، والمشعر الحرام ، ورمى الجمار ، والذبح ، والحلق ، والتقصير ،

وجميع ذلك — يقوم بغير وضوء ، ويصح من الحائض ، والجنب ، والنفساء ، ويستحب الغسل فى جميع ذلك .

والصوم يشبه معانى أحكام الطهارة فى معانى ما لا يقوم إلا بالطهارة من الطواف والصلاة ، إلا أن ذلك خاص منه فى الحائض والنفساء فى معانى أحكام السنة ، وما يشبه الاتفاق أنه لا صوم قائم ، ولا ثابت على حيض ، ولا نفاس ، وما صام الإنسان ؛ فهو باطل ، ولو دخل ذلك على المرأة من بعد اعتقاد الوضوء — أبطل ذلك حكمها فى معانى أحكام السنة ، والله أعلم ، وبه التوفيق .

* * *

القول السادس عشر

فى الاختلاف فى خلق[1] القرآن وأسماء الله وصفاته

يوجد فى الآثار ـ فيمن يقول : إن القرآن مخلوق ـ أقاويل ، فقال بعض من قال : إن ذلك لا يبلغ به إلى براءة ، ولا وقوف ؛ وهو فى الولاية ؛ وذلك أنه ؛ إذا علم أنه يعنى بخلقه حدوث وحيه على النبى (ﷺ) ، وتلاوة النبى (ﷺ) على أمته ، وإنزال الله له ، وكتابه فى اللوح المحفوظ ، وما تخرّج على هذا من التأويلات .

فإذا علم أنه يعنى هذا ـ فهو مصيب ، قابل للحق ، وهو فى الولاية ، ومن قال فى البراءة ممن قال إن القرآن مخلوق ، وهو إذا أراد به القرآن نفسه ؛ لأن القرآن : علم الله ، وكلامه ، وكلامه علمه ، فمن قال : إن علم الله ، وكلامه محدث ـ وجبت منه البراءة .

ومن قال : بالوقوف عمن قال : إنه مخلوق ؛ وذلك أنه لما اشتبه أمره ؛ فلم يعلم ما أراد به فى ذلك ، ولا ما تأويله ـ أدخل الشبهة على نفسه فى قوله ، فوقف عنه من وقف من المسلمين ، وكذلك إن لم يُعلم منه ما تأويله ، ولا

---

(١) اختلف العلماء الموافقون ، والمخالفون فى القرآن . هل هو مخلوق أو قديم ؟ وعند التحقيق فالخلاف بينهم لفظى ، فالمختلفون متفقون أن علم الله قديم ذاتى ولكن اختلافهم فى القرآن هل هو علم الله ؟ أو هو معلومه ؟ ، ومن هنا نقطة الخلاف بينهم ، والراجح عندى كونه حادثا بدليل قوله تعالى « بل هو قرآن مجيد فى لوح محفوظ » واللوح المحفوظ حادث ، وليس من الجائز أن يشتمل حادث على قديم ، وكذلك القول فى الأوراق التى تحوى الآيات الكريمة ، والله الموفق.

ما مذهبه ، وكانت له ولاية متقدمة جازت ولايته ؛ حتى يعلم أنه يتأول تأويل الضلال ويحتمل الوقوف؛ لما أدخل على نفسه من الشبهة ، وفى ظاهر الأمر أيضا يحتمل البراءة ؛ حتى يتبين ما أراد بذلك من تأويل الحق .

وأما إذا تبين : فلا يجوز فيه إلا الولاية على تأويل الحق أو البراءة على تأويل الباطل ، إلا أن يعرف الحكم فيه من علم منه ذلك ، فوقف عن ولايته؛ ليستقيمه على الاعتقاد فيه للصواب ـ جاز ذلك إن شاء الله .

وقيل لمحمد بن الحسن (رحمه الله) : ما قولك فى القرآن ؟ و [فى] من يقول : إنه مخلوق ؟ أيخطأ ؟ أم لا ؟

قال فى ذلك أقاويل من المسلمين ؛ إلا أن الذى نأخذ به ، ولا نقول : إنه مخلوق ولا غير مخلوق ، ونقول : إنه كتاب الله الذى أنزله .

فمن قال : إنه مخلوق ، ولم يخطىء من قال : إنه غير مخلوق ـ لم نخطئه ، ومَن خطّأ من قال : إنه غير مخلوق : ألزمناه الخطأ ؛ إذا قال إنه مخلوق ، ويرد علم ذلك إلى الله ، وهو أعلم بالصواب فى كل شىء .

وقال الفضل بن الحوارى: اجتمع الأشياخ ـ بدما ـ فى منزل ، منهم: أبو زياد وسعيد بن محمد، ومحمد بن هاشم بن غيلان، ومحمد بن محبوب ؛ وغيرهم من الأشياخ (رحمهم الله) ، وتذاكروا فى القرآن . فقال محمد بن محبوب : أنا أقول : إن القرآن مخلوق ، فغضب محمد بن هاشم ، وقال : أنا أخرج من عمان، ولا أقيم بها

---

(١) نسخة الضلال .

فظن محمد بن محبوب أنه يعنى له ، فقال : بل أنا أولى بالخروج من عمان ؛ لأنى فيها غريب ، فخرج محمد بن هاشم بن غيلان من البيت ، وهو يقول : ليت أنى مت قبل اليوم ، ثم تفرقوا .

ثم اجتمعوا بعد ذلك ، فرجع محمد بن محبوب عن قوله ! ! ، واجتمع من قولهم : أن الله خالق كل شىء ، وما سوى الله مخلوق ، وأن القرآن كلام الله ، ووحيه ، وكتابه ، وتنزيله على محمد (ﷺ) ، وأمروا الإمام المهنّا بالشدّ على من قال : إن القرآن مخلوق .

وقال الفضل بن الحوارى : من قال : إن القرآن مخلوق ، وله ولاية ، ولا يبرأ ممن لايقول بقوله ، فلا تقطع ولايته .

فصـــل :

ومن كتب المغاربة[١] : اختلف أهل هذه الدعوة المباركة فى أمر لم يكن لهم الاختلاف فيه ؛ لأن الذى دانوا به كله واحد : القرآن هو الإمام ، واللغة معروفة .

اختلفوا فى صفات الله تعالى فقال قوم: صفاته محدثة مخلوقة، وقال آخرون:

---

(١) يطلق لفظ المغاربة فى كتاب المشارقة الأباضية على من بالمغرب العربى ، وبالأخص مع القدامى منهم على أهل تاهرت ، ووار جلان بالجزائر ، ثم استعملوه مؤخرا إلى من بتونس وليبيا .

فأما المغاربة فيطلقون لفظ المشارقة على من بنفوسة من ليبيا ، وعلى من بمصر ، والبصرة ، وخراسان ، واليمن ، وعمان كذا فهمته من عباراتهم وهو واضح . م .

بل لم يزل الله وله الأسماء الحسنى ، ولن يعدو ما اختلفوا فيه من أن ينفصل الحق من الباطل عند تقلب الأمور ، وموازنة بعضها ببعض .

يقال لمن زعم أن صفات الله محدثة مخلوقة أخبرونا عن الصفة ما هى ؟ فإن قالوا : هى الكلام الذى يتكلم به الناس من قولهم : الله والسميع ، والبصير وجميع الأسماء . قيل لهم : إن الكلام لم يختلف فيه أحد أنه محدث مخلوق ، وأنه فعل العباد . وإن كان معناك أن الصفة هى الكلام ؛ فإن الكلام فعل العباد ، والعباد يعقلون اسم الله فى كل أحوالهم .

وفى قود هذا القول ؛ أنه لا يجوز لأحد أن يقول : الله لم يزل ، ولا علم ، ولا سميع ، ولا بصير ، ولا جميع صفاته ؛ لأن الصفات فى قولك : هى الفعل ، والفعل محدث والفاعل أقدم من فعله ؛ فقد كان الخلق ولا صفة لله ؛ إذ وصفته هى أفاعيلهم فى قولك .

فإن قال قائل : اسمه غير فعل ، فيقال [له] : ما دليلك على أن ثم اسما غير ما تسمع من قول القائل : الله ، والعليم ، والرحمن وصفاته أنه لم يزل ؟ فإنه لا يجد دليلا حتى يرجع فيقول : إنه لم يزل الله وهو العليم الرحمن السميع ؛ فإنه لا يجد دليلا حتى يرجع ؛ فيقول : لم يزل الله ، وهو العليم الرحمن ، السميع ، وجميع صفاته .

فيقال : فى قود قولك : أو صفاته غير أنه لم يزل ، ومعه غيره ؛ لأنك زعمت أن الله لم يزل ، وهو الله السميع العليم الرحمن ، وجميع صفاته ؛ إذا زعمت

أنه غيره ، لأن الأصل : [هو] ما أجمع عليه أهل الصلاح ـ أن الله قديم ، وأنّ ما سواه محدث ؛ فتفهموا ما وصفت تجدوه نيّرا سهلا .

والعرب تقول فى كلامها : لفلان غنم . يخبرون عن شىء غيره ، ويقولون: لفلان ولد . يعنون غيره ، وأشباه ما يملكه الناس ، ويقولون : لفلان رجْل ؛ وله يد ، وله رأس ، وله ظهر ، وله بطن ، وله وجه ، وجميع أجزائه ، و[هم] إنما يعنون بقولهم ـ له بعض أجزائه ، وهو الأجزاء كلها ، وليس أن يده غيره ، ورجله غيره ، وجميع الأجزاء ، وإنما يعنون ــ إذا قالوا له يد ــ يعنون بعضه ولا يعنون غيره ؛ مثل قولهم له مال . ؛ فإن كانت هذه الأجزاء غيره ــ فمن هو الذى غير الأجزاء ؟ . وقال الله تعالى : « لَهُ مَا فِى السَّمٰوَاتِ ، وَمَا فِى الْأَرْضِ ، أَلَا لَهُ الْخَلْقُ ، والْأَمْرُ » بيّن الله ، وأشباه هذا مما أضافه إلى نفسه من خلقه ـ وهو غيره .

وقال الله تعالى : « وَلِلّٰهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا » يعنى : أنه الله ، وأنه السميع ، وأنه العليم ، وجميع صفاته ؛ لا يعنى أن الله غيره ، ولا أن السميع غيره ، ولا أن الخالق غيره ، وجميع صفاته .

فكان وجه ما أضيف إلى الإنسان من قول القائل : له مال ـ يعنى ـ أنه ملكه عن غيره ؛ يعطيه من غيره ملكه إياها ، وكان وجه ما أضيف إلى الإنسان من قول القائل : له وجه ، وله روح ، وله يد ، وله رجل ـ يعنى ـ أن هذه الأجزاء ، لا أن هو غير هذه الأجزاء .

فكان وجه ما أضيف إلى الله من قول القائل « له مافى السموات : وما فى الأرض » ، « وله الخلق والأمر » يعنى ـ أنه أنشأه ، وأحدثه بعد إذ لم يكن ، وأمسكه من أن يزول ، وزاد فيه ، ونقص منه ، ويفنيه إذا شاء ؛ فاشتبه قول القائل : للإنسان مال ، والله الخالق ، ولله الخلق ، واختلفت وجوه المعانى ، فليس يجرى على الخلق : معانى الله ، ولا يجرى على الله : معانى الخلق .

وقول الله : « لَهُ الأَسْمَاءُ الحُسْنَى » يعنى ـ أنه هو الله السميع العليم الرحمن الواحد القاهر ، وجميع صفاته .

وأشبه قول القائل : للإنسان يد ، وله رجْل ، وله روحٌ ، وجميع الأجزاء ولله الأسماء الحسنى ، واختلفت وجوه معانيها ، لأن الذى أضيف إلى الإنسان من ذلك ـ إنما هو بالأجزاء . والذى أضيف إلى الله : إنما هو لا بالأجزاء المتفرقة ، لأن الأجزاء مخلوقة عاجزة ذليلة مقهورة . فنفينا عن الله تعالى معانى الخلق ، وما يجرى عليهم ، ونفينا عن الخلق معانى الله ، وما يجرى عليه ، وأبقينا ما أخبر به عن نفسه من أنه : « ليس كمثله شىء وهو السميع البصير » ، وأنه « لم يلد » ؛ لأن الولد يُشبّه بالوالد » ، فنفى عن نفسه الشبه ، « ولم يولد » ؛ لأن المولود محدث ، والمحدث مقهور عاجز ذليل مع الوالد ، « ولم يكن له كفوا أحد » ؛ لأن الأكفاء متضادون ، بعضهم يكافئ بعضا ، فنفى عن نفسه الأكفاء ، لأن المكافئ لكفئه ذليلان متهوران ، لأن لهما قاهرا قهرهما على مضادتهما ، ومذللا لهما حتى تكافيا .

فنفينا عن الله : الأمثال ، والأشباه ، والأضداد ، بما يكون فيه بيان لذى الحجا ، ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

وفرقوا بين أسماء الله . فقالوا: إن بعضها لم يزل، وهو له . وبعضها محدث؛ وذلك لأنهم لم يجدوا بدًا من أن يقولوا : إن الله لم يزل ، وهو الله السميع ، البصير القادر القاهر ، الأول الحافظ الشاهد ؛ فلما لم يجدوا بدًا من ذلك ـ قالوا : إن هذه الأسماء ذاتية . فيقال لهم : ما تعنون بقولكم أسماء ذاتية ؟ [فإن كانوا] يعنون : أنه لم يزل ـ فهو نفسه الله السميع العليم القادر القاهر الأول الحافظ الشاهد ؛ فإن قالوا : نعم . قيل لهم : صدقتم والحق قلتم ، وإن كنتم تعنون : السميع الله القاهر القادر الأول الحافظ ـ هى أسماء المعنى بها، وأنها لم تزل معه، فقد أثبتم أن معه خلقا محدثا لم يزل، وقد افتريتم إثما عظيما وقلتم بقول خرجتم به من موافقة أهل الصلاة ؛ فإنهم يقولون إنما أثبتنا له اسم العليم ، ونفينا عنه بذلك ـ الجهل ، وقلنا له : السميع ، ونفينا عنه بذلك ـ الصم ، وقلنا له : البصير ، ونفينا عنه بذلك ـ العمى ، وقلنا له : القادر، ونفينا عنه بذلك ـ العجز، وقاهر [و] نفينا عنه الاستكراه ، وحافظ [و] نفينا عنه النسيان ، وشاهد [و] نفينا عنه الغفلة .

ويقال لهم : حدثونا عن قولكم : نفيتاه فهل ينفى الجهل إلا العلم ؟ ، والصم إلا السمع ؟ ، والعمى إلا البصر ؟ ، والعجز إلا القدرة ؟ ، والنسيان إلا الحفظ ؟ ، والغفلة إلا التذكر ؟ ، وفى قود [1] قولكم ، ونفيكم ما ذكرتم إثبات الأضداد لما نفيتم .

---

(١) قال الخليل : القود : أن يكون الرجل أمام الدابة آخذا بقيادها مصباح .

ونحن نسألكم عن هذه الأضداد التى أثبتموها [أ] هى الله نفسه أم هى غيره ؟ ؛ فإن زعمتم أنها هى الله نفسه ـ فقد دخلتم فى أشنع ما أنكرتموه على من خالفكم ؛ إذ وصفتم أن لله سمعا ، وبصرا وعلما ، وقدرة ، وحفظا ، وتذكرة ، والله تعالى : لم يصف نفسه بشىء مما وصفتموه ، إنما : هو الله السميع العليم البصير ؛ فمن وصفه بغير ما وصف به نفسه ـ فقد افترى إثما عظيما ، وضل ضلالا بعيدا .

وإن قلتم : هذه الأضداد غيره ؛ فقد أثبتم معه غيره ، وجعلتموه ـ إذاً ـ أجزاء كالخلق ، فتعالى الله [عن ذلك] علوا كبيرا ؛ فتفهموا ما وصفنا ، وتثبتوا ؛ فإن فيه الشفاء لمن يريد الله ، وما عنده .

اعلموا أن قوله : نفينا عنه الجهل ، لا يكون الجهل ضد عالم ، [و] إنما الجهل ضد العلم ، والجاهل ضد العالم ، والصمم ضد السمع ، والعمى ضد البصر لا يكون العمى ضد البصير فتفموا الأضداد ، ومجاريها ، وما ينفى بعضها من بعض ، تعلموا أن القوم ليسوا على صراط مستقيم ، وأنهم فى [كل] واد يهيمون ، ولو كان أصلهم الذى بنوا عليه ثابتا ـ لكانت فروعه ثابتة ، ولكن فسد الأصل ففسد الفرع .

ويقال لهم : أخبرونا عما فرقتم من أسمائه : فقلتم للعليم ـ لم يزل ، وهذا من أسماء ذاته ، والغفور من أسماء فعله ، والخالق ، والرازق [كل] هذه عندهم من أسماء فعله .

فقالوا : لايجوز أن يقال : إن الله لم يزل خالقا ، ولا غفورا ، ولا رحيما ،

ولا رازقا ؛ لأن هذه الأسماء عندهم ، إنما أضيفت إليه بفعله ، فتفهموا الحجة عليهم .

يقال لهم : ليس الغفور هو العليم ؛ لأنهما عندكم اسمان : أحدهما قديم ، والآخر محدث ، فلا يكون القديم هو المحدث ، ولا [يكون] المحدث هو القديم .

وفى قود هذا القول : أن الله هو غير الغفور ، وأن الغفور هو غير الله ، والله عندكم اسم لم يزل ، فتفهموا ما وصفنا ـ تعلموا أن من قال : إن الله غير الغفور ، وأن الله ليس هو الغفور ؛ أنه قد افترى إثما عظيما ، اعلموا أنه إنما اشتبه عليهم الأمر من قِبَل قلة معرفتهم ، وتعميهم فى كل ما يخطر ببالهم ؛ فإذا عرض لهم شىء دانوا به ، وقالوا به ، ولم ينتظروا أن يسألوا ، أو أن يتثبتوا .

اعلموا أن كل ما وصف الله به نفسه من هذه الصفات فى القرآن ، فإنما يخبر أنه هو الخالق ، وأنه هو الرازق ، وأنه هو العالم ، وأنه هو السميع ، وأنه هو القادر ، وجميع ما وصف به [نفسه] هو كما وصف ولم يزل كما وصف نفسه ، إلا إنما وصف به نفسه غيره ، وقد بينا ذلك فى صدر كتابنا ؛ فاتهموا العلة فتفهموا ، وائتموا به ، وكونوا من أمركم على بيان .

واعلموا أنهم يحتجون فى بعض حججهم : أن يقولوا : فلم يزل الله يخلق ، ويرزق ، ويغفر ويرحم ، وأشباه ذلك ؛ فتفهموا قلة معرفتهم بالحجج ، ودخولهم فيما [هو] عليهم لا لهم ، واعلموا أن الله وصف نفسه [بـ] يعلم ، ويسمع ، ويبصر ، وأشباه ذلك ، وأنه يخلق ، ويرزق ، ويرحم .

واعلموا أن قوله : يعلم ؛ إنما يخبر عن نفسه أنه العليم بالأشياء قبل أن تكون ، فليس فى يعلم : خبر عن سواه ؛ وإنما هو خبر عن نفسه : أنه لعليم وسميع ، يعنى أنه السميع الذى لا يخفى عليه [شىء] [من] الخلق ، وأنه محيط بهم قبل أن يخلقهم ، وكذلك : فى يبصر ، ويقدر ، ويحصى ، ويحفظ ، وأشباه ذلك .

ولا يجوز لقائل أن يقول : إن الله لم يزل يخلق ؛ لأن فى قوله : يخلق ، خبر عن الخالق ، والخلق ، ويرزق ، ويغفر ، ويرحم مثل ذلك ، وليس فى قول القائل : الخالق خبر عن غير الخلق ، ولا الرازق خبر عن غير الرازق ؛ وإنما قوله : الخالق صفة الله بأنه هو الخالق لا غيره الخالق ، والرازق لا غيره الرازق ؛ فتفهموا ما وصفنا تجدوه نيرا سهلا ، ولا قوة إلا بالله ــ عصمنا الله ، وإياكم بالتقوى .

تم الذى من كتب أهل المغرب ــ والله الموفق .

وقال عمر بن سعيد بن محرز : إن أبا عبدالله محمد محمد بن محبوب (رحمهما الله) أملى علية هذا الكلام من نفسه . قال :

لا يقال : إن أسماء الله محدثة ، ولكنها لم تزل له ، ولا يقال : إنها هو ، ولا هى غيره ، ولا شىء منه ؛ لأنه غير محدود ، ولا يتبعض ــ تبارك وتعالى ــ ويقول : إن القرآن كلام الله ، ولا يقول إنه هو ، ولا شىء منه ، ولا مخلوق ؛ ولكنه وحيه وكتابه ، وتنزيله على نبيه محمد (ﷺ) ، والقرآن هو من علم الله ، وعلمه لم يزل ، وهو غير محدث ، والقرآن كلام الله ، والله تعالى لم يزل متكلما .

وقال : من حدّ صفات الله كمن حدّ الله ، وقال : من قال : إن القرآن مخلوق ، وقد تقدمت له ولاية أنه لا يُقطع ما لم يبرأ ممن لا يقول : إن القرآن مخلوق ؛ فإذا برئ ممن لا يقول إن القرآن مخلوق برأى برئنا منه بدين .

وهذا القول كان منه بعد ما قدم صحار ؛ إلا أنه إذا قال : إن القرآن مخلوق ، ولم يبرأ ممن لم يقل بقوله ؛ فإنه يخطأ أو قال : عدو للمسلمين .

وقال محمد بن هاشم : إن هذا مما يسع جهله ، وقال أبو معاوية (رحمه الله) : سمعنا أشياخنا يقولون ـ وقولنا تبع لهم ـ : إن القرآن كلام الله ، وماديته ، ونوره ، ، بيانه ، ويقولون : إن الله خالق كل شيء ، وما سواه مخلوق .

وقد كان هـذا فى عصر قد مضى ، وتكلم فيه أقوام ، وقالوا فيه : إن القرآن مخلوق ، فرفع ذلك إلى مشايخ المسلمين ، وكان قولهم ما وصفنا ، فلم يبلغ ذلك عندهم براءة ، ولا وقوفا ، وكانوا عندهم على حالهم الأولى .

ونحن نكره انتشار هذا مخافة الفرقة ، وضيق صدور المسلمين .

وقيل لأبى مروان : إن موسى بن على كان يقول : إن القرآن مخلوق ، فقال أبو مروان : كذب من روى هذا عن موسى بن على ؛ بل موسى بن على يقول : القرآن كلام الله ، ولا يقول : القرآن مخلوق .

وأما قولك فى أسماء الله تبارك وتعالى : أهى مخلوقة أم غير مخلوقة ؟ فقد قيل : إن أسماءه المسمى بها من الألفاظ الملفوظة ، والحروف الملحوظة المسموعة التى سمى بها نفسه فى كتبه ، أو وحيه ، أو سماه بها أحدٌ من خلقه ، فلا يستقيم إلا أن تكون محدثة .

وأما ما سبق من ذلك فى مكنون علم الله الذى لم يزل عالما به ـ فلا يقال : إن علمه محدث ، ولا مخلوق .

ولا يجوز أن يكون هو أسماؤه ، ولا يكون ما سواه إلا وهو محدث ؛ فمن خطرت بباله هذه الأسماء التى تذكر وتكتب ، وينتقل ذكرها من حال إلى حال ، فذلك محدث مخلوق ، ومن عرف معناها ـ فعليه أن يعلم أن ما سوى الله تبارك وتعالى مخلوق .

وإذا لم يعرف معنى ذلك [أ] والمراد به من خاطر ذلك ، أو ذكره ، وعلم أن الله تبارك وتعالى قديم ، وما سواه محدث من جميع الأشياء ، وأنه لا يشبه بشىء من جميع الأشياء من ذاته ، ولا صفاته ، ولا أسمائه ، ولا حكمه ، ولا قضائه . وسعه ذلك إن شاء الله .

وكذلك القول فى القرآن ، وتنزيله ، وكتابه ، وأحداثه من هذه الألفاظ الملفوظة ، والحروف الملحوظة المكتوبة المسموعة المنظورة : فهى محدثة مخلوقة .

وأما ما سبق من علم الله له : فلا يقال : إن علم الله تبارك وتعالى كان بعد أن لم يكن فلا يجوز هذا ، ونحوه عليه .

فمن شك فيما لا يسعه جهله على ما وصفنا فيما يخرج تنزيلا قد بلغه علمه ؛ فيخرج حدثه ـ فى ذلك معنى الشرك ، وإن كان متأولا فى شكه ، وفى قوله بمثل ذلك ـ لم يلحقه الشرك ، وإن كان شكه فى مثل ذلك .

وقوله: وتأوله ـ فيما لا يسعه جهله كان كفره فى ذلك كفر نعمة لا كفر شرك .

ومن قال بخلق القرآن . فقيل: يبرأ منه ، وقيل: بالوقوف عنه ، وقيل: بولايته، وكذلك القول : فى أسماء الله تبارك وتعالى ؛ إذا ثبت معنى الاختلاف فى حكم التسمية ، وعلى غير تفسير لا يسع ، ولا يحتمل فيه للقائل مخرج من مخارج الحق، فلا يجوز فى ذلك : الولاية ، ولا الوقوف بعد علم حدثه فيما يسع جهله ، وتزول بليته فيما لا يسع جهله .

فصل :

« من غير الكتاب » .

قيـل : إن أحمد بن أبى داود[1] الذى امتحن العلماء والفقهاء ، فى زمن من بعصره من الخلفاء ، وسعى فى حبسهم ، وتنكيلهم ، وسفك دمائهم ، وإخراجهم من أموالهم ، وأهليهم ، وأوطانهم ؛ حتى أصابهم من الضر ما لم يصب غيرهم ، ليجبرهم على القول : أن القرآن مخلوق .

---

(١) قوله ابن أبى داود المعروف: أبو عبد الله أحمد بن أبى دُؤاد وهو من أكبر قضاة المأمون ، والمعتصم ، وكان معتزلى المذهب توفى عام ٢٤٠ هـ وعاش ثمانين سنة ، ومدحه أبو تمام بقصيدة منها :

لقد أنْسَتْ مساوىَ كلِّ دهرٍ ... محاسنُ أحمدَ بنَ أبى دؤادِ

وما سافرتُ فى الآفاقِ إلا ... ومن جَدْواكَ راحلتى وزادِى

ومن ألطف قوله فيه :

وإذا أرادَ اللهُ نَشْرَ فضيلةٍ ... طُوِيَتْ أتاحَ لها لسانَ حَسُودِ

لولا اشتعالُ النارِ فيما جاورتْ ... ما كان يُعرَفُ طِيبُ عَرْفِ العُودِ

قال ابن خلكان : ودواد بضم الدال المهملة ، وفتح الواو ، وبعد الألف دال ثانية مهملة ، ويتصل نسبه إلى إياد بن نزار بن معد بن عدنان . م .

حتى أوتى الخليفة بشيخ من أهل (أطنة) [1] من الشام ـ مقيدا فى أجل المحنة ، وهو جميل الوجه تام القامة ، حسن الشيبة ، فلما رآه الخليفة استحيا منه ورق له .

فما زال يدنيه ، ويقربه حتى قرب منه ، وسلم عليه الشيخ ، وأحسن ، ودعا فأبلغ وأوجز ، فقال له الخليفة : اجلس ، فجلس ، فقال له : ناظر ابن أبى داود على ما يناظرك عليه ، فقال له الشيخ : يا أمير المؤمنين ، إن ابن أبى داود يضعف ويعجز عن مناظرتى .

فغضب الخليفة عليه وصار مكان الرقة له غضب عليه ، فقال له الشيخ : هوّن عليك يا أمير المؤمنين ما بك ، أو تأذن لأبى داود فى المناظرة ؟ فقال له الخليفة : ما دعوتك إلا للمناظرة ، فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ـ أريد أن يحفظ علىّ ، وعليه ما يقول . قال : أفعل إن شاء الله .

فقال الشيخ : يا أحمد . أسألك عن مقالتك هذه أهى مقالة واجبة فى باب الدين ، داخلة فيه ؛ فلا يكمل الدين لأحد حتى يقول بمقالتك هذه ؟ قال : نعم ، وقال الشيخ : يا أحمد . أخبرنى عن رسول الله (ﷺ) حين بعثه الله رسولا لعباده هل ستر عليهم شيئا مما أمر الله به فى أمر دينهم ؟ فقال : لا .

قال الشيخ [هل] قد دعا رسول الله (ﷺ) الأمة إلى مقالتك هذه ؟ فسكت ابن داود ، فقال الشيخ : تكلم ، فسكت .

---

(١) فى الأصل ، إذته .

فالتفت الشيخ إلى الخليفة فقال : يا أمير المؤمنين هذه واحدة . فقال له : نعم ، هذه واحدة .

فقال الشيخ : يا أحمد . أخبرنى عن الله عز وجل حين أنزل القرآن على رسوله ، فقال : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ ، وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا) هل كان الله الصادق فى إتمام دينه ، أو أنت الصادق فى نقصانه ؟ حتى يقال فيه بمقالتك هذه ، فسكت ابن أبى داود فقال الشيخ : أجب يا أحمد ، فلم يجب .

فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين ، اثنتان . قال : نعم اثنتان .

فقال الشيخ : يا أحمد : أخبرنى عن مقالتك هذه ـ علمها رسول الله أم جهلها ؟ فقال ابن أبى داود : علمها . قال : فدعا الناس إليها ؟ فسكت ابن أبى داود .

فقال الشيخ : يا أمير المؤمنين : ثلاث . فقال : ثلاث .

قال الشيخ : يا أحمد . فاتسع لرسول الله (ﷺ) علمها كما زعمت ، ولم يطلب أمته بها ؟ قال : نعم . ، واتسع لأبى بكر وعمر (رضى الله عنهما) ومن بعدهما من الخلائق ؟ قال : نعم .

فأعرض الشيخ عن أبى داود ، وأقبل على الخليفة ، وقال : يا أمير المؤمنين قد قدمت القول بأن ابن أبى داود يضعف عن المناظرة ، فقال الخليفة : إن لم يتسع لنا من الإمساك عن هذه المقالة ما اتسع لرسول (ﷺ) ، ولأبى بكر ، وعمر (رضى الله عنهما) ، والخلائف من بعدهم فلا وسع الله علينا .

ثم أمر الخليفة بنزع القيد عن الشيخ ، فلما نُزع منه ، ضرب الشيخ بيده إلى القيد ليأخذه ، فجاذبه الحداد عليه ، فقال الخليفة : دع الشيخ يأخذه ، فأخذه فوضعه في كمه .

فقال الخليفة : يا شيخ . لم جاذبت الحداد عليه ؟ قال : لأني نويت أن أتقدم [به] إلى من أوصى إليه : إذا أنا مت أن أجعله بيني وبين كفني ؛ حتى أخاصم به هذا الظالم بين يدي الله عز وجل يوم القيامة . وأقول : يا رب . سل عبدك هذا . لم قيدني ، وروع أهلي ، وولدي ، وإخواني من غير شيء أوجب ذلك علي .

وبكى الشيخ ، وبكى الخليفة ، ثم سأله الخليفة أن يجعله في حل وسعة مما قاله ، فقال الشيخ : والله يا أمير المؤمنين : قد جعلتك في حل في أول إكرام لرسول الله (ﷺ) ؛ إذ كنت أنت من أهله .

فقال الخليفة : لي إليك حاجة ، فقال الشيخ : إن كانت ممكنة فعلت قال : تقيم معنا ننتفع منك ، وتنتفع منا ، فقال الشيخ : إن ردك إياي إلى الموضع الذي أخرجني منه هذا الظالم أنفع لك من مقامي عندك ؛ لأني إذا وصلت إلى أهلي وولدي وإخواني : كففت عنك دعاءهم عليك ، لأني خلفتهم على ذلك .

واستأذنه في الخروج فأذن له وسلم عليه .

وسقط ابن أبي داود من عين الخليفة ، ولم يمتحن بعد ذلك أحداً من العلماء بمقالته ، ورجع عن قوله : إن القرآن مخلوق . والله أعلم وبه التوفيق .

* * *

القول السابع عشر

في الرد على من يدعى الزيادة ، والنقصان في القرآن وفي تكرير القصص[1]

وقيل : مما يدل على الرد على من يدعى الزيادة والنقصان في القرآن ، وأن النبي (ﷺ) لم يجمعه ، حتى جمعه أصحابه بعده .

فهو كتاب الله الذى لا يحتاج معه إلى غيره ، قال الله جل ذكره : « وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ ، وَلا مِنْ خَلْفِهِ ؛ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » ، وقال : « إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » وقال : « سَأَصْرِفُ عَنْ آيَاتِيَ الَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ » ، ونحو هذا في القرآن كثير ، وفي هذا كفاية لمن هداه الله .

وأما ما حكى عن عبد الله بن مسعود : من الزيادة ، والنقصان ـ فإني لأعجب ممن يقبل من المسلمين قول من زعم أن رسول الله (ﷺ) : ترك القرآن

---

(١) اختلف العلماء في ترتيب الآى هل هو بوحى من الله ، أو باجتهاد من رسول الله (صلى الله عليه وسلم ؟

واختلفوا في ترتيب السور هل هو من رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أو باجتهاد من الصحابة بعده وأجمعوا عليه) .

وكان القرآن مكتوبا في العسب والعظام ، والأضلاع ، والحجارة البيض الرقاق وأصول الجريد ، ومحفوظا في الصدور ثم جمعه أبو بكر على سبعة أوجه ، ثم جرده عثمان على وجه وترك ستة رفعا للخلاف ، وحصل مع ذلك بعض الخلاف م .

الذى هو حجته على أمته ، والذى تقوم به دعوته ، والفرائض التى جاء بها من عند الله ، ولم يجمعه ، ولم يضمه ، ولم يخطه ، ولم يحصه ، ولم يحكم الأمر فى قراءته ، وما يجوز من الاختلاف فيها ، وما لا يجوز فى إعرابه ، ومقداره ، وتأليف سوره ، وهـذا لا يتوهم على رجل من عامة المسلمين ؛ فكيف برسول الله (ﷺ) .

ومما يدل على خطأ من ذهب إلى ما ذكرنا ـ أن الله جل ذكره : أنزله على رسوله (ﷺ) فى ثلاث وعشرين سنة ؛ كلما نزلت آية ، أو سورة : قرأها على أصحابه ، وفى صلاته ، وفى كل سفر ، أو حضر ، و [فى] جملة المهاجرين ، وخيار الأنصار ، والذين يلونهم فى الأقدار .

فربما قرأها على العوام ، وفى المواسم العظام ، لأن فيه فرائضهم ، وحلالهم ، وحرامهم ، ووعدهم ، ووعيدهم ، والاحتجاج عليهم ، ولهم .

وكانوا أهل عناية وتعظيم له ، وتحريض عليه : يدرسونها نهارهم ، ويصلون به فى ليلهم ، ويتفقهون فيه ، ويتفهمون معانيه ، ويقرئ بعضهم بعضا فى مسجد رسول الله (ﷺ) ، وفى غيره من مساجدهم ، ومشاهدهم .

وكان النبى (ﷺ) ـ مع ذلك ـ يحثهم على التعليم ويرغبهم فيه ، ويقول: « خيركم من تعلم القرآن وعلمه » ، وكان[1] يقول (عليه السلام) : « إن هذا

---

(١) رواه ابن الضريس ، وابن مردويه عن ابن مسعود ، ولفظه « خياركم من قرأ القرآن ، وأقرأه » .

القرآن مأدبة الله ؛ فتعلموا مأدبته » ، وقال[1] يوم أحد فى الشهداء : « زملوهم فى ثيابهم[2] ، وقدموا أكثر القوم قرآنا » ، مع قول ، غير هذا كثير ، وترغيب شديد . . .

وكانوا هم الحجة على من غاب عنهم ، وعلى التابعين من بعدهم ؛ كما كان النبى (ﷺ) حجة عليهم ؛ فإن تشاجروا فى شىء منه ردوه إلى رسوله ، والرسول قائم عليهم ، ومؤدب لهم ، وحريص على تعلمهم .. . رفيقا بتأديبهم .

وإذا كان الأمر على ما ذكرنا ، لم يخف على من كان بهذه الصفة ، وسار بهذه السيرة ـ ناسخ من منسوخ ، ومكى من مدنى ، ومتقدم من متأخر ، وكيف ؟ !! وهم شهود للقصة ، حضور للتنزيل ، ولأسباب التنزيل . وإنما هو فى مغنم ، أو فداء ، أو عفو ، أو قتل ، أو أسر ، أو قبض صدقة ، أو صلاة ، أو صيام ، أو نسك ، أو تحريم ربا ، أو زنا ، أو خمر ، أو خنزير ، أو قصاص فى حد ، أو ميراث .

وفيهم نزل ، وإليهم يرجع ، ولقد حفظوا من سنن رسول الله (ﷺ) ، وأحكامه ، وأحاديثه ، وأخلاقه ، وسيرته ، ودلالته قبل مبعثه ـ أضعاف ما بين الدفتين من المصحف ـ يعلم ذلك الفقهاء جميعا ، ويخبرك به جميع العلماء والعرب مخصوصون بشدة الحفظ ، وحسن البيان .

---

(١) رواه الحاكم عن ابن مسعود م .

(٢) فى النسائى : « زملوهم ، بدمائهم ، فإنه ليس من كلم يكلم فى الله ، إلا وهو يأتى يوم القيامة يدمأ لونه لون الدم ، وريحه ريح المسك » عن عبد الله بن ثعلبة ، ورواه الربيع عن أبو هريرة وابن عباس بألفاظ مختلفة . م .

وقد كان للنبي (ﷺ) كتاب يكتبون الوحي لا يدفع ذلك صاحب خبر ، ولا حامل أثر . وكان منهم : ابن أبي سرح ، وزيد بن ثابت ، ومعاذ ابن جبل ، ومعاوية بن أبي سفيان[1] . فلو لم يكن القرآن مجموعا مكتوبا ، في زمان رسول الله (ﷺ) ، فأي شيء كان يكتب هؤلاء ؟ ، وكيف يجوز على القوم الذين ذكرنا أحوالهم - أن يتركوا جمع القرآن ، والوقوف على تأليفه ، ومقدمه ، ومؤخره ، وهو إنما أنزل عليهم ، وفيهم على ما تقدم من شرح .. من ذكرنا .

ومما يدل على حفظهم لما استحفظوا له وفهمهم لما استفكفوا إياه أنهم كانوا علماء لنظم السور ، وتآليف الآى ، لا يحرفون الكتابة ، ولا يقصرون في التأدية ، [و] إنما أول ما أنزل [من] القرآن بمكة « اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ » ، وأول ما أنزل بالمدينة سورة البقرة ، وآخر ما أنزل سورة براءة .

فلو كانوا إنما ألفوا السورة على تقدير رأيهم - لقدموا في المصحف المقدم ، وأخروا المؤخر ، ففي تقديمهم سورة البقرة ، وفي تأخيرهم سورة براءة - دليل على أنهم اتبعوا ، ولم يبتدعوا وحكوا ، ولم يتخرصوا .

---

(١) كان للنبي (صلى الله عليه وسلم) كتاب كثيرون : أبو بكر . عمر . عثمان . على . أبان بن سعيد . أبي بن كعب ، أرقم بن أبي الأرقم ، ثابت بن قيس . حنظلة بن الربيع خالد بن سعيد . خالد بن الوليد . الزبير بن العوام زيد بن ثابت السجل وبه فسر قوله تعالى « كطى السجل للكتب » سعد بن أبي سرح . عامر بن فهيرة . عبد الله بن زيد عبد الله بن سعد . العلاء بن الحضرمي . العلاء بن عقبة محمد بن مسلمه . معاوية المغيرة بن شعبة .

ولن يخفى على ذى لب : أنهم لم يتركوا وضع السور على ما عاينوا ، وشاهدوا ، والأمر كما ذكرنا ، [و] وصفة على ما حكينا ، ولقد وعوه ، وأحصوه حتى عرفوه من جمعه من الأنصار ، ومن حفظه من المهاجرين ، ومن بقيت عليه السورة ، والسورتان ، وذلك مشهور معروف .

ولقد قال أبو ذر (رضى الله عنه) : لقد تركنا رسول الله (ﷺ) ، وما يقلب طائر جناحه فى السماء إلا وعندنا منه علم ، فكيف نجهل تأويل السور ، ومواضع الآى — أمة قد شهدت أول ذلك ، وآخره ؟ .

وقد اختارهم الله جل ذكره ؛ لصحبة نبيه (ﷺ) ؛ وليكونوا حجة بعده ، كما قال جل ذكره : (وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا ؛ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ، وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا) .

وقد روى أصحاب الحديث : أن القرآن كان مفرقا ؛ حتى جمعه أبو بكر الصديق (رضى الله عنه) ، وروى آخرون أن الذى جمعه : عثمان بن عفان ، وأنهم أخذوا آية من ها هنا وآية من ها هنا ، وأن الرجل كان يجىء بالآية ، ويسأل عنها الشهود ثم تكتب ، وأن زيد بن ثابت لما أمر[ه] عثمان بن عفان : أن يكتب فى المصحف ـ فقد آيتين حتى وجدهما عند رجلين من الأنصار ، وأن زيدا ، وغيره من الصحابة تولوا تأليف السور والآيات .

وهذه أخبار مطعون عليها ، ويقال إن الزنادقة دسوا [وأضافوا] الزيادات ، والأحاديث فى أحاديث الأمة .

بل [إن] الدلالة قد قامت من طريق العقل ؛ لأن السور كانت معروفة متولفة فى زمان رسول الله (ﷺ) ، وأن القرآن كان قد فرغ من جمعه ، وقد روى[1] عن النبى (ﷺ) أنه قال لعبد الله بن مسعود : « اقرأ علىّ » ، فقال عبد الله بن مسعود : أقرأ وعليك أنزل ؟ فقال : « إنى أحب أن أسمعه من غيرى » ، فقرأ سورة النساء . . . حتى بلغ : (فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ ، وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَؤُلَاءِ شَهِيداً) . استعبر رسول الله (ﷺ) وكف عبد الله .

وروى[2] عبد الله بن عمر قال : أرسل إلىّ رسول (ﷺ) فقال : إنى أخبرت أنك تقوم الليل ، وتصوم النهار . قال : قلت : بلى يا رسول قال : اقرأ القرآن فى شهر . قال : قلت : فإنى أطيق أفضل من ذلك . قال : فشددت ؛ فشدد على قال : اقرأه فى عشرين يوما قال : فقلت : إنى أطيق أفضل من ذلك قال : اقرأه فى سبع . لا تزد على ذلك . فلو لم يكن القرآن مجموعا ؛ فكيف يقرؤه عبد الله بن عمر فى شهر ، أو فى سبع ، وقيل : بلغه أن عبد الله بن عمر يقرأ بالقرآن فى أربعين يوماً ، فاستزاده حتى بلغ سبعة أيام .

وقال الشعبى : لم يجمع القرآن ـ على عهد رسول الله (ﷺ) ـ إلا ستة كلهم من الأنصار ، فلو لم يكن القرآن مجموعا مؤلفا ـ على عهد رسول الله (ﷺ) ـ [فـ] كيف كان يجمعه هؤلاء الستة ، ويحفظونه ؟

---

(١) رواه البخارى ، والحكمة فيه عرض القرآن ، وليزداد المستمع تدبرا ، لأنه أقوى على التدبر ، وأنشط ، والقارئ مشغل بالقراءة ، وأحكامها ، واختار بعض العلماء أن يكون المستمع أفضل من القارئ .

(٢) رواه البيهقى ، وأبو داود عن عمر .

وهؤلاء الستة : أبىّ بن كعب ، ومعاذ بن جبل ، وزيد بن ثابت ، وأبو أيوب[1] ، فأكثر الصحابة : قد يحفظ من القرآن سورا معدودة ، ومنهم من يحفظ السورة ، والسورتين والقرآن كله قد كان فيهم محفوظا متلوّا .

ألا ترى أن كثيراً منا اليوم ، ممن لا يقرأ القرآن ظاهرا - لو قرأ بين يديه قارئ منه شيئا ؛ فزلّ عن موضعه [حرف] [أ] وأسقط كلمة لا نتنبه لذلك، وأشعره بذلك ، وأنكره .

وروى أن جبريل (عليه السلام) كان ينزل فى كل عام ، ويقرئ رسول الله (ﷺ) - القرآن مرة ، حتى إذا كان العام الذى قبض فيه رسول الله (ﷺ) : عرضه [فى] ذلك العام [عليه] مرتين .

وروى عن عبد الله بن مسعود أنه قال حين صنع عثمان بالمصاحف ما صنع: والله الذى لا إله غيره ، ما نزلت سورة ؛ إلا وأنا أعلم حيث نزلت ، وما من آية إلا وأنا أعلم فيمن أنزلت ، قال : وكانت الآية ؛ إذا نزلت قال رسول الله (ﷺ) : « اجعلوها فى موضع كذا ، وكذا » .

ويدل على ما قلنا ما روى[2] عن النبىّ (ﷺ) أنه قال : « مَنْ تعلّم

---

(١) رواه الربيع عن أنس بن مالك ، وهم أبى ، ومعاذ ، وزيد ، وأبو زيد ، وهو والد زيد واسمه ثابت ، وأبو أيوب ، وعثمان بن حنيف، وكلهم من الأنصار قال : والباقى من الصحابة قد يحفظ السور المعدودات من القرآن ، ومنهم من يحفظ السورة والسورتين .

(٢) رواه الربيع بسنده إلى ابن عباس ، قال الربيع : ، والأجذم : المقطوع اليد رواه أبو داود عن سعد بن عبادة .

القرآن فنسيه حشر يوم القيامة أجذم » فلو لم يكن القرآن مجموعا محفوظا ، في عهد رسول الله (ﷺ) – لم يكن لذكره هذا الوعيد معنى ، [و] روى[1] عنه (ﷺ) أنه قال : « عرضت على الذنوب ؛ فلم أر ذنبا أعظم ممن حمل القرآن ثم تركه » .

وفي بعض ما ذكرنا ما يدل على أن القرآن في عهد رسول الله (ﷺ) قد كان مجموعا محفوظا والله أعلم .

فصل :

وأما تكرير القصص في القرآن ، والسبب في ذلك – أن رسول الله (ﷺ) : كان يبعث إلى القبائل المتفرقة بالسور المختلفة ، فلو لم تكن الأنباء والقصص مثناة مكررة لوقعت قصة موسى عليه السلام صلوات الله عليه إلى قوم ، وقصة عيسى (عليه السلام) إلى قوم ، وقصة نوح صلوات الله عليه إلى قوم ؛ فأراد الله تبارك وتعالى ، بلطفه ، ورحمته : أن يُسَيِّر هذه القصص في أطراف الأرض ، ويلقيها في كل سمع ، ويثبتها في كل قلب ، ويزيد [بها] الحاضرين في الأفهام .

وأما تكرير الكلام من جنس واحد ، وبعضه يجزى عن بعض ؛ لتكراره في « قُلْ يَاأَيُّهَا الْكَافِرُونَ » ، وفي سورة الرحمن : فإن القرآن نزل بلسانِ القوم ، وعلى مذهبهم ؛ فمن مذاهبهم : الاقتصار إرادة التخفيف والإيجاز ؛ لأن تفنن المتكلم ، والخطيب في فنون [القول] ، وخروجه من شيء إلى شيء – أحسن من اقتصاره في المقام على فن واحد .

---

(١) رواه أبو داود ، والترمذي ؛ وابن ماجه ، وابن خزيمة في صحيحه عن أنس بن مالك ، واختلف العلماء في معنى النسيان هل هو ترك العمل بالقرآن ، أو هو النسيان حقيقة ، والأول أصح بدليل قوله تعالى : « نسوا الله فنسيهم » والنسيان في اللغة : الترك ويحمل عليه الوعد . م .

فقد يقول القائل فى كلامه : والله لا أفعله ثم والله لا أفعله ؛ إذا أراد التأكيد ، وحسم الأطماع من أن يفعله ؛ لما يقول : والله ... أفعله بإضمار لا ؛ إذا أراد الإيجاز والاقتصار .

قال الله جل ذكره : « كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ ، ثُمَّ كَلَّا سَوْفَ تَعْلَمُونَ » ثم قال جل ذكره : « فَإِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا ، إِنَّ مَعَ الْعُسْرِ يُسْرًا » ، وقال : « أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى ، ثُمَّ أَوْلَى لَكَ فَأَوْلَى » ، وقال : « وَمَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ ؟ ثُمَّ مَا أَدْرَاكَ مَا يَوْمُ الدِّينِ » كل هذا يريد [به] التأكيد للمعنى الذى كرره ، وقد يقول الرجل لغيره [المتمهل] : أعجل أعجل ، وللرامى : إرم إرم .

وطعن قوم فى تكرير معنى بلفظتين مختلفتين مثل قوله : « الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ » ، ومثل قوله : « يَعْلَمُ سِرَّهُمْ وَنَجْوَاهُمْ » ، ومثل هذا لا مطعن فيه؛ لأن القرآن نزل بلغة العرب ، والعرب يستعملون [ذلك] فى لغتهم ، [و] ما أنكروه] ، و [هم] إنما يكررون المعنى بلفظتين مختلفتين ؛ [إذا كانت اللفظة الواحدة] ـ لا تساعدم ، ولاتساع اللغة فى الألفاظ .

وذلك مثل قول القائل : آمرك بالوفاء ، وأنهاك عن الغدر ، وآمرك بالتواصل ، وأنهاك عن التقاطع ـ والأمر بالتواصل : هو النهى عن التقاطع ، ونحو قول القائل : لا تظلمه ، ولا تجر عليه ؛ فكرر المعنى ؛ لما اختلف اللفظان كما تقول : نديم ، وندمان ، ويروى عن ابن عباس أنه قال : الرحمن الرحيم .

وقد يكون التكرار لمعنى البيان والتأكيد مثل قوله : « فَغَشَّاهَا مَا غَشَّى » ، فأَوْحَى إلى عَبْدِهِ مَا أَوْحَى » ، ومثل قوله : « وَلا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ » — والطيران لا يكون إلا بجناحين ، ومثل قول القائل : كلّمته بلسانى ، ونظرت إليه بعينى ، ومثل هذا فى الكلام كثير .

وروى عن ابن عباس : كان إذا سئل عن شىء من غريب القرآن — أنشدهم من الشعر ما يعرّفهم إياه ، وقال : الشعر أول علم العرب ، وديوانهم ؛ فتعلموا الشعر ، وعليكم بشعر أهل الحجاز ، فإنه شعر الجاهلية .

وقد فسر القرآن ، وتأوّله رجال منهم : قتادة ، والضحاك ، ومجاهد وغيرهم .

وروى عن مكحول أنه قال فى الرجل يقرأ القرآن ، فيمر بالآية ، فيؤولها على غير تأويلها ، وهو يرى أنه أولها : فلا بأس عليه مالم يعزم على ذلك . فلولا جهل كثير من الملحدين — ما احتج للقرآن بالشعر وغيره ، لأنهم وإن كانوا مكذبين لرسول الله (ﷺ) — فهم مقرون بأنه جاء بهذا القرآن ، وأنه أورده على العرب ، وقرعهم بالعجز عنه ، وجعله حجة لنفسه وأدنى منازل رسول الله (ﷺ) — أن يكون رجلا من فصحاء العرب ، لا يتأخر عن أحد من أهل العلم [فى العلم] باللغة ، و [ب] ما يجوز فيها وما لا يجوز ، وهذا : مالا يدفعه عنه مصدق ، ولا مكذب ؛ فكيف يجوز أن يحتج بقول شاعر ، ولا يُحتج بقوله ؟ وكيف صار الشعراء حجة على غيرهم ، ولم يكن هو حجة عليهم ؟ ؛ ولكن العلماء ؛ لما علموا من سعة الحق احتجوا بشعر الماضين قطعا للشغب ، وإزاحةً للعلة .

فإن قال قائل : من أين جاز أن يعاد قصص الأنبياء (عليهم السلام) ، و [أن] يعاد ذكرها فى القرآن ؟ فيقال له : إن الله جل ذكره ، له فى إعادتها حكمة لطيفة ، وهى : إن الرجل ؛ إذا سمع الموعظة ، ثم لم يُعد عليه ذكرها ـ خفى عليه قدرها ، وذهب عنه وصفها ؛ فإذا وعظ بها مرة صارت نصبا لخاطره وفكره ووقفا على همه وذكره ؛ ولذلك صارت الخطباء تعيد الموعظة الواحدة فى كل مقام ، ومشهد ، وتردد القصة فى كل محفل ، ولا يسمّى ذلك عيّا .

وروى عن النبى (ﷺ) أنه كان يردد الآية من القرآن مرارا قال الله تعالى : « لِيَدَّبَّروا آياتِه ، ولِيَتَذَكَّر أولو الألْبَاب » ؛ فتكون قراءة النبى (ﷺ) مره واحدة [غير] مجزية عن إعادة ذكرها حالا بعد حال .

[وقد] ذم [الله] من يمر بالآيات ، ولا يتدبرها ، ويرى المعجزات ، ولا يتأملها ، قال الله جل ذكره : « وَكَأَيٍّ مِنْ آيةٍ فِى السَّمٰواتِ وَالأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيها وَهُمْ عنهامُعْرِضُون » .

وقيل : إن تكرار القصص فى القرآن بخروجها إلى المواضع المختلفة ، ودخول الناس فى الإسلام من أهل المواضع القاصية قوما بعد قوم ؛ فاحتج بما عليه فصحاء العرب من الخطباء ، والشعراء : أنهم يعيدون الخطبة ، والشعر ؛ ليسمعه من لم يسمعه ، ولو لم يُعَدْ ذلك ـ لفات المتأخر ، ولم يسمعه إلا من شاهده من أوله ، وهذا وجه من الصواب . إن شاء الله تعالى .

فصل :

وقد طعن قوم من الملحدين فى القرآن؛ لاختلاف القراءات ، واختلاف أهل العلم فى قول الرسول[1] عليه السلام : « أنزل القرآن على سبعة أحرف ؛ كلها شاف كاف » .

فقال بعض أهل العلم : إن بالقرآن سبعة أحرف: وعد ، ووعيد ، وحلال وحرام ، ومواعظ ، وأمثال ، واحتجاج ، وقال بعضهم : حلال وحرام، وأمر ونهى وخبر ما كان قبلُ ، وخبر ما هو كائن بعد ، وأمثال ، وقال قوم : هى سبعة أوجه من اللغات متفرقة فى القرآن ؛ لأنه لا يوجد فيه حرف واحد : قرئ على سبعة أحرف ، وقال قوم : هى سبع لغات فى الكلمة ،

وقد قال أهل العلم فى هذا المعنى ، وأكثروا ، وبينوا معانى قولهم بالاحتجاج الصحيح وهو معروف فى آثارهم .

وقد قالوا فيه بما يحتمل جوازه ؛ ألا ترى أن الألفاظ قد تختلف، ولا يختلف المعنى باختلاف الألفاظ .

والاختلاف على وجهين : اختلاف تغاير ، واختلاف تضاد ؛ وليس ذلك فى شىء من كتاب الله تعالى؛ إلا فى الأمر والنهى من الناسخ ، والمنسوخ .

واختلاف التغاير جائز ، وذلك مثل قوله تعالى : « وَادَّكَرَ بَعْدَ أُمَّةٍ » بضم الألف ، والتشديد [للميم] : أى بعد حين « بعد أَمَةٍ » بفتح الألف ، .

---

(١) رواه الربيع عن أبى عبيدة بلاغا عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه ورواه أحمد ، والبيهقى عن عمر .

والتخفيف [للميم] ، وتبيين الهاء : أى بعد نسيان ، إلا أنه قد يجوز أن يكون قد اجتمع المعنيان ليوسف (عليه السلام) .

وكذلك قوله : « إِذْ تَلَقَوْنَهُ » بالتخفيف ، وسكون اللام ، « وَتَلَقَّوْنه » بالتشديد ، وفتح اللام ، ولأنه قد يجوز اجتماع المعنيين فيهم ؛ لأنهم قبلوه ، وقالوا : إنه كذب .

وكذلك قوله تعالى : « بَاعِدْ بَيْنَ أَسْفَارِنَا » على الخبر ، وبَعِّدْ على الدعاء ، وكذلك قوله : « لَقَدْ عَلِمْتَ مَا أَنْزَلَ هؤُلَاء إِلَّا رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » بفتح التاء ، وضمها ؛ لأن المعنيين صحيحان ، وأشباه هذا كثير .

فصـــل :

والقرآن دليل بنفسه ، معجز بعجيب نظمه ، لا يقدر الخلق على أن يأتوا بمثله ، لأن رسول الله (ﷺ) ؛ جاء به قوما كانوا هم الغاية فى الفصاحة ، والعلم باللغة ، والمعرفة بأجناس الكلام : جيده ورديئه .

فشتم آباءهم ، وأسلافهم ، وقبيح أديانهم ، وضعيف اختيارهم ، وهم أهل الحمية ، والأنفة ، والخيلاء ، والعصبية .

فقرعهم بالعجز أن يأتوا بمثله ، ومكنهم من الفحص ، والبحث ، والاختيار ، وأمهلهم لمدة طويلة ، وأعلمهم فى إتيانهم بمثل الذى أتى به ؛ فى حسنه ، ونظمه وما يوجب إحقارهم ، وإبطال قولهم ؛ فبذلوا فى إطفاء نوره ، ودحض حجته أموالهم وأنفسهم ، وآباءهم ، وأبناءهم .

ولم يعارضوا بما احتج به عليهم من كتاب ربه بأرجوزة ، ولا بقصيدة ، ولا بخطبة ، ولا برسالة ـ فصح بهذا لو أنهم قدروا على ذلك ما تركوه إلى بذل الأموال والأنفس .

وزعم قوم من أهل الكلام : أن الحجة فى القرآن ، إنما هو ما فيه من الأخبار عن الغيوب، وأن الله جل ذكره منع العرب، وصرفهم عن معارضته؛ إلا أنه فى نفسه معجز .

وقد طعن بعض الملحدين فى القرآن فقال: نجد الإنسان [يقدر أن] يقول: الحمد لله منفردة ، ورب العالمين منفردة ، وكذلك كل لفظ من القرآن ؛ فإذا كان يمكنه أن يأتى بمثل هذه الألفاظ منفردات ـ فقد صح [له] القدرة عليها وأنه كان قادرا عليها ـ فما الذى يمنعه من جمعها؟ ومتى يدركه العجز عند اللفظة الثانية ، أو الثالثة ، أو الرابعة ـ وما البرهان ؟

فعارضهم بعض المتكلفين ، فقال : أخبرونى عن البكّاء المفحم ، أليس يقدر أن يقول : قفا نبك . منفردة ، ومن ذكرى حبيب . منفردة ؟ ثم قال : كذلك [فى] كل لفظة من هذه القصيدة ؛ فإذا كان يمكنه أن يأتى بها منفردات ، وكان قادرا على ذلك . فما الذى يمنعه من جمعها ، ونظمها النظم الموزون ؟ ومتى يلحقه العجز فى اللفظة الثانية ، أو الثالثة ، أو الرابعة ؟ فلم يجدوا فى ذلك فرقا ، والحمد لله .

وقد كان بعض الجهال ممن يُتهم بالإيجاد فيدعى علم اللغة ، والفصاحة ؛ إذا

قرئت بين يديه الآية ، أو السورة من القرآن — يروم أن يعارض به أشعارا مؤلفة ، وخطبا لبعض المتقدمين معلومة ، ويقول : ما الفرق بين ذا ، وذاك ؟

والذى يدل على جهله أن ما فعله لو كان مما يتعلق به لسبق إليه القوم الذين أورد عليهم الرسول (عليه السلام) هذا الكتاب ؛ فهم كانوا أعلم باللغة ، وأقدر على الكلام المنظوم البليغ الفصيح .

فلما تركوا ذلك ، وقصدوا إلى الحرب التى تأتى على الأنفس ، والأموال — علمنا أن مَنْ بَعدهم — لما عجزوا عنه — أعجزوا ، وأن هؤلاء : إنما يعارضون ما ذكرنا للجهل الذى فيهم ، والتعجرف ، والمحاكة ، والمحارنة — ولما كان أولئك كفارا فلا يستحقونه ، ولا يتقدمون عليه ؛ لمروآتهم ، وأخطارهم فى ذلك . والله أعلم وبه التوفيق .

* * *

القول الثامن عشر
فى المحكم ، والمتشابه من القرآن
وذكر شيء ويراد به غيره

اختلف الناس فى المحكم ، والمتشابه ؛ فقال قوم : إنما المحكم هو الناسخ ، والمتشابه : هو المنسوخ . وقال قوم : المحكم هو الفرائض ، والوعد ، والوعيد . والمتشابه ، والقصص ، والأمثال . وقال قوم : إن المتشابه مثل « الم » ، « المص » ، و « كهيعص » و « حمعسق » ، و « حم » ، وأمثال ذلك مما يحتمل تأويلين ، أو أكثر ، والمحكم : هو الذى تأويله تنزيله ، تجب فى القلب معرفته عند سماعه .

والمحكم عندنا — والله أعلم — ما كان حكمه معلقا بظاهره ، ولا يحتمل وجهين مختلفين ، كقوله تعالى : « لَمْ يَلِدْ ، وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُواً أَحَد » ، وقوله : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْء » ، وقوله : « وَمَا خَلَقْتُ الجِنَّ ، والإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » ، وقوله : « حُرِّمَتْ عليكم أمهاتكم ، وبناتكم ، وأخواتكم ، وعماتكم ، وخالاتكم » ، ونحو هذا .

والمتشابه : هو الذي لا يعلم المراد به فى ظاهر تنزيله ، وإنما يرجع فى حقيقته . ذلك من وجوه التأويل المحكم به ، كقوله جل ذكره : « يا حَسْرَتَا عَلَى مَا فَرَّطْتُ فِي جَنْبِ اللهِ » ؛ وقوله : « تَجْرِى بِأَعْيُنِنَا » ، وقوله : « خلقت بيدىَّ » ، « وعملت أيدينا » ، « ويضل من يشاء ، ويهدى من يشاء » ، و « طبع علي قلوبهم » ؛ و « أزاغ الله قلوبهم » ؛ ويدل على ما قلنا ، قوله تعالى : « فأما

الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ ابْتِغَاءَ الْفِتْنَةِ ، وَابْتِغَاءَ تَأْوِيلِهِ ، وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُ إِلَّا اللهُ » ، « فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم زَيْغٌ » فهم المبطلون ، و[هم] إنما يتبعون ما يتعلقون به ، ويرونه حجة لهم إن كانوا متأولين من أهل الملة ، ويظنون أن فيه مطعنا إن كانوا ملحدين فيما يحتمل تأويله فى ظاهره .

وقيل فى قوله تعالى : « هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ » [أى] متقنات مفصلات مبينات . « هن أم الكتاب » أى أصل الذى يعمل عليه فى الأحكام ، ومجمع للحلال ، والحرام ، ومرجع لأهل الإسلام ، وهو إمام فى التوراة ، والإنجيل ، والقرآن ، وفى كل كتاب — يرضى بها أهل كل دين ، ولا يختلف فيها أهل كل ملة .

والعرب تسمى كل شىء جامع يكون مرجعا لقوم — أمًّا . كما قيل للوح المحفوظ : أم الكتاب ، وللفاتحة أم القرآن ، ولمكة أم القرى .

وإنما قال : هن أم الكتاب ، ولم يقل : أمهات الكتب ؛ لأن الآيات كلها فى تكاملها ، واجتماعها : كالآية الواحدة ، وكلام الله واحد ، وقيل معناه : كل آية منهن أم الكتاب ، كما قال : « وَجَعَلْنَا ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ آيَةً » أى : كل واحد منهما آية .

« وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ » أى : يشبه بعضه بعضا ، واختلف العلماء فى المحكم والمتشابه .

فقال بعضهم : المحكم الناسخ الذى يعمل به ، والمتشابه المنسوخ الذى —

يؤمن به ، ولا يعمل عليه ، وقوله محكم القرآن : ناسخه ، وحلاله ، وحرامه ، وحدوده ، وفرائضه ، وما يؤمن به ، ويعمل به .

والمتشابهات منسوخة ، ومقدمة ، ومؤخرة ، وأمثاله ، وأقسامه ، وما يؤمن به ، ولا يعمل به .

وقيل : المحكم ما فيه من الحلال ، والحرام ، وما سوى ذلك متشابه لصدق بعضه بعضا ، وقيل : المحكم ما لا يحتمل من التأويل غير وجه واحد ، والمتشابه : ما احتمل من التأويل أوجها ، وقيل: المحكم: ما عرف العلماء تأويله، وفهموا معناه ، والمتشابه : ما ليس لأحدٍ عليه سبيل مما استأثر الله بعلمه ، وقيل : المحكمات . حججها واضحة ، ودلائلها لائحة ، لا حاجة لمن سمعها إلى طلب معانيها ، والمتشابه : الذى لا يدرك علمه بالنظر ، ولا يعرف العوام تفسير الحق فيه من الباطل ، وقال بعضهم : المحكم : ما أجمع على تأويله ، والمتشابه : ما ليس فيه بيان قاطع .

والقرآن ـ فى الحقيقة ـ كله محكم فى معنى حقه ، وثبوته . قال الله تعالى : « الر كِتَابٌ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ » ، ومتشابه من وجه ، وهو أنه يشبه بعضه بعضا فى الحسن ، ويصدق بعضه بعضا ، وقيل المتشابه : التهجى فى أوائل السور .

« فَأَمَّا الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ » ، وهم اليهود ، والنصارى « ابتغاء الفتنة » وهو طلب الشرك ، والشبهات ، واللبس ليضلوا

به جهالهم ، « وابتغاء تأويله » تفسيره ، وعلمه ، وقيل : ابتغاء عاقبته ، وطلب مدة لأجل محمد (ﷺ) ، وأمته من حساب الجُمَّل .

وقيل المعنى فى متشابه القرآن : أن الله عز وجل خلق عباده ؛ ليمتحنهم ، فيثيبهم ، كما قال تعالى : وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، لِيَجْزِىَ الَّذِينَ آمَنُوا ، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ بِالْقِسْطِ ، وَالَّذِينَ كَفَرُوا لَهُمْ شَرَابٌ مِنْ حَمِيمٍ ، وَعَذَابٌ أَلِيمٌ » ، وقال: « لِيَجْزِىَ الَّذِينَ أَسَاءُوا بِمَا عَمِلُوا ، وَيَجْزِىَ الَّذِى أَحْسَنُوا بِالْحُسْنَى » .

ولو كان القرآن كله محكما ؛ لا يحتمل التأويل ، ولا يمكن الخلاف فيه ـ لسقطت المحنة ، وتبلدت العقول ، و[ا] بطل التفاضل ، والاجتهاد فى السبق إلى الفصل واستوت منازل العباد .

ولكن الله جعل من الحكمة والرحمة ما صنع وقدّر ؛ إذ جعل بعضه محكما ؛ ليكون أصلا يرجع إليه ، وبعضه متشابها ؛ ليحتاج فيه إلى الاستخراج ، والاستنباط رده إلى المحكم ، واجتهاد العقول ، والفكر ، ليُسْتَحَقَّ بذلك الثواب الذى هو العوض .

وإن قال قائل : أفما كان الله قادرا على أن يوصّل العباد إلى الثواب من غير محنة ؟ قيل له : إن الله على كل ذلك قادر ، وعلى ما يشاء قدير ، وليس كل ما يقدر عليه يفعله جلّ عن ذلك وتعالى : بل يفعل ما هو حكمة ، وصواب من التدبير ، ولو كان يعطى منزلة المجتهد العامل لمن لا عمل له ، أو أن يتساوى أَدْوَنُ المؤمنين فى الجنة بنبى الله عليه السلام فى منزلته ودرجته . إذ كان الله

على ذلك قادراً ، ولهذا فسد ما سأل عنه ، وبالله التوفيق ، وله المنة ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على رسوله محمد ﷺ .

فصل :

قال الله تعالى : « يُخَادِعُونَ اللهَ ، وَالَّذِينَ آمَنُوا : وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ » فذكر أنهم يخادعون الله ؛ وإنما يخادعون رسول الله ، وقوله : « مِنْ شَرِّ الْوَسْوَاسِ الْخَنَّاسِ » فذكر الوسواس ، وأراد الموسوس ، وهو إبليس (لعنه الله) . ومثل ذلك قوله جل ذكره : « وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لا يَسْمَعُ » فذكر الناعق ، وأراد المنعوق به ، وإنما ذكر الراعي ، وأراد الدواب ، وبهم ضرب المثل .

والعرب إذا أرادت ذكر الشيء ؛ فتجريه على اسم ما يقرب منه أو سببه . وكذلك قوله تعالى : « مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ » . فذكر أن المفاتيح تنوء بالعصبة ، [و] هي التي تنوء بالمفاتيح ؛ لأنها تجد ثقلها .

وفيما حكى عن موسى عليه السلام أنه قال : « أَفَعَصَيْتَ أَمْرِي » ، والأمر لا يعصى وإنما يُعصى الآمر ، وقوله جل ثناؤه : « وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا » أي : جاء أمره ، وقالوا : « إِنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ » ، وقوله : « إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ » وإنما يلقون ما وعدهم من خير وشر ، وقوله : « وَلَوْ تَرَى إِذْ وُقِفُوا عَلَى رَبِّهِمْ » وهو يعني : على ما وعدهم ربهم . وهو يدل على ذلك قوله : « أَلَيْسَ هَٰذَا بِالْحَقِّ ؛ قَالُوا بَلَى وَرَبِّنَا » ، وكذلك قول الناس : من مات فقد لقي الله ، أي : يلقى جزاء عمله ، وقد أجمع الناس على صحة الرواية ؛ عن

النبي (ﷺ) : « أن من حلف على يمين ؛ ليقطع بها مال امرئ مسلم ـ لقى الله ، وهو عليه غضبان » ، وقد أجمع أهل الصلاة : أن الله لا يجوز أن يراه أحد من أعدائه فى الآخرة .

ومما يذكر الشيء ، ويراد به معناه ـ قوله عز وجل : « تُوبُوا إِلَى بَارِئِكُمْ فَاقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ » فجعل استسلامهم للقتل قتلا منهم لأنفسهم .

ومما يضاف الفعل إليه ؛ إذا كان من سببه ، مثل قوله تعالى : « فَأَخْرَجَهُمَا مِمَّا كَانَا فِيهِ » ، وإنما أخرجهما فعلهما ، فأضيف إليه ؛ إذ كان من سببه ، ومثل قوله : « فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَى رِجْسِهِمْ » ، ولم تزدهم رجسا ؛ ولكن لما ازدادوا عند نزولها كفرا جاز أن يضاف ذلك إليها ، وقوله عز وجل : « فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا » لما ازدادوا نفوراً من دعائه إياهم إلى الله تعالى ـ جاز أن يقول : إن دعاءه زادهم نفورا ، وكفرا من طريق مجاز اللغة ، وسعتها .

ومثل هذا فى كلام العرب كثير . والله أعلم ، وبه التوفيق .

* * *

(١) رواه أحمد ، والبيهقى عن الأشعث بن قيس ، وابن مسعود ، وأخرجه الربيع بن حبيب عن ابن عباس ، وأنس بن مالك رضى الله عنهما .

وأخرج البخارى ومسلم ، وأبو داود ، والنسائى معناه ، ونصه فى صحيح مسلم عن أبى أمامة الحارثى : أن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) قال : « من اقتطع حق امرىء مسلم بيمينه ، فقد أوجب الله له النار ، وحرم عليه الجنة » . فقال رجل : يارسول الله ، وإن كان شيئا يسيرا ؟ قال : وإن كان قضيبا من أراك » اهـ وهو نص فى أن حديث من قال : « لا إله إلا الله دخل الجنة ، وإن زنا ، وإن سرق » غير صحيح ، وإن صح فلا بد من التوبة ، ورد المظالم إلى أهلها ؛ ليحصل الجمع بين الحديثين .

وعن وائل بن حجر أيضا من صحيح مسلم : « أما لئن حلف على ماله ، ليأكله ظلما ليلقين الله تعالى وهو عنه معرض » .

القول التاسع عشر
فى مخاطبة الله تعالى لعباده ، وأمره لهم
والكناية والإضمار والحروف

ومن زعم أن الخطاب؛ إذا ورد بصيغة الأمر أن علينا التوقيف لما يحتمل من الحكم ؛ حتى يعلم أن المراد : أمر ، أو نهى ، أو ندب ، أو تخيير ، أو غير ذلك ـ يقال له : لو كان الخطاب ؛ إذا ورد بصيغة الأمر : يوجب التوقيف علينا عند وروده ـ لم تكن فى وروده فائدة ؛ لأننا قبل وروده متوقفون ، وبعد وروده متوقفون فلا فائدة فى وروده .

فلما كان الأمر يقتضى الفعل ، وكان له صيغة تعرف فى اللغة التى خوطبنا بها ـ علمنا أن من قال بالتوقف غالط .

والذى يذهب إليه شيوخنا ، والأشبه بأصول أئمتنا، أن الأمر ؛ إذا ورد بفعل قد خص بوقت ؛ فللمأمور [به] إيقاعه فى أوله ، أو أوسطه ، أو آخره ، وتعجيل الفعل فى أول الوقت أفضل ؛ وإذا ورد الأمر بفعل غير مخصوص بوقت ـ فإن تأخيره جائز عندهم إلى آخر أيام الحياة .

والنظر يوجب : أنه ما لم يكن محصوراً بوقت ، فالواجب تعجيله أول أوقات الإمكان ، الدليل على ذلك : أن الأمر إذا ورد مطلقا ولم يقيّد بوقت آن وروده ـ لا يخلو من أن يلزم ذلك على الفور مع القدرة ، أو يجوز المأمور التأخير إلى آخر أيام حياته ، أو إلى وسائط بين الفور ، وآخر العمر ؛

مجهول ، والوسائط أيضا مجهولة الأوقات ، ولا سبيل إلى علم ذلك إذا كان مجهولا لم يصح تعلق العباد به ؛ وما كان آخره مجهولا لا يعرف ووسائطه لا تعرف ـ لم يلزم فعله ، وإذ بطل هذان الوجهان صح إيجابه على الفور ؛ لأن الآمر إذا أمر من تجب له الطاعة عليه ، وأزاح عنه العلل ، وكان الآمر يريد تعجيل الفعل المأمور به ـ لم يمكن للمأمور تأخير الفعل عن أول أوقات الإمكان ، ويدل على هذا . قوله الله : « وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِنْ رَبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمٰوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ » ؛ فأوجب علينا المسارعة إلى الأفعال التي تؤدينا إلى الجنة ، والغفران ، والله أعلم .

فصل :

وصورة الأمر في اللغة . أن يقول الآمر : افعلوا . مثل قوله تعالى : « أَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ » ، وقوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللهَ ، وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ : يأيها الناس اتَّقُوا رَبَّكُم ؛ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ » .

وصورة النهي : أن يقول الناهي : لا تفعل ، مثل قوله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ » إلى قوله : « وَلَا تَقْتُلُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا » : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمنوا لَا تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللهِ وَرَسُولِهِ » ؛ فإذا ورد الخطاب معرى من القرائن ، والمقيدات ، والمقدمات : فهو أمر ونهي .

واللفظة قد ترد مقرونة بقرينة ، أو بصلة ، أو بمقدمة ؛ فيدل على التخيير ، أو الندب ، أو يدل على قدرة الآمر ، وعجز المأمور ، وعلى التهديد ، أو الزجر ، أو إطلاق بعد حصر ، أو على التكوين دون الأمر .

فالذى يدل بمجموعه على التخيير أو الندب : مثل قوله تعالى : « فَكُلُوا منها وَأَطْعِمُوا الْبَائِسَ الْفَقِيرَ » ، وكقوله تعالى : « فَإِذَا وَجَبَتْ جُنُوبُهَا فَكُلُوا مِنْهَا وَأَطْعِمُوا الْقَانِعَ وَالْمُعْتَرَّ » وقد أجمع الجميع [على] أن الأكل منها غير واجب وأنّا فيه مخيرون ؛ فالآية لم ترد إلا مقرونة بالتوقيف .

وأما الذى يدل على قدرة الآمر ، وعجز المأمور [ف]مثل قوله تعالى : « قُلْ كُونُوا حِجَارَةً أَوْ حَدِيدًا أَوْ خَلْقًا مِمَّا يَكْبُرُ فِي صُدُورِكُمْ » ، ومعلوم أن الله تعالى لم يرد منهم [أن] يجعلوا أنفسهم حجارة ، أو حديدا ؛ إذ ليس ذلك فى طاقتهم ، وقدرتهم ، وإنما أراد أن يبين عجزهم .

وأما الذى يدل على التهديد ، والزجر – فمثل قوله تعالى : « أَفَمَنْ يُلْقَى فِي النَّارِ خَيْرٌ أَمْ مَنْ يَأْتِي آمِنًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ ، اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ ، وَسَتُرَدُّونَ إِلَى عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ ؛ فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » وكقوله تعالى : « وَقُلْ لِلَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ اعْمَلُوا عَلَى مَكَانَتِكُمْ إِنَّا عَامِلُونَ . وَانْتَظِرُوا إِنَّا مُنْتَظِرُونَ » فهذه الآيات لم ترد إلا على مقدمات قبلهن ، وقرائن بعدهن تدل على التهديد والزجر .

وأما الذى يدل على الإطلاق بعد الحصر – فمثل قوله جل ثناؤه : « فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلَاةُ فَانْتَشِرُوا فِي الْأَرْضِ ، وَابْتَغُوا مِنْ فَضْلِ اللَّهِ وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيرًا لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ » ، وقوله : « فَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا » ، وقد أجمعوا جميعا أن الاصطياد ، والانتشار غير واجبين .

وأما الذى يدل على التكوين دون امتثال الأمر – فمثل قوله عز وجل : « كُونُوا قِرَدَةً » فدلت المقدمة على التكوين دون امتثال الأمر .

والله خاطبنا بما تفعل العرب فى خطابها ، فالعرب تسمى افعلْ أو لا تفعل أمرا أو نهيا .

فإذا أمر من تجب طاعته ، والانقياد لأمره ـ كان على المأمور إتيان ما أمر ، وبالله التوفيق .

وقيل : إن الخطاب ؛ إذا ورد مطلقا فظاهره : خطابٌ معروف ، وهو على إطلاقه ؛ وإذا ورد مقيدا : فهو على تقييده .

ألا ترى ؛ لو أنه قال قائل : فلان كافر ـ ظاهره أنه كافر بالله ، وإن كان يحتمل أنه أراد [الكفر به] الطاغوت ، وكذلك : لو قال : فلان مؤمن ـ فى الظاهر أنه مؤمن بالله ، وإن كان يحتمل أنه [أى] القائل ـ أراد أنه مؤمن بالطاغوت .

فصل :

قال الله جل ذكره : « وَلَا تَقْتُلُوا الصَّيْدَ ، وَأَنْتُمْ حُرُمٌ ، وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ » من حيوان ، وغيره ؛ إذ ليس فى الآية تفصيل طعام عن طعام ؛ فلما اتفق أهل الإسلام على أن المقصود فى هـذه الآية : هو الحيوان خاصة دون غيره ـ صحّ أنّ الآية خاصة ؛ وإن كانت فى الظاهر عامة .

وجاء فى التفسير : أن المشركين قالوا للمسلمين : لِمَ تأكلون ما قتلتم ؟ ـ يعنون ما ذكيتم ـ ، ولا تأكلون مما قتل الله لكم ؟ : يعنون الميتة ؛ فأنزل الله : « وَلَا تَأْكُلُوا مِمَّا لَمْ يُذْكَرِ اسْمُ اللهِ عَلَيْهِ ، وَإِنَّهُ لَفِسْقٌ » .

وقوله عز وجل : « لا تُشْرِكْ بِاللهِ إِنَّ الشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ » ، وقال جل ذكره : « وَلا تَكُونَنَّ مِنَ الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِ اللهِ ؛ فَتَكُونَ مِنَ الْخَاسِرِينَ » ؛ فكان ظاهر هذا الخطاب يدل على الخصوص ، فلما قال : « إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ » كان ذلك القول دليلا على أن هذا الفعل محرم على كل من فعله من المخاطبين.

وكذلك قوله : « وَلا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ؛ إِنَّ السَّمْعَ ، وَالْبَصَرَ ، وَالْفُؤَادَ : كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا » فعرّف السمع ، والبصر ، والفؤاد بالألف ، واللام — ولم يتقدم بشيء منها ذكر — فاستدللنا على أنه إنما قصد بالتعريف إلى الجنس ، وكأن كل سمع ، وبصر ، وفؤاد — فعل صاحبه ذلك الفعل ، فهو مسئول عنه ، فصار كل من قفا ما ليس له به علم مأزوراً فى فعله ، وإن كان ظاهر النهى خاصا للمخاطب فى نفسه .

وأما قول الله تعالى : « لا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِنْ قَوْمٍ عَسَى أَنْ يَكُونُوا خَيْرًا مِنْهُمْ » فدل هذا على من سخر على من هو شر منه ، فلا شيء عليه ؛ إذ النهى وقع على من يمكن أن يكون خيراً ممن سخر منه ، ونظير ذلك قوله تعالى : « الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِى الصَّدَقَاتِ ، وَالَّذِينَ لا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ — سَخِرَ اللهُ مِنْهُمْ ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ » ، وكذلك قوله عز وجل : « وَلا تَنَابَزُوا بِالْأَلْقَابِ . بِئْسَ الِاسْمُ الْفُسُوقُ بَعْدَ الْإِيمَانِ » فدل ظاهر تحريم التداعى بالصفات ، والعلامات ، والأسماء ؛ إذا كانت ملقبة ظالما له فيها ، وفى الرواية : أن يقول له : يا كافر ، يا فاسق .

والألقاب في اللغة : هي كل من نصب عَلَمًا على شخص فعُرِف به — فهو يسمى لقبًا له .

فصــل :

قال الله جل ذكره : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ ، أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ ؛ إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا ، فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا ، وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا » فقد أمر الله المؤمنين بالقيام بالقسط أمرا عاما لهم جميعا .

والقسط الذى أمرهم بالقيام به ؛ لا يخلو من أن يكون قسطا معلوما بعينه ؛ فتكون الإشارة دالة عليه دون غيره ، أو لا تكون الإشارة وقعت على قسط معلوم بعينه ، [فإنْ] صح أن هذه الإشارة : إلى الجنس [فقد] وجب علينا القيام بكل ما وقع عليه اسم قسط .

وأما قوله عز وجل : « إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ » إلى آخر الآية ؛ فلما لم تقم الدلالة على عدل بعينه — وجب القيام بالعدل كله .

وأما قوله : « وَلَنْ تَسْتَطِيعُوا أَنْ تَعْدِلُوا بَيْنَ النِّسَاءِ وَلَوْ حَرَصْتُمْ ، فَلَا تَمِيلُوا كُلَّ الْمَيْلِ » إلى آخر الآية ؛ فأخبر أن هذا العدل : لا يستطاع بين النساء فعله فقد صح أن هذا هو العدل الذى يؤدى إليه الاجتهاد من ترك التفضيل بينهن ؛ لأن من لم يمل كل الميل — كما قال الله تعالى — وإن لم يفضل بعضا على بعض : فهو عادل فى الحكم ؛ لأنه لم يتعد أمر الله ، والله أعلم .

وأما قوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ » فقد أمر عباده المؤمنين أن يقوموا بالقسط فى السراء ، والضراء ، على الأولياء ، والأقرباء ، والأنفس ، والآباء ، لجرى حكم القسط عليهم ، ولم يرخص فى ذلك لأحد من العالمين .

وأيضا ؛ فإنه جعل القيام بالقسط فرضا يجب على الكفاية ، ولم يوجبه على الخاصة دون العامة ، لأنه ـ تعالى ـ دعاهم باسم المؤمنين ، والمؤمنون يدخل فيهم الحكام ، وغير الحكام ، ولم يجب لأحد من أهل الإسلام أن يرى مقاما لله فيه مقال لبدعة اتكالا على غيره ، والله أعلم .

ولم يجعل الأمر فى تسمية القسط فى الدين مردودا إلى الاجتهاد من المتعبدين وتختلف فيه آراؤهم ، وتتحكم فيه أهواؤهم ، فما رأوه حسنا فى عقولهم فعلوه ، وما رأوه قبيحا فى أنفسهم اجتنبوه ؛ بل دعاهم إلى فعله ما ارتضاه لهم حسن أم قبيح عندهم ، فقال عز وجل : « إِنْ يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا : فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا ؛ فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَنْ تَعْدِلُوا » ، وقوله تعالى : « فَاقْضِ مَا أَنْتَ قَاضٍ » لم يكن أمراً منهم له بقتلهم ؛ فيكونوا قد أعانوا على قتل أنفسهم ، ويستحق به فرعون مدحا ، إذ سارع إلى طاعتهم ؛ بل كان هذا القول منهم تسليما للقضاء ، وقنوعا بما أعده الله لهم من الجزاء . ومثل هذا مشهور فى كل العرب .

فصـــل :

قال الله تعالى : « الرَّحْمَنُ عَلَّمَ الْقُرْآن . خَلَقَ الإِنْسَانَ عَلَّمَهُ الْبَيَان » .

فأخبر الله جل ذكره : أن البيان فى اللسان ، وكذلك لزمت الحجة والخطاب؛ وإذا ورد الخطاب إلى المخاطب بأمر أو نهى ؛ فقد لزمت حجته ، وانقطع عذر المخاطب له ؛ إذا كان من أهل اللسان ، ولولا ذلك ما علم فرق بين الأمر والنهى ، والإباحة ، والحظر ، ولما عُرف قول القائل : قم ، واقعد ، أو تكلم أو اسكت ، أو تعال ، أو اذهب ، أو خذ ، أو اترك .

فجعل الله هذه الأسماء دلائل ، وعلامات ؛ ليعلم به الخلق ما خوطبوا به ، ليمتثلوه ، وليقصدوا إليه ، فخاطبهم بما يعلمونه ؛ لتجب الحجة عليهم .

فمن الأسماء مايقع فيها من مسمياتها ، ومنها مالايقع الاشتراك؛ فمايقع فيه الاشتراك ويعرف المراد منها ، ويزول الشك عنها بالبيان بمقدمة ، أوصفة ، أو إشارة ، أو إيماء ، أو دلالة تقع معه بيان المراد ، ويصح معه التكليف .

مثل ذلك . أن يقول القائل : لفلان يد ، احتمل أن يكون أراد اليد التى هى الجارحة التى يبطش بها ، ويحتمل أن تكون اليد التى هى التصرف فى الملك ، فاسم اليد على الإطلاق ، يقع على هذه الأشياء كلها .

فإذا أراد المتكلم بذلك : الإخبار عنها ؛ ليبين لمن خاطبه بقرينة ، أو بصلة ، فيعلم المخاطب مراد المخاطب له بالصلة ، أو بمقدمة ليزول الشك عن المخاطب بقوله : فلان كتب هذا الكتاب بيده علم بذلك أنه أراد بذلك اليد التى هى الجارحة التى يكتب بها الناس ، وإن قال : لفلان عندى يد بيضاء ـ

علم أنه أراد بذلك المنة ، والنعمة ، وإذا قال : هذه الدار فى يد فلان — علم أنه أراد بذلك : اليد التى هى الملك ، والتصرف ، فما يعلم بصلة ، او بمقدمة : غير مايعلم بإطلاق اللفظ به ، ويقع عليه الاسم بمفرده .

فالواجب أن نعتبر الخطاب بصلته ، أو بمقدمته [أ] و [ب] مايتعلق به ، ليتضح مراد المخاطب ، وقصده .

وإذا قال القائل : واحد ؛ فقد أخبر عن أدنى العدد ، وإن قال : اثنين ؛ فقد أخبر عن تثنية العدد ، وإن قال ثلاثة ؛ فقد أخبر عن جمع عدد هذا أقله ، فإن قال : ثوب ، فقد أخبر عن جنس ، وأدنى العدد ، وإن قال : ثوبان ؛ فقد دل على التثنية ، والجنس ، وإن قال : ثلاثة أثواب ؛ دل على الجنس ، وعلى أدنى الجمع . ومن لم يعرف موضع الخطاب : لم يعلم فائدة الكلام ، والتبس عليه ضروب الخطاب .

ثم إن الله تعالى جعل الخطاب للفائدة ، والإفهام ، وليعلم المأمور إرادة الآمر ، ومراد المخاطب ، والحكيم لايخاطب بما لافائدة فيه ، ولا يأمر بمالا يفهم عنه ، لأنه لايمكن أن يأمر أحدا بالقعود ، وهو يريد القيام ؛ لأنه يأمر ليمتثل أمره ؛ فإذا لم يبين مراده ، لم يكن أن يمتثل أمره ، ولم يتهيأ أن يعتقد طاعته فيما كلفه إياه .

وإذا كان ذلك كذلك — لم يجز أن يتأخر البيان عن وقت الخطاب لتمام فصل الكلام ؛ لأن تأخيره يوجب اعتقاد غير ماظهر ؛ لأنه إذا خاطب بظاهر

الإطلاق ، والعموم ، وهو يريد التقييد ، والخصوص ، ثم لم يقرنه بدلالة تبين عنه كان قد ألزم عباده أن يعتقدوا خلاف ما أراده منهم ، فتعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

فالخطاب ؛ إذا ورد فلعمومه صيغة ، وللنهى صيغة ، ولكل وجه من وجوه الخطاب صيغة يعرف بها حكمه ، ويدل المخاطب بها على معناه ، ولن يجهل ذلك ، أو شيئا منه أحد من أهـــل اللسان والمعرفة به من أهل اللغة ، والبيان .

غير أن العرب لسعة لغتها ، وكثرة معانى كلامها ـ تعبر عن الخصوص بلفظ العموم ، وعن العموم بلفظ الخصوص ، وعن الحقيقة بلفظ المجاز ، وعن المجاز بلفظ الحقيقة ، وهذا معروف بينهم ، ومنسوب عندهم ، وعليه أدلة موضوعة من مقدمة الكلام وصلته ، وبالإشارة المعهودة عندهم ، وعلى مايتعارفونه بينهم ، فما فرق به الدليل نقل عن موضعه ، وصيغته ، وعلى هذا النحو جرت المخاطبة من الله تعالى فى محكم كتابه ، خاطبهم باللسان العربى المبين .

فعلى هذا يجب أن [يكون] تعبير الخطاب ؛ إذا ورد من الله جل ذكره ، أو من رسوله (صلى الله عليه وسلم) ، فما ورد بلفظ العموم : أجرى على عمومه مالم يخصه دليل الخصوص ، وماجاء بلفظ الخصوص : أوقف على خصوصه مالم يطلقه دليل العموم .

وفى هذا المقدار كفاية لمن أراد الله إرشاده ، وهدايته ، وبالله نستهدى ، وعليه نتوكل .

فالخطاب إنما يرد من الله عز وجل بلغة من يخاطبه ؛ لأنه مريد لإفهامه ، قال الله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ ؛ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ » فالقرآن نزل بلغة القوم الذين بعث فيهم رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وهو مشتمل على ضروب من الخطاب .

فمنه المفسر الذى يستغنى بلفظه عن بيان غيره ، ومنه المجمل الذي لا يستغنى عن معرفة بيانه ، ومنه المحكم الذى يعرفه السامع ، ومنه المتشابه الذى يفكر فى تأويله العالم ، ومنه مايحتمل الوجوه التى لا يجوز القطع على شىء منها إلا بدليل يعلم من المراد منها ، ومنه الإيجاب ، والإلزام ، ومنه الترغيب والإرشاد ، ومنه الفرض ، والندب ، ومنه الإباحة والحصر ، ومنه الكناية ، والتصريح ، ومنه الحقيقة ، والمجاز ، ومنه الخصوص ، والعموم ، ومنه التعريض ، والإفصاح ، ومنه الإطالة ، والإيجاز ، ومنه التكرير ، والحذف ، ومنه الإشارة والتلويح ، ومنه التأكيد ، والترديد .

وكل ذلك معروف فى لغة العرب ، وعلى حسب اختلاف هذه الضروب تختلف معانى أحكامها ، ولكل ضرب منها صورة يعرف بها ، وصيغة وضعت بها يعرف السامع بذلك المخاطب ، وغرض المتكلم ، فمن عرف ذلك وضع الخطاب موضعه ، ولم يعدل به إلى غير جهته ، ومن قصّر علمه عن شىء من ذلك التبس عليه ما قصر علمه عنه ، ولن يدرك ذلك من لم يكن عاقلا مميزا ، والله أعلم .

فالواجب أن يعبّر كل خطاب بحسب المعروف باللسان ؛ لأن منه ما يفترق ،

ولا يتفق ، ومنه ما يتفق لفظه ، ويختلف معناه ، وما يتفق لفظه ، ويتفق معناه ، وكل ذلك معروف معناه عند أهل اللسان .

وقد جعلوا للشيء الواحد أسماء كثيرة : كالأسد ، والفرس ، والسيف ، والخمر ، وغير ذلك مما يكثر وصفه ويطول ذكره ، وقد سموا بالاسم الواحد أشياء كثيرة ، وسموا بالاسم الواحد شيئاً وخلافه ؛ كالأقراء ونحوها ، وقد كنوا عن الشيء باسم غيره ، وأشاروا إلى الشيء بمعنى غيره ، واستغنوا عن الاسم بالإشارة إلى الغير ، واكتفوا بالإيماء عن الكلام .

فصل :

وأما ما يجيء لفظه لفظ الأمر ، والمراد به الخبر فهو مثل قول الله تعالى : « اعْمَلُوا مَا شِئْتُمْ إِنَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ » ؛ فابتداؤه كالأمر وهو خبر قد قرن بوعيد ، وكذلك قول[1] النبي (ﷺ) : « من كذب عليّ كذبة متعمدا ؛ فليتبوأ مقعده من النار » فهذا خبر عن جزاء فعل ، وقول القائل : « إذا لم تستحِ فافعل ما شئت » ، هو خبر عن جزاء فعل .

وروى[2] أن النبي (ﷺ) صلى الظهر يوما ، فقال لأصحابه : « سلوني

---

(١) الحديث متواتر ، ولفظه في الربيع وغيره « من كذب علي متعمدا ؛ فليتبوأ مقعده من النار » .

(٢) رواه الربيع بن حبيب عن أنس بن مالك ، وأخرج أحمد والنسائي معناه من حديث ابن عباس ، ولهما أيضا ولمسلم من حديث أبي هريرة ، وهذا الحديث هو سبب نزول قوله تعالى « يا أيها الذين آمنوا لا تسألوا عن أشياء إن تبد لكم تسؤكم . الآية . م .

ما شئتم ، ولا يسألني اليوم أحد منكم عن شيء إلا أخبرته » ، فقال الأقرع ابن حابس : يا رسول الله الحج واجب علينا كل عام ، فغضب (ﷺ) حتى احمرت وجنتاه ، وقال : « والذي نفسي بيده ! لو قلت : نعم لوجبت ، ولو وجبت : لم تفعلوا ، ولو لم تفعلوا لكفرتم ؛ ولكن إذا نهيتكم عن شيء فانتهوا ؛ وإذا أمرتكم بشيء فأتوا منه ما استطعتم » ؛ ففي هذا الخبر دليل على أن الأمر بالفعل — لا يوجب إلا فعلا واحدا ؛ إلا أن تقوم دلالته بتكريره

فصل :

وأما الإضمار : فمثل قوله تعالى : « حُرِّمَتْ عَلَيْكُمْ أُمَّهَاتُكُمْ » أي : تزويج أمهاتكم ؛ وأما الكناية فقوله تعالى : « هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ ، وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ » ، ومثل قوله : « أَوْ جَاءَ أَحَدٌ مِنْكُمْ مِنَ الْغَائِطِ » ، فذكر الموضع وأكنى عن السبب الذي يكون فيه ، وكذلك العذرة : هي فناء الدار سميت للأنجاس التي تلقى فيها باسم المكان .

ومن لطيف الكناية — ما ذكر الله تعالى في كتابه ردًّا على من قال من النصارى : إن عيسى هو الله ، فقال الله تعالى : « مَا الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ إِلَّا رَسُولٌ — قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ ، وَأُمُّهُ صِدِّيقَةٌ كَانَا يَأْكُلَانِ الطَّعَامَ » فكنى بذكر الأكل عن ذكر البول ، والغائط ؛ لأن من يأكل ويشرب ،

يقول ، ويتغوّط ، ومما يدخل فى هـذا المعنى ما روى[1] عن النبى (ﷺ) : أنه كان إذا أراد قضاء حاجة الإنسان ـ ضرب فى الأرض ، فأبعد المذهب .

وأما الإضمار ـ فمثل قوله تعالى: « وَاسْأَلِ الْقَرْيَةَ الَّتِي كُنَّا فِيهَا ، وَالْعِيرَ الَّتِي أَقْبَلْنَا فِيهَا » يعنى : أهل القرية ، وأهل العير .

وكذلك قوله تعالى : « وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا مَا تَرَكَ عَلَى ظَهْرِهَا مِنْ دَابَّةٍ » أى: ظهر الأرض ، وكذلك قوله تعالى: « وَاخْتَارَ مُوسَى قَوْمَهُ » أى : من قومه « سَبْعِينَ رَجُلًا » ، وكذلك قوله . « حَتَّى تَوَارَتْ بِالْحِجَابِ » ؛ يريد الشمس ، وكذلك قوله تعالى : « وَأَوْحَيْنَا إِلَى مُوسَى ؛ أَنِ اضْرِبْ بِعَصَاكَ الْبَحْرَ ، فَانْفَلَقَ » ، فأضمر فضربه فانفلق .

ومثل هذا فى القرآن ، وفى كلام العرب كثير .

فصل :

وأما ما يسمى باسم الفعل قبل كونه [ف.] مثل قوله تعالى : « فَاسْتَشْهِدُوا شَهِيدَيْنِ مِنْ رِجَالِكُمْ » فسماهما الله شهيدين قبل أن يشهدا ، لجوازهما شاهدين فى الحال الذى يشهدان فيه ، وكذلك قوله : « إِنِّي أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا » وليس بخمر فى حال العصير ؛ وإنما يعصر عنبا حلالا ، ولـكن لما جاز أن يصير خمرا ،

---

(١) الحديث رواه ابن ماجة ولفظه عن جابر قال : خرجنا مع النبى (صلى الله عليه وسلم) فى سفر فـكان لا يأتى البراز حتى يغيب فلايرى ، وروى معناه أبو داود والنسائى ، والترمذى من حديث المغيرة ، والبزاز بفتح الباء : اسم الفضاء الواسع من الأرض . م .

ويستحق اسم الخمر من بعد ـ جاز أن يسمى بالذى ينتقل إليه ، وكذلك :الصيد يسمى صيدا قبل اصطياده ؛ لأنه يجوز أن يكون صيدا .

وقد يجرى على الشيء اسم فعل قد مضى ؛ كقوله تعالى : « وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ » ، فأجرى عليهم اسم السحر[ة] بعد توبتهم ، وإسلامهم ، ومثل هذا كثير .

فصل :

وأما حروف الخفض : فإن بعضها ينوب عن بعض نحو قوله جل اسمه : « ولأُصَلِّبَنَّكُمْ فى جُذُوعِ النَّخْلِ » أى : على جذوع النخل ، وقوله : « قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فى السَّماءِ » أى : إلى السماء ، وقوله : « وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ اللهِ » أى : بخشية الله ، وقوله : « لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ ؛ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ » أى : بأمر الله . والله أعلم وبه التوفيق.

* * *

القول العشرون

فى الناسخ ، والمنسوخ ، وتعزية رسول الله صلى الله عليه وسلم

قيل : إن النسخ على ثلاثة أوجه :

وجهان منهن مفهومان عند العامة ، فأحدهما . انتساخ الشيء من كتاب كان فيه إلى كتاب آخر .

والآخر : نسخ الشيء ، وتحويله ، وتبديله ، وهو الذى يفهمه الناس فى القرآن والسنة جميعا .

والوجه الثالث : أن يحصى الشيء على عامله ، ويستحفظ به عليه نحو قول الله جل ذكره : « هَٰذَا كِتَابُنَا يَنْطِقُ عَلَيْكُمْ بِالْحَقِّ إِنَّا كُنَّا نَسْتَنْسِخُ مَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ » .

يريد ـ والله أعلم ـ إنا كنا نحصيه عليكم ؛ حتى يعيد ذكره إليكم ، فتعلمون أنكم تجزون بما كسبت أيديكم .

وأما انتساخ الكتاب من كتاب كان قبله إلى كتاب آخر بعده : فقد أخبرنا الله تعالى : أن الكتاب ـ وهو القرآن ـ فى لوح محفوظ بقوله تعالى : « بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ ، فِى لَوْحٍ مَحْفُوظٍ » ، وبقوله : « يَمْحُو اللهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ، وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ » ، وإذا كان القرآن عنده فى أم الكتاب

فى لوح محفوظ ، ثم أنزله على محمد (ﷺ) فإنما أنزله على محمد من ذلك اللوح المحفوظ ، والكتاب المكنون ، وذلك الكتاب عند الله فى موضعه .

وقد روى[1] عن النبى (ﷺ) أنه كان يوما فى أصحابه قاعدا ؛ إذ ذكر حديثا فقال : ذلك أوان نسخ القرآن ، فقال رجل : يا رسول الله (ﷺ) كيف ينسخ القرآن ؟ قال : يذهب بأهله ، ويبقى رجال كأنهم النعام .

والناسخ من القرآن : هو الذى يجب العمل به ، والمنسوخ : ما نُهينا عن العمل به ، وأمرنا بالإيمان به .

قال الله تعالى : « مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا » أى : خير منها لكم ، أو مثلها فى العمل ، والفرض ، أو ننسها فنتركها على حالها ، وقال قوم : أو ننسها ؛ فلا تقرأ على وجه الدهر .

وفى الرواية : أن النبى (ﷺ) فرض الله عليه الصلوات الخمس قبل الهجرة بنحو سنة ، وصلى (عليه السلام) إلى بيت المقدس — قبل هجرته — سبعة عشر شهرا ، وكان الأنصار ، وأهل المدينة يصلون إلى بيت المقدس نحو سنتين قبل قدوم النبى (ﷺ) .

---

(١) الحديث رواه الربيع بن حبيب بسنده إلى ابن عباس رضى الله عنه ، وذكر فى آخره : كأنهم البغاث قال الربيع : والبغاث أذلة الطير . م

وكان[1] النبي (ﷺ) يصلى بمكة إلى الكعبة ثمانى سنين إلى أن عرج به إلى بيت المقدس ، ثم تحول إلى قبلة بيت المقدس ؛ لئلا يتهمه اليهود ، ولا يكذبوه ، لما كانوا يجدونه من صفته عندهم ، ونعته فى التوراة ، فقال اليهود : يزعم محمد أنه نبى ، وقد استعمل قبلتنا ، واستن بسنتنا ؛ فما نراه أحدث فى نبوته شيئا .

وكانت الكعبة أحب القبلتين إلى رسول الله (ﷺ) ، وهى قبلة أبيه إبراهيم (عليه السلام) ؛ فكره قبلة اليهود ، فسأل جبرائيل أن يسأل ربه : أن ينقله إلى قبلة إبراهيم ، فقال : إنما أنا عبد مثلك ، فانصرف من عنده .

وكان النبي (ﷺ) يقلب بصره نحو السماء ، فأنزل الله تعالى : « قَدْ نَرَى تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فى السَّمَاءِ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَاهَا ، فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ » ، وأنزل الله تعالى : « فَمَنْ بَدَّلَهُ مِنْ بَعْدِ مَا سَمِعَهُ فَإِنَّمَا إِثْمُهُ عَلَى الَّذِينَ يُبَدِّلُونَهُ » فكان الموصى يسلم والوصى يلزمه ذلك ، وكان الرجل يوصى بجميع ماله ؛ فلا يدع لورثته شيئا ، فأنزل الله تعالى : « فَمَنْ خَافَ مِنْ مُوصٍ جَنَفًا ، أَوْ إِثْمًا ؛ فَأَصْلَحَ بَيْنَهُمْ فَلَا إِثْمَ عَلَيْهِ » ؛ فردهم[2] رسول الله (ﷺ) إلى الثلث ؛ فأنزل الله جل ذكره : « وَلْيَخْشَ

(١) الحديث أخرجه أحمد ومسلم وأبو داود وغيرهم من أرباب السنن عن أنس وابن عباس ، وعمارة بن أوس ، وسعد بن أبى وقاص ، وأبو سعيد وغيرهم من الصحابة بألفاظ مختلفة . م .

(٢) فى رواية الربيع عن سعد بن أبى وقاص ، والحديث أخرجه الجماعة قال ابن عبد البر : هذا الحديث أصل العلماء فى قصر الوصية على الثلث لا أصل لهم غيره . م .

الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ ؛ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ ، وَلْيَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا » .

وكان الرجل ؛ إذا حضره الموت : لا يورث زوجاته ، ولا بناته ، ولا الصغار من أولاده ، [و] إنما [كان] يورث من أولاده من يحمل السلاح ، ويقاتل على ظهور الخيل ؛ فأنزل الله : « وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا » الآية .

وكانت الوصية للوالدين ، والأقربين : جائزة واجبة ؛ لقول الله تعالى : « كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ » ثم نسخت هذه الآية بآية المواريث فى سورة النساء .

وقال قوم : إن السنة تنسخ القرآن ، ونسخها قول النبى (ﷺ) : « لا وصية لوارث » .

وكان فرض الصيام واحداً فى الحضر والسفر ، لقوله عز وجل : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ ؛ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ : أَيَّامًا مَعْدُودَاتٍ » ثم رخص بعد ذلك للمسافر ، والمريض .

وقوله : « كُتِبَ عَلَيْكُمُ الصِّيَامُ ، كَمَا كُتِبَ عَلَى الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ » من اليهود ، والنصارى ، والملل التى قبلكم . « لعلكم . . » لكى تتقوا الأكل والشرب ، والجماع ، وغير ذلك مما نهى عنه فى الصوم .

وقال تعالى : « وَعَلَى الَّذِينَ يُطِيقُونَهُ فِدْيَةٌ : طَعَامُ مِسْكِينٍ » ؛ فقال

قوم : يطيقون الصيام من غير سفر ، ولا مرض ، وقال قوم : يطيقونه ، ثم عجزوا عنه ، وقال قوم : إنها منسوخة نسخها فرض الصيام .

وأما قوله : « فَمَن تَطَوَّعَ خَيْراً فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ » إن أطعم مسكينين كل يوم واحد نصف صاع بر : فهو خير ، هكذا وجدت فى بعض التفسير ، فالواجب إطعام واحد . نسخها بقوله : « شَهْرُ رَمَضَانَ الَّذِى أُنْزِلَ فِيهِ القُرآنُ هُدًى لِلنَّاسِ ، وَبَيِّنَاتٍ مِنَ الْهُدَى ، وَالفرقان » من الحلال ، والحرام ، وقوله : « فَمَن شَهِدَ مِنكم الشَّهْرَ فَلْيَصُمْه ، وَمَنْ كَانَ مَرِيضاً أو عَلَى سَفَرٍ فَعِدَّةٌ مِنْ أَيَّامٍ أُخَر ؛ يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ الْيُسْر ، وَلاَ يُرِيدُ بِكم الْعُسْر » .

وأما قوله : « الَّذى أُنزِلَ فِيه القرآن» يعنى : من اللوح المحفوظ إلى سماء الدنيا ؟ فى كل ليلة مايحتاج إليه الناس فى السنة .

و [أما] قوله : يريد الله بكم اليسر ، ولا يريد بكم العسر » ، [فالمراد] باليسر : السعة و بالعسر : الضيق،ولولا أنه رخص للمسافر ، والمريض ـ لكان قد ضيق عليهما .

وأما قوله «وَلِتُكَبِّرُوا اللهَ عَلَى مَاهَدَاكُم» ، فقال قوم من أهل التفسير : يكبرون على الضحايا ، والذبائح التى هداكم بتأديتها ، وقال قوم : يكبّرون على أثر رمضان ليلة الفطر .

وقوله : « وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللهُ لَكم » يعنى: الولد ، وقوله : « وَالَّذِينَ عَقَدت أَيْمَانُكُمْ فَآتُوهُم نَصِيبَهُم » ، فإنه كان الرجل فى العرب فى صدر الإسلام يعاقد أجنبيًّا ، يعنى : يحالفه على النصرة له على عدوه ـ يقول : هدمى هدمك ،

ودمى دمك ، تنصرنى على عدوى ، وأنصرك ، ترثنى وأرثك ؛ فلا تُوَرَّث قرابته من ماله شيئا ، نسخها قوله جل ذكره : « وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهم أَوْلَى بِبَعْضٍ فى كِتَابِ اللهِ » يعنى فى اللوح المحفوظ من العقد ، والحلف الذى كان يفعله الناس والقرابات أولى . والله أعلم .

وأما قوله تعالى : « الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ بِمَا فَضَّلَ اللهُ بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ وَبِمَا أَنفَقُوا مِنْ أَمْوَالِهِمْ » يعنى : مسلطون على النساء : فى الضرب الذى أمر الله [به فى] التأديب ، [فـ] نسختها آية القصاص : « الحر بالحر ، والعبد بالعبد ، والأنثى بالأنثى » .

وقال قوم : الآية التى فيها الضرب [لـ] تأديب — غير منسوخة ، وأن للرجل أن يقتص من زوجته ، وتقتص منه ، فنسخ الاقتصاص بين الزوجين بقوله : « الرِّجَالُ قَوَّامُونَ عَلَى النِّسَاءِ » أى : مسلطون .

وأما قوله : « وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ بِالْبَاطِلِ » ؛ يعنى : بالظلم ، فلما نزلت هذه الآية — قالوا : [أ] بالمدينة مال أعز من الطعام ؟ فكان الرجل يتحرج أن يأكل من بيوت الأهل ، فنسخها بقوله : « لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَنْ تَأْكُلُوا مِنْ بُيُوتِكُمْ ، أَوْ بُيُوتِ آبَائِكُمْ » الآية ، وقال قوم : ليس هذا بنسخ ؛ بل هو تخصيص لبعض الآية ، وهذا القول أنظر عندى ؛ لأن حقيقة النسخ : أن يزول حكم المنسوخ بكايته .

وأما قوله : « مَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُونَ لَهُ أَسْرَى ؛ حَتَّى يُثْخِنَ فى الأَرْضِ ، تُرِيدُونَ عَرَضَ الدُّنْيَا ، وَاللهُ يُرِيدُ الآخِرَةَ » فقد نزلت

هذه الآية فى الفداء الذى أخذه النبى (ﷺ) فى أسارى بدر ، فعاقبه الله على ذلك ثم أباح له الفداء بعد ذلك بقوله تعالى : « حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنْتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً » فكانت هذه الآية ناسخة للأولى .

وأما قوله تعالى : (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا نَاجَيْتُمُ الرَّسُولَ فَقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَةً » فنسختها : « أَأَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صدقاتٍ ؛ فإذ لم تفعلوا وَتَابَ اللهُ عَلَيْكم ـ فأقيموا الصلاة ، وآتوا الزكاة الآية » .

وأما قوله : « يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْو ؛ فإن النبى (ﷺ) كان يحض المؤمنين على فعل الصدقة فسألوه عن ذلك ، فأنزل الله جل ذكره : « يَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنْفِقُونَ قُلِ الْعَفْو » ، وهو ما فضل من القوت .

فإن كان من أصحاب الذهب ، والفضة ـ أمسك لقوته ، ولعياله ، وتصدق بالباقى ، وإن كان ممن يعمل بيده : أمسك قوت يومه ، وتصدق بالباقى فنسخها قوله : « قُلْ مَا أَنْفَقْتُمْ مِنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ » الآية ، ثم نسختها آية قوله تعالى : « إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ وَالْمَسَاكِينِ » الآية ،

روى عن النبى[1] (ﷺ) أنه قال : « تصدقوا ؛ فإن صدقة السر تقى مصارع السوء ، وتدفع ميتة السوء » .

---

(١) أخرجه أبو نعم فى الحلية عن على ، وفى معناه : « الصدقة تسد سبعين بابا من السوء » رواه القضاعى عن أبى هريرة وفى معناها . « الصدقة تمنع سبعين نوعا من أنواع البلاء أهونها الجذام ، والبرص » رواه الخطيب فى التاريخ عن أنس . وفى معناه : « الصدقات بالغدوات يذهبن بالعاهات » رواه فى مسند الفردوس عند أنس .

وقوله جل ذكره : « وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ ، وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا وَصِيَّةً لِأَزْوَاجِهِمْ مَتَاعًا إِلَى الْحَوْلِ غَيْرَ إِخْرَاجٍ » [فـ] كان الرجل إذا حضره الموت يوصى لزوجته بسكنها، ومؤنتها سنة كاملة ثم نسخها بقوله: « وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا » ، وبطلت الوصية لها بقوله[1] (ﷺ) : « لا وصية لوارث » ، وصار المفروض للزوجات : الثمن مع الأولاد ، وأولاد الأولاد ، و الربع مع عدمهم من مال الزوج .

وأما قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ؛ إِنَّمَا الْخَمْرُ ، وَالْمَيْسِرُ ، وَالْأَنصَابُ وَالْأَزْلَامُ » الآية .

فلما نزل تحريم الخمر قال المشركون ، كيف لكم بمن شربها منكم قبل تحريمها ؟ وما حال من مات منكم ، وقد سماها الله رجسا من عمل الشيطان ؟ فأنزل الله : « لَيْسَ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوا ؛ إِذَا مَا اتَّقَوْا ، وَآمَنُوا ، وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ ، ثُمَّ اتَّقَوْا ، وَآمَنُوا » الآية .

وأما قوله : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللَّهِ ، وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامَ ، وَلا الْهَدْيَ ، وَلا الْقَلَائِدَ ، وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ

---

(١) رواه الدارقطني عن جابر وفي معناه ما رواه الدارقطني « لا وصية لوارث ؛ إلا أن تجيز الورثة » ورواه الربيع عن ابن عباس ، وروا الخمسة إلا النسائي من حديث أبي أمامة ، ورواه الخمسة إلا أبا داود من حديث عمرو بن خارجة ، وصححه الترمذي ، قال الشافعي وجدنا أهل الفتيا ، ومن حفظنا عنهم من أهل العلم : لا يختلفون في أن النبي (صلى الله عليه وسلم قال عام الفتح : « لا وصية لوارث » .

فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا » [فـ] ذلك أن بعض الصحابة ، أرادوا أن يُقطعوا هَدْيًا لقوم ، سرقوا لهم أموالا بالمدينة وساقوها عليهم ؛ فأنزل الله : « يا أَيُّها الَّذِينَ آمَنُوا ـ لا تُحِلُّوا شَعَائِرَ اللهِ ، وَلا الشَّهْرَ الْحَرَامِ ، وَلا الْهَدْىَ ، وَلا الْقَلَائِدَ ، وَلا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللهِ وَرِضْوَانًا » بحجهم، فحرم بهذه الآية، القتال فى الشهر الحرام ، وما سيق إلى البيت من هَدْى، ثم نسخها بقوله تعالى : « اقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ » إلى قوله : « وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ » ، ونسخ ذلك أيضاً بقوله . « إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ ؛ فَلَا يَقْرَبُوا الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هٰذَا » .

وأما قوله : « لَيْسَ الْبِرَّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا » [فـ] يقال : كانوا ؛ إذا أحرموا لم يدخل أحد منهم من باب بيته ، ولم يخرج منه ، وإنما كان ينقب من ظهره نقبا ، ويخرج منه ، وإن كان خباء رفعه ، وخرج من ظهره، [فـ] نسخها بقوله : « لَيْسَ الْبِرَّ بِأَنْ تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ ظُهُورِهَا ، وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَى ، وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَابِهَا . وَاتَّقُوا اللهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ».

وأما قوله : « وَلا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ ؛ أَنْ تَبَرُّوا ، وَتَتَّقُوا ، وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ » فكان الرجل إذا حلف على قطع رحم لا يكلمه ، [إن احتاج منه إلى] معروف لا يفعله ، [و] كان لا يفعل ذلك ليبر القسم ؛ لئلا يأثم ، فأنزل الله : « وَلا تَجْعَلُوا اللهَ عُرْضَةً لِأَيْمَانِكُمْ ؛ أَنْ تَبَرُّوا ، وَتَتَّقُوا ، وَتُصْلِحُوا بَيْنَ النَّاسِ » فكان الرجل ؛ [لا] يحلف إن أغضبه أحد مخافة أن يحنث ، فأخبرهم الله ، أن عدم الوفاء باليمين معصية ، فقال :

« لا يُؤَاخِذُكُمُ اللهُ بِاللَّغْوِ فى أَيْمَانِكُمْ ، وَلٰكِنْ يُؤَاخِذُكُم بِمَا كَسَبَتْ قُلُوبُكُمْ » إذا تعمدتم فى باب الإثم

وأما قوله : « وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ ، وَلا يَحِلُّ لَهُنَّ أَنْ يَكْتُمْنَ مَا خَلَقَ اللهُ فى أَرْحَامِهِنَّ ؛ إِنْ كُنَّ يُؤْمِنَّ بِاللهِ ، وَالْيَوْمِ الآخِرِ ، وَبُعُولَتُهُنَّ أَحَقُّ بِرَدِّهِنَّ فى ذٰلِكَ » [فـ] كان الرجل ؛ إذا طلق زوجته واحدة ، أو اثنتين : كان أملك بردها ما لم تتزوج حتى تكون ثلاث تطليقات ، فتصير هى أملك بنفسها ، وقال قوم : ولو طلقها ثلاثاً لم تتزوج نسخها بقوله : « يَأَيُّهَا النَّبِيُّ ؛ إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ ، وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ » إلى قوله : « فَإِذَا بَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ فَأَمْسِكُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ أَوْ فَارِقُوهُنَّ بِمَعْرُوفٍ » .

وأما قوله : « يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ، لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ، وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ ؛ إِلَّا أَنْ يَأْتِينَ بِفَاحِشَةٍ مُبَيِّنَةٍ » [فـ] كان الرجل قبل الإسلام ؛ إذا مات ، وترك امرأته قام ابنه من غيرها ، أو وارثه من قرابته ؛ إذا لم يكن له ولد طرح ثوبه على تركته حميمة ، فيرث نكاحها بالمهر الأول مهر الميت ، ثم يمسكها ، فإن كانت شابة جميلة ذات مال عجل بالدخول بها رغبة فى مالها ، وشبابها ، وإن كانت كبيرة ذميمة أمسكها ؛ فلم يدخل بها ، وضارها ، حتى تفتدى منه بمالها ، ثم يخلى سبيلها ؛ فأنزل الله هذه الآية : « يا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا : لا يَحِلُّ لَكُمْ أَنْ تَرِثُوا النِّسَاءَ كَرْهًا ، وَلا تَعْضُلُوهُنَّ لِتَذْهَبُوا بِبَعْضِ مَا آتَيْتُمُوهُنَّ » .

وأما قوله : « وَالْمُحْصَنَاتُ مِنَ النِّسَاءِ ؛ إِلَّا مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » فحرم بهذه الآية كل امرأة لها زوج ، ثم نسخ هذه الآية ، وخص بعض حكمها سبايا بنى المصطلق ، وغيرهم ، ولهن أزواج مقيمون فى دار الحرب ؛ وقال قوم : بل استثنى فى هذه الآية « وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ » يعنى : السبايا .

وأما قوله تعالى : « فَمَا اسْتَمْتَعْتُم بِهِ مِنْهُنَّ فَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ فَرِيضَةً ، وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُم فِيمَا تَرَاضَيْتُم ، مِنْ بَعْدِ الْفَرِيضَةِ » يعنى : من الأجل الأول .

قيل : إن هذه الآية كانت متعة فى صدر الإسلام ، جائزة للمسلمين ثلاثة أيام ؛ حيث اعتمروا عمرة الإماء[1] ، فلما قضى عمرته : حرمها ، ونهى عنها أشد النهى .

وكان الرجل ينطلق إلى المرأة من أهل مكة ؛ يستمتع منها بشىء يتفقان عليه بأمر الوالى ؛ فإذا تم الأجل ، ورغبا فى الزيادة ، ولم يحضر الولى ، وإنما يكون على العقد الأول ؛ فإذا مات أحدهما ـ لم يرث الحى منهما ، ولم يكن عليها منه عدة : نسختها آية العدة ، والمواريث ومن قال : إن السنة تنسخ الكتاب

---

(١) لعلها عمرة القضاء ، فقد وردفى بعض طرق الحديث أن النبى (صلى الله عليه وسلم) أباحها فى عمرة القضاء ، أو أنه سماها عمرة الإماء ، حيث أباح النبي (صلى الله عليه وسلم) فيها نكاح الإماء بالمتعة ولكن إباحة نكاح المتعة اشتملت على الإماء والحرائر . قال ابن العربى . وأما متعة النساء فهى من غرائب الشريعة ، لأنها أبيحت فى صدر الإسلام ثم حرمت يوم خيبر ، ثم أبيحت فى غزوة أوطاس ، ثم حرمت بعد ذلك ، واستقر الأمر على التحريم .

وليس لها نظير فى الشريعة إلا مسألة القبلة لأن النسخ طرأ عليها مرتين قال القرطبي وقال غيره ممن جمع طرق الأحاديث فيها إنها تقتضى التحليل ، والتحريم سبع مرات ، وقد اتفق على نسخها أهل المذاهب الأربعة ، واتفق على بقائها الشيعة ؛ واختلف فى بقائها الإباضية . م .

بقول ـ نسخ بقول ـ الرسول (عليـــه السلام) : «لا نـكاح الا بولى ، وشاهدين» .

فصل :

والنسخ لا يقع إلا فى الأمر ، والنهى ، ولا يجوز فى الخبر ، ولا يجوز أن يخبر الله بشىء أن يكون ، ثم يقول : لا يكون ، أو يقول : بأنه لا يكون ، ثم يقول إنه يكون ، تعالى الله عن ذلك علو كبيرا .

واختلفوا فى النسخ أيضًا ، فقال قوم : المنسوخ ما رفع تلاوته ، وتنزيله ، كما رفع العمل به ، وقال آخرون : إن النسخ لا يقع على قرآن قد نزل ، وتلى ، وحكم النبى (ﷺ) بتأويله، ولـكن النسخ:ما أبدل الله منه فى حكمه من التفسير الذى أزاح عنه ما كان يجوز أن يمتحنهم به من الأمور الشداد ، والأمور العظام التى تعهد بها من كان قبلهم من الأمم ، ونفى هؤلاء أن يقولوا : إن الله جل ذكره لاينسخ شيئا بعد نزوله ، وبعد أن عمل به المؤمنون عن ربهم بحضرة نبيهم (ﷺ) ، وزعموا أن من وصف الله بذلك ؛ فقد وصفه بما لا يليق به .

وقال آخرون : إنما الناسخ والمنسوخ هو أن الله جل ذكره نسخ القرآن من اللوح المحفوظ الذى هو أم الـكتاب ، والنسخ لا يكون إلا من أصل .

وقال آخرون : بل يجوز أن ينسخ قرآنا أنزله ، وأن يبدل آية أخرى بضد ما نزلت به ، فتتلى الآية الأولى ؛ كما كانت تتلى ، ويكـــون العمل على الأخرى ، ويجوز أن يرفع الله تلاوة الأولى ؛ كما رفع العمل بها .

واختلفوا أيضاً من وجه آخر . فقال قوم: لا ينسخ القرآن إلا بقرآن مثله ، واحتجوا بقول الله تبارك وتعالى : « مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا » ، ولا يكون ماليس بقرآن خيرا من القرآن .

وقال آخرون : بل السنة تنسخ القرآن ، والقرآن لا ينسخ السنة ، وقال آخرون : إذا كانت السنة بأمر من الله من طريق الوحى ، وإن لم يكن ماأوحى به فيها قرآنا ، فإنها تنسخ القرآن ، وإذا كانت على طريق الاجتهاد ، والرأى ؛ فإنها لا تنسخ [القرآن] . بل لم يكن للنبى (ﷺ) ليجتهد فى أمر محكم بخلاف ما فى القرآن . بل للأمر حكم الاجتهاد ، وفيها منه حكم متبين .

قالوا : والقرآن ينسخ السنة عن أمر الله ، أو باجتهاد من رسول الله (ﷺ) وهذا التفسير من السنة ؛ إنما يحتاج إليه من يجيز الاجتهاد ، ويجيزه للنبى (ﷺ) ، وأما من أبى ذلك ؛ فإن السنة لا تكون عنده إلا بأمر الله ، والسنة عنده تنسخ القرآن ، والقرآن ينسخ السنة . والنظر يوجب أن القرآن ، والسنة حكمان لله ينسخ كل واحد منهما الآخر .

ويدل على ذلك . قول الله عز وجل : « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » ، وقال : « وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى . » فأخبر جل ذكره : إن الكل من عنده ، وبأمره . واختلفوا أيضا من وجه آخر ؛ فزعم قوم أن الآيتين ؛ إذا أوجبتا حكمين مختلفين، فكانت إحداهما متقدمة ؛ فالمتأخرة ناسخة للأولى. كقوله جل ذكره: « كُتِبَ عَلَيْكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ ؛ إِنْ تَرَكَ خَيْرًا الْوَصِيَّةُ لِلْوَالِدَيْنِ ، وَالْأَقْرَبِينَ »

نسخه بقوله بعد ذلك : « فَلِأَبَوَيْهِ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا السُّدُسُ وقال : « فإن لَمْ يكن لَهُ وَلَدٌ وَوَرِثَهُ أَبَوَاهُ فَلِأُمِّهِ الثُّلُثُ »، فالآخرة ناسخة للأولى ، ولن يجوز أن يكون لهما : الوصية ، والميراث .

وقال آخرون : بل ذلك جائز ، وليس فى الآيتين ناسخ ، ولا منسوخ وإنما نسخ الوصية للوارث بسنة النبى (ﷺ) ، وقالوا : فالناسخ لا يكون إلا بما يجوز اجتماعه ، والمنسوخ ، ولا يجوز الحكم بهما فى حال واحدة على لسان واحد ، والنظر يوجب عندى - والله أعلم أن الوصية للوالدين، والأقربين غير منسوخة ، وقول النبى (ﷺ) : « لا وصية لوارث » - ليس بنسخ لها ؛ وإنما هو بيان لحكمها ، لأن من كان ليس بوارث : فالوصية لهم جائزة [أو] واجبة ؛ فهذا يدل على أن النبى (ﷺ) : بين أن الوصية لا تجب لمن كان وارثا واختلفوا فى ذلك من وجه آخر ، فقال قوم : الناسخ ، والمنسوخ قد يكون فى وصف الله تعالى ، والثناء عليه ، وفيما ليس بأمر ، ولا نهى من الخبر ، وغيره ، وقد بينا قبل هذا ما نذهب إليه ، ونختاره ، وهو قول أهل الحق : أن النسخ لا يجوز أن يكون إلا فى الأمر ، أو النهى .

وزعمت فرقة من ضلال أهل القبلة : أن الأئمة المنصوص عليهم مفوض إليهم نسخ القرآن ، وتبديله ، وتجاوز بعض هؤلاء حتى أفرطوا وخرجوا من الدين ، [فقالوا] : إن النسخ يجوز على سبيل أن يأمر الله بالشىء، وهو لا يريده فى وقت أمره به أن يغيره ثم يبدو له فيغيره بعد ذلك فتعالى الله عن مقالة هؤلاء.

وقال قوم : إن ما نزل بالمدينة ناسخ لما نزل بمكة ، وهذا غلط أيضا ، لأن النسخ لا يكون إلا فى الأمر والنهى .

والحجة على من زعم أن النسخ لا يكون حتى ترفع تلاوته ، ما نسخ الله من التوراة بالقرآن وهما متلوان جميعا .

وأما نسخ القرآن بالسنة ؛ فقد قال به : أكثر أصحابنا ، واحتجوا بأن الله تعالى : فرض علينا سبع عشرة ركعة فى كل يوم وليلة ، ثم إن[1] النبى (ﷺ) سن على المسافر بعض ذلك دون جميعه .

فإن احتج محتج أن القرآن لا ينسخه إلا قرآن ، وأن[2] نسخ فرض الصلاة للمقيم ـ بقول الله جل ذكره : « وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى الْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَقْصُرُوا مِنَ الصَّلَاةِ إِنْ خِفْتُمْ أَنْ يَفْتِنَكُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا » الآية ؛ إنما أوجب القصر فى حال الأمن دون الخوف ، وقد أجمع المسلمون أن النبى (ﷺ) يقصر الصلاة فى حال الأمن دون الخوف ، وهذا يدل على أن الآية ليست بناسخة .

---

(١) روى الربيع بسنده إلى ابن عباس عن النبي (صلى الله عليه وسلم) قال : على المقيم سبع عشرة ركعة ، وعلى المسافر إحدى عشرة ركعة ؛ وروى أحمد والبخارى ، ومسلم عن أنس ابن مالك قال : «صليت مع رسول الله (صلى الله عليه وسلم) الظهر بالمدينة أربعا ، وصليت معه العصر بذى الحليفة ركعتين » وذو الحليفة من المدينة على ستة أميال ، وهى فرسخان وذلك حد القصر مع الإباضية ، وعند أحمد والنسائى ، وابن ماجه عن عمر أنه قال : « صلاة السفر ركعتان » وعند النسائى عن ابن عمر قال : « إن رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أتانا ، ونحن ضلال فعلمنا فكان فيما علمنا : إن الله عز وجل أمرنا أن نصلى ركعتين فى السفر .

(٢) الحديث أخرجه الربيع ، والجماعة إلا البخارى .

وأما من زعم أن السنة تنسخ القرآن ، والقرآن لا ينسخ السنة ـ فالحجة عليه : أن رسول الله (ﷺ) لم يزل يصلي إلى بيت المقدس بغير قرآن نزل ، فنسخ الله ذلك بالقرآن ، وحول القبلة إلى الكعبة .

وأما من قال : إن النسخ مفوض إلى الأئمة [ف] احتجوا بأن النبي (ﷺ) كان يجتهد رأيه في الأحكام ، وإذا كانت السنة اجتهادا من رسول الله (ﷺ) فقد يجوز أن ينسخ القرآن السنة ، وإذا جاز نسخ القرآن بالسنة من طريق الأحكام ، وتفويض الأحكام إلى رسول الله (ﷺ) ـ قالوا : [ف] جائز للإمام من بعده الذي نص عليه : أن يجتهد فيما فوض إليه ، والحجة عليهم قول الله تعالى : « وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا ائْتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَٰذَا أَوْ بَدِّلْهُ قُلْ : مَا يَكُونُ لِي أَنْ أُبَدِّلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي ؛ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ » وقال تعالى : « وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَىٰ » .

وأما من زعم أن الله جل ذكره : لا يعلم الشيء ، حتى يكون ـ فالحجة عليهم قول الله عز وجل ذكره « وَلَوْ تَرَىٰ إِذْ وُقِفُوا عَلَى النَّارِ فَقَالُوا يَا لَيْتَنَا نُرَدُّ وَلَا نُكَذِّبَ بِآيَاتِ رَبِّنَا وَنَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ » ، ثم قال : « وَلَوْ رُدُّوا لَعَادُوا لِمَا نُهُوا عَنْهُ ، وَإِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ » فأخبر بما تقولون ، قبل أن تقولوا ، وأخبر أنهم لو ردوا لعادوا كيف يكون حالهم ؛ فقد علم ما يكون من قولهم قبل أن يكونوا ، وعلم ما يكون أن لو كان كيف كان يكون ،] ونظائر هذا كثير في القرآن .

فصل :

والذى عليه أكثر أصحابنا : أن القرآن ينسخ بالقرآن ، وينسخ بالسنة ، كما أن السنة تنسخ بالسنة،وقد وجدت لبعض أصحابنا:أن السنة لاتنسخ القرآن، ولعل هذا مذهب بعض البصريين .

وحجة هؤلاء : أن القرآن لايعلم نسخه إلا بخبر من الله أو الرسول عليه الصلاة والسلام ، أو بإجماع الأمة على ذلك ، أو تقوم دلالته فى نفس الخطاب ، ولم تقم الدلالة من هذه الوجوه ، وقال الله تعالى : « مَا نَنْسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنْسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِنْهَا أَوْ مِثْلِهَا » .

والسنة ليست كالقرآن فى نفسه ، والسنة وإن كانت حكما من الله تعالى : فليست مثله ؛ [فـ] القرآن فى نفسه معجزة . قال الله جل ذكره : « قُلْ لَئِنِ اجْتَمَعَتِ الإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هٰذَا الْقُرْآنِ لا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ ، وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا » والسنة ليست بمعجزة بنفسها ؛ فإذا لم تكن مثل القرآن إلا من طريق الحكم ـ لم يجز أن تنسخ القرآن .

و [أما] الحجة لمن أجاز نسخ القرآن بالسنة [فـ] قالوا : إن القرآن حكم الله جل ذكره والسنة حكم الله ينسخ أحدهما الآخر ، واحتجوا بقول الله جل ذكره : « وَمَا يَنْطِقُ عن الهوى إِنْ هُوَ إِلاَّ وَحىٌ يُوحَى » والكتاب دال على أنه مخبر عن الله تعالى ، فهو ينسخ أحكامه بعضها ببعض مرة بالكتاب ، ومرة بالسنة على لسان نبيه عليه السلام ، والله أعلم بالأعدل من الأقوال .

فصل :

ومما عزى الله به نبيه (عليه السلام) ، وأخبر أن ما نال المشركون من حلاوة الدنيا،وزهرتها غير موصول بنعيم الآخرة ، وإنما هو فتنة لهم فى الدنيا، ووبال عليهم فى الآخرة ، فقال جل ذكره :« وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَى مَامَتَّعْنَا بِهِ أَزْوَاجاً مِنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَاةِ الدُّنيا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ، وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْر وأَبْقَى » وقال جل ذكره : « وَلاتُعْجِبكَ أَمْوَالُهُم ؛ وَلاَ أَوْلادُهم ، إنَّما يُرِيدُ اللهُ لِيُعَذِّبَهم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وتَزْهَقَ أنفسُهم ، وهم كَافِرُون .

كل هذا تعزية لنبيه (ﷺ) .

وقال تعالى : « وَلَا يَحْسَبَنَّ الَّذين كَفَرُوا أَنَّمَا نُمْلِى لهم خَيرًا لِأَنفُسِهِم إنَّما نُمْلِي لهم لِيَزْدَادُوا إثما ، وَلَهُم عَذَابٌ مُهِين ، وقوله تعالى : « وَلا تَمُدَّن عَيْنَيك إلىمامَتَّعنَا به أزْوَاجاً مِنهم زَهْرة الحياةِ الدُّنيا» لم يدع ذلكالـكلامُ منقطعاً من البيان ؛ حتى قال : « لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ، وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَى » كما قال جل ذكره : وَلَاتُعْجِبكَ أَمْوَالُهُم ؛ وَلاَ أَوْلادُهم » لم يدع الـكلام مرسلا ؛ فيكون تأويله مشكلا حتى وصله بأن قال: «إنما يُريد الله لِيعذِّبهم بها فِي الْحَياةِ الدُّنْيَا » وكذلك كثير من الآيات يدل على هذه المعانى ، والله تعالى يوفق على طاعته أومرضاته من يشاء من عباده ويهديهم إلى صراط مستقيم .

القول الحادى والعشرون

فى تفسير شىء من القرآن ، وذكره ، وفضائله

قال الله تعالى : « وَأَضَلَّهُ اللهُ عَلَى عِلْمٍ » أى : على علم من الله بضلالته ، ومعنى الضلال هنا – الهلاك .

وقال أبو معاوية (رحمه الله) فى قوله تعالى : « ولِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِى » : أى : تربى بكلاءتى ، وحفظى،وقوله : « بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَان »أى : رحمته، وعقوبته ، وقوله : «والسموات مطويات بيمينه »أى : بقدرته ، وقوله لموسى: وَفَتَنَّاكَ فُتُوناً » أى : ابتليناك ابتلاء ، وقيل : واختبرناك اختبارا ، ومعناهما قريب .

وقوله تعالى : « وَمَا قَدَرُوا اللهَ حَقَّ قَدْرِهِ . أى : ماعرفوه حق معرفته، وقيل : ما عظموه حق عظمته .

وقوله : « اللهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ » المعنى : به الهادى لمن فى السموات والأرض .

وقوله:«وَما كَانَ لِبَشَرٍ أن يُكَلِّمَهُ اللهُ إِلَّا وَحْياً أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ» قيل معنى الحجاب : هو المنع عند رؤيته ، وليس دونه حجاب يستره .

وقوله : « وَأَنَّ الْمَسَاجِدَ لِلهِ » : هى الأعضاء السبعة التى يسجد عليها لله وهى : الجبهة ، واليدان ، والرجلان،والركبتان فلا يدعو مع الله أحدا . يقول: لاتضعوا هذه الأعضاء السبعة إلا لله .

وقال أبو محمد (رحمه الله) فى قوله ـ جل ذكره : « وإذْ تَقُولُ لِلَّذِى أَنْعَمَ اللهُ عَلَيْه ، وَأَنْعَمْتَ عَلَيْه أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ ، واتَّقِ اللهَ وتُخْفِى فِى نَفْسِكَ ما اللهُ مُبْدِيه ، وتخْشَى النَّاسَ ، واللهُ أحَقُّ أَنْ تَخْشَاه » معنى ذلك: معاتبة للنبى (ﷺ) ونهيا له فى أمر زيد بن حارثة (رضى الله عنه) .

وقيل : إن زيد بن حارثة:اشتراه رسول الله ﷺ ، من السباء ، ثم أعتقه، وكان عنده بمكان

وقول الله تعالى : « وإذا أرَادَ اللهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فلاَ مَرَدَّ لَهُ » فإرادته ، ومشيئته على مايقدر فى علمه ؛ فإذا [جاء] وقت الشىء ـ كان كما أراد أن يكون .

« والسوء » : هو الذى كان بسبب الإرادة ، وهو جزاء عدل ؛ فسمّى الجزاء بسبب الفعل وهو من قضاء الله تعالى .

مثل قوله تعالى : « والّذِينَ كَسَبُوا السَّيِّئات جَزَاء سَيِّئَةٍ بِمِثْلِها » ومثل ذلك فى القرآن كثير .

وأما قوله : وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إلَى اللهِ ، وَعَمِلَ صَالِحاً ، وَقَالَ: إِنَّنِى مِنَ المُسْلِمِين ، فقيل : أراد بالدعاء : المؤذنين فى أوقات الصلاة ، « وعمل صالحاً » : صلى ركعتين قبل الصلاة .

وقال « إننى من المسلمين » أى : من أهل دين الإسلام المقربين الموحدين المعتقدين دين الإسلام دينا لهم ، ونبرأ من كل دين سواه .

ومثل ذلك ، ونظيره : قوله : « وَمَنْ أَحْسَنُ دِيناً مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله ، وَهُوَ مُحْسِنٌ » ، والوجه فى هذا الموضع : هو الدين ، « وهو محسن » فى عمله اللازم له فى الدين ، « واتَّبعَ مِلَّةَ إِبْراهِيمَ حَنِيفاً »،وهو الإسلام . ونظير ذلك كثير فى كتاب الله .

منه : ماقال الله تبارك وتعالى ـ « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلَامِ دِيناً فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْه ، وهُوَ فِى الآخِرةِ مِنَ الخاسِرِينَ » .

والإجماع فى معنى الإسلام : أنه الإقرار بالله تعالى ـ والإيمان به ، والتصديق برسوله المرسل إلى أهل زمانه ، وبما جاء به رسوله إلى كل أمة من الأمم .

فهذا هو دين الإسلام ، المفروض ـ الذى لم تختلف فيه الشرائع ، وهو أصل الشرائع كلها ، وكذلك هو الدين ـ الإسلام ـ على أمة محمد (ﷺ) : الإيمان بالله ـ تبارك وتعالى ـ إلها واحدا ، وبمحمد نبيًّا رسولا ، وبما جاء به ، أنه حق وصدق وعدل .

وقال آخرون فى قوله : «وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِمَّنْ دَعَا إِلَى اللهِ ، وَعَمِلَ صالحا » فهو الداعى إلى الله ، وإلى دينه ، وعمل بما يدعوه إليه من طاعة الله متى دعا إليها ، وعمل بها من رسول ، أونبى ، أو صالح ، « وقال إننى من المسلمين » أى : كان مسلما ، وليس قوله : إنه مسلم ؛ إذا خالف شيئا من الإسلام بدافع له ، ولايجوز له أن يكون عند نفسه : فى قوله ، وعمله ، ونيته إلا مسلم لله تبارك وتعالى ، ويتوب إلى الله فى اعتقاده من جميع ماخالف الإسلام الذى دان لله به ، واعتقده من قول ، وعمل ، ونية . فى جملة قوله ، وعمله ، ونيته

وينبغى أن يجدد ذلك ؛ كلما خطر بباله هذا أنه عصى الله بما جهله : بقول ، أوعمل ، أونية ، ولا يعذر بجهله [ف] يموت على معصيته ؛ فيكون هالكا .

وإذا جدد التوبة ، ولولم يقف على الذنب ، ويذكره ـ أجزأه ذلك فى الجملة ؛ مالم يكن متمسكا بالذنب أن لوذكره : لم يكن تائبا منه ، وكان على اعتقاد الدينونة فيه .

فمن هاهنا أعجبنى ألّا يعتقد من الأمور دينا على كل حال إلى مالا يشك فيه ، ومالم يأت فيه اختلاف يكون فيه ريب ؛ لأنه ؛ إذا اعتقد فى الجملة لله الدينونة بدينه : كان قد دان له بدينه كله .

واعتقاده دينا ماليس بدين هالك ؛ لا يرجى له منها توبة ، وكلما تقرب لله بها ازداد منه بعداً ، وكلما خاف لقاءه بالموت كان أشد تمسكا بها حتى يلقاه على التقرب إليه بمعصيته ، ولا يعذره الله فى ذلك بجهالته ؛ لأنه قد كان يمكنه ، ويسعه ألا يعتقده دينا بعينه ؛ إذا اعتقد الدين فى الجملة .

وإن قال : وما أنا من المشركين : فيكون عليه الاعتقاد أنه ليس من المشركين إذا ذكر ذلك فى قراءته ، أو صلاته ، أو خطر ذلك فى باله ، وأنه برىء من المشركين ، ومن دينهم ومن كل شرك فى الدين بجحود ، أو نفاق .

وقال أبو سعيد (رحمه الله) فى قوله : « الزَّانِي لَا يَنْكِحُ إِلَّا زَانِيَةً ، أَوْ مُشْرِكَةً ، والزَّانِيَةُ لا يَنْكِحُها إلا زَانٍ ، أَوْ مُشْرِكٌ ، وَحُرِّمَ ذَلِكَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ » قال : معناه أن المحدود على الزنا من أهل القبلة ،

لاينكح إلا محدوده من أهل القبلة على الزنا ، أو مشركة من أهل الكتاب؛ كانت محدودة أو غير محدودة ، والمحدودة من أهل الكتاب لاينكحها إلا محدود من أهل القبلة على الزنا ، أو مشركة من أهل دينها كان محدودا ، أو غير محدود ، وحرم ماسوى هذا على المؤمنين ، والمحدودة من أهل القبلة لايجوز لها المشرك على حال من أهل الكتاب ، ولامن غيرهم .

وقال : كل ذكر وتسبيح : فهو فى معنى الصلاة ، وهو أصح عندى ، وقيل غير ذلك ، إلا ماصح فى الذكر .

وقيل : كل ما كان فى القرآن فى صفة الله تعالى كان فمعناه : لم يزل مثل قوله : « وَكَانَ اللهُ غَفُورًا رَحِيماً » ، « وَكَانَ اللهُ عَلِيماً حَكِيماً » وأشباه هذا ، وكل ما كان فى القرآن: يدريك ، فهو لايدريه ، وكل ما كان فى القرآن: أدراك ، فهو يدريه .

وقال أبو الحوارى (رحمه الله) : لا بأس أن يُمحَى القرآن بالبزاق .

وقال أبو سعيد (رحمه الله) فى قول الله : « نُ وَالْقَلَمِ » النون : الدواة التى يكتب منها فى اللوح المحفوظ ، والقلم الذى يُمد منها ، وقال فى قوله تعالى : « فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْىَ » بلغ معه العمل بطاعة الله ، وقال فى قوله : « وَإِنَّكَ لَعَلَى خُلُقٍ عَظِيمٍ » أى : خلق الدين ، وغيره من مكارم الأخلاق ، وقوله : « أَوْسَطُهُمْ » أى : أفضلهم ، وقوله : « أُمَّةً وَسَطاً » أى : خياراً .

وقوله : « وَآتُوهُمْ مَا أَنفَقُوا ، وَلا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَنْ تَنْكِحُوهُنَّ ؛

إِذَا آتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ » ، وذلك فى المسلمين ، والمهاجرات ، « وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ » من أهل العهد ما أنفقوا ؛ وإذا أتاهم مسلم أخذوا منهم ما أنفق المسلم عليها ، وذلكم حكم الله يحكم بينكم. وقوله : « وَاسْأَلُوا مَا أَنفَقْتُمْ وَلْيَسْأَلُوا مَا أَنفَقُوا » .

وقوله : « وَلَا تُمْسِكُوا بِعِصَمِ الْكَوَافِرِ » نساء المشركين ، وقوله : « وَإِنْ فَاتَكُمْ شَيْءٌ مِنْ أَزْوَاجِكُمْ إِلَى الْكُفَّارِ ؛ فَعَاقَبْتُمْ ، فَآتُوا الَّذِينَ ذَهَبَتْ أَزْوَاجُهُمْ مِثْلَ مَا أَنفَقُوا ». فكان المسلمون يعطون من ذهبت زوجته منهم مثل ما أنفقه عليها مما غنموا منهم ، وذلك أمر الله فيهم .

وقال أبو سعيد (رحمه الله) وقد قيل : إن هذا كله منسوخ .

وقال فى قول الله تعالى : « وَذَا النُّونِ إِذْ ذَهَبَ مُغَاضِبًا فَظَنَّ أَنْ لَنْ نَقْدِرَ عَلَيْهِ ، فَنَادَى فى الظُّلُمَاتِ » أى : لم نقدر عليه البلاء .

وقوله عز وجل : « وَيَحْمِلُ عَرْشَ رَبِّكَ فَوْقَهُمْ يَوْمَئِذٍ ثَمَانِيَةٌ » أنهم ثمانية أجزاء من الملائكة ، كل جزء مثل الثقلين .

وأما العرش : فالقول فيه كثير ؛ وتسميته العرش : هو السرير ، وليس يوصف الله ؛ أنه كائن على العرش ، وإنما هذه الملائكة يحملونه ، وإنما هذه الملائكة قد تعبدهم الله بحمل ذلك العرش ، والله قبل العرش ، وقبل الملائكة ، فلما كان فى الأول ؛ فهو فى آخر الأبد .

وقال أبو الحسن بن أحمد (رحمه الله) فى قول الله عز وجل : « فَأَمَّا الَّذِين

شَقُوا فَفِي النَّارِ لَهُمْ فِيهَا زَفِيرٌ ، وَشَهِيقٌ . خَالِدِينَ فِيهَا مَا دَامَتِ السَّمَوَاتُ وَالْأَرْضُ ؛ إِلَّا مَا شَاءَ رَبُّكَ » وكذلك فى قصة أهل الجنة وما شاء ربك من الخلود ، وهى منسوخة ، والله أعلم بتأويل كتابه ، إلا أننى عرفت أن الاستثناء لا يبطل ذلك ، وقد قال الله تبارك ، وتعالى : « لَتَدْخُلُنَّ المسجدَ الحرامَ إِنْ شاءَ اللهُ ـ آمِنين » ؛ فلم يكن هذا الاستثناء مما يبطل دخولهم ، وقد قيل : « إلا ما شاء ربك » من هذا اليوم ، وذلك يوم القيامة .

وقال أبو سعيد (رحمه الله) فى قوله تعالى : « وَغَرَّكُم بِاللهِ الغَرُور » : أن الغَرور[1] : هو الشيطان (لعنه الله) ؛ والغرور بضم الغين : هو غرور الدنيا ، وفى قوله تعالى : « وإنْ مِن شَىْءٍ إلَّا يُسَبِّح بِحَمْده » نقول : هو كل شىء خلقه الله من جمادٍ ، وذى روح ، وقول : هو كل ذى روح .

وقال أبو الحوارى (رحمه الله) فى قوله تعالى: « وَخَرَقُوا له بَنِينَ وَبَنَاتٍ بغير عِلْمٍ » أى كذبوا له ، والتخريق : هو الكذب ، وفى قوله تعالى : « هَلْ تُحِسُّ مِنْهُمْ مِنْ أَحَدٍ أَوْ تَسْمَعُ لَهُمْ رِكْزاً » أن الركز : هو الصوت الخفى والله أعلم أن المعنى هل ترى منهم من أحدٍ ، أو تسمع لهم صوتا .

وسئل أبو سعيد (رحمه الله) عن قوله تعالى: فأُولئِكَ يُبَدِّلُ اللهُ سَيِّئَاتِهِم حَسَنَات » كيف هذا التبديل ؟

قال : إنه يبدل مكان السيئات حسنات مطلقا ، ويروى عن عمر

---

(١) هو بفتح الغين هـ .

ابن الخطاب (رحمه الله) أنه قال : أنا أكثر حسنات من أبى بكر (رضى الله عنه) ؛ لأنى أكثر منه سيئات ، وقال بعضهم : إنه يبدله بعد العصيان التوبة ؛ فينقله من السيئات إلى الحسنات .

وقيل فى قوله تعالى : « حتى إِذَا بلَغَ أَشُدَّهُ ، وَبلَغ أَرْبَعِينَ سَنَةً » فأشده : ثلاث وثلاثون ، واستوى : أربعون سنة ، « وَجَاءَكم النَّذِير » هو الشيب ، أو لم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر ، وجاءكم النذير ستون سنة ، وقيل : غير هذا .

وفى قوله تعالى : « ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الَّذِينَ اصْطَفَيْنا مِنْ عِبَادِنَا فمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِه ، وَمِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ ، ومِنْهُم سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ » فالظالم لنفسه : هو الذى يرتكب الذنوب ، والمعاصى ، ويتوب ، ويطلب المعاش من أمور الدنيا ، ومن وجوه الحلال .

والمقتصد: الذى لا يأتى شيئا من المعاصى إلا أنه يتعرض بالشىء من الدنيا لمعاشه ، والسابقون بالخيرات : الزهاد ، والعبّاد المنقطعون إلى الله الذين لا يتعرضون بشىء من المعاش من أمور الدنيا .

والأحبار : هم العلماء ، والربانيون : هم فوق الأحبار فى العلم ، وهو اسم للعلماء .

وقوله تعالى: « يُؤْمِنُونَ بِالْجِبْتِ وَالطَّاغُوتِ » فالجبت: حيى بن أخطب، والطاغوت : كعب بن الأشرف ، وقيل : الجبت ـ كل معبود من دون الله ، وقيل : إن الجبت: السحر ، والطواغيت : الشياطين وقيل : الطاغوت : أصنام، والطواغيت من الجن ، والإنس : شياطينهم ، ويكون واحدا وجمعا .

وقال أبو المؤثر (رحمه الله) فى قوله تعالى : « وَالضُّحَى واللَّيْلِ إِذَا سَجَى » أى سكن .

فصل :

واختلف الناس فى تأويل أوائل السور مثل : الم ، المص ، والمر ، والر ، وحم ، حمعسق ، ونحو هذا .

فقال قوم : هى أسماء للسور ، وافتتاح لها ، وقال قوم : أسماء للسور ، وابتداء لمن يقرأها .

وقال قوم : ليس كذلك ؛ لأن القرآن ليس فيه شىء لامعنى له ، وهذه الأسماء لمعان .

وقال بعضهم : إنها حروف، وإذا وصلت كانت هجاء لشىء يعرف معناه .

ويروى عن عكرمة أنه قال : الم قسم .

وعندى ـ والله أعلم ـ وعلى نحو ما سمعت : أن لهذه الحروف معانى تبدأ بها السور ، ويعلم بها : انقضاء ماقبلها ، وأن القارئ قد أخذ فى قراءة سورة أخرى ، وهذا معروف فى كلام العرب ، وأن الرجل منهم ينشد فيقول :

بل وبلدةٍ :

يقول :

بـــلْ ماهاجَ أحزانا وشجاً ماقـــد شُجى

[فيقول : بل] وقوله : بل ـ ليس من الشعر ولكن أراد أن يُعلم أنه قد قطع كلامه ، وأخذ فى غيره ، وأنه مبتدع للكلام الذى قد أخذ فيه .

وقال قوم : كانت العرب تُعرض عند قراءة رسول الله (صلى الله عليه وسلم) استقلالا له ؛ فجملت هذه الحروف عند أوائل السور ، لتكون سببا لاستماعهم لما بعدها ؛ ليستغربوها ، وتتعلق أنفسهم بها ، وإذا كان هذا فى اللغة التى خوطب العرب عليها : جاز تأويلها . والله اعلم .

وقال قوم : كانت الحروف المقطعة يجوز أن يكون الله تبارك وتعالى أقسم بها كلها ، فاقتصر على ذكر بعضها عن ذكر جميعها ، فقال : ألم ، ولم يرد جميع الحروف المقطعة : كما يقول القائل : تعلمت العرب ألف با تا ثا ، وهو يريد تعلمت جميع الحروف . لا هذه الحروف الأربعة وحدها ، ولكنه لما طال أن يذكرها كلها ـ اجتزأ بذكر بعضها ، والله أعلم .

فصل :

فإن قال قائل : ما معنى قول الله ـ « الآنَ خَفَّفَ اللهُ عَنكم ، وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُم ضَعْفاً » . يقول : إنه لم يكن علم قبل ذلك عند ما ألزمهم من الفرض الأول ؟ قيل له : هو عالم بما كان ، وما يكون ، ولا يخفى عليه شىء ولكن لما كان المسلمون أقلاء فى صدر الإسلام : وكانت نياتهم أقوى ـ فرض عليهم الفرض الأول بقوة نياتهم ، ولما كثر الإسلام ، وكان الحرص على قتال العدو ضعيفا ـ خفف الله المحنة عليهم ، وألزمهم هذا الفرض الثانى والله أعلم .

واحتج قوم بأن الله لا ينقل العباد من تخفيف إلى تثقيل بأمره إياهم بقتال المشركين ، بعد أن كانوا بذلك غير متعبدين ، فقال : « إِلَّا تَنفِرُوا يُعَذبكم

عَذَابًا أَلِيمًا » ؛ فقد صاروا بالتخلف عن القتال غير متوعدين ، بعد أن كانوا غير مأمورين .

وقال أبو سعيد (رحمه الله) ، فى قول الله تعالى : « وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُم كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً » وذلك قيل فى الدائن بالضلال يعمل بدين ، ويجتنب بدين ، ويجتهد فى ذلك .

وأما قوله : « أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِى بَحْرٍ لُجِّىٍّ » قيل هذا الذى يرتكب مايدين بتحريمه ، ويتجاهل ، ويعمل المعاصى بغير دين ، والله أعلم بتأويل كتابه .

وقال سعيد بن قريش فى قوله تعالى : « وَجَعَلْنَا مِنَ الْمَاءِ كُلَّ شَىْءٍ حَىٍّ » أنه ماء الذكر الذى جعله الله سببا لتناسل الحيوان .

وفى الأثر بخط أبى سعيد (رحمه الله) فى قول الله تعالى : « وَمَنْ يُوَلِّهِم يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ ، الآية » : فقد قيل : إن ذلك فى الفرار من الزحف فى الحروب ، وقيل إنها نزلت فى يوم أحد ، وقيل إنها ثابتة لم تنسخ إلى يوم القيامة ، وقيل إنها نسخت بقول الله تعالى : « إِنَّ الذين تَوَلَّوا منكم يومَ الْتَقَى الجمعانِ ؛ إِنَّما اسْتَزَلَّهُمُ الشيطانُ بِبعضِ ما كَسَبُوا ، ولقد عَفَا اللهُ عنهم » ، وقيل نزلت فى يوم أحد ، وذلك بعد وقعة بدر ، وقد قيل : إن الأول عام ، وقيل: إنه خاص فى العفو عند التوبة . وهذا أحب إلينا .

وفى قول الله : « مُهْطِعِينَ مُقْنِعِى رُءُوسِهِمْ ، لا يَرْتَدُّ إِلَيْهِمْ طَرْفُهُمْ ، وَأَفْئِدَتُهُمْ هَوَاءٌ » .

فالمهطع : هو المستقلم ، والمقنع : هو المنكس رأسه ، والهواء : هو الخلاء من الشيء ، فقلوبهم خالية من الإيمان بمنزلة الهواء ، لا شيء فيها .

وفى قوله تعالى : « وَلَوْ تَرَى إِذِ الظَّالِمُونَ فِى غَمَرَاتِ الْمَوْتِ وَالْمَلَائِكَةُ بَاسِطُوا أَيْدِيهِم » .

فقيل : إن ذلك عند خروج روح الإنسان .

وفى قوله: « فَاقْرَءُوا مَا تَيَسَّرَ مِنَ الْقُرْآنِ »: أى ذلك عند فاتحة الكتاب فى الصلاة المفروضة ، وقيل : ذلك فى النوافل .

وفى قوله : « يُضِلُّوا عِبَادَكَ ، وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِراً كَفَّارًا » فإن هذا ليس بعام ؛ لأن والد نبينا محمد (ﷺ) كان مشركا .

وقوله : « رَبِّ اغْفِرْ لِى، وَلِوَالِدَىَّ » ؛ فقد قيل : لوالديه ، ولو إلى آدم ، وفى قوله تعالى : « وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيراً » فهذا ومثله يخرج على الخاص من كان والداه مسلمين ؛ ولو كان إلى آدم وحواء .

وقوله تعالى : « وَإِنْ مِنْكُمْ إِلَّا وَارِدُهَا » فقد قيل : إنه يوم القيامة ، وقيل : إن الورود ها هنا النظر .

وفى قوله : « وَعَلَى الْأَعْرَافِ رِجَالٌ، يَعْرِفُونَ كُلًّا بِسِيمَاهُمْ ، فقيل : إن الأعراف جبل بين الجنة والنار .

وفى قوله تعالى : « قَالُوا رَبَّنَا عَجِّلْ لَنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ » ، فقيل : إنه قبل الموت .

وفى قوله : « الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ ، وَالْخَبِيثُونَ لِلْخَبِيثَاتِ ، وَالطَّيِّبَاتُ لِلطَّيِّبِينَ ، وَالطَّيِّبُونَ لِلطَّيِّبَاتِ » ، فقد قيل : إن الطيب من القول للطيب من العباد ، والخبيث من القول للخبيث من العباد ، والله أعلم بتأويل كتابه .

وفى قوله تعالى : « فَإِذَا دَخَلْتُم بُيُوتًا فَسَلِّمُوا عَلَى أَنْفُسِكُمْ تَحِيَّةً مِنْ عِنْدِ اللهِ مُبَارَكَةً طَيِّبَةً » ، فقد قيل : المساجد وغيرها من البيوت .

وفى قوله تعالى : « لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ » إلى آخر القصة ، فأما فى الفتح ، ، وفى النور غير الأكل فيما قيل من الجهاد .

وفى قوله تعالى : « قُلْ نَعَمْ وَأَنْتُمْ دَاخِرُون » ، فقد قيل : صاغرون .
وفى قوله : « إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَال » الآية ، فقد قيل هذا فى العذر عن الهجرة الذين لا يستطيعون حيلة على الخروج من الضعف من البدن ، والمال ، « وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا » أى طريقا .

وفى قوله تعالى : « وَلَيْسَتِ التَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ السَّيِّئَاتِ » إلى آخر القصة ، فقد قيل ذلك العاصى من المقرين ؛ أنه لا تنفعه توبته من بعد أن يعاين ملائكة الموت ، فلا ينفع الكافر إيمان عند الله ؛ إذا لم يكن آمن من قبل فهو كافر ، وقد مات على كفره ، وقد وجدت أنه الإصرار على الذنوب ، كذلك قوله تعالى : « وَلَا الَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ » فقد قيل : إنه من يموت على شركه .

وفى قوله تعالى : « وَلا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمْ . . . » ، فقد قيل : إن ذلك فى النساء والصبيان ، لا يملكون ما يكون به العون على الطاعة ، من الأموال فيبذرونها ، ويتلفونها فيكون ذلك ضياعاً للمال .

وفى قوله تعالى : « وَأَنَّ هٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً ، فَاتَّبِعُوهُ ، وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ » ؛ فقد قيل : إنه دين الإسلام ، وهو صراط الله المستقيم ، والسبل : غيره هى أديان الضلال من اليهودية ، والنصرانيـــة ، وغير ذلك من أديان الضلال .

وفى قوله : « إِنَّ الْحَسَنَاتِ يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ » ؛ فقد قيل : ما بين الصلاتين المفروضتين ؛ إذا أداهما العبد ؛ فهو كفارة لما بينهما من السيئات دون الكبائر ، والإصرار على الصغائر ، وقد قيل : إن الحسنات هى التوبة ، والسيئات هى المعاصى ، والتوبة تذهب المعصية ، وكل ذلك يخرج على تأويل الحق .

وقوله تعالى : « هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهُمُ الْمَلَائِكَةُ » أنهم الملائكة الذين يقبضون أرواحهم ، « أَوْ يَأْتِيَ رَبُّكَ » يعنى : أمر ربك ، « أَوْ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ » قيل : خروج الدابة ، وطلوع الشمس من المغرب . « يومَ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّك ؛ لا ينفع نفساً إيمانُها ، لم تكن آمنت من قبل » وهى المشركة التى لم تؤمن بالله ، أو كسبت فى إيمانها خيراً ، وهى المصرة على الذنوب .

وفى قوله تعالى : « وَلا يَرْهَقُ وُجُوهَهُمْ قَتَرٌ وَلا ذِلَّةٌ » ، أى : ولا يغشاهم

كسوف ، ولا كآبة ، وكذلك فى قوله : « تَرْهَقُهَا قَتَرَةٌ » أى : يغشاها كسوف .

وفى قوله تعالى : « وَالرُّجْزَ فَاهْجُرْ » قيل : هو الشيطان ، وقيل : هو المشرك .

وقوله « أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ ... » قيل: أحكمت بالحلال والحرام، والأمر والنهى ، وفصلت بالوعد والوعيد .

وسئل أبو سعيد) رحمه الله) عن قول الله تعالى: « وَلَوْ تَرَى إِذْ فَزِعُوا، فَلَا فَوْتَ » قال معناه : إذا جاء أمر الله من الموت والهلاك ـ فزعوا منه ؛ فلا يفوتون فى فزعهم أمر الله تبارك ، وتعالى ، والهلاك ، قيل له : فقوله تعالى: « وَقَالُوا آمَنَّا بِهِ » أهو عند الموت ؟ يقولون : إنهم آمنوا بالله ورسوله ؟ قال : هكذا عندى ؛ إذا جاءهم أمر الله ـ آمنوا ؛ هو عند الموت يقولون : إنهم آمنوا بالله ، وبرسوله قال : هكذا عندى ؛ إذا جاءهم أمر الله آمنوا بالذى كانوا يكفرون به ؛ مما دعوا إليه ، وندبوا له .

فقيل له : فقوله : « وَأَنَّى لَهُمُ التَّنَاوُشُ مِنْ مَكَانٍ بَعِيدٍ » فقيل : إن التناوش ، هو التناول ، والتعاطى . وفى كلام العرب: تناوشه ؛ إذا تعاطاه، ولا يناله ، أو يناله على التعاطى له ، والمعنى : وأنى لهم التناوش من مكان بعيد، أى : كيف لهم ؟ ، أو متى لهم البلوغ إلى الإيمان ، وقد كفروا بالتوبة ، وأصروا على الذنب .

قيل له : وقوله تعالى : « وَحِيلَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ مَا يَشْتَهُونَ » : ما كانت شهواتهم فى حين ذلك ؟ قال : يشتهون التوبة أن ينالوها .

وسئل عن قوله تعالى : « مَا كَانَ مُحَمَّدٌ أَبَا أَحَدٍ مِن رِجَالِكُم ، وَلَـٰكِن رَسُولَ اللهِ وَخَاتَمَ النَّبِيِّينَ » قال : قد قيل : إن زيد بن حارثة كانت منزلته من رسول الله منزلة الولد من الوالد ؛ حتى إنه كان يسمى ابنه ، وطلق زوجته زينب كرامة لرسول الله (ﷺ) ؛ فتزوجها ، فتكلم اليهود ، وأهل النفاق ، وقالوا إن محمداً يحرم زوجة الابن ، وهو يأخذها ، فنفى الله ذلك عنه ، وقال : « ما كانَ محمدٌ أبا أحَدٍ مِن رِجالِكم » ، « وَحَلائِلُ أَبْنائِكُم الذين مِن أصْلابكم » ، وقال : « وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُم اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهاتِكُم ، وَما جَعَلَ أَدْعِياءَكُم أَبْناءَكُم ذَٰلِكَ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُم ، وَاللهُ يَقُولُ الْحَقَّ ، وَهُوَ يَهْدِى السَّبِيل » .

وقال أبو عبد الله فى قول الله تعالى: « وَما كانَ لِمُؤْمِنٍ أَنْ يَقْتُلَ مُؤْمِناً إِلَّا خَطَأً » المعنى: إلا أن يبتلى بقتله خطأ فعليه ، قال الله : « وَلا إِثْمَ عَلَيه » ، ولم يجعل الله له أن يقتله خطأ ، وقال : « فإِن كانَ مِن قَوْمٍ عَدُوٍّ لكم وَهُوَ مُؤْمِنٌ : فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ » قال : هو أن يكون رجل مؤمن يقتل رجلا مؤمنا خطأ ، وورثة المقتول من أهل الحرب ، فلا يلزم إلا تحرير رقبة كما قال الله تعالى .

وقيل : إن المهيمن : هو المؤتمن ، والشرعة : السنة ، والمنهاج : السبيل .

وقوله تعالى : « يَأْتِى اللهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُم ، وَيُحِبُّونَه » قيل : ناس من أهل اليمن .

وقال أبو سعيد (رحمه الله) « لا يَرْقُبون فى مؤمن إلًّا ، ولا ذِمَّةً » أى : عهدا ، ولا جوارا ، ولا قرابة ، وأما قوله تعالى : « لا أيمانَ لهم » من وجه الحلف ، والمعاهدة ، لا من جهة الإيمان بالدين ، والإيمان بالله ، وأما قوله تعالى : « لَأَعْنَتَكُم » لضيق عليكم فى أمر اليمانى ، فتأثمون .

وقال أبو سعيد (رحمه الله) سمعت أنه قيل : أول ما أرسل به رسول الله (ﷺ) قوله تعالى : « يا أَيُّها المُدَّثِّر . قُمْ فَأَنْذِرْ . وَرَبَّكَ فَكَبِّر » والمدثر : هو النائم ، « وثيابَكَ فطهِّرْ » قيل كانت ثيابه نجسة ، فأمر بطهارتها ، وقيل : أراد بالثياب : القلب ، « والرُّجْزَ فاهجُرْ » الشيطان ، وقيل الشرك .

وقال أبو سعيد (رحمه الله) فى قوله تعالى : « الشَّيطانُ يَعِدُكُم الفقْرَ ، ويأمرُكم بالفحشاء ، والله يَعدُكم مغفرةً منه ، وفَضْلا » : أن الفضل هاهنا الغنى فى الدنيا ، والمغفرة فى الآخرة ، وقال فى قوله تعالى : « إن شانِئكَ هُوَ الأَبْتَر »[1] : أى أبتر من خير الدنيا والآخرة ، وسئل عن قوله : « طه » قال : أحسب أن بعضا يقول : يعنى بها النبى (ﷺ) يارجل ؛ ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ، وبعض يقول : طه — مكة . وقال فى قوله : « رقيب عتيد » أى شهيد حفيظ .

---

(١) الشانئ : المبغض ، والأبتر : المقطوع . م .

واعلم أن كل موضع من كتاب الله تعالى «ذلك» فبمعنى هذا، وكل موضع فيه « كل ذلك » فهو هكذا . وكل موضع فيه « أولئك » فهو هؤلاء .

وقال الله تعالى : « وإنَّ مِنَ الْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الْأَنْهَار » ؛ فاللام من لمّا – صلة ، والمعنى فيه « ما يتفجر ، وأن منها لما يهبط من خشية الله » اللام فى لما صلة أيضا ؛ وقوله تعالى : « وَيَقُولون سُبْحَان رَبِّنا ؛ إنْ كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولًا » يعنى : لقد كان ، وكذلك بمعنى إن كادوا .

وعن أبى سعيد (رحمه الله) فى قوله تعالى : « لِإِيلَافِ قُرَيْشٍ إِيلَافِهِم » الآية . قال : أمرهم الله أن يتألفوا على طاعته ، وعبادته ؛ كما يتألفون لرحلتهم فى الشتاء ، والصيف ، لأنهم كانوا يمتارونها من الشام ، ويرحلون للشتاء رحلة، وللصيف رحلة ، وقال : بعض هذا قسم أقسم الله به .

وقال أبو سعيد (رحمه الله) : يروى أنه لما كان من أمر موسى، والخضر (عليهما السلام) ، وأرادا الافتراق – نزل عليهما طير من السماء إلى البحر ، فأخذ بمنقاره من البحر ، فقال الخضر لموسى (عليهما السلام) : أتعرف هذا الطير ؟ وما يراد به ؟ قال موسى : لا أعرف ذلك . قال : هذا أرسل إلينا ؛ ليعرفنا أن جميع علم خلق الله من أهل الأرض وغيرهم مثل ما احتمل منقاره من البحر ، ولا يبلغ ذلك .

وقال أبو سعيد (رحمه الله) فى قوله تعالى: « كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً »: قيل : على معرفة الله تبارك وتعالى، وقيل: على الشرك، وفى قوله تبارك وتعالى:

« فِطْرَةَ اللهِ الَّتِى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا » قال : فطرهم على معرفته تبارك وتعالى ، وقول الله تبارك وتعالى: « لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِى بَنَوْا رِيبَةً فِى قُلُوبِهِمْ ؛ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ » معناه : تقطع فى نار جهنم .

وقال أبو سعيد (رحمه الله) فى قول الله:« والَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ»: أن الجهد (بضم الجيم) : هو من عرض المال،والملك ، والجَهْد:(بفتح الجيم) : طاقة النفس .

وقال الله تعالى : « لَا يُحِبُّ اللهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَنْ ظُلِمَ»: قال : لايحب الله الابتداء بالسوء من القول إلا من ظلم؛ فله أن يكافىء، كما قال: « وَلَمَنِ انْتَصَرَ بعد ظُلْمِهِ ، فأُولئكَ ما عليهم مِن سبيلٍ » ، وقال بعضهم : لايحب الله أن يجهر أحد بالسوء ، ولا من ظلم يقول : ومن ظلم لايتعدى إلا فى هذا الموضع؛ ألا ترى إلى قوله: « لِئَلَّا يكونَ للناسِ عليكم حُجَّةٌ ؛ إلا الذين ظَلَمُوا منهم » يقول والذين ظلموا منهم[1]، ويؤكد هذا قوله: « وأَنْ تَجْمَعُوا بَيْنَ الْأُخْتَيْنِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ » يقول : وما سلف فرقوا بينهم ، وفى قول الله تعالى : « خَلَقَ السَّمٰوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا » قول : بعمد، وقول : بعمد لاترونها .

---

(١) قال المزنى : تكون إلا بمعنى الواو ، وبها فسروا قوله (صلى الله عليه وسلم) : « كل ابن آدم تأكله الأرض إلا عجب الذنب ؛ فإنه منه خلق ومنه يركب » ، وقد أثبت هذا المعنى الفراء ، والأخفش ، فقالوا ترد « إلا » بمعنى الواو اهـ م .

وقال أبو سعيد (رحمه الله) فى قول الله : « فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ أُولَاهُمَا بَعَثْنَا عَلَيْكُمْ عِبَادًا لَنَا أُولِي بَأْسٍ شَدِيدٍ » أنه بعث عليكم أهل الشرك من الروم ، فأحرقوا ، وقتلوا ، وقوله : « فَجَاسُوا خِلَالَ الدِّيَارِ » أى : دخلوا .

وقال محبوب (رحمه الله) فى قول الله « لَوْلَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ؛ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا » : أنها نزلت فى أبى أيوب الأنصارى (رحمه الله) إذ قالت له امرأته : ألا تسمع ـ يا أبا أيوب ـ ما يقول الناس فى عائشة ؟ فقال لها أبو أيوب : أو كنت فاعلة ذلك ؟ فقالت : لا . والله ، فقال لها : فعائشة خير منك ، أو قال : سبحان الله ؛ هذا بهتان عظيم .

وقال أبو سعيد (رحمه الله): لا أعلم فى القرآن ـ وكم أهلكنا من قبلهم ـ إلا فى سورة الأنعام ، وص ، ولا يهمز فى القرآن إلا ألف أو ياء ، أو واو .

فصل :

قال الله تعالى : « وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا » هم المؤمنون إذا دخلوا جناتهم صاروا على طول أبيهم آدم (ﷺ) ستين ذراعا ، وعلى سن عيسى ثلاث وثلاثين ، وعلى لسان محمد (ﷺ) وعليهم أجمعين ـ بالعربية ، وعلى صورة يوسف فى الحسن ، والجمال ، وعلى قلب أيوب فى السلامة من الغل ثم تعلو وجوههم على قدر أعمالهم .

ويقول : « وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِمْ مِنْ غِلٍّ إِخْوَانًا » من السيئ ، والسخط

والظن ، وأشباه [ذلك] الذى يكون فى قلوب بنى آدم بعضهم لبعض ، وأما : « إخوانا » فهم المؤمنون ، والمؤمنات الذين ذكر الله بعضهم أولياء بعض .

وفى قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اجْتَنِبُوا كَثِيراً مِنَ الظَّنِّ ؛ إِنَّ بَعْضَ الظَّنِّ إِثْمٌ » ، فزعم بعض الفقهاء أن الرجل يسمع من أخيه كلاما لا يريده به ، فيدخل مدخلا لا يريد سوءا فيرميه أخوه المسلم ، فيظن به سوءا ، فإن لم يتكلم ، ولعله يفعل ؛ فلا بأس به ؛ ولكن هو ذنب ، فإن تكلم به كان آثما ، ثم قال: « وَلَا تَجَسَّسُوا » يقول : لا يبحث الرجل عن عيب أخيه المسلم ؛ فإن ذلك معصية ، ولكن يستر عليه ، ويأمره بالتوبة فى السريرة .

وفى قوله تعالى : « وَجَعَلَنِي مُبَارَكاً ؛ أَيْنَمَا كُنْتُ » أنه سأل ربه أن يجعله معلما .

وفى قوله : « وَكَانَ عَهْدُ اللهِ مَسْئُولًا » أى : مطالبا به ، «...وَلَوْ شَاءَ اللهُ لَأَعْنَتَكُم» أى : لأهلككم ، فى مخاطبتكم ، والعنت : الهلاك .

ومختلف فى المثانى ، فقيل . فاتحة الكتاب مع بسم الله الرحمن الرحيم ، وهو قول : ابن عباس ، وقيل المثانى : القرآن جملة ، وقيل : هو السور القصار .

« حَتَّى إِذَا بَلَغَ أَشُدَّهُ وَاسْتَوَى » أى صار رجلا ، وقال ابن عباس : الأشد ما بين ثلاث عشرة سنة إلى ثلاثين سنة ، ثم هو ما بين الثلاثين إلى الأربعين شدته ، فإذا بلغ الأربعين : أخذ فى النقصان .

وفى قوله : « . . . لِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ » أى : داع إلى الله .

وقوله : « فَأَخَذَهُ اللهُ نَكَالَ الآخِرَةِ وَالأُولَى » .

قال ابن عباس : الأولى قوله : « مَا عَلِمْتُ لكم مِنْ إِلَهٍ غَيْرِى » ، والآخرة قوله : « أنَا رَبُّكُمُ الأَعْلَى » فى قوله : « رَبَّنَا آمَنَّا فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ » .

قال ابن عباس : مع أمة محمد (ﷺ) .

« وَمِنْ وَرَائِهِم بَرْزَخٌ إِلَى يَوْمِ يُبْعَثُون » أى : حذاءهم ، أو قدامهم ، والبرزخ : قيل هو القبر ؛ لأنه بين الدنيا ، والآخرة ، وكل شىء ما بين شيئين فهو : برزخ ، « وَاشْكُرُوا اللهَ إِنْ كُنْتُم إِيَّاهُ تَعْبُدُون » ، والشكر أن تطيع الله بجميع جوارحك .

قوله : « إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا ، ثُمَّ كَفَرُوا ، ثُمَّ آمَنُوا ، ثُمَّ كَفَرُوا ، ثُمَّ ازْدَادُوا كُفْرًا » قيل : نزلت فى اليهود آمنوا بموسى ثم كفروا بعبادتهم العجل ، ثم آمنوا حين رجع إليهم موسى ، ثم كفروا بعيسى ، ثم ازدادوا كفرا برسول الله (ﷺ) .

فصل :

وقيل : من كتب القرآن فى شىء، ثم أحرقه ؛ فليتب إلى الله مما صنع ، والله تعالى أولى به ؛ إن شاء رحمه ، وإن شاء عذبه ، ونهى رسول الله (ﷺ) ؛ أن يمحى كتاب الله بالأقدام . .

فصل :

روى عن وهب بن منبه : أنه قال أنزل الله مائة كتاب ، وأربعة كتب ؛ خمسون صحيفة نزلت على شيث بن آدم (صلوات الله عليه) ، وثلاثون صحيفة على إدريس النبي (ﷺ) ، وعشرون صحيفة نزلت على إبراهيم (صلوات الله عليه) هذه مائة كتاب ، والتوارة على موسى بن عمران (صلوات الله عليه) ، والزبور على دواد (عليه السلام) ، والإنجيل : على عيسى (عليه السلام) ، والقرآن العظيم على نبينا محمد (ﷺ) .

وفضل القرآن على سائر الكتب ، كفضل نبينا محمد (ﷺ) على سائر الأنبياء ، صلوات الله عليهم .

والقرآن نزل بلغة العرب ولغة العرب منها الحقيقة ، والمجاز ، والإطالة ، والايجاز ، والتأكيد والاقتصار ، والحذف ، والتكرار ، والكناية ، والإضمار ، والحكاية ، والإشباع ، والاستعارة ، والإتباع ، والإشمام ، والاشتقاق ، والترخيم ، والإغراء ، والإدغام ، والأضداد ، والمقلوب ، والمنقول ، والإبدال ، والمعدول ، والمعاريض ، والنقص ، والزيادة ، والتقديم والتأخير ، والتعظيم ، والتصغير .

ومخاطبة الواحد بلفظ الاثنين ، والاثنين بلفظ الواحد ، ومخاطبة الغائب بلفظ الشاهد ، وذكر شيء بسببه ، وسببه بذكره .

وكل ذلك : قد جاء به القرآن [الكريم] ؛ لمن تدبره ، وتفهمه ، وذكرنا طرفا من هذا ، وهو مبين فى كتاب : الإبانة .

فصـــل :

وقيل: أول ما نزل من القرآن بمكة: «اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِى خَلَقَ. خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ» . ثم، نُون، وَالْقَلَمِ ثم، المزمل . ثم، المدثر . ثم، تبّتْ . ثم، إذا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ. ثم، سَبِّحِ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى . ثم، أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ. ثم، وَالْعَادِيَات. ثم، والليل. ثم، والفجر. ثم، والضحى. ثم، والعصر. ثم، إنا أعطيناك. ثم. ألهاكم. ثم، أرأيت . ثم، الكافرون. ثم، ألم تر كيف . ثم، الفلق . ثم، الناس. ثم، قل هو الله أحد . ثم ، والنجم . ثم ، عبس . ثم ، إنا أنزلناه . ثم. والشمس وضحاها . ثم، البروج . ثم، والتين . ثم، الإيلاف . ثم، القارعة . ثم، لا أقسم بيوم القيامة . ثم، الهمزة . ثم، والمرسلات. ثم، ق والقرآن . ثم، لا أقسم بهذا البلد . ثم، والطارق . ثم، اقتربت . ثم، ص . ثم، المص . ثم، قل أوحى إلى . ثم، يس . ثم، الفرقان . ثم، فاطر . ثم، كهيعص . ثم، طه . ثم، الواقعة . ثم، الشعراء . ثم، النمل . ثم، القصص . ثم، سبحان . ثم، يونس . ثم، هود . ثم، يوسف . ثم، الرعد. ثم، الأنفال . ثم، والصّافات . ثم، لقمان . ثم، سبأ . ثم، تنزيل . ثم، حم المؤمن . ثم، حم السجدة. ثم، حم عسق. ثم، الزّخرف. ثم، الدّخان. ثم، الجاثية. ثم، الأحقاف. ثم، الذاريات . ثم، الغاشية . ثم، الكهف . ثم، النحل . ثم، نوح . ثم، إبراهيم. ثم، الأنبياء . ثم، المؤمنون ثم، تنزيل السجدة. ثم، والطور . ثم، تبارك الذى . ثم ، الحاقة . ثم ، سأل . ثم ، عم . ثم ، المطففين . فجميع ما أنزل الله بمكة : خمس وثمانون سورة .

وأما الذى أنزل بالمدينة :

فالبقرة . وآل عمران . والأحزاب . ثم الممتحنة . ثم النساء . ثم إذا زلزلت . ثم الحديد . ثم الذين كفروا . ثم الحجر . ثم الرحمن . ثم هل أتى على الإنسان . ثم الطلاق . ثم لم يكن . ثم الحشر . ثم الفتح . ثم النور . ثم الحج . ثم المنافقون ثم المجادلة . ثم الحجرات ثم التحريم . ثم الجمعة . ثم التغابن . ثم الصف . ثم الحواريون . ثم إنا فتحنا لك . ثم المائدة . ثم التوبة . وهى آخر ما نزل من القرآن . وآخر ما نزل [من القرآن] : لَقَدْ جاءكُم رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُم عَزِيزٌ عَلَيه ما عَنِتم حَرِيصٌ عَلَيكُم . إلى تمام السورة .

وقيل : آخر ما نزل من القرآن : [نزل] يوم الجمعة ، والناس وقوف بعرفات ، رافعوا أيديهم بالدعاء : « الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُم دِينَكُمْ » الآية .

ولم ينزل بعدها : حلال ، ولا حرام ، ولا حكم ، ولا حدود ، ولا فريضة : إلا قوله : « يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللهُ يُفْتِيكُم فِي الْكَلَالَةِ » .

وعاش النبى بعد ذلك ؛ إحدى وثمانين ليلة ، ثم توفى يوم الاثنين لليلتين خلتا من شهر ربيع الأول . وفاتحة الكتاب ـ قيل : إنها مدنية ، وقيل : آخر ما نزل من القرآن ـ « واتَّقُوا يَوْماً تُرْجَعُونَ فيه إلى اللهِ » .

وقيل « قل ما فى القرآن [من] أَيُّهَا النَّاس » فإنه نزل بمكة وكل ما كان [فيه من] : يأيها الَّذِين آمَنُوا ـ فإنه نزل بالمدينة ، وكل ما كان فى القرآن [من] : وأَخَذَ الَّذِين ظَلَمُوا الصَّيْحةُ ـ يراد به صيحة جبرائيل (عليه السلام)

وما كان [فيه] من الأمثال ، والقرون ـ نزل بمكة ، وما كان من الحدود ، والفرائض ـ نزل بالمدينة .

وكل شيء ضربت فيه الأمثال ، وذكرت فيه الأمم ، والقرون ، والأنبياء : فهو ما نزل بمكة ، وكل شيء من الفروض ، والحدود ، والجهاد فهو ما نزل بالمدينة ، وكل ما كان فى القرآن من ذكر الرجفة : فهو فى دارهم ، وما كان من ذكر الصيحة : فهو فى ديارهم .

فصـــل :

واختلف فى معنى التأويل : فقال قوم : هو التفسير بعينه ، وقال قوم : هو غير التفسير ، وقال قوم : التأويل والتفسير كله سواء : وهو معرفة الحقائق ، والحقيقة ، والعاقبة .

وقيل : التفسير : ما ترويه العامة عن التفسير ، وقالوا : هذا تفسير القرآن ، ولم يقولوا تأويل القرآن . ، وإنما التأويل معان غامضة لطيفة ؛ لا يعلمها إلا العلماء المتقنون .

وقال : تأويل كل شيء : ما يبدو فى آخره ، وما يكون من عواقبه ، وقيل : التأويل : هو أثر الشيء ومنتهاه ، وهو تفسير الشيء الذى يراد به ما يصير إليه أمره ، وتأويل الرؤيا ، من ذلك ، وهو فى الأعمال ـ العقوبات ، وهو آخر أمرها : والأصل واحد .

وقال مجاهد ؛ فى قوله تعالى : « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا تَأْوِيلَهُ » . أى : هل ينظرون إلا بيانه، ومعانيه ؟ وقيل : آخر أمره، ومنتهاه - يقال : تأول تأولا ، وآل يؤول أوْلا ؛ إذا انتهى ، وفى قوله : « نَبِّئْنَا بِتَأْوِيلِهِ » : أى به . وقال أبو عبيدة : تأويل الرؤيا - هو الشىء الذى يؤول إليه .

فصل :

وقيل : عدد سور القرآن - مائة سورة ، وأربع عشرة سورة ، وعدد آياته : ست آلاف آية ، ومئتا آية ، وسبع وعشرون آية .

و [عدد] كلماته : تسعون ألف كلمة ، وستمائة وأربع وعشرون كلمة .

و [عدد] حروف القرآن : ألف ألف حرف ، وسبعة وعشرون ألفا .

فمن قرأه صابرا محتسبا - كان له بكل حرف زوجة من الحور العين، هكذا : روى عن عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) عن النبى (ﷺ) .

وفى رواية : إن عدد حروف القرآن ثلاثمائة ألف حرف ، وخمسة ، وعشرون ألف حرف ، وثلاثمائة ، وخمسة وعشرون ، وأربعون حرفا .

وفصل :

روى عن النبى (ﷺ) أنه قال : « أعربوا القرآن ، والتمسوا إعرابه » ، وعن عبد الله قال : اذكروا القرآن ؛ إذا اختلفتم فى التذكير ، والتأنيث ، فإن القرآن مذكر .

وقال ابن مسعود (رضى الله عنه) . سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : « إن حُسْن الصوت زينة القرآن » .

وقال أنس بن مالك : ما بعث الله نبيًّا إلا حسن الوجه ، حسن الصوت ، وكان نبيكم (ﷺ) : حسن الوجه ، حسن الصوت ؛ غير أنه لا يرجّع فى قراءته .

وعن أم سلمة قالت : كان النبى (ﷺ) يقطع قراءته حرفًا حرفًا ، وقالت عائشة : كان رسول الله (ﷺ) : يرتل قراءته ، آية ، آية .

وقال رسول الله (ﷺ) : « من قرأ القرآن طاهراً ؛ حتى يختمه غرس الله له شجرة فى الجنة ؛ لو أن غرابا فرخ فى ورقة منها ، ثم نهض يطير ؛ لأدركه الهرم قبل أن يقطع تلك الورقة من الشجرة » . وقيل: إن عمر الغراب ألف عام.

وقال أبو عبد الله : « من كان يقرأ فى المصحف ، فانتقض وضوؤه ، فأطبقه فلا بأس ، وإن أطبقه له غيره ، ممن هو على وضوئه ؛ فهو أحسن، وقال المفضل: لا بأس على من يقرأ القرآن ، ما لم يتغوط ، أو يكون جنبا .

ولا يتكلم القارئ حتى يفرغ من قراءته ، ولا يضحك عند قراءته ، ولا يلغو ، ولا يلهو ؛ فيكون من المستهزئين بكتاب الله تعالى، ومن قعد فى ماء يستره إلى حلقه ، ولا ثوب عليه ـ فلا بأس عليه أن يقرأ القرآن ، وهو كذلك .

فصل :

والقرآن حجة على من تلى عليه ، ولو كان التالى له صبيًّا ، أو ذميًّا ، إلا أن الشيخ أبا محمد (رحمه الله) قال : . . . حتى يسمع ثلاث آيات على قول ، وعلى قول ؛ إذا كانت منتظمة بنظم يخرج من كلام الناس من الآيات المنتظمات مثل قوله تعالى : « أَقِمِ الصَّلاةَ لِدُلُوكِ الشَّمْسِ إِلَى غَسَقِ اللَّيْلِ ، وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا » ، وأما قوله تعالى : « يا أَيُّها الذِينَ آمَنُوا أَقِيمُوا الصَّلاةَ » فلا يكون حجة .

وروى عن النبى (ﷺ) أنه كان يردد الآية من القرآن مرارا ، قال الله تعالى : « لِيَدَّبَّرُوا آياتِهِ ، وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبابِ » ، ولم يقل : ليقرأوا آياته ، وقراءة النبى (ﷺ) مرة واحدة مجزية من إعادة ذكرها حالا بعد حال ؛ بل قد ذم من يمر بالآيات ، ولا يتدبرها ، ويرى المعجزات ، ولا يتأملها ، قال الله تعالى : « وَكَأَيِّنْ مِنْ آيَةٍ فى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ : يَمُرُّونَ عَلَيْها ، وَهُمْ عَنْها مُعْرِضُونَ » .

وروى ابن عباس (رضى الله عنه) أن النبى (ﷺ) قال : « من بلغه هذا القرآن ؛ فكأنما شافهته به ، ثم قرأ : « وَأُوحِيَ إِلَيَّ بهذا القُرْآن ، لِأُنذِرَكُم بِهِ » ، ومن بلغه هذا القرآن ؛ فقد بلغته إنذاره ، وقامت عليه الحجة إلى يوم القيامة . وكان [كل] من تلى عليه كتاب الله ، أو سمعه : علم أنه ليس من كلام المخلوقين ، وأنه معجز ، قال الله تعالى : « أَوَ لَمْ يَكْفِهِمْ أَنَّا أَنْزَلْنا عَلَيْكَ الْكِتابَ ؛ يُتْلَى عَلَيْهِمْ » . وكل آية منه تقوم بها الحجة على

من سمعه ، فمن تلى عليه ؛ فرده بعد سماعه : فإنما هو ملحد متعنت

فالقرآن كتابُ الله جعله الله مهيمناً على الكتب : « لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ » . فمن بلغه القرآن فلا حجة له على الله .

فصل :

وروى[1] عن النبى (ﷺ) أنه قال : تعلموا سورة البقرة ؛ فإن أخذها بركة ، وتركها حسرة ، ولا يستطيعها البطلة ، وقال (ﷺ) : تعلموا الزهراوين . البقرة ، وآل عمران ؛ فإنهما يجيئان يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أو غيايتان[2] ، أو فرقان من طير صواف يحاجان عن صاحبهما[3] .

وقال (ﷺ) : أعظم آية فى القرآن : آية الكرسى ، والذى نفسى بيده؛ إن لها لساناً ، وشفتين ، يقدسان الملك عند ساق العرش .

والبقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنعام ، والأعراف ،

---

(١) رواهما أحمد ومسلم عن أبى أمامة ، بلفظ .. اقرأوا .

(٢) رواه الشيرازى فى الألقاب ، وابن مردويه ، والهروى فى فضائله عن ابن مسعود بلفظ : أعظم آية فى القرآن آية الكرسى ، وأعدل آية فى القرآن ، « إن الله يأمر بالعدل والإحسان » إلى آخرها ، وأخوف آية فى القرآن « فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره » ، وأرجى آية فى القرآن « ياعبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لاتقنطوا من رحمة الله » ا هـ

(٣) من المختار غيابة البئر قعرها مثل الغيابة ، وهى أيضاً كل شىء أظلك فوق رأسك كالسحابة ، والغبرة بالضم ، الظلمة ونحوها وفى الحديث « تجىء البقرة وآل عمران يوم القيامة كأنهما غمامتان ، أو غيايتان .

والأنفال يسمّين السبع الطوال ، وسورة براءة تسمى : الفاضحة ؛ لأنها فاضحة للنافقين بما أطلع الله نبيه على عوراتهم .

وسورة : تبارك الذى بيده الملك : هى المانعة من عذاب القبر ، قال : وهى فى التوراة تسمى المانعة ، وفى الإنجيل تسمى الوافية، فمن قرأها فى كل ليلة ـ كان له من الأجر بلا حساب .

وسمّى « قُل يا أَيُّها الـكَافِرُونَ » ، و « قُل هُوَ اللهُ أَحَدٌ » المقشقشتين أى : المبرئتين من الكفر ، والشرك .

وذكر وهب : أنه وجد فى التوراة سورة الجمعة أطول من سورة البقرة بنحو ألف حرف ؛ وذلك أنها نزلت فى التوراة مفسرة .

« يُسَبِّح لِلهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ ، وَمَا فِي الأَرْضِ » فذكر [أن] كل شىء فى السموات، والأرض؛ فسمّى كل شىء باسمه، ونزلت على النبى (ﷺ) جملة.

وقال ابن عباس : نزل القرآن إلى سماء الدنيا جملة واحدة ، ونزل إلى الأرض نجوما ، ثم قرأ « فَلَا أُقْسِمُ بِمَوَاقِعِ النُّجُومِ ، وإِنَّه لَقَسَمٌ لَوْ تَعْلَمُونَ عَظِيم » .

وقال ابن عباس : إن أبا بكر (رضى الله عنه) قال[1] : « يارسول الله

---

(١) رواه الترمذى والحاكم عن ابن عباس ، ورواه الحاكم عن أبى بكر بن مردويه عن سعيد .

(ﷺ) شِبْتَ ؟ قال : شيبتنى هود ، والواقعة ، والمرسلات ، وعم يتساءلون ؛ وإذا الشمس كورت » ، وفى خبر[1] آخر « شيبتنى هود ، وأخواتها » .

وقال النبى (ﷺ) : « عليكم بالحال المرتحل » قيل : يارسول الله ، ما الحالُ المرتحل ؟ قال : صاحب القرآن يقرؤه حتى يبلغ آخره ، ثم يرجع فيقرؤه من أوله إلى آخره ، فهو كالحال المرتحل .

وقال معاذ بن جبل : فضل القرآن على الكلام كفضل الخالق على المخلوق .

أبو سعيد[2] بن المعلى قال : مرّ بى رسول الله (ﷺ) ، وأنا أصلى فى المسجد فدعانى ، فلم آته ، فلما فرغت أتيته ، فقال : ما منعك أن تأتينى ؟ قال : كنت أصلى ، قال : ألم يقل الله عز وجل : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ ؛ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ » ثم قال : ألا أعلمك أفضل سورة فى القرآن قبل أن تخرج من المسجد؟ قلت : بلى يارسول الله قال: [أبو سعيد]: فلما قام ليخرج ؛ قلت : يارسول الله ، الذى وعدتنى به ؟ قال: الحمد لله رب العالمين ــ هى السبع المثانى، والقرآن العظيم ، وقال النبى (ﷺ) : « أم القرآن كانت مودعة تحت العرش ، لم تعط أحدا من الأنبياء قبلى .

---

(١) رواه الطبرانى عن عقبه بن عامر وعن أبى جحيفه .

(٢) رواه البخارى ، وأبو داود عن أبى سعيد .

فصل :

سمى الله عز وجل القرآن كتابا. قال : « الٓمٓ . ذَٰلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ » معناه هذا القرآن ، والعرب تخاطب الشاهد مخاطبة الغائب ، وتخاطب الغائب مخاطبة الشاهد .

وسمى القرآن قرآنا ؛ لأنه جمع السور بعضها إلى بعض ، قال الله تعالى : « إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَه ، وَقُرْآنَهُ ؛ فَإِذَا قَرَأْنَاهُ فَاتَّبِعْ قُرْآنَهُ » معناه : ألفنا منه شيئا ، وضممناه إليك ؛ فاعمل به ، وخذ به ، ومجاز قوله تعالى : « فإذا قرأتَ القرآن » أى : تلوت بعضه فى إثر بعض ؛ حتى يجتمع ، وينضم بعضه إلى بعض .

وسمى الفرقان فرقانا ؛ لأنه فرق بين الحق والباطل ، بين المؤمن والكافر . وقال ابن عباس: الفرقان المخرج من الشبهات، وسمى الله تعالى: التوراة فرقانا . قال الله تعالى : « وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى ، وَهَارُونَ الْفُرْقَانَ » ، لأن سبيله فى تلك الأمة سبيل القرآن فى هذه الأمة ، ومنه سمى عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) الفاروق ، لتفريقه بين الحق ، والباطل .

ويقال: سمعت فرقان الفرقان فى الفرقان ، فالفرقان الأول: القرآن، والثانى: يجمع فريقا من الناس ، وهو الجماعة ، والثالث : السحرة .

ومن أسماء القرآن : الوحى ، والوحى هو القرآن ، كما يقال له قرآن .

وتنزيل ، ووحى ، وقد قالت الأمة بأجمعها : القرآن كلام الله،ووحيه ، وتنزيله قال الله عز وجل « قُلْ إِنَّمَا أُنْذِرُكُمْ بِالْوَحْىِ » .

ويقال للقرآن تنزيل ، كما يقال له قرآن ، ويقال : هذا فى التنزيل ، أى : فى القرآن وهو مأخوذ من قوله : « اللهُ نَزَّلَ أَحْسَنَ الْحَدِيثِ كِتَابًا مُتَشَابِهًا » وقوله عز وجل : « قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ — وَنَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ — وَنَزَّلْنَاهُ تَنْزِيلًا » ، وهو مشتق من نزل ينزل ، وأصله : الانحدار ؛ قال الله تعالى : « وَيُنَزِّلُ لَكُمْ مِنَ السَّمَاءِ رِزْقًا » .

وسمى الله عز وجل القرآن — قصصا ، قال تعالى : « نَحْنُ نَقُصُّ عَلَيْكَ أَحْسَنَ الْقَصَصِ » ، والقصص فى كلام العرب : هو اتباع الأثر ، قال الله عز وجل : « وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ » أى : اتبعى أثره .

ويقال للقرآن روح ، قال الله تعالى : « وَكَذَلِكَ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ رُوحًا مِنْ أَمْرِنَا » فسماه روحا ؛ لأنه أحيا به الدين والناس. وسماه الله تعالى المثانى .

فقال تعالى : « كِتَابًا مُتَشَابِهًا مَثَانِيَ ، تَقْشَعِرُّ مِنْهُ جُلُودُ الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ » ، وسمى بذلك ؛ لأن القصد الإنباء ، والقصص فيه تثنى ، وتكرر .

ويقال لسورة الحمد : أم الكتاب ، والسبع المثانى ، ويقال للحمد : أم الكتاب ؛ لأنها ابتدئ بها فى أول القرآن ، وتعاد فى كل ركعة ، ويقال لها : الفاتحة ؛ لأنها تفتتح بها المصاحف ؛ فتكتب قبل القرآن .

والسورة : واحدة سور القرآن ، وهى تهمز ، ولا تهمز ، فمن همزها . جعلها من أسأرت ، أى : أفضلت فضلة ، والسورة : القطعة من القرآن على حدة ، ومن لم يهمزها : جعلها من سور البناء ، أى : منزلة بعد منزلة .

وإنما قيل لسور القرآن سور : لأن الله عزوجل فضل بها نبيه (صلى الله عليه وسلم) ؛ فكلما أعطاه سورة ـ زاده رفعة ، وفضيلة ، فالسور فى كلام العرب : هى الرفعة ، والمنزلة ، والفضيلة ؛ فسور القرآن : هى مناقب لرسول الله (صلى الله عليه وسلم) ، وفضائله ، ومنازله الرفيعة .

وقال ابن الأنبارى : فيها أربعة أقوال : أحدها : من ارتفاع منزلة إلى منزلة مثل : سور البناء ، والثانى : شرفها من قولهم : له سورة فى المجد أى : شرف ، وارتفاع ، والثالث : لكرمها من قولهم : عنده سورة من الإبل . أى : أقوام كرام ، والرابع : لأنها قطعة من القرآن على حدة ، وفضيلة . من قولهم : أسأرت منه سؤرا ، أى : أبقيت منه بقية ؛ فيكون أصلها الهمزة ، فتركوه وأبدلوا منه واوا ؛ لانضمام ماقبله .

فصل :

والآية . قال أبوعبيدة : سميت آية ، لأنها كلام متصل إلى انقطاعه ، وانقطاع معناه . قصة ثم قصة قال الله تعالى : « منه آيات محكمات » مجازه : أعلام الكتاب ، وعجائبه ، وآياته فواصله ، وقوله تعالى : « لمن خلفك آية » أى : علامة .

وقيل : آية من كتاب الله أى : جماعة حروف ، كقولهم : خرج بآياتهم أى : بجماعتهم ، وقيل : أصل الآية ـ العلامة التى يعرف بها الشىء ، ويستدل بها عليه ، من قولهم : خرج القوم بآياتهم أى : بجماعتهم .

والأصل فى ذلك : أنهم كانوا ؛ إذا خرجوا لحرب ، أو لأمر حملوا معهم آية ، أى علامة لهم على ذلك ، فقالوا : خرج القوم بآياتهم أى : بعلاماتهم ، فكثر ذلك ؛ حتى قيل لهم ؛ إذا خرجوا مجتمعين ـ وإن لم يكن لهم آية ـ خرجوا بآياتهم ، فصار اسما للجماعة . ، الآية أيضاً : الرسالة ، فكأنها رسالة بعد رسالة ، وإخبار بعد إخبار .

فصـــل :

والكلمة ؛ واحدة الكلم ، والجمع القليل : كلمات ، والفرق بين الكلام ، والكلم : أن الكلام عام لقليل النوع ، وكثيره محصور محدود . ولا يكون كالكلام الذى للنوع كله .

والاسم كلمة ، والفعل كلّمه تكليما ، وكلمة مثل نبقة ، ونبق ، والعرب تقول : مدح فلان فلانا بكلمة طويلة ، أى : قصيدة طويلة .

وقيل : لاتكون الكلمة أقل من حرفين ، وهى على حرفين ناقصة ، وعلى ثلاثة حروف تامة ، فإذا زادت على ثلاثة حروف فهى زائدة .

وجمع الكلم كلمات ، قال الله تعالى : « قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّى » الآية ، وقيل : الأمر لله عز وجل : كلمة ؛ لأنه على حرفين ،

وهو : كُنْ (كاف ونون) ، ولو كان حرفا واحدا ـ لما سمى كلمة ، بل كان يقال له : حرف ، فلما اجتمع حرف ، وحرف قيل له : كلمة .

فصـــل :

وأما الحرف : فهو الحدّ ، وحرف كل شيء حدُّه ، وطرفه الذى هو نهايته ، وجمع حرف حروف ، والحروف هى حدود الكلام ، والكلام مبنى على الحرف .

فمنه كلمة على خمسة أحرف ، وعلى أربعة ، وعلى ثلاثة أحرف ، أو على حرفين ، والحرف الواحد هو انتهاؤها ، فسمّى حرفا بذلك ، وقيل سمى حرفا ؛ لأنه عدل به عن صورة عن غيره ؛ فأول الحروف الألف ؛ فإذا قال : باء ـ عدل به عن صورة الألف فى الخط ، وكذلك كل حرف : معدول عن صفة الآخر ، ويقال : انحرف عنه ؛ إذا عدل عنه ، ولكل حرف تفسير ، ووجه ، وأسرار يطول شرحه [ف] ليس هاهنا موضعه .

فصـــل :

القراءة : التلاوة ، فقولك قرأت القرآن ، مجاز تلوت بعضه فى إثر بعض ، حتى يجتمع ، وينضم بعضه إلى بعض ، ومعناه يصير إلى معنى التأليف ، والجمع ، فكأن الذى يقرأ القراءة : معناه : يجمع الآية إلى الآية فى قراءته ، وتلاوته هو الإتباع .

يقال : هو يتلو كتاب الله عز وجل ؛ إذا قرأه ، قال الله تعالى : « وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِم آيَاتُهُ .. » ، وهذا فى مواضع كثيرة من القرآن : أن التلاوة بمعنى

القراءة ، وقيل: التلاوة أخص من القراءة ؛ لأنه يقال : قرأ الكتاب ،[أ] كان الكتاب هو القرآن أم غيره ، ولا يقال : تلا الكتاب لغير القرآن ، والقرآن هو الكتاب المنزل ، وهو الكتاب على الإطلاق .

ويقال للولد : يتلو أباه ، وأمه ، إذا تبعهما ، وكل من يتبع غيره سمى تاليا فكأن الذى يتلو القرآن يجعل القرآن إماما له ، وسابقاً قدامه ، وهو يتلوه أى : يتبعه .

فصـــل :

القرآن كتاب الله لايسمى به غيره من سائر الكتب،وقال النبى (ﷺ): القرآن أصل علم الشريعة نصه ، ودليله ، وقال : من أوتى القرآن . فظن أن أحدا أعطى مثل ما أعطى ؛ فقد صغر ما عظم الله ، وعظم ما صغره الله ، ومن أوتى القرآن ؛ فقد جعلت له النبوة بين كتفيه ؛ لأنه يوحى إليه، وقال : أحق بهذا القرآن قوم عملوا بما فيه ، وإن لم يقرأوه .

وقيل : إذا عمل حامل القرآن المعصية ـ خرج القرآن من جوفه ، وقال : ما على هذا حملتنى ، وقال مالك : القرآن ربيع المؤمنين ؛ كما أن الغيث ربيع الأرض ، وكان يقول : يا حملة القرآن ، ماذا زرع القرآن فى قلوبكم ، وقال : إنما أنزل القرآن؛ ليُعمل به ، فاتخذ الناس تلاوته عملا .

وقال ابن مسعود (رضى الله عنه) : كل مؤدب يحب أن يؤخذ بأدبه ، وأدب الله : هو القرآن ، وقال النبى (ﷺ) : « أوتيت جوامع الكلم ، واختصرت لى الحكمة اختصاراً .. » يعنى القرآن .

فصل[١] :

روى عن النبي (ﷺ) أنه قال : إذا التبست عليكم الأمور كقطع الليل المظلم - فعليكم بالقرآن ؛ فإنه شافع مشفع ، وماحل مصدق ، من جعله إمامه قاده إلى الجنة ، ومن جعله خلفه ساقه إلى النار ، وهو الدليل إلى خير سبيل ، ظاهره حكمة ، وباطنه علم ، ظاهره أنيق ، وباطنه عميق ، له نجوم ، وعلى نجومه نجوم ، لا تفنى عجائبه ، ولا تبلى غرائبه ، فيه منارات الحكمة ، ودلالة على الحجة لمن عرف الصفة ؛ فليولج العاقل نظره ، ويعمق للصفة بصره ، ينجو من عطب ، ويسلم من سبب ، كما يمشى المستيقن فى الظلمات ، لحسن التخليص ، وقلة التربيص.

وفى الحديث : « من اتبع القرآن هجم به يوم القيامة على روضة من رياض الجنة ، ومن تبعه القرآن زج فى قفاه ؛ حتى يقذفه فى النار » ، وفى رواية أخرى : « من نبذ القرآن وراء ظهره زج فى قفاه يوم القيامة » ، والزّج فى اللغة : الدفع ، وكذلك الدع . هو الدفع ، قال الله تعالى : « فَذَٰلِكَ الَّذِى يَدُعُّ الْيَتِيمَ » .

وفى ذكر القرآن أكثر من هذا ، ولا يعلم ذلك إلا الله تعالى ، ولا تحصى الكتب ما فى القرآن من صنوف العلم ، وما يعلم ذلك إلا الله عز وجل ، وهو علام الغيوب .

* * *

---

(١) قال فى المختار محل به إذا سعى به إلى السلطان فهو ما حل ومحول ، وبابه قطع ، وفى الدعاء : ولا تجعله ماحلا مصدقا قال : قلت كان الضمير فى تجعله للقرآن ، فإنه جاء فى الحديث عن ابن مسعود (رضى الله عنه) « إن هذا القرآن شافع مشفع ، ماحل » مصدق جعله يمحل بصاحبه ؛ إذا لم يتبع مافيه ، أى : يسعى به إلى الله تعالى ، وقيل : معناه وخصم مجادل مصدق . اهـ .

القول الثانى والعشرون

فى التوحيد ، والدلالة على معرفة الله عز وجل

التوحيد من طريق اللغة هو معرفة الله تعالى ؛ أنه واحد أحد ، فرد صمد ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد ... ليس له شبيه ، ولا ضد ، ولا ند . عالم سميع بصير حى قيوم لا تأخذه سنة ، ولا نوم ، لا إله إلا هو ، عالم الغيب والشهادة ، هو الرحمن الرحيم ، الملك ، القدوس ، السلام ، المؤمن ، المهيمن ، العزيز ، الجبار ، المتكبر ، سبحان الله عمَّا يشركون ، ليس بجسم ، ولا بعرض ، ولا تحيط به الأقطار ، ولا تراه الأبصار ، وهو الله الواحد القهار ، يوحّد ، ولا يبعض ، يعرّف ، ولا يكيّف ، يحقق ، ولا يمثل ، عالم بما كان ، بما هو كائن وبما لا يكون أن لو كان كيف كان يكون ، تعالى عن التحديد ، فعال لما يريد ، ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير .

فصل :

فيجب على كل عاقل سلم عقله من الآفات ؛ أن يعتقد أن الله سبحانه إله واحد لا شريك له ، متفرد لا ند له ، قديم لا أول له ، مستمر الوجود لا آخر له ؛ ليس بجسم مصور ، ولا بجوهر مقدر ، ولا يماثل الأجسام ، ولا يجزئه الأقسام ، ولا تحله الجواهر والأعراض ، ولا تحويه الأقطار والجهات ، ولا تكتنفه الأرض ولا السماوات ، منزه عن التغيير والانتقال ، والاتصال والانفصال ، حى قادر ، جبار قاهر ، لا يعتريه عجز ولا قصور ، ولا يوهنه لغب ولا فتور ،

ولا تأخذه سنة ولا نوم : له الملك والملكوت ، والعزة والجبروت ، عالم بجميع المعلومات ، محيط بخلقه من تخوم الأرض إلى أعلى السموات ، لا يعزب عنه مثقال ذرة فى الأرض ، ولا فى السماء .

يعلم حركات الخواطر ، وما يختلج فى مكنون الضمائر ، عالم بما كان ، وبما يكون ، من ظاهر ومكنون ، يعلم ذلك بنفسه ، وبذاته ، لا بعلم متجدد قائم بالذات. تعالى عن حلول العوائق والآفات ، وهو تعالى مريد الكائنات ، مدبر الحادثات ، خالق جميع الموجودات ، وأفعالها ، مقدر أرزاقها ، وآجالها ، لا يقع كفر ، ولا إيمان ، ولا نكر ، ولا عرفان ، ولا سهو ، ولا نسيان — إلا بقضائه ، ومشيئته ، وحكمه وإرادته ، لا معقب لحكمه ، ولا راد لقضائه .

لم يزل واحدا حيًّا عالمًا قادراً مريداً فى الأزل لوجود الأشياء فى أوقاتها ؛ التى قدر لها ، فوجدت فى أوقاتها ، كما قدرها من غير تقدم ، ولا تأخر ؛ بل وقعت على وفق علمه ، وإرادته .

وهو سبحانه سميع لا تخفى عليه الأصوات ، بصير لا تغيب عنه الألوان ، لا يعزب عن سمعه مسموع ، وإن خفى ، ولا يغيب عن رؤيته مرئى ، وإن دق ، يرى من غير حدقة ، ولا أجفان ، ويسمع من غير أصمخة ، ولا آذان ، كما يعلم من غير قلب ولا جنان .

وهو تعالى متكلم من غير شفة ولا لسان ، آمر بالطاعة والإحسان ، ناهٍ عن الإساءة والعصيان ، وأعد على طاعته ثواب الخلد والجنان ، متوعد على معصيته عقاباً بين أطباق النيران .

وأنه حكيم فى أفعاله ، عادل فى أحكامه ، متفضل بالإنعام ممتنٌّ بالإحسان، لا يظلم النـاس شيئاً ، ولـكن الناس أنفسهم يظلمون ، لا يسأل عما يفعل ، وهم يسألون . . . .

وأنه تعالى بعث رسوله النبى الأمى محمد بن عبـد الله خاتم النبيين إلى الجن والإنس أجمعين ، فنسخ بشريعته جميع الشرائع المتقـدمة ؛ إلا ما لا ينسخ من التوحيد ، ومكارم الأخلاق المتممة ، نختم به الأنبياء ، وفضله على جميع الأنبياء ، والأولياء ، والأصفياء ، ومنع ـ سبحانه ـ كمال التوحيد : الذى هو لا إله إلا الله ـ ما لم تقترن به الشهادة لرسوله بأنه : محمد رسول الله .

وألزم الخلق تصديقه فى جميع ما قاله وأخبر عنه ، من أن الموت حق ، والبعث حق ، وأن الحساب حق ، وأن الجنة حق ، والنار حق ، وأن لله جملة الأنبياء ، والرسل ، وجملة الملائـكة ، والـكتب ، والإيمان بالقضاء والقدر ، وولاية أولياء الله من الأولين والآخرين ، والعداوة لأعدائه من الجن والإنس أجمعين ، ومعرفة الشرك ، والتوحيد .

وقرر كبائر الشرك من كبائر النفاق ، ومعرفة تحليل دماء المشركين ، وأموالهم ، وسبى ذراريهم ، للشرك الذى معهم ، ومعرفة الملل ، وأحكامها ، واعتقاد العبودية لله سبحانه وتعالى فى جميع أوصافها .

فصـــل :

وينبغى أن يلقن الصبى هذه العقيدة ، فى أول نشأته ، ليحفظها حفظا ، ثم لايزال ينكشف له معناها فى كبره شيئا فشيئا .

فابتداؤه : الحفظ ، ثم الفهم ، ثم الاعتقاد ، ثم الإتقان ، والتصديق بها ، وذلك مما يحصل فى قلب الصبى تقريرها .

ثم لابد من تقويته بتلاوة القرآن ، وتفسيره ، وقراءة الحديث ، وفهم معانيه ، ويشتغل بوظائف العبادات ، ولا يزال اعتقاده يزيد رسوخا ؛ بما يقرع سمعه من أدلة القرآن ، وحججه ، وبما يرد عليه من شواهد الأحاديث ، وفوائدها ، وما يطلع عليه من أنوار العبادات ، ووظائفها ، وبما يسرى إليه من مشاهدة الصالحين ، ومجالستهم .

فيكون أول التلقين ، كإلقاء البذر فى أرض الصدر ، وتكون هذه الأسباب كالسقى والتربية له ؛ حتى ينمو ذلك البذر ، ويقوى ، ويرتفع شجرة طيبة راسخة فى الصدر : أصلها ثابت ، وفرعها فى السماء .

ثم إذا وقع نشوء الصبى على هذه العقيدة مشروحة ، ولم ينفتح له غيرها ، ولم يطلع على اختلاف الناس ؛ حتى يميز بين البدعة وغيرها ، فاستمر على وظائف العبادات ، واجتناب المحرمات ، حتى مات على ذلك ـ فإنه ناج فى الآخرة إن شاء الله تعالى .

إذ لم يكلف الرسول عليه السلام أخلاق أحد من العرب بأكثر من التصديق والجزم بظاهر هذا الاعتقاد، وهو : الإيمان بالله، وبرسوله، وبما جاء به؛ أنه الحق من عند الله .

فصـــل :

وأما البحث، والتفتيش على اختلاف الناس، وتكلف نظم الأدلة لذلك : فلم يكلف بذلك أصلا، وأن سعادة التوفيق فى سلوك طريق الآخرة؛ حتى إذا اشتغل العبد بالعمل، ولازم التقوى، ونهى النفس عن الهوى، واشتغل برياضة النفس، والمجاهدة ـ انفتح له أبواب من الهداية، وانكشف له عن حقائق هذه العقيدة بنور يقذف فى قلبه بسبب المجاهدة، تحقيقا لوعد الله تعالى؛ إذ قال : « وَالَّذِينَ جَاهَـــدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا، وَإِنَّ اللهَ لَمَعَ الْمُحْسِنِينَ » .

فصـــل :

وأما الأدلة على وجود الله تعالى : فيكفى فى ذلك ما أرشد إليه القرآن، وليس بعد بيان الله بيان .

قال الله تعالى : « أَلَمْ نَجْعَلِ الْأَرْضَ مِهَادًا، وَالْجِبَالَ أَوْتَادًا » إلى قوله : « وجَنَّاتٍ أَلْفَافاً » .

وقال سبحانه : « إِنَّ فِي خَلْقِ السَّمٰوَاتِ، وَالْأَرْضِ، وَاخْتِلَافِ اللَّيْلِ وَالنَّهَارِ » إلى قوله : « وَالسَّحَابِ الْمُسَخَّرِ بَيْنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ » الآية .

وقال تعالى : « أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمٰوات طِبَاقاً ، وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا » إلى قوله : « إِخْرَاجاً » ، وقال : « أَفَرَأَيْتُمْ مَا تُمْنُونَ أَأَنْتُمْ تَخْلُقُونَهُ أَمْ نَحْنُ الْخَالِقُونَ » .

فليس يخفى على من له أدنى عقل ، وتمييز ؛ إذا تأمل بفكره مضمون هذه الآيات ، واستدل بنظره على عجائب الأرض والسموات ، وأصناف الحيوان والجماد ، والنبات ، إن هذا الأمر العجيب الذى أحكم غاية الإحكام ، ورتب هذا الترتيب ـ لابد له من صانع يدبره ، وفاعل يحكمه ويقدره . بل تكاد فطرة النفوس تشهد بكونها مقهورة تحت تسخيره ، ومصرفة بمقتضى تدبيره .

ولذلك قال الله تعالى : « أَفِي اللهِ شَكٌّ ! فَاطِرَ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ » الآية . وقال الله تعالى : « فِطْرَةَ اللهِ التى فَطَرَ النَّاسَ عَلَيها ؛ لَاتَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللهِ ؛ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ » فإذاً فى فطرة الإنسان ، وشواهد القرآن ؛ ما يغنى عن إقامة برهان .

ولكنا ـ على سبيل الاستظهار ، والاقتداء بالعلماء النظار ـ نقول : فى انطباق فطرة العقول : إن الحادث لا يستغنى فى حدوثه عن محدث يحدثه ؛ فالعالم بأسره حادث ؛ لأن الحادث لابد له أن يكون مختصا بوقت يجوز فى تقدير تقدمه ، فتؤخره ، واختصاصه بوقت معلوم : يفتقر بالضرورة إلى المخصص .

وأما قولنا : إن العالم حادث ؛ فبرهانه ـ أن أجسام العالم لا تخلو عن الحركة ، والسكون ، وهما حادثان ؛ لأجل تعاقبهما ، ووجود البعض منها عقيب الآخر ؛

وذلك مشاهد فى جميع الأجسام، فما من ساكن إلا والعقل قاض بجواز حركته، وما من متحرك إلا والعقل قاضٍ بجواز سكونه؛ فالطارئ منهما حادث لطروه، والسابق حادث؛ لأنه لو ثبت قدمه؛ لاستحال عدمه.

فلما ثبت أن الأجسام لا تخلو من الأعراض، وإنما تتعاقب على الأجسام، وهو حادث، ومالم يسبق الحادث؛ فهو حادث مثله؛ فإذا ثبت حدوثه — كان افتقاره إلى المحدث من المدركات الضرورية والله أعلم.

فصل:

والدليل على قِدم كون الله كونه قبل الحدث؛ لأن معنى الحدث — مالم يكن ثم كان، ومعنى القديم: ما كان بغير تكوين — فهو الله سبحانه؛ لأنه كان، ولا شيء معه ثم كوّن الأشياء.

فلو لم يكن قديما؛ لكان محدثا مفتقرا إلى محدث يحدثه، وافتقر محدثه إلى محدث، وتسلسل ذلك إلى غير نهاية، وما تسلسل لم يتحصل، وينتهى إلى محدث قديم، وذلك [هو] المطلوب الذى هو صانع الأشياء، وباريها، ومحدثها، وموجدها، والأول، والآخر، والظاهر، والباطن، وهو بكل شيء عليم.

والدليل على أن لا نهاية لوجود الله تعالى، ودوامه — وذلك — أنه لو انعدم؛ لكان لا يخلو: إما أن ينعدم بنفسه، أو ينعدم هو بغيره، فلو جاز أن ينعدم بشيء يتصور دوامه بنفسه لجاز أن يوجَدَ شيء بنفسه، فكما يحتاج حدث الوجود

إلى سبب فكذلك يحتاج حدث العدم إلى سبب ، وباطل أن ينعدم بعدم هو غيره ؛ لأن ذلك المعدم لو كان قديما لما تصور الوجود معه .

وقد ثبت بما قدمناه : أنه قديم لا أول لوجوده ؛ فكيف كان وجوده في العدم وحده ، ومعه ضده ؛ وإن كان الضد المعدم حادثا كان محالا ؛ إذ ليس الحادث بمضادته القديم ؛ حتى يقطع وجوده بأولى من القديم في مضادته الحادث بدفع وجوده ، بل الدفع أهون من القطع ، والقديم أقوى من الحادث ، فثبت أنه لا آخر لوجوده ، ولا نهاية لدوامه ، وبالله التوفيق .

وأما الدليل بأنه ليس بجوهر ، فنجيز أن كل جوهر متحيز ؛ فهو مختص بتحيزه ، ولا يخلو من أن يكون ساكنا فيه ، أو متحركا عنه ، والسكون والحركة حادثان ؛ فما لا يخلو من الحوادث فهو حادث .

ولو تصور جوهر متحيز قديم لكان يعقل قدم جواهر العالم ، وذلك محال فثبت أنه موجود قديم ، وليس بجوهر ، تعالى عن ذلك .

والدليل على أنه تعالى ليس بجسم مؤلف من جواهر ؛ إذ الجسم عبارة عن المؤتلف من الجواهر ، فلما بطل كونه جوهرا مختصا متحيزا ـ بطل كونه جسما ؛ لأن كل جسم لا بدّ أن يكون بتحيز مركب من جوهرين ، فصاعدا ، والجوهر ، والجسم : يستحيل خلوهما عن الحوادث من الافتراق ، والاجتماع ، والحركة ، والسكون ، والهيئات ، والمقدار ، فهذه دلائل الحدث ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيراً .

والدليل على أنه تعالى ليس بعرض قائم فى الجسم ، أو حال فى محل : لأن العرض ؛ هو ما يحل فى الجسم ، أو يعترض فيه من حركة وسكون ؟ فكل جسم حادث ، ومحدثه موجود قبله ، فكيف يكون حالا فى جسم ، وقد كان فى الأزل ، ولا شىء معه موجود ، ثم أحدث الأجسام ، والأعراض ، ويتحصل من هذه الأصول : أنه موجود قائم بنفسه ، ليس بجوهر ، ولا بجسم ، ولا عرض ، وأن العالم كله جوهر ، وأعراض ، وأجسام ، فإذن [هو] لا يشبه شيئاً ، ولا يشبهه شىء ، لاستحالة مماثلة الصانع ، والمصنوع .

والدليل على أن الله تعالى منزه عن الاختصاص بالأمكنة ، والجهات ؛ لأن الجهة : إما فوق ، وإما أسفل ، وإما يمين أو شمال ، أو قدام ، أو خلف ، وهذه الجهات التى هو خلقها ، وأحدثها ، ولو اختص بجهة منها ـ لكان متحيزا محدودا ؛ كاختصاص الجواهر ، والأجسام ، وتحيزها بالأمكنة ، والجهات ، وقد ثبت استحالة كونه جسما ؛ أو جواهر ، فاستحال كونه مختصا بجهة .

فمن زعم أنه مختص بجهة فوقية : قيل له : لو كان فوق العالم بجهة لكان محاذيا له ، وكل محاذٍ بجسم : لا بد أن يكون مثله ، أو أصغر منه ، أو أكبر ، وكل ذلك تقدير يخرج إلى مقدر . تعالى عنه الواحد المدبر .

وأما رفع الأيدى عند السؤال إلى جهة السماء ـ فهو لأنها قبلة للدعاء ، وفيه أيضاً إشارة إلى ما هو وصف للمدعو من الجلال ، والكبرياء ؛ تنبيها

بقصد جهة العلو ، إلى صفة المجد ، والعلاء فإنه تعالى ـ فوق كل موجود بالقهر ، والاستيلاء .

وأما الدليل على أنه تعالى واحد لاشريك له ، فرد لا ندّ له ، انفرد بالخلق ، والإبداع ، وتوحد بالإيجاد ، والاختراع ، لامثيل له يساميه ويساويه ، ولا ضد له فينازعه ، ويناويه ـ [فقد] قال الله تعالى : « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا اللهُ لَفَسَدَتَا » ، وبيانه أنهما لو كانا اثنين ، وأرد أحدهما أمرا ، فالثانى : إن كان مضطرا إلى مساعدته ـ كان مقهورا عاجزا ، ولم يكن إلٰها قادراً [وإن كان قادراً] على مخالفته ، ومدافعته ـ كان الثانى قويا قاهرا ، والأول ضعيفا قاصراً ، فلم يكن إلٰها قادراً .

فمدار هذا الباب على عشرة أصول ، وهو : العلم بوجود الله ، وقدمه ، وبقائه ، وأنه ليس بجوهر ، ولا عرض ، وأنه ليس مختصا بجهة ، ولا مستقرا على مكان ، وأنه مستو على العرش استواء القهر ، والغلبة ، والاستيلاء ، وأنه ليس بمرئى ، وأنه واحدٌ لاشريك له .

فصل :

وأما التوحيد ، والشرك ، ومعناها ، وذلك مما يجب على العبد معرفته ؛ لأنهم قالوا : لايعرف الأشياء من لايعرف حقائقها .

أما التوحيد فمعناه : إفراد الرب ـ سبحانه ـ عن الخلق ، وجميع معانيهم ، وتَرْكُ التسوية بينه ، وبين العباد فى جميع أفعالهم وصفاتهم .

فحقيقة المعرفة به ـ سبحانه ـ أن الأشياء لاتشبهه ، ولا يشبهها من جميع الجهات ، فى اسم ، ولا صفة، ولا ذات ، ولا فعل؛ لأنه لوأشبه شيئا من الأشياء، ولو فى أقل قليل لدخل عليه العجز من تلك الصفة ، فلهذا وجب على المكلف أن يعرف حقيقة الوحدانية لله تعالى و [أن] يصفه بما يليق به من الصفات ، و [أن] ينفى عنه شبه الأشياء ، وجميع الجهات .

وأما الشرك : فمعناه المساواة بين الأشياء فى الأدوات، والصفات ، ومعناه فى الله تعالى هو التسوية بينه ، وبين خلقه فى الذات ، والصفات ، والأفعال . قال الله تعالى : « إذ نُسَوِّيكم بِرَبِّ العالَمِين » الآية أى : فى العبادة ، والتعظيم وإثبات الألوهية .

والشرك على وجهين : جحود ، ومساواة، وشدد أصحابنا فيمن لم يفرق بين كبائر الشرك ، وكبائر النفاق ، والأصل فى التفرق بين ذلك : أن الكاذب على الله منافق ، والمكذب لله مشرك ، والكاذب على الله [هو] الذى يتأول كتابه على غير تأويله ، والمكذب لله [هو] من أنكر الله ـ سبحانه ـ ، أو وجها من وجوه التوحيد الذى لايسع جهله ، أو حرفا من القرآن ، أو فرضا منصوصا فيه ، أو حلل حراما منصوصا تحريمه فى القرآن ، أو حرم حلالا منصوصا فيه .

فصل :

ومما يجب على المكلف : أن يعلم أن الله تعالى أمر بطاعته ، وأوجب عليها

ثوابا ، ونهى عن معصيته ، وأوجب عليها عقابا ، ويعلم الإسلام ، والمسلمين ، والكفر ، والكافرين ، ويعلم تحريم دماء المسلمين ، وأموالهم وسبى ذراريهم بالتوحيد الذى معهم ، ويعلم تحليل ما ذكرنا من المشركين بالشرك الذى معهم ، ويعلم أن الله تعالى ممتن على العباد بتكليفهم طاعته ، وممتن بسائر نعمه عليهم ، ويعلم أن المخلوقات دلائل على معرفة الله سبحانه ، ويخاف من عقاب الله تعالى ، ويطمع فى ثوابه .

وعليه معرفة الولاية ، والبراءة فى الجملة فى حال بلوغه ، وذلك أن يتولى الله ــ سبحانه ــ وأولياءه المسلمين من الثقلين أجمعين من الأولين والآخرين .

فهذا واجب على كل مكلف فى جملة اعتقاده للدين ؛ حتى يقع الغرض فى شخص معين ؛ إذا صح له فيه ما يوجب ولايته أو براءته ؛ لأن الحكم النقلى يشهد أن الأمور ثلاثة: أمر بان لك رشده، فاتبعه، وأمر بان لك غيه، فاجتنبه، وأمر أشكل عليكم ، فكلوه إلى الله .

وعليه أن يعرف الملل ، وأحكامها فى أول حال بلوغه ، وشدد أصحابنا فيمن جهل ذلك ، وسنشرح ذكر الملل فى كتابنا إن شاء الله .

والتوحيد يكون صادرا عن المكلف عن علم محقق ، لا عن جهل ، وعن يقين لا عن شك ، وعن إخلاص لا عن شرك ، ويقْرَنُ بالعمل ، وإلا بطل ، واختل ، وأن يصدر من غير طمع فى الدنيا، والآخرة من أهلها، وأن يبقى عليه حتى يموت غير مبدّل ، ولا مغيّر .

فصل :

قيل : جمل دين الله فى خمسة أشياء : معرفة الله تعالى ، والتوحيد مع أداء الفرائض فى أوقاتها بكمالها ، واجتناب الكبائر ، وولاية أهل الطاعة من المكلفين جميعا ، وفرادى من لدن آدم (عليه السلام) إلى أن يفنى الخلق . هذه جملة دين المسلمين من الأولين ، والآخرين ، وهذه الخصال الخمس فرض على الناس ، [فـ] من ترك خصلة منها فقد كفر .

وينبغى للعبد أن يتوب ، ويرجع إلى ماخرج منه ؛ إن كان وقع منه شك فى التوحيد ، أو رياء فى فريضة ، أو تهاون فى ركوب كبيرة ، ويقول : آمنت أنه لا إله إلا الله وحده لاشريك له ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وأن ماجاء به حق من عند الله تعالى ، وأن من عصى الله ، ورسوله حيا كان أو ميتا ، فمات ، ولم يتب إلى الله تعالى ، فإن الله سيدخله النار خالدا فيها ، وآمنت بكتاب الله تعالى ، وكتبه ورسله ، واليوم الآخر ، والجنة والنار ، [و] بدوامهما لمن دخلهما ، وأن هذا الثواب ، والعقاب بعد البعث .

وأنه ليس للإنسان هناك إلا ماسعى ؛ إن خيرا فخير ، وإن شرا فشر دائم لا يبدل القول لديه ، وما هو بظلام للعبيد ، ووطنت نفسى على أداء كل فريضة فرضها الله على ، أو سيفرضها ، وعلى اجتناب كل ماحرم الله على ، وعلى الكف عن التقدم إلى شىء حرمه الله على ؛ مما هو مشتبه عندى مما يقع الاشتباه فيه .

وعلى أن لا أطيعَ مخلوقا فى شىء من معاصيه أبدا ، وعلى ألا أجحد حق كل ذى حق ، ولا أقر لأحد بباطل ، ولا أتولى عدوًّا لله ، ولا أعادى وليا لله .

وإن كان منى – يوما ، أو ليلة ، أو ساعة – من ليل ، أو نهار تقصير من شىء فى هذه الوظائف ؛ فإنى تائب [لله] من ذلك ، مستغفر لله منه ، موطّن النفس أن لا أعودَ إلى شىء منه أبدا .

فصل :

ومعنى التوحيد : إثبات الوحدانية لله تعالى ، ونفى ماسواه من إله ، أو شريك ، أو ولى ، أو طاغوت ؛ فكل مايعبد ماسوى الله يجب نفيه ، والكفر به ، والتبرى منه ، وقد بين النبى (ﷺ) التوحيد ، وفسره بقوله : « من وحد الله ، وكفر بما يُعبد من دون الله – فقد حرم مالُه ، ودمُه ، وحسابه على الله تعالى ، ونبه الله على ذلك بقوله تعالى : « ذَٰلِكَ بِأَنَّ اللهَ هُوَ الْحَقُّ ، وأَنَّما يَدْعُونَ مِنْ دُونِهِ هُوَ الْبَاطِلُ » ، وقال : « فَذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمُ الْحَقُّ ، فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلَّا الضَّلَالُ » .

ويوجد عن أبى المؤثر (رحمه الله) أنه قال : من عرف أن الله واحد ، ليس كمثله شىء ؛ فقد عرفه تبارك وتعالى . فهذا أقل ما يكون به الإنسان موحدا .

والصحيح أنه لايثبت التوحيد لأحد إلا بإثبات ثلاث كلمات ، وهن :

الإيمان بالله أنه رب ، وبمحمد أنه رسول ، وأن ماجاء به حق من عند الله .

فمن أتى بهذا : فهو موحدٌ ؛ مالم يخطر بباله : أن الله تعالى جسم ، أو ليس

بجسم ، أو محدود ، أو ليس بمحدود ، أو يرى بالأبصار ، أو يدرك بالحواس ، أو غير ذلك ؛ فإذا خطر له هذا ، أو أشباهه ، فقد وقع فى البلية . وعليه أن يعلم أن الله ليس بجسم ، ولا يشبه الأجسام ،والأشياء من الخلق ، وأنه ليس بمحدود ولا يدرك بالحواس ، ولا يقاس بالناس ؛ فإن شك فى شيء من هذا ، أو وصف الله تعالى بغير صفته ـ فهو كافر هالك .

فصل :

ولا يكون العدول فى التوحيد حجة دون العقل ، وهم حجة مع العقل ، فلايجوز التقليد فى جميع الديانات باتفاق الأمة ، وهذا فيما يكون الحق فى واحد ، ومع واحد ، وضاق على الناس خلافه ؛ لأن الله سبحانه ؛ إذا تُعبِّد بشيء من ذلك نصب عليه الدليل .

وقد نهى عز وجل عن التقليد فى ذلك ، وذم من قلد فيه ، كقوله تعالى : « إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ » ، وفى أمثالها من القرآن .

وأما الذى يجوز فيه التقليد للعالم الأمين ، فهو كل مايسع جهله مما تعبد الله عباده ، مالم ينص عليه فى كتاب نصا ظاهرا يدل على مراده ، ولم ينصب عليه دليلا من كتاب ، ولاسنة ، ولا إجماع من الأمة ، ورد الحكم فيه إلى العلماء المستنبطين ؛ ليجتهدوا فى استخراج الحكم به . نحو أروش الجراحات ، ومتعة المطلقات اللاتى لم يفرض لهن الصدقات ؛ إذا وقع الطلاق قبل الدخول بهن وغير ذلك من مسائل الأحكام ، والنوازل، فهذا مما يجوز التقليد فيه من الدين،

وما كان مثله مما كان طريقه طرق السمع ، ويرجع فيه إلى قول أهل العلم ؛ لعدم الدليل على حكمه .

ولا يجوز التقليد عند وجود الدليل من الكتاب ، أو السنة ، أو الأجماع ، أو حجة العقل ؛ لأنه لا معنى للتقليد هناك ؛ لأن حقيقة التقليد : هو قبول القائل بغير دليل ، ولا برهان .

روى أن رجلا خرج سائحا لله تعالى ؛ حتى دخل بيت المقدس ، فوجد رجلا يصلى فى المسجد ، فلما فرغ قال له : السلام عليكم ، ورحمة الله وبركاته ، فرد فقال : السلام على أهل اليقين ، والتسليم ، والإسلام ، اجلس ؛ فلما جلس ، واطمأن ، قال له : أعبد أنت أم حر ؟ فقال : بل حر ، فقال له : من أعتقك ؟ فأطرق المسئول مليا ؛ يفكر فى جوابه ، ثم قال : لا بل عبد فقال : من استعبدك ؟ فقال له المسئول : الله استعبدنى ، وهو معبودى ، والعبادة طاعة الله .

فقال له : أخبرنى عن الله الذى استعبدك ؛ اسم هو أم صفة ، أم فعل ، أم معنى ؟ قال : اسم قال : اسم لمن ؟ قال : لله تعالى ، فقال : فأى الإثنين تعبد ؟ الاسم أم المسمى ؟ ، فانقطع المسئول ، فتحير فى جوابه ، فقال له المصلى :

يا هذا . إنما يعبد الله من يعلم من الله . فأما من لم يعرف الله فإنما يعبد غير الله ، فمن عبد غير الله ، فقد أشرك بالله ثم قال : لا يدرك [الله] بعقد ضمير ، ولا إحاطة تفكير ، وقال . من عبد الله بتوهم القلب فقد أشرك ، ومن عبد الاسم دون المعنى فقد كفر ، ومن عبد الاسم والمعنى فقد أشرك ، ومن

عبد الاسم دون الصفة بالإدراك ، فقد أحال على غائب ، ومن عبد المعنى بحقيقة المعرفة ؛ فقد أصاب ، وهو مؤمن حقا .

فصـــل :

واختلف علماء السلف فى حقيقة التوحيد ، فقال بعضهم : هو أن يعـلم أن قدرة الله تعالى فى الأشياء بلا مزاج ، وصنعه لها بلا علاج ، وعلة كل شىء صنعه ولا علة لصنعه تعـالى ، ومتى تتصور شيئاً فى وهمك فالله بخلافه .

وسئل بعضهم عن التوحيد فقال : هو إفراد الموحَّد بتحقيق وحدانيته ، بأنه الواحد الذى لم يلد ، ولم يولد ، بنفى الأضداد ، والأنداد ؛ بلا تـكييف ، ولا تشبيه ، ولا تصوير ، ولا تمثيل ؛ ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير . ، وقال بعضهم : التوحيد : تلاشى الخلائق عندظهور الحقائق . وقال بعض العلماء: أشرف كلمة فى التوحيد ـ ما قال أبو بـكر الصديق (رضى الله عنه) : من لم يجعل لخلقه سبيلا إلى معرفته ، إلا بالعجز عن معرفته ، فقال : ليس يريد الصديق (رضى الله عنه) : أنه لا يعرف قال : فالعارف عاجز عن معرفته ، والمعرفة موجودة فيه ؛ لأن عند هؤلاء : المعرفة ضرورية ، وهذا كما قال بعضهم :ماعرف الله بالحقيقة سوى الله سبحانه .

وأما أقسام التوحيد : فقد ذكر بعض العلماء أنها على ثلاثة أقسام : فقال : إن الله أوحى إلى داود (عليه السلام) ياداود . تعـلم العلم النافع ، قال : إلهى ، وما العلم النافع ؟ قال : أن تعرف جلالى ، وعظمتى ، وكبريائى ، وكمال قدرتى على كل شىء ؛ فإن هذا هو الذى يقربك إلى .

قال الغزالى : التفسير جوهر نفيس ، وله قشران ، أحدهما : أبعد عن اللب من الآخر ، وقال : وخص اسم التوحيد بالقشر الأول ، وبصيغة الحراسة بالقشر الثانى ، أراد بذلك صيغة الكلام ، وأهملوا اللب بالكلية : قال : فالقشر الأول : هو أن تقول بلسانك : لا إله إلا الله ، فقال هذا يسمى توحيدا مناقضا للتثليث الذى يصرح به النصارى من قولهم : إن الله ثالث ثلاثة ، قال : ولكن هذا التوحيد قد يصدر من المنافق : الذى يخالف سره جهره ، وهذا هو الزنديق .

والقشر الثانى : هو لا يكون إلا فى القلب إنكارا ، ولا مخالفة لمفهوم قول القائل : لا إله إلا الله ؛ فيشتمل ظاهر القلب على اعتقاد ذلك ، والتصديق به ، قال : ، وهو توحيد عوام الخلق من المسلمين ، والمتكلفين الذين هم حراس هذا القشر الذى هو توحيدهم ، وتوحيد عامة الموحدين يحرسونه . عن تشويش المبتدعة ، أراد ينتقضون عليهم بدعتهم ، وخلافهم فى التوحيد بالكلام الذى صنعتهم .

والثالث : لباب الجوهر الذى هو التوحيد ، قال : وذلك لا يفهمه أكثر المتكلمين ؛ فإن فهموه لم يتصفوا به ، وهو أن يرى الإنسان الأمور كلها من الله تعالى رؤية تقطع النفاية عن الوسائط ، والأسباب ، فلا يرى الخير ، أو الشر إلا من الله جل جلاله ، وأن يعبده عبادة أفرده بها ، ولا يعبد معه غيره ، وهذا مقام شريف ، أحد ثمراته : التوكل .

قال : الناظر فيما رُفع عن الغزالى ، أنه وصف من عرف حقيقة التوحيد ـ أن يرى الخير ، والشر من الله ، والله عز وجل لا يوصف إلا بالصفة الحسنة ، ولا ينبغى أن يقال : منه الشر على الإطلاق ، وإنما يقال : هو خالق الخير ، والشر ، خالق أفعال الخير من أهلها ، وخلق أفعال الشر من أهلها ، وأمر بالأعمال الصالحة ، ونهى عن الأعمال القبيحة .

وكذلك : لا يضاف إليه أنه أمرض المرضى ؛ لأن هذه صفة غير حسنة ؛ لقوله تعالى : يحكى عن نبيه ، وخليله إبراهيم (صلوات الله عليه) : « وَهُوَ الَّذِى يُطْعِمُنِى ، وَيَسْقِينِ ، وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ » فأضاف الإطعام والإسقام له ، والشفاء إلى الله جل جلاله ، وأضاف المرض إلى نفسه ، ولو كان المرض قضاه الله على المريض ، لأنه صفة غير حسنة .

وكذلك : مايشبه هذا المعنى ـ قول الناس : أفسد زرعنا المطرُ ، وخربت شجرنا الريح ، ونزهوا الله عن هذه الصفة ، والريح والمطر ، لا يقدران على شىء ، وإنما هى سخرها الله عز وجل ، وبالله التوفيق .

رجع إلى الكتاب .

ومن ثمراته أيضا : ترك الشكاية إلى الخلق ، وترك الغضب عليهم ، والتسليم لحكم الله جل جلاله ، فكان أحد ثمراته ـ قول أبى الدرداء ، لما قيل له فى مرضه : نطلب لك طبيبا ؟ قال : الطبيب أمرضنى .

وقول أبى بكر الصديق (رضى الله عنه) لما مرض : فقيل له : ما قال لك الطبيب ؟ فقال : قال : إنى فعال لما أريد .

قال : ويخرج عن هذا التوحيد: اتباع الهوى؛ فكل متبع هواه ، فقد اتخذ هواه معبوداً له ، قال الله تعالى : « أَرَأَيْتَ مَنِ اتَّخَذَ إِلَٰهَهُ هَوَاهُ » ؟ ، وقال (عليه السلام) : أبغض إله عُبد فى الأرض عند الله : هو الهوى . قال : وعلى التحقيق؛ من تأمل عرف أن عابد الصنم ليس يعبد الصنم ، إنما يعبد هواه؛ إذ نفسه مائلة إلى دين آبائه ، فيتبع ذلك الميل ميلُ النفس إلى المألوف ، [وهو] أحد المعانى التى يعبر عنها الهوى .

قال : ويخرج عن هذا التوحيد ـ السخط عن الخلق ، والالتفات إليهم ؛ فإن من يرى الكل من الله عز وجل ؛ كيف يسخط على غيره ؟ ، فقد كان التوحيد عبارة عن هذا المقام ، وهو من مقامات الصديقين . فانظر إلى ما خول، وبأى قشر قنع ؟ وكيف أجد هذا معتصما بالتمدح ، والتفاخر ، بما هو اسمه محمود مع الإفلاس عن المعنى الذى يستحق الحمد الحقيقى .

قال : وذلك : كإفلاس من يصح نكره ، ويتوجه إلى القبلة ، ويقول : « وَجَّهْتُ وَجْهِيَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَٰوَاتِ وَالْأَرْضَ حَنِيفاً » ، وهو أول الكذب ، يفاتح الله به كل يوم ، وإن لم يكن وجهه قبلته متوجها إلى الله عز وجل . وعلى الخصوص ؛ فإنه أراد بالوجه وجه ظاهر بدنه ، فما وجهه إلا الكعبة ، وما صرفه إلا عن سائر الجهات .

والكعبة ليست جهة للذى فطر السموات والأرض، حتى يكون المتوجه إليها متوجها إلى الله عز وجل ، تعالى أن تحده الجهات ، والأقطار .

وإن أراد به وجه القلب ، وهو المطلوب المتعبد منه ، فكيف يصدق قول من قلبه متردد بين أوطاره ، وحاجاته الدنيوية ؛ ومتوجه بالكلية إليها ؟ فمتى وجه وجهه للذى فطر السموات ، والأرض حنيفا ؟

وهذه الكلمة خبر عن حقيقة التوحيد ، فالموحد الحقيقى هو الذى لا يرى إلا الواحد الخالق ، ولا يوجه وجهه إلا إليه ، وهو امتثال لقوله تعالى : « قُلِ اللهُ : ثُمَّ ذَرْهُمْ فِى خَوْضِهِمْ يَلْعَبُونَ » ، وليس المراد به القول باللسان؛ وإنما اللسان ترجمان : يصدق مرة ، ويكذب مرة أخرى ، وإنما موقع نظر الله تعالى المترجم عنه ، وهو القلب ؛ فهو معدن التوحيد ، ومقره . وفى كتاب بيان الشرع :

فإن قال : وما التوحيد عندك ؟ قيل له: هو القول : واحد « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ » « لاتُدْرِكُهُ الأَبْصَارُ، وَهُوَ يُدْرِكُ الأَبْصَارَ ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ ». وأنه ليس بجسم ، ولا بجوهر ، ولا يوصف بالاجتماع ، والافتراق ، والحركة والسكون ، ولا يحل فى شىء ، ولا تحويه الأقطار ، ولا يتصور فى الأوهام ، وأنه يعرف بأفعاله ، ودلائله التى ينصبها لخلقه ؛ ليستدلوا بها عليه ، ولا يُعلم بحس ، ولا إشارة . فإن قال : فما أول ما أنعم به عليك ؟ قيل له : خلقه إياى حيا ، فإن قال : فما أول ما افترض الله عليك ؟ قيل له : معرفته ، فإن قال : فما المعرفة ؟ قيل له : هو القول: بأنه واحد ليس كمثله شىء ، فإن قال : فبم عرفته؟ قيل له : بنفسى ، وما أشاهده ؛ لأنى وجدت نفسى محدودا مؤلفا : ما آكل به غير ما أَشمّ به ، وما أشم به غير ما أسمع به ، وكذلك النظر ، وما أشبه ذلك.

فإن قال : ما الدليل على أن خالقك لايشبهك ؟ قيل له : لو أشبهني - لجرى عليه ما يجرى على من الضعف، والحاجة ، ولم يكن هو بالقدم أولى منى ، ولا أنا بالحدث أولى منه ، فعلمت أنه لايشبهني عز وجل عن ذلك .

فإن قال : فما الدليل على أن خالقك واحد ليس باثنين ؟ قيل له : لو كانا اثنين لكان لايخلو أن يقدر كل واحد منهما على منع صاحبه ، أو لايقدر ، فإن كان يقدر فصاحبه عاجز ، وإن كان لايقدر فهو عاجز؟ فقد لحقهما الضعف، فى العجز جميعاً ، وأيضا . لو كانا اثنين لكان لايخلو كل واحد منهما أن يستسر سراً دون صاحبه، ولا يقدر على ذلك أو لايقدر ؛ فإن كان يقدر فصاحبه عاجز ، وإن كان لايقدر أن يستسرَّ سراً دون صاحبه ؛ فهو عاجز أيضا .

فعلمنا أن خالق الأشياء واحد ليس باثنين ؛ تعالى الله عما يقول الملحدون علوا كبيرا .

فإن سأل سائل عن الخالق ماهو ؟ قيل له : قد أنزل الله جواب مسألتك ، وهو ماحكى الله تعالى من قول إبراهيم خليل الله (عليه السلام) : « وَجَّهْتُ وَجْهِىَ لِلَّذِى فَطَرَ السَّمَوَاتِ ، وَالأَرْضَ حَنِيفاً ، وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِين » وما حكى عن موسى كليم الله (عليه صلوات الله) حين قال له فرعون : « وَمَارَبُّ الْعَالَمِين ؟ . قال : رَبُّ السَّمٰوَاتِ والأَرْض، وَمَا بَيْنَهما إِنْ كُنْتُم مُوقِنِين» وقال أيضا : « رَبُّ الْمَشْرِقِ ، والمغرب ، وَمَا بينهما ، إِنْ كُنتُم تَعْقِلُون » . وماقال الفتية أصحاب الكهف « إِذْ قَالُوا رَبُّنا رَبُّ السَّموات ، والأَرْضِ لَنْ نَدْعُوَ مِنْ دُونِهِ إِلهَاً ؛ لَقَدْ قُلْنَا إِذاً شَطَطاً » .

فإذا سئلت عن ربك ماهو ؟ فقل : هو الذى خلق السموات والأرض ، وهو رب المشرق ، والمغرب ، وما أشبه هذا ؛ لأن الله لايشبه شيئا من الأشياء فيوصف به ، ولا يحيط به العلم .

فصـــل :

وقيل : إن الحسن البصرى كان جالساً فى حلقته ، ويزيد الرقاشى مستقبله ، والناس حولهما من قائم ، وقاعد ، فبينما هم كذلك ؛ إذ دخل رجل فى هيئة الأعراب ، فقال للحسن : يا أبا سعيد . حدثنى عن الرب تبارك وتعالى ، أجالس هو على عرشه ؟ فغضب الحسن ، وتغير لونه ، والحاضرون يشجعون السائل للاستفادة بالجواب ـ فلما رأى الرقاشى ذلك منهم قال للحسن : يا أبا سعيد ، لقد علمتَ أنا قد لقينا صدر هذه الأمة ، فكانوا يكرهون رد السائل عن اليسير من المسائل ، فكيف ترد المتفحّص عن الله تعالى ؟ فإن كان عندك علم فهاته ، وإلا فليّن له البشر ، والقول ؛ فإن أفضل العلماء ألطفهم بالعباد ، قال الله لنبيه (ﷺ) : « وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى الْأَمْرِ » ، فأمر بالقرب واللين ، فلك فى رسول الله أســوة حسنة ؛ فنكس الحسن رأسه ، وعرف الإساءة على نفسه .

فأقبل بعض الجلساء على السائل بالإيماء إلى الرقاشى أن يسأله ، فقال السائل للرقاشى : فإياك أسأل يا أبا الفضل عن الله تبارك وتعالى أجالس هو على عرشه ؟ فقال يا لكع ؛ إنما يجلس من يمل القيام ، فقال : أفقائم هو على عرشه ؟ فقال :

ثكلتك أمك ! ! إنما يقوم من يمل الجلوس ، فقال : أمتكئ هو على عرشه ؟ قال : إنما يتكئ من يمل القيام ، والقعود ، قال: أفمتصل هو بعرشه؟قال : سبحان الله تبًا لكم إنما يتصل المخلوق بالمخلوق ، ويمس المخلوق بالمخلوق ، وينال المخلوق المخلوق .

وأما الرب الذى لامثال له : لايتصل بشىء ولا يمسه شىء ، ولا يناله شىء ، هو أعز وأمنع ، وأقدر أن ينزل بحال الاتصال .

قال : أفمنقض هو عن العرش ؟ قال : ويحك ! ! إنما ينقضّ الشىء من الشىء بحد ، والله دائم بلا حد ، ولا غاية .

فقال : سبحان الله ، لا قائم ، ولا قاعد ، ولا متكئ ، ولا متصل ، ولا منقض ! ! فكيف هو ؟

فقال : ثكلتك أمك . لا كيف لله ، وهل تدرى ما الكيف ؟ فقال : لا .

قال : إنما يقال الكيف للشىء الغائب ؛ إذا استُوصِفَ فوُجِدَ له فى الحاضر مثل ؛ فيقول الواصف : كذا ، أو مثل كذا ، أو شبه كذا ، وأما الرب فلا مثيل له فيما غاب ، ولا فيما بقى ، ولا يقال له : كيف ، ولا يطلب بالكيف ، ولا له سبيل بالكيف ، وإنما يراد بالكيف : الشبيه ، والعِدْل ، والله ليس كمثله شىء .

قال : فما معنى قوله : « عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى » ؟ قال : فإنما ضللتم من قِبل

العربية أن الاستواء فى كلام العرب: الاستعلاء ، أى : استعلى على خلقه بالقهر والقدرة ، والتطول ، فليس مخلوق يدركه أن كيف هو ؟ هيهات ثم هيهات !!! من ينال ذلك ؟ جعل على أبصار القلوب عن ذلك الغطاء ، فلا وهم يناله ، ولا قلب ينعته ، ولا يخطر على بال؛ إلا كما وصف الله تعالى نفسه «أنه واحد أحدٌ فرد صمدٌ ، لم يلد ، ولم يولد ، ولم يكن له كفواً أحد» « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ » ؛ لايُدرك إلا بآياته الواضحات الدليلات عليه .

قال : فما العرش ؟ قال : الآن سألتنى عن الخلق . إن العرش خلق من الله فوق السماء السابعة بلاء ، واختبارا يختبر به ملائكته ، وجعله الله موضع التسبيح ، والتحميد ، والثناء ، والمدح ، والشكر ، والبهاء ، والسناء ، وعبادة الخلق .

وأمر الملائكة تحمله ، والحفوف حوله ، فمهما عظموا من أمر العرش، فالله يعظمون لاغيره بحمده،والحفوف حوله،والله له المثل الأعلى؛لايحتاج إلى العرش ؛ للاستقرار ، وإن كان سمى عرش الله ، نظير ذلك عندكم فى الأرض ـ بيت الله الحرام ، موضع الحج فيه ، كلف الله أهل الأرض أن يطوفوا بالبيت طوافا ، وتمسحا ، وتقبيلا للحجر ، وتولية الوجوه شطره فمهما عظموا من أمر البيت فالله يعظمون ، لاغيره ، والله لايحتاج إلى ذلك البيت فيسكنه ، وإن كان سمى بيتا لله .

ولو كان الله ـ كما ذهب إليه وهمك ـ لكان محمولا ممسوكا محتاجا؛ وذلك؛ لأن الممسك يحتاج ـ الدهر كله ـ إلى ممسك ، ولا حاجة بالممسَك إلى ممسك نظير

ذلك . قوله تعالى « إِنَّ اللَّهَ يُمْسِكُ السَّمٰوَاتِ ، وَالْأَرْضَ أَنْ تَزُولَا ، وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ، إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً » .

إن الله ممسك السموات ، والأرض بمافيهما من الخلق ، عرشا ، أو كرسيا ، أو بيتا ، فقال الأعرابى : شفيتنى ، وفرجت عنى غمّى فرج الله عنك غمك .

وقيل : مرّ على بن أبى طالب على لحام ، وهو يقول : لا والذى احتجب بسبع سموات ، فقال له على : ومن المحتجب بسبع سموات ؟ فقال اللحام : رب العالمين ، فقال على : أخطأت ثكلتك أمك ؛ إن رب العالمين ليس بينه وبين خلقه حجاب ، لأنه معهم أينما كانوا ، فقال : يا أمير المؤمنين ، وما كفّارة ما قلت ؟ فقال له : كفارته : أن تعلم أنه معك ، أينما كنت . والدليل على معرفة الله ، وتوحيده ، ونفى التشبيه عنه ، وعلى أنه لايسع جهل معرفة الله ، وتوحيده ، ونفى التشبيه عنه — قول الله تعالى : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا يُوحِى إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُون » ، وقوله: « أَفِى اللَّهِ شَكٌّ؛ فَاطِر السَّموات ، والأَرض » ، وقوله : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ، وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ » ، وقوله : « فَآمِنُوا بِاللَّهِ ، وَرَسُولِهِ ، والكِتَاب الَّذِى أَنْزَلَ عَلَى رَسُولِهِ » ؛ فلا يسع أحدا من المحجوبين إنكار الله ، ولا الشك فيه ، وأشباه ذلك .

ومن كلام محمد بن محبوب (رحمه الله) : إن الله واحد لم يزل ، ولا يزال إلى غير غاية ، ولا نهاية ، وأنه صانع الأشياء ، وفاطرها ، ومنشئها كما شاء ،

فهو الإله ، والخلق به مألوهون ، وليس له شريك فى صنعه ، ولا ضد له فى ملكه ، ولا شبه ، ولا ندّ ، ولا صاحبة ، ولا ولد ، وأنه محيط بالأشياء ، وناظر إليها ، ومطلع عليها ، ولا يحيط به أقطارها ، ولا يدركه أبصارها فى الدنيا والآخرة ، وليس هو إلى شىء أقرب منه إلى شىء .

لا يستعين بساطع الضياء على الإحاطة بالأشياء ، ولا يحجبه ظلم الدّجى عن درك ما فوق السماء ، وما تحت الثرى ، يدرك الأصوات وإن كثرت بلا إصغاء منه إليها ، ولا استماع منه لها ، ويرى الأشياء بلا لحظ منه لهـا ، وإلجاج منه إليها ، سبحانه عن ذلك ، وعن أن يقع عليه التوهم ، وأن يدركه التوهم بصفة ، إلا كما وصف نفسه فى كتابه ، لا يجاوز ذلك ، ولا يعـدوه بتحديد ، ولا تبعيض ، ولا تقدير ولا تصوير .

وقد قال قائلون : إن الله تدركه الأبصار فى الآخرة ، وذلك مما هم فيه على الله كاذبون ، والحجة عليهم فى نفى ذلك عن الله تعالى : أن يقال لهم : أخبرونا عن الله جل جلاله عن نفسه أن تدركه الأبصار فى الدنيا ، والآخرة ، فلا بد لهم من مجامعتنا على قول : نعم . فنقول : إن عزة الله وجلاله دائمة غير زائلة فى الدنيا والآخرة ، وإن زعمتم أن العزة تذهب عن الله فى الآخرة ؛ فهذا مما تجهله القلوب ، ومن قبل هذه الجهة ، فقد فسد عليهم قولهم .

ومن قال : إن الله واحد غير أن له يمينا ، فتأول قوله تعالى : « وَالسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ » ؛ فإنا نقول إنهن مطويات بقدرته ، وقولنا فى قوله :

« مَا مِنْ دَابَّةٍ إِلَّا هُوَ آخِذٌ بِنَاصِيَتِهَا » أى : قادر عليها يصرفها كما يشاء لا قابض عليها قبض مماسة ، تعالى الله عن مماسة الأشياء .

فصـــل :

فإن قال لك قائل : بم تعرف الله ؟ فقل: بما دلت عليه الأنبياء من الآيات والعلامات ، وخلق الأرض ، والسموات ، والليل ، والنهار ، والشمس ، والقمر ، والنجوم ، المسخرات ، وما خلق الله من شيء ، وهذا دليل على أن لهذه الأشياء مدبرا ، ولا تشبهه بالأشياء .

وكذلك قالت الأنبياء : قال نوح : « أَلَمْ تَرَوْا كَيْفَ خَلَقَ اللهُ سَبْعَ سَمٰوَاتٍ طِبَاقاً ، وَجَعَلَ الْقَمَرَ فِيهِنَّ نُورًا ، وَجَعَلَ الشَّمْسَ سِرَاجاً » .

وَقال إبراهيم : « رَبِّىَ الَّذِى يُحْيِي وَيُمِيتُ » ، وقال « إِنَّ اللهَ يَأْتِى بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ ، فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ » .

وقال الرسل الذين لا يعلمهم إلا الله : « أَفِى اللهِ شَكٌّ فَاطِرِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ » .

وقال موسى : « رَبُّنَا الَّذِى أَعْطَى كُلَّ شَىْءٍ خَلْقَهُ ، ثُمَّ هَدَى » ، وقال لفرعون : « رَبُّنَا رَبُّ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ » . وكذلك قال أصحاب الكهف .

وقال لنبيه : « أَوَ لَمْ يَنْظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ،

وَمَا خَلَقَ اللهُ مِنْ شَيْءٍ » ، وقال : « أَوَ لَمْ يَنظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا ، وَزَيَّنَّاهَا ، وَمَا لَهَا مِنْ فُرُوجٍ » .

وأمثال هذا كثير فى القرآن مما يطول وصفه فى الحجج ، وكله يدل على الله ، وعلى أنه ليس كمثله شىء وهو السميع البصير .

فصل :

أول ما افترض الله على عباده المعرفة ، وأول ما أنعم الله به على العبد الحياة ؛ لأن بها يدرك الأعمال ، وأفضل ما أنعم الله به على العبد العقل ؛ لأنه به يعرف الحسن من القبيح ، وبه يجب الحمد والذم ، ويلزم التكليف ، وأحسن ما خلق الله فى العبد العلم ، وأقبح ما خلق الله فيه الجهل ، وتمام النعمة على العبد الدخول فى دين الإسلام الذى أنعم الله به على من يشاء من عباده ، ورضيه لهم دينا ، وحق الله على عباده أن يعرفوه ، ويوحّدوه ، ويعبدوه ، ويشكروه ، ولا يكفروه ، ويتقوه حق تقاته ، وقال النبى (ﷺ) : « حق الله على العباد أن يعبدوه ، ولا يشركوا به شيئاً ، وحق العباد على الله ألّا يعذب من لا يُشرك به شيئاً » .

وأول ما تعبّد الله تعالى به عباده ـ طاعته ، واتباع أمره ، وأول الحجة على العبد : العقل ، وبه عرف العبد ربه ، وما يشاهده من خلق السموات والأرض ، والليل والنهار ، والشمس والقمر ، وما يرى من أثر التدبير ، وما فى نفسه خاصة من تركيب الجوارح ، وآلات النظر ، والسمع ، والشم ، والذوق ، والكلام ، والبطش ، والمشى ، وغير ذلك .

فإذا عرف العبد ربه ، وأن الله تعالى هو خالقه ، ورازقه ، وإليه مصيره ـ فعليه أن يعلم أنه لابد للمولى أن يأمر عبـــده بطاعته ، وينهاه عن معصيته ؛ فإذا فهم هذا ـ فعليه أن يتعلم ما تعبّده الله به ، وافترضه عليه .

وأصل معرفة ذلك مما أنزل تعالى من كتابه ، على لسان نبيه ، وأمر به رسوله من سنته التى أمر بها العبـاد ، ونهاهم عنها وكل ذلك صلاح لهم ، ويرجع إلى معرفة ذلك بالتعلم ممن حمل علم ذلك من أهل الفقه ، والثقة ، والورع قال الله تعالى : « فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنتُمْ لا تَعْلَمُون » .

فصل :

ومن صفة الله عز وجل ؛ أن يقال : لم يزل عالما ، قويا ، عزيزا ، حكيما ، سميعا ، بصيرا ، عليما ، ملـكا ، ماجدا ، قديرا ، إلها ، ويقال : لم يزل الله وهو الخالق ، ولم يزل الله وهو الرازق ، ولا يقال : لم يزل خالقا ورازقا .

فصل :

وإذا خطر ببالك خاطر أن الله عز وجل يشبه شيئاً ، أو يشبهه شىء ، فانْفِ ذلك عن الله عز وجل ؛ لأنه « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » .

وكذلك ؛ إذا دعاك الخاطر إلى أن الله فى معزل ، أو قال : كيف هو ؟ أو مثل : ما هو ؟ أو هو نور من الأنوار ؟ أو ذو طول أو عرض ؟ أو هو مؤلف ؟ أو هو جسم ؟ أو مماس الأشياء أو متباين لها ؟ أو فى معزل ؟

فانفِ ذلك كله عن الله عز وجل ؛ فإن هذه الأشياء لا يجوز منها شىء على الله تعالى ، ومن كان فيه خصلة من هذه الخصال ؛ فهو محدث ، والله قديم لم يزل ، فاجعل هذا أصلا تبنى عليه فيما خطر ببالك من هذا الضرب .

وكذلك: إن خطر ببالك أن الله يظلم، أو يجور، أو يفعل الظلم أوالجور ، ويأخذ أحداً بفعل أحد،ويعذب الوالد فى الدنيا بفعل الولد، أو يعذب الولد بفعل الوالد ؛ فانفِ ذلك عن الله عز وجل؛فإن هذا لا يجوز منه شىء على الله تعالى ؛ لأن من يفعل هذه الأشياء ـ لا يوصف بالحكمة ، والرحمة ،والله حكيم رحيم .

وإن دعاك الخاطر إلى أن الله تعالى يقول الكذب ، أو يخلف الميعاد ، أو يخبر بخبر لا يكون كما أخبر ، فانفِ ذلك كله عن الله تعالى .

وقيل : إن نجدة بن عامر قال لابن عباس : يابن عباس كيف معرفتك بربك ؟ فإن من قبلنا اختلفوا علينا ، فقال ابن عباس : ويحك يا نجدة !! إن من نصب دينه على القياس لا يزال ـ الدهر ـ فى الناس مائلا عن المنهاج ، طاغيا فى الاعوجاج ، ضالا عن السبيل ، قائلا غير الجميل ، أعرف ربى بما عرف به نفسه من غير رؤية ، وأصفه بما وصف به نفسه من غير صورة ، لا يدرك ربنا بالحواس ، ولا يقاس بالناس ، معروف ربنا بغير تشبيه ، متدان فى بُعده بلا نظير له ، لا يتوهم فى ربوبيته ، ولا يمثل بخليقته ، ولا يجور فى قضيته ؛ فالخلق إلى ما علم الله منهم منقادون ، على ما سطر فى المكنون من كتابه ماضون ، لا يعملون خلاف ما منهم عُلم ، ولا غيره يريدون ، فهم ـ لا محالة ـ إلى ما علم الله منهم صائرون .

وهو قريب غير ملتزق ، وبعيد غير منقض ، يوحّد ، ولا يبعض ، ويحقق ، ولا يمثل ، يعرف ربنا بالآيات ، وأوضح العلامات ؛ فلا إله غيره الكبير المتعال .

فصل :

والدليل على أن الله واحد ، وأنه لا إله غيره ، وأنه لاشريك له فى الملك . قوله تعالى : « مَا اتَّخَذَ اللهُ مِنْ وَلَد ، وَما كَانَ مَعَهُ مِنْ إِلَٰهٍ؛ إِذاً لَذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍ بِمَا خَلَقَ ، وَلَعَلَا بَعْضُهم عَلَى بَعْض » فلا إله غيره ، ولا خالق سواه . والدليل على أن الله خالق الأشياء ، ومحدثها : لو أن نطفة وضعت بين أيدى الخلائق جميعا ؛ حيث يرونها ، ويمسونها ـ لم يقدروا أن يخلقوا لها عظاما ، ولا لحما ، ولا شعرا ، ولا نشراً ، ولا حياة ، ولا قدرة ؛ فكيف إذا كانت فى ظلمة الرحم ؟ وبينها وبينهم الحجب الكثيرة ، فهم عن صنعها أعجز ، وعن تدبيرها أبعد ، فعلمنا أن من جعل النطفة خلقا : هو الله الواحد الذى ليس كمثله شىء ، وهو السميع البصير .

فإن قال قائل: أخبرونى أخلق الله الأشياء من شىء أم لا من شىء؟ قيل له: لا من شىء خلقها؛ لأنه إن كان خلقها من أصل كان معه؛ فليس يخلو أن يكون ذلك الأصل خلق من شىء كان قبله، أو خلق من لاشىء قبله، وإن كان الكلام فى ذلك الشىء كالكلام فى الأصل : وهذا يئول إلى الفساد ، وإلى مالا يصح ، ولا يجوز ؛ لأن هذا يؤدى إلى مالا نهاية له .

وإن قال : خلقت الأشياء من أشياء كان قبلها : لم يتوقف عند آخر ذلك، ولم يجهل العلم به ، وثبت أن الله تعالى ـ خلق الأشياء ، واخترعها ، وأخرجها من العدم إلى الوجود، ولا من شيء ؛ لأنه ، إذا كان لابد من القول من أحد الوجهين ، وفسد أحدهما : صح الآخر .

فإن قال : فما يدريك لعل الأشياء أحدثت نفسها ؛ لايخلو من أن يكون أحدثت أنفسها فى حالة وجودها ، أو عدمها؛ فإن كانت أحدثت أنفسها فى حال وجودها ، فوجودها : يغنى أن إيجادها مرة أخرى ؛ لأن الموجود مستغن عن الوجود، وإنما يوجد المعدوم ، فيصير موجودا بعد أن كان معدوماً، وإن كانت أحدثت أنفسها فى حال عدمها لكان المعدوم فاعلا للوجود ، ولو كان كذلك لكان لا فرق بين المعدوم ، والموجود فى الفعل ، والعلم ، والإرادة . فلما أن بطل أن يكون المعدوم يفعل شيئا ، أو يحدث منه شيء صح أن الأشياء إنما أحدثها محدثها ، ونقلها من العدم إلى الوجود ، وهو الله سبحانه وتعالى .

فإن قال : من أين تعلم أن إلهك واحد ؟ فقل : من قبل أنه لايكون إلا واحدا ، ولا يكون الغالب إلا واحدا ، ولو كانا اثنين، وغلب أحدهما صاحبه، فالمغلوب ليس بإله؛ لأن الإله لا يكون عاجزا مقهورا، فلذلك علمنا أنه إله واحد لا شريك له .

فإن قال : كيف تعلم أنه واحد ليس كمثله شيء؟ قيل له : لأن الشيء يكون من صنعه ، وخلقه ، والله ـ سبحانه ـ هو الصانع للشيء ، والشيء مصنوع ، ولا يشبه الصانع بالمصنوع ؛ لأن الصانع قديم ، والمصنوع محدث .

فإن قال : إن الله واحد ، وأنت واحد ؛ فما الفرق ؟ قيل له : أنا واحد فى الإسم أشياء فى الحقيقة والله ـ سبحانه ـ واحد فى الاسم ، وواحد فى المعنى لايجوز عليه التجزؤ ، والقسمة ، والتبعيض ، لأنه يمكن أن أكون متفرقا بعد أن كنت مجتمعا ، والله تعالى لايجوز عليه ذلك ؛ لأنه هو الخالق ، والخالق لايشبه المخلوق .

فإن قال قائل : ماأنكرتم أن يكون العالم من أصلين قديمين : نور وظلمة . قيل له : أنكرنا ذلك ؛ لأنه لابدّ من أن يكونا ممازجين ، أو متباينين ، والممتزج ، والمتباين له حد ونهاية ، وماله حد ونهاية فهو محدث . والمحدث مصنوع ، وله صانع ، والظلمة والنور ضدان متباينان ؛ لايصح امتزاجهما ، وقد قال الله تعالى ردا على مقالة من قال بقدم العالم : « ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمٰوَاتِ ، وَٱلْأَرْضَ ، وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَاتِ ، وَٱلنُّورَ » ، فدل أن الله خالق الظلمة ، والنور .

فإن قال قائل : ما أنكرت أن يكون العالم من صانعين قديمين ؟ قيل له : أنكرنا ذلك ؛ لأنه لو كانا اثنين فلابد أن يريد أحدهما خلاف مايريد الآخر ، فيريد أحدهما أن يجعل جسما فى مكان ، ويريد الآخر بخلافه ، ويريد أحدهما تسكين جسم ، ويريد الآخر تحريكه ، ويريد أحدهما بقاء جسم ويريد الآخر فناءه ، فلا يجوز أن يكون ماأراداه جميعا ، فيكون جسمان فى مكان ، أو يكون جسم متحرك ساكن فى حال واحد ، فلما لم يصح ذلك ثبت وصح أن الله إله واحد ليس كمثله شىء ، وقد قال الله ـ سبحانه وتعالى: « لَوْ كَانَ فِيهِمَا آلِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ

لَفَسَدَتَا ، فَسُبْحَانَ اللهِ رَبِّ الْعَرش عَمَّا يَصِفُون » . وقال الله عز وجل :
« لَوْ كَانَ مَعَهُ آلِهَةٌ ـ كَمَا يَقُولُون ـ إذاً لَا بْتَغَوْا إِلَى ذِي الْعَرشِ سَبِيلًا .
سبحانه وتعالَى عَمَّا يَقُولُون عُلُوًّا كَبِيراً » .

فصل :

فإن سأل سائل فقال : أخبرونى عن الله تعالى ما هو ؟ فيقال له : إن أردت
بما هو ؟ أن تسميه ، وتصفه ؛ فهو الله الواحد الأحد الفرد الصمد ، العالم القادر
الحى السميع البصير ، الرحمن الرحيم ، الرءوف الكريم اللطيف الخبير
العزيز الحكيم .

وإن أردت بقولك الدلالة عليه ، فالسموات ، والأرض ، وما بينهما من
آثار صنعه ، وتدبيره دالة عليه ، وقد قال الله سبحانه وتعالى : « أَوَلَمْ
يَتَفَكَّرُوا فِي أَنْفُسِهِمْ مَا خَلَقَ اللهُ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلَّا
بِالْحَقِّ » وقال : « أَوَلَمْ يَنْظُرُوا فِى مَلَكُوتِ السَّمٰوَاتِ وَالْأَرْضِ وَمَا خَلَقَ
اللهُ مِنْ شَيْءٍ » ، وقال : « أَوَلَمْ يَرَ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ » ،
وأشباه هذا فى القرآن كثير ؛ دلالة على الله أنه خالق ، ورازق ، وصانع ،
ومدبر ، وأنه ليس له مثل ، ولا شبه ، ولا نظير .

وإن أردت : ماهو من أى الأجناس ؟ فالله تعالى ليس بذى جنس مؤلف
ولا صورة ، لأنه قال : « هُوَ اللهُ الْخَالِقُ الْبَارِئُ الْمُصَوِّرُ » لكل شىء ،
« لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ » ، « وَلَهُ مَا فِي السَّمٰوَاتِ وَمَافِي الْأَرْضِ ، وَمَا بَيْنَهُمَا ،
وَمَا تَحْتَ الثَّرَى » .

فصـــل :

ولا يوصف الله بفوق ، ولا بأسفل ، ولا صعد ، ولا نزل ، ولا قام ، ولا قعد ، ولا استيقظ ولا نام ، ولا سها ولا غفل ، ولا لها ، ولا ذهل ، ولا شك ولا جهل ، ولا هوى ، ولا عشق ، ولا جن ، ولا شفق ، ولا أسف ، ولا ندم ، ولا وجد بعد عدم ، ولا شعر بعد جهل، ولا يقال : فقيه ولا خطيب ولا فصيح ، ولا أديب ولا بليغ ، ولا أريب ، ولا شجاع ، ولا سخى ، ولا كامل ، ولا ذكى ولا فاضل ، ولا زكى ، ولا حسن ، ولا جميل ، ولا فطن ، ولا نبيل ، ولا صديق ، ولا خليل ، ولا شريف ، ولا رفيع ، ولا فهيم ، ولا ظريف ، ولا صالح ، ولا نظيف ، ولا متحمل ، ولا صبور ، ولا متين ، ولا وقور ، ولا محب ، ولا وامق ، ولا ساكت ، ولا ناطق ، ولا ضاحك ، ولا مغتاظ .

ولا يوصف سبحانه بالشهوة ، ولا الكسل ، ولا الخلوة ، ولا الفراغ ، ولا يقال : إن الله ربى إذ خلق الربا ولا أزنى ، إذ خلق الزنا ، ولا يقال : عاقل ؛ لأن العقل مأخوذ من عقال البعير ، ولا يقال سخى لأن السخاء من اللين ، يقال : أرض سخاوية ، وقرطاس سخاوى أى : لين .

ولا يقال : عزم الله لى بالخير ولا يقاس ربنا بأحد من خلقه،ولا يباهى بعدد ، ولا بغاية ولا أمد ولا يوصف بالوجه ولا بالكيف ، ولا الأين ، ولا العلم ، ولا اليدين ، ولا الكف ، ولا اليمين ، ولا يقال حواه مكان ، ولا خلا منه مكان ، ولا فارقه مكان ، كان – سبحانه – قبل المكان ، وهو مستغن عن المكان .

وقال محمد بن محبوب (رحمه الله) : من قال إن لله يدا كيد المخلوقين ـ فقد أشرك بالله .

ولا ينبغى لأحد أن يقول : لِمَ فعل ربنا ذلك ؟ لأنه قال : لا يسأل عما يفعل وهم يسألون ، ولا يوصف ربنا بالفرح ولا السرور ، ولا يقال أفسد إذا خلق الفساد .

ولا يجوز أن يقال : لم يزل بارئا ، ومصورا ، ورازقا ، وخالقا ، وما كان من صفات الأفعال ؛ لأن ذلك يوجب قدم الفعل فى الأزل ، والله سبحانه وتعالى: لم يزل ولا شىء معه ثم أحدث الأشياء ، فهى محدثة ، وإذا شاء أفناها وإذا شاء أعادها .

ولا يجوز أن يقال : ما أبصر الله بعباده ، ما أعلم الله ، وما أقدر الله ، وما أحكمه ، وما ألطفه ، وما أكرمه ، وما أحلمه ، وما أقدره ، وما أبصره ؛ لأن هذا من التعجب ، والتعجب منفى عن الله عز وجل عن صفات المخلوقين .

ولا يجوز عليه التعجب فى الأفعال ، ولا فى صفات الذات ، ويجوز أن يقال : ما أحسن صنع الله وتدبيره .

ولا يجوز أن يقال : ما أحسن علمه ، وقدرته ، وعزته ؛ لأن هذه صفات الذات ، ولأنها فى الأفعال مدح وتعظيم ، وفى صفات الذات تصغير .

ولا يجوز أن يقال : ما أجرأ فلانا على الله تعالى ؛ فإن الله تعالى أعزّ من أن يجترأ عليه ، ولكن يجوز أن يقال : [ما]أغر فلانا كما قال الله تعالى :

« مَا غَرَّكَ بِرَبِّكَ الْكَرِيمِ » ، ويقال : ما أعظم حق الله على خلقه ، وأعظم حق أوليائه عليه .

فأما حق أوليائه عليه ؛ ففى نفسى منها ! ! ؛ لأن الله — سبحانه — ليس عليه حق لأحد ، بل حقه على عباده ، ويكره أن يقال : أعوذ بالله ثم بك ، ويكره أن يقول : باسم الله ، واسم رسول الله كالشريك له ، ولكن يقال : باسم الله ، ثم باسم رسول الله (ﷺ) .

ولا يجوز أن يقال لله يا خير الأصحاب ، إلا أن يعنى حافظا ومدبرا ، ويكره أن يقال : لولا الله وفلان ؛ لكن يقال : لولا الله ثم فلان ، فقد أجازه أبو محمد (رحمه الله) .

ولا يجوز عليه الطمأنينة إلى الشىء ، ولا يقال : هذا هين عليه ، وهذا شديد عليه .

ومن علم من أحد إلحاداً . . . أو فى أسمائه ، أو فى كتابه ، أو فيما لا يجوز أن يقال به ، وهو يقدر على إنكاره ، ولا يتقى منه تقية فعليه أن يعلمه ، وينهاه أو ينكر عليه بلسانه ، وإن اتقى منه تقية أنكر بقلبه ، ولا يسعه التغافل عنه ، وأشد الأشياء الإلحاد فى التوحيد . والله أعلم وبه التوفيق .

القول الثالث والعشرون
فى أسماء الله تعالى ، وتفسيرها ، ومايجوز القول فيها

واعلم أن لله تعالى أسماء ذات ، وأسماء صفات :

فمن أسماء الذات : الرحمن ـ الرحيم ـ الحى ـ القيوم ـ الملك ـ القدوس ـ السلام ـ المؤمن ـ المهيمن ـ العزيز ـ الجبار ـ المتكبر ـ الواحد ـ الصمد ـ القاهر ـ القادر ـ الحكيم ـ العليم ـ الغنى ـ الكريم ـ اللطيف ـ الخبير ـ الرءوف ـ الدائم . فهذه الأسماء ، وأمثالها من أسماء الذات . وأما أسماء الصفات : خالق ـ بارئ ـ مصور ـ رازق ـ محيي ـ مميت ـ باعث ـ ناشر ـ مجازٍ ، وما كان مثلها .

والإيمان بجملتها إيمان بتفسيرها ، والإيمان بتفسيرها إيمان بجملتها .

ولاتنازع بين أهل النظر : أن صفات الذات مالم يزل الموصوف بها ، وصفات الفعل وجوبها مع الفعل .

وأسماء الله ، وصفاته من ذاته ، فالصفات الذاتية قديمة .

ولايجوز أن يقال غيره ، ولاهى هو ولاهو غيرها ، ولايتبعض منها ، ولاتتبعض منه لم يزل موصوفا بها .

وأما الصفات الفعلية فهى غيره ، وهى محدثة ؛ لأن اللفظ محدث ، وهو غير الله ، والموصوف قديم لم يزل ، والمعنىّ بالصفة : هو الله ، وصفاته على ماذكرنا

من الذاتية ، والفعلية ، والاسم المقصود . والمراد هو الله سبحانه الذى لم يزل موصوفا بصفات ذاته .

وإذا اشتبهت عليك الصفات : أفعلية هى أم ذاتية فأدخل عليها الألف واللام تعرفها إن شاء الله ، ذلك أن تقول : لم يزل الله ، ولم يزل الرب ، ولم يزل وهو العالم ، والخالق ، والرازق ، وغير ذلك من الأسماء ؛ فإذا أدخلت الألف واللام فى الأسماء الذاتية ، والصفات الفعلية تصب الصواب كله ؟ إن شاء الله .

وقيل : إن كل ما كان من الأسماء غير الله والرحمن فهو اسم ، وصفة الله ؛ فإنها أسماء الأفعال ، وتسمى صفات ، فإذا أدخلت الألف واللام على الصفات ـ رجعت أسماء ، وصفات ، والله أعلم .

فصل :

قال ابن عباس : الله ذو الألوهية ، وهو الذى يأله إليه الخلق أجمعون ، أى : يعبدونه ، وقرأ « ويذرك ، وآلهتك » يرد عبادتك ، والإله عندنا هو الذى تجب له العبادة ، وتحق له ، وهو الله الذى لا إله إلا هو سبحانه .

واختلف فى تسمية الله عز وجل : الله ، والإله . فقال قوم : هو مأخوذ من النور ، وقال آخرون : مأخوذ من الولهان ؛ لأن القلب تأله إليه عند الفزع ، والكرب ، والخوف ؛ فيجوز تسمية المألوه إلها ؛ كما قالوا : المؤتم إماما ، وقال قوم : الإله هو الذى تحق له العبادة ، وقال قوم : هو اسم سمى به نفسه على سبيل الاختصاص ، كما قال : « هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا » ، وعند القائل

بهذا القول: لايجوز أن يقال : إله الآلهة؛ لأنه الإله الذى تحق له العبادة، ولا تحق العبادة إلا لله سبحانه وتعالى .

وقيل : إن ابن عباس كان يقرأ « وَهُوَ الَّذِي فِي السَّمَاءِ إِلَٰهٌ وَفِي الْأَرْضِ إِلَٰهٌ » ، ويقول : هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا ؟ وقيل : [إن] معنى الله [هو] الذى تأله إليه القلوب فى حوائجها ، وهو أصل الأسماء ، ومنه خرجت الأسماء .

وقيل : إن اسم الله الأعظم – هو الله الذى لا إله إلا هو وحده لاشريك له ، وقيل فى قوله تعالى : « هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا » أى هل تعرف له فى السهل ، والجبل ، والبر ، والبحر ، والمشرق والمغرب أحدا اسمه الله غير الله عز وجل ؟ وقيل : إن اسم الله الأعظم : ياذا الجلال ، والإكرام ، وقيل : إن اسم الله الأعظم : يا حى يا قيوم ، وقال أبى بن كعب : جميع أسماء الله بمعنى ربوبيته ، واسمه الذى هو اسمه الله .

وقال جابر بن زيد (رحمه الله) : اسم الله الأعظم – هو الله ؛ ألا ترى أنه يبتدأ به فى جميع الأشياء ؟ وإذا قلت : الله (بالألف واللام) فالاسم تام ؛ فإذا حذفت (الألف) قلت : لله بقى الاسم تاما ؛ فإذا حذفت (اللام الأولى) : قلت : له بقى الاسم تاما ؛ وإذا حذفت (اللام الأخيرة) قلت: هـ بقيت «الهاء» ، وفيها الاسم تام .

واختلف المفسرون فى تأويل (الله) ، فقال قوم : مشتق من أله يأله ، ووله يوله ، وهو : تعلق النفس بالرغبة إليه ، وانتظار الفرج من عنده ، ويقال :

فلان يتأله ؛ إذا تنسك وتعبد ، والمتأله : [هو] الذى ظهرت عبادته لله أو مشبه بالعباد ، وقيل : إن الأصل فى : أله يأله ، وهو : إذا تحير العبد عند التفكر فى عظمة الله تعالى : فلا يعلم أحد كيف هو جل وعلا هل يدركه المخلوق ؟

وأما التشديد على اسم الله ؟ فإنه لتواتر الفعل ، والعرب تفعل ذلك ؛ لتواتر الفعل ، وتكريره ، وقال بعضهم : الألف ، واللام للتعريف ، واللام الآخر ـ لام إضافة ، والهاء كناية يشار بها إلى غائب ، لأن الله تعالى : شاهد غائب ؛ فإذا اجتمع لام الإضافة ، ولام التعريف ، فاشتبه بحرفين من جنس واحد ، فأدغمت العرب بالتشديد إحدى اللامين فى الأخرى ، والله أعلم .

الرحمن الرحيم : وقال بعض المفسرين : معنى الرحمن بجميع خلقه ، والرحيم بالمؤمنين ، وقال ابن عباس : إن الرحمن رحمن الدنيا والآخرة ، والرحيم رحيم الآخرة ـ معناه : أن نعمه ، وفواضله ، وعطاءه للمؤمنين ، وقيل : الرحمن العاطف تعم [رحمته] الخلق فى الدنيا من مؤمن ، وكافر ، وفى الآخرة نعمه ، وفواضله بالبر والفاجر ، والرحيم بالمؤمنين .

وقيل : معناها اسمان لوجود الرحمة منه ، ويقال : اسمان لطيفان من أسماء الله عز وجل ، وقيل اسمان رقيقان أحدهما أرق من الآخر ، وقيل : كان اسم الله ـ الرحمن ، فأضيف إليه الرحيم ؛ ليكون الرحمن الرحيم ليكونا إليه دون كل أحد ، لما سمى مسيلمة الكذاب نفسه الرحمن ـ أضيف إليه الرحيم ، ليكون الرحمن [و] الرحيم يجتمعان له عز وجل ، لا لغيره . وقيل : الرحمن أشد مبالغة من

وجهين : أحدهما . أن فعلان من أبنية المبالغة ، كقولك غضبان للممتلئ غضبا وسكران للمنزوف سكرا ، وكذلك ما أشبه ذلك ، ووجه آخر : أسماء الفاعلين، إذا جرت على أفعالهم لم يكن فيها فعل معنى المبالغة ، ففيم التسكرين للمبالغة .

ولا يجوز للمخلوق أن يتسمى بالرحمن ، وكانت العرب تقول : الرحمن كما قال الله : « قُلِ ادْعُوا اللهَ أَو ادْعُوا الرَّحْمنَ » .

وقدم الرحمن على الرحيم ؛ لأن الرحمن : اسم خاص ، والرحيم : اسم مشترك ، ويقال : رجل رحيم ولا يقال : [رجل] رحمن ، فقدم الخاص على العام .

وقال أبو عبيدة : الرحمن مجازه ذو الرحمة ، والرحيم : مجازه الراحم ، كما قيل : ندمان ، ونديم ، وقد يجيء اللفظان مختلفين ، ومعناهما واحد ، والأمة مجتمعة [على] أن الرحمن الرحيم – من القرآن ، لا خلاف بينهم فى ذلك .

وموضعهما من الإعراب الجر ؛ لأنهما صفتان لله تعالى ، والصفة تتبعُ الموصوف ، وصفات الله تعالى يجوز أن تتبع الأسماء و [يجوز] إعرابها ، يجوز [لك] أن تنصبهما بإضمار (أعنى) ، و [أن] ترفعهما بإضمار (هو) ، ويجوز أن تقول : الرحمن الرحيم ، فتتبع الإعراب الاسم الذى قبله ، ويجوز فى العربية رفعهما ، ونصبهما على ما تقدم ، الرفع بإضمار (هو) ، والنصب بإضمار (أعنى) على المدح ، وهو جائز ، ولا يقرأ به ؛ لأن القراءة سنة متبعة ؛ يأخذها الآخر عن الأول ، وأما جوازه : فيجوز على ما فى العربية .

وقيل : رحمن بالعبرانية فأعرب ، ثم أضيف إليه الرحيم ، وهو اسم عربى ، فاجتمع مع الاسم الذى [كان] عبرانيا : اسم عربى ، وصارا كالاسم الواحد ، والله أعلم .

الرّب : ينقسم على معان كثيرة ، فالرب : المالك ، كقولهم : رب الدار ، ورب المال ، ورب الدابة . والرّب : السيّد ؛ كقوله تعالى : « فَيَسْقِى رَبَّهُ خَمْراً » .

ولا يقال للمخلوق : الرب معرفا بالألف واللام ، كما يقال لله عز وجل ، بل تقال بالإضافة [مثل] : رب المال ، ورب الدار . والإنسان لا يكون ربًّا على الحقيقة ، كما روى عن النبى (ﷺ) أنه قال لرجل : « رب إبل أنت أم رب غنم ؟ » فقال : من كل قد آتانى الله ، وأكثر . يعنى [بكلمة الرب] مالكها .

ويجوز أن يقال : الله رب الأرباب ، و [أن] يقال فى الدعاء : يا رب بحذف الألف واللام ، و [أن] يقال فى النداء : يا رب ، وفى القرآن : « رَبِّ أَرِنِى أَنظُرْ إِلَيْكَ » ؛ « رَبِّ إِنَّهُنَّ أَضْلَلْنَ كَثِيراً مِنَ النَّاسِ » ، وقد يجىء بالياء فى النداء ، كقوله تعالى : « يا رَبِّ . إِنَّ قَوْمِى اتَّخَذُوا هٰذَا الْقُرْآنَ مَهْجُوراً » . قال أبو عبيدة : وبنو تميم يقولون : يا رب ، وقيل : هذا الاسم خاص لم يسمّ به غيره ؛ فلزمه الألف واللام ، [و] إنما سقطتا من الاسم الذى يكون فى حال مخصوص ، كما جاء فى صفة الله تعالى : أنه الربّ . أى : هو رب

كل شيء . وجائز : أن يقال : لم يزل الله ربًّا للأشياء ، وسيداً ، وإلهاً ، ويجوز أن يقال : لم يزل الله مالكاً للأشياء ، كما أنه لم يزل قادراً عليها ، والمراد : إثبات الملك ، والقدرة على الأشياء سبحانه وتعالى ، وهو على كل شيء قدير .

الواحد الأحد :

الواحد فى الحقيقة : هو الذى لا ينقسم فى وجود ، ولا [فى] وهم ، وهو المنفرد الذى لا ثانى له ، ولا يشبهه شيء .

وقيل: إنما قيل له : إنه واحد ؛ لأنه لم يزل عز وجل قبل الخلائق متوحداً بالأول ، لا ثانى معه ، ثم خلق الخلق ، فاحتاج بعضهم إلى بعض ، وتوحّد هو سبحانه وتعالى بالغَناء عن جميع خلقه [فـ] هو السابق بالوحدانية ، والخلق ثان بالابتداع .

والواحد اسم يدل على نظام واحد ، ليس قبله شيء من العدد ، وهو خارج من العدد ، لا يزيد فيه شيء ، ولا ينقص منه شيء ، تقول : واحد ؛ فلا يزيد على الواحد شيء ، تقول : نصف الواحد ، فلم يتغير الوصف عن الواحد .

والله تعالى : محدث الشيء ؛ وإذا دل أنه محدث الشيء : دل أنه مغنى الشيء ؛ وإذا دل أنه مغنى الشيء — دل أنه لا شيء قبله ، ولا شيء بعده : فهو المتوحد بالأزل ؛ فلذلك قيل له : واحد .

والأحد : اسم أكبر من الواحد ، ألا ترى أنك إذا قلت: فلان لا يقوم له

واحد ـ لجاز فى المعنى أن يقوم له اثنان أو ثلاثة فما فوقهم ؟ ، فإذا قلت : لا يقوم أحد ؛ فقد أخبرت أنه لا يقوم له أحد ، وفى الأحد خصوصية ليست فى الواحد ، تقول : ليس فى الدار واحد ؛ يجوز أن يكون ليس فى الدار واحد من الدواب ، والطيور ، فكأن الواحد للناس ، ولغير الناس ؛ وإذا قلت : ليس فى الدار أحد : فهو مخصوص بالآدميين دون غيرهم .

والأحد ممتنع فى الحساب . تقول : واحد ، واثنان ، وثلاثة فهو داخل فى العدد ، والأحد ممتنع من هذا ، [فـ] لا يقال : أحد ، واثنان ، وثلاثة [كما] لا يقال : أحد فى أحد كما يقال : واحد فى واحد، والأحد ، وإن لم يتجزأ من الواحد لعلة ، والواحد وإن لم يتجزأ من الأحد : فهو يتجزأ من الاثنين ، والثلاثة ، تقول : جزء واحد فى جزأين ، فما فوقهما .

والأحد يجىء فى الكلام بمعنى الواحد الأول، وكانت العرب تسمى الأحد ـ الأول قال الله عز وجل : « قَالَ أَحَدُهما إِنِّى أَرَانِي أَعْصِرُ خَمْرًا، وقال الآخَرُ: إِنِّى أَرَانِي أَحْمِلُ فَوْقَ رَأْسِي خُبْزاً » .

والأحد ؛ إذا لم يكن بمعنى الأول ـ لجاز فى الخبر، والجحد، تقول: ماجاءنى أحد ، قال الله عز وجل وجل : « أَيَحْسَبُ أَنْ لَنْ يَقْدِرَ عَلَيْه أَحَدٌ ؟ » ، وقال سبحانه : « أَيَحْسَبَ أَنْ لَم يرَهُ أَحَد ؟ » وقال تعالى : « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ » فهو خبر .

وربما جاء أحد : بمعنى الشىء ، يقال : فلان لا أحد . أى : لاشىء ؛ إذا

خلا من الفهم والعقل، والخير ـ كان بمنزلة لاشىء، وأحد: يكون بمعنى الواحد، والجمع بمعنى الجميع . تقول العرب : يبيت أحدنا الأيام لا يأكل ، فاحتمل بمعنى الواحد ، والجمع .

والأحد يجمع آحادا على القياس .

ويروى أن رجلا من اليهود يقال له: عامر بن الطفيل. سأل النبى (ﷺ)، فقال له : يامحمد انسب لنا ربك أمن ذهب أم من فضة أم من مسك؟ فأنزل الله عز وجل : « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ ، اللهُ الصَّمَدُ، لَمْ يَلِدْ ، وَلَمْ يُولَدْ ، ولَمْ يكُن لَهُ كُفُواً أَحَدٌ » الذى ليس له عدد ، ولا أجزاء ، ولا أبعاض ، وقال الفراء : أنزل الله « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ » فقال لهم . . وأنا أحد ، فأنزل الله عليه صاعقة، فأهلكته فى مكانه ، وفيه أنزل الله « ويُرْسِلُ الصَّواعِقَ ، فيُصِيبُ بِها مَن يَشاء ، وهُم يُجادِلُونَ فِى اللهِ ، وهُوَ شدِيدُ المِحَالِ » .

وأجمع القراء على تنوين أحد ، إلا نصر بن عاصم ، والدؤلى، فإنهما قرآها: « أحدُ . الله الصمد » غير منونة ، والله أعلم .

الصّمد :

قال عكرمة ، ومجاهد، الصمد الذى لاجوف له، وقال ابن عباس،وسفيان : الصمد : السيد الذى لا سيد فوقه ، وقال الحسن ، وسعيد بن جبير : الصمد : الذى يصمد إليه فى الحوائج ، وقال عامر : الصمد : الذى لا يأكل الطعام ، ولا يموت ، والله أعلم .

الوِتر :

قال المفسرون : الوِتر بفتح الواو ، وكسرها ، وهو بمعنى الفرد ، والشفع : بمعنى الزوج ، فالوِتر : هو الله عز وجل ، والشفع : الخلق ، والله أعلم .

الأول ، والآخر :

قال ابن عباس فى قوله تعالى : « هو الأول ، والآخر » : يقول . أنا الله ؛ لاسابق لى من خلقى ، وأنا الآخر ؛ فليس لى غاية ، ولا نهاية . وقيل : الأول ؛ لأنه لم يزل قبل كل شىء ، والآخر ؛ لأنه يبقى بعد فناء كل شىء .

واختلف اللفظان فى الأول ، والآخر ؛ لوجود العالم ، وعدمه ؛ لأنه قيل : أول – يراد به كان ، ولا شىء ، فلما أحدث العالم ثم أفناه ، قيل له : آخر ؛ يراد به أن العالم فنى ، والأول هو الآخر ، والآخر هو الأول ، ولو لم يحدث العالم – لما حسن أن يقال : هو الآخر ، وحسن أن يقال : الآخر ؛ لأنه يفنى الأشياء ، وهو كما كان سبحانه ، لم يتغير بحدوث العالم وفنائه . فإن قال قائل : لم يزل أولا آخرا : قيل له : هو الأول ، والآخر ؛ لم يزل ، ولا يزول سبحانه وتعالى .

الظاهر ، والباطن :

قال ابن عباس فى قوله تعالى : « والظاهر ، والباطن » : يقول الله تعالى : أنا الظاهر ظهرت فوق الظاهرين بقهرى المتكبرين ، وأنا الباطن ، فليس من دونى إله ، ولا لى قاهر ، فالظاهر : هو الغالب ، يقال : ظهر فلان على فلان ،

أى : غلبه ، والتظاهر : التعاون ، قال الله تعالى : « وإن تظاهرا عليه » . أى: تعاونا عليه .

وفى بعض القول ؛ قيل له الظاهر : بظهور صنعته الدالة على أنه محدثها ، ومدبرها ، وكان ظهور الصنعة ـ ظهور الصانع لها. وقيل له الباطن ؛ لأنه خفى عن أن تدركه الخلائق بكيفية ،أو تحيط به أوهامهم ، أو تدركه عقولهم ، فقيل له : الظاهر والباطن ، فهو لظهور صنعته ـ ظاهر ، [وهو] لامتناعه عن درك المخلوقين بذاته ـ باطن ، فهو الظاهر والباطن عز وجل .

ولا يقال : لم يزل ظاهرا ؛ بمعنى أن الأشياء لم تزل ، وأنه ظاهر عليها ، قاهر لها ، وباطن لها ، وعالم لها ، لأنها لو كانت قديمة : لم يكن هو ظاهرا عليها دون أن تكون هى ظاهرة عليه ؛ إذا استويا فى الأول .

وقيل الظاهر و الباطن : أى علمه ؛ بما ظهر من الأشياء ؛ كعلمه بما بطن منها ، وعلمه بما بطن منها كعلمه بما ظهر منها . . لا يخفى عليه شىء ، قال تعالى : « يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ » ؛ فعلمه بالسموات ، وما فيهن ، ومافوقهن ؛ كعلمه بالأرضين وما فيهن ، وما تحتهن .

الدائم :

قيل له الدائم : لأنه لم يزل ، ولا يزول ؛وإذا ثبت أنه لا يزال ولا يزول؛ فهو الدائم الباقى ، وهو الله الواحد ، الخالق للزيادة ، والنقصان ، والانتقال ، والحدث ، والفنى ، والله سبحانه لازيادة فيه ، ولا نقصان ، فهو الدائم الخالق ، وهو من صفات الذات،ويوصف أنه : لا يزال دائما ، ولا يفنى سبحانه وتعالى.

الخالق القادر :

الخالق والخلاق : معناه أنه ابتدأ الخلق أول مرة ، والخلاق : أنه يخلق خلقا بعد خلق ، والخالق : على وزن فاعل ؛ أى : أنه خالق فى الابتداء ، كما تقول : قاتل ، وجازر ، وخلّاق : على وزن فعّال ، كما تقول : قتّال ؛ وجزار ؛ والخلق مصدر . قال الله تعالى : « هٰذَا خَلْقُ اللهِ » ، واشتقاق الخلق من التقدير ، يقال : خلق ؛ إذا قدر ، وسمّى الله نفسه خالقا ؛ لأنه قدّر الأشياء ، ثم أمضاها ؛ فهو الخالق فى ابتدائه الخلق ، وفى تتميمه إياه إلى آخر الدهر بعلم ، وحكمة ، وتدبير ، ومعرفة .

وقيل : وخرق إذا قدر بغير علم ، ولا تدبير فأفسد ، ولذلك قيل لمن لا يحسن العمل : أخرق ، والمرأة خرقاء ، قال الله تعالى : « وَخَلَقَهُمْ ، وَخَرَقُوا لَهُ بَنِينَ وَبَنَاتٍ بِغَيْرِ عِلْمٍ » أى : كان تقديره لهم حين خلقهم وفعلهم خرقا ؛ إذا كان جهلا وفسادا .

ويقال : خلق الإنسان ؛ إذا فعل فعلا مقدرا ، قال الله تعالى لعيسى عليه السلام : « وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ » : يدل على ما قلناه ، وما فعله العبد من غير تقدير إلا على سبيل السهو ، والغفلة ؛ فلا يكون ذلك مخلوقا .

وأما أفعال الله تعالى : فلا يجوز أن يقال : إنها غير مخلوقة ؛ لأن الله ، لا يغفل ، ولا يسهو ، وأفعاله كلها حكمة ، وعلم ، وتقدير . سبحانه وتعالى .

وأما القادر : فهو الموصوف بالقدرة ، ويجوز أن يقال : إن الله تعالى قادر فوجب هذا الوصف لذاته سبحانه ، وتعالى .

البارئ :

قال أهل اللغة : البارئ : الخالق والخالق هو البارئ ، قال الله تعالى : « الخالق البارئ المصور » ففرق بين الصفتين ، كما يقال : عاقل لبيب ، واللب هو العقل .

وقال المفضل : البارئ : الخالق ، فأتبع النعت بمثله ، وهو موجود فى لغة العرب ؛ تقول : فلان ورع هيوب ، والورع هو الهيوب ، والبَرْى فى اللغة : معناه التسوية تقول : برأ القلم ؛ إذا سوّاه ، وبرأ القوس ؛ إذا نحتها بعلم ومعرفة ، وحكمة .

المصور :

هو الله سبحانه خلق الخلق ، ثم برأهم السموات ثم أظهر صورها ، فقامت تامة الخلق ، فالحالة الأولى خلق الخلق ثم برأهم فى الحالة الثانية ، وصورهم فى الثالثة .

واشتقاق الصورة من : صار يصير ، بمعنى التمام ، والغاية ، ومنه يقال : صار أمر فلان إلى كذا : أى انتهى .

وتكون الصورة بمعنى المثال ؛ لأنه قيل للتماثيل : تصاوير ؛ لأنها مثلت على تلك الصورة ، فسمى الله نفسه المصور ، لأنه ابتدأ تقدير الخلائق ، وتصويرها ؛ فهو الخالق المصور بلاغاية ، ولامثال ، بل هو سبحانه وتعالى — منشئ الأمثلة والصور .

السلام :

السلام من أسماء الله عز وجل ، سمى نفسه السلام ؛ لسلامته مما يلحق المخلوقين من العيب ، والنقصان ، والفناء ، والموت ، والزوال ، والتغيير — سبحانه وتعالى — .

وقيل : إن السلام ذكره سلامة على من ذكره ، وهو الذى يسلم الناس من جوره ، وقيل : من ظلمه . . . وكل ما أمر به ؛ فهو سلام ، ومعنى سلام عليكم — أى : أمان لكم مما تخافونه .

والسلام ، والسلامة واحد ، وقيل : هو مصدر السلامة ، قال الله تعالى : « فَسَلَامٌ لَكَ مِنْ أَصْحَابِ الْيَمِينِ » أى فسلامة لك منهم ، أى يحيونك عنهم بالسلامة ، وهو معنى قول المفسرين [فى] : « وإذا خَاطَبَهُمُ الجاهِلون : قالُوا سَلَاماً » . أى : صوابا من القول ؛ لأنه قد سلم من الكذب ، والعيب ، والإثم .

المؤمن :

المؤمن : هو الذى أمن من أطاعه من عذابه ، والمؤمن الذى لا يُخاف ظلمه ، أى : أعطى عباده الأمان على ذلك ، والعباد آمنون ، والله تعالى مؤمنهم .

وقيل : المؤمن الأمين على الأشياء ، وقيل : المؤمن المصدّق ، لأن الله يصدق عباده المؤمنين ، والعبد أيضاً مؤمن ؛ لأنه يصدق الله تعالى بوعده ،

ووعيده ، والمؤمن الذى أمن عباده من ظلمه . وقيل : إذا كان يوم القيامة : سأل الله الأمم عن تبليغ الرسل . فيقولون : « ربنا ما جاءنا رسول،ولا نذير »، فيكذبون أنبياءهم ، فيؤتى بأمة محمد (ﷺ) ؛ فيسألون عن ذلك ، فيصدقون نبيهم ، والأنبياء الماضين ، فيصدقهم الله عز وجل عند ذلك ، ويصدقهم النبى (ﷺ) ؛ فذلك قوله تعالى : « فَكَيْفَ إِذَا جِئْنَا مِنْ كُلِّ أُمَّةٍ بِشَهِيدٍ وَجِئْنَا بِكَ عَلَى هَٰؤُلَاءِ شَهِيداً » .

فالمؤمن هو المصدق لعباده ، قال الله تعالى : « يُؤْمِنُ بِاللهِ ، وَيُؤْمِنُ لِلْمُؤْمِنِينَ » معناه : يصدق اللهَ ، ويصدق المؤمنين .

ومعنى قوله : المؤمن . يحتمل أن يكون من الإيمان الذى هو التصديق ، فيكون معناه : أنه مصدق لأنبيائه ؛ فيعود إلى خبره عن صدقهم ، وخبره كلامه ، وهو من صفات ذاته ، ويحتمل أن يكون من المعنى الذى يعود إلى الأمان ؛ فيكون هو المجير للمؤمنين من العقوبة بالمثوبة ، وذلك عن صفات الفعل .

المهيمن :

قيل : هو الشهيد ، وقيل : الأمين ، وقيل : القائم على خلقه ، وقيل : المهيمن : هو الرقيب ، وقيل : هو القائم على الكتب ، وقيل : هو المصدق لهذه الكتب وأمين عليها .

العزيز :

العزيز : يكون على وجوه : يقال : عزّ ؛ إذا امتنع ، ولم يقدر على شىء

منه ، فلزمه هذا الاسم على الحقيقة ، ولم يخاص بهذه الصفة إلا الله عز وجل ، إذا كان كل عزيز من هذه الأشياء يوجد على حال ، ثم ينتقل عنه ، والله عز وجل ممتنع من أن تدركه الأوهام ، والصفات ، والخطرات .

والعزيز : هو الغالب . يقال : من عَزَّ بزَّ . أى : من غلب قهر وسلب ، قال الله تعالى : « وَعَزَّنِى فِى الْخِطَابِ » . أى : غلبنى ، وقيل : اعتز العليل ؛ إذا غلبه المرض على عقله . وقيل : العزيز : المتنع ممن يناوئه ، ويكيده ، والمحترز منه ، ويقال : فلان فى عز . أى : فى منعة ، وقوله تعالى: « بَلِ الَّذِينَ كَفَرُوا فِى عِزَّةٍ وَشِقَاقٍ » أى : فى حمية ، ونقمة . وكذلك قوله تعالى : « وَإِذَا قِيلَ لَهُ : اتَّقِ اللهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ » أى : الأَنَفَة ، والحمية .

فالعزة من العبد مذمومة ، ومن الله عز وجل مدح وثناء . قال الله تعالى : « مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ ، فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا » .

وقيل : العزة للملائكة فى معنى قول الله تعالى : « سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ » .

وفى الحديث [القدسى] : « أنا الله لا إله إلا أنا ، الكبر ردائى ، والعظمة إزارى ، والعزة لى لا لغيرى فمن نازعنى فى شىء منها أدخلته جهنم خالدا مخلدا مهانا » ، وقال ابن عباس فى قوله تعالى : « عَزِيزٌ حَكِيمٌ » : عزيز فى نقمته ، حكيم فى أمره عز وجل ، وقيل : العزيز الذى لا يلحقه قهر ، ولا يناله ذل ، ولا يغلبه شىء .

الجبّار :

هو الممتنع من أن يناله أحد ، أو تدركه بصفة وحد ، وهو الجبار على الحقيقة . سبحانه : جبر الخلائق ، ويعيشهم برزقه . ويجوز أن يقال : لم يزل الله جبارا ؛ إذ كان عزيزاً لا يناله أحد ، ولا يقهره غيره ، ويجوز [كذلك] أن يقال : هو جبار الجبابرة .

وقيل : الجبار : هو المصلح لأمور خلقه من قولهم : جبرت العظم ، فجبر ؛ إذا كان مكسورا ؛ كأنه أقام القلوب ، وأثبتها على ما فطرها عليه من معرفته ، أو لإقراره .

والجبار [هو] الذى عجز الخلق عن إدراكه بخواطر الأوهام ، والجبار من الخلق : المتعظم فى نفسه ، المتكبر على عباده .

وقال بعض المجبرة : الجبار : اشتق من أجبرت فلانا على الأمر ؛ إذا أدخلته فيه كرها ، والجبار : الملك فى قوله تعالى : « وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ » ، وقيل : الجبار : القهار ، وقيل : المسلط ، قال الله تعالى : « وَمَا أَنْتَ عَلَيْهِمْ بِجَبَّارٍ » ، وقال : « وَلَمْ يَجْعَلْنِي جَبَّاراً شَقِيًّا » أى : متكبرا عن عبادته ، وقيل : الجبار : القتّال فى قوله تعالى : « وَإِذَا بَطَشْتُمْ بَطَشْتُمْ جَبَّارِينَ » أى : قتالين ، وقيل : الجبار [هو] : كامل القدرة ، نافذ الإرادة ، والمشيئة ، لا يعارضه معارض ، ولا ينازعه منازع .

المتكبّر :

هو القاهر للأشياء ، وقيل : المتكبر : [هو] ذو الكبرياء عند العرب ، والملك ، وقيل : المتكبر : المتعظم ، والكبرياء : العظمة ، صفة وجبت له لذاته.

ومتكبر ، وجبار بمعنى متقدم ، وقديم ، ومتوحّد ، وواحد ، وقيل : كبير الشأن ، والعظمة .

القديم :

من صفات الله عز وجل مثل : عالم، وقادر ، وجب له لتقدمه قبل الأشياء: وهو الأول بلا غاية ، ولا نهاية ، ويجوز أن يقال : قديم أزلى .

سُبُّوح :

سبوح اسم مبنى على فعول من قولك : سبحان الله ، وجائز فى سبّوح وقدوس فتح السين والقاف وضمهما ، وكل اسم على وزن «فَعول» فأوله مفتوح إلا هذين الاسمين ، فإنه يضم أولهما . ومعنى : سبحان الله . أى : تنزيه ، وتعظيم لله ، والموحد ؛ إذا وحّد الله ؛ فقد نزهه .

والقدوس :

مبنى على فعول مثل : سبوح ، [وهو] قريب من التسبيح فى المعنى ، ومن قدس الله ؛ فقد نزهه ، وأخلص له الوحدانية ، قال الله تعالى حكاية عن الملائكة : « وَنَحْنُ نُسَبِّحُ بِحَمْدِكَ وَنُقَدِّسُ لَكَ » أى : نطهر . والتقديس : هو التطهير ، وقوله : « الأرض المُقَدَّسَة » أى : المطهّرة ، وسمى جبرائيل

(عليه السلام) روح القدس ؛ لأنه ينزل على كل شيء طاهر ، ويطهر كل من نزل عليه ، وبيت المَقْدِس : هو المطهر .

ومعنى القدوس : الطاهر عن الأشباه ، والأمثال . تعالى ربنا علوًّا كبيراً .

الحيّ :

الحيّ : مشتق من الحياة ، وهو الدائم الذى لا يفنى ، ولا يزال حيًّا ، وهو يحيي ، ويميت ، وهو الحيّ الذى لا يموت ، وهو الحيّ بنفسه ؛ لأنه عالم ، وقادر ؛ فلا يكون العالم بالأشياء ، والقادر عليها — إلا حيًّا ، فلما كانت أفعاله دالة على علمه بها ، وقدرته عليها — كانت دالة على أنه حيّ ، وحياته : إثبات ذاته .

القيوم :

قيل : هو القائم ، وهو الدائم الذى لا يزول ، ومعناه : أنه الحيّ قبل كل شيء ، الذى لا يموت ، ولا تفنيه الدهور ، ولا يغيره انقلاب الأمور .

وفيه لغتان : قيوم على وزن فيعول ، وقَيَّام على وزن فَيْعال ، وفيه لغة أيضاً قيّم على وزن سيّد .

وقيل : القيوم : القائم فى خلقه بما فيه صلاحهم ورشدهم ، كقوله تعالى : « أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ » .

الغفور :

يقال : غفور ، وغافر ، وغفارٌ ثلاث لغات ، وهو من المغفرة ، وهو الستر ؛

كأنه ستر ذنوب العباد ؛ لأنه بفضله يستر العيوب ، ويغفر الذنوب .

والغفار : الذى يغفر ذنباً بعد ذنب ، وأما الغافر : فهو بالإضافة . يقال : غافر الذنب ، وقابل التوب ـ سبحانه ، وتعالى ـ لا غفار غيره .

ملك :

ملك ، ومالك ، ومليك ؛ قد جاء ذلك كله فى القرآن ، وكلها مشتقة من الملك ، والملك : يوصف به المخلوق مجازا ، [أما فى الله] فيقال: مالك كل شىء ، ولا يقال ملك كل شىء ؛ لأن [لفظ] مالك أجمع ، وأوسع .

وقال أبو عبيدة (رحمه الله) فى قول الله تعالى : « فَتَعالَى اللهُ المَلِكُ الحَقُّ » : هو الذى لا يموت ، ولا يسلب ملكه ، وهو يسلب ملك الملوك ، ويفنيهم ، ويقول : « لِمَنِ الْمُلْكُ الْيَوْمَ ؟ » ، فيجيب نفسه ؛ ـ إذ لم يكن أحد يجيبه ـ « لِلَّهِ الوَاحِدِ القَهَّارِ » .

وقيل : المالك يكون ملكا ، وغير ملك ، ولا يكون الملك إلا مالكا ، وهذا فى الدنيا للمخلوقين [أما] الله عز وجل : فملك ، ومالك ، ومليك .

ويجوز أن يقال : لم يزل الله مالكا للأشياء ، لأنه قادر عليها ، فلما كان قادرا على ما لم يوجد ـ كان مالكا ، وقد بين الله ذلك فى كتابه ، فقال عز وجل : « مَالِكِ يَوْمِ الدِّينِ » ويوم الدين لم يوجد ، وقد أخبر الله عز وجل أنه مالك له : إذ كان قادرا عليه ، ويقال [إن] أنه لم يزل مالكا ـ يراد به إثبات الملك والقدرة على الأشياء .

وقيل : إن الدنيا يملكها الله أقواما بالتشبيه ، لا على الحقيقة ، والآخرة لا يملكها إلا الله ، فلا يملك ذلك اليوم غيره خُص بذلك .

الحكيم :

فعيل بمعنى مُفعِل بكسر العين ، وسمى الله نفسه حكيما ؛ لأنه أحكم ما خلق ، فلم يفته شيء ، ولم يكن فى ملكه خلل سبحانه وتعالى .

والحكم صفة ذات ، وصفة فعل ، فالذات بمعنى العليم ، وصفة الفعل [الحكمة] ؛ لأن أفعاله محكمة . ويجوز أن يقال : لم يزل الله حكيما ؛ بمعنى لم يزل عليما ؛ لأن الحكيم يستحق الصفة لعلمه بالأشياء ، وقد يستحق ذلك أيضا لفعله ، [و] الأفعال محكمة متقنة لا تفاوت فيها ، فوجب أن يوصف بأنه لم يزل حكيما بمعنى لم يزل عالما ، ولا يجوز أن يوصف بأنه لم يزل حكيما على أنه فعل أفعالا محكمة متقنة ؛ لأن هذا من صفاته الفعلية .

فإن قال [قائل] : لم زعمتم أن العلم حكمة ؟ قيل : إن هذا فى اللغة مشهور ؛ فالعالم عند أهل اللغة يسمى حكيما ، ويدل عليه قوله عز وجل : « يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَنْ يَشَاءُ ، وَمَنْ يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا » ، وقال تعالى : « وآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ » يعنى : العلم ، والكتاب ، وإنما يسمى الكتاب حكمة ؛ لأن العباد يعلمون به ، وأصل الحكمة : المنع . تقول العرب : حكمت اليتيم عن الفساد ؛ إذا منعته ، وقيل للحلقة من الحديد المعترض فى فم الدابة حَكَمَةُ اللجام ، لأنها تمنع الدابة عن الاعوجاج . والله أعلم .

الواسع :

هو الغنى ، يقال : أعطى من سعة أى : من غنى ، قال الله تعالى : « فَلْيُنْفِقْ ذُو سَعَةٍ مِنْ سَعَتِه » أى : ذو غنى من غناه ، وقال : « ولَا يَأْتَلِ أُولُوا الفَضْلِ مِنكُم ، والسَّعَةِ » يعنى : أولى الغنى ، وقال أبو عبيدة فى قوله : « إنَّ اللهَ واسِعٌ عَلِيمٌ » : أى : أنه جواد يسع جميع السائلين .

وقيل : واسع أى : ذوسعة ، وَوُسْع ، أى : ذوفضل ، وقدرة ، فالوُسْع : القدرة ، والسّعة : الفضل ، وقيل : معنى واسع : أى واسع الرحمة ، وواسع المغفرة ، والرزق ، وأجرى على نفسه هذه الصفة من الرحمة ، والمغفرة ، وقيل : واسع بفضله على خلقه ؟ المعنى أنه جواد لا يمنع من يسأل .

وقيل : إنه : يسع علمه كل شىء ، فلا يخفى عليه شىء من أفعال العباد ، ولا يغيب عليه منها شىء ، وقيل واسعٌ : لأنه وسّع على عباده فى دينه ، ولم يضطرهم إلى ما يعجزون عن أدائه ، وقيل : لأنه وسّع على عباده ، وجعل الاختيار إليهم فما أرادوا أن يفعلوه ، ولم يمنعهم بالجبر عن أفعالهم ؛ [و]لكن بين لهم طريقى الثواب ، والعقاب ، فيجازيهم على ما يظهر منهم .

العليم :

يقال إن الله عليم ،وعالم ، وعلّام : كله بمعنى العلم ، وفى الحديث [القدسى]: « إنى عليم أحب كل عليم » .

ويجوز أن يقال : هو فوق عباده بالعلم ، والقدرة ، كما قال جل وعلا :

« وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ . . » يعنى نفسه عز وجل ، وهو أيضا على التوسع ، والمجاز .

وقال الشيخ أبو الحسن (رحمه الله) : العلم صفة ذات ، لم يزل الله عالما بما يكون ، ومالا يكون ، أن لو كان كيف يكون .

الغنى :

هو الله تعالى غنى عن جميع الأشياء ؛ فلا يصير إليه منها نفع ، ولا ضر ، وهو الغنى عنها .

ويجوز أن يسمى [به] الغنى من الناس على المجاز ، كما قال الله تعالى : « يَحْسَبُهُمُ الجَاهِلُ أَغْنِيَاءَ مِنَ التَّعَفُّفِ » . فغنى الخلق حادث مستفاد بعد أن كانوا غير أغنياء ، وقد يزول بعد أن كان ، والله تعالى غنى لم يزل ولا يزول .

الحميد :

وهو بمعنى المحمود ، وحمد الله هو الثناء عليه ، وحمدَ نفسه فقال : « الْحَمْدُ لِلّٰهِ » بيانا لعباده، كيف يحمدونه ، والحمد هو ضد الذم ، والشكر :هو الاعتراف بالنعمة ، وضده الكفر .

الشكور :

ووصف الله نفسه أنه الشكور على سبيل التوسع ، والمجاز ؛ لأن الشكر شكر النعمة التى كانت للمشكور على الشاكر. فلما لم تكن للعباد على الله نعمة لم يجز أن يكون شاكرا لهم فى الحقيقة ؛ ولكن لما كان مجازيا للمطيعين على

طاعتهم : جعل مجازاته إياهم على الطاعات منهم شكرا منه لهم على المجازات . على أن مكافأة المنعم قد يقال : إنها شكر على التوسع ، وإن كان الشكر على الحقيقة هو الاعتراف بالنعمة .

والشكور من الناس : الذى يرضى بالقليل من العطاء ، ويقال لمن قنع برزقه : شكر لله ، ويقال دابة شكور ، إذا كانت تسمن على القليل من العلف ، والله تعالى سمّى نفسه الشكور ؛ لأنه يرضى من عباده بالقليل من العمل ، والعبـــادة .

والشكر ، والشاكر : بمعنى الشكور ، وشكر الرجل الرجل ؛ إذا أثنى عليه بمعروف ، ومن شكر فقد حمد ؛ لأن الشكر يجمع الحمد والشكر جميعا .

الكريم :

وهو المرتفع من كل شىء ، يقال : فلان أكرَمُ قومه ، أى : أرفعهم منزلة ، وقدرا ، وكذلك كل شىء ارتفع عن منزلة نظرأ به .

ويقال فرس كريم ؛ إذا كان أشهر الأفراس فراهة ، وفى قوله تعالى : « إِنِّى أُلْقِيَ إِلَى كِتَابٌ كَرِيمٌ » أى : شريف ، وقيل مختوم ؛ لأن شرف الكتاب ختمه .

والكريم : الفاضل فى قوله تعالى : « لَهُمْ مَغْفِرَةٌ ، وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » ، وقوله تعالى : « أَرَأَيْتَكَ هذا الذى كَرَّمْتَ عَلَيَّ » أى : فضلت على ، ورفعته فوق ، وقوله تعالى : « ولَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ ، وحَمَلْنَاهُم فِي الْبَرِّ ، وَالْبَحْرِ »

أى : شرفناهم وفضلناهم على سائر الخلق ، وكل شىء وصف بالكرم ؛ فإنما أريد به ؛ الارتفاع ، والشرف ، والفضل ، ويقال : الكريم الذى لايمن إذا أعطى ، فيكدر العطية بالمن ، وقيل : الكريم الصفوح .

والكريم : صفة ذات ، وصفة فعل ، فمن جعل الكريم بمعنى العزيز للممتنع - فهو من أسماء الذات ، ومن عنى به : المتفضل بالإعطاء - فهو من صفات الفعل ، ويجوز أن يقال : لم يزل الله كريما أى : عزيزا ممتنعا .

الجواد :

وهو الذى يتفضل على من لايستحق ، ويعطى من لايستوجب ، وقيل : هو الذى لاتحصى عطاياه ، وقد سمى الله نفسه ؛ لأنه جواد كريم ، فنصفه بذلك كما وصف نفسه .

ولا يجوز أن يقال : لم يزل الله جوادا ؛ لأن الجود من إنعامه ، وأفضاله على عباده ، وذلك فعل منه ؛ فلا يجوز أن يكون من لم يزل موصوفا بذلك ، ولا يجوز أن يوصف أنه سخى ، ويجوز أن يوصف أنه مفضال ، ومنعم .

اللطيف :

هو العالم ، والعالم الذى لايخفى عليه شىء ، وهو اللطيف فى صنعه برأفته ورحمته . وقيل : اللطيف: الواسع فى العلم ، العليم بكل شىء؛ حتى يرى أثر النملة على الصفا تحت الأرض، وقيل: اللطيف المنعم على عباده بلطيف صنعه، وتدبيره، وقد وصف نفسه تعالى بأنه لطيف خبير .

الخبير :

العالم بالشيء ، يقال : فلان خبير بهذا الشيء أى : عالم ، قال الله تعالى : « فَاسْأَلْ بِهِ خَبِيرًا » .

الجليل . العلى . العظيم :

كل هذه الأسماء بمعنى واحد ، وهو : أنه سيد ، ومالك الأشياء ، قاهر [لها] مقتدر عليها ، وسيد القوم كبيرهم ، وجليلهم ، وعظيمهم . ، والعلى فى اللغة : بمعنى الغالب ، والقاهر؛ قال الله تعالى : « وَلَعَلَا بَعْضُهُم عَلَى بَعْضٍ » أى : غلب بعضهم بعضا وقهره ، وقال : « إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ » أى قهر أهلها ، واستولى عليهم . ويجوز أن يقال : لم يزل الله عليا ؛ لأنه قادر على جميع الأشياء ، فكان عليا متعاليا على معنى أنه متنزه جليل ، كما قال الله تعالى : « تَعَالَى اللهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ » :

ولا يقال : إن الله شريف ، أو رفيع ؛ كما يقال : علىٌّ ، ولكن يقال : رفيع الدرجات ، والله أعلم .

المجيد والماجد :

هما اسمان على وزن فعيل ، وفاعل ، وهما مأخوذان من المجد ، والجلالة ، والعظمة . ويقال : للإنسان ماجد ، إذا كان فاعلا لاكتساب المجد ، ولا يقال : لأنه مجيد ، لأن المجيد : هو معدن المجد ، ومثله : حكيم ، وحاكم ، فالحاكم : الذى يفعل الحكمة ، والحكيم معدن الحكمة .

وقيل : المجيد: الماجد ، ومجيد : أى كريم عزيز ، وقوله : « بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ » معناه : كريم عزيز وماجد ، ومجيد من صفات الله لذاته .

الودود :

قيل : الودود ، المحب لعباده ، من قولهم : وددت الرجل أوده ودًّا ، وأوده ودادا ، أو : ودًّا والوَدّ بفتح الواو : الصنم ؛ قال الله تعالى : « وَدًّا وَلَا سُوَاعًا » .

وقيل : ودود ـ فعول بمعنى فاعل ـ كقولك : غفور بمعنى غافر ، والمعنى : أنه يود عباده الصالحين .

فقد تأتى الصفة بالفعل لله جل ذكره ، ولعبده ؛ فيقال الشكور بمعنى الشاكر ، وبمعنى مشكور ، ويقال : فلان شكور لله أى : يشكر لله نعمه ، والله شكور للعبد ، أى : يشكر له عمله ، والعبد تواب لله من الذنب ، والله تواب عليه .

الباعث :

وهو فى كلام العرب المثير المنهض ، يقال : بعثت البعير ؛ إذا أثرته ، وأنهضته من مكانه الذى أناخ فيه أو اضطجع .

وسمى الله تعالى باعثا ؛ لأنه يبعث الخلق بعد الموت ، أى يثيرهم من القبور ، وينهضهم من مضاجعهم ، قال الله تعالى حكاية عن الموتى: « مَنْ بَعَثَنَا مِنْ مَرْقَدِنَا هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ » ، وقيل ليوم [القيامة يوم] البعث ،

لأن الخلائق ثائرون فيه من مضاجعهم ، أى قبورهم ، ويكون البعث أيضا أخذ من بعث الأنبياء ، والرسل عليهم السلام ، إلى الناس ، إيثارهم من بين القبائل والشعوب .

والمعنيان جائزان فى صفة الله تعالى : لأنه باعث الأنبياء ، والرسل ، لا باعث غيره — تبارك الله الباعث وقيل : لكل تحريك ، وانزعاج — بعث .

الوارث :

قيل لله وارث ؛ لأنه يبقى بعد فناء الخلق كلهم ، فلا يكون مالك غيره ، كما قال : « إِنَّا نَحْنُ نَرِثُ الأَرْضَ ، وَمَنْ عَلَيْها وإِلَيْنا يُرْجَعُونَ » .

الديان :

مشتق من الدين ، وهو الطاعة ؛ لأن الخلق كلهم دانوا إليه ، وتذللوا لعظمته ؛ فلم يفته شىء من خلقه . وقيل فى صفة ديان : يوم الدين ، أى : إليه حساب الخلائق يوم الحساب ، وفى المثل : كما تدين تدان ؛ أى : تجازى بما تفعل .

فالديان : الذى يلى المجازاة ، وهو قادر عليها ، ويجازى كلا على قدر استحقاقه ، وهو ديان يوم الدين ؛ لأنه يجازى العباد بأعمالهم .

المنّان :

معناه : المعطى ، يقال : منّ فلان على فلان . أى : أعطاه ، قال الله تعالى:

« وَلَـٰكِنَّ اللَّهَ يَمُنُّ عَلَىٰ مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ » أى : يعطيهم من فضله ، ومنان : على وزن فعّال ، وكل ما جاء على هذا الوزن ـ فمن شأنه يفعل ذلك ، فتبارك الله المنان .

وقيل : المنان [هو] المنعم على عباده ؛ لأن المِنّة : هى النعمة ، والمن من الله تعالى محمود ، ومن الخلق مذموم ، قال الله تعالى : « قُلْ لَا تَمُنُّوا عَلَيَّ إِسْلَامَكُمْ بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلْإِيمَانِ » .

الحنّان :

قيل : لا يجوز أن يقال لله : الحنان ؛ لأن الحنين على معنيين ، أحدهما : حنين القلب إلى الشيء ؛ إذا اشتاق إليه ، والآخر : من حنين الصوت ، تقول حنّت الناقة إلى ولدها ؛ إذا رفعت صوتها ؛ ليعرف مكانها ، وهذا كله لا يجوز على الله .

والحنان بالتخفيف : من الرحمة ، قال الله تعالى : « وَحَنَانًا مِنْ لَدُنَّا ، وَزَكَاةً وَكَانَ تَقِيًّا » يعنى به يحيى (عليه السلام) ؛ لأنه كان حنانا لوالديه ، يعنى : أنه كان رحمة من الله تعالى على عباده .

ويقال فى الدعاء : حنانيك يا رب . أى : رحمة بعد رحمة .

وروى أبو عبيدة بإسناد عن ابن عباس أنه قال : والله ما أدرى ما الحنان؟ فهذا ابن عباس بحر العلم ، والقدوة فيه ـ يقسم بالله ما يدريه ، فكيف يجوز لغيره القول فيه .

الأمين

فإن قال قائل : هل أمين اسم من أسماء الله تعالى يقال ؟ فيقول له : إن قصد القائل بقوله : أمين أنه يؤمن منه الجور ، فعسى أن يجوز ، وإن كان قد قال به قوم : فلسنا نتقدم عليه ؛ إذا لم يصح معناه عندنا .

الرءوف :

الرءوف فى كلام العرب : الشديد الرحمة واسعها ، والله تعالى : هو الرءوف لأنه المتناهى فى الرحمة بعباده ، لا راحم أرحم منه ، ولا غاية وراء رحمته ، تبارك الله الرءوف الرحيم .

وفى رءوف وجوه : رءوف بضم الهمزة بلا إثبات واو ورأف بتسكين الهمزة ، ورائف بكسر الهمزة ، واللغة المشهورة : رءوف بفتح الراء ، وضم الهمزة ، وإثبات الواو على وزن ـ فعول .

الفتاح :

الفتاح فى كلام العرب : الحاكم [قال تعالى] : « إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ » معناه : إن تستقضوا ، فقد جاءكم القضاء . وقال الفراء : أهل عمان يسمون القاضى الفتاح ، وقال قوم : « إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ » أى : إن تستنصروا فقد جاءكم النصر .

وقيل : إن أبا جهل (لعنه الله) قال يوم بدر : اللهم انصر أفضل الدينين عندك ، وأرضاها لديك ، فأنزل الله تعالى به « إِنْ تَسْتَفْتِحُوا فَقَدْ جَاءَكُمُ الْفَتْحُ » أى : إن تستنصروا ، فقد جاءكم النصر .

وكان النبي (ﷺ) يستفتح بصعاليك المهاجرين ، والصعاليك عند العرب الفقراء ، والصعلوك : الفقير .

وقال المفضل في قوله تعالى : « قُلْ يَجْمَعُ بَيْنَنَا رَبُّنَا ، ثُمَّ يَفْتَحُ بَيْنَنَا بِالْحَقِّ » أي : يحكم بيننا بالحق .

الحليم :

الحليم . معناه في كلام العرب : الذي لايعجل بالعقوبة .

فإن قال قائل : أفتزعمون أنه لم يزل حليما ؟ قيل له : دون أن يرجع بقولنا لم يزل حليما إلى أن يرد ذلك إلى غاية وأول ، فيقول : لم يزل حليما عن عباده مذ عصوه ؛ لأن الحلم من الله فعل ، وهو إمهاله لعباده بعد المعصية ، وصرفه الانتقام عليهم ؛ إذا لم يعاجلهم به ؛ فلما كان ذلك منه فعلا ـ لم يجز أن يقال : لم يزل حليما . كما يقال : لم يزل قادرا .

فإن قال : أفتزعمون أنه إذا لم يحلم عن أهل المعاصي لم يكن حليما ؛ قيل له : كذلك نقول ؛ ولكن إذا كان عالما بأن اصطلاح عباده؛إذا خلقهم ، وكلفهم طاعته بأن يحلم عنهم ، وألا يعاجلهم بالانتقام في أول ، مايستحقون ذلك . فلا يجوز أن يحلم عنهم ، وأن يمهلهم ليتوب منهم من يعلم أنه سيتوب بعد ذلك من ذنوبه .

وصفة الحلم صفة ذات ، وصفة فعل ، فصفة الذات للحليم : بمعنى العليم ، وصفه الفعل بمعنى تأخير العقوبة .

المقيت :

قال ابن عباس : المقيت المقتدر ، واحتج بقول الشاعر :

وذِى ضِغْنٍ كففْتُ النفْسَ عنه   وَكُنْتُ عَلَى إساءته مُقِيتَا

أى : مقتدراً .

وقال آخر :

ثمّ بعدَ المماتِ يُنْشِرُنِى من   هُوَ على النّشْرِ يا بُنَىَّ مُقِيتُ

وقيل : المُقِيتُ : هو الحفيظ ، وقول « فالق الحب والنوى » أى : مشققه؛ ليخرج نباته ، وفالق الإصباح : مُسفر الصبح من سواد الليل .

الوكيل :

قال الفراء : الكافى ، وقيل:الوكيل [هو] الكفيل ، وفسروا قوله تعالى: « وَقَالُوا حَسْبُنَا اللهُ وَنِعْمَ الوَكِيلُ » أى : الكفيل بأرزاقنا ، وقيل : الوكيل الرب فى قوله « أَلَّا تَتَّخِذُوا مِنْ دُونِى وَكِيلًا » .
أى رَبًّا .

ذى الطول :

ذى الطول : أى الفضل ، والإحسان ، والعطية ، وهو بمعنى المعين : النصير والناصر ، [وهما] فى كلام العرب واحد .

الهادى :

هو المبين لطريق الحق .

الفرد :

قيل له تعالى : الفرد ؛ لأنه لا يختلط بالأشياء ، ولا يمازجها ، والأشياء كلها تختلط بعضها ببعض . والله أعلم ، وبه التوفيق .

* * *

القول الرابع والعشرون

فى قول لا إله إلا الله

قال النبى (ﷺ) : « أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا: لا إله إلا الله، فإذا قالوها حقنوا منى دماءهم وأموالهم ، إلا بحقها ، وحسابهم على الله[1] » ، وقال : « لقنوا موتاكم شهادة أن لا إله إلا الله » .

وقوله عز وجل : « لَا إِلٰهَ إِلَّا اللهُ » وحّد نفسه ، وشهد لها أنه لا إله إلا هو . قال عز وجل : « شَهِدَ اللهُ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا هُوَ » افتتح ربنا سبحانه وتعالى الآية باسم من أسمائه ، وهو الاسم الأعظم ، الذى يستفتح به الصلوات ، والاستعاذات، والعبادات ، والتكبيرات ، وجميع المبتدآت من جميع الطاعات. ويدل على ذلك ما تواترت به الأخبار عن النبى (ﷺ) فى شرف هذه الآية، وفضلها على سائر الآى ، وأنها سيدة آى القرآن .

ثم أتبع الاسم بنفى كل معبود سواه ، وهى : كلمة التوحيد ، والإخلاص التى لا يقبل الله من عبد قولا ، ولا عملا، ولا دينا إلا بها، وبعث بها الرسل، وقال لنبيه (ﷺ) : « وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلٰهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ » ، وقال النبى (ﷺ) : « أعلى الإيمان : قول لا إله إلا الله ، وأدناه : إماطة الأذى عن الطريق » ، وقال : « أفضل

---

(١) متواتر.

الذكر قول لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء : الحمد لله » .

وقيل: لا إله إلا الله فى تسعة وثلاثين موضعا من القرآن ، وقال ابن عباس فى تفسير قوله تعالى : « إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ » قال : العدل شهادة أن لا إله إلا الله ، وقال ابن مسعود : أجمع آية فى القرآن : « إِنَّ اللهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالْإِحْسَانِ » ، وفسر قوله تعالى : « وَلَا تَسْتَوِى الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ » قال : الحسنة : شهادة أن لا إله إلا الله ، والسيئة : الشرك بالله.

وإذا قال العبد : لا إله إلا الله ـ أخذت مع عمودين ، فتخرق سماء سماء، وصفا صفا من الملائكة، ولها دوىّ كدوىّ النحل حتى تبلغ العرش ؛ فيقول لها حملة العرش : اسكنى يا عظمة الله ، فتقول : لا أسكن حتى ينظر الله إلى قائلى ، فلا يلتئم الخرق الذى خرقه قول : لا إله إلا الله ؛ حتى ينظر الله إلى قائلها .

وقال ابن عباس:من نظر اللهُ إليه بالرحمة لم يعذّبه ، وفسّروا قوله تعالى: « وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً » فالظاهرة قول : لا إله إلا الله ، والباطنة ستره لمعاصى العباد ، وقيل للنبى (ﷺ) : الظاهرة قد عرفناها ، والباطنة ما هى ؟ قال (ﷺ) : « أما لو رآك عليها الناس مقتوك » .

ومن قرأ نعمة على معنى الواحد، ظاهرة على اللسان ، فهو قول : لا إله إلا الله ، وباطنة فى القلب .

ومن نعم الله عز وجل على عباده النفَس الذى يتنفسون به ؛ لما روى أن بعض العارفين قال : لله تعالى علىّ فى كل يوم وليلة من وجه واحد أربع عشرة

ألف نسمة ، قيل له : وكيف أحصيت ذلك ؟ قال : أحصيت أنفاسى فى يومى وليلتى ؛ فإذا هى أربعة عشر ألف نفَس .

وفى بعض الأقوال أن النهار اثنتا عشرة ساعة ، والساعة اثنتا عشرة شعيرة ، والشعيرة اثنتا عشرة دقيقة والدقيقة اثنتا عشر نفَسا ، فعلى هذا الحساب يكون قريبا من الحساب الأول . والله أعلم ، وقيل : إنه يبلغ تسعمائة نفَس ، وأربعة وعشرين .

ألف نفَس فى اليوم ، والليلة ، والله أعلم .

ويروى أن أبا بكر الصديق رضى الله عنه أن قال : قال لى رسول الله (ﷺ) : « اخرج ، فنادِ فى الناس ، من شهد أن لا إله إلا الله ، وجبت له الجنة » قال : فخرجت ، فلقينى عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) فقال : مالك يا أبا بكر ؟ فقلت قال : لى رسول (ﷺ) : اخرج فناد(١) من شهد أن لا إله إلا الله ، وجبت له الجنة ، فقال لى عمر بن الخطاب : ارجع إلى رسول الله (ﷺ) فإنى أخاف أن يتكلوا عليها ، قال : فرجعت . قال رسول الله (ﷺ) . ما ردك يا أبا بكر ؟ قال : فأخبرته بقول عمر فقال عمر : نعم يارسول الله اتركوا الناس فليعملوا ، فقال رسول الله (ﷺ) : صدق عمر .

أنس بن مالك قال : سمعت رسول الله (ﷺ) يقول : من قال : لا إله إلا الله مخلصا خرقت سبع سقوف السماء ، فلم تلتئم خروقهن حتى ينظر الله إلى قائلها فيغفر له

---

(١) رواه البزار عن ابن عمر .

وقيل في قوله تعالى« إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ، وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ» قيل : قوله : لا إله إلا الله ، وروى مالك بن غسان الأنصارى : أن النبى (ﷺ) ، قال : لن يوافى عبد يوم القيامة ، وهو يقول : لا إله إلا الله يبتغى بذلك وجه الله تعالى - إلا حرمه الله على النار. معاذ بن جبل[1] (رضى الله عنه) عن النبى (ﷺ) قال : « من مات ، وهو يشهد أن لا إله إلا الله صادقا من قلبه دخل الجنة» ، وقال (ﷺ) : كلمة لا إله إلا الله - ألف الله بها بين المؤمنين ، فمن قالها ، واتبعها بالعمل الصالح ؛ فقد أوجب العمل ، ومن قالها : ولم يتبعها العمل - لم ينتفع .

وقيل : يا رسول الله إن الناس قالوا : لا إله إلا الله ، فعمى علينا بها الكافر من المؤمن ، فقال رسول الله (ﷺ) أنا أدلكم على الفرق فى ذلك :- إن المؤمن ، إذا قال : لا إله إلا الله - أتبعها بالعمل الصالح ؛ وإذا أصبح فهمُّه الجنة والنار ، وأن الكافر ؛ إذا قال : لا إله إلا الله أتبعها الفجور ؛ وإذا أصبح فهمه بطنه ، وفرجه ، ودنياه .

وقيل فى قوله تعالى : «وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى» ؛ يقول : لا إله إلا الله ، وروى عن ابن عباس أن النبى (ﷺ) قال : لما قال فرعون : لا إله إلا أنت ، جعل جبرائيل يحشو فى فيه الطين ، والتراب ، وقال (ﷺ) : قال لى جبرائيل (عليه السلام) : لو رأيتنى وأنا آخذ من حال البحر ، وهى الحمأة فأسده فى فم

---

(١) أخرجه البزار عن أبى سعيد .

فرعون مخافة أن ينثنى ، فتدركه الرحمة ، قال جبريل (عليه السلام) لى : يا محمد ما غضب ربك على أحد غضبه على فرعون ، إذ قال : «مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلٰهٍ غَيْرِى » ، وإذا قال : « فَحَشَرَ فَنَادَى ، فقال : أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى » ، فلما أدركه الغرق ، ماانفككت أحشو فاه رملا ؛ مخافة أن تدركه الرحمة .

وقيل : قال موسى (عليه السلام) : إلٰهى علمنى عملا أنجو به من النار ، وأدخل به الجنة ، فأوحى الله إليه : يا موسى . قل : لا إله إلا الله ، فقالها ، فأوحى الله إليه ، قلها ، فقالها ثلاثا ، فأوحى الله إليه ، يا موسى ، استحققت بقول : لا إله إلا الله الجنة ، يا موسى لو وضع قول : لا إله إلا الله فى كفة ، وجميع ما خلقت فى كفة ـ لرجح قول لا إله إلا الله ذلك كله .

أنس بن مالك قال قال : رسول الله (ﷺ) .قول لا إله إلا الله يطفئ غضب الرب ، ما لم يؤثروا دنياهم على دينهم ؛ فإذا آثروا صفقة دنياهم على دينهم ، وقالوا لا إله إلا الله ردت عليهم ، وقال الله تعالى : كَذَبْتُمْ . وقيل فى قوله عز وجل « الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ ، فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ » نزلت فى ثلاثة نفر كانوا فى الجاهلية يقولون : « لا إله إلا الله » ، وهم زيد بن عمرو بن نوفل ، وأبو ذر الغفارى ، وسلمان الفارسى ـ قالوها بلا كتاب أنزل ولا رسول أرسل ، إلا أنهم استمعوا أقاويل الناس ، وكان أحسنها قول : لا إله إلا الله ، فاتبعوه .

« وَالَّذِى جَاءَ بِالصِّدْقِ وَصَدَّقَ بِهِ » قول لا إلٰه إلا الله ، وزعم هاشم ابن المهاجر : أن خير الكلام : لا إلٰه إلا الله .

وقيل : قال موسى (عليه السلام) : يا رب،من الأمة المرحومة ؟ قال : أمة محمد (ﷺ) ؛ يرضون بالقليل من العطاء ، وأرضى عنهم بالقليل من العمل، وأدخلهم الجنة ؛ بأن يقولوا : لا إله إلا الله .

ابن عمر[1] قال: قال رسول الله (ﷺ) . « ليس على أهل لا إله إلا الله وحشة فى القبور ، ولا فى النشور؛ فكأنى بهم، وهم ينفضون التراب عن رءوسهم، وهم يقولون: «اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ، إِنَّ رَبَّنَا لَغَفُورٌ شَكُورٌ »، وفى رواية عنه عليه السلام قال : « ليس على أهل لا إله إلا الله إذا قالوها مخلصين وحشة عند الموت ، ولا وحشة فى القبور ، ولا وحشة فى النشور ، وكأنى أنظر إليهم عند النفخة ، وقد خرجوا من قبورهم ينفضون التراب عن رءوسهم ، ويقولون : « اَلْحَمْدُ لِلّٰهِ الَّذِى أَذْهَبَ عَنَّا الْحَزَنَ » .

وقال الحسن : لا إله إلا الله ثمن الجنة .

وفى الحديث أن رجلا قتل رجلا يقول : لا إله إلا الله ، فقال له النبى (ﷺ) : أقتلته بعد أن قالها ؟ فقال : يا رسول الله ؛ إنما قالها متعوذا ، فقال له النبى (ﷺ) : هلا شققت عن قلبه ؟ !

فقال له الرجل : هل كان يبين لى ذلك ؛ فقال عليه السلام ، إنما يعرب عما فى قلبه لسانه .

---

(١) رواه الطبرانى عن ابن عمر .

وفى الحديث : إنما كانوا يستحبون أن يلقنوا الصبى حين يعرب الكلام ، أن يقول : لا إله إلا الله سبع مرات . (ويعرب : معناه بيّن الكلام) .

ويروى عن النبى (ﷺ) قال : « ما بين قبرى ، ومنبرى روضة من رياض الجنة » ، فبلغنا أن رجلا قام هنالك فركع ، ثم أخذته السنة ، فرأى بين القبر والمنبر حبل ذهب ، بعضه لازق بالأرض ، وبعضه مرتفع ، وآخر قد علا حتى خرق السماء مصعدا ، فقال ما هذا ؟ فقال قائل : هذا قول : لا إله إلا الله ، فقال : مالى أرى منه شيئاً أعلى من شىء . قال هذا لازق بالأرض ؛ إذا قالها العبد فى نفسه ، وهذا الذى ارتفع منه إذا قالها العبد جهرا ، والمصعد منه إذا قالها العبد بنية صادقة ، مخلصا لله صعدت حتى تخرق سبع سموات ، ثم تكون تحت العرش ، فتقول : إلهى اعتق قائلى من النار ، فيقول الله سبحانه : وعزتى وجلالى ، وعلوى فوق خلقى ، ما أنطقت لسان عبدى بهذه الكلمة مخلصا ، وأنا أريد عذابه ، وقيل كان هجِّير أبى بكر (رضى الله عنه) ، أى : دأبه : لا إله إلا الله .

ومعنى لا إله إلا الله : أى : لا ثانى معه ، ولا أحد يستحق العبادة سواه ، وهو إقرار بعد نفى ؛ ليكون أمكن فى التأكد ، ويكره أن يقول الإنسان : لا إله ، ويقطع حتى يصلها بلا إله إلا الله . وقيل من ختم عند موته بإطعام مسكين ، أو صيام يوم أو يومين ـ دخل الجنة ، وقال حذيفة : أكتم هذا أم أعلنه ؟ قال : بل اعلنه .

ويروى أن الحسن دخل على جابر بن زيد ، وهو يجود بنفسه . فقال له : يا أبا الشعثاء : قل : لا إله إلا الله . فسكت ، فاشتد ذلك على الحسن ، ثم أعاد عليه القول ثانية فلم يجبه ، فاشتد [ذلك] على الحسن ، وقال : أمثل جابر لا يرزق عند موته شهادة لا إله إلا الله ؟ ثم أعاد عليه القول ثالثة ، فقال جابر : طالما قلناها إن تقبلت ، ثم تلا قول الله تعالى : « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ تَأْتِيَهِم الْمَلَائِكَةُ ، أَوْ يَأْتِيَ أَمْرُ رَبِّك ، أَوْ يَأْتِي بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ؛ يَوْمَ يَأْتِيَ بَعْضُ آيَاتِ رَبِّكَ ؛ لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا ؛ لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ ، أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا ». فقال الحسن : عالم ورب الكعبة. ولما دفن جابر بن زيد وقف الحسن على قبره ، وقال : اليوم دفن رَبّانى هذه الأمة .

وقول لا إله إلا الله – كسائر العبادات ، و [هى] أول المفترضات على المكلفين ؛ فمن لم يقصد بقولها إلى توحيد الله ، ولإنفاذ العبادة على سبيل الفرض الذى أمر به ، أو النفل الذى ندب إليه ، بعد دخوله فى الجملة التى دعا إليها رسول الله (ﷺ) – لم يكن مطيعا ، بل يكون عاصيا .

ومن أقر بأن لا إله إلا الله ، وحده لاشريك له ، وصدق به ، لم يثبت له الإسلام بهذا وحده حتى يقر بالجملة « بأن لا إله إلا الله ، وحده لاشريك له ، وأن محمدا (ﷺ) عبده ، ورسوله ، وأن ما جاء به محمد (ﷺ) – هو الحق المبين .

ولا يجوز لمن يجعل لا إله إلا الله علامة لبيعه ، ولا لشرائه ، ويرفع بها

صوته ؛ ليعلم أنه يبيع ، ويشترى ، وكذلك من يعمل عملا ، ويقول عند فراغه منه : لا إله إلا الله ، فيجعل ذلك علامة لفراغه من عمله .

وقيل : إن الكيّال ؛ إذا كال ، فطفف ، وقال : لا إله إلا الله ـ تقول الملائكة (عليهم السلام) : كذبت لعنك الله ؛ لست تعرف لا إله إلا الله ، أى : لست تعرف حق لا إله إلا الله ؛ إذ ضيعت أمر الله ، وركبت نهيه ؛ ولو عرفت حق لا إله إلا الله ؛ لم تركب نهى الله ، ولم تضيع أمره .

ويقال : هلك فلان ؛ إذا لم يكثر من قول : لا إله إلا الله ، والله أعلم ، وبه التوفيق .

* * *

القول الخامس والعشرون
فى نفى التشبيه عن الله عز وجل

قال الله تعالى فى نفى الأشباه عن نفسه : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ ، وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ » ؛ فنفى أن يشبهه شىء من خلقه، وقال: « هَلْ تَعْلَمُ لَهُ سَمِيًّا » ؛ أى : مثلا ، ونظيرا ، وقد قال : « وَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَنْدَادًا ، وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ » أنه لامثيل له عز وجل .

وقال فى ذم المشبهين : « إِنْ كُنَّا لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ ؛ إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ » فأخبر أنهم كانوا ضلالا هالكين ؛ بتشبيههم الخالق بالمخلوقين ، والقديم بالمحدثين ، وقال النبى (ﷺ) : تفكروا فى الخلق ولا تفكروا فى الخالق ؛ لأن التفكير فى الخلق يدل على أن الإنسان مخلوق ، وأن للمخلوق خالقا لا يشبهه .

وقال عبد الله بن مسعود : أشد الناس عذابا ـ المصورون ، وهم الذين صوروا الله فى قلوبهم ، وقال : ماعرف الله من شبهه بخلقه .

وقيل : إن عبد الله بن عمر كان جالسا فى أناس ، فأتى رجل ، فقال له : إنى قدمت هذه البلدة الليلة ؛ وإذا أنا برجل قد وسمت فيه الخير ، فقعدت إليه فحدثنى حديثا ضاق به صدرى ، فقال عبد الله بن عمر: ما هو ؟ فإنه لا إثم عليك ، إذا حدثت به من غيرك ، فقال قال : لى : إن الله تبارك وتعالى لما أن أراد

أن يخلق آدم عليه السلام ـ لم يدر كيف يخلقه ؛ حتى خلق مرآة ، فنظر فيها إلى وجهه ، فخلق مثاله ،فقال عبد الله بن عمر : تعالى الله لامثل لله ؛ إلا أن هذا الشيطان ـ أراد أن يدخلك فى دينه،ألا وإن الشيطان قد أيس منكم أن تعبدوا أصناما ظاهرا فتعبدونها ، ولكن يأتى الإنسان فيقول له: كيف ربك؟فلا يزال حتى يصف ربه بصفة الخلق،فيضل،ويُضل،فإن لقيته فأخبره أن عبد الله بن عمر برىء من دينك . ألا وإن النبى (ﷺ) سُئل عن الله ، فقال : [الله عز وجل قال] : « قُلْ هُوَ اللهُ أَحَدٌ اللهُ الصَّمَدُ لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » فإن وسوس الشيطان لكم ، فقولوا كما قال رسول الله(ﷺ).

قال معاذ (رضى الله عنه) : سيرجع أقوام من هذه الأمة عند اقتراب الساعة كفارا ، فقال له رجل : يا أبا عبد الرحمن: بالأحداث كفرهم أم بالجحود قال : لا ؛ ولكن بالجحود يجحدون خالقهم ، فيصفونه بالصور ، والأعضاء والمفاصل ، أولئك الذين لا خلاق لهم فى الآخرة ، ولهم عذاب عظيم .

وقيل : من شبه الله فهو منافق ، وليس بمشرك . كذلك رفع عن أبى عبيدة ، ومحبوب (رحمهما الله) .

وقال محمد بن محبوب (رحمه الله) . من قال : إن لله يدا كيد المخلوقين ، فقد أشرك ، وإنما لم يلحقهم بالشرك ؛ لأنهم تأولوا آيات الله عز وجل على غير تأويلها فى اجتهاد منهم على أن يوافقوا العدل فيها ، وهم مصدقون بتنزيل ما جهلوا تأويله ، متمسكون بما عرفوا ، الطالبون لما لم يعرفوا .

وقيل : أتى رهط من اليهود إلى النبي (ﷺ) ، فقالوا : يا محمد . هذا الله الذى خلق الخلق . فمن خلقه ؟ فغضب رسول الله (ﷺ) حتى امتقع لونه . أى تغير ، ثم واثبهم غضبا لربه ، فجاء جبرائيل (عليه السلام) فسكنه ، وجاءه من الله جواب ما سألوه ؛ « بقل هو الله أحد » إلى تمام السورة .

وبلغنا أن عبد الله بن مسعود (رضى الله عنه) مرّ بحلقة ، وفيهم رجل من اليهود يحدثهم ، فقال : ما يحدثكم ؟ قالوا : يحدثنا عن التوراة ، وعن ربنا . قال : عن ربكم بماذا يقول ؟ قالوا : يقول : إن الله لما خلق السموات والأرض صعد إلى السماء من بيت المقدس ، ووضع رجله على الصخرة التى فيه ، وأنه ينزل إلى السماء الدنيا فى النصف من شعبان ؛ فقال ابن مسعود (رضى الله عنه) إنا لله وإنا إليه راجعون ثلاث مرات ، ثم قال اللهم لا كفر بعد إيمان ، « وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا فَتَكُونُونَ سَوَاءً » فهلا قلتم كما قال إبراهيم خليل الله (عليه السلام) . « إنى لا أُحِبُّ الآفِلِينَ » يعنى الزائلين المنتقلين .

ألا فاتهموا اليهود والنصارى على دينكم ، ولا تصدقوهم على ما يخالف كتابكم فإنهم سيضلون أكثر هذه الأمة ، ألا إن ربكم ليس بزائل ، ولا متنقل ، ومن وصف الله زائلا فقد كفر ، ومن شبهه بشىء من الأشياء فقد كفر .

وقال بشير بن حمد بن محبوب (رحمهم الله) : إذا خطر ببالك خاطر

فى الله عز وجل ؛ أنه يشبه شيئاً ، أو يشبهه ، فانفِ ذلك عن الله عز وجل ؛ فإنه تعالى يقول : « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ » ، وإن دعاك الخاطر ؛ أن الله تعالى فى معزل ، أو كيف هو ؟ أو مثل ما هو ؟ وهو نور من الأنوار ؛ أو ذو طول أو عرض ؛ أو جسم أو مؤلف ؛ أو مماس الأشياء ، أو مباين لها فى معزل فانفِ عنه ذلك كله ؛ فإن هذه الأشياء لا يجوز شىء منها على الله تعالى .

وقال أبو عبد الله : أخبرنى المهلب بن سليمان : أنه قال بعض أصحاب النبى (ﷺ) : يا رسول الله إن الشيطان قد يوسوس لنا الشىء ، حتى يبلغ بنا الفكرة فى ذات الله : أن الله خالق كل شىء ، فمن خلق الله ؟ فقال النبى (ﷺ) : ذلك محض الإيمان ، وخاطر القلب متعبد به الإنسان كما [هو] متعبد بسمعه ، وبصره ، وشاهد ذلك من كتاب الله تعالى : « إِنَّ السَّمْعَ ، وَالْبَصَرَ ، وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا » ، فهو مسئول بما اعتقد بقلبه ، مثاب على ما اعتقد بقلبه .

فمن قال بقلبه ، وأسر فى نفسه ، ولم يلفظ به لسانه ـ فقال تعالى : « وَيَقُولُونَ فِى أَنْفُسِهِمْ : لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللهُ بِمَا نَقُولُ » ، فقد كان قول فى النفس بغير حركة باللسان ـ أوجب الله عليه العذاب وقال : « حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا وَبِئْسَ الْمَصِيرُ » .

وقال النبى (ﷺ) فيما روى عنه : « الإيمان قول ، وعمل ، ونية ، وموافقة السنة ؛ فلا يكون الإيمان إلا بهذه الأربع ـ والكفر قول ، وعمل ، ونية ، ومخالفة السنة .

والدليل على أن المعصية لا تكون إلا من قاصد إليها ـ قول الله جل ذكره: « وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ فِيمَا أَخْطَأْتُمْ بِهِ ، وَلَكِن ما تَعَمَّدَتْ قُلُوبكُمْ » ، [وبما] روى عن النبي (ﷺ) أنه قال : « إن الله يقول : إذا همّ عبدى بحسنة ؛ فإن عملها كتبتها له عشرا إلى سبعمائة ، وعند الله أضعاف كثيرة ـ قيل : الأضعاف الكثيرة ألف ألف ـ وإن لم يعملها كتبتها واحدة ؛ وإذا همّ بالسيئة : فإن عملها كتبتها واحدة ، وإن لم يعملها : لم أكتبها .

وقيل : من نوى أن يعمل كبيرة ، ثم مات ، ولم يتب عن تلك النية ، ولو لم يكن عملها لكان هالكاً . وروى عن النبي (ﷺ) أنه قال : « عفى عن أمتى الخطأ ، والنسيان ، وما حدثوا به أنفسهم ، وما أكرهوا عليه » ، وتفسير ذلك : من أخطأ بالقول فزل لسانه ، فتكلم بشيء من الكفر ـ لم يكن عليه إثم .

وقيل : إن رجلا أراد أن يقول : اللهم أسكنى الجنة ، فقال : اللهم أسكنى النار ، فاشتد ذلك عليه ، فقال له النبي (ﷺ) : لا بأس عليك ، إنما لك ما نويت .

وأما قوله (ﷺ) : « وما أكرهوا عليه » ، وقد كان المشركون يكرهون عمار بن ياسر على الشرك ، فلم يكن عليه إثم بالتكلم بالشرك ، وقلبه مطمئن بالإيمان .

وأما النسيان : فمن نسى شيئاً من حقوق الله ؛ فهو سالم ، ولا إثم عليه ، وإن ذكره فليؤدّ ما نسى من صلاة أو غيرها .

وأما ما حدَّثوا به أنفسهم : فالخاطر الذى يخطر بالقلب ، من غير تحقيق للخاطر ، ولا اعتقاد منه لذلك ؛ وإنما يُلم فيه ذلك فيحدث نفسه بشىء من المكفرات أو بشىء من عظيمات الكفر فى أمر التوحيد ، وفى صفة الله عز وجل ، وبغير ذلك ، وكلما حدثته نفسه بذلك ، وألمّ بقلبه : فهو محنة يعارض بها صفة الله عز وجل وغير ذلك ، وهو محض الإيمان فيما قيل ؛ ما لم يحقق ذلك ، ويعتقده ، ويرضى بذلك ، ولا ينكره — فهو سالم . ولا يكون الحديث أكثر من السماع والرؤية للكفر والمعاصى ، فإذا أنكر ذلك الذى رآه وسمعه . تعبد فيه على ما تعبد فيه — فهو سالم ؛ إذا وافق اعتقاد السلامة .

فإن دعاك الخاطر على أن الله يظلم ، أو يجور ، أو يأخذ أحداً ، أو يعذب الوالد بفعل الولد ، أو الولد بفعل الوالد ، أو يعذب من لم يكن منه معصية فى الدنيا — فانفِ عنه ؛ فإن هذه الأشياء لا يجوز منها شيء على الله تعالى ؛ لأن فاعلها لا يستحق أن يوصف بالحكمة ، والرحمة ، والله عز وجل حكيم رحيم .

وإن دعاك الخاطرُ أن الله جل ثناؤه يقول الكذب ، أو يخلف الميعاد ، أو يخبر بخبر لم يكن كما أخبر — فانفِ ذلك عن الله تعالى ؛ فإنه لا يجوز عليه شيء من هذا ؛ لأنه جل وعلا نفى عن نفسه شبه المخلوقين . وهو علام الغيوب .

* * *

القول السادس والعشرون

فى النفس ، والوجه ، والعين ، واليد ، واليمين والقبضة ، والتجلى

قيل: إن النفس عند العرب: هى النفس المنفوسة فى قوله تعالى: « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ »، والنفس أيضا يؤكد بها عن حقيقة الشىء، كما تقول: هو الحق نفسه ، والأمر نفسه، وهذا الشىء نفسه، وتقول: أنا لقيته بنفسى أى: أنا لقيته، والنفس · الرأى ، والإرادة فى قولهم : نفس فلان فى كذا أى : إرادته فيه .

والنفس: العين التى تصيب الإنسان، والنفس: الضمير، ومافى قلب الإنسان، والنفس : الدم فى قولهم امرأة نفساء .

فالنفس المنفوسة عن الله منفية ؛ لأنها لا تكون إلا المخلوقين ؛ لأنهم بها يحيون ، والله تبارك وتعالى لايشبهه شىء من خلقه ، فمن زعم أن لله نفسا غيره، هى حالة فيه ؛ فقد أعظم على الله الفرية .

وإن قال قائل : فما معنى قوله تعالى : « تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي ، وَلَا أَعْلَمُ مَافِي نَفْسِكَ » ؟ [قيل له] : أى تعلم غيبى ولا أعلم غيبك .

وقوله عز وجل: « وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ » أى: عقوبته، وقيل: «ويحذركم الله نفسه » : أى يحذركم اللهُ اللهَ ، وقوله عز وجل : « تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي ، وَلَا أَعْلَمُ مَافِي نَفْسِكَ » أى : لا أطلع على غيبك ، وقولٌ : تعلم ماأعلم ، ولا أعلم ماتعلم ، وقولٌ: تعلم ماعندى ، ولا أعلم ماعندك ، وقول: لا أعلم مافى علمك ،

وقول: تعلم ما كان منى فى دار الدنيا، ولا أعلم ما يكون منك فى الدار الآخرة، وقول: تعلم ما تريد، ولا أعلم ما تريد، وقول: تعلم سرّى، ولا أعلم سرّك؛ لأن موضع السرّ فى النفس.

والنفس عبارة عن جملة الشىء، وحقيقته، وذاته، وقوله تعالى: « كَتَبَ رَبُّكُمْ عَلَى نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ » أى: على ذاته، لا على شىء سواه، وقوله: « إِنْ أَحْسَنْتُمْ أَحْسَنْتُمْ لِأَنْفُسِكُمْ » أى: لذاتكم ولكم أى: لا لشىء غيركم، والله أعلم.

فصل:

والوجه عند العرب على معان مختلفة، أحدها: يراد بها الشىء نفسه، تقول العرب: هذا وجه الأمر، ووجه الرأى، ووجه القوم، ووجه المتاع؛ إذا أخبرت عن الشىء بعينه، وهذا وجه الطريق، أى: الطريق، أى: هو الطريق نفسه، ويقولون: إنى لأكره أن أرد وجهك أى: أردك.

والوجه الثانى: تقول: ما أعرض وجه فلان، ولفلان وجه مشرق يراد به: الانبساط فى تجارته، والقدر عند قومه، ويقال: كيف وجه الأمر فى هذا الأمر. أى: هذا السبيل، ويقال: فلان وجه من وجوه قومه. أى: من عظمائهم.

وكل هذه المعانى: عن الله عز وجل منفية إلا المعنى الأول وهو: أن وجه الشىء وهو الشىء نفسه لا غيره، وقوله عز وجل « إِنَّمَا نُطْعِمُكُمْ لِوَجْهِ اللهِ » أى نطلب ثواب الله، وقول: لقصد رضا الله - والوجه: القصد إلى الشىء، والعمل فيه -

وقولٌ : لوجه الله أي : لله ، وقوله تعالى : « فَأَيْنَمَا تُوَلُّوا فَثَمَّ وَجْهُ اللهِ »
أي: ثم الآخر، والآخر ثم الوجه إلى الله ـ يراد به تلقاء القبلة: وهي الكعبة،
والوجه إلى الله عز وجل، وقوله عز وجل : « كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ ، وَيَبْقَى وَجْهُ
رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ » ، وقوله : « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ » .
أي : كل الأعمال تضمحل، زائل نفعها إلا ما التمس به وجه الله تعالى ، وتقرب
به إليه ، وقيل كل شيء هالك إلا وجهه ، أي : إلا الله عز وجل .

ولا يجوز أن يكون الله تعالى [له] وجه على ما يفعل من وجوه الأجسام،
لأن الله تعالى ليس بجسم ، ولا يجوز عليه التبعيض ، فيكون وجهه بعضه ؛
لأن من كان كذلك كان ذا تركيب ، وتصوير ، وكان تركيبه قاضيا على
حدوثه ؛ كما أن تركيب الأجسام قاض على حدوثها ، لأن من جاز عليه الاجتماع
جاز عليه الافتراق ، والاجتماع والافتراق هما عين المجتمع ، والمفترق ، ولا بد
أن يكونا محدثين .

فلما كان الله عز وجل قديما ـ لم يجز عليه الاجتماع ، ولا الافتراق ،
ولا يجوز أن يكون ذا جسم متبعض ، وكذلك : لا يجوز أن يكون ذا وجه
على ما يعقل من وجوه الأجسام ، وإنما ذكر الوجه لله تعالى على جهة التوسع ،
والمجاز ، إذ كان عند العرب مستعملا معروفا ، ومعنى وجه الله : هو الله
تعالى .

فصل :

والعين على معانٍ : هى الجارحة من الحيوان ، وهى العين المركبة فى الرأس ، والعين : الحفظ ، والمشاهدة ، والعين : الدلالة ، والعين : العقوبة ، والعين : الجودة ، والعين : الجاسوس ، والقبلة ، والدينار ، والعين التى هى الجارحة المركبة فى الرأس ـ منفية عن الله تعالى .

وقولهم : أنت بعين الله . أى : فى حفظ الله ، لا تخفى عليه ، وهو معك يحفظك ، وقولهم أصابك عين من عيون الله . أى : عقوبة ونقمة من نقماته .

وقولهم : هذا عين العدو ، وعين الخليفة ـ يريدون به الدلالة ، وقولهم : هذا : عين مالنا ، وإبلنا ، وبقرنا ، وغنمنا ـ يريدون به خير مالنا ، وكذلك : عين السوق أى : خير مال موجود فى السوق ، وقولهم : عين من الأعيان . أى : شىء من الأشياء .

وقال ابن عباس : « وَلِتُصْنَعَ عَلَى عَيْنِى » أى : تربى بكلاءتى ، وقيل : على علمى ، وحفظى ، وقيل : على مرأى منى لا أكلك إلى غيرى ، وقال أبو عبيدة ولتصنع على عينى ، أى : على ما أريد ، وأحب . فالأشياء كلها بنظر الله ، وحفظه على المشاهدة ، والإحاطة ، والعلم ؛ لا على معنى : نظر الجارحة المحدودة .

فصل :

وأما اليد : فعلى معان : منها ـ الملك ، والقدرة ، والمن ، والعطية ، ويد الشيء : هو الشيء نفسه قال الله تعالى [لإ]بليس : « مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِيَدَيَّ أَسْتَكْبَرْتَ » أى : توليتُ أنا خلقه ـ واليد صلة فى الكلام ، قال الله تعالى : « ذَٰلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ » أى بما قدمت أيها العبد ، وقوله : « وَمَا أَصَابَكُم مِنْ مُصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُم » أى : كسبتم ، وقوله تعالى : « أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا خَلَقْنَا لَهُمْ مِمَّا عَمِلَتْ أَيْدِينَا أَنْعَامًا » أى خلقنا نحن .

وأما اليد التى يراد بها الملك . فقولهم : الملك فى يد فلان ، والمال ، والأمر فى يد فلان ، ويريدون أن فلانا مالك له ، وقادر عليه .

وأما اليد التى يراد بها النعمة والعطية ، فقولهم لك عندى يد ، وعندك يد . يعنى : نعمة ومنة ، ويصدق ذلك ـ قوله تعالى : « إِنَّمَا يُبَايِعُونَ اللَّهَ ؛ يَدُ اللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِم » يعنى : منة الله فوق منتهم [أو] اليد : القوة . ، فأما اليد التى هى الجارحة من جوارح المخلوقين فهى منفية عن الله تعالى ، وقوله تعالى : بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ » يعنى نعمته ، وقدرته دائمتان ، لايقبضهما شىء، واليد هاهنا : النعمة ، وقيل : معنى : « بَلْ يَدَاهُ مَبْسُوطَتَانِ » يعنى نعمة الدين ، ونعمة الدنيا .

فصل :

واليمين فى كلام العرب على معان منها : ما يراد به الشىء ، ومنها ما يراد به القدرة ، ومنها ما يراد به الرفعة ، ومنها ما يراد به الحلف ، ومنها ما يراد به القوة .

فأما التى يراد بها الشىء نفسه : قولهم : هذا ملك يمينى يعنى : هذا ملكى ، وأما اليمين التى يراد بها القدرة [فـ]قوله عز وجل : « وَالسَّموات مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ » ، وأما التى يراد بها القوة [فـ]قوله تعالى : « وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضَ الْأَقَاوِيلِ ، لَأَخَذْنَا مِنْه بِالْيَمِينِ » أى بالقوة . وأما اليمين التى هى الحلف : وهى القسم .

وأما اليمين التى هى الجارحة فهى منفية عن الله عز وجل لأنها من صفات المخلوقين ، وقوله تعالى « والسَّموات مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِهِ » أى : فانيات ذاهبات بأمره وقوته ، وقوله « مطويّاتٌ » أى ذاهبات بقسمه ؛ لأنه أقسم ليفنيها .

وقد يستعملون اليد ، واليمين ، عند الملك ، والسلطان فمنه قول الواعظ : كن بما فى يد الله أوثق منك بما فى يدك . أى : لما فى ملك الله عز وجل ، وقوله : « وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم » معناه : ملكتم ، وقال للنبى (ﷺ) : « وَمَا مَلَكَتْ يَمِينَكَ » أى ملكت ، وهذا توسع ، ومجاز فى لغة العرب ، وكلامهم .

فصل :

والقبضة فى كلام العرب: الملك ، والقدرة، والنفس ، وإفناء الشىء ، وقبض الأرواح . فالملك ، والقدرة قولهم : ما فلان إلا فى قبضتى . أى : فى ملكى ، وقدرتى ، وصار المال فى قبض فلان ، أى : فى ملكه .

وأما القبضة التى هى فناء الشىء فهو قولهم : قد قبضه الله إليه . يعنون قد أفناه الله من الدنيا ، لا أنه قبضه الله القبضة المعقولة بيننا باليد التى هى الجارحة : تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا ، فإن قال قائل : ما معنى قوله عز وجل : « وَالأَرْضُ جَمِيعاً قَبْضَتُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ » قيل [له] : إنه قد روى عن ابن عباس (رضى الله عنه) ، والحسن ، وقتادة أنهم قالوا : فى قدرته ، وسلطانه ، وملكه . وقال غيرهم : يعنى ذاهبة فانية يوم القيامة بقدرة الله سبحانه وتعالى ، وهو القادر على فنائها .

وجائز أن يقال الأشياء فى قبضته تعالى أى : فى ملكه لا قبضة جوارح ؟ إذ الجوارح عن الله تبارك وتعالى ـ منفية وأما قوله تعالى « يَقْبِضُ وَيَبْسُطُ » فقيل : يُقتِّر أى : يضيّق على قوم ، ويوسع على من شاء ؛ لا يريد بذلك قَبْضَ اليد التى فيها الأصابع ، ولا بسطها ، فلو كان ذلك كذلك ـ لما جاز أن يكون قابضا باسطا فى حالة واحدة ، والله تعالى فى حال واحد : يقبض الرزق على من يشاء ، ويبسط على من يشاء ، وفى الحال التى هو فيها قابض عن هذا ـ باسط على هذا ، لأنه على كل شىء قدير .

وأما ما رووه أن قلب ابن آدم بين أصبعى الله تعالى يمثله كيف يشاء ، فإن كان الحديث حقا ؛ فمعناه : أنه مثل لهم قدرته بأوضح ما يعرفون من أنفسهم ؛ لأن الرجل منهم لا يكون على شىء أقدر منه على الشىء ؛ إذا كان بين أصبعيه، كقولهم : فلان فى يدى ، وإلا فى كفى ، وإلا فى خنصرى ، إنما يريد بذلك إثبات القدرة أى : أنا عليه قادر ، وله قاهر لا يمنعه منه شىء ، لا يريد أن الخنصر يحويه . وذهب بعضهم : إلى أن قوله (ﷺ) : « بين أصبعين » أى : نعمتين من نعمه ، إحداهما : سوق الخير إليه ، والفسحة فى التماس الرزق ، والأخرى : هى صرف الشرور عنه . وقيل : الأصبع الأثر الحسن فى الحجاب.

ذكر أهل الجهل : أن الله تعالى احتجب بحجب ساترة ، وكذبوا على الله فليس بين الله وبين خلقه حجاب ، لأنه لو كان محتجبا بالحجب لم يحتجب عن الحجب ، وهى خلق من خلقه ، والله تعالى ، لم يحتجب بخلقه عن خلقه ، ولا بشىء غيره ، ولو جاز أن يحتجب بخلقه كان بما احتجب به مرتفعا ، وإليه محتاجا ، والله تعالى لا يحتاج ، ولا يفتقر لشىء .

وقال على فى قوله تعالى : « وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا ، أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ » ، أى : ما ينبغى لبشر . كما قال : « مَا كَانَ اللَّهُ تعالى أَنْ يَتَّخِذَ مِنْ وَلَدٍ » .

وروى أنه قال : إن الله تعالى حجب الكلام الذى سمعه موسى عن أهل السماء ، والأرض ؛ فلم يسمعه إلا موسى (عليه السلام) وهذا أحسن ما قيل فى هذا الباب .

وقال بعض العلماء : الحجاب فى اللغة على معنيين : حجاب ساتر ، وهو الذى يعقله الناس ، وحجاب بمعنى المنع من غير ستر مصور بشخص .

فلما كان موسى (عليه السلام) غير جائزة منه الرؤية لله تعالى ، ولم يكن الله تعالى يجوز عليه ذلك ـ جاز أن يقال : موسى محجوب عن الله ؛ كما أن الرجل قبل أن يتكلم فيمنعه مانع ، ويقول : حجبنى فلان عن الكلام، ويقول حجبنى خوف الله تعالى عن المعاصى ، أى : منعنى ، ويقال : الضرر محجوب . أى : ممنوع ، وليس هناك حجاب ساتر . فكذلك موسى (عليه السلام) محجوب عن الله ، إذا كان تبارك وتعالى لاتجوز عليه الرؤية ، ولا يرى ؛ لأنه قديم ، ولا يرى فى الدنيا ، ولا فى الآخرة ، لأنه لا تغيير عن صفاته أبداً فى الدنو .

والدنو من الله تعالى ، هو سرعة الإجابة ، وقرب المنزلة ، ألا ترى أن العرب تقول : أتينا فلانا فأسرع إلينا . يعنون إلى إجابتنا ، وإلى ما سألناه .

قال الله تعالى : « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي ، فَإِنِّي قَرِيبٌ ؛ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ ؛ إِذَا دَعَانِ ، فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي » أى : فليجيبوا إلى طاعتى .

وقيل : الدعاء الطاعة ، والإجابة : الثواب ؛ كأنه قال : أجيب دعوة الداعى بالثواب إذا أطاعنى ، وهذا إذا لم يسأل الداعى محالا .

ويروى عن النبي (ﷺ) أنه قال : « مامن مسلم دعا الله دعوة ـ ليس فيها قطيعة رحم ، ولا إثم ـ إلا أعطاه الله بها إحدى خصال ثلاث . إما أن يعجل دعوته ، وإما أن يدّخر له فى الآخرة ، وإما يدفع عنه من السوء مثلها » ، فالإجابة كائنة عند حصول الدعوة ؛ لأن قوله تعالى : « أجيب » حين لا يجوز عليه النسخ .

وقيل : للدعاء آداب ، وشرائط هى أسباب الإجابة ، ونيل المنية ؛ فمن وعاها ، واستكملها ، كان من أهل الإجابة ، ومن أغفلها ، واستهان بها فهو من أهل الاعتداء فى الدعاء .

وقيل لإبراهيم بن أدهم : مالنا ندعو الله فلا يجيب لنا ؟ فقال : لأنكم عرفتم الله فلم تطيعوه ، وعرفتم الرسول فلم تتبعوا سنته ، وعرفتم القرآن فلم تعملوا بما فيه ، وأكلتم نعمة الله فلم تؤدوا شكرها ، وعرفتم الجنة فلم تطلبوها ، وعرفتم النار فلم تهربوا منها ، وعرفتم الشيطان فلم تحاربوه ، ووافقتموه ، وعرفتم الموت فلم تستعدوا له ، ودفنتم الأموات فلم تعتبروا بهم ، وتركتم عيوبكم ، واشتغلتم بعيوب الناس .

« فى التجلى وأما التجلى فى كلام العرب ، ولغتهم فهو ظهور الشىء ، وقد يظهر بوجهين مختلفين ظهور جهرة ، وظهور دلالة .

« فى التجلى » :

وأما التجلى الذى يكون جهرة لا يكون إلا جسما ، أو هيئة ، أو فعلا مشهودا لأن الأبصار لاتدرك إلا ما كان كذلك .

وأما التجلى الذى يظهر بالدلائل : [ف.] مثل قول القائل : تجلى لى هذا الشىء إذا بان ، وظهر بالدلائل الحقيقات التى لا ريب فيها .

فالتجلى من الله تعالى : إنما يكون بالدلالات ، والبينات ؛ لأنه سبحانه وتعالى ليس بجسم ، ولا عرض ، فيتجلى جهرة .

وقيل فى معنى قوله عز وجل : « فَلَمَّا تَجَلَّى رَبُّهُ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُ دَكًّا » أى تجلى بآية من آياته ، فلم يطق الجبل حمل تلك الآية ، وصار دكا ؛ كما قال الله تعالى : « لَوْ أَنْزَلْنَا هٰذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَرَأَيْتَهُ خَاشِعاً مُتَصَدِّعاً مِنْ خَشْيَةِ اللهِ » .

وكذلك كان الجبل دكا على ما ذكر من خشوع الجبل .

وقيل : إن الآية التى تجلى بها ـ هى من أعلام القيامة ، وهى غير الله سبحانه وتعالى ، والله المتجلى ، والتجلى غيره ، والمتجلى خالق ، والتجلى مخلوق ؛ لأنه غير الله تعالى .

وقولهم فى الدعاء : سبحانك خلقت من آياتك ، وعجائب تدبيرك ما تجليت به لخلقك ، وأوصلت إلى القلوب من معرفتك ؛ ما آنسها من وحشة الفكر فيك .

وهذا على سعة كلامهم ؛ لأن الله انكشف ، وظهر ـ تعالى الله عن ذلك .

* * *

القول السابع والعشرون
فى النظر ، والرؤية ، والكلام

النظر فى لغة العرب على معان : نظر على جهة الانتظار مثل قولهم : انظر الفرج من الله تعالى ، ثم على يدى فلان — بمعنى انتظر ؛ لأن ذلك لاتنظره إلا الأعين ، ونظر على جهة الإمكان من قولهم : إنما أنظر إلى رزق الله وفضله ، ونظر : على جهة الاختيار ، كقولهم : أنظر لى من هذا وهذا ، أى : اختر لى. ونظر على جهة الحكم من قولهم : انظر بيننا : أى احكم بيننا ، وقولهم : ما أحسن ما نظرت بيننا . أى حكمت بيننا ، ونظر على جهة التثبت مثل قولهم: انظر ما يقول فلان أى تثبت ، وتبين ما يقول ، ونظر على جهة العائدة ، والرحمة مثل قوله تعالى . « وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِم » . أى لاينظر إليهم برحمته ، ونظر على جهة الخلق إلى الله تعالى انتظار فضله ، ورزقه كرامته فى الدنيا ، والآخرة .

فليس لأحد من الخلق أن ينظر إليه جهرة لا فى الدنيا ، ولا فى الآخرة ؛ لأن الأبصار لا تدرك إلا الأجسام المحدثة ، أو فيما يكون فى معنى من معانيها ، ولا يدرك ، ولا يرى بالأبصار إلا ما كان محدثا محدودا ، والمحدود لا يكون إلا جسماً ، أو هيئة لجسم ، والجسم صنعة صانع ، وكل مصنوع له صانع ، والصانع لا يشبه المصنوع . فمن زعم أنه يرى الله جهرة ؛ فقد زعم أنه محيط بالله تعالى ؛ لأن الأبصار إذا رأت شيئًا فقد أحاطت به وبما رأت وعليه وقعت؛

إما على كله ، وإما على بعضه ؛ فإن وقعت عليه كله ـ فقد حصرته ، وحدّته ، وأحاطت به ، فإن وقعت على بعضه ، فقد جزأته ، وبعضته ، والله تبارك وتعالى لا يجوز عليه ذلك .

ونظر من جهة العلم ؛ مثل قولهم : انظر إلى ما صنع فلان . أى : اعلم ذلك ، قال الله تعالى : « انظُرْ كَيْفَ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ » ، « انظُرْ كَيْفَ ضَرَبُوا لَكَ الْأَمْثَالَ » ، ونحو هذا ـ يريد اعلم .

وأما نظر الجهر ، فهو معاينة الشيء ، ورؤيته ، وإدراكه ، والإحاطة به ، وذلك ـ عندنا ـ منفى عن الله تعالى .

وقيل : معنى الرؤية ، هى المعرفة ؛ إلا ما كان يدرك من جهة الأبصار ، فذلك رؤية جسم ، وأما ما سواه فالرؤية بمعنى المعرفة ، قال الله تعالى: « أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِأَصْحَابِ الْفِيلِ » ، وقوله : « أَلَمْ تَرَ إِلَى رَبِّكَ كَيْفَ مَدَّ الظِّلَّ » ، و « أَلَمْ تَرَ أَنَّا أَرْسَلْنَا الشَّيَاطِينَ عَلَى الْكَافِرِينَ » ، « أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِنْ دِيَارِهِمْ » ، ومثل هـــذا فى القرآن كثير . وكل ذلك معناه ألم تعلم ذلك ؟ وتعرفه بالخبر الذى أخبرتك به ؟ ، واللغة ناطقة شاهدة بذلك . يقول القائل : قد أرى ما يجىء منك ، وأرى الحق كما أراك . أى : أعرف الحق كما أراك . قال الله تعالى : « أَوَ لَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ » ، وهم إذ ذاك لم يكونوا ، وإنما خلقوا من بعدهم . وإنما عرفوا ذلك بالأخبار ، لا بالنظر بالعين ، وقوله عز وجل : « وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ

الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ ، فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ ، وَأَنْتُمْ تَنظُرُونَ » ، والموت لا يرى جهرة ، وإنما رؤيته بالمعرفة .

وقد مدح الله نفسه فقال : « لا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ، وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » ، فمن زعم أن الأبصار تدركه فى الآخرة ، فقد زعم أن مدائح الله عز وجل تزول فى الآخرة ، وهذا لا يجوز على الله تعالى ، وقد نفى الله عز وجل أن تدركه الأبصار ، وأن يُرى جهرة ؛ فهو سبحانه وتعالى : لا يُرى فى الدنيا ، ولا فى الآخرة ؛ لأن مدائحه لا تزول ؛ فإن قال قائل : أنه لا يُرى فى الدنيا ، ويُرى فى الآخرة — فعليه إقامة الدليل .

ولا يجوز فى حجة العقل : أن يُرى الله تبارك وتعالى جهرة بالأبصار ؛ لأنه لا يخلو الناظر إليه من أن يكون يراه فى مكان دون مكان ، أو يراه فى كل مكان ؛ فإن كان يراه فى مكان دون مكان — فما فضل الخالق على المخلوق ؟ إذا كان المخلوق فى مكان دون مكان ؛ والخالق كذلك ؛ وهذه صفة المحدود ؛ والله تعالى جل وعلا عن ذلك .

وإن كان يراه فى كل مكان — فالمخلوق إذن أعظم من الخالق إذ كان هو فى مكان ينال بصره من مكان فى كل مكان ، — وأيضا — فلا يخلو من أن يكون يراه حتى لايخفى عليه منه شىء ، أو يخفى عليه منه شىء ؛ فإن كان لايخفى عليه منه شىء إلا ويراه — فقد أحاط به ، والمحاط به صغير ، والمحيط به أكبر منه ، وإن كان يخفى عليه منه شىء فالذى خفى عليه — غير الذى لم يخف ، وهذه صفة المحدود ، والمتغاير الذى بعضه غير بعض ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

وقيل : سئل النبي (ﷺ) هل رأيت ربك ؟ فقال : لن تراه الأبصار بالمشاهدة فى الدنيا ولا الآخرة . ولكن رؤية القلوب بحقائق الإيمان ، وللقلب رؤية كما للعين رؤية .

وأما ماروى عن جرير بن عبد الله البجلى - أنه روى عن النبي (ﷺ) أنه قال: سترون ربكم يوم القيامة؛ كما ترون القمر ليلة البدر؛ لاتضامون فى رؤيته - فلم يصح هذا الخبر عن النبي (ﷺ) عند الأكثر من أصحاب رسول الله (ﷺ) وإن صح؛ فنخرج معناه: أنكم سترون ربكم، كما ترون هذا القمر - أى: تعرفون ربكم اضطرار معرفة ، لاشك أن الله أخبرهم بكتبه المنزلة على ألسن أنبيائه بما يكون من أمر القيامة . والأكثر من الناس لايؤمنون بذلك يقينا؛ فإذا عاينوا أمر القيامة تيقنوا معرفة الله، وصدق وعده، ووعيده ، وصار معهم الخبر عيانا، والشك يقينا ؛ كما يعاينون القمر ليلة البدر من صحة اليقين بمعرفته اضطرارا ؛ لأن معرفة الله عز وجل فى الدنيا باكتساب يقع فيها الاختلاف ، ويعترض فيها الشك لمن يجهل ذلك .

وأما [معرفة الله] فى الآخرة فتقع المعرفة بالاضطرار، واليقين بصحة ماأخبر الله تعالى عباده فى كتبه، وصدق رسله؛ أنه سيكون كذلك، كما أخبر الله تعالى عنهم؛ بأن قالوا: « هَذَا مَا وَعَدَ الرَّحْمَنُ ، وَصَدَقَ الْمُرْسَلُونَ » لأن رؤية البصر لاباإدراك لشخص محدود ، وذلك منفى عن الله تعالى ؛ كما ذكرنا .

وأما الرؤية التى هى معرفة القلب بالدلائل التى ألهمنا الله إياها بما نشاهده

من آياته ، وإظهار حكمته ، وإحكام صنعته : فذلك صحيح فى قلوب أهل العلم من أهل الإيمان ، والعلم بالله ، كصحة رؤية القمر ليلة البدر فى الدنيا ، ولم يعلم ذلك أهل الجهل فى الدنيا ، وأما فى الآخرة ؛ فينكشف اليقين ، ويزول الشك عن العالم ، والجاهل ؛ لما يعاينون من أمر الله تعالى ، وصدق وعده .

فإن صح هذا الخبر فيخرج معناه على هذا التأويل كما قال الواصفون لله تعالى بما نزه نفسه عنه بقوله : « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ، وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ » .

وهذه صفة لا تنسخ ، لأن هذا خبر ، والأخبار لا تنسخ ، ولأنه مدح نفسه بهذا ، ومدائح الله لا تزول ، ولا تتحول ، وهذا ما نعتقده من القول الصحيح فى هذا .

ولقد أحسن على بن أبى[1] طالب حيث يقول :

رأيتُ ربّى بعينِ قلبى ... فقلتُ : لا شكَّ أنتَ أنتا

أنتَ الذى حُزْتَ كلَّ أينٍ ... بحيث لا أينَ . . . ثَمَّ أنتا

وجُزْتَ حدّ الدُّنوِّ حتّى ... لا يَعْلَمُ الأينُ . أينَ أنتا

---

(١) قال أبو عثمان المازنى : لم يصح عندنا أن عليا تكلم بشىء من الشعر إلا هذين البيتين :

تِلْكُمْ قُرَيْشٌ تَمَنَّانِى ؛ لِتَقْتُلَنِى ... فَلَا وَرَبِّكَ . ما بَرُّوا ، وما ظَفِرُوا

فإنْ هَلَكْتُ فَرَهْنٌ ذِمَّتى لَهُمُو ... بذاتِ ، ودقَيْنٍ لا يعْفُو لها أَثَرُ

وذات ودقين : الداهية ؛ كأنها ذات وجهين ، وذكر غيره أنه وردت عنه أبيات ، وأشعار كثيرة من طرق متعددة اهـ م .

فَحيْثُ لا أيْنَ منْكَ أيْنٌ ... وليْسَ أيْنٌ بِحَيْثُ أنتَا

وَلَيس للوهْمِ فيك وهْمٌ ... فيَعْلَمُ الوَهْمُ أيْن أنْتَا

فأنْتَ منىَ خِيالَ عَيْنِي ... فَحيْثُما كُنْتُ كُنْتَ أنْتَا

فَمُنَّ بالعفْوِ يا إلٰهِي ... فلستُ أرجُو سِوَاكَ أنْتَا

فصل :

وروى أبو الزبير عن جابر بن عبد الله قال : قال رسول الله (ﷺ) : أن لا يرى أحد ربه فى الدنيا ، والآخرة ، وقيل : إن أباذر (رضى الله عنه) قال : يارسول الله . هل رأيتَ ربك ؟ فقال : لا ؛ فنفى أن يكون مرئيا ، وقال على فى قوله تعالى : لاَتُدْرِكُهُ الأبصار » فى الدنيا ، والآخرة .

وقيل لعائشة (رضى الله عنها) : هل رأى محمد (ﷺ) ربه ؛ فقالت : سبحان الله لقد وقف شعرى لما قلتم . من حدثكم أن محمدا رأى ربه عز وجل فقد كذب ، ثم قرأت « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ، وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ » ومن حدثكم أنه كان يعلم مافى غد فقد كذب ، ثم قرأت « وَلَوْ كُنْتُ أَعْلَمُ الْغَيْبَ لَاسْتَكْثَرْتُ مِنَ الْخَيْرِ » ، وقال الله تعالى : « إِنَّ اللَّهَ عِنْدَهُ عِلْمُ السَّاعَةِ ، وَيُنَزِّلُ الْغَيْثَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ مَاذَا تَكْسِبُ غَدًا ، وَمَا تَدْرِي نَفْسٌ بِأَيِّ أَرْضٍ تَمُوتُ » ، ومن حدثكم أن محمدا كتم شيئا من الوحى فقد كذب ؛ لأن الله تعالى يقول : « يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ » الآية .

وروى أن النبى (ﷺ) سئل ، هل رأيت ربك ؟ فقال : لن تراه الأبصار بالمشاهدة فى الدنيا ، ولا فى الآخرة ؛ ولكن تراه القلوب بحقائق الإيمان ، وللقلب رؤية ؛ كما للعين رؤية .

ومما يدل على نفى الرؤية لله تعالى : « يَسْأَلُكَ أَهْلُ الْكِتَابِ ؛ أَنْ تُنَزِّلَ عَلَيْهِم كِتَاباً مِنَ السَّماء ؛ فَقَدْ سَأَلُوا مُوسَى أَكْبَر مِنْ ذَلك فَقَالُوا : أَرِنَا اللهَ جَهْرَةً ، فَأَخَذَتْهُم الصَّاعِقَةُ بِظُلْمِهم » ، فجعل الله مسألتهم عظيما من الأمور وكبيرا من الخطايا ؛ حين سألوا ما لا يجوز لهم سؤاله من نظرهم إلى الله جهرة ، وهذا من الإبعاد من الجواز فى سؤال الرؤية .

وقال الله عز وجل : « وَقَال الَّذين لاَ يَرْجُونَ : لَوْلاَ أُنْزِلَ عَلَيْنَا الْمَلاَئِكَةُ أَوْ نَرى رَبَّنَا ؛ لَقَدْ اسْتَكْبَرُوا فِى أَنْفُسِهم ، وَعَتَوْ عُتُوًّا كَبِيرًا ». فجعل تمنيهم هذا ، وقولهم ــ استكبارا ، وعتوا ، وأمرا فاحشا ؛ لأنه من المحال الذى لا يجوز على الله تعالى .

فإن احتج محتج بقوله تعالى: « وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ نَاضِرَةٌ . » أنه نظر عيان، ومشاهدة . قيل له : قد قال أهل العلم بتأويل الكتاب ، ومعرفة لغة العرب : ناظرة: حسنة مشرقة مستبشرة بثواب ربها ، إلى ربها ناظرة : أى منتظرة لرحمته ، وثوابه وكرمه وإحسانه نظيره : قوله تعالى : « مَا يَنْظُرُ هَؤُلَاءِ إِلّا صَيْحةً وَاحِدَةً » أى: ينتظر. « وهل يَنْظُرُون إِلّا السَّاعةَ » أى ينتظرون .

وقد أجمع أهل العلم بالكتابة : أن الأولى من قوله تعالى : « وُجُوهٌ

يَوْمَئِذٍ ناضِرَةٌ » – تكتب بالضاد ؛ لأنه مأخوذ من النضارة ، وهو الحسن ، والإشراق ، وظهور دلائل النعمة ، والأخرى : بالظاء . أى : منتظرة إلى رحمة ربها ، وقيل : تنتظر إلى ثواب ربها ، فتلذ به ، وتنعم .

وأما نظر المشاهدة لله تعالى فذلك لا يصح ؛ لأن النظر لا يقع إلا على مقابلة إلى حيّز ، وذلك من صفات الأجسام التى لا يوصف الله تعالى بها . قال الله تعالى : « لَا تُدْرِكُهُ الْأَبْصَارُ ، وَهُوَ يُدْرِكُ الْأَبْصَارَ » فنفى عنه إدراك الأبصار ؛ كما ثبت له أن يدركها .

هذا : هو القول الصحيح معنا ، والله تعالى يهدى من يشاء من عباده إلى صراط مستقيم .

فصل :

قيل : إن بعض قوم موسى (عليه السلام) قالوا : لن نؤمن لك حتى نرى الله جهرة ؛ كما أخبر الله عنهم فى كتابه ، فلما سألوه ذلك ؛ وعظهم ، وأخبرهم بغلطهم فى ذلك فى سؤالهم ما لا يجوز لهم على الله تعالى ، فأبوا أن يقبلوا ذلك منه .

فأراد موسى (عليه السلام) أن يأتيهم الجواب من عند الله ليكون أقطع لحجتهم ، وأبين لبطلان قولهم ، وقد كانوا سألوه من قبلُ – أن يكلمه الله بحضرتهم ، فاختار موسى (عليه السلام) منهم سبعين رجلا وسار بهم إلى الميقات .

فلما كلمه الله بحضرتهم ـ قالوا : اسأل الله الرؤية ؛ لتبين لقومك أنها لا تجوز عليه ، فقال : « رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ » ، ومراده فى ذلك ـ أن يأتيه الله بجواب يكون زجراً لبنى إسرائيل عن الإقامة على هذا السؤال ، فقال . « لَنْ تَرَانِي وَلَٰكِنِ انْظُرْ إِلَى الْجَبَلِ ؛ فَإِنِ اسْتَقَرَّ مَكَانَهُ فَسَوْفَ تَرَانِي » ثم جعل الجبل دكا وهم ينظرون إليه ، وأتاهم عند ذلك بالصاعقة ، والرجفة .

فصعق موسى (عليه السلام) ، والسبعون الذين اختارهم ؛ فموسى لم يمت ، والسبعون ماتوا ثم أحياهم الله ، وبعثهم من بعد موتهم ، كما قال الله تعالى « ثُمَّ بَعَثْنَاكُم مِنْ بَعْدِ مَوْتِكُمْ ، لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ » .

فجوابه لموسى (عليه السلام) . « إِنَّكَ لَنْ تَرَانِي » زجر لقومه عن الإقامة على هذا السؤال، ومطلبهم على موسى (عليه السلام) مالا يجوز على الله تعالى .

وتاب موسى (عليه السلام) إلى الله تعالى ؛ لأنه سأل من غير إذن من الله له فى هذا السؤال ، وصعق امتحانا ، لا عقابا ، لأن ذنبه كان صغيراً معفواً له ، وكذلك الذين نالتهم الصاعقة من السبعين ، إنما نالتهم امتحانا لا عقابا .

يدل على ذلك قوله عز وجل مخبراً عن موسى (عليه السلام) : « فَلَمَّا

أَخَذَتْهُمُ الرَّجْفَةُ قَالَ رَبِّ لَوْ شِئْتَ أَهْلَكْتَهُمْ مِنْ قَبْلُ وَإِيَّايَ . أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ؟) لأن موسى ، والسبعين ، لم يسألوا الله تعالى الرؤية ، وإنما سأل تلك الرؤية السفهاء من قومه ؛ لأنه لو كان هو [الذى] سأل ذلك ـ لما قال : « أَتُهْلِكُنَا بِمَا فَعَلَ السُّفَهَاءُ مِنَّا ؟ » فبين أنه إنما سأل ، ليبين الله تعالى لقومه أن هذا السؤال لا يجوز على الله تعالى .

فلا حجة لمن احتج بأن الرؤية لو لم يمكن كونها لما قال موسى (عليه السلام) : « رَبِّ أَرِنِي أَنظُرْ إِلَيْكَ » ، وهو نبى الله ، وأعلم به من غيره ؛ لما دللنا من إرادة موسى (عليه السلام) برب أرنى ـ أن يكون الجواب من الله تعالى لقومه ؛ لتنقطع حجتهم عنه ، والله أعلم .

فصل :

اختلف الناس فى كلام الله عز وجل لموسى (عليه السلام) ؛ فقول : أنه أسمعه نفسه متكلما ، وقال آخرون : أسمعه صوتا أفهمه به الكلام ، وقال قوم : إنه كلمه بالوحى ؛ لقوله تعالى : « وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا » ، وهذا خبر لا يجوز عليه النسخ .

وقد سمى الله تعالى القرآن كلامه بقوله تعالى : « وَقَدْ كَانَ فَرِيقٌ مِنْهُمْ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ » ، وسمى الله القرآن كلامه بقوله : « وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ، ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ » . وقد قال الله تعالى لنبيه : « إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ؛ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ ،

وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ » إلى تمام القصة ، وقال قوم : إن الله تعالى أوصل إلى موسى (عليه السلام) كلاماً لم يكن بينه وبين موسى (عليه السلام) منه رسول، وليس هذا كلامه لغير الأنبياء ؛ لأنه إنما كلمهم بجبرائيل ، وغيره من الملائكة (عليهم السلام) ، والدليل على ذلك قوله تعالى: « إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَاتِي وَبِكَلَامِي » ، وقوله : « يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ » .

والذى نقوله : إن الله تعالى قد كلم موسى عليه السلام حقا كما أخبرنا الله تعالى فى كتابه بقوله : « وَكَلَّمَ اللهُ مُوسَى تَكْلِيماً » ، فهو حق كما قال ، ونقول : إنه كلّمه كما شاء ، وعلى ما شاء من ذلك خصه بذلك (صلى الله على نبينا وعليه ، وجميع أنبيائه عليهم السلام) .

* * *

القول الثامن والعشرون

فى الوعد والوعيد

قال أهل الاستقامة من أمة محمد (ﷺ) : إن الله تعالى وعد من عمل بطاعته الجنة ، ولا خُلف لوعده ، وأوعد من عصاه النار ؛ إذا مات غير تائب من معاصيه ؛ وأصر عليها ، ولا خُلف لوعيده ، ولا مبدل لقوله .

فإن قال قائل : إن الله تعالى ينجز وعده ، ويبطل وعيده . قيل له : إنه قال : إنه يجازى عصاة عبيده بأعمالهم السيئة ؛ إذا لم يتوبوا منها ، وهو يعلم أنه يوقع بهم الجزاء ، ولا بد لهم من ذلك ، أو يكون قال ذلك : وهو لا يدرى أنه يوقعه بهم أم لا ، أو يكون قال ذلك ، وهو يعلم أنه لا يوقعه .

فإن كان قاله وهو يعلم أنه لا يوقعه بهم فهذا هو الكذب ، والله تعالى يتعالى عن ذلك علوًا كبيراً ؛ لأن مَن هذه صفته مذموم ، وقد ذم الله قومًا بقوله : « لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ ، كَبُرَ مَقْتاً عِنْدَ اللهِ أَنْ تَقُولُوا مَا لَا تَفْعَلُونَ » ، فكيف يجوز أن يوصف الله تعالى بما لا يجوز أن يوصف به الكريم من خلقه ؟ وهو الأعز الأكرم الذى له الصفات العلا، والأسماء الحسنى فى الآخرة والأولى ؟ .

وإن كان قال : إنى أفعل بهم ، وأعاقبهم على معاصيهم ، وهو لا يدرى أيعاقبهم عليها أم لا؟ فهذه صفة الجاهل الذى لا يعلم ما يكون من الله سبحانه وتعالى.

والوعد : هو ما وعد الله [به] أهل طاعته من الثواب فى الآخرة ، وهو حق ، والوعيد : ما أوعد الله [به] أهل الكفر ، والمعاصى من العقاب فى الآخرة ، وهو حق .

ومن زعم أن الله تعالى أوعد قومًا النار ثم لم يدخلهم إياها ـ فقد كذب على الله تعالى ، والله تعالى يقول : « مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَىَّ ، وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » ، وقال : « إِنَّ الْأَبْرَارَ لَفِي نَعِيمٍ . وَإِنَّ الْفُجَّارَ لَفِي جَحِيمٍ . يَصْلَوْنَهَا يَوْمَ الدِّينِ . وَمَا هُمْ عَنْهَا بِغَائِبِينَ » ؛ فلا يجوز بطلان قول الله تعالى ، والله تعالى يقول : « وَنَادَى أَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابَ النَّارِ ؛ أَنْ قَدْ وَجَدْنَا مَا وَعَدَنَا رَبُّنَا حَقًّا ، فَهَلْ وَجَدْتُمْ مَا وَعَدَ رَبُّكُمْ حَقًّا ؟ قَالُوا : نَعَمْ ، فَأَذَّنَ مُؤَذِّنٌ بَيْنَهُمْ أَنْ لَعْنَةُ اللهِ عَلَى الظَّالِمِينَ » ؛ فهذا يدل على بطلان قول من يقول : إن الله ينجز وعده ، ويبطل وعيده .

وكيف يسوغ هذا فى عقول ذوى الألباب ؟ والله تعالى يقول : « مَا يُبَدَّلُ الْقَوْلُ لَدَىَّ ، وَمَا أَنَا بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ » ؟ ، وقال : « وَلَٰكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ الْجِنَّةِ ، وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ » ، وقال : « فَرِيقٌ فِى الْجَنَّةِ ، وَفَرِيقٌ فِى السَّعِيرِ » .

وهذا كله من الأخبار التى أخبر الله تعالى عنها ، وإنما النسخ فى الأمر والنهى ، كما قال جابر بن زيد (رحمه الله) .

* * *

القول التاسع والعشرون
فى القضاء والقدر

القضاء فى اللغة : على وجوه ـ قضاء خلق ، وقضاء حكم ، وقضاء أمر ، وقضاء إخبار ، وقضاء إعلام . فأما قضاء الخلق : لقوله تعالى : « فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ » أى : خلقهن ، ويقال : قضيت الأمر؛ إذا فرغت منه، وأحكمته ، وكل شيء أحكمته فقد قضيته .

وأما قضاء الحكم: كقوله تعالى: « إن رَبَّكَ يَقْضِى بَيْنَهم يَوْمَ الْقِيَامة » أى : يحكم بينهم بحكمه ، ومنه سمى القاضى حاكما .

وأما قضاء الأمر : لقوله تعالى : « وَقَضَى رَبكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إلَّا إيَّاهُ » أى : أمر ربك ، وفى بعض القراءة : وصى ربك ، ومنه قول العرب : تركته يقضى ، ويمضى أى : يأمر وينهى فينفذ عنه ذلك .

وأما قضاء الخبر والعلم [ف] كقوله تعالى : « وَقَضَيْنَا إلَى بَنِى إسْرَائيلَ فِى الْكِتَابِ » أى : أخبرناهم ، وأعلمناهم ، ومن ذلك : قضاء الله ؛ وقدره . أى : قد أتقن الأشياء ، وأحكمها ، وأبرمها ، وفرغ منها، وسمى القاضى قاضيا ؛ لأنه يفصل بين الخصمين ، ويفرغ منهما ، ومنه قيل للميت : قضى نحبه . أى : فرغ من الدنيا ، وفصل منها .

والقضا : الظفر بالحاجة ، قال الله تعالى : « فَلَمَّا قَضَى زَيدٌ مِنْهَا وَطَراً »

أى : نال منها حاجة ، وقضاء الدين ، وأشباهه : أداؤه إلى ربه ، وقضى الله . أى : كتب الله ، وعلم أن أهل المعاصى سيعصون .

وأما القدر : فهو الخلق ، قال الله تعالى : « وَخَلَقَ كُلَّ شَىْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيراً » فالقدر فعل الله ، والمقدور فعل العبد . فيجب الإيمان بالقدر خيره وشره .

والله تعالى لا يعذب على القدر ، وإنما يعذب على المقدور الذى هو فعل العبد ؛ إن فعل خيراً حمد عليه ، وإن فعل شراً عوقب عليه . والقدر بتحريك الدال وسكونها ، وقدر الله الشىء ، وقدره بالتخفيف ، والتثقيل .

فصل :

فإن قال قائل : إن الله قضى المعصية على العبد ؟ قيل له : نعم . خلق المعصية من مكتسبها ، ونهاه عنها وخلق الطاعة ، وأمر بها ، وحث عليها ، فإن قال : قضى عليه الكفر ، ثم عذبه بما قضاه عليه — قيل له : إن القضاء يتصرف على وجوه ، والذى يقول : إنه خلق الكفر من الكافر قبيحا مذموما ، ولا تقول إنه قضاه عليه بمعنى : أجبره على فعله اضطرارا ، ولا أمر به ، ولا رضيه منه .

وقيل : إن وفد نجران قالوا للنبى (ﷺ) : يكتب الله علينا الذنب ثم يعذبنا ، فقال لهم النبى (ﷺ) : أنتم خصماء الله . وأنزل الله : « لَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ ، وَهُمْ يُسْأَلُونَ » .

وسئل ابن عباس عن القدر ، فقال : الناس فيه على ثلاثة منازل — من

جعل للعباد فى الأمر مشيئة : فقد ضاد الله فى أمره ، ومن أضاف إلى الله شيئا مما يتنزه عنه : فقد افترى على الله إثما عظيما ، ومن قال : إنى رحمت بفضل الله : فذلك الذى سلم له دينه ودنياه جميعا ، ولم يعلم الله فى خلقه ، ولم يجهله فى حكمه .

وقيل : كان رسول الله (ﷺ) إذا مر بهدف مائل أسرع المشى ، فقيل : يا رسول الله أتفر من قضاء الله ؟ قال : أفر من قضاء الله إلى قدره .

وقال بعض أصحاب محمد بن جعفر : كنت معه ، فقلت فى كلامى : قلت ماشاء الله ، وأراد ، وقدر ، وقضى . قال : إن الله ؛ إذا أراد شيئا شاءه ، وإن شاءه قدره ، فإذا قدره قضاه ؛ فإذا قضاه أمضاه .

فصل :

فإن قال قائل : فما القدر ؟ قيل له : الخلق ، فإن قال : [أ] فيعذب الله على القدر ؟ قيل له : لا ، وإنما يعذب على المقدور ؛ لأن القدر فعل الله ، والمقدور فعل العبد ، قال الله تعالى : « وَكَانَ أَمْرُ اللهِ قَدَرًا مَقْدُوراً » .

وروى أن النبى (ﷺ) قال : سيكون قوم فى هذه الأمة يعملون بالمعاصى ، فيقولون : هى من الله قضاء وقدر ؛ فإذا لقيتموهم ، فأعلموهم ، أنى برىء منهم ، فقال رجل منهم : بأبى أنت وأمى يا رسول الله . متى يرحم الله العباد ، ومتى يعذبهم ؛ فقال : يرحم عباده إذا عملوا بالمعاصى ؟ فقالوا : هى منا ، ويعذب الله عباده ؛ إذا عملوا بالمعاصى . فقالوا : هى من الله قضاء ، وقدر . فالطاعة ، والمعصية هما من خلق الله ، ومن العباد عمل .

وروى عن الأصبع بن نباتة أنه قال: لما رجع على بن أبى طالب من صفين قام له شيخ ، فقال : يا أمير المؤمنين . أخبرنا عن سيرنا إلى الشام ، أهو بقضاء وقدر ؟ فقال على : والذى فلق الحبة ، وبرأ النسمة ماوطئنا موطئا ، ولا هبطنا واديا ، ولا علونا تلعة ، إلا بقضاء وقدر ، فقال الشيخ : احتسب عنائى ، فلا أرى من الأجر شيئا ، فقال له على : بل أيها الشيخ ! لقد عظم الله أجركم فى مسيركم ، وأنتم سائرون ، وفى منصرفكم وأنتم منصرفون ، ولم تكونوا فى شىء من حالاتكم مكرهين ، ولا إليها مضطرين .

فقال الشيخ : كيف لم نكن مضطرين ، والقضاء ، والقدر ساقنا ، وعنهما كان مسيرنا ، وانصرافنا . فقال على : ويلك أيها الشيخ !! لعلك ظننت قضاء لازما ، وقدرا حاتما ، لو كان كذلك لبطل الثواب والعقاب ، والوعد والوعيد ، والأمر والنهى ، ولم تكن لائمة على مذنب ، ولا محمدة لمحسن ، تلك مقالة عبدة الأوثان ، وجند الشيطان ، وأعداء الرحمن ، وشهود الزور ، وأهل العمى عن الصواب ، وهم قدرية هذه الأمة ومجوسها .

إن الله تعالى ، أمر تخييرا ، ونهى تحذيرا ، وكلف يسيرا ، ولم يعص مغلوبا ، ولم يُطع مكرها ، ولم يرسل الرسل عبثا ، ولم يخلق السموات والأرض ، وما بينهما باطلا ، ذلك ظن الذين كفروا ، فويل للذين كفروا من النار .

فنهض الشيخ مسرورا ، وهو يقول :

أنتَ الإمامُ الذى نرجو بطاعته يومَ النّشورِ من الرحمنِ رضوانا

أوْضَحْتَ من ديننا ما كانَ مُلتبِساً   جزاكَ ربُّكَ عنا فيهِ إحسانا

ومعنى كلام على : أن الله تعالى لم يجبر عباده على طاعة ، ولا معصية ، ولم تكن طاعة المطيع على كره ولا جبر ، ولا معصية العاصى على غلبة .

والقدرية سمّوا قدرية ؛ لأنهم يكذبون بالقدر ، ويقولون : لا قدر ، ونسبهم بالمجوس ؛ لأنهم ضاهوا المجوس فى قولهم حين قالوا : إن الله خالق الخير ، ولم يخلق الشر ولم يرده ، وأن الشيطان يخلق الشر ، تعالى الله خالق كل شىء لا خالق سواه عز وجل ، وللقدرية آراء مختلفة ، ومذاهب كثيرة

وقال أهل الاستقامة من أمة محمد (ﷺ) : إن الله تعالى خلق الطاعة والمعصية ، وأمر بالطاعة ، ونهى عن المعصية ، وعلم من يعمل بالطاعة والمعصية ، فنفذ علم الله كما علم ، وأن الله تعالى : ما جبر أحدا على طاعة ، ولا على معصية ، ولكن أمر بالطاعة وأحبها ورضيها ، فمن عمل بها ـ فبعلم الله ، والله المانُّ عليه بها ، ونهى عن المعصية ، وأبغضها وكرهها ، فمن عمل بها ـ فبعلم الله ، ولله الحجة عليه .

وقال أبو عبد الله : إن القدر مما يسع جهله ؛ حتى يركب الجاهل به شيئا مما يوجب على من ارتكبه الكفر .

وسأل رجل جعفر بن محمد ، فقال له : العباد مجبورون على العمل ؟ فقال : إن الله تعالى أعدل من أن يجبر عباده على المعاصى ثم يعاقبهم عليها . قال : ففوض إليهم ؟ قال : هو أعز من أن يكون فى ملكه سلطان قال : فكيف هو ؟ قال: هو أمر بين أمرين لا جبر ، ولا تفويض .

وروى عن النبى (ﷺ) قال : « لا يؤمن عبد أبدا حتى يؤمن بالقدر كله : خيره وشره » ، وقال : لا يؤمن عبد أبدا ؛ حتى يؤمن بأربع : أن لا إله إلا الله ، وأن محمدا عبده ورسوله ، وبالبعث ، والقدر كله .

وقال ابن عباس : لا يأتينى رجل من هؤلاء الذين يتكلمون فى القدر ، ويزعمون أن أفعال العباد مفوضة إليهم ، أما يقرأون هذه الآية ؟ «وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ » وقوله تعالى : « يُدْخِلُ مَنْ يَشَاءُ فِي رَحْمَتِهِ » أى فى دينه ، وقوله : « مَنْ يَشَإِ اللهُ يُضْلِلْهُ، وَمَنْ يَشَأْ يَجْعَلْهُ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ »، « وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ » « وإِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » وقال « مَا أَنْتُمْ عَلَيْهِ بِفَاتِنِينَ، إِلَّا مَنْ هُوَ صَالِ الْجَحِيمِ » أى : ما أنتم بمضلين إلا من سبقت عليه الشقوة ، ومن هو صال الجحيم ، وقال الله تعالى : « مَنْ يَهْدِ اللهُ فَلَا مُضِلَّ لَهُ ، وَمَنْ يُضْلِلْ فَلَا هَادِيَ لَهُ » .

وقيل لبزرجمهر : مالك لا تناظر فى القدر ؟ قال : إنى أرى ظاهرا استدل به على باطن : أرى أحمق مرزوقا ، وأرى عاقلا محروما ؛ فعلمت أن التدبير ليس للعباد .

والايمان بالقدر : خيره وشره هو أن يؤمن العبد أن الله خلق كل شىء من خير وشر ، والكفر من الشر ، والإيمان من الخير ، والإيمان : هو التصديق أنه كائن من الله عز وجل قد جرى فى اللوح المحفوظ بعلمه .

وثم التقدير ، والمقادير . فالتقدير : ما أراد الله كونه ، والمقادير : الأوقات

التى تـكون فيها المقدورات على مقدور عليهم فى الليل ، والنهار ، وقال أبو سعيد (رحمه الله) يروى[1] عن النبى (ﷺ) قال : القدر سر الله فى الأرض فلا تتكلفوه . وقال أبو عبد الله (رحمه الله) إن من قول أصحابنا (رحمهم الله) : إن الله لم يجبر أحدا من خلقه على طاعة ، ولا معصية ، ولـكن قد علم من يعمل منهم بطاعته ، ومن يعمل منهم بمعصيته من قبل أن يخلقهم ، فأراد إنفاذ ما علم ، وقال : تُسأل القدرية هل يعلم الله عز وجل من يدخل الجنة ، ومن يدخل النار ؟ فإذا قالوا : نعم . فقل : أفأراد الله إنفاذ ما علم أم أراد إبطاله ؟ فإن المخرج يضيق عليهم .

وقيل إن عزيراً سأل ربه ؟ فقال : يارب . إنك عزيز لا تغلب ، ولا تحب أن تعصى ، وأنت تعصى ، فـكيف هـذا ؟ ، فأوحى الله إليه : أن كف عن هذه المسألة ، ثم لبث ماشاء الله ، ثم أعاد المسألة ، فأوحى الله إليه : هل تقدر أن تصُرَّ صرَّة من الشمس ، أو تقدر على رد أمس ؟ قال : يارب لا . قال : قد نهيت أن ترجع تسأل هذه المسألة ، فرجعت ، فقد جعلت ثوابك منها أن محوت إسمك من النبوة ، إذ رجعت [و] سألت عما نهيتك عنه .

ولما بعث عيسى بن مريم (عليه السلام) سأل ربه عن هذه المسألة ، فأوحى الله إليه : ياعيسى . إن عزيرا سألنى عن هذا الذى سألتنى عنه ، وكان من أمره كذا وكذا ، فكف عن هذه المسألة ، فـكف عيسى ، ولم يرجع يسأل ربه عن ذلك .

---

(١) رواه ابو نعيم فى الحلية عن ابن عمر ولفظه : القدر سر الله ، فلا تفشوا سر الله م .

فصــــل :

قال أبو سفيان : بلغنا أن الشيخ أبا عبـد الرحمن البصرى سأل أبا عبيدة بمنى ، فقال له : يا أبا عبيـدة . هل أجبر الله أحداً على طاعة ، أو معصية ؟ قال أبو عبيدة : ما علمت ذلك ، فقال الشيخ : العـلم ساق العباد إلى ما عملوا من المعاصى ؟ فقال أبو عبيدة : معاذ الله . ما أقول ذلك ؛ ولـكن سوّلت لهم أنفسهم ، وزيّن لهم الشيطان أعمالهم ؛ حتى كان منهم ما علم الله ، قال له الشيخ: إن هؤلاء الشباب يقولون : إن الله شاء ، وأحب ، وأراد ، ورضى . فقال أبو عبيدة : ما علمت أن الله عذب من عذب من خلقه إلا على ما سخط منهم، [و] ليس على ما رضى؛ لأنه يقول: «اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللهَ، وَكَرِهُوا رِضْوانَهُ ، فأَحْبَطَ أَعْمالَهُمْ » .

وقال أبو سفيان : كان أبو عبيـدة (رحمه الله) يقول : إن الله أمرنا بالطاعة ، ورضيها ، وأحبها ، وزيّنها ، فمن عمل بها ـ فبعلم الله ، والله تعالى المانُّ عليه ، وإن الله نهى عن المعصية، وأبغضها، وكرهها ، فمن عمل بها ـ فبعلم الله، ولله الحجة عليه .

وقيل : كان صحار بن العبد يقول : كلموا الناس فى العلم ، فإن أقروا لـكم ؛ فقد خصموا ، وإن جحدوا به كفروا .

وقال : بلغنا أن أبا عبيدة كلمه رجل فى القدر ، فقال أبو عبيدة : هل علم الله ماالعباد عاملون ، وإلى ماهم إليه صائرون قبل أن يخلقهم ؟ ، فقال له الرجل :

ماأسرع مااستعفت بالعلم!! ياأباعبيدة؛ إنما هذه مسائل الضعفاء ؛ فقال أبو عبيدة: أجب هذا الضعيف ؛ فلم يجبه ، وتفرقا .

وقال أبو سفيان : سمعت الربيع يقول : إن عبد السلام بن عبد القدوس ـ عظم أمر القدر ، وقال فيه قولا شديدا ، وكره الكلام فيه ، فقال الربيع ، فأخبرت بذلك أباعبيدة ، فقال : ماقال عبد السلام شيئا . ماالقدر إلا رأى من رأى الناس اختلفو فيه، ليس فيه نكاح ، ولا انتحال هجرة، ولاسباء، ولا غنيمة؛ وصغّر أمر القدر ، قال المؤلف رحمه الله : إن ذلك قاله لترك البحث عن أمر القدر ، والخوض فيه . وإلا : فهو عظيم عنده ؛ لأن الإنسان يخرج من دين الإسلام بأقل شيء منه ، وقد غضب الله على عزير لأجل سؤاله عن كلمة فى القدر ، وضل كثير من أهل المذاهب بسبب القدر ؛ فالقدر بحر عميق قد هلك فيه بشر كثير .

وقيل : المتعمق فى أمر القدر ـ كالذى ينظر فى عين الشمس ؛ كلما اعتمد بنظره اليها أكثر ازداد عمى ، وكذلك القدر ، وقد قال النبى (ﷺ) : القدر سر الله فى الأرض ، فلا تتكلفوه ، أو قال : لا تكشفوه .

وقيل : كان واصل بن عطاء المعتزلى صاحب عمرو بن عبيد ـ يتمنى لقاء أبى عبيدة الكبير (مسلم بن أبى كريمة) ، ويقول : لولقيته قطعته ، وقطعت الإباضية فلقيه بمكة فى المسجد الحرام، ومعه أصحابه ؛ إذ قيل له : هذا أبو عبيدة فى الطواف ، فقام إليه واصل ، فقال له : أنت أبو عبيدة ؟ قال : نعم . قال : أنت الذى بلغنى عنك أنك تقول : إن الله يعذب على القدر ؟ قال أبو عبيدة

(رحمه الله) : لا ولكن يعذب على المقدور ، ثم قال أبو عبيدة لواصل : أنت الذى بلغنى عنك أنك تقول : إن الله يعصمنى باستكراه ؟ قال : فنكس واصل رأسه فلم يجب .

ومضى أبو عبيدة (رحمه الله) ، فأقبل أصحاب واصل إليه يلومونه ، ويقولون : كنت تتمنى لقاءه ، فسألته ، فخرج ، وسألك فلم تجب ، فقال واصل لأصحابه : ويحكم !! بنيت بناء منذ أربعين سنة ، فهدمه أبو عبيدة وأنا قائم لم أقعد .

فضلت أمة فى كلمة أخطأوا بها فى أمر القدر ؛ لأن مذهب واصل ، ومن شايعه من المعتزلة ـ قولهم فى المعاصى : إن الله تعالى لم يشأها ، ولم يردها ، ولم يخلقها ، وإنما كانت من العصاة بلا مشيئة الله تعالى فيها ، ولا إرادة. وإذا كان كذلك ؛ فقد كانت المعاصى فى ملك الله ، وسلطانه كرها وغلبة ؛ إذا لم يشأها البارى تعالى ، ولم يردها ، ولم يخلقها ؛ حتى كانت من العبيد على زعمهم ، واعتقادهم أن الله تعالى قد عصى باستكراه ، كما قال أبو عبيدة (رحمه الله) ، وعرف واصلا خطأه فى اعتقاده ، وعلم أن أباعبيدة قد أقام عليه الحجة ، وأن المعاصى لاتكون فى ملك الله وسلطانه ؛ إلا وقد علمها الله تعالى .

وإرادة كونها فى ملكه وسلطانه إرادة علم لا إرادة أمر وأن الأشياء كلها لاتخلو من أن يكون الله تعالى قد علمها ، وشاهدها ، وإلا كان فى ملكه ما لم يشأ كونه ؛ فإذا كان فى ملكه ما لم يشأه ـ كان مغلوبا مقهورا ، تعالى الله عن هذه الصفة علوا كبيرا ، بل هو القادر على كل شىء وهو بكل شىء عليم .

ومن قال: إن الله ليس بعالم بالطاعة والمعصية ـ فقد أشرك بتكذيبه القرآن؛ لأن الله تعالى يقول: « فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ ، وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِين ، فَلَنَقُصَّنَّ عَلَيْهِم بِعِلْمٍ ، وَما كُنَّا غَائِبِين » ، وقال: « وما تكُونُ فِي شَأْنٍ ، وَمَا تَتْلو مِنْه مِنْ قرآنٍ ، وَلَا تَعْمَلونَ مِنْ عَمَلٍ إِلَّا كُنَّا عليكم شُهُودًا ؛ إِذْ تُفِيضُون فِيهِ ، وَمَا يَعْزُبُ عَنْ رَبِّكَ مِنْ مِثْقَال ذَرَّةٍ فِي الْأَرْضِ ، وَلَا فِي السَّماء ، وَلَا أَصْغَرَ مِنْ ذَلِكَ ، وَلَا أَكْبَرَ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » ، وقال: « وَعِنْدَهُ مَفَاتِحُ الغَيْبِ لَا يَعْلَمُها إِلَّا هُوَ ، وَيَعْلَمُ مَا فِي البَر والبَحْرِ ، وَمَا تَسْقُطُ مِنْ وَرَقَةٍ إلا يَعْلمها ، ولا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الْأَرْض ، وَلَا رَطْبٍ ، وَلَا يابِسٍ إِلَّا فِي كِتَابٍ مُبِينٍ » ، وقال: « ذَلِكم الله ربكم لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ ، فاعْبُدوهُ ، وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ » .

فالله تعالى خالق الطاعة والمعصية ، ومقدّرها ، والعبيد مكتسبوها ؛ فمن أطاع الله فبتوفيق الله له وتأييده ، ونصره ، ومنّه عليه ، وتسديده ؛ فالله تعالى [هو] العالم بعمله قبل أن يخلقه ، ويخلق عمله .

ومن عصى الله تعالى ، فبإجابته دعوة الشيطان له ، ووسوسته له ، وتسويل نفسه ، واتباعه هواها ، واختياره سوء عمله ، ولله الحجة عليه وهذا : سر الله العظيم الذى لا يعلمه إلا هو، وقال الله تعالى: « هُوَ الَّذِى خَلَقَكُم فمنكُم كَافِرٌ ، ومنكم مُؤْمِنٌ » ، فليس لمخلوق فى علم الله ، وقضائه ، وقدره ـ نظرٌ ، ولا حجة. قال الله تعالى: « يَخْتَصُّ بِرَحْمَتِه مَنْ يَشَاءُ »

فـكلت الألباب ، وعجزت العقول والأوهام عن درك معرفة هـذا السر العظيم ، ولم يبق إلا الرضا والتسليم ، والإيمان بالقدر كله : خيره وشره، وحلوه ومره ، وأن الله تعالى يفعل مايشاء ، ويحكم مايريد ، لايسأل عمـا يفعل ، وهم يسألون .

فعلى العبد أن يمتثل أمر الله ونهيه، ويرضى بحكمه، ويتأدب بتأديبه فى جميع أموره ، والله تعالى لايظلم الناس شيئا ؛ ولـكن الناس أنفسهم يظلمون .

ويوجد فى بعض الآثار أن الله تعالى قال: أنا الله لا إله إلا أنا ، خلقت الخير وقدرته؛ فطوبى لمن خلقته للخير ، وقدرته على يديه، أنا الله لا إله إلا أنا خلقت الشر ، وقدرته ، فويل لمن خلقته للشر ، وقدرته على يديه ؛ فإنى لا أسأل عما أفعل ، وهم يسألون .

فصل :

وروى عن محمد بن محبوب (رحمه الله) أنه قال : كنت بالبصرة ؛ فإذا قوم يتناظرون فى القدر، فقال رجل منهم لرجل من القدرية ما أفضل ، فعل الله أم فعل العباد ؟ فقال القدرى: فعل الله أفضل، فقال الرجل: الصلاة من فعل الله أم من فعل العباد ؟ فقال القدرى : من فعل العباد، فقال الرجل: النوم من فعل الله أم من فعل العباد ؟ فقال القدرى: النوم من فعل الله . فقال الرجل للقدرى: النوم خير له أم الصلاة ؟ فانقطع القدرى، لأنه يعلم أن الصلاة خير من النوم .

فإن قال قائل : ما أفضل ، فعل الله أم فعل العباد ؟ قيل له : فعل الله ، فإن قال : الصلاة فعل الله أم فعل العباد ؟ قيل : هى من الله خلق ، ومن العباد عمل وكسب ، وإن قال : النوم فعل الله أم فعل العباد ؟ قيل له : النوم والاضطجاع فعل العباد، وما يغشاهم من النعاس فعل الله، فإن قال: ماأفضل الصلاة أم النوم؟ قيل له : الصلاة التى هى فعلى أفضل من فعلى فى النوم،وخلق الله فى ذلك أفضل ، وأن يقوم يصلى لله أفضل من اضطجاعه فى النوم ، وما خلق الله من جميع ذلك فلا يقاس بفعل العبد .

فصل :

وقيل : إن محبوبا (رحمة الله) دفع إلى محمد بن هاشم رقعة مكتوبا فيها . أما بعد : فإن عدونا من القدرية عابوا علينا أن زعمنا أن الله قد علم ما العباد صانعون فيما كلفهم قبل أن يخلقهم ، وإلى ما يصيرون إلى جنة أو إلى نار ، فعلم من هو صائر إلى الجنة قبل أن يخلقه ، ومن هو صائر إلى النار قبل أن يخلقه ، وقد احتج عليهم بالكتب ، والرسل ، وابتلاهم بالأمر والنهى ، فهم مبتلون فيما كلفوه ؛ لايستطيعون غير ما علم الله .

فمن علم أنه صائر إلى الجنة ، عامل بالطاعة ، فلا يستطيع أن يعمل بالمعصية ، ولا أن يصير نفسه إلى النار ، وكذلك من علم منه أنه صائر إلى النار عامل بالمعصية تارك للطاعة فلا يستطيع أن يعمل بالطاعة ، ولا أن يكون من أهل الجنة ؛ لأن العباد لايستطيعون أن يكون منهم غير ما علم الله أنه كائن منهم .

فلما عابوا علينا ذلك ، وأنكروه ، سألناهم عن ذلك . . هل علم الله قبل أن يخلق الخلق من يطيعه فيما كلفه منهم ومن يعصيه ؟ ، فإن قالوا : نعم ، فقل لهم ، أليس الله قد علم بعدتهم ، وأسمائهم ، وأنسابهم ؟ فإن قالوا : نعم قد علم الله ذلك ، ومن سكن النار منهم ، ومن سكن الجنة ، فقل لهم : فهل يستطيع الذين علم الله منهم أنهم يسكنون الجنة منهم أن يسكنوا النار ؟ ، وهل يستطيع الذين علم الله منهم أنهم صائرون إلى النار ، أن يسكنوا الجنة ؟ فإن قالوا : نعم يستطيعون ذلك ، ولا يفعلونه ، فقل لهم : إنكم تكلمتم فى الاستطاعة ، أليس تزعمون أنهم يستطيعون غير ما علم الله ، ولا يفعلونه ؟ فإن قالوا نعم . فقل لهم : عند ذلك : أرأيتم إن كانوا يستطيعون غير ما علم الله فهم يستطيعون أن يكون ما يجهل الله ، وأن يتخذوا فى سلطان الله ، ما لا يعلم الله ؟ فإن قالوا : نعم . فهذا قول عظيم لا يجهله عقل ، ولا يجوز فى قياس .

وقد كذب الله قولهم فى كتابه العزيز « وَكَانُوا لَا يَسْتَطِيعُونَ سَمْعًا » ، وقوله : « وما كانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ ، وما كانُوا يُبْصِرُونَ » وإنما يعنى بهذا ـ الذين علم الله أنهم لا يؤمنون .

وعابوا علينا أن زعمنا أن الله تبارك وتعالى ؛ إذا أراد أن يكون شيئاً كان . لأن الله قد علم ما العباد عاملون ، قبل أن يخلقهم ؛ فعلم من يؤمن منهم ، ومن يكفر قبل أن يؤمنوا ، وقبل أن يكفروا ، فأراد تبارك ، وتعالى أن يكون ما علم ممن علم ، ولم يرد أن يكون غير ما علم ، فعلم من يؤمن قبل أن يؤمن ، وأراد أن يكون الإيمان ممن علمه منه قبل أن يؤمن . وقد دعا إلى الإيمان ،

ورضيه، فهو يحب الإيمان، ويحب أن يؤمن الذين علم الله أنهم يؤمنون، قبل أن يؤمنوا، ويرضى أن يكونوا من الذين علم أنهم عاملون به

وكذلك من علم منه أنه يكفر، فقد أراد أن يكون منه ما علم من الكفر الذى حرمه عليه، ونهاه عنه، وهو يبغض الكفر ولا يحبه، ولا يرضاه، وقد رضى أن يكون ممن لا يحب، ولا يرضى.

وقد أحب الله أن يكون إبليس، ولا يحب إبليس، وكذلك أن يكون الكفر من أهله، ولا يحب الكفر، ولا يرضاه، ولكن يحب أن يكون منهم ليعذبهم عليه، وقد أحب أن يكون الخمر خمرا، ولا يحب الخمر؛ لأنه رجس.

فصل:

قال أبو المؤثر (رحمه الله): إن الله تبارك وتعالى: لم يزل عالما بأعمال العباد قبل أن يخلقهم، وبما تصير إليه عواقب أمورهم، وثوابهم، وعقابهم، وجرت أعمالهم على علمه تبارك وتعالى. فمن زعم أن الله لم يعلم أعمال العباد؛ حتى عملوها — فهو كافر، لأن الله تعالى خلق أعمال العباد، وحركاتهم، وسكونهم، وجميع أفعال الحيوان، وخلق الكفر والإيمان، والطاعة والمعصية، والعباد فى ذلك مكتسبون له، والله خالق اكتسابهم، ولا يقال: إنهم اكتسبوا خلق الله، ولكن يقال: خلق الله كسبهم. ومن زعم أن الله لم يخلق أعمالهم، فقد كذب، لأن الله يقول: «واللهُ خَلَقَكُم وما تَعمَلُونَ» و «اللهُ خَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ»، وأفعالهم شىء، ومن زعم أنهم لم يكتسبوها، وأن الله لم يعذبهم

على شيء منها ، وأنه إنما عذبهم ، وأثابهم على فعله لا على أفعالهم ـ فقد كذب على الله تعالى ، والله تعالى يقول : « ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ يَدَاكَ وَأَنَّ اللهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيد » ، وقال : « ذُوقُوا عَذَابَ الْخُلْدِ بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُون » ، وقال : « وَتِلْكَ الجنةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنْتُم تَعْمَلُونَ » .

وقالت فرقة من القدرية : إن الله لم يرد من العباد إلا الإيمان ، وأنهم كفروا ، وقد أراد الله ألا يكفروا ، فكفروا ، وقول المسلمين : لو أراد ألا يكفروا لما كفروا ، ولو أراد الله ألا يكون شيء فكان . كان عاجزا مغلوبا ، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

فإن قالوا : هل أراد الله منهم الكفر؟ قيل لهم: أراد الله أن يكون الكفر منهم باطلا مذموما ، لأنا لا نضيف الأشياء إلى الله إلا بأحسن الألفاظ ، ولا تضاف إلى الله إلا الأسماء الحسنى ، والصفات العليا ، وإن كان هو خالق جميع الأشياء ، كما قال الله تعالى حاكيا عن نبيه إبراهيم (عليه السلام) : « الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ ، والَّذى هُوَ يُطْعِمُنِى وَيَسْقِين ؛ وإذا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ » ، ولم يقل يمرضني ، والله تعالى خالق المرض ، ومريده ، ومقدره على خلقه .

وزعمت القدرية أنهم يقدرون أن يفعلوا ما قد علم الله أنهم لا يفعلونه ، وأنه إنما أمرهم بما هم عليه قادرون ،وقول المسلمين : أنه لا يقدر أحد من الخليقة أن يعمل ما قد علم الله أنه لا يعمله ، وقد أمر الله الناس أن يفعلوا ما لا يقدرون على فعله إلا بعون الله وتوفيقه .

وليس ذلك منه جور - تبارك وتعالى - لأن الجور لا يكون إلا من المأمور المنهي ، والله تعالى ليس بمأمور ولا منهي ، وإنما كان الجور جورا ، والظلم ظلما ؛ لأنه محرم ، والله تعالى حرمهما .

ولم يمنع الله تعالى - العباد من الأعمال ، ولم يجبرهم عليها ، وإنما العاجز الممنوع من كانت خلقته غير محتملة لما كلف ، كما أن الأصم لا يكلف أن يسمع ، والأعمى أن يبصر ، والمقعد أن ينهض ، ولكن الله تعالى - كلف العباد الإيمان ، وخلقهم محتملين له ، ولكن كل من اشتغل بالكفر لم يستطع الإيمان . ومن اشتغل بالإيمان لم يستطع الكفر ؛ لأن الكفر يمنع الكافر من الإيمان ، والإيمان يمنع المؤمن من الكفر .

والذى نقوله ، إن الله تعالى - خلق الإيمان إيمانا حسنا ، وخلق الكفر كفرا قبيحا . وخلق ما سوى ذلك من أفعال الملائكة، والآدميين من المطيعين ، والعاصين ، والمؤمنين ، والكافرين ، وخلق أفعال الحيوان أفعالا مما كانت منه ، وقدر ذلك كله على ما كان عليه فى جميع أموره ، ومن أوقاته ، وحسنه وقبيحه ، وأن الأشياء لا تكون إلا بإرادة الله تعالى ومشيئته ، فكل كائن ، فقد شاء الله أن يكون على ما هو عليه ، فمن وصف ربه بغير هذه الصفة - فقد افترى إثما عظيما ، ووصف الله بغير صفته .

لأن من زعم أن الله أراد من العباد كلهم الإيمان فقد علم أولو الألباب أن العباد كلهم لم يكن منهم الإيمان ، وقد كان من بعضهم الكفر ، فقد كان

غير ما أراد الله من قول أهل الجهل — وهم القدرية — أنه أراد أمرا لم يكن ما أراد ، فهذه صفة المغلوبين المقهورين المكرهين على خلاف ما أرادوا ؛ لأنك تعلم أن كل من أراد شيئاً فلم يكن ما أراد ، وكان خلاف ما أراد فقد غلب ، وأكره على خلاف ما أراد .

فكفى بهذا من القول فحشا ؛ بل جل ربنا عن هذه الصفة ، وعز وعلا أن أن يكون يريد شيئا ، فيكون غير ما يريد ؛ بل هو المريد لجميع الأشياء ، لازاد لأمره ، ولا معقب لحكمه .

فصل :

وفى بعض الآثار أن الله تعالى لم يزل عالما بالأشياء ؛ إذ هى عدم لم تكن ، ولم يزل عالما فى حال كونها ، وقبل كونها ، وبعد كونها ، وفى حال فنائها وبعد فنائها ، وفى حال إنشائها بعد فنائها فى الآخرة ، وبعد إنشائها .

فإن قال قائل : أخلق الله الكفر ، والإيمان ؟ فقل : نعم ، خلقهما الله عملا من العباد ، ولم يعملها على وجه ما عملها العباد ، ولكن خلق الله عملهم ، فخلق المعصية ، والطاعة عملا من العباد ، وكذلك كل شىء صنعه العباد ، وعملوه ، فالله خالق عملهم ، وخلقُ الله لعملهم غير عملهم .

فإن قالوا : الخير والشر هما من الله أم من العباد ؛ فقل : إن الخير والإيمان من العباد بعون الله ، ولا يكون العبد عاملا بخير أبداً إلا والله — تعالى — على ذلك الخير عون ، لا يكون عمل العبد قبل عون الله ، ولا يعين الله العبد ، قبل أن يعمل .

وإنما يقع عون الله للعبد على الإيمان فى حال واحد، ولا يكون الكفر والضلال أبدا إلا من العبد ، ولا يعمل بالكفر أبدا ، إلا وهو مخذول من عون الله .

والكفر منه. غير أن الله قد علم ما هو كائن من عَمِلَه: فهو كائن كما علم من غير أن يكون علم الله عملا ، ولا يكون الإيمان والكفر من أحد أبدا ؛ إلا وقد شاء الله أن يكون منهم ؛ كما علم أنه كائن منهم ، وأحب أن يكون منهم .

ولم يحب الكفر ولا أهله، وأحب الإيمان وأهله ، وأحب أن يكون إبليس، ولا يحب إبليس ، وأحب أن يكون الكفر ، ولا يحب الكفر ، ولا الكافر ، وكل ما شاء الله أن يكون فهو يحب أن يكون .

والحسنة من الله خلق، واكتساب من العبد، والسيئة والضلالة من العباد ، ومن الشيطان ، وكل لله فيه الملك والقدرة ، والخيرة :

وأما الحسنة التى هى من عند الله ـ فلطفه وعونه ، وهواه ، واختص بذلك أهل تقواه الذين سبق لهم ذلك فى علمه ، فالحمد لله على إنفاذ ما أراد ، وأما الحسنة التى هى من العباد ـ فأعمالهم فى طاعة الله فيما لطف لهم به .

وأما السيئة التى هى من عند الله فالطبع منه ، والقسوة، والرّان على القلوب لما هو كائن من أعمال العباد القبيحة ولم يلطف الله بهم ، ولم يمنهم ، ولم يختر لهم مثل الذى اختاره ، ولطف به لأهل طاعته ، وأما السيئة التى هى من العباد فأعمالهم فى معصية الله تعالى .

وأما الضلالة التي هي من عند الله فتركه إياهم . وتخليته لهم لما هو كائن مما قد علم من أعمالهم ، وتسليط إبليس عليهم، وأما الضلالة التي هي من الشيطان فأمره ، ودعوته لمن أجابه ، لا إغواؤه لهم .

والكفر لا يكون إلا بعمل المعصية، والإنسان قبل المعصية بريء من الكفر، والكفر خلقه الله من العباد عملا ، وهو محدث ؛ لأن الله تعالى خالق ، نخلق الإيمان ، والكفر من العباد عملا .

والكفر في اللغة : هو تغطية الحق ، والستر عليه ، وإظهار خلافه ، ويقال: كفر فلان فلانا حقه أي : أنكره وجحده إياه ، وغطاه عنه ، والإيمان : هو التصديق ، والانقياد لله تعالى ، وإخلاص العمل له ، والمؤمن هو المصدق ، والكافر هو الجاحد الذي لم يقر بما أقر به المؤمن من التصديق بالله تعالى ، وملائكته ، وأنبيائه ، وكتبه ، ورسله ، واليوم الآخر ، والبعث ، والثواب والعقاب .

وقال محبوب (رحمه الله) في القدر : ولقد حمل الناس على أنفسهم أمورا قد كان يسعهم الإيمان بجملتها والكف عن الخوض فيها ، والذي نقول : إن الله تعالى ـ خلق كل شيء فقدره تقديرا ، وأن الله عالم بكل شيء من قبل أن يكون ، وأنه لا يكون شيء إلا بعلم الله ، وأن العباد لا يشاءون إلا أن يشاء الله رب العالمين ، وأن الله أمر بالطاعة : فمن عمل بها فتلك نعمة من الله عليه ، ولله المنة في ذلك ، وأن الله أمر بالعدل والإحسان ، ونهى عن الفحشاء والمنكر ،

ولا يأمر بالفحشاء بل ينهى عن المعاصى ، ويبغضها ، ويكرهها فمن عمل بها : فالله برىء منه ، ولله الحجة عليه .

وقال أبو يوسف القاضى : أدركت الناس يقولون فى القدر : أن الله تعالى ابتدأ الخلق بالنعم وجعل لهم السمع ، والبصر والعقول ، والأيدى والأرجل ، ولا يهتدى مهتد إلا بتوفيق من الله ، وتسديده ، ولا يضل ضال إلا بحجة من الله ، وتقدم عليه ، فالمحسن معان ، والمسىء مخذول ، وعلم الله سابق فى الأشياء ، ولن يكلف الله نفسا إلا وسعها ، وإلا ما آتاها .

ولو أن الله عذب أهل سماواته ، وأرضه لعذبهم وهو غير ظالم لهم ، ولو رحمهم جميعا لكانت رحمته خيرا لهم من أعمالهم ، ولو أن عبدا أنفق ملء الأرض ذهبا فى سبيل الله ولم يؤمن بالقدر . ما قبله منه ؛ حتى يعلم أن ما أصابه لم يكن ليخطئه ، وأن ما أخطأه لم يكن ليصيبه .

وروى أن رجلا من جهينة أو من مزينة : سأل رسول الله (ﷺ) فقال : أرأيت ما يعمل الناس ؟ ويكدحون فيه ؟ أشىء قضى عليهم ، ومضى عليهم فى قدر قد سبق ، أو فيما يستقبلون مما آتاهم به نبيهم ، أو أكدت به عليهم الحجة ؟ فقال رسول الله (ﷺ) : بل شىء قضى عليهم ، ومضى عليهم . قال : يا رسول الله . فلم يعملون إذاً ؟ فقال رسول الله (ﷺ) : كل من خلقه الله لواحدة من المنزلتين فهيئه لعملها ، قال الله تعالى : «وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا . فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا . قَدْ أَفْلَحَ مَنْ زَكَّاهَا . وَقَدْ خَابَ مَنْ دَسَّاهَا » ، فبين الله لهم

مافيه النجاة ، ومافيه الهلاك ؛ فإذا عمل العبد بالطاعة ـ فبعون الله تعالى وتوفيقه ومنّه ، وإذا عمل بالمعصية ـ كان ذلك بعلم الله وحجته على العبد ؛ لأن البارى ـ تعالى ـ قد تقدم إليه بهذا التبيين الذى بينه الله تعالى ـ له ، وهو هدى البيان لاهدى السعادة ، قال الله تعالى : فَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُمْ ، فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى» ، فهدى الله تعالى للخلق كلهم هدى بيان ، وكل منهم يعمل باختياره نفسه لما يعمل من كفر وإيمان .

وسئل عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) عن أفعال العباد : أهى مخلوقة ؟ فقال : الله خالق كل شىء ، وسئل على بن أبى طالب عن أفعال العباد : فقال : هى من الله خلق ومن العباد فعل .

فإن قال قائل : أخلق الله العباد للطاعة أم للمعصية أم لا لهذا ولا لهذا ؟ فقل له : إن الله خلق العباد للطاعة لا للمعصية ، كما قال الله تعالى : «وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ . مَا أُرِيدُ مِنْهُمْ مِنْ رِزْقٍ» إلا ليأمرهم بعبادته وطاعته ، ولم يخلقهم ؛ ليعصوه ، ولا ليعبدوا غيره .

فإن قال : أخلق الله القوة فى العبد للطاعة أم للمعصية ؟ فيقال له : إن الله خلق القوة للعبد للطاعة ولا للمعصية ، كما خلق العبد للطاعة لا للمعصية على معنى الأمر ؛ والنهى ، فإن قال : خلقها فيه للطاعة ولا للمعصية فعصى ؟ أليس قد أتى بما لم يقوّه الله من فعل نفسه ، فهذا استطاع خلاف ماجعل الله فيه ؟ فيقال له : إنه لم يفعل ماجعل الله فيه ، ولكن فعل مالم يجعل الله له ، وجعل الله له غير ماجعل الله فيه ، وإنما فعل مافعل بما جعل الله فيه من الجوارح التى بها عصى ،

وفعل مالم يجعل الله له ـ فانهم معانى : جعل الله له من جعل الله فيه . فإن قال : القوة التى يواقع بها العبد المعصية هى خلق من الله و تركيبه . قيل له : إن القوة من خلق الله ، وتركيبه فى العبد الى جعلها فيه ؛ ليطيعه بها فعصاه ، فلأجل هذا كان الثواب والعقاب .

وقيل : يجوز أن يقال : إن الله تعالى قضى على الكافرين النار . أى : شاء وأراد أن تكون لهم النار ، وما شاء وأراد ـ فهو كائن لاشك ، ويجوز أن يقال : إن الله قضى لأهل الجنة بالجنة . أى : شاء ، وأراد لهم الجنة ، قال الله تعالى : « وَلِنَجْعَلَه آيَةً لِلنَّاسِ ، وَرَحْمَةً مِنَّا ، وَكَانَ أَمْراً مَقْضِيًّا » .

فصل :

وقيل : إن أبا حنيفة أراد الدخول على جعفر بن محمد ، وإذا شابٌ قد خرج من جماعة الشباب ، فقال له أبو حنيفة : يا غلام . الذنب من الله تعالى أم من الله ومن العبد أم من العبد ؟ فقال له الغلام : إن كان من الله فليس من العدل والإنصاف ، أن يكون الذنب منه ، ويعاقب عليه ، وإن كان الذنب من الله ، ومن العبد ، فقد أشركه فيه ، وهو الشريك القوى يقدر على منع الشريك الضعيف ، لكن الذنب من العبد ، فإن عفا الله عنه فبفضل ، وإن عاقبه فبعدل ، وانصرف الغلام مع الصبيان يلعب ، فسأل عنه أبو حنيفة ، فقالوا : هذا موسى بن جعفر .

وقيل : كتب الحسن البصرى إلى الحسن بن على بن أبى طالب ـ أما بعد : فبنى هاشم ، فإنكم الفلك الجارية فى اللجج الغامضة التى من تعلق بها نجا ، ومن

تخلف عنها ضل وغوى ، كتبنا إليك يابن بنت رسول الله (ﷺ) عند تحيرنا فى القدر باختلافنا فى الاستطاعة ، فاكتب لنا ما أنت عليه ، وكان عليه آباؤك من قبل ؛ فأنتم ذرية بعضها من بعض ، والله سميع عليم . فكتب إليه الحسن بن على :

أما بعد : فقد وصل كتابك تذكر فيه تحيّرك ، وتحيّر أصحابك ، وكيف لا تحيرون ؟ وأنتم لهم قادة ، أما إنهم سيبغون الرجعة ويطلبون الإقالة عند تبرؤ المتبوع من التابع ، ولولا ما أخذ الله على عباده ممن عُلّم علما فكتمه لأمسكت عن جوابك .

وبعـــد :

فالذى أنا وآبائى عليه ؛ أنه من لم يؤمن بالقضاء والقدر كله : خيره وشره، وحلوه ومره ـ فقد كفر ، ومن حمل المعاصى على الله عز وجل ـ فقد فجر . إن الله ـ تبارك وتعالى ـ لم يطع باقتدار من المطيع ، ولم يعص بغلبة من العاصى ، لكنه المالك لما ملكهم عليه ، والقادر لما أقدرهم ، فإن ائتمروا بالطاعة لم يكن لهم عنها صارفا ، أو إن ائتمروا بالمعصية ، وشاء أن يحول بينهم ، وبينها فعل ، وإن لم يفعل : فليس هو الذى حملهم على ذلك : إذ ملّكهم وقواهم ، وجعل لهم السبيل إلى أخذ ما أمرهم به ، وترك ما نهاهم عنه ، ولله الحجة البالغة، ولو شاء لهداكم أجمعين .

فصـــل :

إن سأل سائل عن الله خلق الخلق، لم خلقهم، وخلقهم، ولم رزقهم، ورزقهم،

ولم أماتهم ، وأماتهم ، ولم حاسبهم ، وحاسبهم ، ولم غفر لهم؟ فيقال له : خلقهم؛ ليريهم حكمته ، ورزقهم ليريهم نعمته ، وأماتهم ليريهم قدرته ، وبعثهم ليريهم رأفته ، وحاسبهم ، ليريهم هيبته ، وغفر لهم ليريهم رحمته ، وعذبهم ؛ ليريهم عدله .

وقيل : إن لله تعالى فى خلقه مشيئتين ، وإرادتين ، ومعنى الإرادة والمشيئة واحد ، وهما اسمان يتضمنهما معنى واحد ، فإحدى المشيئتين ، الأمر الذى أرسل الله به الرسل ، وهدى له السبل ، ومشيئته فى خلق الخلق وقسم الأرزاق ، وما أراد فى إنفاذ ما علم ، وسبق عنده فى علمه من الأمور ، وما به الخلق عاملون ، وإليه صائرون ، وأراد ما أراد أن يخلق من الخلق جميعا من غير جبر ، ولا قسر . وفى القدر أكثر من هذا تركته اختصارا ، والله أعلم ، وبه التوفيق .

* * *

القول الثلاثون

فى المشيئة والإرادة

قال الله - تبارك وتعالى - : « وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا » الآية ، ففى هذا دليل أن الله لم يفوض الأمر إلى عباده، ليستبد كل أمرئ منهم بمراده كما زعم الملحدون فى آياته ، المنكرون لأحكام كتابه ، كما قالوا : إن الله - تعالى - شاء من الخلق أن يؤمنوا، وكره منهم أن يكفروا، فأحب الكافرون لأنفسهم أن يكفروا ، وكانت محبتهم غالبة لمحبته ، ومشيئتهم ظاهرة على مشيئته، فهم إن شاءوا أن يكفروا نفذت مشيئتهم ، والله تعالى - عندهم - قد شاء من الخلق ألَّا يكفروا فلم تنفذ مشيئته ، وإرادته ، وأراد أن يؤمنوا فلم تبلغ إرادته.

وكيف يكون ذلك ؟ وهو عز وجل يقول : « فَمَنْ يُرِدِ اللَّهُ أَنْ يَهدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلإِسْلامِ ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً » الآية ، فلا يستطيع من سبق له الخذلان : أن يدخل فى ملة أهل الإيمان ، إلا بمشيئة الله - تعالى - لا سابق لأمره ، ولا راد لحكمه ، ولا مضاد له فى مشيئة خالق الخلق ، ومدبر الأمر .

وقد روى عن النبى (ﷺ) أنه قال : « سبق العلم ، وجفّ القلم ، وقضى القضاء ، وتم القدر بتحقيق الكتاب وتصديق الرسل ، والسعادة من الله لمن آمن واتقى ، والشقاء لمن كذبه وتولى ، وبولايته للمؤمنين ، وبراءته من المشركين ، وبتوبته منه عليهم إن تابوا ، وآمنوا كما أمروا .

ثم قال (ﷺ) مخبراً عن الله – تعالى جل وعلا – : يابن آدم . بمشيئتي كنت ، أنت تشاء لنفسك ما تشاء ، وبإرادتي كنت ؛ أنت تريد لنفسك ما تريد ، وبنعمتي قويت على معصيتي ، وبقوتي أديت إليّ فرائضي ، فأنا أولى بحسناتك منك ، وأنت أولى بسيئاتك مني ، لم أدع تحذيرك ، ولم آخذك على غرتك ، ولم أكلفك فوق طاقتك ، ولم أحملك من الأمانة إلا ما قدرت به على نفسك .

وقال ابن عباس : الخلق – لما علم الله منهم – منقادون ، وعلى ما سطر في المكنون من كتابه ماضون ، لا يعملون خلاف ما منهم علم ، ولا غيره ، فلا مشيئة للعباد خلاف ما شاء الله ، وقال تعالى : « وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ » ، وقال تعالى : « وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ ، وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَى ، وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلًا ، مَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللهُ ، وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ » .

ومن صفات الله – تعالى – أنه يفعل ما يشاء وما يريد ، وليس لأحد أن يفعل ما يشاء ويريد غيره ، ففي هذا بيان إثبات مشيئة الله – تعالى – ، وإرادته ، وإبطال قول من يقول : إن العباد يفعلون ما يشاءون ، ويريدون ، والمشيئة ، والإرادة ، والقدرة – لله تعالى مشيئة إرادة لا مشيئة محبة .

فإن قال قائل : إن الله شاء الشرك من المشركين . قيل له : نعم ؛ لقوله تعالى : « وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا أَشْرَكُوا » ، وَلَوْ شَاءَ اللهُ مَا فَعَلُوهُ ،

« ولو شِئْنَا لآتَيْنا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا » فهذا كله دليل على أنه شاء ما فعلوه ، وإذا شاء ذلك فقد أراد .

والإرادة ، والمشيئة : هما صفتا ذات ، لا صفة فعل كالعلم والقدرة .

والدليل على أن الله – تعالى – لم يشأ الإيمان من الخلق كلهم – قوله عز وجل : « ولَوْ شَاءَ رَبُّكَ لآمَنَ مَنْ فِي الأَرْضِ كُلُّهُمْ جَمِيعاً » ، فلما لم يؤمنوا جميعاً – علمنا أنه لم يشأ أن يؤمنوا ؛ فمن آمن آمن مختارا غير مجبر . قال الله تعالى : « إِنَّهُ تَذْكِرَةٌ ، فَمَنْ شَاءَ ذَكَرَه ، وَمَا يَذْكُرُونَ إِلَّا أن يَشَاءَ اللهُ » . فثبت أنه لا يكون إلا كما شاء الله ، وعلم وأراد ، وقال : « ولَا تَقُولَنَّ لِشَيْءٍ إِنِّي فَاعِلٌ ذَٰلِكَ غَداً : إِلَّا أن يَشَاءَ اللهُ » فأخبر أنه لا يكون شيء شاءه أحد إلا أن يشاء الله ، وأجمعت الفقهاء على أنه لو أن رجلا قال لغريمه : لأعطينك حقك غدا – إن شاء الله تعالى – ثم أصبح ، ولم يعطه إنه غير حانث ، ولا خلاف بينهم في ذلك .

فإن قال قائل : هذه الفواحش هل أرادها الله تعالى ؟ قيل له : أراد أن تكون قبيحة فاسدة خلاف الطاعة والإيمان .

فصل :

الإرادة : قال الله تعالى : « إنما قَوْلُنا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » ، وقال : « إِنَّمَا قَوْلُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئاً أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ » .

وقال : « إنَّ اللهَ يَفْعَلُ مَا يُرِيدُ » فهذه صفة ذات ، لأن كل ما علمه الله فقد أراده

وليست إرادته تعالى ـ فعلا ، ولو كان فاعلا إرادة محدثة لم يخل من أن يكون أحدث إرادته فى نفسه ، أو فى غيره أو قائمة بنفسها . فإن قال قائل : إنه أحدثها فى نفسه فليس هو محلا للحوادث ، وإن قال : إنه أحدثها فى غيره : كان ذلك الغير مريدا ، وإن قال : إنه أحدثها قائمة بنفسها : كان مستحيلا ؛ لأنها صفة ، والصفة لا تقوم بنفسها ، فلما فسدت هذه الوجوه ـ صح أنه تعالى لم يزل مريدا ، كما أنه لم يزل قادرا عالما .

فإن قال : ما أنكرتم أن يكون لم يكن مريدا ثم أراد . قيل له : إنه لو لم يكن مريدا لكان موصوفا بضد الإرادة من الترك ، والأضداد عن الله منفية ، ولكان يقال : لم يكن عالما ثم علم . والله تعالى جل وعز عن ذلك .

فإن قال : المريد غير العالم ، قيل له : إن الله تعالى ـ هو المريد العالم ، وهذه الصفات له ـ تعالى ـ ثابتة فى كتابه عز وجل .

فإن قالوا : إن الله تعالى قد علم كل شىء ، ولم يرد كل شىء ، قيل له : ما الفرق بينك ، وبين من زعم أنه أراد كون الشىء ، ولم يعلمه ؟ لأن فيما بينا أن الإنسان قد يريد فعل الشىء ، ولا يعلم كيف يفعله ، والله تعالى : لا يجوز أن يوصف أن يريد شيئا لا يعلمه .

فإن قال : يجوز أن يقال : أراد ولم يرد، ولا يجوز أن يقال : علم ولم يعلم.
قيل له : قد قال الله عز وجل : « أَتُنَبِّئُونَ اللهَ بِمَا لَا يَعْلَمُ » فما دليلك على ذلك ، وهو المريد بنفسه والعالم بنفسه ، ولا حجة ، ولا فرق فيما اعتللت به ،
ويقال له : أتقول : إن الله يريد كون خلاف ما لم [يعلم] فإن قال : نعم — كفر

وإن قال : لا يريد إلا ما علم . قيل له : وما ذلك ؟ فإن قال : أراد الطاعة ولم يرد المعصية : قيل له : فعلى قولك هذا : أنه لم يرد إنفاذ ما علم .

ويقال له : أتقول : إن الله قد علم الطاعة من المطيع ، والمعصية من العاصى.
فإن قال : أراد الطاعة ، ولم يرد المعصية . قيل له : أو علم الطاعة ، ولم يعلم المعصية ،
فإن قال : نعم . كفر ، وإن قال : قد علم جميع ذلك . قيل له : وأراد إنفاذ ذلك ،
أو إبطاله . فإن قال : إبطاله . كفر ، وإن قال : إنفاذه : نقض قوله .

ويقال له : أليس الله — تعالى — أراد ، وأحب ، وشاء ، ورضى أن يكون الكفر فى ملكه ؟ فإن قال : نعم ؛ فقد خصم ، وترك قوله ، ووافقنا ، وإن قال :
لم يرد ، ولم يحب ، ولم يشأ ، ولم يرد ، ولم يرض أن يكون الكفر فى ملكه وسلطانه ،
قيل له : من بيده ملك الكفر وسلطانه ، فإن قال : هو بيد الله — رجع عن قوله ، وإن قال : بيد غير الله ، أو فى ملك غيره — كفر ، وجعل مع الله من يملك غير ما يملك الله ، وإن قال : الكفر فى ملك الله وسلطانه ، فيقال له :
أليس الله — تعالى — يريد أن يكون الكفر فى ملكه ، أو لم يزل لا يريد ذلك ؟
فإن قال لم يزل يريد ألا يكون الكفر فى ملكه ، قيل له : أليس الناس جاءوا

بشىء لم يزل الله يريد إلا أن يكون فى ملكه ؟ ، ولم يزل يريد إلا أن تملكه فملكه ، فملكوا ما لم يكن فى ملكه ، فإن قال : كيف يكون فى ملكه ما لم يكن شىء بعد ؟ قيل له : كما لم يزل رب العالمين قبل أن يكون العالمون ، وكما كان ملك يوم الدين ؛ قبل أن يكون يوم الدين . وإن قال : لم يرد الله أن يكون الكفر فى ملكه . يقال له : من أكرهه ، وأجبره على أن يجعل الكفر فى ملكه وسلطانه ؟ فإن قال : أكرهه على ذلك غيره — فقد وصفه بأنه مغلوب على ذلك ، وهو القوى الغالب ، والقادر على كل شىء .

ويقال له : كيف إرادة الله — تعالى — فى خلقه على غير معنى كانت من الله تعالى — يريد تمامه من العباد ، أم على معنى لا يريد تمامه ؟ فإن قال : لا يقال لإرادة الله معنى ، وليس إرادة الله كإرادة العباد ، قيل له : صف لنا إرادة الله فى خلقه فيما أمرهم به ، ونهاهم عنه ، فإن قال : الإرادة من الله واحدة . قيل له : أليست إرادته من الخلق فى الطاعة ؛ أن تكون منهم كما أراد منها خلق الخلق ، فإن قال : بلى . قيل له : ما بال إرادته تمت فيما أراد من خلق الخلق ، ولم تتم فيما أراد من الخلق فى الطاعة ؟ .

فإن قال : إرادته فى خلق السموات والأرض ، وأشباههما — إرادة حتم ، وإرادته من الخلق إرادة أمر ، قيل له : فمن أى الأمرين إرادته الطاعة من المكلفين ؛ إذا أراد ذلك منهم ؛ فلم يكن ما أراد ؟ فإن قال : من إرادة الأمر ، وإرادة الحتم ؛ فقد ترك قوله ؛ وإن قال : ليس من إرادة الأمر ، ولا من

إرادة الحتم ، قيل له : فما هذه الإرادة الثالثة ، وما هى ؟ ؛ فإنه لا يأتى لغيرها ، ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

فإن قال : إن الإرادة من الله — تعالى — إرادة واحدة فى جميع الأشياء ؛ أراد من العباد الإيمان ؛ كما أراد أن يخلق السموات والأرض ، وذلك أصل قوله ؛ فإذا اضطر رجع إلى أن إرادته فى خلق السموات غير إرادته من العباد الإيمان .

وقيل لمن أقام منهم على القول الأول : بأن الإرادة من الله تعالى ؛ فى جميع الأشياء واحدة أعجز الله أن يتم ما أراد جميعا على ما أراد كما أراد من خلق السموات والأرض، والشمس والقمر ، وخلق الإنسان؟ أم لم يعجزه شىء مما أراده ؟ فإن قال : بل أعجزه شىء — فقد كفر ؛ لأن الله — تعالى — يقول : « وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَىْءٍ فِى السَّمٰوَاتِ وَلَا فِى الْأَرْضِ » وقال « وَهُوَ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ » ، وإن قال : لا يعجزه ، وكل ما أراد فهو كائن — قيل له : فما بال الخلق لم يكن منهم ما أراد من الإيمان ، كما أراد من خلق السموات فى تمام خلقها ؟ فإن قال : بل إرادته فى كل شىء سواء ، وليس كما أراد بكائن : لأن الإرادة من الله تعالى — فى خلقه حتم ، والإرادة من الله فيما أمر ليس بحتم ، كما حتم خلق السموات ، قيل : له فما هى ؟ إذا كانت ليس بحتم كما حتم خلق السموات ، فإن قال : هى إرادة أمر ؛ فقد زعم كما زعمناه .

ويقال له : فإرادة الله من الأمر ما لم يتم كونه أما يتم كونه ، فإن قال : فإرادة لله من الأمر ما يتم كونه . قيل : فماذا دفع إرادة الله فيما أراد فى

أمره من عباده ؟ فإن قال: إرادة الخلق دفعت إرادة الله ؛ قيل له : أو ليس أنها كانت سبب دفع إرادة الله . ما أراد الخلق لأنفسهم ؛ لأنه لو لم يحب ويرد الله تمكين الخلق من استطاعة دفع ما أراد الله لم يكن الخلق أبدا يدفعون ما أراد الله ، ولا يستطيعون دفعه ، فإن قال إنما دفع العباد ذلك ؛ بما أعطاهم الله ؛ فقد زعم ؛ أن الله دفع إرادته بإرادته ، وأنه تعالى أراد ذلك جميعاً ، فإن قال : إنما يستطيع العباد خلاف ما أراد الله منه ، ويفعلون خلاف ما أراد بغير تمكين منه — تعالى — لهم ، فقد زعم أنهم مستغنون عن الله تعالى ، وأنهم هم الذين يفعلون ما يحبون بلا سبب من الله — تعالى — لهم ، ولا قوة أعطاهم إياها ، وهذا ما يدخل عليه ؛ وإن قال : إن إرادة من الله تبارك وتعالى — : ليست بواحدة ، قيل له : كم هى ؟ فإن قال : الإرادات كثيرة : منها ما يخلق تثبيت الخلق حتما منه ، ومنها ليس بحتم . قيل له : أما التى فى حتم خلق الخلق فنحن وأنتم فيها سواء ، وأما التى ليست بحتم . وليست فى قولكم بأمر كما قلنا . فما هى ؟ وكيف هى ؟ إرادة أرادها من الخلق — أن يأمرهم ، وينهاهم ، ولا يجبرهم ، ولا يكرهم ؟ فإن قال : نعم . قيل له : فهل أحب الله الذى أراد من الخلق فى أمره ، ونهيه ؟ فإن قال : نعم . قيل له : فهل كان ما أحب كما أحب ؟ أم إنما أراد أمرا ، وأحب خلافه ؟ ، فإن قال : أراد أمرا وأحب خلافه ؟ فقد ترك قوله ، فإن قال : بل أراد أن يأجر العباد بما يحب تمامه ؛ فقد رجع إلى أنها إرادة حتم ، مثل إرادة خلق السموات ، والأرض ، ولم تتم إرادته فى خلقه ، كما تمت فى خلق السموات والأرض . والذى نقوله : إن الله تعالى فى

خلقه مشيئتين ، وإرادتين ، ومعنى المشيئة والإرادة واحدة ، وهما اسمان تضمنهما معنى واحد : أحدهما مشيئة الأمر الذى أرسل به الرسل ، وهدى به السبل ، والمشيئة الأخرى — مشيئة فى خلق الخلق ، وقسم الأرزاق ، وما أراد فى إنفاذ ما قد سبق عقده فى علمه من الأمور ، وما به الخلق عاملون ، وإليه صائرون .

ولو كانت المشيئة من أمر الله — تعالى — واحدة ، كما قالت القدرية ، لم يختلف على الله فيما أراد من الخلق ، كما لم تختلف إرادته فى خلق السموات والأرض ، وغير ذلك ، ولكان العباد فيما أمرهم به مطيعين ؛ كما أطاعته السموات والأرض ، إذ أجابتا حين قال للسموات والأرض « ائْتِيَا طَوْعًا أَوْ كَرْهًا قَالَتَا أَتَيْنَا طَائِعِينَ » .

فلو كانت إرادته فيما أمر من الطاعة مثل إرادته فيما أمر من خلق الخلق — لكان الذين قال لهم : كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ — لا يكونون إلا كما أراد منهم — كما زعموا — لأنه لم يرد منهم غير الطاعة ، ولكان الذين قال لهم : كونوا مع الصادقين — لا يكونون أبدا إلا مع الصادقين . لأن أهل القدر زعموا أن الله لم يرد فى العباد ، ولا للعباد إلا إرادة واحدة ، وهى إرادة الإيمان ، ولو كان ذلك كذلك لكان كل من قال لهم : كونوا كذا وكذا : كانوا يكونون كما قال لهم ، فالله تعالى — لم يعص بعسر ، ولا استكراه ، ولا بغلبة ، ولكن إرادته نفذت فى كل ما أراد كما أراد ، وكذلك وصف نفسه فقال : « إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ » .

فإن قال : فإبليس يريد الكفر قيل له : نعم ، فإن قال : فالنبي (ﷺ) يريد الكفر قيل له : لا ، فإن قال : فإبليس كان أطوع لله من رسول الله (ﷺ) بإرادة إبليس ما أراد الله ، والنبي (ﷺ) كره ما أراد الله . قيل له : بل إبليس عصى ربه بإرادته الكفر لأنه نُهي عن ذلك ، وأطاع النبي (ﷺ) ربه إذ لم يرد ما أراد ربه من الكفر ، وليس كل من أراد ما أراد الله مطيعا له ، فإن قال : فمن ألقى الكفر في قلوب الكافرين ، قيل له : ابليس ألقى الكفر في قلوب الكافرين ، بالدعاء ، والتزيين ، والوسوسة ، فإن قال : فالله لم يلق ذلك في قلوب الكافرين : قيل له : لا ؛ فإن قال : فكيف ؟ وهو خلقه ؟ قيل له : كما أنك تقول للكفر : الله خلقه ، وهو معلوم لله .

ولم يلق في قلوب الكافرين ، فإلقاء الكفر في القلب هو دعاء إليه ، ووسوسة للكافر في قلبه ، وأمره به وذلك عن الله — تعالى — منفى .

على أن الله أراد بقاء الكافرين ؛ لأنه هو الذي يبقيهم ، وأراد أن يُصح أبدانهم ، وينمى زرعهم ، ويكثّر أموالهم ، وإبليس يريد ذلك ، والنبي (ﷺ) يكره ذلك ، ولا يريده .

فكان النبي (ﷺ) مطيعا لله بإرادته ، وكراهيته ما أراد الله من بقاء المشركين ، وصحة أبدانهم ، وبذلك أمره الله تعالى — وعصى إبليس بإرادته ما أراد الله من بقاء المشركين وصحة أبدانهم .

ألا ترى أن الله — تعالى — أراد موت نبيه (ﷺ) ؛ وكره المؤمنون ذلك جميعا ، وأراد إبليس ، وجميع أوليائه من الكفار ، والمنافقين موته .

فكان إبليس وجميع أوليائه عصاة بإرادتهم ما أراد الله من موت نبيه (عليه السلام)، وكان المؤمنون جميعا مطيعين بكراهيتهم ما أراد الله من موت نبيهم (عليه السلام).

وبذلك أمرهم الله - تعالى - لأن الله - تعالى - هو المتولى على ما فى الغيب، والخلق لا يعلمون منه شيئا، والقضاء، والقدر هو سر الله، والله يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد، لا يسأل عما يفعل وهم يسألون.

* * *

القول الحادى والثلاثون

فى خلق الأفعال وفى التوفيق والخذلان

إن قال قائل : أتزعمون أن الله خلق أفعال العباد ؟ قيل له : نعم فإن قال : فما حجتكم ؟ وقد أمر الله ببعضها ، ونهى عن بعضها ، وأوجب عليها الثواب ، والعقاب ؟

قيل له : لأن الله هو الخالق وحده ، وما سواه فهو مخلوق قال الله تعالى : « ذَٰلِكُمُ اللهُ رَبُّكُمْ لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ » ، ووجدنا الأفعال شيئا موجودا ، فعلمنا أنها مخلوقة ؛ لأن مخرج الآية عام ، ولم نجد دليلا [على] أنه خاص . وقد قال الله تعالى : « وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَاجًا ، لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا ، وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً ، وَرَحْمَةً » ، وقال : « وَجَعَلْنَا فِى قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً ، وَرَحْمَةً ، وَرَهْبَانِيَّةً » ، والمودة ، والرأفة ، والرحمة ـ يحمدون عليه ، ويذمون على تركه ، وقد أضاف الله ـ تعالى ـ جعل ذلك إليه ، والجعل من الخالق خلق ، والجعل من العباد قول ، ووصف .

وسئل على بن أبى طالب عن أعمال العباد التى يستوجبون بها النار : أهى شىء من الله أم من العباد ؟

قال : هى من الله خلقٌ ، ومن العباد عمل .

فإن قال قائل : خلق الله الشرك فى قلوب المشركين ، قيل له : إن كنت أردت أن خلق الشرك فى قلوبهم ، بأن اضطرهم إليه ، وحملهم عليه ؛ كما خلق أسماعهم ، وأبصارهم فى رءوسهم — فلا . وليس كذلك نقول ، ولكن خلق الشرك له فى قلوب المشركين فاسدا خلافا للتوحيد الذى فى قلوب المؤمنين الموحدين .

فإن قال : أليس ما خلق الله ، فقد فعله ، وصنعه ؟ قيل له : نعم قد يقال هذا فى جملة الأشياء ، ولا يقال ذلك فى بعض الأشياء مطلقا ، فإن قال : أليس يقولون : إن الله خلق الكفر ؟ قيل له : نعم .

فإن قال : أفتقولون إن الله تعالى — فعله ، وصنعه ؟ قيل له : ألا ترى أنا نقول : إن جهنم قذرة ولا نقول : إن الله صنع الأقذار ، ونقول : خلقها ؟ لأن خلقها اسم يعظم فى كل شىء ، وصنع ودبر الأقذار ، والقبائح تهجين ، فنفينا عنه لجل جلاله كل إضافة تهجين ، والخلق صفة تعظيم مضاف إلى الله بالتعظيم .

فإن قال : أفتقولون : إن العبد فعل خلق الكفر ؟ قيل له : نعم . ومعنى ذلك أنه كفر ، فإن قال : أفتقولون : إنه فعل خلق الله ؟ قيل له : لا . إن ذلك يوهم أنه خلقه ، ويقال : أفسد المطر الطعام ؛ فالمطر تدبير الله ، ولا يقال : تدبير الله أفسده ، ويجوز أن يقال : ما أقبح القرد ، أو أقبح بجهنم ، ولا يجوز أن يقال : ما أقبح تدبير الله فى ذلك .

فلو قال قائل : ما أحسن جهنم — لـكان فى ذلك مخطئا ، وهو من خلق الله تعالى ؛ ولو قال : ما أحسن الخَلق — لـكان معيبا ، وجهنم خلق .

فإن قال : إن الفعل لا يخلو من ثلاثة وجوه : إما أن يكون من العبد دون الله ، وإما أن يكون من الله دون العبد ، وإما أن يكون منهما . قيل له : قد خلا من هذه الوجوه ، لأن الفعل لا يكون من العبد دون أن يكون خلقا من الله تعالى ، ولم يكن خلقا من الله تعالى غير من أن يكون اكتسابا من الصبر ، ولم يشتركا فيه جميعا ، لأنهما لم يخلقاه جميعا ، ولم يكتسباه جميعا ، وإنما تكون الشركة لو أنهما خلقاه جميعا ، واكتسباه جميعا ، وإنما قلنا : خلقه الله ، واكتسبه العبد ؛ لأن الأفعال غير الأجسام .

فإن قال : أخلق الله الكفر ، والإيمان ؟ قيل له : نعم خلقهما الله عملا من العباد ، ولم يعملها على وجه ما عملته العباد يزنى ، ويسرق ، ويعصى ، ولم يفعل الله ذلك على ما عملته العباد ، ولكن الله خالق عملهم ، فخالق المعصية والطاعة عمل من العباد ، وكذلك كل شىء صنعه العباد ، وعملوه ، فالله خالق عملهم ، وخالق الله لعملهم غير عملهم .

فإن قال الخير ، والشر من الله أم من العباد ؟ قيل له : الخير ، والإيمان من العباد بعون الله تعالى ، ولا يكون العبد عاملا لخير أبدا إلا والله على ذلك الخير عون له ، ولا يكون عمل العبد قبل عون الله ، ولا يعين الله العبد ، قبل أن يعمل ، وإنما يقع عون الله للعبد على الإيمان مع الإيمان فى حال واحد .

ولا يكون الكفر ، والضلال أبدا إلا من العبد ، ولا يعمل الكفر إلا .

وهو مخذول من عون الله ، والكفر منه ، والله قد علم ما هو كائن من علمه ، وكان كما علم من غير أن يكون علم الله عملا للعبد .

ولا يكون الإيمان والكفر من أحد أبداً إلا وقد شاء الله أن يكون منهم ما علم أنه كائن منهم ، وكل شيء فالله تعالى مالكه ، ومقدره .

والحسنة : هي من عند الله بلطفه وعونه ، وخص بذلك من سبق له في علمه والحمد لله على إنفاذ ما أراد وأمضى في علمه ، فالحسنة من العباد ، وأعمالهم في طاعة الله بما لطف لهم به ، وأما الذى هو من عند الله : فالطبع والقسوة ، والران على القلوب بما هو كائن من أعمال العباد القبيحة ، ولم يلطف بهم ، ولم يعنهم ، ولم يختر لهم مثل الذى اختاره ولطف به لأهل طاعته ، وأما السيئة التى هى من العباد ؛ فأعمالهم فى معصية الله تعالى .

وأما الضلالة التى هى من عند الله ، فتركه إياهم وتخليه لما هم إلى ما هو كائن مما قد علم الله ، من أعمالهم ، وتسليط إبليس عليهم ، وأما الضلالة التى هى من إبليس فأمره ، ودعوته لمن أجابه .

فإن قال متى خلق الله تعالى الفعل ؟ أفى حال ما اكتسبه العبد ، أم قبل أن يكتسبه ، أم بعد ما اكتسبه ؟

قيل له : العين التى هى كسب فهى التى خلقها الله تعالى كسبا على ما هى عليه ، فنقول : إن العين التى هى كسب للعبد : هو المخلوق ، وهو الذى اخترعه الله تعالى — فأنشأه على ما هو عليه من حسن ما حسنه ، أو قبح ما قبحه .

فإن قال : أفيجوز أن يخلقه ، ولا يكتسبه العبد ، أم يكتسبه العبد ولا يخلقه الله ؟ قيل له : لا يجوز أن يكتسبه العبد ، ولم يخلقه الله تعالى ـ لأن فى ذلك إيجاد الفعل كان بعد أن لم يكن ، لم يثبته الله تعالى ، ومحال أن يكون محدثٌ وقع ، وليس الله تعالى هو محدثه ، كما أنه يستحيل أن يكون مملوك ، ومربوب فى العالم ، لا يملكه الله تعالى ، ولا يكون ربه .

فصل :

ويقال لمن أنكر خلق الأفعال: أخبرونا عن الإيمان من خلق لا من شئ ؟ فإن قالوا : الله خلق ؛ فقد أقروا بخلق الأفعال ، وإن قالوا : المؤمن هو الذى أحدث الإيمان لا من شىء ؟ قيل لهم : وكيف يمكن الإنسان أن يحدث الإيمان لا من شىء ، وهو لا يدرى كيف كان لا من شىء ؟ ولا يتصور ذلك فى وهمه ؟ مع أن إحداث الأشياء لا من شئ من صفة الخالق ـ سبحانه وتعالى ـ قد وصفتم المخلوق بصفة الخالق .

فإن قالوا : لو كانت أفعالنا مخلوقة ؛ لما عذبنا عليها . قيل لهم : فيلزمكم أن تقولوا : إن الإيمان مخلوق ، لأنه لا يعذب عليه ، والكفر غير مخلوق ، لأنه يعذب عليه ، وكلاهما فعلكم فتناقض قولكم .

ويقال لهم : هل يكون للعبد أن يتكلم بكلمة ليس عليه لله تعالى فى تلك الكلمة نعمة ؟ فمن قولهم : لا يكون إلا بنعمة من الله عز وجل . فيقال لهم : أفنعمة الله على عبده أزلية أم محدثة ؟ فلا بد أن يقولوا محدثة ، فيقال لهم :

هل يجوز أن تكون نعمة الله ليس هي من خلقه؟ فلابد من قولهم : نعم ، وفيه انقطاعهم .

فصـــل :

قال الحسن في قوله تعالى: « وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ » أي: خلق الكفر، والإيمان . وقال مجاهد في قوله تعالى : « وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ » أي : الكفر والإيمان ، والخير والشر ، والهدى والضلال .

وقال حذيفة : إن الله تعالى : صنع كل صانع ، وصنعته .

وقيـــل : إن النبي (ﷺ) صلى على جنازة رجل من الأنصار فقال : « اللهم نقه من الذنوب والخطايا ، كما ينقى الثوب الأبيض من الدنس » والعباد هم الذين يتقون ، ويطلقون ، ويفعلون ، ويتقون ؛ فأضاف ذلك إلى الله عز وجل ؛ لأنه الخالق لأفعال الخلق ، وسأله رجل فقال : إني كنت صائما ، فأكلت ، وشربت . فقال (ﷺ) : إن الله أطعمك ، وسقاك ؛ فالطاعم ، والشارب هو العبد ، والطعم والشرب فعله ، فأضافه إلى الله تعالى - إذ كان هو خالقه جل وعلا .

وإن سأل سائل : هل يخلو العبد من نعمة وبلية؟ قيل له : لا يخلو من ذلك؛ فالنعمة يجب عليه شكرها ، والبلية منها : ما يجب الصبر عليه كالمصائب ، والأمراض ، وما أشبه ذلك . ومنها : ما لا يجب الصبر عليه ، كالكفر ، وسائر المعاصي .

وليس بين الإيمان والكفر منزلة ثالثة ، ولا بين المعصية والطاعة منزلة ثالثة ، ولا بين الجنة والنار منزلة ثالثة ، وكل فعل أو قول ، فلا يخلو من طاعة أو معصية .

قيل : إن ابن عباس سمع حمّارا يسوق حمارا ؛ إذ تكلم بكلمة ؛ فقال الملك صاحب اليمين : ما هذه حسنة ، فأكتبها حسنة ، وقال صاحب الشمال : ما هذه سيئة فأكتبها سيئة ؛ فنودى من السماء : ما تركه صاحب اليمين فاكتبه ، وفى خبر عنه : بينما رجل يسوق جملا ؛ إذ زاغ عن الطريق ، فقال له : حَلِ ، فقال صاحب اليمين : الخبر — وحَلِ[1] : زجر للإبل ، وحز زجر الحمير — ومعنى حلِ فى حديث ابن عباس : أن كثرة الزجر فى الإفاضة من عرفات توطئ الناس ، وتؤذيهم ، وتشغلهم عن ذكر الله تعالى .

وقيل فى قوله تعالى : « مَا يَلْفِظُ مِنْ قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ » يكتب الأشياء كلها ؛ حتى قول الرجل : ياجارية : ضعى الإناء ، وياجارية : اصنعى لى وضوءا ، أو ياجارية : ناولينى نعلى ، ناولينى ردائى ؛ وحتى صفير الرجل لدابته لتشرب ؛ وحتى إن هذا أسود ، وأن هذا أبيض .

وبلغنا أن الملكين عليهما السلام أفرحُ بمحاسن العبد منه ؛ إذا تكلم ، وعمل الحسنات ، وأنهما أشد حزنا منه بمساوئه ، ويقولان : اللهم وفقه ، وسدده ؛ حتى يُمْلِى علينا خيرا .

---

(١) من القاموس وشرحه : وحلحل بالإبل قال لها حل حل بمنونتين ، إلى أن قال وبكل ذلك ، زجر لإناث الإبل ويقال حلى حلى . الأول بفتح الحاء واللام ، والثانى بفتح الحاء وكسر اللام ، لما بضبط اللسان شكلا .

ويقال : ماخطا عبد خطوة قط ، إلا كتبت له حسنة ، أو سيئة .

فصل :

إن الله تبارك وتعالى خالق الطاعة ، والمعصية ، وقدرها وقضاها مع الفعل، لاقبلُ ، ولا بعدُ ، وليس لله شريك فيما قضى وقدر ،ولم يؤت العبد من قبل خالق الله ، وقدره وقضائه ، ولـكن: أوتى من قبل اكتسابه للمعصية ،ومخالفته للأمر ، وإيجاد الحجة عليه .

ولم يزل الله مريدا لذلك ، فالطاعة إرادة رضا ومحبة ، وعلم ، ومشيئة ، والمعصية إرادة علم ، ومشيئة ؛ لا إرادة أمر ، ولا رضا ، ولا محبة .

والدليل على خلق الأفعال : قوله تعالى : «وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ ، أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ »،وقال: « أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » يقول: كيف لا أعلم القول الذى تُخْفُونَ ، وأنا خلقته ، وقال «وَمِنْ آيَاتِهِ خَلْقُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضِ ، وَاخْتِلَافُ أَلْسِنَتِكُمْ ، وَأَلْوَانِكُمْ » ، فأوجب اختلاف الألسنة ، وهى اللغات ؛ لكونها خلقا من خلقه ، وكل ذلك كلام الخلق يحمدون على الصواب منه ، ويذمون على الخطأ ، فجعل خلقه الألسنة آية من آياته كخلق السموات والأرض ،وقال:«وَقَدَّرْنَا فِيهَا السَّيْرَ سِيرُوا فِيهَا لَيَالِيَ وَأَيَّاماً آمِنِينَ» فأضاف الفعل إلى المخلوق،والخلق ،والتدبير إلى الخالق جل وعلا ، وقال:« وَمِنْ آيَاتِهِ مَنَامُكُمْ بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ،وَابْتِغَاؤُكُمْ مِنْ فَضْلِهِ»

لجمال ابتغاءنا الذى أمرنا به ، وهو من فعلنا آية من آياته ، وقوله تعالى . « لَقَدْ جِئْتُمْ شَيْئًا إِدًّا » فسمى أعمال العباد شيئا

وقال : « وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ وَكُلُّ صَغِيرٍ وَكَبِيرٍ مُسْتَطَرٌ » وقال : « إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ » وقوله : « وَجَعَلَ لَكُمْ سَرَابِيلَ تَقِيكُمُ الْحَرَّ ، وَسَرَابِيلَ تَقِيكُمْ بَأْسَكُمْ » وهى من أعمال بنى آدم .

وقال : « وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ ، وَمَا تَعْمَلُونَ » ، وقال : « وَنَحْنُ نَتَرَبَّصُ بِكُمْ أَنْ يُصِيبَكُمُ اللَّهُ بِعَذَابٍ مِنْ عِنْدِهِ ، أَوْ بِأَيْدِينَا » فثبت أن الله يصيب الكافرين بأيدى المؤمنين، فيكون فعل المؤمنين بالكفار من القتل، والجراحة مصيبة أصابهم الله بها، فأضاف ذلك إلى الله أنه أصابهم بها على أيدى المؤمنين، فدلّ على أن الأفعال من الله خلق ، ومن العباد عمل .

ويروى أن النبى (ﷺ) قال : « ماخلق الله خلقا أحب إليه من العتاق، ولا أبغض إليه من[1] الطلاق » قال : لو أن الناس نظروا إلى خلق الرفق — لرأوا خلقا حسنا ، ولو نظروا إلى خلق الخرق — لم يروا أقبح منه ، والعتاق ، والطلاق ، والرفق ، والخرق : من فعل العباد .

فصل :

قيل : والتوفيق من الله تعالى هو أن يعطى الله تعالى عبده قوة يقدر بها على طاعة الله وهو لطف يقدر به العبد على الإيمان .

---

(١) حديث أبغض الحلال إلى الله الطلاق ، رواه أبو داود ، وابن ماجه ، والحاكم عن ابن . عمر م .

والعصمة : هى الحراسة من مواقعة المعصية، والقدرة على الطاعة ، والمعصوم من المكلفين من إيقاع المعاصى .

والعاصم فى الحقيقة هو الله تعالى ، قال الله تعالى : « وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » أى يحرسك ، والعصمة تكون فيما يستقبل .

ومن نجا من المهلكة فمن قبل الله تعالى وعصمته إياه ، وتوفيقه له ، ومنه وفضله عليه .

وأما الخذلان : فهو القدرة على الكفر ، وكل من خلقت له القدرة على الكفر فهو مخذول ، والخذلان أيضا : ترك العبد من العصمة .

والنصر : هو الإعانة من الله تعالى ، وقيل : لما نزل : « وَاللهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ » قال النبى (ﷺ) : « لا أبالى بمن نصرنى ، أو خذلنى ، فهنيئا لمن تولى الله نصره ، وعصمته .

والحرمان : فوات الطاعة ، والثواب عليها ، والقدرة على المعصية ، والجزاء عليها ، وفى قوله تعالى « خَتَمَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِم ، وَسَمْعِهِم » والختم : هو الطبع ، وهما بمعنى وهو التغطية للشىء ، والاستيثاق من أن يدخله شىء آخر ، والمعنى : طبع الله على قلوبهم ، فأغلقها ، وأقفلها ، فليست تعى خيرا ؛ ولا تفهمه و « على سمعهم » فلا يسمعون الحق ، ولا ينتفعون به « وَعَلَى أَبْصَارِهِم غِشَاوَةٌ » أى : غطاء وحجاب ؛ فلا يرون الحق ، ولا يهتدون إليه سبيلا .

وقال أبو على : جعل الله أعمالهم سيئة طبعا على قلوبهم ؛ بما ركبوا من

الذنب على الذنب ؛ حتى ران على القلب ، واسود ، وذلك عند فعل العباد ، لا قبلُ ولا بعدُ ؛ لأنه لو كان قبل ـ لكان حجة للعبد على الله يوم القيامة ؛ إذ قد ختم على قلبه ، وطبع ؛ فلم يقدر أن يؤمن ، فكيف تلزمه العقوبة عليه .

وحقيقة الطبع ، والختم ، والأغشية : إنما هو فعل ما يصير به القلب مطبوعا ، ومختوما عليه ، ومغطى عن الحق ، لأن الأكنة : هي الأغطية ، والله أعلم وبه التوفيق .

* * *

القول الثانى والثلاثون

فى الاستطاعة

الاستطاعة فى اللغة : القدرة على الشىء ، قال الله تعالى : « فَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا » أى من لم يقدر أطعم، وزال عنه فرض الصوم ؛ لزوال اسم الاستطاعة وهى الصحة . ووجود المال يوجب استطاعة الإطعام ، واستطاعة الحج والنكاح .

فالاستطاعة ، بمعنى القدرة ، والقدرة فى الإنسان : هى عرض فى الجسم ، وليست القدرة بجسم فى الجسم ، والعرض لايقوم بنفسه ، ولا يثبت وقتين ، والقوة ـ لا خلاف ـ أنها صفة وعرض ، لاتقوم بنفسها ، ولا تثبت وقتين .

وحقيقة الكسب : كل فعل وقع باستطاعة محدثة مع الفعل ـ فأما من فُعل بقدرة قديمة ، فهو غير مكتسب ، والدليل على أن الاستطاعة مع الفعل . . . . أن من لم يخلق الله له استطاعة لم يجب أن يكتسب شيئا ؛ فلما استحال أن يكتسب الفعل ـ إذا لم تكن استطاعة ـ صح أن الكسب إنما يوجد بوجودها وفى ذلك إثبات وجودها مع الفعل يكن .

فإن قال قائل : أليس فى عدم الجارحة عدم الفعل ؟ قيل له : فى عدم الجارحة عدم الاكتساب ، لأنها إذا عدمت القدرة فبعدمها استحال الكسب بعدم القدرة ، ولعدم الجارحة ، ولو عدمت ووجدت القدرة كان الاكتساب واقعا ؛ ولو كان إنما استحال الاكتساب لعدم الجارحة لكان

إذا وجدت وجد الاكتساب، فلما كانت توجد، ويقارنها العجز، وتعدم القدرة، فلا يكون كسب – علم أن الاكتساب إنما يعدم لعدم الاستطاعة لا لعدم الجارحة.

قال الله تعالى: « مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ، وَمَا كَانُوا يُبْصِرُونَ » وقد أمروا أن يسمعوا الحق، وكلفوه، فدل ذلك على جواز التكليف، وإن لم يصل الحق، ويسمعه على طريق القبول – لم يكن مستطيعا.

والله عز وجل خالق الإنسان، خلقة لا يستطيع أن يمتنع عنها، خلقه غير ممتنع من حركة أو سكون، ولا يخلو من أحدهما أبداً حتى يموت؛ فالمتحرك لا يكون ساكنا، والساكن لا يكون متحركا. هذا مالا يكون.

والعبد لا يخلو من أن يكون متحركا أو ساكنا: بخير أو شر؛ فإذا كان فى الخير شغله عن الشر؛ وإذا كان فى الشر شغله عن الخير.

ولا يستطيع العبد إلا فعل ما هو فيه؛ لأنه لا يستطيع أن يخلق خِلقةً يستطيع بها أن يكون بها فاعلا تاركا، ولا مطيعا عاصيا، ولا قائما قاعدا، ولا قابضاً باسطاً، ولا آخذاً تاركا فى حال واحدة – هذا مالا يصح، وإنما خلق أن يستطيع أن يكون قائما فى حال قيامه، أو قاعدا فى حال قعوده، ولا يستطيع قائما قاعداً معاً، لذلك خلقه الله، وهو يفعله فى أحد الأمرين، غير مستطيع للآخر، لأنه مشغول بأحدهما عن الآخر.

ومعنى أن الاستطاعة لا تكون إلا عند مباشرة العمل؛ لا قبلُ ولا بعدُ يحدثها الله للعبد حين كسبه لها.

ومن زعم أن له استطاعة قبل العمل ؛ فقد زعم أن الله حال بين العباد ، وبين أن يفعلوا مايستطيعون .

ويقال لهم : هل يجوز للعبد أن يكون لا مؤمناً ولا كافراً ؟ فإن قالوا : بلى قد يجوز ذلك ، فيقال لهم : فإذا لم يكن مؤمنا ، فما يكون ؟ أ كافراً أم غير ذلك ؟ فإن قالوا إنه إذا لم يكن مؤمناً ؛ فإنه لا يكون كافراً ، فقد زعموا أن الناس قبل أن يدخلوا فى الإسلام لم يكونوا كفاراً .

وإن قالوا : إنه إذا لم يكن مؤمناً ؛ فإنه يكون كافراً ـ فقد صدقوا فى ذلك ، فيقال لهم ـ عند ذلك ـ هل يستطيع العبد أن يكون كافراً لا يكون مؤمناً ، وإذا لم يكن مؤمنا لا يكون كافراً ؟ فإن قالوا ذلك ـ فقد تركوا قولهم .

ويقال لهم : أخبرونا عن الأعمى الذى لايبصر ، ثم أبصر متى كانت استطاعته البصر فى حال العمى أم فى حال ما أبصر ، أم من بعد ذلك ؟ فإن قالوا : قبل أن يبصر . فقد زعموا أن استطاعة البصر كانت فيه وهو أعمى ، وإن قالوا : مع البصر ، فقد تركوا قولهم ، ورجعوا إلى ما قلنا ، وإن قالوا : من بعد الفعل ، فقد تركوا قولهم وقولنا ، ودخلوا فيما لم نقل . فمن ولاهم .

ويقال لهم : الاستطاعة ما هى ؟ فإن قالوا : هى السلامة فى البدن ، قيل لهم : ألستم تزعمون أن الإنسان فيه استطاعة ما لم يفعل ؟ فإن قالوا : بلى ؛ فقل : إذا كانت السلامة هى استطاعة ؛ إذا كانت فى البدن ، هل غائب

عن البدن ؛ إذا كان قائماً غير قاعد ؟ فما باله إذا كانت السلامة معه حيث ما ذهب يستطيع بها أحياناً ، وحيناً لا يستطيع ، والاستطاعة موجودة فى كل وقت لا تفقد ، ولا تقدم ؟ .

وإن قالوا : الاستطاعة غير السلامة فى البدن ، فقل : أخبرونا ما هى ؟ فإن قالوا : إنها لا توصف ، ولا توجد ؛ فقل : فكيف نستطيع أن نعرف أن الإنسان مستطيع ، أو غير مستطيع ؛ إذا كانت الاستطاعة ليست السلامة فى البدن ، ولا فى قوة الإنسان ، والقوة والسلامة : هما شىء واحد ؟ فما هى ؟ .

فإن قالوا : إنها ليست بموصوفة ، ولا محدودة ، وإنما يعرف الإنسان أنه مستطيع ؛ إذا كان ، إذا فعل ، فقل : أقبل الفعل ، أم بعده ، أم فى حال الفعل ؟ فإن قالوا : بعد مايفعل ، فقل : هو الذى أردنا منكم بيانه ، فبينوا لنا كيف نعرفه ؟ وإن قالوا : قبل مايفعل ؛ فقد زعموا أن الاستطاعة بعد الفعل تعرف ، وليس يوصف أحد بالاستطاعة إلا بعد ذلك ... خلافاً لقولهم ، وقولنا ، وإن قالوا : يعرف فى حال فعله ؛ فذلك قولنا ، وهو خلاف قولهم : إن العباد يستطيعون قبل أن يفعلوا .

* * *

القول الثالث والثلاثون

فى التكليف ومعناه

والتكليف على معنيين معنى يجوز إضافته إلى الله ، والآخر : لا يجوز . فالذى يجوز : هو أن يكلفهم حسب طاقتهم ، ليبلغوا منافع لهم دون باريهم ، والذى لا يجوز : هو أن يكلفهم بحاجته إلى ما يكلفهم إياه ، تعالى الله عن ذلك ؛ إذ لم يزل البارى غنيا عن جميع خلقه .

وقال : بشير بن محمد بن محبوب (رحمهم الله) : إن الحكمة فى التكليف — أنا وجدنا العقول بها زمام الطباع ، وآلة البيان من محاسن الأمور ، وقبيحها وفاسدها ، وصحة صحيحها ، والحكمة ماشرف فيها ، والخواطر فى تبينها لها ، والمفكر شعارها : ذلك تقدير العزيز العليم .

خص الله به الإنسان من خلقه ، وفضل به المكلفين ؛ ليبلغوا به منافع لهم ، وأعدمهم العجز عما كلفهم حجة عليهم ، وحكمة بالغة فيهم ، وفضل عظيم لهم مع قدرته على إيصال ما عرضهم له لعبادته ، وغناه عنها منهم ، فحسن مع ذلك تكلفهم ؛ لأنه لا يجوز فى الحكمة شكر من لا يستحق بإحسانه شكرا .

وقدرة الشاكر على للشكر نعمة من الله عز وجل الذى يستحق الشكر لأن الشكر لا يكون إلا بعون الله ، ولا يجوز فى الحكمة : أن يساوى بين الشاكر والكافر ، ولا يعطى أحدهما ما يعطاه الآخر منهما ، ولو كان ذلك كذلك —

ما رغب الراغب فى الشكر ، ولا زهد الزاهد فى الكفر ، ولم يكن معنا فى الترغيب فى الشكر والتزهيد فى الكفر ، ولا فرق فى العقل بين الحسن والقبيح، والفاسد والصحيح .

فلما لم يكن ذلك كذلك ـ صح الذى يستحق بالشكر من الثواب ، لا يجوز أن يعطى من لا يستحق ذلك بشكره ، وطاعته ، وكذلك حسن التكليف .

وإن كان ذلك معنيا للمكلفين ؛ إذا كانوا ينالون منه نفعا ، ونعما ؛ لا يجوز فى الحكمة أن ينالوه من غير أن يستحقوه لفعل ما كلفوه ، وإن كان الله تعالى قادراً على أن يفعل ذلك بهم ، وبوصله إليهم .

ولزوم التكليف من قوله تعالى : « يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ الَّذِى خَلَقَكُم » ، ويتوجه التكليف من طريقين : طريق عقل ، وطريق نقل .

وطريق العقل : معرفة الله عز وجل : أنه واحد ، وعالم قادر، ويجوز ذلك، فعلى المكلف عند ذكر ذلك ، وسمعه ـ اعتقاده وعلمه ؛ غير معذور بجهله ، ولا الشك فيه .

وما اختلف الناس فيه مثل : عالم بعلم ، وقادر بقدرة ، وعالم بنفسه ، وقادر بنفسه ؛ فحجة هذا [عليه] يلزم بالسؤال ، وبعد الاستدلال ، وعلى الشاك فيه؛ لا يعتقد محوبلا من قول المختلفين من غير دليل ، وأن يكون متمسكا بالجملة ، وهى : إن الله ـ تعالى ـ واحد ليس كمثله شىء .

وأما ما كان من طريق النقل : وهو من ورود السمع ، أي معاينة البصر فغير لازم فرضه ، ولا هالك من جَهِلَه إلا بعد قيام الحجة عليه بالخبر المنقول إليه ؛ فإذا طرق سمعه من ذلك لزمه فرضه ؛ إن كان مفسرا فى نفس اللفظ المنقول ، وإن كان مجملا ؛ فإلى أن يسأل العلماء عن تفسيره بخطئه .

وما لم تقم على المكلف حجة ، ولم تبلغه دعوة فهو سالم بجهله فيما كان طريقه طريق السمع من رسالة الرسول وعلم الفرائض ، ومشاهدة الرسول ليس بحجة ، حتى تظهر له معجزة .

والتكليف : منه ما أمروا باعتقاده ؛ كإثبات التوحيد ، وصفات الله تعالى ، وتصديق رسوله (ﷺ) فيما جاء به ، ونَفْى الصاحبة والولد ، والأشباه ، والحاجة ، وأشباه هذا . [وهو] أول تكليف على العاقل .

ومنه : ما أمروا بفعله ؛ كالصلاة ، والصيام ، والزكاة ، والكفارات ، والحج والجهاد .

ومنه : ما أمرهم الله بالكف عنه ؛ كقتل بغير حق ، وأكل الخبائث ، والسموم ، وما يؤدى إلى فساد أبدانهم ، وأديانهم ، والزنا ، وأمثال ذلك .

والتعبد مأخوذ من عقل متبوع ، وشرع مسموع ، لعقل متبوع فيما لا يمنع منه الشرع ، والشرع مسموع فيما لا يمنع منه العقل ؛ لأن الشرع لا يرد بما يمنع منه العقل ، وتوجه التكاليف إلى من كمل عقله ، والأحكام العقلية ، لا تكون أصولا للأحكام الشرعية .

وقيل : من كان منقطعا عن الناس ، ولا علم له بالشرائع ، ولا بالناس ؛ فعليه فى حال التكليف : أن يعلم أن له خالقا ، وصانعا صنعه ودبره ، ويقع له الدليل على ذلك : من طريق العقل لما يراه من خلق نفسه ، ويعلمه من خلق السموات والأرض ، والليل والنهار ، واختلاف الأحوال .

ويجب عليه الكف عما قبح فى عقله مثل : قتل الحيوان ، وأكل لحومها ؛ لأن إيلام الحيوان ، وقتل ذوات الأرواح قبيح فى العقل ، ولولا جواز ذلك بالشرع لما حَسُن أن يأتى إلى ذى روح مثله فيقتله ، ويأكل لحمه ، وإذا رأى رجلا يقتل ذوات الأرواح أن ينكر ذلك ؛ لأن قتلهن فى العقل من الجور ، والزنج الذين هم سفالة الناس . وغيرهم من أطراف الأرض الذين لم يبلغ إليهم ما بلغ غيرهم من أهل الإسلام - عليهم أن يعرفوا بعقولهم : أن الأشياء التى يرونها لها خالق ومدبر ليس كمثله شىء [و] لا عذر لهم فى ذلك ، وإن حسن فى عقولهم أن يكون لهذا الرب رسول ، ومعبر ؛ فعليهم أن يسألوا عن ذلك

فالله تعالى قد كلف عباده العقلاء التكليف الاختيارى ؛ إذا بلغوا من جميع الجن والإنس ، وإنما كفر من كفر من الجن والإنس - بسوء اختيارهم لأنفسهم الكفر على الإيمان ، والعمى على الهدى ، أولهم إبليس أبو الجن ، وقابيل بن آدم - قتل أخاه هابيل ظلما وعدوانا - وكان إبليس إمام أهل الكفر ، والاستكبار ، وقابيل : إمام أهل الظلم ، والإصرار إلى يوم القيامة .

والكفار مخاطبون بالإيمان ؛ فإذا أقروا به خوطبوا بالصلاة ، والصوم ، والزكاة ، والحج ، وجميع ما افترضه الله على أهل الإيمان ، وقال بعض أصحابنا : إن الكفار مخاطبون بالإيمان وجميع الفرائض ، معاقبون على ترك جميع ذلك ، ولكن فعلهم ذلك على ترتيب ، وتنزيل ؛ كما قال الله تعالى : « وَوَيْلٌ لِلْمُشْرِكِينَ الَّذِينَ لَا يُؤْتُونَ الزَّكَاةَ . . .

وأما المرتد فلم يختلف أصحابنا فى أن حكم الخطاب فى جميع ذلك يجرى عليه ، وإن كان مرتدا ، وبهذا لزمه تركه من ذلك فى حال ردته . والله أعلم .

فصل :

فإن قال قائل : كيف يجوز أن يخلق الله خلقا ، ثم يكلفهم فعل الطاعة ، وهو يعلم أنهم يعصون ، فيصيرون إلى النار، فلو لم يخلقهم ما كفروا ، واستحقوا النار ؟ فيقال لهم : إن الله ـ تعالى ـ خلق الخلق من الجن والإنس ، وخلق لهم عقولا يميزون بها بين الحسن والقبيح ، والمنافع والمضار ، وأرسل إليهم الرسل ، وبين لهم ما يأتون ، وما يتقون ، وأوضح لهم سبل الهدى والضلال ، وعرفهم الفرق بين الكفر والإيمان ، وشرع لهم الحلال والحرام ، وحثهم على الطاعة ، وحذرهم من المعصية ، وبشرهم بالثواب ، وأنذرهم من العقاب ، وتوجه التكليف ، والأمر ، والنهى إلى من كمل عقله ، ولم يكلف أحدا من خلقه إلا طاقته ، ووُسْع قدرته ، ولم يخلق الله خلقا عبثا ، ولم يتركهم سُدًى ، ولله الحجة البالغة على خلقه ولا حجة لهم عليه ، ولا يسأل عما يفعل ، وهم يسألون .

فإن قال : فهل يكون حكيما من يرى عبده يعصيه ، ويعمل عملا يستحق عليه الخلود في النار ، ولا يمنعه ، ولا يخلصه منه ؟ قيل له : إن الله قد منعهم من ذلك أشد المنع ، وخلصهم بأفضل الخلاص ، وذلك : أنه زجرهم ، ونهاهم ، وتوعدهم بالنار ، وأراهم العبر والآيات والمثلات [وكل ذلك أشـــد المنع] وأما الخلاص ؛ فقد أقدرهم على ترك المعاصي ، وجعل لهم السبيل إلى الطاعة ، وأعطاهم كل ما ينجون به من المعصية ، وحذرهم ووعدهم وتوعدهم فإن قال : فهلا منعهم بالجبر والقهر ، وخلصهم بمثل ذلك ؟ قيل له : لو فعل ذلك بهم لم يستحق محسن ثوابا ومسيء عقابا ، ولكان لامعنى لخلقهم ؛ إذا لم يخلقهم لينفعهم ، ولكان قد خلقهم عبثا ، وتركهم سُدًى ، والله ـ تعالى ـ يقول : « أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا » ، قال : « ومَاخَلَقْتُ الْجِنَّ والإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » ، وقيل : المعنى [في الآية] ليعرفوني ـ ويوحدوني ، وآمرهم بعبادتي .

فمن زعم أن الله ـ تعالى ـ أراد العبادة ، والطاعة من جميع عباده ، لأنه خلقهم لذلك ، ولم يفعلوا ـ كان في قياد قول هذا القائل : أن الجن والإنس فعلوا خلاف ما أراد الله منهم ، وكانت إرادتهم غالبة لإرادته ، وكانوا قد أكرهوه ، وغلبوه ، وهذا القول باطل .

ولو أراد الله الإيمان من العاصين من الجن والإنس جميعا ـ لآمنوا كلهم ؛ لأن الله تعالى يقول : « وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَآمَنَ مَنْ الأَرْضِ كُلُّهم جميعًا » فدل [على] أنه لم يرد الإيمان إلا ممن آمن طائعا ، ولم يرد المعصية طاعة وقد أراد كون المعصية قبيحة ممن عصاه مسخوطة ، والطاعة حسنة مقبولة .

فصل :

وأول حجج الله على عباده المكلفين : العقل ثم الاستطاعة؛ ثم الكتاب والسنة ، والرسل ، والأدلة على الحق والهدى ، والرسل والميثاق والإجماع .

فمن الدليل على أن القرآن حجة : قول الله تعالى : « إِنَّ هَذَا الْقُرْآنَ يَهْدِي لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ » ، وقوله تعالى : « الٓمٓ . ذَلِكَ الْكِتَابُ لَا رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِلْمُتَّقِينَ » .

والدليل على أن السنة حجة: قول الله تعالى: « وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ ، وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا » .

والدليل على أن الإجماع حجة: قول الله: « وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا؛ لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ » الآية . والشهيد لا يكون إلا مرضيا ، وقول النبي (ﷺ) : « لا تجتمع أمتي على ضلال » وفي موضع ، على خطأ .

والدليل على أن العقل حجة قوله تعالى : « فَاعْتَبِرُوا يَا أُولِي الْأَبْصَارِ » فالاعتبار يؤدي إلى معرفة الحق .

والدليل على أن تواتر الأخبار حجة — ما نعلمه من أخبار البلدان — التي لم نشاهدها — بتواتر الأخبار ، وكذلك الأشياء التي لم نعلمها إلا بنقل المخبرين عنها ، وإن لم نعاينها من البلدان القاصية ، كما نعلم أن لله بيتا في الأرض ، وهو الكعبة ولم نعاينها .

فصل :

والفائدة فى بعث الله الرسل إلى عباده المكلفين: أن الله عز وجل لمّا خلق خلقه المكلفين أحياء عقلاء قادرين لا لحاجة منه عز وجل – إليهم، ولا استحقاق منهم ، وفضلهم على كثير ممن خلق تفضيلا – وجب عليهم بذلك لله الشكر ، ولابد لهذا الشكر من كيفية يعرفها العباد ، فبعث الله إليهم الرسل ؛ يعلمونهم بكيفية هذا الشكر على ما أولاهم من فضله .

فلما أحسن التكليف من الله لعباده ، والتوصل إليه ليسقط عنه امتثال التكليف ، وفرضه من البارى – تعالى – فى أوامره ، ونواهيه، ولم يكن البارى – عز وجل – تشاهده الأبصار ، ولا تدانيه الأسماع ؛ لكى يبلغهم ، علم ذلك منه – حسن من الله – عز وجل – أن يرسل الرسل إلى عباده المكلفين ، يبينون للناس ما يأتون، وما يذرون؛ وإن كان جائزا أن يتعبد الله الخلق بعقولهم؛ ولكن لما بعث الله الرسل – علمنا أن إرسال الرسل أفضل ، وقد علمنا أن الله – تعالى – لا يفعل إلا الأفضل ، والأصلح ، والأحسن ، ولله الحمد ، والشكر على ذلك .

فصل :

ويجب على العبد إذا بلغ ، وصح عقله ، وزالت عنه الآفات فى أول أحوال التكليف – أن يعرف خالقه ، أنه واحد « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ » وَهُوَ السَّمِيعُ البَصِيرُ » ، دليله على ذلك : ما يراه فى نفسه من عجائب خلقه ، ولطيف صنعه.

وتدبر نفسه من خلق السموات والأرض، والليل والنهار، وما يشاهده من اختلاف الأحوال ، والآيات ، والدلائل على وحدانية الله .

وعلى العبد معرفة ما افترض الله عليه ؛ لأنه لا يؤدّى الفرض حتى يعرفه ، ويعرف المفترض ، ولا يعرف رسول الله من لا يعرف الله ؛ لأن العبد لا يطيع الرسول ؛ حتى يعرف المرسِل .

وعلى كل بالغ عاقل أن يوحد الله ـ عز وجل ـ ولا يوحده إلا من عرفه، وأقر به، ومن أقر بالجملة التى من قال بها كان مسلما ـ فقد أقر بالله ـ عز وجل ـ.

وقال على بن الحسين بن على بن أبى طالب : إن أول عبادة الله معرفته ، ومعرفة توحيده، وتوحيده نفى صفات التشبيه عنه بشهادة العقول؛ لأن كل مشبه موصوف بالأشباه مخلوق ، وشهادة كل مخلوق أن له خالقا لا يشبهه، ولا يوصف بصفاته ، وشهادة كل حدث بالامتناع من الأزل .

فلا ديانة إلا بعد معرفة ، ولا معرفة إلا بعد إقرار ، ولا إقرار إلا بعد إخلاص ، ولا إخلاص إلا بعد توحيد ؛ إذ الإقرار يعصم من الإنكار ، ولا ينال الإخلاص بشىء دون التوحيد .

وقال ابن مسعود (رحمه الله) ماعرف الله من شبهه بخلقه، وقال بشير: أول معرفة الله خلق من الله ـ عز وجل ـ وهى اضطرار، ولابد أن يخلق لهم من المعرفة التى بها يكتسبون مايلزمهم من معرفة الله تعالى ودينه ؛ فالمعرفة الأولى : خلق ، والثانية : اكتساب .

فصل :

وأول ما افترض الله على عباده معرفته ، وشكره على نعمه ، ونفى الأشباه عنه ، ثم الإقرار بأنبيائه ، ورسله ، وملائكته ، والتصديق بجميع ما أتى به رسله ، وما أنزله فى كتبه ، وما كلفهم من طلب معرفة ذلك من كتابه العزيز الذى لا يأتيه الباطل من بين يديه ، ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ، ومن سنة نبيه (ﷺ) ، ومن إجماع الأمة ، ومن حجج العقل الذى حسّن الله فيه الحسن ، وقبح فيه القبيح ، وبه وجب الأمر ، والنهى ، وحسُن الحمد ، والذم ، ويلزمهم الكف عما قبح فى عقولهم مالم يأتهم خبر بإباحة شىء منه ، ويلزم العبد أن يعرف نفسه حق معرفتها ؛ فإن من جهل نفسه كان لغيرها أجهل .

وقالت عائشة (رضى الله عنها) : يا رسول الله متى يعرف العبد ربه ؟ قال (عليه السلام) : إذا عرف نفسه . فمعرفة الله تعالى أول المفترضات ، وبها تصح العبادات ، ومن لم يكن بالله عارفا كان به جاهلا ، ومن كان به جاهلا ، لم يكن له عاملا ، ومن لم يكن له عاملا كان لأوامره مُهملا ، ومن كان لأوامره مهملا كان لعذابه مستوجبا .

فصل :

وما لم تقم على المكلف حجة ، ولم تبلغه دعوة : فهو سالم بجهله مما كان طريقه طريق السمع من رسالة الرسول (ﷺ) ، وعلم الفرائض ؛ لأنه لو كان الرسول (ﷺ) مشاهداً ، ولم تظهر له معجزة على ما يدعيه من النبوة ، ويدعوه إليه من الإيمان به فلم يجبه لما كان هالكا ؛ لأن مشاهدة النبى (ﷺ)

ليست بحجة على من شاهده ؛ من دون إظهار معجزة ، أو إبلاغ رسالة ، ولا قال بذلك أحد من أهل القبلة .

ولو كان ذلك كذلك ـ لكان المسلمون حين قدم النبى (ﷺ) مهاجراً إلى المدينة ، والناس يصلون إليه ، ولا يعرفونه إلى أن كثروا ، وارتفعت الشمس ، فقام أبو بكر (رضى الله عنه) ، فستر على النبى (ﷺ) بثوبه من الشمس ، فعلمت الأنصار والمسلمون ، أن المعظَّم منهم : هو النبى (ﷺ) .

فلو كانت رؤية النبى (ﷺ) هى الحجة فقط ـ لكان جميع المسلمين من أهل المدينة قد كفروا بجهلهم الحجة ، وهم لها معاينون ، ولم يقل أحد أيضا : أن دعوة النبى (ﷺ) هى الحجة دون المعجزة ، ولوكانت للشاهدة هى الحجة من غير أن يقصدها دليل من معجزة ، أو ما يقوم مقامها ـ لكان من سمع الرسول (ﷺ) يدعو قبل المعجزة ؛ فلم يعلم الحق ، ويتبعه ـ كان كافرا ، وقد سمع كلام النبى (ﷺ) فلم تلزم حجته بغير معجزة .

ولو كان ذلك لازما لكل مشاهد للنبى (ﷺ) وسامع لكلامه لما لكان لإظهار المعجزات معنى ، ولكان أيضا ـ سائغاً لكل مدع للنبوة أن يدعيها .

ولكن لما كان الله ـ عز وجل ـ لايبعث رسولا إلا بمعجزة ظاهرة ، أو أعجوبة باهرة ، ليس لأحد فى زمانه أن يأتى بمثلها ، ولا أن يساويه فيها ـ

صح أن المعجزة هى المؤيدة لرسالاتهم ، والمؤكدة لمقالاتهم ، والمبينة لحجتهم ، والمبرهنة لدعوتهم ، والمصدقة لأمرهم ، والمفرقة بينهم وبين غيرهم .

وإنما هى الحالة الجليلة لدلالة النبوة التى بان بها الرسل عن غيرهم من العباد ، ولذلك كانت الأنفس مطبوعة على الالتجاء إليها ، والفكرة فيها ، والعبرة بها .

وكذلك كل نبى لا حجة فى مشاهدته دون إظهار دعوته ، وإذا كان الأمر على ذلك ـ كان المكلف معذوراً بالدليل الذى بيّناه ، والشاهد الذى أقمناه . قال الله تعالى : « وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولًا » ، وقال : « وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ ، وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ » .

وقيل : قال النبى (ﷺ) : « إن الله أرسلنى للناس برسالة ضقت بها ذرعا ، وعرفت أن الناس مكذبون بى ، فوعدنى ربى[1] أن أبلغ الرسالة أو ليعذبنى » ، وقال النبى (ﷺ) : « والذى نفسى بيده لا يسمع بى رجل من هذه الأمة ، فلا يؤمن بى ، وبما جئت به حتى يموت إلا كان من أصحاب الجحيم » .

وقيل فى قول الله ـ عز وجل ـ : « وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَذَا الْقُرْآنُ لِأُنْذِرَكُمْ بِهِ وَمَنْ بَلَغَ » : أى أنذركم به ، ومن بلغه لا إله إلا الله ؛ قد بلغه إبلاغى به ، وقد قامت عليه الحجة ، وقيل : ومن بلغ أى بلغه الإسلام ، وقيل : من بلغه القرآن ؛ فأضمرت الهاء .

---

(١) فى نسخة «أوعدنى ربى» .

والعرب تضمر الهاء فى : الصلات ، ومع الذى ، ومن ، وما . تقول : من أكرمت أبوك . أى أكرمته ، وما أخذت مالك [أى أخذته] ، والعرب تقول : إذا طال عليها الاسم بالصلة حذفوا الهاء . قال الله تعالى : « تُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ » . أى من أضله الله ، [و] قال : « مِنْهُم مَنْ كَلَّمَ اللهُ » أى كلمه .

ويروى[٢] أن الرسول الله (ﷺ) كان يقول : أيها الناس بلغوا عنى ولو آية من كتاب الله ؛ فإنه من بلغته آية فقد بلغه أمر الله ، أخذه ، أو تركه .

والحجة على أن الرسول لم يكن حجة على الناس ؛ حتى يأتيهم بآية معجزة لهم ، يعجز عنها أهل زمانه ـ قول موسى (عليه السلام) ، لفرعون : « أَوَلَوْ جِئْتُكَ بِشَيْءٍ مُبِينٍ . قال : فَأْتِ بِهِ إِنْ كُنْتَ مِنَ الصَّادقين » ، وقول عاد لهود (عليه السلام) : « قَالُوا يَاهُودُ مَاجِئْتَنَا بِبَيِّنَةٍ » ، وقول صالح لثمود : « مَالَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ ، قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِنْ رَبكم هَذِهِ نَاقَةُ اللهِ لَكُمْ آيَةً » ، وقول عيسى عليه السلام ، لبنى إسرائيل : « إِنِّى قَدْ جِئْتُكُم بِآيَةٍ مِنْ رَبِّكُم : أَنِّى أَخْلُقُ لَكُمْ مِنَ الطِّين كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ ، فَأَنْفُخُ فِيهِ ، فَيَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِ اللهِ ، وَأُبْرِىءُ الأَكْمَهَ ، والأَبْرَصَ ، وَأُحْيِي المَوْتَى بِإِذْنِ اللهِ ، وَأُنَبِّئُكُم بِمَا تَأْكُلُونَ ، وَمَا تَدَّخِرُونَ فِى بُيُوتِكُم » .

ومعجزة نبينا محمد (ﷺ) القرآن الذى عجز الجن والإنس أن يأتوا بسورة مثله سوى ماجاء به من الآيات ﷺ تسليما كثيرا . فلما كان الله تعالى لا يبعث

(١) رواه أحمد والبخارى ، والترمذى عن ابن عمرو .

رسلا إلا بمعجزة لم تجر بها عادة ، وأعجوبة قاهرة الحجة ، ودلالة ظاهرة البيان ليس فى قوى الخلق أن يأتوا بمثلها ، أو يساووهم فيها ؛ فلا جرت العادة فيهم بمثلها ـ صح أن ذلك علامة دالة على صدقهم ، ولا يجوز أن تكون دالة على ذلك إلا والمكلفون لعلمه متمكنون من الاستدلال على صدقهم فيما جاءوا به عليهم السلام ، عز ربهم وجل .

فصل :

أحسَبُ عن أبى عبدالله (رحمه‌الله) أن من كان فى عزلة من الأرض على دين عيسى (عليه السلام) ، ولم يسمع بمحمد (ﷺ) ، ولقيه أعرابى جاف ، أو عبد ، أو امرأة جافية ، فأخبروه أن محمدا (ﷺ) قد بعث ؛ فهذا قد لقيته الحجة ، وانقطع عذره ، ولزمه الإيمان بمحمد (ﷺ) ، والعمل بما جاء به ، ولا عذر له ، وعليه أن يخرج يسأل عن ذلك ؛ فإن مات قبل أن يصل إلى النبى (ﷺ) وقد آمن به لما سمع ، فهو معذور مؤمن ، وإن لم يفعل هذا ويؤمن بالله تعالى ، وبمحمد (ﷺ) حتى مات فلا عذر له فى الإقامة على دين عيسى (عليه السلام) من بعد وصول بعثة محمد (ﷺ) إليه .

ومن نشأ فى اليهود ، ولم يسمع بمحمد (ﷺ) . فهو سالم ، لأنه نشأ فى أمة مصدقين بتوحيد الله ـ تبارك وتعالى ـ وشىء من شرعه ، فهو سالم مالم يسمع بخبر يقطع العذر ، ويصح فى العقل ؛ فإذا سمع بذلك ـ كان عليه الخروج ، والطلب لما لا عذر له بجهله .

فصل :

إن قال قائل : هل كلف الله تعالى الكفار الإيمان ؟ قيل له : نعم ، فإن قال : هل يطيقون ما كلفهم من الإيمان ، لتشاغلهم عنه بالكفر ، لآفة مانعة لهم ، ولا لزمانة حائلة عنه ، لأن الصحة،والسلامة فيهم ، فإن قال : هل يطيقون الإيمان بالصحة ، والسلامة ، وزوال الآفة ؟ قيل له : لا يطيقون ؛ لتشاغلهم بالكفر ، فإن قال : أفيقدر الكافر ألا يتشاغل بالكفر ، ويقدر أن يؤمن ؟ قيل له : إنه لا يقدر أن يؤمن ؛ إذا كان مشغولا بالكفر ، وهو قادر إن لم يفرط ، ويتشاغل بالكفر فإن قال : أفيقدر أن يترك التشاغل ؟ قيل له : إن لم يفرط فى ترك التشاغل قدر على ترك التشاغل،ومادام مشغولا عن الشرك بالفعل فهو غير قادر على الترك .

فإن قال : قد كلفه مالا يُطيق . قيل له : إن أردت أنه كلفه مالا يطيق لزمانة فيه ، ومانع . فلا ، وإن أردت أنه لا يطيق ما كلفه من الإيمان فى شغله بالكفر . فنعم . ولسنا نزعم أن الله تعالى كلفه مالا يستطيع لشغله بما نهاه عنه ، لأن الإنسان لا يستطيع عمل شىء وهو عنه مشغول بغيره كما قال الله تعالى : «مَا كَانُوا يَسْتَطِيعُونَ السَّمْعَ ، ومَا كَانُوا يُبْصِرُونَ ».أى لم يستطيعوا القبول لشغلهم بالرد والإنكار .

فصل :

الدليل على أن الله تعالى لم يكلف العباد فوق طاقتهم : قوله تعالى:« فَاتَّقُوا اللهَ مَا اسْتَطَعْتُم » ، وقوله تعالى:« وَمَاجَعَلَ عَلَيْكُم فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ».

وقال تعالى : « لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْساً إلَّا وُسْعَهَا » فلا يكلف الله نفسا فوق فوق طاقتها ، ولا يسأل عباده مالا يجدون، وهو أرحم الراحمين وأحكم الحاكمين وهو القائل : « يُرِيدُ اللهُ بِكُمُ اليُسْر ، ولاَ يُرِيدُ بِكُم الْعُسْر » ، وقال : « يُرِيدُ اللهُ أن يُخَفِّفَ عَنْكُم » ، وروى عن النبي (ﷺ) أنه قال : « إذا أمرتكم بأمر فأتوا ، وخذوا منه ما استطعتم ، فإذا نهيتكم عن أمر فانتهوا ».

ولا يليق بصفة الحكيم بعباده ؛ أن يكلفهم مالا يطيقون ، وهو الرءوف الرحيم ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على رسوله محمد النبي ، وآله وسلم .

* * *

القول الرابع والثلاثون

فى العلم ومعناه

قال أهل الاستقامة من أمة محمد (ﷺ) : إن الله تعالى عالم وإن له علما ، بمعنى أنه عالم بالأشياء لا أن له علما هو غيره به علِم الأشياء ؛ قال الله تعالى : « أَنْزَلَهُ بِعِلْمِهِ » أى أنزله وهو العالم به .

فإن قال قائل : مِمَّ أنكرتم أن يكون عالما بعلم ؛ إذ لم يشاهد عالم إلا بعلم ؟ قيل له : إن علم الخلق بالتعليم وهو حادث فيهم بعد أن كانوا غير عالمين بيده، والله تعالى هو العالم بنفسه لا بعلم حادث فيه بعد أن لم يكن . فإن قال : فما أنكرتم أن يكون ماقلتم أنه عالم بنفسه لا معنى له ؛ لأنه لا يخلو من أن يكون عالما بنفسه،أو عالما بعلم ، فإن كان عالما بعلم فهو ما نقوله ، وإن كان عالما بنفسه، وجب أن يكون نفسه عالما ، فلما استحال أن يكون نفسه عالما وجب أن يكون عالما بعلم .

قيل لهم : إن العالم إنما يكون عالما بوجود علمه ، وقولنا عالم بنفسه إثبات للذات،الذى أنكرناه أنه غيره أن يكون قديما أو محدثا ؛ فإن كان قديما وجب أن يكونا قديمين فى الأزل ، وإن كان محدثا وجب أن يكون القديم قد كان غير عالم ثم علم ، فلما فسد هذان الوجهان — صح ما نقول : إنه عالم بنفسه .

فإن قال : هل يعلم الله نعيم أهل الجنة ، وعذاب أهل النار ؟ قيل له : نعم يعلم ذلك إلى غير غاية ، ولا نهاية سبحانه وتعالى العالم بما كان ، وبما يكون ،

ومالا يكون ، أن لو كان كيف كان يكون ، لايخفى عليه شيء . فإن قال: فما الدليل على أنه يعلم ما يكون من الأشياء قبل أن تكون ؟ قيل له : لو كان غير عالم بها قبل كونها يكون جاهلا بها ؛ فلما كانت أفعاله على مقدار علمه بها علمنا أنه عالم بها قبل كونها ، فإن قال : فالعلم ساق العباد إلى ماعملوا من المعاصى . قيل له : إنا لا نقول ذلك ؛ ولكن سوّلت لهم أنفسهم ، وزين لهم الشيطان حتى كان منهم ماعلم الله تعالى .

فإن قال : أفيقدر من علم الله منه المعصية أن يفعل خلاف ماعلم الله تعالى.

قيل له : لا ، فإن قال : فإذنْ هو مخير ! قيل له : هو غير مخير ؛ وإنما قلنا: إنه لايقدر على علم فعل ماعلم الله تعالى أنه لايفعله لتشاغله بفعل ما أمر به ، أو نهى عنه .

فأما إن ترك ما اختار فهو قادر على فعل ما اختار فى الحال التى يختار فيها الفعل الثانى ، فهو شغله بفعل لايقدر على فعل آخر ، ولكنه قادر على ترك ذلك فى حال تركه من غير مانع له من تركه ، ولا جابر يجبره ، ولا حائل بينه و بينه من قبل الله تعالى ، وإنما أوتى من قبل نفسه .

فإن قال : فما الدليل على أنه إذا لم يفعل ماأمر به ، كان فاعلا خلافه ؟ قيل له : إن العبد لايخلو من أحد أمرين : إما حركة ، أو سكون ، فهو إن كان متحركا أو ساكنا ؛ فهو فاعل لأحد الأمرين ، وبأيهما كان مأمورا ففعل خلافه فقد فعل خلاف ما كلف ، ومن لم يعمل ماأمر به — فليس بقادر

عليه لأنه لايقدر فى وقت واحد على فعل شىء وتركه وذلك من المحال فإن قال: أفليس قد علم الله من يكون مؤمنا ، ومن يكون كافرا ؛ قبل أن يعملوا ؟ قيل له : بلى . فإن قال : فقد كانوا كفاراً قبل أن يعملوا . قيل له : هذا محال ، وليس كل من علم الله تعالى أنه يفعل شيئا يكون فاعلا قبل فعله ، وهذا مالا تجهله العقول ، ومن اعتقد هذا فقد أثم ، وحاد عن الحق .

لأن علم الله فى العبد أنه يعمل غير علم العبد أنه قد عمل ؛ لأن علمه أنه قد عمل إنما هو بعد أن لم يكن ، وعلم الله تعالى لم يزل بما يكون قبل كونه ، وفى حال كونه ، وبعد كونه ؛ فهو العالم بالأشياء ، لايخفى عليه شىء منها .

ويقال لهم : هل كان الله تعالى قبل أن يخلق شيئا يعلم شيئا ؟ ويريد شيئا ؟ فإن قالوا : نعم ، فقد دخلوا فى قولنا ، وإن زعموا أنه لم يكن يعلم شيئا ، ولا يريد شيئا ، فقد أشركوا .

فصل :

قال عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) : سئل رسول الله (ﷺ) ، عن قول الله تعالى : « وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ ، وَأَشْهَدَهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ » الآية ، فقال عليه أفضل الصلاة والسلام : « إن الله تبارك وتعالى ـ خلق آدم ، واستخرج ذريته من ظهره ، وقال : خلقت هؤلاء للجنة ، وبعمل أهل الجنة يعملون ، ثم استخرج منه ذريته ، وقال : خلقت هؤلاء للنار ، وبعمل أهل النار يعملون » .

فقيل يا رسول الله : فما العمل ؟ فقال (ﷺ) : إن الله إذا خلق أحدا للجنة استعمله بعمل أهل الجنة حتى يموت على عمل من أعمال أهل الجنة ؛ فيدخله الله الجنة ؛ وإذا خلق أحداً للنار ؛ استعمله بعمل أهل النار حتى يموت على عمل من أعمال أهل النار ؛ فيدخله النار .

وقال (ﷺ) : « كتاب كتبه الله ؛ فيه أهل الجنة بأسمائهم مجملا عليهم ، فلا يزاد فيهم ، ولا ينقص منهم ، وكتاب كتبه الله ؛ فيه أهل النار بأسمائهم مجملا عليهم ، لا يزاد فيهم ، ولا ينقص منهم ، ويسلك بأهل السعادة طريق أهل الشقاوة ؛ حتى يقال : كأنهم منهم ؛ بل هم منهم ثم يخرجهم الله قبل الموت ؛ ولو بفواق ناقة ، حتى يسلك بهم طريق أهل السعادة ؛ فيموتوا على ذلك ، وقد يسلك بأهل الشقاوة طريق أهل السعادة ؛ حتى يقال كأنهم منهم ؛ بل هم منهم ثم يخرجهم الله قبل الموت ؛ ولو بفواق ناقة ؛ حتى يسلك بهم طريق الشقاوة ، فيموتوا على ذلك ؛ فالسعيد من سعد بقضاء الله ، والشقي من شقي بقضاء الله ، والأعمال بخواتيمها .

وفي الحديث : « خلق الله الخلق قبضتين فقال : هؤلاء في الجنة ، وهنيئا لهم ، وهؤلاء في النار ، ولا أبالي : قال الله تعالى: « هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ فَمِنْكُمْ كَافِرٌ ، وَمِنْكُمْ مُؤْمِنٌ » .

وقال عبد الله بن سلام : قال لي رسول الله (ﷺ) : أتدري كيف خلق الله الخلق ؟ فقلت : لا . يا رسول الله . قال : خلق الله آدم ، ثم قال : يلد فلان

فلانا ، وفلانة تلد فلانة، وفلانا ، وأجلُ فلان كذا ، وعمله كذا ، ورزقه كذا، وشقى أو سعيد . ثم تنفخ فيه الروح .

وقال (ﷺ) : « إن العبد يعمل عمل أهل الجنة ؛ حتى لا يبقى بينه، وبين الجنة إلا مقدار ذراع أو باع ، ثم يدركه العلم السابق ؛ فيعمل عمل أهل النار فيموت على ذلك ، فيصير إلى النار ، وإن العبد يعمل بعمل أهل النار ؛ حتى لا يبقى بينه وبين النار إلا مقدار ذراع ، أو باع ثم يدركه العلم السابق، فيعمل بعمل أهل الجنة فيموت على ذلك ، فيدخل الجنة ، والله تعالى أعلم بذلك .

فصل :

والدليل على أن علم الله غير محدث : أنه تعالى ؛ لو . لق علمه لآل إلى أنه قبل خلق علمه كان جاهلا ، والجاهل ليس بإله ، وإنما الآله هو العالم القادر .

ومن ذلك : أن الفعل غير معلوم بالعلم؛ فبطل أن يخلق علمه؛ إذ الخلق خَلَقَه بالعلم ، قال الله تعالى : « لِنَنْظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ » ، « حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكم » ، « ولِنَعْلَمَ مَنْ يَتَّبِعُ الرَّسُولَ » ، ليس أنه تعالى ـ جاهل بذلك ، وإنما ليظهر ـ تعالى ـ ما علمه منهم قبل أن يعملوا ، فيظهر ما عملوه من القدم الذى علمه فى سابق علمه إلى الوجود ؛ « لِيَجْزِىَ الَّذِينَ أَسَاءوا بِمَا عَمِلُوا ، ويَجْزِىَ الَّذِينَ أَحْسَنُوا بِالحُسْنَى » ؛ إذ البارى ـ تعالى ـ لا يجازى العباد بما علم منهم فى سابق علمه ؛ وإنما يجازيهم على مخالفتهم لأمره ونهيه .

ونقول : إن الله هو العالم ، وهو القادر ، ولا نقول : إن لله ـ تعالى ـ علما وقدرة هما غيره، ولو كان علمه هو : هو ـ تعالى ـ لجاز أن يقال: ياعِلْم اغفر لى، فالله تعالى ـ هو العالم بنفسه ، لايعلم هو : غيره ، فلو جاز أن يكون علمه محدثا مخلوقا، لوجب أن لا يعلم العلم الذى يريد أن يخلقه كيف يخلقه ؛ فلما استحال هذا وجب أن يكون علم الله غير محدث ، وأنه هو العالم بنفسه ، وعالم بما يريد أن يخلقه ، ويحدثه قبل أن يخلقه ؛ فسبق العلم قبل العلم ، وكفى ذلك ؛ فالعلم غير مخلوق .

وكذلك : القول فى المشيئة والإرادة ؛ فلو أنه ـ تعالى ـ أراد أن يخلق المشيئة ، والإرادة ـ فلابدّ أن تتقدم قبلهما مشيئة ، وإرادة ؛ لأن الله ـ تعالى ـ لايخلق مشيئة من غير أن يشاء خلقها ، ومشيئة بمشيئة ، [و] يتسلسل ذلك إلى غير نهاية ، وذلك فاسد .

كما أنه؛ إذا أراد أن يخلق علما؛ فلا يخلقه حتى يعلم أنه قد شاء أن يخلق علما؛ فعلم بعلم ، وعلم بعلم فاسد ، فكذلك : القول فى الإرادة ؛ إذا أراد أن يخلقها ؛ فلابد أن يريد أن يخلقها ، وكذلك : القول فى القدرة ، فالعلم ، [و] القدرة ، والمشيئة ، والإرادة ـ من صفات الله ـ تعالى ـ ، والله ـ تعالى ـ العالم ، القادر ، يفعل مايشاء ، ويحكم مايريد .

* * *

القول الخامس والثلاثون

فى الهدى والضلال

قال الله تعالى : « وَلَوْ شِئْنَا لَآتَيْنَا كُلَّ نَفْسٍ هُدَاهَا » ، فنى معنى هذه الآية ـ دليل على أن الله ـ تعالى ـ لم يفوض الأمر إلى عباده، ليستبد كل منهم بمراده ، لا كمَنْ زعم أن الله ـ تعالى ـ شاء من الخلق الإيمان، وشاء الكافرون لأنفسهم الكفر، وكانت مشيئتهم ظاهرة على مشيئته، وهم ـ إن شاء ألّا يكفروا، نفذت مشيئتهم ، وعندهم: أن الله ـ تعالى ـ شاء من الخلق ألا يكفروا، ولم تنفذ مشيئته ؛ فأخطأوا القول ، وضلوا عن معانى الكتاب ؛ لأن الله ـ عز وجل ـ يقول : « فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ ، وَمَنْ يُرِدْ أَنْ يُضِلَّهُ يَجْعَلْ صَدْرَهُ ضَيِّقاً حَرَجاً كَأَنَّمَا يَصَّعَّدُ فِي السَّمَاءِ ، كَذَلِكَ يَجْعَلُ اللهُ الرِّجْسَ عَلَى الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ » .

أفليس فى هذا القول دليل لأولى التمييز، والأبصار ـ على أنه لا يستطيع من سبق له الخذلان ألّا يدخل فى ملة أهل الإيمان، ولا يقدر أحد ممّن يتعبد بالإسلام عن الخروج عن الإيمان إلا بمشيئة الله تعالى . فإن سأل سائل عن الضلال : أهو من الله أم من العبد ؟ أم من الشيطان ؟ قيل له : إن الضلال : هو فعل العبد الذى ضل به؛ كما قال الله تعالى: « فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُمْ » ، وفى الأثر: أن الرسول (ﷺ) يروى عن ربه ـ جل وعلا ـ « يابن آدم : بمشيئتى شئت لنفسك كما كنت تشاء، وبإرادتى أردت لنفسك ما كنت تريد، وبمشيئتى أديت

إلى فرائضى ، وبخذلانى وقعت فى معصيتى ؛ فأنا أولى بحسناتك منك ، وأنت أولى بسيئاتك منى ، لأنى لا أُسأل عما أفعل ، وأنتم تُسألون » فالخذلان يكون عند اعتماد العبد لفعل المعصية ، وقصده إليها .

وقد يقال : أضل الله ، وأضل الشيطان ، وإضلال الناس بعضهم بعضا ، ولكل ضلالة معنى،فأما إضلال الشيطان (لعنه الله) : فهو دعاؤه إلى المعاصى، وترغيبه ، وتزيينه ذلك ، وكذلك إضلال السّامرى ، وإضلال فرعون قومه ، وإضلال الناس بعضهم بعضا ، وذلك معصية منهم ؛ لأن الله نهاهم عن ذلك .

وأما معنى أضل الله : أى لم يهد ، ولم يعصم ، ولم يوفق ، وإنما هو فقد الهدى ، وعدم العصمة لا بوجود شىء ، ووقوعه .

ألا ترى ؟ أنه يقال : خذل فلان فلانا ؛ أى لم يعنه ، ولم ينصره ، لا أنه فعل فيه فعلا يسمى خذلانا،كما يقال : إن فلانا فقير ، والفقر اسم واقع لعدم المال وفقده ، وليس الفقر شيئا موجودا سمّى فقرا ، وكذلك الغنى ؛ هو وجود المال، فيقال أغناه ؛ إذا أعطاه مالًا يستغنى به ، وافتقر فلان ؛ إذا لم يعطه الله مالًا يستغنى به عن الفقر ، ويقال : أجاع فلان فلانا ، وأعراه ؛ إذا لم يطعمه ، ولم يكسه ، وليس أنه أحدث فى جوعه ، وعريه شيئا .

والهدى ، والعصمة يعطيهما الله من يشاء ممن أحب [من] عباده، والضلالة، والخذلان بوقوعهما كانت المعصية ، فمن هلك فإنما هلك من قِبَلِ هواه ، وما سولت له نفسه ، ومن نجا من الملكة ، ونال الخير ـ فمن قبل الله ، وعصمته إياه ، ومنّه وفضله عليه .

فصل :

والهدى على ضربين : هدى السعادة ، وهدى البيان ، والدلالة ، والإرشاد إلى الحق ، فهدى السعادة : لايستحقه إلا المؤمنون بمنٍّ الله – تعالى – وفضله عليهم .

وأما هدى البيان ، والدلالة والإرشاد إلى الحق : فقد بيّن الله تعالى – لعباده المكلفين ، قال الله تعالى : « إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ ، فَجَعَلْنَاهُ سَمِيعاً بَصِيراً . إِنَّا هَدَيْنَاهُ السَّبِيلَ إِمَّا شَاكِراً ، وَإِمَّا كَفُوراً » فهذا هدى البيان ، وقد آتاه الله الخلق أجمعين .

فإن قال قائل : هل هدى الله الكفار ؟ قيل له : نعم هداهم هدى البيان ، والدلالة لا هدى السعادة ، قال الله تعالى : « وَأَمَّا ثَمُودُ فَهَدَيْنَاهُم فَاسْتَحَبُّوا الْعَمَى عَلَى الْهُدَى » ، فضلّ الكفار ، وكفروا به باستحبابهم الكفر ؛ على الإيمان ؛ بسوء اختيارهم .

وقول الله تعالى : «يَهْدِي مَنْ يَشَاء ويُضِلُّ مَنْ يَشَاء» . أى من علم الله أنه يهتدى لم يضل ، ومن علم أنه يضل لم يهتد ؛ من غير أن يكون العلم ساق العباد إلى ما عملوا .

وقد بين الله – تعالى – مشيئة الهدى ، فقال : « وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ » ، ومشيئة الضلال بقوله : « ويُضِلُّ الله الظالمين » وإنما هدى الله من اختار الإيمان على الكفر ؛ فبحسن اختياره هداه الله ، وبسوء اختيار الكافر ،

والمنافق الكفر والنفاق على الإيمان ـ أضله ؛ فهُدَى الله للمهتدين ، وضلاله للضالين ـ عند عمل المهتدي ، والضال ؛ لا قبل ذلك ولا بعد . قال الله سبحانه وتعالى ـ : « فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللهُ قُلُوبَهُم » عند إزاغتهم لا قبل ذلك ولا بعد ، وقوله تعالى : « وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ » عند إنابتهم لا قبل ذلك ولا بعد .

ولا بد للمكلف إلا أن يكون : إما مهتديا ، وإمّا ضالًّا ، فلا يأتي على العبد طرفة عين إلا وهو مهتد ، أو ضال ، والله أعلم ، وبه التوفيق .

● ● ●

القول السادس والثلاثون

فى الصراط والميزان

قال أهل الاستقامة : إن الصراط : هو الطريق الواضح ، والدين المستقيم ، والعرب تسمي الطريق ـ صراطا ، والله ـ تعالى ـ خاطب العرب بما يعقلون ، فقال سبحانه : « اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » .

قال ابن عباس : هو دين الإسلام ، وقال السجستانى : هو الطريق الواضح المستقيم البين ، وقال أبو عبيدة ، والزّجّاج : هو المنهاج الواضح .

وقيل : هو الحق الذى دعا إليه نبينا محمد (ﷺ) ؛ بدليل قوله تعالى : « اهْدِنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ » وقال تعالى : « فَاسْتَمْسِكْ بِالَّذِي أُوحِيَ إِلَيْكَ ؛ إِنَّكَ عَلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ » ، وقال : « وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ ، وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ ؛ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ » ـ والسبل هى الأهواء الضالة وكل هذه الآيات ؛ يدل معناها على ما تعقله العرب فى لغتهم ، وكلامهم على أن الصراط ـ هو دين الإسلام ؛ لا كما زعم من قال : إن الصراط هو شىء[1]

---

(١) اختلف المفسرون فى الصراط : هل هو جسر على متن جهنم ؛ أو هو الطريق المستقيم ؛ فبالأول أكثر المخالفين ، واختاره الشيخ إسماعيل الجيطالى من محققى علماء الإباضية وبالثانى ، قال أكثر الإباضية ، والمسألة مسألة رأى واجتهاد . م

منصوب على متن جهنم ، وأنه أدق من الشعرة ، وأحد من السيف ، وأنه يختبر المؤمن من الكافر ، وأن الناس تختلف أحوالهم فى المرور عليه على قدر أعمالهم ؛ فمنهم من يمر عليه كالبرق ، ومنهم من يمر عليه كالريح ، ومنهم من يمر عليه كالطير ، ومنهم من يمر عليه كالساعى ، ومنهم كالماشية ، ومنهم من لا يطيق أن يجوزه ويقع فى جهنم .

ونحن نقول : إن الله - تعالى - عالم بجميع خلقه ، عالم بجميع أعمالهم ، وبمصيرهم قبل أن يخلقهم ، ومن بعد أن خلقهم ، وحين أفنام ، وحين بعثهم ؛ ولا يحتاج إلى اختبارهم ، وهو علام الغيوب .

فصل :

وأما الميزان : فهو العدل والإنصاف قال الله تعالى : « وَالْوَزْنُ يَوْمَئِذٍ الْحَقُّ » أى : المجازاة على الأعمال بالعدل .

لا كما زعم من قال : إن الله - تعالى - ينصب يوم القيامة ميزانا على الحقيقة ، وأن عمود طوله ؛ كطول الدنيا ، وأن كفته كسعة السموات والأرض ؛ يوزن أعمال العباد [كأن الله تعالى غير عالم] بأعمالهم ، فيحتاج إلى تمييزها بالوزن .

وإنما هو تمييز ، وتفصيل ؛ ومجازاة بالعدل ، لأن أعمال العباد أعراض ، [و] ليست بأجسام ؛ حتى توضع فى ميزان على الحقيقة ، ويعتبرونها .

وأما قوله تعالى : « وَنَضَعُ الْمَوَازِينَ الْقِسْطَ لِيَوْمِ الْقِيَامَةِ » : فذلك عدل ، وإنصاف يظهره الله تعالى لعباده ، ويعرفهم حقيقة حكمه بالحق يوم القيامة ، وأنه لا يظلم أحدا شيئا .

وأما قوله ـ عز وجل ـ « فَلَا نُقِيمُ لَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَزْنًا » ؛ أى : لا يقبل الله منهم يوم القيامة إيمانا كما قال الله تعالى : « لَا يَنْفَعُ نَفْسًا إِيمَانُهَا لَمْ تَكُنْ آمَنَتْ مِنْ قَبْلُ ، أَوْ كَسَبَتْ فِي إِيمَانِهَا خَيْرًا » ـ فصح أن الوزن هو الإيمان .

ومن الحجة لأهل العدل على صحة قولهم أن الله تعالى قال : « هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَالْمِيزَانَ » ، وقد صح عند جميع أهل العقول ، والبصائر ـ أنه لم ينزل ميزان موصوف بعمود ذو كفتين ، وإنما هو عدل وإنصاف ، وحكم فاصل بين العباد بالحق .

وأيضا لو كانت الأعمال بالوزن الموصوف عند من قال : أنه يوضع للأعمال ميزان على الحقيقة ـ لكان لكل عمل امرئ أربعين سنة من عمره فى طاعة الله تعالى يؤدى فيها جميع ما افترض عليه من صلاة أو صوم ، أو حج ، أو زكاة ، وجميع أعمال البر ، ثم ضيع سنة واحدة من آخر عمره ، أو شهرا واحدا ، أو يوما واحدا ، أو ساعة واحدة ـ فلم يؤد ما افترض الله عليه ، ولم ينصف من نفسه لما يلزمه من طاعة ربه متعمدا لذلك ـ لكانت أعمال السنين الماضية أكثر وأثقل وزنا .

ولو أن عبدا عمل بالمعاصى أربعين سنة ، ولم يؤد ما افترض الله عليه فيها ، ثم ندم وتاب فى آخر عمره بعد مابقى من عمره سنة ، أو شهرا ، أو يوما ، وتاب واستغفر ، وأناب إلى الله بصدق التوبة ، وإخلاص العمل ـ لكان عمله

بالمعاصى فى أول عمره أكثر وأثقل فى الوزن ، ولكان هذا بخلاف الشرع مما ثبت فى حكم الله تعالى — أن من مات مؤمنا تائبا إلى الله ، صادقا فى توبته مخلصا لله فى عمله كان من أهل رضوان الله تعالى ، ولا يؤاخذ بما جناه قبل التوبة ومن مات مصرا على شىء من معاصى الله ، وأبى أو امتنع من التوبة من عمله الذى تجب عليه منه التوبة ، والإقلاع عنه — كان من أهل سخط الله ، ولا ينتفع بما سبق من صالح عمله .

فأى معنى لوزن الأعمال هاهنا ، والأعمال أيضا أعراض ، لا جوهر يوزن كما قالوا . والله أعلم ، وبه التوفيق .

* * *

القول السابع والثلاثون

فى النزول ، والمجىء ، والقيام والاستواء ، والملاك

زعمت المشبهة أن الله — تعالى — ينزل ليلة النصف من شعبان ، فوصفوه — سبحانه — بالحدود ، والنزول ، والانتقال من مكان إلى مكان ، لأن النازل لا يكون فى مكان دون مكان ، وكل ما حوته الأماكن ؛ فهو محدود ، وكل محدود مختلف ، وكل مختلف متغاير ، وكل متغاير لا يشبه بعضه بعضا .

وكل من كان زائلا منتقلا عن بعض تدبيره بنفسه غائب ، لأنه إذا نزل إلى المشرق زال عن تدبيره بالمغرب ؛ وإذا غاب إلى المغرب غاب عن تدبيره بالمشرق ؛ وإذا كان فى سماء الدنيا غاب عن تدبيره فى سائر السموات ، وكانت الأشياء به محيطة ، والأماكن له حاوية ، وقد قال الله تعالى : « وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَمَا كُنْتُمْ » ، وقال : « مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ » الآية .

ويقال لهم : إذا كنتم تزعمون أنه ينزل ليلة النصف من شهر شعبان ، وقد مضى شعبان ؛ فهل علمتم أنه عاد إلى العرش بعد النزول ؟ فإن قالوا : نعم . قيل لهم : وما أعلمكم أنه عاد إلى العرش ؟ فإن قالوا : إنا علمنا أنه قد عاد إلى العرش ، وقيل لهم : أفى حديثكم الذى رويتم أنه ينزل وأنه يعود ؟ فإن قالوا : لا : قيل لهم : فما أعلمكم بأنه ينزل ويعود ، وليس ذلك فى حديثكم ؟

ويقال لهم : ألستم ترون أن السموات السبع ، والأرضين السبع فى جنب العرش كحلقة فى أرض فلاة ؟ فإن قالوا : بلى ، قيل لهم : كيف تزعمون أنه ينزل إلى سماء الدنيا مع صغرها فى جنب العرش ؟

ويقال لهم : سماء الدنيا أعظم أم العرش ؟ فإن قالوا : العرش ، قيل لهم : العرش أعظم أم من تعبدون ؟ ! فإن قالوا : من نعبُد ، قيل لهم : أتعقلون شيئاً عظيماً يحويه أصغر منه ، ويحيط به ؟ تعالى الله عما تقولون علواً كبيراً .

فصل :

وأما معنى المجىء فى قوله تعالى : « وَجَاءَ رَبُّكَ وَالْمَلَكُ صَفًّا صَفًّا » . « هَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا أَنْ يَأْتِيَهُمُ اللهُ فِي ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ » : المعنى فى ذلك : جاء قضاء ربك بالثواب والعقاب والجزاء ، وغير ذلك من أمور الآخرة . « فِى ظُلَلٍ مِنَ الْغَمَامِ » يجعل ذلك الغمام علما بينه وبين عباده ؛ إذا جاءهم الغمام علموا أنه قد جاءهم القضاء والجزاء ، كما جعل الغمام فى الدنيا علماً للغيث ، وغير ذلك من الأشياء ، وليس أنه يحيا ، ويذهب متنقلا ، ولا زائلا ، تعالى الله عن ذلك ، وقيل : « جَاءَ رَبُّكَ » أى : وعد ربك ، وقيل : أمر ربك ، ومعناهما قريب .

وروت المشبهة أن الله ــ جل وعلا ــ ينزل يوم القيامة حتى يجلس على كرسى القضاء ؛ فيقول : أنا ربكم ، فينكرونه ، وكادوا يبطشون به ــ تعالى الله عن ذلك ــ فزعموا أنه يكشف لهم عن ساقه ، فيخرون له سجدا ! فهذا هو الكفر بالله العظيم . نعوذ بالله من الضلالة والعمى ؛ لقد وصفوا الله تعالى جل ثناؤه ــ جسما محدودا ، ثم زعموا أن المؤمنين لا يعرفون ربهم إلا كذلك ، وهى صفة المحدود ــ تعالى الله عن ذلك .

وقال أهل الاستقامة فى قوله تعالى: « يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ » فإنما عنى به شدة الأمور. وقال ابن عباس: هو شدة أهوال يوم القيامة.

وأما قوله تعالى: « وَالْتَفَّتِ السَّاقُ بِالسَّاقِ »، قال ابن عباس: أمر الدنيا بأمر الآخرة، قال عمر (رضى الله عنه) : فى قوله تعالى: « يَوْمَ يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ » : هى أشد ساعة فى يوم القيامة، وقال الحسن: « يُكْشَفُ عَنْ سَاقٍ » أى: عن الستر الذى بين الدنيا والآخرة — هذا قول أهل الاستقامة فى تأويل هذا إلا ما ذهبت إليه المشبهة — تعالى الله عن قولهم علواً كبيراً.

فصل :

وأما قوله تعالى: « عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى » فهو استواء الملك، والقدرة، والتدبير، وهو معروف فى لغة العرب.

وقال النقاش: أى علا وقدر وقهر.

فإن عارض معارض، فقال: كيف يجوز أن يقول: ثم استوى على العرش، لإرادته تدبير الأمر على العرش فذكرتم عند الاستواء؟ قيل له: هذا توسع ومجاز فى القول، وهو يريد ثم يدبر؛ كما قال: « حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ »، وحتى: لا يجرى فى كلام العرب إلا على أمر حادث مستأنف، ولا يجوز أن يعلم الله الأشياء بعلم حادث، لأنه لم يزل عالما بالأشياء كلها قبل كونها، ولكن أراد بقوله: « حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ مِنكُمْ وَالصَّابِرِينَ » أى: حتى يجاهد المجاهدون منكم، ويصبر الصابرون [منكم] ، وهو — سبحانه — عالم بهم

فذكر : حتى . مع قوله : « حَتَّى نَعْلَمَ الْمُجَاهِدِينَ » توسُّعاً ، ومجازاً .

وقال بعض المفسرين: إنه ذكر الاستواء ، وهو يريد القصد. وقال الحسن: يريد استواء أمره ، وصنعه الذى صنع به الأشياء إلى السماء .

وقال ابن عباس فى قوله تعالى: « وَسِعَ كُرْسِيُّهُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضَ » ، وقد نرى الأرض ، ولا نرى الكرسى ... قيل له ... قال ابن عباس : فى قوله تعالى « وَسِعَ كُرْسِيُّه ... » علمه ؛ لأن الله قد أحاط بكل شىء علما ، وأحصى كل شىء عددا .

وقيل : إن الحسن البصرى كان جالساً فى حلقته ، والناس حوله من قائم وقاعد ، ويزيد الرقاشى مقبل بوجهه إليه ، والحسن مقبل بوجهه إلى الرقاشى ؛ قال : فبينما نحن كذلك ؛ إذ دخل عليهم أعرابى ، فأقبل إلى الحسن ، فقال : يا أبا سعيد . حدثنى عن الرب ــ جل وعلا ــ أجالس هو على عرشه ؟ فغضب الحسن ، وتغير لونه ، والجالسون يشجعون السائل ؛ لحبهم فى فائدة الجواب ، فلما رأى الرقاشى منهم ذلك . قال : « يا أبا سعيد ؛ لقد لقينا صدر هذه الأمة ؛ وقد كان بعضنا إلى أحدهم أن يأتيهم المترشد المتفحص عن الله تبارك وتعالى ــ فيعطف عليه ؛ فإن كان عندك علم ــ فهاته ، وإلا فلين لهم البشر ، والقول ؛ فإن أفضل العلماء ألطفهم، قال الله تعالى لنبيه : « وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ؛ لَانْفَضُّوا مِن حَوْلِكَ ، فَاعْفُ عَنْهُمْ ، وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ ، وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ » فأمره بالقرب ، واللين، فلك فى رسول الله أسوة حسنة » فنكس الحسن رأسه،

وعرف الإساءة على نفسه ، وأقبل بعض الجلساء على السائل بالإيماء على الرقاشى أن يسأله ، فقال السائل للرقاشى : إياك أسأل يرحمك الله يا أبا الفضل عن الله تبارك وتعالى .

[فقال] : أجالس هو على عرشه ؟

فقال : يا لكع إنما يجلس من يمل القيام .

قال [الأعرابى] : أفقائم هو على عرشه ؟

قال [الرقاشى] له : ثكلتك أمك . إنما يقوم من يمل الجلوس

قال [الأعرابى] : أمتكئ هو على عرشه ؟

قال [الرقاشى] : إنما يتكئ من يمل القيام والجلوس .

قال [الأعرابى] : أفمتصل هو بعرشه ؟

قال [الرقاشى] . تباً لك ؛ إنما يتصل المخلوق بالمخلوق ، ويمس المخلوقُ المخلوقَ ، وينال المخلوق المخلوق ، وأما الرب الذى لا مثل له ؛ فلا يتصل بشىء ، ولا يمسه شىء ، ولا يناله شىء ؛ هو أعز وأمنع أن ينزل بحال الاتصال .

قال [الأعرابى] : أفمنقض هو على العرش ؟

قال [الرقاشى] : ويحك ! ! إنما ينقض الشىء من الشىء بحدود ، [و] الله دائم بلا حد ، ولا غاية .

قال [الأعرابى] : سبحان الله ، هو لا قائم ، ولا قاعد ، ولا متكئ ، ولا منفصل ، ولا متصل ، ولا منقض فكيف هو ؟

قال [له الرقاشى] : ثكلتك أمك . لا كيف له ، ويحك !! وهل تدرى ما الكيف ؟

فقال [الأعرابى] : لا .

قال [الرقاشى] : إنما يقال الكيف للشىء الغائب ؛ إذا استوصف ، فيوجد له فى الحاضر مثل ، فيقول الواصف : هو كذا ، أو مثل كذا ، أو شبه كذا ، وأما الرب — جلا وعلا — فلا مثل له فيما غاب ، ولا فيما بقى ؛ ولا يقال له : كيف ، ولا يطلب بالكيف ، ولا إليه سبيل بالكيف ، وإنما يراد بالكيف الشبه والعِدْل ، والله تعالى « لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ » .

قال [الأعرابى] فما قوله : « الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى » ؟

قال [الرقاشى] : فإنما ضللتم من قبل العربية أن الاستواء فى كلام العرب — هو الاستعلاء ، والقدرة ، والقهر ، فليس مخلوق تدركه : أن كيف هو ؟ هيهات هيهات من ينال ذلك ، وقد جعل على أبصار القلوب عن ذلك الغطاء ؛ فلا وهم يناله ، ولا قلب ينعته ويصفه ، ولا يخطر على بال ، إلا كما وصف نفسه : « . . . أَحَدٌ فَرْدٌ صَمَدٌ ، لَمْ يَلِدْ ، وَلَمْ يُولَدْ ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ » ؛ دائم « أبدا لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَىْءٌ ، وَهُوَ اللَّطِيفُ الْخَبِيرُ » .

قال [الأعرابى السائل] : فما العرش ؟

فقال [الرقاشى] : الآن سألتنى عن الخلق . إن العرش خلق من خلق الله تعالى فوق السماء السابعة بلاء ، واختبارا ؛ يختبر به ملائكته ، جعله الله موضع التسبيح ، والتحميد ، والثناء ، والمدح ، والشكر ، والبهاء ، والسناء ،

وعبادة الخلق ؛ فأمر الملائكة بحمله ، والحفوف حوله ، مهما عظموا من أمر العرش ، فالله ـ تعالى ـ يعظمون لا غيره ، بحمده ، والحفوف حوله ، والله له المثل الأعلى ؛ لا يحتاج للعرش للاستقرار ، وإن كان سمّى عرش الله .

نظير ذلك عندكم فى الأرض بيت الله الحرام موضع الحج ؛ فيه كلف الله أهل الأرض أن يطوفوا بالبيت طوافا ، وتمسحاً ، وتقبيلا للحجر ، وتولية الوجوه شطره . فمهما عظموا من أمر البيت ، فالله يعظمون لاغيره ، والله لا يحتاج إلى ذلك البيت ، فيسكنه ، وإن كان سمى بيت الله تعالى .

ولو كان الله كما ذهب إليه وهمك ـ لـكان محمولا ممسَـكا محتاجا ؛ وذلك : بأن الممسَك يحتاج الدهر كله إلى ممسِك ، ولا حاجة بالمُمْسَك إلى الممسِك ؛ نظير ذلك ـ قوله تعالى : « إِنَّ اللهَ يُمْسِكُ السَّمٰوَاتِ وَالأَرْضَ أَنْ تَزُولا ، وَلَئِنْ زَالَتَا إِنْ أَمْسَـكَهُمَا مِنْ أَحَدٍ مِنْ بَعْدِهِ ؛ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً » . إن الله ممسك السموات والأرض ، وما فيهما من الخلق عرشا وكرسيا ، أو بيتا .

فقال الأعرابى : شفيتنى ، وفرجت عنى غمى ـ فرج الله عنك .

فصل :

والاستواء فى لغة العرب على معنيين : أحدهما ـ الجلوس على الشىء ، والمماسة له ؛ كما يستوى الفارس على فرسه ، والملك على سريره ، وهذه صفة من يستوى بعد أن كان مائلا ، ويعتدل بعد أن كان أعوج ، والله سبحانه ـ منزه عن هذه الصفة . والوجه الآخر ـ هو استواء الملك والقدرة ، والتدبير ، وهو معروف فى لغة العرب .

فصل :

وأما قوله تعالى : « أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ » : فهو بمعنى الكفاية ، والتدبير ، والثواب ، والجزاء ، والرزق ، والإحصاء بجميع أعمال المكلفين ؛ فلا يغيب عنه أحد ، ولا يخفى عليه عمل ، ولا يغفل عن رزق أحد ، ولا عن أجله ، كما قال : « أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ » ليس قيام وقوف ، ولا انتصاب . والله أعلم .

فصل :

وأما قوله تعالى : « وَمَنْ عِنْدَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ » : يعنى الملائكة المقربين ، وكذلك قوله : « عِنْدَ مَلِيكٍ مُقْتَدِرٍ » ، وإنما أراد عنده فى المنزلة ، والرفعة والزلفى مستحقين لثواب الله – تعالى – آمنين من عقابه ؛ كما ذم الله – سبحانه وتعالى – المجرمين والمشركين والمنافقين . فقال : « وَلَوْ تَرَى إِذِ الْمُجْرِمُونَ نَاكِسُو رُءُوسِهِمْ عِنْدَ رَبِّهِمْ » يريد أنهم عنده فى المنزلة الدنية إذ كانوا مستحقين العقاب آيسين من الثواب ، ولم يعن به الدنو ، ولا الرؤية ؛ لأنهما لا يجوزان على الله تعالى .

فصل :

فى قوله تعالى – عز وجل – : « وَهُوَ الَّذِى فِى السَّمَاءِ إِلَٰهٌ ، وَفِى الْأَرْضِ إِلَٰهٌ » وقوله تعالى : « وَهُوَ اللَّهُ فِى السَّمَوَاتِ وَفِى الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ » وقوله تعالى : « مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ ، وَلَا خَمْسَةٍ إِلَّا هُوَ سَادِسُهُمْ ، وَلَا أَدْنَى مِنْ ذَلِكَ ، وَلَا أَكْثَرَ إِلَّا هُوَ مَعَهُمْ أَيْنَمَا كَانُوا » ، وقال :

« وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ » . فالمعنى فى ذلك — والله أعلم — أنه إله السموات وإله الأرض ، « وَهُوَ اللهُ فِي السَّمٰوَاتِ وَفِي الْأَرْضِ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ » فلا يخفى عليه شىء من أعمالكم ، وما فى ضمائركم ، وقوله تعالى : « وَنَحْنُ أَقْرَبُ إِلَيْهِ مِنْ حَبْلِ الْوَرِيدِ » المعنى فيه قرب ملازمة القدرة عليه فى جميع الأوقات ؛ وفى جميع الحالات ؛ لاقرب المسافة ، والدنو ؛ كما قال الله تعالى « إِنَّ اللهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوْا وَالَّذِينَ هُمْ مُحْسِنُونَ » ، أى معهم بالنصر ، والتأييد ، والتوفيق ؛ والتسديد .

وقوله : « مَا يَكُونُ مِنْ نَجْوَى ثَلَاثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ » الآية ؛ لأن الله تعالى علمه وتدبيره بكل مكان ، وبكل شىء هو عليم ، وعلى كل شىء حفيظ .

وفى كلام العرب يقال : فلان فى صلاته إذا كان يصلى ، وفى عمله إذا كان يعمل ، وفى طلب العلم إذا كان يتعلم العلم ، ولا يريدون [بذلك] الحلول والكينونة فى هذه الأشياء ، وكذلك تقول : إن الله — عز وجل — بكل مكان ؛ على أنه عالم ، ومدبر ، ورقيب ، وحافظ ؛ لا على معنى الحلول والكينونة لأن الله تعالى ليس بجسم ، فتحويه الأماكن .

فإن سأل سائل : عن قوله تعالى : « أَأَمِنْتُمْ مَنْ فِي السَّمَاءِ » هل أخبر أنه ليس فى الأرض ؟

قيل له : هو الله سبحانه فى السماء إله ، وفى الأرض إله ، وفى كل مكان علمه وسلطانه ، وتدبيره ، وإنما خص السماء بالذكر تشريفا للسماء ، وتخصيصا لها بالذكر .

والعرب كانوا فى الجاهلية يعبدون الأصنام ، ويقرون بالله ـ عز وجل ـ ويعرفونه ، ويزعمون أنه في السماء فقال الله عز وجل . أأمنتم من أقررتم به أنه فى السماء ، واعترفتم له بالقدرة على ما شاء ـ أن يخسف بكم الأرض ؟ أن تأمنوا أن يرسل عليكم حاصبا (وهو المطر الذى يكون فيه الحصا) ؛ كما فعل بأصحاب الفيل ، وقوم لوط ؟ إذ أرسل عليهم حاصبا .

فإن قال : فما معنى قوله : « ثُمَّ اسْتَوَى إِلَى السَّمَاءِ » ؟ قيل له : استوى : بمعنى قصد بالملك ، والتدبير ، فذكر الاستواء ، وهو يريد القصد ؛ فإن قال : فما معنى قوله ـ عز وجل ـ : « إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ » ؟ قيل له : « إن الله ـ عز وجل ـ أراد به يرفعه ، ويقبله ، ليس بمعنى الصعود ، والارتفاع من مكان إلى مكان ، وإنما هو تعظيم لله تعالى .

فصل :

أما قوله تعالى : « اللَّهُ نُورُ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ » أى منوّر السموات والأرض ، وهادي من فيهن كما قال تعالى : « مَثَلُ نُورِهِ » أي نور الإيمان في قلب المؤمن وبدنه ، و « المشكاة » هى القصبة التى فى جوف القنديل التى تكون فيها الفتيلة ، وفيها مصباح « الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ ، كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ ، يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ ، زَيْتُونَةٍ لَا شَرْقِيَّةٍ وَلَا غَرْبِيَّةٍ يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ؛ نُورٌ عَلَى نُورٍ » يقول لا تصيبها الشمس من المشرق ، ولا من المغرب ، وقيل لا تنقطع

عنها الشمس من شروقها إلى غروبها ، وذلك أجود ما يكون من الزيتون .

« يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ ؛ نُورٌ عَلَى نُورٍ » أى هُدًى على هُدًى ؛ فسمَّى هداه نوراً ؛ الذى نور به قلب المؤمن فهُدِى ؛ على أن الله إنما عَنِى بقوله : « اللهُ نُورُ » : أنه منور الأشياء التى [هو] مُبينها .

والله سبحانه وتعالى ـ لايمثل نفسه بقنديل ، ولا مصباح ، ولا زجاجة ؛ ولو كان كذلك ـ لكان محدوداً صغيراً ، وقد قال سبحانه وتعالى : « وَلِلَّهِ الْمَثَلُ الْأَعْلَى ، وَهُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ » .

ولو كان نوراً مثل هذه الأنوار لم يكن له على النور الذى هو كبعضه حجة ، ولكن بائن عن جميع الأشياء ، كائن ما كان منها ليس كمثله شىء وهو السميع البصير ، ففرق بين نفسه ، ونوره بقوله : « يَهْدِى اللهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ » ، وقال تعالى : « أَوَمَنْ كَانَ مَيْتًا فَأَحْيَيْنَاهُ وَجَعَلْنَا لَهُ نُورًا يَمْشِي بِهِ فِي النَّاسِ » الآية ، وقال الله تعالى : « اللهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ » .

والعرب ؛ إذا مدحوا رجلا قالوا : أما فلان الأنور ، ويقولون : العالم نور البلاد ، أى : يهتدى الناس به إلى الحق ، والله أعلم .

القول الثامن والثلاثون

فى الموت ، والبعث ، والحساب ، والقبر والشفاعة ، وشبـــه ذلك

قال الله تعالى: « فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً ، وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » فالذى نذهب إليه أن كل من مات ، أو قتل ؛ فقد مات بأجله .

وقول المعتزلة : أن من قتل ـ لم يمت بأجله ، وهذا خلاف ما جاء فى كتاب الله ، فلا ينفع عمل ، ولا غيره فى زيادة الأجل ، ولا صدقة ، ولا صلة رحم ، ولا غير ذلك ؛ لأن الله يقول : « فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ » وهذا خبر أخبر الله به ، والأخبار لا يقع عليها النسخ .

وقد قال الله تعالى فى يحيى ، وزكريا : « وَسَلَامٌ عَلَيْهِ يَوْمَ وُلِدَ ، وَيَوْمَ يَمُوتُ ، وَيَوْمَ يُبْعَثُ حَيًّا » ، وقد صح بالأخبار الصحيحة ـ أن يحيي قتل ولم يمت على الفراش ، فسمّى الله قتله موتا ، وقد مات بأجله الذى أجله الله إليه .

فلو أن رجلا حلف أن يوم يموت زيد فامرأته طالق ، فقُتل زيد ، ولم يمت على فراشه ، لطلقت امرأة الرجل ، لأنه لم ينوِ إن مات زيد على فراشه بلا قاتل يقتله ، وإنما يذهب أنه يوم تخرج روح زيد من جسده ، فقد مات .

فصل :

وقال أبو الحسن : الدليل على إعادة الخلق أن الله ـ سبحانه وتعالى ـ خلق الخلق على مثال سبق ؛ فلم يُعْيِهِ أن يعيدهم خلقا آخر .

وقد قال الله : « وَضَرَبَ لَنَا مَثَلًا ، وَنَسِيَ خَلْقَهُ ؛ قَالَ : مَنْ يُحْيِي العِظَامَ ، وَهِيَ رَمِيمٌ ؟ قُلْ : يُحْيِيهَا الَّذِي أَنْشَأَهَا أَوَّلَ مَرَّةٍ ، وَهُوَ بِكُلِّ خَلْقٍ عَلِيمٌ » ، وقال : « وَهُوَ الَّذِي أَحْيَاكُمْ ثُمَّ يُمِيتُكُمْ ، ثُمَّ يُحْيِيكُمْ ، ثُمَّ إِلَيْهِ تُرْجَعُونَ » ، وقال تعالى مخبرا عن قولهم : « أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا ، وَآبَاؤُنَا ، أَئِنَّا لَمُخْرَجُونَ ؟ » وفى آية أخرى « أَئِنَّا لَمَبْعُوثُونَ ؟ » وقال : « فَسَيَقُولُونَ مَنْ يُعِيدُنَا ؟ قُلِ الَّذِي فَطَرَكُمْ أَوَّلَ مَرَّةٍ » .

فدل فى القرآن ـ فى غير موضع ـ أنه يعيدهم ، وقال : « وَهُوَ الَّذِي يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ ، وَهُوَ أَهْوَنُ عَلَيْهِ » .

واختلف الموحدون فى بعث الخلق ، فقال بعضهم : إن كل شىء خلقه الله ـ عز وجل ـ ، وأخرجه من العدم إلى الوجود ـ يبعث يوم القيامة ، وقال بعضهم : يبعث الله كل ذى روح ويوجده ، [وأن] من اعتقد أن الله يبعث كل ذى روح ـ فهو سالم ، ومن اعتقد أن الله يبعث كل شىء خلقه ـ فهو سالم ما لم يخطئ أحدهما الآخر . فحجة من قال : إن الله يبعث كل ذى روح قوله تعالى : « وَمَا مِن دَابَّةٍ فِى الأَرْضِ ، وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ؛ إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ، مَا فَرَّطْنَا فِى الْكِتَابِ مِن شَىْءٍ ، ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ » .

وقال آخرون : ليس فى هذه الآية دلالة على أنه لا يبعث إلا ذوات الأرواح ، وأن ما كان من غير ذوات الأرواح لا يعاد .

وقد قال الله تعالى : « وَهُوَ الَّذِى يَبْدَأُ الْخَلْقَ ثُمَّ يُعِيدُهُ » ؛ فهذه عامة ، وما كان عاما ؛ فهو على عمومه ، إلا أن تقوم دلالة على نسخه ، أو حجة واضحة من كتاب ، أو سنة ، أو إجماع على تخصيص شىء منه .

وقال الله تعالى : « وَالَّذِينَ يَكْنِزُونَ الذَّهَبَ وَالْفِضَّةَ ، وَلا يُنْفِقُونَهَا فى سَبِيلِ اللهِ ؛ فَبَشِّرْهُمْ بِعَذابٍ أَلِيمٍ . يَوْمَ يُحْمَى عَلَيْهَا فى نَارِ جَهَنَّمَ ؛ فَتُكْوَى بِها جِبَاهُهُمْ وَجُنُوبُهُم وَظُهُورُهُم » الآية ، وهذا ليس من ذوات الأرواح .

وقال الله تعالى : « إِنَّكُم ، وَمَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللهِ حَصَبُ جَهَنَّمَ ، أَنتُمْ لَهَا وَارِدُونَ » ، وقال : « وَأَخْرَجَتِ الأَرْضُ أَثْقَالَهَا » .

ومن زعم أن قبل يوم القيامة بعثاً يقتل فيه من مات فى الدنيا ، ويُمات فيه من قتل فى الدنيا ، وأن دولتهم ، وظهوراً منهم ، وبيان تصديق قولهم : يكون بعد ذلك ــ فهو مخالف للكتاب ، والإجماع على خلاف قوله .

قال [الله] تعالى : « اللهُ لا إِلَهَ إِلّا هُوَ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيامَةِ » ، وقال : « وَلَئِنْ مُتُّم أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى اللهِ تُحْشَرُونَ » .

وقال[1] النبى (ﷺ) : « بُعثت أنا والساعة كفرسى رهان، وإن كادت لتسبقنى ، فسبقتها » ، والقائل بما يخالف القرآن والسنة ـ غير مقبول منه قوله .

فصل :

وسئل أبو الحسن البسيانى (رحمه الله) عن عذاب الموتى فى القبر ، فقال : هم عبيد الله ـ تعالى ـ إن شاء عذبهم فى القبر ، وفى الدنيا ، وفى الآخرة ، وإن شاء رحمهم ؛ أما عذاب الآخرة ؛ فلا شك فيه لمن مات غير مؤمن .

وقد قال الله تعالى فى اليهود : « وَلَوْلا أَن كَتَبَ اللهُ عَلَيْهِمُ الْجَلاءَ ؛ لَعَذَّبَهُم فى الدُّنْيا، وَلَهُم فى الآخِرَةِ عَذابُ النَّارِ » ، وقال الله تعالى : « فأَذاقَهُمُ اللهُ الخِزْىَ فى الحَياةِ الدُّنْيا ، وَلَعَذابُ الآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كانُوا يَعْلَمُونَ » ، وقال : « ذَٰلِكَ جَزاءُ أَعْداءِ اللهِ ، النَّارُ لَهُم فيها دارُ الْخُلْدِ جَزاءً بما كانُوا بِآياتِنا يَجْحَدُونَ » ، وقال فى قوم عاد : « فأَرْسَلْنا عَلَيْهِم رِيحاً صَرْصَراً فى أَيَّامٍ نَحِساتٍ ؛ لِنُذِيقَهُم عَذابَ الخِزْىِ فى الحَياةِ الدُّنْيا، وَلَعَذابُ الآخِرَةِ أَخْزَىٰ، وَهُمْ لا يُنْصَرُونَ » ، وقال : « فأَخَذَهُ اللهُ نَكالَ الآخِرَةِ ، وَالأُولَىٰ » .

واختلف الناس فى عذاب القبر اختلافاً كثيراً ، وقولنا : قول أهل الحق فى هذا وغيره، والله ـ تعالى ـ يفعل مايشاء، ويحكم ما يريد ؛ إن شاء عذب فى الدنيا، وإن شاء عذب فى القبر ، وإن شاء عذب فى الآخرة ؛ كل الأمر لله ـ تعالى ـ ، والخلق خلقه ؛ لا يسأل عما يفعل ، وهم يسألون .

---

(١) رواه أحمد ، والبيهقى ، والترمذى عن أنس، ورواه أحمد والبيهقى عن سهل بن سعد.

فالذين يقولون بعذاب القبر: يحتجون بقوله تعالى: « رَبَّنَا أَمَتَّنَا اثْنَتَيْنِ، وَأَحْيَيْتَنَا اثْنَتَيْنِ » ، فقالوا : الموتة الأولى [هى] التى تقع بهم فى الدنيا بعد الحياة ، والحياة الأولى : إحياء الله تعالى إياهم فى القبر ، والموتة الثانية : إماتة الله إياهم بعد المساءلة ، والحياة الثانية : إحياء الله إياهم للبعث .

وحجة من أنكر عذاب القبر قوله تعالى: « قال : كَمْ لَبِثْتُمْ فِي الْأَرْضِ عَدَدَ سِنِينَ ، قَالُوا : لَبِثْنَا يَوْمًا ، أَوْ بَعْضَ يَوْمٍ » ؛ قالوا : لو كان هؤلاء الكفار ، أحياء فى قبورهم ـ ماقالوا: لبثنا يوما أو بعض يوم، فهذا يدل على أنهم لا حياة لهم فى القبر بعد الموت .

وأما الخبر الذى روى عن النبى (ﷺ) أنه قال : « إن الميت ليعذب ببكاء أهله عليه » فهذا خبر غير موافق للكتاب ؛ لأن الله يقول : « ولا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَى » ، وقال : « وكُلًّا أَخَذْنَا بِذَنْبِهِ » .

وأما منكر ونكير : فقد اختلف الناس فيهما ، وقولنا ـ قول المسلمين ، وقد ذكرنا ذلك فى كتاب الطهارات .

فصل :

والدليل على أن السموات والأرض فانيات ـ قوله تعالى : « والسَّمَوَاتُ مَطْوِيَّاتٌ بِيَمِينِه ، والأَرضُ جَمِيعًا قَبْضَتُه يَوْمَ القِيَامَة » ، وقال تعالى : « يَوْمَ نَطْوِى السَّماءَ كَطَىِّ السِّجِلِّ لِلْكُتُبِ » ، وقال : « وَحُمِلَتِ الأَرضُ، وَالجِبَالُ ؛ فدُكَّتَا دَكَّةً وَاحِدَةً » .

والدليل على ذهاب ذوات الأرواح ـ قوله: « كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ». وكل نفس منفوسة ذائقة الموت، من دابة، وبشر، وملائكة وطير : قوله تعالى : « كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُ » .

فصل :

وأما الحساب : فحق لازم بقوله تعالى : « أَلَا لَهُ الْحُكْمُ وَهُوَ أَسْرَعُ الْحَاسِبِينَ » ، وليس حساب ربنا كحساب خلقه ، وإنما هو حكم وعدل ، وعلم لأعمال العباد التى عملوها، وحساب الله لخلق أجمعين : مثل حسابه لرجل واحد. لا يشغله حساب هذا ؛ عن حساب غيره ، والله تعالى ـ لا يشغله شأن عن شأن.

وأما الكتب : فقد قيل : إنها تطير ، ويطير كل كتاب إلى صاحبه. وقيل : إنها تكون قبل طيرانها تحت العرش ، وقيل : إنها تكون بأيدى الملائكة الذين كانوا يكتبون على بنى آدم ؛ فيعطون بنى آدم كلا منهم كتابه ، فيقرؤه ؛ فإن قرأه ـ علم حجة الله عليه ، ويلقى الله ذلك على قلوبهم .

وقال الشيخ أبو الحسن البستانى (رحمه الله) : إن الله ـ تعالى ـ هو المحاسب لعباده ، ويسألهم عن جميع أعمالهم ؛ من خير وشر ، ويريهم ذلك ؛ فيعلم المؤمن فضل الله عليه ، ويعلم الكافر عذاب الله فيه ، والله ـ تعالى ـ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِلْعَبِيدِ ، والله تعالى سريع الحساب ، وأسرع الحاسبين .

واختلف فى المقاصة بين البهائم ، والدواب فى الآخرة ؛ فقال قومنا : يقضى الله بين الدواب ، وتقتص الجماء من القرناء بما نطحتها فى الدنيا. وقال أصحابنا:

الدواب لا تكليف عليها ، وهى غير مأمورة ومنهية فى الدنيا ، ولا قصاص فيها، ولا عقوبة عليها .

وإنما هى تبعث، وتحشر، كما قال الله تعالى: « وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ، وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ ، إِلَّا أُمَمٌ أَمْثَالُكُمْ ، مَا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ، ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ » . فقيل : إذا اجتمعت الدواب يوم القيامة ـ فما استحسن منها أهل الجنة كان فى الجنة ثوابا لأهل الجنة ، والباقى يكون عقابا لأهل النار ، ولا عذاب على البهائم ، والدواب فى الآخرة .

فإن قال قائل : كيف يدخل الله أهل الجنة الجنة بالتفضّل منه عليهم ، وهم قد استحقوا ذلك بعملهم : كالأجير الذى يستحق الأجر عند تمام العمل ، ولا يقال : إن المؤجر منفضل على الأجير فى إعطائه أجر عمله ؟ قيل له : إن الأجير لا يستحق أجره على المؤجر إلا بعد أن ينال المؤجر نفع الأجير؛ فلايكون المؤجر متفضلا على الأجير بما يعطيه من الأجرة ، وأما ربنا ـ تعالى عز وجل فلا يحتاج لنيل منفعةٍ واحد من خلقه ، وهو الغنى عن خلقه، وخلقه الفقراء إليه ، المحتاجون لفضله ، والله ذو الفضل العظيم .

فصل :

وأما الشفاعة : فهى حق للمؤمنين الذين رضى الله عنهم ، قال الله تعالى : « وَلَا يَشْفَعُونَ إِلَّا لِمَنِ ارْتَضَى »، وقال: « لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ » الآية ، وقوله تعالى : « يَوْمَئِذٍ لَا تَنْفَعُ الشَّفَاعَةُ ، إِلَّا لِمَنْ أَذِنَ لَهُ الرَّحْمَنُ ، وَرَضِيَ لَهُ قَوْلًا .

فمن قال إن الشفاعة لأهل الكبائر ـ فقد قال بخلاف ما جاء فى القرآن :
لأن الله تعالى يقول : « مَا لِلظَّالِمِينَ مِنْ حَمِيمٍ ، وَلَا شَفِيعٍ يُطَاعُ » ،
وأما الرواية عن النبى (ﷺ) : « شفاعتى لأهل الكبائر من أمتى » :
فلا تصح لمخالفتها ما فى القرآن ؛ ولأن النبى (ﷺ) قال : « لا تنال شفاعتى
أهل الكبائر من أمتى » ، وقال (ﷺ) : « ما منكم من أحد يدخل الجنة
يوم القيامة ، إلا بفضل الله ، ثم بعمله ، ثم بشفاعتى » ؛ فشفاعته زيادة للمؤمن
فى أجره ، ورفع درجته .

وقيل : « إن المؤمنين رزقوا الجنة » بما سبق لهم فى علم الله أنهم من أهلها ،
ودخلوها بشفاعة نبينا محمد (ﷺ) وتقاسموها بالأعمال الصالحة .

ونحن نسأل الله أن يدخلنا فى شفاعة نبينا محمد (ﷺ) يوم القيامة . آمين
وصلى الله على رسوله محمد النبى ، وآله وسلم .

* * *

القول التاسع والثلاثون

فى الخلود ، والجنة ، والنار ، والورود فيها

قال الله تعالى : « وَإِنْ مِنكُم إِلَّا وَارِدُهَا ، كَانَ عَلَى رَبِّكَ حَتماً مَقْضِيًّا ، ثم نُنَجِّى الَّذِينَ اتَّقَوْا » فالورود عند أصحابنا : الانتهاء ، والمرور ، والاجتياز . لا الدخول ، والدليل على ذلك : قول الله — تعالى — فى قصة موسى (عليه السلام) : « وَلَمَّا وَرَدَ مَاءَ مَدْيَنَ » ، وهو مرّ عليه ، وانتهى إليه ، ولم يدخله .

وقال بعض أهل التفسير فى قوله تعالى : « وَإِنْ مِنْكُم إِلَّا وَارِدُها » : يعنى جملة المشركين ، ثم ننجى الذين اتقوا . يقول : نخرج المتقين من جملة من يدخل النار ، وقد قال الله تعالى : « إِنَّ الَّذِين سَبَقَتْ لَهُم مِنَّا الحسْنى أُولئكَ عَنْها مُبْعَدُون » ، وقال : « لَا يَسْمَعُون حَسِيسَها ، وَهُم فِيما اشْتَهَتْ أَنْفُسهم خَالِدُون » .

وأما من قال : إن أهل هذا التوحيد إنما يعذبون فى النار على قدر أعمالهم ، ثم يخرجون منها ، وإنما الخلود لأهل الكفر من أهل الجحود ؛ فيقال لهم : لو كان التوحيد يكفيهم عن العمل بالإيمان ، إلى الممات ؛ كما قال الله تعالى : « وَعَد اللهُ المُنَافِقِين ، والمُنَافِقَاتِ ، والكُفَّارَ نارَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فيها » ؛ والمنافقون ، والمنافقات — هم أهل توحيد ، وإقرار ؛ لأنهم يقولون : لا إله إلا الله ، محمد رسول الله ، فلم يغن عنهم ذلك شيئا من الخلود فى النار .

ولما قالت اليهود والنصارى : « نَحْنُ أَبْنَاءُ اللهِ وأَحِبَّاؤُهُ » ؛ يعنون أنهم عند الله بمنزلة الولد ، إن عذبنا فإنما يعذبنا بقدر ذنوبنا ؛ فأنزل الله على نبيه محمد (ﷺ) : قُلْ لَهُمْ : يعنى اليهود « فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُمْ ، بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِمَّنْ خَلَقَ ، يَغْفِرُ لِمَنْ يَشَاءُ ، وَيُعَذِّبُ مَنْ يَشَاءُ » ، « وقالوا » : يعنى اليهود « لَنْ تَمَسَّنَا النارُ إلا أَيَّاماً مَعْدُودَةً » ، قل : « أَتَّخَذْتُمْ عِنْدَ اللهِ عَهْداً ؛ فلَنْ يُخْلِفَ اللهُ عَهْدَهُ ؟ أَمْ تَقُولُون عَلَى اللهِ مَالَا تَعْلَمُونَ ، بَلَى مَنْ كَسَبَ سَيِّئَةً ، وأَحَاطَتْ بِهِ خَطِيئَتُهُ أُولئِكَ أَصْحابُ النَّارِ ، هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ » ، وقال فى المقربين من أهل هذه الأمة : « لَيْسَ بِأَمَانِيِّكُمْ ، وَلَا أَمَانِيِّ أَهْلِ الكِتَابِ ، مَنْ يَعْمَل سُوءًا يُجْزَ به » . فسوى بينهم وبين أهل الكتاب، فقال: « وَمَنْ يَعْصِ اللهُ وَرَسُولَهُ ، ويَتَعَدَّ حُدُودَهُ ــ يُدْخِلْهُ ناراً خَالِدًا فِيهَا » .

فإن احتجوا بقوله تعالى : « خَالِدِين فِيهَا مَادَامَت السَّموات والأَرْضُ ؛ إلَّا مَا شَاءَ رَبُّك » ؛ فقد شاء ربك لهم الخلود حيث قال: « خَالِدِينَ فِيهَا أَبَداً » ؛ لأن الله تعالى ــ قد جمع الكفار ، والموحدين جميعا فى آية واحدة ، وأعد لهم الخلود ، قوله : « إلا مَا شَاءَ رَبُّكَ » ، فقد شاء لهم الخلود حيث أخبر بخلود أهل النار ، وقال : « وَمَا هُمْ مِنْهَا بِمُخْرَجِينَ » .

والحكمة فى خلود أهل النار ــ أن العاصى ؛ إذا عصى الله ؛ فقد عصى ربا عظيما ، لانهاية لعظمته ؛ فكذلك عذابه خلود لانهاية له ، ولأن ثواب الله لايشبهه ثواب ، ولا ينقطع، ولا يزول، وعقاب الله لايشبهه عقاب، ولا يزول، ولا ينقطع ، فلو كان لثوابه ، وعقابه نهاية ، وحد ينتهى إليه ، ثم ينقطع ، لأشبه ثواب المخلوقين ، وعقابهم .

فإن احتج بقوله تعالى: « مَنْ عَمِلَ سَيِّئةً ؛ فلا يُجْزَى إِلّا مِثْلَهَا » والسيئة لها منتهى ؟ قيل له : إن الله تعالى ـ قال مثلها فى التعديل .

والحق أنه لايعذب الكافر كعذاب المنافق ؛ لأن المنافق أشد عذابا ، وكل يعذب بقدر عمله فى الجزاء ، والتفاضل ؛ لأن النار درجات ، كما للجنة درجات ، قال الله تعالى : « وَلِكُلٍّ دَرَجَاتٌ مِمَّا عَمِلُوا ، وَلِيُوَفِّيَهُمْ أَعْمالَهم ، وهُمْ لَا يُظْلَمُون » ، وقال فى أهل النار: « ولِكُلٍّ ضِعْفٌ ، ولَكِن لَّا تَعْلَمُونَ » .

فصل :

واختلف الناس فى الجنة والنار، أخُلِقتا أم لا؟ فزعم قوم: أنهما قد خلقتا، واحتجوا بقوله تعالى : « قُلْنا : اهْبِطُوا مِنْها » والهبوط من الشىء لا يكون إلا وقد خلق ، وقال الله تعالى : « واتَّقُوا النَّارَ الَّتِى أُعِدَّتْ لِلْكَافِرِينَ » ، وقال: « وَجَنَّةٍ عَرْضُها السَّموات والأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلمُتَّقِينَ »، والمُعَدُّ فى اللغة: هو المهيأ الذى قد فرغ منه، وقال النبى (ﷺ) : اطَّلعت على الجنة ، فوجدت أقل أهلها الأغنياء، والنساء، واطلعت على النار، فوجدت أكثر أهلها الأغنياء والنساء. ولا يطلع إلا على شىء قد خلق، وفرغ منه، وحجة أخرى. قوله تعالى: « ويآ آدَمَ اسْكُنْ أَنْتَ وَزَوْجُكَ الْجَنَّةَ » (بالألف واللام) ولا تكون إلا الجنة المعدة للمتقين .

وأما حجة من يقول : إن الجنة والنار غير مخلوقتين ـ يحتج بأن الخلق كله فان لا يبقى إلا الله وحده . والجنة ، والنار ؛ إذا خلقتا لا يفنيان ، ولكن كل شىء قال الله أنه سيكون فهو كائن لامحالة ، وهو كأنه قد فرغ منه ؛ ولو لم يكن

بعد فهو كما أنه قد كان ، فلما كانت الأدلة قائمة بأن الجنة والنار لا يفنيان دل على أن كل شىء وعد الله بكونه ؛ أنه سيكون لا محالة ، وكأنه قد كان وفرغ منه ، ولا لقائل يقول : إن الجنة والنار يفنيان .

ونحن نقول : إن الجنة والنار حق ، ونؤمن بذلك ، ونرد علم ذلك إلى الله ـ تعالى ـ وهو العالم بجميع خلقه ، « وَإِلَيْهِ يُرْجَعُ الْأَمْرُ كُلُّهُ ؛ فَاعْبُدْهُ، وَتَوَكَّلْ عَلَيْهِ ، وَمَا رَبُّكَ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ » .

وقال ابن محبوب : إن الجنة والنار مخلوقتان ، وهى الجنة التى أسكنها الله آدم (ﷺ) ، وأخرجه منها ، ووعده لما تاب أن يرده إليها ، قال غيره : ويدل على ذلك قول الله تعالى: «قُلْنَا اهْبِطُوا مِنْهَا جَمِيعًا»، فالهبوط من السماء.

وقال أبو عبد الله : ووجدنا فى الكتب أنهما يفنيان عند فناء الخلق ، ويعادان عند إعادة الخلق ، قال : وهذا مما يسع جهله .

وفى الجنة والنار اختلاف ، ولعلّ من يثبتهما أنهما مخلوقتان ، يقول : الجنة فى السماء السابعة ، والنار فى الأرض السادسة . والله أعلم وبه التوفيق .

* * *

القول الأربعون

فيما يسع جهله ، وما لا يسع جهله

والذي لا يسع جهله كل بالغ عاقل : معرفة الله عز وجل ـ أنه واحد ليس كمثله شيء ، ومعرفة توحيده ، والإقرار به ، وبرسوله محمد (ﷺ) ، بجميع ما جاء به عن الله ـ عز وجل ـ أنه حق من عند الله كما قال ، وأنه صادق فيما أمر به ، ونهى عنه فمن أقر بهذه الجملة ، وصدق بها ـ فقد أقر بدين محمد (ﷺ) ، وقد آمن بما جاء عن الله ـ عز وجل ـ .

وإن هو رد شيئا من هذه الجملة ، أو أنكره ، أو شك فيه ـ كان مشركا ولم يسعه ذلك ولا يسع الناس جهل الشك بالله ـ عز وجل ـ فما دونه مما حرم فى كتابه ، أو رسوله (ﷺ) فى سنة ، أو أجمع المسلمون على تحريمه فما لم يفعله فاعل ، أن يتولى من فعله ، أو يتبرأ ممن برئ ممن فعله ـ فهو سالم ؛ فإن فعله بجهالة ، أو برئ ممن برئ ممن فعَلَه ـ فهو كافر كفر نعمة لا كفر شرك .

والإيمان الذى لا يسع جهله : الإقرار بالله تعالى ، والكفر الذى لا يسع جهله : نصب الحرام دينا بالكذب على الله تعالى فى تحريم ما أحل ، أو تحليل ما حرّم .

ولا يسع جهل معرفة السؤال المتصل بمعرفة الله تعالى ، ولا عذر لأحد فى التفريط فيه ، كما لا يسع جهل الوضوء للصلاة عند حضور وقتها ، فإذا حضر وقتها ، ودخل فيها بلا وضوء ، أو ناقص الوضوء ـ كفر إذا جهل الوضوء ،

وقال : لا أعرفه ، وكذلك الصلاة لايعذر بجهلها ، وإن حضرت ، ولم يصلها ، وفات وقتها ـ كفر ، وكذلك الاغتسال من الجنابة .

وأما الزكاة فلا يسعه جهلها ؛ إذا لزمته ، ويكفر بتأخيرها ، فإن جهلها ، ولم يؤدها حتى مات ، ولم يوص بها كفر ، وكذلك الصيام لشهر رمضان ، والحج ، ولا يسع جهلهما ، فإن لم يعلم وجوب الصيام ، وجهله قبل دخول شهر رمضان ، ومات ـ لم يكفر ، فإن دخل ، ولم يصمه ، وجهله ، فلا عذر له ، وهو كافر ؛ حتى يتوب ويتعلم ، فإن مات، ولم يصمه ـ ولو يوما واحدا منه ـ كفر فإن تاب بعد انقضاء الشهر ـ صام لكل يوم من الشهر شهراً ، وكفارة شهرين .

والحج إذا لزم فلا عذر لمن تركه ، ولا يسع جهله ، ولا يكفر تاركه حتى يموت ، فإن مات ، ولم يوص بحجة ـ مات كافرا ، وإذا حضرت الصلاة ، وهو يتعلم ولم يفهم من معلمه حتى فات وقتها ـ فعليه البدل، وأرجو أنه معذور إن شاء الله .

قال الناظر فى هذه المسألة : ينبغى له ؛ إذا لم يفهم الصلاة من معلمه بجميع ما جاء فيها من قراءة ، وركوع ، وتسبيح وتكبير ، وسجود ، وتحيات ـ أن يصلى بقدر مايطيق ؛ إذا خاف فوت الصلاة ، ولو كان يقدر أن يسبح مكان القراءة ، ومكان التحيات ، فعل ذلك ، ولا يترك الصلاة تفوت ، وهو يقدر أن يسبح ، ويكبر ـ والله أعلم ـ رجع ولا يسع جهل تحريم الخمر ، والميتة ، والخنزير ، ومن عرف ذلك ، وشرب الخمر ، وظنه طلاء ، أو أكل لحم خنزير ، أو ميتة ، وظنه شاة ـ فالخطأ والنسيان أهون ، فإذا علم تاب من ذلك .

قال الناظر فى هذه المسألة : لا أدرى ما هذا الخطأ ، والنسيان الذى عذب به هذا الراكب ، فإن كان هذا الخنزير قائم بنفسه ، فلا عذر لمن أكله على ظن منه ، أنه شاة ، أو غيرها من المحللات ، إلا ماجعل له فيه العذر المسلمون إذا كان فى مكان عدم فيه المعبرين له [به] حرمة الخنزير ؛ إذا كان دائنا بما يلزمه من السؤال فى دين خالقه ، وهو جاهل بحرمة الخنزير — والله أعلم — رجع .

ولا يسع جهل القصر ، ومن جمع بين العصر والمغرب ، والعتمة والفجر — فلا عذر له وعليه الكفارة ، ويسع جهل الجمع .

ولا يسع جهل الجنة والنار ؛ فى قول أبى معاوية (رحمه الله) وقال غيره يسع جهلهما ما لم يُعلّمه أحد بهما ؛ فإن أعلمه أحد بهما لم يسعه جهلهما .

ولا يسع جهل يوم القيامة ؛ إذا ذكر ، ويسع ما لم يذكر ، فإذا ذكر لزم الإيمان به ، فمن شك فيه بعد العلم به ، أو قيام الحجة عليه — كان مشركا يقتل إن لم يتب ، وكذلك القول فى البعث ، والثواب والعقاب ؛ كالقول فى يوم القيامة ، ومن كان يؤمن بجملة البعث ؛ إلا إنه كان يعتقد ، أو يظن أن الله — تعالى — يحشر الجن والإنس دون كل الخلق فقال : إن كان لم يسمع بذلك ، ولا قامت عليه الحجة من الكتاب ، ولا من خاطر قلبه — ففيه اختلاف ؛ وإذا تليت عليه الآية :« وَمَا مِنْ دَابَّةٍ فِي الْأَرْضِ ، وَلَا طَائِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ» ، الآية — فقد قامت عليه الحجة ، فإن شك بعد ما تليت عليه الآية ، أو خطر بقلبه ، فلم يعلم — كفر ، وقال ابن عباس : يحشر كل شىء إلا الذباب .

ومن شك فى آية من القرآن ـ ولم يكن علمها ـ وهو مؤمن بالقرآن ؛ فلا يكون مشركا ؛ حتى تقوم عليه الحجة ، فإذا قامت عليه الحجة ، فشك ـ كان مشركا ، يقتل إن لم يتب .

وعن أبى محمد (رحمه الله) فيمن شك فى القرآن ، أو فى ثلاث آيات منه ، أو فى النبى (ﷺ) فإنه يستتاب من ذلك فإن تاب .. ، وإلا قتل ، وقال أبو معاوية : من شك فى النبى (ﷺ) بعد علمه ، أو فى القرآن ، أو فى آية بعد علمه ـ فهو مشرك يقتل إن لم يتب .

وروى عن النبى (ﷺ) أنه قال : « من بلغته آية من كتاب الله ، فقد بلغه أمر الله كله ، قبله ، أورده . وفى رواية أخرى : « يا أيها الناس بلغوا ، ولو آية من كتاب الله ؛ فإن من بلغه آية ؛ فقد بلغه أمر الله أخذه أم تركه .

ومن شك فى السماء ، وفى الأرض ، والجبال ، والناس ، والدواب ، والشمس والقمر ، والنجوم : بعد العلم لذلك ، أو كان جاهلا ، فقد قامت عليه الحجة به ، فشك ، وقال لا أدرى ؛ أهى السماء التى ذكرها الله فى كتابه ، وجميع ذلك أم لا ؟ ـ فلا يكون بذلك مشركا ، ولا كافرا ؛ إذا كان مقرا بأن الله الذى خلق هذا لا شك فيه ، ولا يدرى أهذه سماء أم غير سماء ؟ ، وهذه أرض أم غير أرض ؟ .

فإن قال لك : إن التوراة ، والإنجيل ، والزبور ـ لا أدرى هو من

عند الله ، أو من عند غيره ؛ بعد العلم ، وقيام الحجة عليه ـ كان مشركا يقتل إن لم يتب . ، فإن قال : لا أدرى ما فى يد اليهود ، والنصارى أهو من أنزل الله تعالى ـ على موسى ، أم لا ؟ إلا أنى لا أشك فى التوراة ، والإنجيل : أنهما من عند الله ، أنزلهما الله عليهما ـ فلا يكون مشركا ، ولا كافرا .

وإذا كانت المرأة حائضا ؛ فلم تعلم زوجها حتى وطئها ؛ فلا إثم عليه إن لم يعلم أن ذلك لا يجوز ، ولا يعذر بجهله .

ومن عاين مَن يدين لله تعالى بتحليل ما حرم الله عليه ، وتحريم ما أحل الله له ، فلا يسعه جهل كفره ، وضلاله ، وهلاكه ، ولا الشك فى ذلك .

وأما أن يعلم أن هذا المطيع مثاب ، وهذا العاصى معاقب ففيه اختلاف : منهم من يقول : فهو سالب حتى تقوم عليه الحجة ، ومنهم من يقول : إذا حسن فى عقله فعليه أن يعلم ذلك .

ومن عاين مرتكبا لصغيرة ، أو كبيرة مستحلا لذلك مما يسع جهل علمه ، ولا يسع ركوبه ـ والمعاين لا يعلم حرمة ذلك ـ فهو سالم ؛ ما لم يتوله حتى تقوم عليه الحجة بتضليله فيردها هنالك ، وأما إن علم حرمة حدثه ؛ فهو هالك ؛ إن لم يعلم ضلالته ، وقد قيل أيضاً إن من عاين مستحلا ، والمعاين لا يدرى حرمة الحدث .. إنه لا يسعه جهل ضلالته ، ومن علم بحرمة من المحارم بعد إقراره بالجملة ، فرأى من يستحل ذلك . فلا يكون موسعاً عليه أن يضلله ، وفيه قول آخر مضيق ، وأما من لم يعلمه عند حرمته ، فواسع تضليله ، وفيه قول آخر :

قال أبو محمد :

واختلفوا فيمن يعاين مستحلًّا يركب حراما على استحلال منه لذلك ، أو مُحَرِّماً يركب حراماً ، وهو محرم لذلك ، والمعاين لا يعلم حرمة ما ركبا ، وقال بعض : يسع من رآهما جهل ضلالتهما ، وغير مضيق عليه ما لم يتولهما ، ومنهم من قال : يسعه الوقوف عن المُحرم ، والمستحل لا يسع الوقوف عنه .

والعلة لمن قال بذلك : أن المستحل يضلل من خالفه ؛ لذلك فإذا أضلل من خالفه فيه ، ونصبه دينا ، لم يسع جهل ضلاله ، ومنهم من قال : يسعه ما لم يتوله، أو يبرأ ممن برىء منه ، أو يقف عنه .

ومن صلى فى ثوب يشف لم يسع جهل صلاته فيه ليلا كان أو نهارا ، ويلزمه البدل ، ولا كفارة عليه ، ولا يسع جهل جميع ما جاء عن الله — عز وجل — ، ولا يسع جهل ضلالة من ردّ ذلك ، أو بعضه ، ولا جهل تفسيره ؛ إذا ذكر ، وعرفوا معناه ؛ كما لم يسعهم جهل تفسير التوحيد إذا ذكر .

ومن ركب ما لا يسع جهله متعمدا بفعله من ركوب له ، أو تضييع مما يلزمه فى تعمده للكفارات — لم يعذر بجهله فى الإثم ، ولا فى الكفارة ، وتلزمه الكفارة ، والتوبة .

وعلى كل تعليم مالا يسع جهله . وقد روى عن بشير ؛ أنه مر على رجل نجار يقال له : محمد بن مهزم ، وهو حامل « قادوما » ، وقال له : لا تعمل بقادومك هذا شيئا حتى تتعلم مالا يسعك جهله ، فيجب تعليم العلم لما لا يسع

جهله ، ويلزمه التعهد به ، وروى عن بعض الفقهاء أنه قال : على الكل تعليم العلم ؛ لأنه ليس لأحد أن يعمل عملا إلا بعلم ، ولا يأكل ، ولا يشرب ، ويسمع ، ويبصر ، ويمشى ، وينظر ، وينكح ـ إلا بعلم ، فإن عمل بغير علم كان مخطئا ، لا يسعه ركوب ذلك ، وإنما وسعوا له مالم يركب ، إذا كان بعض المسلمين قائما بنقل الشرع .

ويسع جهل أداء الفرائض ؛ مالم يبتل بالعمـــل بها ؛ فإذا وجب العمل ، وحضر وقتها لم يسعه ذلك ، مثل : الوضوء ، والصلاة ، والزكاة ، والصيام ، والحج ، وكل ما حرم الله فعله ، وأكله ، وشربه من جميع المحارم ، فواسع جهل ذلك كله ؛ مالم يفعل ، ويركب شيئا منه ، وكذلك : سائر الطاعات . والمعاصى يسع جهلها ما لم يبتل بفعلها ، ويركب شيئا منها ويفعلها . ويسع قسم المواريث والحدود ، والقصاص ، وسائر الأحكام التى تشبه هذا ؛ ما لم تقم الحجة ، أو يحكم بغير ما أنزل الله ، أو يعطل شيئاً من حدود الله ، أو يعين على ذلك ؛ إذا قامت عليه الحجة بمعرفة ذلك ـ وجبت عليه ، وضاق الشك فيه .

وإن حكم بغير ما أنزل الله ، أو عطل شيئاً من حدود الله ، وأعان على ذلك هلك ، ويسع جهل ما دان بتحريمه ؛ ما لم يركب مثله ، أو يتولى من ركبه ، أو يبرأ ممن برئ منه الفقهاء أو يقف عنه.

وقال محمد محبوب (رحمه الله) : كل ما لم يكن فى كتاب الله له بيان ،

ولا فى سنة رسول الله (ﷺ) ولا فى إجماع العلماء ــ فواسع جهله .

وقال أصحابنا : إن المحرم واسع جهل كفره، والمستحل لا يسع جهل كفره، وبذلك جاءت الآثار إلا بشيراً ؛ فإنه قال : المستحل يسع معرفة جهل كفره لمن علم ما لم يقله .

وقال أبو محمد : وهذا أنظر فى باب الحجة ، لأنه لو رأى رجلا يركب فعلا لم يعلم ما هو : لم يكن له أن يحكم فيه بشىء بصواب، أو خطأ ؛ إلا أن يعلم صوابه أو خطأه ، وكذلك : لو رأى رجلين مرتكبين لفعل لا يعلم هو إباحته ، ولا حرمته ، فقال أحدهما : إن الله تعالى حرّم علىّ الذى ارتكبته ، وقال الآخر : إن الله تعالى أباح الذى ارتكبت ، والسامع : لا يعلم حكم الفعل ــ لكان الواجب أن يبرأ ممن ارتكب ما يُقر به : أنه حرام عليه ، ولا يبرأ ممن ارتكب مالا يعلم هو ما يبلغ به ، وإذا لم يعلم حرمته ؛ وإن علم حرمة ما ركب كان عليه أن يبرأ ممن ركب الحرام . والله أعلم .

وقال أبو الحسن : من ركب معصية ، أو أحدث حدثا لم يدْر ما هو مستحلٌّ له ، أو محرمٌ ، ولا ما يبلغ به فاعله ، ولم يسمعه يدعى فيه على الله فيه شيئا ؛ فإنه يسعه الإمساك عنه ، ولا يتولاه ، ولا يبرأ منه ؛ إذا لم يكن له وليا من قبل ؛ فإن قامت عليه حجة أن ذلك الشىء حرام ــ فعليه البراءة منه .

فإن علم أن ذلك حرام ، ولم يعلم أن من ركب مثل ذلك يبرأ منه ــ وسعه الوقوف ؛ إذا كان واقفا سائلا عن حكم ما يلزمه فيما قد صح معه من ذلك ؛

فإن أفتاه مُفْتٍ — بعد السؤال — أو قامت عليه الحجة بأن ذلك الشيء مكفر لراكبه، وأن البراءة واجبة عليه — فعليه البراءة من فعله، ولا يسعه الشك بعد قيام الحجة .

والذى يسع الناس جهله ؛ فعليهم إذا سمعوا به، وعرفوا معناه — أن يعتقدوا تعليمه، ولا شيء عليهم ؛ إن لم يعلموه، وإن اعتقدوا ترك التعليم — أثمــوا .

وأما مالا يسعهم جهله : فعليهم فعله، إذا بلوا به، وجب عليهم فعله فى حاله تعلموه أو جهلوه ؛ وإن تعمدوا ترك عمله ؛ قبل مجيء وقته — أثموا. وإن لم يتعلموه ولا اعتقدوا الترك، ولا حضر وقت العمل به فلا شيء عليهم ؛ كأنه عليهم أن يعتقدوا بعد العلم، إذا عرفوا معناه، وإن اعتقدوا الترك لعمله — هلكوا ، والسؤال لا يلزمهم، وإنما يلزمهم العمل بما يجب به إذا حضر وقته .

والاعتقاد لتعلم مالا يعلمونه من العلم إذا علموا أن العلم تعلمه فرض على الكافة، فقد وجب الاعتقاد لتعلمه، وجهلهم بفرض تعلمه : هو وقت له ، فأما مالم يلزم فعله فى وقت من الأعمال، فيجب فعله علموه، أو جهلوه .

والسؤال : إنما هو آلة التعليم فإن علموه بسؤال فجائز، وإن علموه بغير سؤال فجائز، ومجز لهم .

ويسع الوقوف فى الأطفال، لأنه مما يسع جهله، حتى يصح أمرهم، وكذلك الدّجال مختلف فيه : أثبته قوم، وأنكره آخرون، وهو مما يسع جهله ، وقولنا فيه، وفى غيره — قول المسلمين .

ويسع جهل معرفة الصلاة : فرائضها ، وسننها من تحريمها إلى تحليلها ، والوضوء ، مالم يحضر الوقت ، فإذا حضر الوقت : لم يسع جهل الوضوء ، ويسع جهل معرفة الطهارة ، وغسل الأنجاس ، وما يفسد الوضوء : مالم يركب شيئا يفسد عليه .

ويسع جهله معرفة القبلة ، ولبس الثياب الطاهرة فى الصلاة ، والصلاة فى البقعة الطاهرة ، والنية للصلاة ، وكذلك الغسل من الجنابة ، والحيض ، والاستحاضة ، والنفاس ، وما يجتنب فى الصوم، ويفسده ، وكذلك الكفارات فى العتق ، والصوم ، والطعم ، وكذلك علم ما يجب فيه الجــزاء والدم فى الإحرام .

[وكذلك] صلة الرحم ، وحق الجار ، والزوجات والأولاد ، والمماليك ، والجهاد فى سبيل الله ، والزنا ، وشرب الخمر ، وقذف المحصنات ، وتحريم الدماء والأموال، وتحريم الأمهات والبنات والأخوات والجدات والعمات والخالات ، وذوات المحارم من الرضاع والنسب .

وكذلك الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، وجميع المحارم كلها ، والربا والسلف، ووفاء المكيال والميزان ، وغير ذلك مما هو فى معناه مما حرمه الله ـ تعالى ـ فى كتابه ، ورسوله (ﷺ) كل ذلك : واسع جهل معرفته ما لم يحضر وقته ، ويجب العمل به ، أو يركب شيئا منه .

فإن حضر وقته ، ولزم وجوبه ، أو ركب محظورا منه ـ لم يسع جهله ، ولا فعله على علم ، ولا بخطأ ، ولزم العمل به على ما أمر الله فيه ـ إلا الميتة ،

والدم، ولحم الخنزير، وشرب الخمر، فإنه معذور فاعله ؛ فى حالة الاضطرار غير باغ ولا عاد . ؛ فهذه ــ جملة ــ تدل على غيرها لمن فهمها، وعرف معانيها.

والذى لا يسع الناس جهله هو الشرك بالله فما دونه مما حرم الله فى كتابه، ورسوله فى سنته، وأجمع المسلمون على تحريمه، فما لم يفعله هو، أو يتولى من فعله، أو يبرأ ممن فعله ــ فهو سالم، فإن فعله هو بجهالة،أو تولى من فعله بجهالة، أو برئ ممن فعله ــ فهو كافر كفر نعمة.

وكان حاجب بن مسلم يقول: يسع الناس جهل ما دانوا بتحريمه مما أوجب الله عليه العذاب على فعله، أو تركه، فما لم يعلموا، أو ينسبوا الإيمان لمن عمل ــ أن يكفوا عمن برئ منهم من العلماء على براءتهم ممن عمل، أو أثبت الإيمان لمن عمل؛ فهذا الإيمان الذى لا يسع من علمه جهل ما وراءه؛ حتى تقوم حجته. وقيل يسع من جهل الجنة، والنار؛ مالم يعلمه بهما أحد، وقول: لا يسع جهلهما، وقال أبو سعيد (رحمه الله) : إذا لم يعرف معناهما، ولا المراد به، فلا معنى للاسم، لأن الجنة والنار اسمان لغير الثواب، والعقاب من جنان الدنيا، ونار الدنيا اللتين ينتفع الناس بهما، ويتمتعون بهما.

فصل :

ولا يسع جهل الإيمان، وهو شهادة أن لا إله إلا الله، وأن محمدا رسول الله، والإقرار بما جاء من الله على لسان نبيه (ﷺ) وهى الجملة التى كان يدعو إليها رسول الله (ﷺ) ــ عدوه من المشركين، وهى جملتنا، وإليها ندعو عدونا

من المشركين . . . لايسعهم جهلها ، ولا يسلمون إلا بالدخول فيها ، كما لم يسعهم جهلها عند رسول الله (ﷺ) .

وقد يدخل في هذه الجملة تفسير أشياء لايسع الناس جهلها ؛ إذا ذكرت ، وعرفت معانيها ؛ ولكنهم لايدعون إلى تفسيرها ؛ كما يدعون إلى الإقرار بها، وعليهم علمها ؛ إذا ذكرت ، وفسرت، وعرفوا معانيها، وذلك مثل أن يعلموا أن الله واحد ، قادر قاهر ، ولا يسهو ، ولا يشبهه شيء ، ولا يغفل ، ولا تأخذه سنة ، ولا نوم ، وأشباه ذلك .

وما لم يذكر لهم هذا التفسير ، وأقروا بالجملة ؛ فواسع لهم ، وعليهم علم أشياء من تفسير الجملة : مثل ـ القيامة والبعث ، والحلال والحرام ، وضلالة الناقض لما قد عرفوا أنه قد جاء من الله ؛ مما قد أمر به ، أو نهى عنه .

فهذا كله لايسع جهله إذا ذكر ، ويجزى الإيمان به في الجملة ؛ مالم يجئهم هذا التفسير ؛ فإذا سمعوه ، وعرفوا معانيه لم يسعهم جهل علمه ، ولم يسعهم ضلالة من رد ذلك العلم عليه ، ونقضه عليهم ؛ لأن في جملة ما أقروا به لايسعهم جهله ، ولا جهل تفسيره ؛ إذا ذكر ، وعرف معناه .

وما وراء ذلك يسع الناس جهله إلى أن يلزمهم الله فعل شيء ، أو تركه ؛ فلا يفعلون في الحال التي أوجب الله عليهم فيها فعله ، أو يتركون في الحال التي أوجب الله عليهم فيها تركه .

وجعل الله عليهم أشياء يسعهم جهلها ما لم يقولوا على الله فى حال جهلهم على الله بكذب؛ فيحلوا فيه حراما، أو يحرموا فيه حلالا، وتلقاهم الحجة فيه من الله، فيردوها ، فلا يؤمنون بها ، أو يفعلون مانهاهم الله عنه .

لأنهم ، إذا كانوا جهالا بما نهاهم الله عنه ، فعليهم الوقوف ، والكف عنهم ، مالم يتقولوا على الله فى حال جهلهم شيئا يحلون به حراما ، أو يحرمون فيه حلالا ، أو يلقون الحجة ، فيخبرهم عنه ، ولم يقعوا بالفعل الذى نهاهم الله عنه ، وعليهم الكف عنه ، فذلك واسع لهم جهله . والله أعلم ، وبه التوفيق .

* * *

القول الحادى والأربعون

فى بيان ما يسع جهله ، ومالا يسع جهله

وقيل : كل مالا يسع جهله ، من معرفة التوحيد، وتصديق الوعد والوعيد، وأمثال هذا، وما يتولد منه ـ فالحجة فيه تقوم عند ذكره ممن ذكره، أو خطر بباله أحد ، وعرف معناه ، وأحواله ، فعليه علم ذلك ، ولو لم يعـــبر له ذلك معبّر .

فإن لم يعلم ذلك من حين ما يذكر له ، أو يخطر بباله ، ويعرف معناه ـ هلك بذلك ، ولم ينفس فى السؤال عن ذلك العالم ، ولا الجاهل ، وما عدا ذلك من علم الفرائض اللازمة ، فإذا حضر وقت ذلك ، ولزم العمل به ، ضاق جهله على جاهله، إذا وجد من يعبر له علم ذلك ، وكان بأرض متصلة بمن يعبر له علم ذلك .

فإن لم يحضره من يعبر له علم ذلك ، وقد علم ذلك فى وقت وجوبه ، ولم يعلم تفسير ذلك ، وتأديته على وجهه ـ كان عليه أن يؤدى ذلك الذى قد علم بحضور فرضه على مايحسن فى عقله ، ويعتقد السؤال عن علم عبادته ، حتى يؤديه على وجهه .

فإذا لقى من يعبر له ذلك ، فعبّر له ـ كان حجة عليه ، ولم يجز له أن يجهل ذلك بعد علمه ، ولا مرجع إلى الشك فيه :

وإن لم يعرف وقت حضور ذلك الفرض ؛ فعليه اعتقاد الدينونة بالسؤال

من وقت حضوره ، وتفسيره معاً ، وعليه أن يؤدى ذلك ؛ إذا علم فرضه بما يحسن فى عقله ؛ أنه وقته الذى يجب فيه .

ويسأل عن ذلك كل من قدر عليه ؛ فإذا لقيه من يدله على ذلك كائناً ما كان من الناس ؛ فأوقفه على ذلك ـ لزمته الحجة ، وذلك مثل : أوقات الصلاة ، وأوقات الصوم ، والعمل فى ذلك .

فإن جهل وجوب الصلاة والصوم ، وجهل وقتهما ، وجهل تفسير العمل بهما ، ولم يجد من يخبره بذلك ويعبره ، ولم يكن قد تقدم علم ذلك إليه ؛ فإن حسن ذلك فى عقله ـ أن عليه فى دين الله تبارك وتعالى ، ودين رسوله محمد (ﷺ) إلى خلقه فيما تعبده الله به ـ عملًا بالأبدان : أدى ذلك على ما يحسن فى عقله ؛ ولم يكن هالكا بجهل ذلك ؛ إذا لم يتقدم عليه علم ذلك ، ولم يسمع بذلك ؛ حتى وجب وقته ، وحضر وقت العمل به .

فإن حسن ذلك فى عقله ؛ عملا فى دين الله ـ تبارك وتعالى ـ فى وقت من الأوقات ؛ قد حسن ذلك أيضاً فى عقله ، فعمل ذلك بما يحسن فى عقله ـ فليس عليه غير ذلك ؛ إلا أنه يدين بالسؤال عما يلزمه فى دين خالقه من جميع ما تعبده به .

وإن قدر على الخروج فى طلب علم ذلك ، وحسن فى عقله أنه يجد من يدله على ذلك ، وكان قادراً على الخروج بأمان من الطريق ، وصحة من البدن ، وزادٍ يأمن به على نفسه من العطب ، وراحلةٍ يأمن بها على نفسه من التعب ،

وما يدع لمن يعوله ، وما يقوم بهم إلى رجعته ـ كان عليه الخروج إلى تعليم ما لا يسعه جهله ، ولا يسلمُ إلا بعلمه من دينه .

ولا يكون سالما إلا باعتقاد السؤال عنه إذا لم يجد من يعبّره له بحضرته ؛ فإذا وجد من يعبره له كائناً من كان ـ قامت عليه به الحجة ؛ فإنما عليه الخروج فى التماس الدين فى الواجبات التى يهلك بها ، إذا لم يُدن بالسؤال عنها عند عدم المعبر لها .

وأما كل ما لم يكن تعبير الواحد عليه حجة فغير مقطوع العذر عن الخروج فيه ، وكل ما لم تقم فيه الحجة من تعبير البار والفاجر ، والمؤمن والكافر : فالسائل عنه منفس له فى السؤال ، وليس عليه فيه خروج ، ومن ألزمه الخروج فيما لا يلزمه فيه الخروج فقد ألزمه ما لا يلزمه ، ومن ألزم الناس ما لا يلزمهم ـ فلا عذر له .

فإذا أدى ما قد حسن فى عقله لزمه فى وقت ، قد حسن فى عقله وجوبه على ما حسن من تفسير ذلك فى عقله ، ودان بالسؤال عن ذلك فى ذلك الوقت، ولم يكن تقدم إليه علم ذلك : من أثر ، ولا خبر ، من بار ولا فاجر ، ولا متقدم ولا مستأخر ـ فهو سالم ، وعليه التماس علم ذلك بالخروج؛ لتأدية ذلك على وجهه.

فإذا علم ذلك على وجهه ؛ فإن كان قد أدى ذلك على وجهه ـ ولا عاقبة وقد وفّقه الله ؛ فإن كان قد أدى ذلك على غير وجهه ـ فهو سالم من الهلكة فى ذلك على كل حال ، وعليه تأدية ذلك على وجهه ؛ إذا وجد علم ذلك بعبارة

المعبرين له ، فيما يستقبل من أمره ، وبَدَل ذلك فى أكثر قول أهل العــلم ، وليس بالمجتمع عليه ، وذلك فى تأدية ذلك البدل . وأما تأدية ذلك فى المستقبل؛ بعد علم ذلك على وجهه ـ فلازم .

وليس له أن يرجع عن علم ذلك : علمه من بار أو فاجر ، أو مؤمن أو كافر .

وإن لم يحسن فى عقله فى دين خالقه : أن عليــه عملا بالأبدان ، وأقر له بالربوبية ، ودان ، ووحّد الله بصحيح ما خطر بباله من صحيح التوحيد ، وأقر بما يخطر بباله من أحكام الوعد والوعيد لأهل الطاعة والمعصية ـ فعليه اعتقاد الدينونة بالتماس جميع ما يلزمه فى دين الله ، وما يجب عليه فى دين خالقه بالوعيد لتركه ، وما يجب له فى دين خالقه الوعد ليؤديه ؛ فإذا دان بهذا الدين ، واعتقد بهذا الاعتقاد ، ولم يجد معبرا يعبر له شيئاً يقوم عليه به الحجة ـ فهو سالم ، ولو لم يؤد لله فريضة ، ولم يترك محرما .

لذلك : عليه أن يترك من الأشياء ما حسن فى عقله أنه محجور عليه فى دين خالقه الذى تعبّده به ، وعليه فى اعتقاده أنه راجع إلى الله من جميع ما ترك من دينه الذى تعبده بالعمل به ، أو جميع ما تعبده بتركه ؛ فارتــكبه بجهله .

فإذا دان الجاهل فى هذا ومثله بالسؤال ، ولم يدن مع ذلك فى شىء من أموره بدين ضلال ، ولم يصر فى اعتقاده على معصية الله تعــالى . ولو جهلها : فهو سالم فى هذا الباب الذى لايسعه جهله من الأعمال بالأبدان

أبدا ، ولو مات على ذلك من غير أن يؤدى لله فريضة ، أو يترك لله محرما ، ولو عاش على ذلك مائة ألف سنة بالغ السن صحيح العقل ؛ إذا عدم المعبرين له فى جميع مالا تقوم الحجة فيه إلا بالسماع فى دين الله .

فهذا أصل جامع لجميع الفرائض الواجبة من الله ، المتعبد بها عباده بالأبدان، وقد تختلف معانيها ، ومعانى وجوبها ، ووجوب عملها ، وإن وجب وقت فرضها ووجوب فرضها ، وإن وجب علمها ، وتفسير ذلك يطول .

غير أنه : على كل حال لزمه العمل فيه بفريضة من فرائض الأبدان ، وأى حال لا يسع جهل علمه مع العمل له فى ذلك الوقت ، فجهل ذلك بوجه من وجوه الجهل الذى لا يكون به مؤديا لذلك الفرض ، ويكون بجهله مضيعاً له ، فجهل ذلك العمل ، وعَلِم المعبرين له ذلك العلم من أعمال الأبدان - فهذا حاله وسبيله .

وقد مضى تفسير ذلك ، ولا نعلم فى ذلك اختلافا بين أحدٍ من علماء المسلمين البصراء ، بأحكام ما يسع جهله ، وما لا يسع جهله من الدين .

فصل :

فيما يسع جهله بالترك عن المحارم ، وارتكابها ، وصفة قيام الحجة فى ذلك من المعبرين .

وأما غير الفرائض اللازمة بالأبدان من الأعمال ؛ إلى الانتهاء عن المحارم، وارتكابها بالأبدان - فواسع له جهل علم ذلك ؛ ما لم يركبه بعد العلم بتحريمه ، أو يكون مصرا فى اعتقاده فى حال جهله بالحرام على ما ارتكب .

فإذا لم يصر على ما أتى من المحارم ، ولم يتقدم إليه علم ذلك من أحد من الناس ، كائن من ذلك ما كان ، ولم يدّع على الله فيه كذبا ، ولم يدن فيه بباطل فهو سالم ، وإن ارتكب الحرام ؛ إذا عدم المعبرين له ذلك ، وما يفرق فيه بين الحلال والحرام .

فإذا لقيته الحجة ، فأخبرته بذلك كائنا ممن كان ، وقد أتى شيئا من الحرام على الجهل : بقول أو فعل ، وكان فى ذلك غير معذور ؛ إلا من طريق العبادة له فهو سالم ؛ ما لم يلق من يعبر له .

ولو كان مرتكبا لما لا يسعه فى الأصل ؛ إذا وجد المعبرين مما لا تكون فيه الحجة إلا بالسماع ، فإذا لقيته الحجة ، فعبرت له ذلك كائنا من كان من المعبرين : من صبى ، أو مشرك ، أو معتوه أو وجد ذلك فى أثر مرسوم . فإذا وجد علم ذلك من أحد هذه الوجوه ـ فعليه علم ذلك فى حين ذلك ، وعليه التوبة منه بعينه فيما مضى ، وقد قامت عليه الحجة فيما ركب لله من المحارم : أن يرجع عنها بعينها ، وكان فى هذا الموضع عليه التوبة مما تقدم منه من ارتكاب المحارم ، والمآثم لاحقا بالحجة فى تأدية الفرائض الواجبة فى الأبدان بالوقت ، وعلى المكان . وأما فيما يستقبل : فلا يكون عليه علم ذلك حجة فى علم تحريمه فى الاعتقاد ، وعليه الانتهاء عنه فيما يستقبل وقد قامت عليه الحجة بالعبارة فى الترك .

وإن كان لا تقوم عليه حجة بالعلم فيما يسعه من جهله ؛ ما لم يركبه ، فله

ركبه فى الجهل له، وعدم المعبرين له تحريم ذلك - كانت التوبة فى الجملة من جميع المعاصى ، للعُصَاة - مجزية له مع الدينونة بالسؤال فى الجملة عما يلزمه يجزيه عن ذلك الذى قد ركبه بعينه من الحرام ؛ حتى يخرج منه بالتوبة بعينه ؛ فإذا عبر له معبر كائنا ممن كان لزمته الحجة بذلك فيما قد لزمه من ذلك الركوب الذى قد ركبه بعينه .

وإن لم تقم عليه الحجة بعلم ذلك الذى كان فى الأصل واسعا له جهله ؛ ما لم تقم عليه الحجة من المسلمين ، لأن حجة الإنكار ، والانتهاء غير حجة العلم ، واعتقاد العلم ، وعليه فيما يستقبل ؛ ألا يركب ذلك بعينه ، وإن ركبه بعينه : كان عليه التوبة منه ، ولا تجزيه التوبة منه فى الجملة ؛ كما قد كان واسعا له فى التوبة عن الجملة عند عدم علم ذلك ، أو تقوم عليه الحجة من قول المسلمين ممن هو حجة عليه فيما يسعه جهله من الدين .

وعلم ما يسع جهله بالدين : يقوم بالواحد من علماء المسلمين الظاهر له بالعلم بالشهرة ، والصدق ، والأمانة فيما هم فيه من العلم ، والقيام بحجة الله على أكثر القول من المسلمين ، وليس بالمجتمع عليه فى الدين .

وما لم تقم عليه حجة العبارة ممن كان من المعبرين ، ولم يرتكب شيئا مما يسعه جهل علمه ، بما دان بتحريمه فى إقراره بجملته ؛ مما يدخل فى جملته التى دان بها ، وأقر بها ، وسلم بها من الهلكة - فلا يقع عليه ضيق بجهل شىء من ذلك ، ولا تلزمه دينونة بسؤال عنه بعينه ؛ إلا ما لزمه من الدينونة بالسؤال

عن جميع ما يلزمه علمه ، فذلك خارج منه هذا الذى جهله مما لايلزمه علمه على الانفراد أبدا ؛ إذا دان بالجملة ؛ مالم تقم عليه حجة أهل العلم من المسلمين ، أو يصح معه علم ذلك بوجه من الوجوه بصحة العلم .

فإذا بلغ إلى علم ذلك بأى وجه ، وقامت عليه حجة المسلمين ـ لزمه علم ذلك ، ولم يسعه الرجوع إلى الشك بعد العلم ، أو بعد قيام الحجة التى هى حجة من علماء المسلمين ، ولا يلزمه دينونة السؤال عن هذا الوجه كله ، ولا عن شىء منه بعينه ؛ فإن ألزم نفسه الدينونة بالسؤال عن هذا باعتقاد الدين منه بذلك ـ كان بذلك هالكا إذا دان بغير ما تجوز له الدينونة .

وكذلك إن ألزمه أحد الدينونة بالسؤال عن هذا الوجه ، أو عن شىء منه ـ كان بذلك هالكا ، وكذلك إن ألزمه السؤال عن ذلك ، ولم يوسع له إلا أن يسأل عن ذلك ، فقد ألزمه مالا يسعه أن يلزمه . وكان بذلك هالكا .

وإن أمره آمر بالسؤال عن شىء من هذا الوجه الذى يسعه جهله ؛ مالم يركبه ، أو يتولى راكبه ، فأمره آمر بالسؤال عن ذلك على وجه الفضيلة ، والوسيلة ؛ لا على الوجوب والفريضة وسعه ذلك، وكان ذلك جائزا له، وكذلك إن سأله هو عن ذلك ، وطلب السؤال عنه ، واجتهد فى السؤال عما يسعه جهله من الدين من غير أن يلزم نفسه الدينونة بذلك ـ فذلك جائز ، وهو مأجور فى ذلك .

ولا تقوم عليه حجة فى كل شىء يسعه جهله ؛ بأحد من ضعفاء المسلمين :

قلُّوا أو كثروا ؛ وإنما تقوم عليه الحجة بالعلماء فى الدين من المسلمين فيما يسعه جهله من الدين لا بضعفاء المسلمين ؛ إلا أن يعبر الضعيف من المسلمين فيما يسعه جهله من جميع الدين عن أحد من فقهاء المسلمين المشهورين فى الدين الذين تقوم بهم الحجة فيما يسع جهله .

فإذا عبر الضعيف من المسلمين شيئا مما يسع جهله فى الدين عن أحد من فقهاء المسلمين بعبارة كافية عن تفسير لا يفسر ذلك بشىء من عنده ؛ وإنما يحكى ذلك عن العالم ـ وهو ثقة مأمون على ذلك الذى رفعه : فقول : إنه حجة فى ذلك على من عبر ذلك ، وتقوم بذلك الحجة ، وقول : لا يقوم بذلك حجة ، ولا يلزم قبول قوله : ولو كان ثقة من المسلمين مأمونا ، حتى يكون مأمونا على نقل العلم والدين ، لأنه ليس كل من كان ثقة من المسلمين ـ كان له بصر فى نقل الدين ، والحفظ له عن علماء المسلمين .

ولكن ؛ إذا كان ثقة من المسلمين مأمونا على ما حمل ؛ لأنه لا يتهم فى ذلك بتكليف من عنده لإصلاح ما يرويه من حفظ ، ولا يتهم بتحريف ما يرويه ويحفظه ؛ فإذا لم يتهم بتحريف فى ذلك وبتكليف ـ كان فى ذلك حجة بمنزلة العالم الفقيه ؛ إذا روى ذلك عن الفقيه المعروف الذى هو حجة .

وقول : لا يكون حجة ، ولا يلزم قبول قوله إلا من أبصر عدل قوله ؛ حتى يكون مأمونا ثقة من المسلمين ، ويكون له نظر من ذات نفسه ؛ يعرف بذلك النظر من ذات نفسه من الزلل عن نقصان الحروف التى يرفعها ، والزيادة فيها ، ويكون له رأى من نفسه يحجزه عن الزيادة والنقصان فى ذلك ، ويفرق

بين الحق والباطل ، وهذا هو بمنزلة العالم . فهذا الذى عرفنا من الحجة فيما يسع جهله ، وما لا يسع جهله فى الفتيا فى هذه الوجوه من المعبرين .

وأما ما يكون فيه الفرض بالعمل ، والانتهاء بالأبدان ، والتقوّل على الله فيه بالكذب والباطل ؛ باللسان مما يسع جهله ؛ ما لم يضيع لازما ، أو يركب محرما ، أو تقوم عليه الحجة بذلك ، وعلمه ، أو يتولى راكب ذلك ، أو مضيعه ، أو يقف عن أهل العلم من المسلمين ؛ إذا برئوا من راكب ذلك ، أو مضيعه — فلا يلزم فى هذا الوجه سؤال بالدينونة ، ولا باللازم ، ولا يلزم خروج فى هذا الوجه على كل حال فى التماس علمه بالدينونة ، ولا يسع أحداً أن يلزم ذلك ؛ إلا أن يأمره بذلك من وجه الفضيلة والوسيلة ؛ فلم يجد لهذه البدعة ، ولا لهذه الفتنة مخرجا من مخارج الحق من هلكة الآمر بها ، وضلاله .

لأنه إن كان يأمره فى ذلك بالخروج فيما لا يسع الخارج جهله — فهو كاذب بقوله : إنه ليس بحجة عليه ، وهو حجة عليه ، قد أقام الحجة عليه ، وإن كان يأمره بالخروج فيما يسعه جهله ؛ فلا يكون عليه فى ذلك سؤال لازم ، ولا خروج لازم ، ولا يجوز له أن يلزمه ما لا يلزمه ، وهو هالك بذلك ؛ إذا ألزمه ما لا يلزمه . وإن كان مما لا يسعه جهله ، وكتمه علم ما لا يسعه جهله ، وأمره بالخروج إلى من يقيم عليه الحجة ، فهو هالك لكتمانه لعلم ما لا يسعه جهله ، وما تقوم عليه الحجة من قوله ؛ لأنه حجة لله عليه — فهو هالك بترك ذلك من عبارته لمن جهله ، وإقامة الحجة لله عليه .

وإن كان هذا الذى يأمره بالخروج فيما لا يسعه جهله فهو حجة عليه ، وهو حجة عليه فيما لا يسعه جهله ، وإذا قال له : إنه ليس عليه حجة ـ فقد كذب إذ قال : إنه ليس بحجة ـ فهو حجة ؛ فلا مخرج لصاحب هذه البدعة ، وصاحب هذه الفتنة عندنا من المِلكة ؛ فلذلك لم نجز لأنفسنا عليه سكوتا ، وألزمنا أنفسنا إنكارها على صاحبها ابتغاء وجه الله فيمن يلزمه ذلك ، وإقامة الحجة لله عليه ، وصارت هذه البدعة معنا فيما صار الأغلب من أهل [هذا] الزمان عليها من أهل الفتنة ـ تضاهى فتنة نافع بن الأزرق ، وجميع من انتحل الهجرة من الخوارج على أهل دينه ، ونحلته ، ولم يعذرهم دون الهجرة إليه إلى موضعه.

وإن كانت الهجرة أوضح علة ، لأنها قد كانت لازمة فى أيام النبى ﷺ غير أنها منسوخة ، ولا عذر لمن جهل نسخها ، ولا لمن يعمل على انتحالها على علمه بنسخها .

والأثر الصحيح : أن على المكلف الخروج فى طلب دينه مما قد لزمه معرفته مما لا يسعه دون علمه ، وعَدِم المعبرين له الذين يعبرون له ذلك ، فإذا عدم المعبرين له ذلك ـ لزمه الخروج من القدرة على حد ما وصفناه فى وجه ما ذكرنا مما لا يسعه جهله إلا بالدينونة بالسؤال عند عدم المعبرين له على كل حال ، مما يكون مضيعا لفريضة ، أو مرتكبا لكبيرة على الجهل منه بلزومه ، وتحريمها ، وقد مضى تفسير ذلك .

وقال جابر بن زيد (رحمه الله) : يسع الناس جهل ما دانوا بتحريمه ؛ مالم يركبوه ، أو يتولوا راكبه ، أو يبرأوا من العلماء ؛ إذا برئوا من راكبه ، أو يقفوا عن العلماء إذا برئوا من راكبه .

والأمر المجتمع عليه من قول أهل العدل : أن كل ماعدا أمر التوحيد ، والوعد والوعيد ، وما تولد فى ذلك من تفسيره ، وما هو لاحق به ، فإن الحجة لا تقوم فيه إلا بالسماع ، ولا يدرك العلم به إلا بالسماع ، ولا يقطع الله عذر الجاهل فيه وله إلا بعد قيام الحجة عليه بالسماع ، ولهذا تفسير يطول .

فإن قال قائل : فقد لحق حكم الاستحلال بحكم مالا يسع جهله بعد السماع من العالم بذلك : أن الحرام الذى استحل بالدينونة حرام ، وأن الحلال الذى حرم بالدينونة حلال من طريق الدين ، فلم تقم الحجة فيه إلا بالسماع .

والعالم أن المستحل حراما فى الدين ، والمحرم حلالا فى الدين مع أن ذلك ليس مما يجتمع فى الدين أن الجاهل له هالك مالم يبلغ إليه علم ذلك ، فلا يلحق ذلك إلا بالسماع وبعد العلم ، ولم يلحق ذلك أيضا بالإجماع فى الدين ، وأما التوحيد ، والوعد والوعيد فلاحق بصفة الله - تبارك وتعالى - ولا يجوز جهل توحيد الله تعالى ، ولا صفته ، إذا خطر ذلك بالبال ، أو سمع بذكر ذلك ، وعرف معانى ذلك الخاطر بباله ، أو السماع بذكره .

ويقال له : إن كان الذى يأمرونه به من الخروج فيما قد قامت عليه الحجة ، وهم كاذبون أنهم ليس بحجة عليه ، وهم يزعمون أن الحجة تقوم عليه من طريق العقل ، فإذا قامت عليه الحجة فى ذلك من طريق العقل ، فالعبارة من المعبرين أولى وأجدر أن تقوم بها الحجة ، وهم بذلك كاذبون ؛ أنهم ليس بحجة ، ويخرج يطلب الحجة ، فهذا مما ينقض بعضه بعضا ، أن يكون محجوجا ، ويطلب الحجة ! ! وهو هالك بالحجة ، والحجة قد قامت عليه .

مع أنه لا يجوز فى العقول أن يلزم أحدا فى دين الله أن يطلب على نفسه قيام الحجة ، حتى يكون محجوجا على كل حال ، وإنما عليه أن يطلب علم ما يسلم به من الحجة التى قد لزمته حمله ، ويخرج إلى الحجة من السلامة من الحجة إلى ما تقوم عليه الحجة به ؛ هذا باطل لا يجوز فى حكم الحق ، ولا فى أحكام حجج العقول ، وهذا أيضاً من تأويل الضلال الذى يتأوله على ضعفاء المسلمين ؛ نعوذ بالله من الفتنة ، ومن الضلال .

وإنما يكون عليه حجة قول الفقيه العالم من المسلمين ؛ فيما يكون فيه سالما عند الله بجهل ما يسعه جهله فى دين الله ؛ حتى تقوم عليه الحجة ، فإذا قامت عليه الحجة ـ كان عليه أن يصدق الحجة ، و [إلا] خرج من باب السعة إلى الضيق ؛ فإن صدق الحجة ، وقبل الحق ـ فقد خرج من الضيق إلى السعة بقبول الحجة ؛ فإن شك فى الحجة بعد أن تقوم عليه : هلك ، وهلك ، ودخل فى الضيق .

فكيف يقوم فى العقول ، أو فى دين الله ـ تبارك وتعالى ـ أن يلزمه أن يطلب كيفية ما يخاف على نفسه به الهلكة ؟ مع الوصول إليه ؛ إذا لم تقم به ؟ وقد كان له السعة فى دين الله ما لم يصل إليه ؟ ، والله ـ تبارك وتعالى ـ قال : « وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِى الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ » ، وقال ـ تبارك وتعالى ـ : « لا يُكَلِّفُ اللهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا » ؟ .

فصل :

وقيل : ما يُلزم الناس الخروج فى طلب ما يسعهم جهله ، ويكلف ذلك المتعبدين البالغين أصحاء العقول بمنزلة من كلف الناس الخروج إلى حج بيت الله

الحرام من غير استطاعة ، وقال لهم : إن الله قد أوجب على الناس حج بيت الله الحرام ، وعليكم أن تخرجوا إلى حج بيت الله الحرام، ولم يذكر لهم الاستطاعة.

وإنما فرض الله حج البيت الحرام على من استطاع إليه سبيلا ، كذلك ألزم الله — تبارك وتعالى — العباد علم ما لزمهم علمه من دينه الذى قد ألزمهم تأديته إليه ، ولا يجوز فى العقول غير هذا ، ولولا ذلك كذلك — لم تجز ولاية أحد بحال ، ولا وجب له اسم الإيمان ؛ حتى يعلم أنه قد علم جميع دين الله من أحكام الكتاب والسنة والإجماع ، وهذا هو الصحيح من المحال ومن قال بهذا فقد قال بالزور والضلال ، بل الإجماع من أهل العلم من المسلمين أنه : بنفس الإقرار فى الجملة من التوحيد : مسلم مؤمن مستحق لولاية الله تعالى ؛ ما لم يأت منه ؛ ما لم ينقض ذلك بشك فيما لا يسعه الشك فيه ، أو بارتكاب ما لا يسعه ارتكابه من قول ، أو عمل، أو نية ، أو بتضييع ما لا يجوز له تضييعه من قول أو عمل أو نية .

فإذا وقع الإجماع على سلامته ، وإيمانه ، وولايته بنفس الإقرار بالجملة — انتقض بحمد الله هـذا القول ممن قال به ، وكان قوله الشقاء على ما ذكرنا ، ووصفنا ، وجاءت به آثار أهل العلم فيما يسع جهله ، ولا نعلم فى هذا اختلافاً بين أحد من أهل العلم من المسلمين .

وقد جاء الأثر الصحيح عن النبى (ﷺ) أن تعلم العلم فريضة ، وفى موضع ؛ إن طلب العلم فريضة على كل مسلم ، وذلك صحيح لا شك فيه .

غير أن ذلك خاص فى موضع ، أن طلب العلم فريضة يلزم العلم له ؛ ولا يلزم العلم له ؛ إلا فى موضع ما يلزم التعبد به من قول ، أو عمل ، أو نية ، ومثل هذا فى التأويل — ما جاء فى الأثر : أن الحج فريضة ، والصلاة فريضة ، والصيام فريضة ، وذلك صحيح ، ومن ردّ من ذلك شيئا — فقد رد الحق ، وقال الباطل ؛ ولكن ذلك خاص ، وعام ، ففرض الحجّ يخص من استطاع إليه سبيلا ، وليس بفرض على من لم يستطع ذلك ، والصلاة فريضة على الرجال ، والنساء الطواهر ؛ حرام على الحوائض [و] فى سنة رسول الله (ﷺ) وعلى النفساء من النفساء » . . . ؟

وكذلك الصيام فريضة على المسلمين الحاضرين ، ومخيّر فيه المسافرون من الأصحاء الأبدان ، وكذلك المريض الحاضر ، والمسافر مخير فى الصوم والإفطار ، وهو على النفساء ، والحائض حرام ، والزكاة فريضة على من وجبت عليه فى ماله .

وقد جاء فى الإطلاق من الأثر ، والإجماع — أن يقال : إن حق الله كله فريضة ، وإنما هو من خصه ذلك فى حين ما يخصه ، ولا نعلم فى ذلك اختلافا .

فصل :

وإذا تأتى على العبد حالة كان فيها مقرا بالجملة من التوحيد ؛ عالما بمعانيها التى تلزمه فى وقت ذلك ، وساعته تلك — فهو سالم من الهلكة ، وهو مسلم مؤمن عالم واسع له الإقامة ، والقعود على جهله ما سوى ذلك من العلم بالدين .

ولم يكن له ، ولا عليه أن يعتقد السؤال ، والدينونة بعلم ما سوى ذلك ، ولا عليه أن يخرج فى طلب علم ما سوى ذلك ؛ ولو كان ذلك فى أيام النبى (ﷺ) ، [أ] وكان ليله ونهاره عند النبى (ﷺ) ، [أو كان] فيما دونه من العلماء الأخيار الصادقين الأبرار .

[هذا] مالم يضيع بعدُ علمَه بالجملة ، ومعانيها ، أو مايدخل فيها من معانى التوحيد ، والوعد والوعيد ـ شيئا من ذلك يجحد منه لذلك ، أوشك منه فى ذلك ، وعَلِمَهُ ، أو عَلِمَ مَعانيه ، أو يضيع فرضا ؛ حتى يفوت وقته الذى تعبده الله به فيه ، لايسعه تركه إلى غيره بجهل ، ولا بعلم إلا بعذر ، أو يرتكب محرما تعبده الله بالانتهاء عنه بغير حجة تسعه من زوال غيره ، أو ضرورة إلى ذلك فيما يسعه الاضطرار إليه ، أو تقوم عليه الحجة بوجه من وجوه الحج التى تقوم عليه من المعبرين له أمْرَ الدين الذى لم يلزمه العمل به ؛ فيضيّعه ، أو يلزمه الانتهاء عنه ؛ فيرتكبه ، أو تقوم عليه الحجة بعلم شىء من الدين فيشك فى حجة الله تعالى ـ التى ما بعدها حجة .

وإذا كان مِنْ أحدِ هذه المعانى ـ كان هالكا بذلك ، ناقضا لحكم ما أقر به من جملته التى كان معتصما بها من الهلكة ، عالما بها من الجهالة ، مهتديا بها من الضلالة ، موحدا لها من الشرك ، مؤمنا بها من الكفر ، صادقا بها من الكذب .

وصار من أتى من ذلك كافرا كاذبا جاهلا ضالا ـ تعبده الله مع ذلك بالتوبة

من ذلك، والرجوع مما دخل فيه من الكفر إلى الإيمان، ومن الجهل إلى العلم، ومن الكذب إلى الصدق ، ومن الضلال إلى الهدى .

فإذا تاب من ذلك الذى ركب ، ورجع مما لزمه ، أو العمل بما لزمه العمل به ، إذا كان مما يلزمه مراجعة العمل به فى دين الله : رجع إلى حالته التى كان فيها، وكان على تلك الجملة التى كان عليها بتوبته من مخالفتها، أو رجوعه إليها .

هذا مما لا نعلم فيه اختلافا فى أصول دين المسلمين فيما اجتمعوا عليه مما يسع جهله ، ومالا يسع جهله من أصول الدين .

فصل :

وكل من الدين تعبد الله نبيّه (ﷺ) ، وأرسله به ، وتعبد به المسلمين ، وجميع العلماء فى الدين .

وفى الأصل : الذى أقر به هذا المقر بالجملة التى ذكرناها ، فهو داخل فيها غير خارج منها ، وبإقراره بالجملة — قد أقر بالدين كله، وبعلمه بالجملة — قد علم جميع ماتعبده الله به من العلم فى دينه .

فإذا لم تكن الجملة عاصمة له عن الهلكة من جميع ماتعبده الله به فى الجملة — لم يجز أن يكون بذلك مسلما مؤمنا ؛ فهو مسلم ، وليس عليه تعليم شىء من دين الله : غير الجملة ؛ حتى تلزمه ماسوى ذلك .

فإذا جاز أن يكون عليه تعليم بعض مالم يلزمه تعليمه من دين الله على الانفراد ، ولم يجز به فى الجملة — جاز أن يكون عليه تعليم جميع علم دين الله ؛

وإذا جاز هذا ـ جاز أن يكون فى دين الله مالا يطيقه العباد المكلفون له؛ وإذا جاز هذا ـ جاز أن تكون الجملة لامعنى لها ، وخرج هذا من حجة العقل ، لأن الأنبياء ، والمرسلين ، والملائكة المقربين ـ لا يبلغون إلى جميع علم الله الذى هو فى مكنون علمه ؛ إلا بما شاء أن يعلمهم منه ، وقتا بعد وقت ، وحينا بعد حين .

ولجاز أن يكون كل من تعبده الله بدينه عالما ؛ فى حين ما تعبده الله بجميع ما قد علم الله من أمر دينه الذى قد سبق فى علم الله ؛ أن سيعلمه ، ويتعبدهم به ، وهذا من المحال أن يكون فى دين الله ـ تبارك وتعالى .

فصل :

فإن قال قائل : فإذا جاز ألا يتعلم علم الوضوء للصلاة ، ولا يتعلم حدود الصلاة ، ولا تفسيرها ، وكان ذلك موضوعا عنه فى قولكم ، وموضوعا عنه علم وجوبها فى وقتها ، وجميع أمورها ؛ حتى يحضر وقتها ؛ فإذا حضر وقتها ؛ فى اللازم له من أمر دينه فيها من العلم لها ؟

قيل له : إذا حضر وقت الصلاة ـ حضر تعبد الله عباده بأدائها فى وقتها ذلك الذى قد علمه الله ، وأعلمه أهل دينه الذين هم حجة على من هو مثلهم من المتعبدين من عباده ، وكان هذا المتعبد بذلك صحيح العقل بالغ السن ، بحضرته أحد من المعبرين ممن يعقل عنه فى أمر الصلاة عبارة ، أو يستدل منه فيها على إيماء ، أو إشارة ـ كان عليه أن يسأل ذلك الحاضر له كائنا من كان : عما يلزمه الصلاة الحاضرة من معرفة ، وقتها ، ووضوئها ، وحدودها ، وإقامة

مالا يسعه جهله فيها ، ولا تركه من أمرها ، فإن أعلمه ذلك الذى بحضرته يعتبر له ، وأشار إليه ، أو أومأ إليه بشىء من أمر هذه الصلاة الحاضرة ؛ مما يعقله عنه ، أو يعقل معانيه فيها من العبارة ، والإيماء ، والإشارة ، بما يدله على جميع أمر الصلاة الحاضرة ، أو أمر شىء منها من معرفة وقتها ، ووقت وجوبها وحدودها ، والوضوء لها ، وجميع مالا يسع جهله من صدورها ـ كان ذلك عليه حجة .

ولو كان طفلا فطيما ، أو رضيعا أو يهوديا أو نصرانيا ، أو مشركا وثنيا ، أو معتوها ، زائغ العقل ، أو وُجِد ذلك فى حين ذلك فى كتاب من قرطاس ، أو حجر ، أو غير ذلك من عبارة تلك الصلاة الحاضرة المتعبد بها ـ كان ذلك حجة عليه ، وكان عليه قبول ذلك فى وقت ما تعبده الله به من ذلك من جميع ما يلزمه فى تلك الصلاة الحاضرة . وإن لم يجد بحضرته من يُعبّر له شيئا من أمر الصلاة الحاضرة المتعبد بها فى وقته ذلك مادام عليه وقت تلك الصلاة إلى وقت فوت وقتها .

فإن حسن فى عقله أنه مدرك عبارة ذلك ممن هو مثله من المتعبدين بذلك أو غيرهم من المعبرين ـ كان ملزوما طلب علم ذلك ، وعليه الدينونة بالسؤال عن علم ذلك ، ولو كان بأرض الروم ، أو أرض الهند ، أو الزنج المشركين ، أو كان فى جزيرة من جزائر البحر ، أو فى بدو من السباسب ، أو القفار ، أو مصر من الأمصار ـ أهل التوحيد ، والإقرار فلا فرق فى الأحكام على المتعبدين ولهم عند وجود علم ذلك ، ولا عند عدم علم ذلك ، وعدم المعبرين له ، ولا يهلك المعذور بشىء مما يلزمه علمه .

ولو كان ذلك الجاهل بمكة ، أو بالمدينة ، أو بغيرها من أمصار أهل التوحيد ، والإقرار ـ فالحكم فى ذلك واحد ، والعذر واحد ، والحجة واحدة .

ولا فرق فى ذلك عند عدم علم ذلك مع الدينونة بما يلزمه من السؤال عن علم ذلك فى وقت ما يلزمه العمل بذلك والاجتهاد فى ذلك : بالبحث ، والسؤال لكل من وقعت عليه عينه ، واطمأن إليه قلبه ، أو سمعته أذنه ممن يرجو أن عنده دلالة على ما قد لزمه ، أو من حيث وقعت عليه رجيه علم ذلك من الكتب وغيرها .

فإذا علم الله منه الاجتهاد فى طلب علم ذلك فأعدم ذلك ؛ حتى فات وقت العمل الذى قد تعبده الله به فى وقته ، ولا يرجع لذلك الفائت وقتا يؤديه بعينه ؛ فقد صار فى العدم للعمل الفائت وإنما هو يعمل بعينه المستأنف بدلا عما مضى ، فإذا صار ذلك بدلا على حد الاجتهاد ـ فهو معذور ، وعليه السؤال عما يلزمه من بدل ذلك فى بعض قول المسلمين ؛ لا على سبيل الإجماع بالدينونة .

وما لم يبلغه علمه قبل حضور وقت الصلاة التى حضرت علما يقف على معناه ، وحفظه ، وحفظ معانيه عند حضورها ، ولم يجد معبرا له يعلمه ما يلزمه فيها من وجوب وقتها ، ومعرفة حدودها كلها ، أو شىء منها ، أو مما لا يسعه إلا العمل به فيها ، ولم يقصر فى طلب ذلك بالاجتهاد ، والبحث ، والعمل ، والبذل للمجهول كما يطلب الماء للوضوء للصلاة ، ويمشى إليه ؛ إذا كان عارفا به من المواضع ، ويبحث عنه بما قدر عليه ؛ إذا لم يعرف موضعه ، ويبذل فيه ماله ، واحتياله ؛ حتى يتوضأ ، ويتطهر للصلاة .

فإذا لم يقصر فى طلب العلم لذلك اللازم فى أمر هذه الصلاة ، كما لم يقصر المعدم للماء فى طلب الماء ؛ حتى فات وقت ذلك ، ولم يحسن فى عقله عند عدم المعبرين شىء يقوم فى حجة عقله من تأدية هذه الفريضة للصلاة الحاضرة من تسبيح وتكبير ، أو قراءة ، أو قيام ، أو قعود ، أو سجود ، أو ركوع .

فما حسن فى عقله من تأدية ذلك عندعدم المعبرين ـ كان عليه تأديةذلك بما حسن فى عقله مع الدينونة بالتوبة إلى الله مما ضيع من أمر هذه الصلاة : فهو سالم مسلم ، ولا يقع بالإجماع بالدينونة بالسؤال عن تأدية بدل ما مضى من الصلوات على هذا ، وقد قيل إن ذلك يلزمه ، والذين يلزمونه ذلك يختلفون فى ذلك ؛ قال بعض : ليس فى ذلك غاية متى شاء أبدل ذلك ، وقال بعضهم : عليه بدل ذلك فى أسرع ما يقدر عليه ؛ إذا علم ذلك : فالبدل لذلك أوسع ، ولا يدخل ذلك فى الدين المجتمع عليه أن يلزمه السؤال عن تأديةذلك ، وكذلك لا تلزمه الدينونة بالسؤال مما لم يحضر بعد من الصلوات حتى يحضر وقتها ؛ فإذا حضر كل صلاة لوقتها كان عليه من التعبد فيها ما قد وصفنا ، وعليه من الحجة فى ذلك ما قد كررنا . ولا سلامة له من الهلاك بدون الاجتهاد فى ذلك مع عدم ذلك للمعبرين كما عدم الأصم السمع فعذر من السمع ، وعن فرائض السمع ، وكما عدم الأعمى البصر ، فعذر عن فرائض النظر بالعين ، وكما عدم الأعجم الكلام فعذر عن فرائض القول باللسان ، وكما عدم المعتوه العقل فعذر عن جميع التعبد ، والفرائض ، وكذلك لا شك فى هذا عند من عرف فرائض الدين .

وَأحكام ذلك : أن من عدم علم مالا يبلغ إلى علمه إلا بالعبارة ، فعدم المعبرين ـ أنه هالك ، وأنه معذور فى دين الله تبارك وتعالى ـ ولذلك لاعذر لمن بلغ إليه علم حجة الله التى هى لله عليه حجة ، أن يجهلها لموضع جهله بها ، واظنه أنها ليست بحجة عليه .

وعليه فى عبادة علم هذا الذى وصفنا من أمر الصلوات جميع من وقع عليه حسه بوجه من الوجوه . أنها يجد منه عبارة ذلك ، أو يسمع ذلك من غير سؤال فى وقت ما يلزمه ذلك .

فإذا أخبره مخبر بذلك الذى قد لزمه كائنا من كان من المخبرين ، وعبر له ذلك معبر كائنا من كان من المعبرين على ما قد وصفنا ، أو غير ذلك مما قد غاب عنا ؛ فذلك عليه حجة فى علم مالا يسع جهله من علم الفرائض الحاضرة المطالب فيها فى الأوقات التى تفوت ، ويعدم وقتها ، ويفوت العمل بها بعينه .

وإذا قامت عليه الحجة بعلم ذلك قبل وجوب وقتها ، ثم لم ينس ذلك العلم الذى قام عليه من المعبرين ، حتى حضر وقت العمل بهذه الفريضة التى قد علم العبارة بها ، والعلم بها من أى الوجوه كان ، لم يسعه الشك فى ذلك ، وكان ذلك حجة عليه .

وإذا حضر وقت العمل بها ، ولو لم يكن حين علم ذلك ؛ كان عليه واجبا علم ذلك ؛ فإذا تبين ذلك ، ولم يغب عنه علمه ؛ حتى حضر وقت مايتعبده الله به ؛ فقد قامت عليه الحجة بعلم تلك العبارة المتقدمة ممن كان من المعبرين على ماوصفنا .

ومالم يجد هذا المعتصم بالجملة معبرا ، ولا وطىء علما ، ولا قصر فى اجتهاد فى وقت وجوب العمل ، ولم يصر على ماتلزمه التوبة فى جملته عن ذلك ، ولم يدن فى ذلك بدين ضلال — فهو سالم من الهلكة إن شاء الله .

وهذا من المواضع التى جاء فيها الأثر : أن السائل فيها سالم، والشاك هالك، ولا يكون الشاك فى جميع مالا يبلغ إليه علمه من حجة العقل ، ولا يكون إلا بالسماع ؛ هالك فيما كان من الأشياء التى لايدرك علمها إلا من طريق السماع، مادان بالسؤال ، واجتهد فى ذلك ، ولا نعلم فى ذلك اختلافا فى قول المسلمين .

وكذلك كل فريضة من فرائض الله ، ولازم من دين الله ؛ يفوت وقته ؛ إذا لزم العمل به ، وله انقضاء، ولايجوز إلا فى وقت معلوم مثل: الوضوء للصلاة، والغسل من الجنابة ؛ فوقت لزوم ذلك وقت الصلاة .

إذا حضرت الصلاة اللازمة — وجب التعبد بالوضوء ، والغسل من الجنابة، وعليه فى ذلك مثل ماعليه فى الصلاة من الاجتهاد لطلب علم ذلك ، والدينونة بالسؤال ، واجتهاد التوبة ، وهو كما وصفناه .

فإذا جاء وقت الصلاة زال عنه التعبد بذلك؛حتى يرجع وقت تلك الصلاة، أو غيرها من الصلوات ، وهو على هذا أبدا كما وصفنا فى الصلاة ، وكذلك صيام شهر رمضان ؛ لايجوز أن يصام فى غير وقته إلا من عذر ؛ فإذا أصبح فى شهر رمضان ، وطلع عليه الفجر من أول يوم منه ، وهو حاضر غير مسافر، ولا مريض ؛ فقد لزمه صيام ذلك اليوم من شهر رمضان، وذلك مالا يدرك علمه.

إلا بالسماع ، والقول فيه كالقول فى الصلاة من اعتقاد السؤال ، والبحث ، وطلب علم ذلك ، والاجتهاد من حيث ماقدر على السؤال ، وكل من عبر له ذلك ـ فهو حجة عليه ؛ كما وصفنا من أمر الصلاة .

فإذا جاء الليل ، فقد زال عنه كلفة التعبد له فى الليل ، وهو موسع فى علم غد حتى يطلع الفجر عليه من غد ، ثم هو كذلك فى كل يوم ؛ حتى ينقضى شهر رمضان،وعليه طلب علم ذلك بالخروج،والضرب فى الأرض بقدرته وطاقته.

والغرض من ذلك أن يخرج عند القدرة فى طلب علم ذلك اليوم الذى قد تعبده إلى انقضائه ، لأن يخرج من المضيق الذى دخله ؛ فإذا جاء الليل : فليس عليه تعبد بعلم ذلك .

وكذلك دأبه ، مع الدينونة بالسؤال فى الأصل لجميع مايلزمه من دين الله؛ فى شريطته ، واعتقاده ، فمتى ماقامت عليه الحجة بعلم ذلك ؛ ولو فى ساعة من آخر اليوم ـ كان عليه أن يصوم تلك الساعة،ولا يسعه جهل ذلك ، ولا يجوز له ذلك .

ولا يسعه فى هذا ، ومثله ؛ إلا أن يسأل جميع من وقع عليه نظره ، أو سمعه أو عقله ، أو وهمه من الأشخاص التى تعبر له ذلك ، ويعقل عنهم عبارة ذلك، أو الإشارة ، أو الإيماء به ، وكل من أفتاه بذلك ـ فهو حجة عليه ، ولا يسعه إلا قبول ذلك منه ، ولا نعلم فى ذلك اختلافا من قول أهل العلم .

وأما من خطر بباله ، أو سمع بذكره ، وعرف معناه من أمر التوحيد لله تبارك وتعالى ـ ومن الذى لايحتاج إلى تفسير ، وتأويل ، وهو من المعقولات ،

من صفات الله — تعالى — ومن أسمائه ، ووجوب وعيده لمن عصاه ، ووعده لمن أطاعه ، وأرضاه ، ومايخرج من هذا ونحوه .

فإذا خطر ذلك ، أو شيء منه بباله ، أو سمع بذكره ، وعرف معانى ذلك — فلا يسعه جهل ذلك ، ولا الشك فيه ، وغير منفس فى السؤال عنه المعبر من الخليقة .

وحجة ذلك ، ومثله : تقوم عليه من عقله ، ويهلك بجهلها من حينه ، ولا نعلم فى ذلك اختلافا إذا شك فى معنى ذلك .

وأما إذا شك فى اسم ذلك ، وعرف معناه ، مالم تصح معه أسماء ذلك — فهو واسع له : مثل أنه لايسمع بأسماء الله ، وصفاته ، وأسمائه المسمَّى بها نفسه .

فإذا لم يسمع بالله ، وعرف معنى ذلك : أنه مالك له ، ولما يرى من الموجودات وقادر عليه ، وعلى جميع المقدورات ، ومحدثه ، ومحدث جميع المحدثات ، وأشباه هذا ؛ فإذا عرف معانى صفات الله ، وأسمائه — وسعه أن يسمى الله بأسمائه المسميات معه ، ومع من علمها من أهل العلم بها .

وكذلك إن جهل اسم النار ، وعرف معنى العقاب من الله لمن عصاه ، وأقام على معصيته ، ولم يبلغه علم النار باسمها ، وكذلك إن جهل اسم الجنة ، وعرف معنى ثواب الله — جل ثناؤه — لأوليائه على طاعته ، وأن ثوابه لأوليائه ، ولأهل طاعته — لايشبهه ثواب المحدثين لبعضهم بعض ، وكذلك العقاب .

وكذلك جميع مايتولد من مثل هذا مثل : إن الله يبعث من فى القبور ، وإليه النشور ؛ فإذا لم يعرف اسم القبور ، والنشور ، وعرف معنى ذلك ، وأن الله قادر على أن يبعث من فى القبور ، وعلى أن يحيى الموتى ، وأنه محييهم لعقابه .

على معصيته ، ولثوابه على طاعته ـ وسعه ذلك ، حتى يبلغ على ذلك باسمه .

وأما اللوازم التى عليه فى ماله ، ونفسه مثل : الحج إذا لزمه ، والزكاة فى ماله ؛ إذا لزمته ـ وجب عليه ذلك ؛ فذلك أوسع من الصلاة والصوم .

وفى ذلك قول : أن يعلم ذلك ، ولا يسعه جهل علمه ، وإن وسعه تأخير ذلك لسعة وقته مالم يدن بتركه ،أو يموت ، وهو ذاكر له قادر على الوصية به؛ فلا يوصى بذلك .

وقول : إنه لا يلزمه علم ذلك لسعة وقته ؛ مالم يدن بترك ذلك ، أو يموت؛ فلا يوصى به ، وهذا القول أصح لسعة ذلك .

فإذا جهل ذلك ، ولم تقم عليه الحجة بعلم ذلك ، وكان دائنا بما يلزمه على حسب ماذكرنا فى أمر الوضوء ، والصلاة ، والصوم ؛ ولم تقم عليه الحجة حتى حضره الموت؛فلم يوص لجهله بذلك قبل أن تقوم عليه الحجة من جميع المعبرين ـ فهو سالم إن شاء الله .

وعلى قول من يقول : إن علم ذلك لا يسع ، ولو وسعه تأخير ذلك ؛ فإنه تلزمه الحجة فى ذلك من جميع المعبرين، وعليه السؤال عنه؛ على حسب ماذكرنا فى الصلاة .

وعلى قول من يقول : إنه يسعه جهل علم ذلك ، إلى أن يحضره الموت ؛ فلا تقوم عليه الحجة بذلك إلا بالعلماء الذين تقوم بفتياهم الحجة فيما يسع جهله ، أو يصح معه علم ذلك بأى وجه من الوجوه كان ذلك العلم .

وأما إذا أتى حال لا يسع جهل ذلك ، وهو الموت ؛ فإن عبارة جميع

المعبرين له حجة عليه ؛ كان ذلك عند الموت ، أو عبر له قبل ذلك ، ثم لم ينسه ، ولم يغب عليه علم ذلك .

وذلك فى الحج ، والزكاة جميعا ، وكل حالة من دينه لا يسعه جهله لفوات وقته ؛ فالحجة عليه تقوم من جميع عبارة المعبرين ؛ كما وصفنا ؛ كالوضوء ، والصلاة ، والوتر ، والاستنجاء من البول ، والغائط ، والجنابة من السنن اللاحقات بأحكام الفرائض التى تفوت فى بدنه .

فوقت الاستنجاء من البول والغائط بمنزلة الغسل من الجنابة عند حضور وقت الصلاة ، والوتر لاحق وقته بالفرائض ، والختان وقته من حين ما يبلغ الحلم ؛ إلا أن يكون له عذر من خوف على نفسه ، من برد ، أو غيره ، ولا يسعه جهل ذلك ، والعبارة عليه من الجميع تقوم بها الحجة عليه بمنزلة الصلاة .

والسؤال فيه ، والعذر عند الاجتهاد فهو بمنزلة الصلاة ؛ غير أن عليه التعبد به أبدا ليلا ونهارا ، ولا غاية له فى طلب علم ذلك حتى يخرج منه ، أو يموت على ذلك معذورا ، وتقوم عليه الحجة من جميع من عبر له ، فيجهل الحجة ، فيموت هالكا ، والله أعلم .

وأما شرح ما يسع جهله ، وما لا يسع جهله ؛ فلا يحتمله كتاب ، ولا يحيط به خطاب ، وقد ذكرنا منه أصولا مفهومة يستدل بها على مثلها ، ويقاس عليها ما ورد من شكلها ، ونسأل الله تعالى التوفيق ؛ لإصابة الحق والصواب .

* * *

القول الثانى والأربعون

فى الإيمان ، والإسلام ، واليقين ، وصفة ذلك

الإيمان : هو التصديق بالقلب ، لما أخبر به المخبر من أمر الغيب ، لأن الله تعالى أضاف الإيمان إلى القلب ، كما قال تعالى : « قَالُوا آمَنَّا بِأَفْوَاهِهِمْ ، وَلَمْ تؤمِنْ قُلُوبُهُمْ » ، وقال : « إِلَّا مَنْ أُكْرِهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ » ، وقال : « أُولَئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ » .

وأما محل الإسلام ، والإيمان ؛ كمحل الضوء من الشمس ، فكل شمس ضوء ، وليس كل ضوء شمس ، وكل مسك طيب ، وليس كل طيب مسك ، فكذلك الإيمان إسلام ، وليس الإسلام إيمانا ؛ إذا لم يكن تصديق ، لأن الإسلام : هو الخضوع ، والانقياد والدليل على ذلك : قوله تعالى : « قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا ، وَلَكِنْ قُولُوا : أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُمْ » ؛ فاستسلموا من خوف السيف ، وقال النبى (ﷺ) : « الإيمان سر — وأشار إلى صدره — ، والإسلام علانية » ، وقال (ﷺ) : « يامعشر الناس : من أسلم بلسانه ، ولم يدخل الإيمان فى قلبه . . . . » وقال تعالى : « يُؤْمِنُونَ بِالْغَيْبِ » أى يؤمنون بالله ، وملائكته ، وكتبه ورسله ، واليوم الآخر ، ولقائه ، وجنته ، وناره ، وجميع ما جاء به رسل الله ؛ من جميع ما أمر به ، ونهى عنه .

فصل :

وقيل : إن الإيمان ثلاثة مقامات :

أحدها : انطواء القلوب ، وضمير النفوس على اعتقاد التوحيد لغة وشرعا .

وسئل النبى (ﷺ) عن الإيمان ، فقال : إن الإيمان ها هنا — وأشار

إلى صدره ـ وقال (عليه السلام) : « الإيمان أثبت فى قلوب أهله من الجبال الرواسى على قرارها »، وقال (ﷺ): لعمار بن ياسر (رضى الله عنه) « الإيمان أحلى من العسل لايدخل قلب مؤمن ثم يخرج منه »، وفى أمثالها من الأحاديث .

وجميع ما حكى الله فى كتابه من ذم المنافقين الذين آمنوا بأفواههم ، ولم تؤمن قلوبهم ـ دليل على أن الإيمان لابد فيه من اعتقاد القلوب ؛ حين ذمهم إذا لم يعتقدوه فى قلوبهم .

المقامة الثانية : الإقرار باللسان نطقا ، والإعراب عن الضمير وقفا ، وقبله تحقيقا ، وصدقا ، وهذا دون الأول لأن الأول يجزى عن هذه الملل ، ولا تجزى هذه عن ذلك على حال لغة ، وشرعا .

أما اللغـة : فلأن نطق اللسان ، وإقراره عبارة عن التصديق الذى حصل فى القلب ، قال الله تعالى : « يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا » معناه : أقروا ، وقوله (عليه السلام) : « من آمن بلسانه ، ولم يَخْلُص الإيمانُ إلى قلبه » ، فذم من آمن بلسانه ، ولم يخلص الإيمان إلى قلبه .

فالأدلة قائمة على إثبات الإيمان فى القلب ، والنطق به باللسان ، وقال الله تعالى : « قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا ، قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا ، وَلَـكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ، وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ فِي قُلُوبِكُم » فذمهم بنطقهم بالإيمان بألسنتهم ، ولم يعتقدوا بقلوبهم . وكثير من الأدلة تبين هذا .

المقامة الثالثة : الإيمان هو العمل بالأركان ، وتحقيقه بالأفعال شرعا ، وسمعا .

أما الشرع : فقول الله تعالى : « وَمَا كَانَ اللهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُم » أى :

صلاتكم إلى بيت المقدس ، وقال النبي[1] (ﷺ) : « الإيمان مائة جزء ، وأعلاها ـ شهادة أن لا إله إلا الله ، وأدناها ـ إماطة الأذى عن الطريق » ، وقال (عليه السلام) : « الحياء شعبة من الإيمان » ، وقال : « الصبر والسماحة من الإيمان » ، وقال : « حُسْن العهد من الإيمان » ، وقال : « الصبر نصف الإيمان » ، وكثير من الأخبار دالة على أن الأعمال من الإيمان .

فمن خرج عن هذه المقامات الثلاث ـ فهو كما قال الله تعالى : « أُولَـٰئِكَ الَّذِينَ طَبَعَ اللهُ عَلَى قُلُوبِهِمْ وَسَمْعِهِمْ وَأَبْصَارِهِم ، وَأُولَـٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ، لاجَرَمَ أَنَّهُمْ فِي الآخِرَةِ هُمُ الْخَاسِرُونَ » ، ومن كان الإيمان فى قلبه ، وخلا منه لسانه ، وعمله فهو كقوم فرعون الذين قال الله فيهم : « وَجَحَدُوا بِهَا ، وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنْفُسُهُم ظُلْماً وَعُلُوّاً ؛ فانْظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُفْسِدِين » ، ومن كان الإيمان فى قلبه ، ولسانه ، وخلا منه العمل ـ فهو كما قال الله فيهم : « الٓمٓ . أَحَسِبَ النَّاسُ أَنْ يُتْرَكُوا ، أَنْ يَقُولُوا آمَنَّا ، وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ » إلى قوله : « وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ » .

والمؤمنون يتفاضلون فى الإيمان على قدر ترقيهم فى درجاته :

فالدرجة الأولى هى المعنى التى كلف الله تعالى عباده المؤمنين ، ورضيه منهم ، وهو قوله تعالى : « آمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ ؛ كُلٌّ آمَنَ بِاللهِ وَمَلَائِكَتِهِ » الآية ، وقال : « فَمَنْ يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ ، وَيُؤْمِنْ بِاللهِ ، فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَى » .

(١) روى معناه البخارى ، ومسلم بلفظ : الإيمان بضع وسبعون بابا » وفى الترمذى أيضا موجود .

فهذا الإيمان : هو تصديق عامة المسلمين ، واعتقادهم يشتد ، ويقوى تارة ، ويضعف ، ويسترخى أخرى ، وهذا موجود فى اعتقاد المؤمنين ، والعمل يؤثر فى نماء هذا الاعتقاد ، وزياداته ، كما يؤثر سقى الماء فى نمو الأشجار علوا ، وفى رسوخ أصولها سفلا ، قال الله تعالى : « لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ » ، فهذه الزيادة فيما قيل ، لما أقروا بالجملة التى دعاهم إليها رسول الله (صلى الله عليه وسلم) أوفوا بها عند مباشرة العمل ، فزادهم الله إيمانا ، وتصديقا ، ويقينا ، فدل هذا على أن الإيمان يزداد بعمل الطاعات ، وينقص بانتهاك المحرمات .

وروى عن النبى (صلى الله عليه وسلم) أنه قال : الإيمان يزيد وينقص وذلك بتأثير الطاعات فى القلب ، قال على بن أبى طالب : إن الإيمان يبدو لمة بيضاء فى القلب ؛ فإذا عمل العبد بالطاعات الصالحات — نمت وزادت ؛ حتى يبيض القلب كله ، وإن النفاق يبدو نقطة سوداء ؛ فإذا انتهك المحرمات ؛ نمت وزادت ؛ حتى يسود القلب كله ، فيطبع عليه ، وذلك الختم ، وتلا « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِم مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ » .

فإذا تحقق العبد الإيمان ، ورسا فى قلبه — انتقل إلى درجة هى أعلى مما كان فيه ، وهى : الظن الذى مدح الله به المؤمنين [فى] قوله : « الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُلَاقُوا رَبِّهِم ، وأَنَّهُم إِلَيْهِ رَاجِعُونَ » ، « وَظَنُّوا أَنْ لَا مَلْجَأَ مِنَ اللهِ إِلَّا إِلَيْهِ » .

وهذا الظن درجة فى الإيمان أعلى من أوائله ، وهذا الظن هو الذى بمعنى اليقين ، لا بمعنى الشك فمن سكنت نفسه إلى وجود البارى — سبحانه وتعالى — ووقع فى قلبه الإيمان به — زال عنه الجهل ، والشك ، لأن الشك : هو تردد ، وتوقف بين أمرين ، لامزيد لأحدهما على الآخر ، والظن : ترجيح أحد الجانبين ،

فمن رجح جانب ظنه إلى جانب العلم ـ فهو ظن محمود ، لأنه جاوز حد الجهل والشكّ إلى الإيمان .

فحقيقة الظن ميلان النفس إلى تحقيق ما اعتقده المؤمن ، وآمن به ، والظن يئول إلى العلم ، لأن جُلّ أحكام الشريعة إنما بُنيت على غلبات الظنون .

فإذا قوى الظن صار علما ، وهو أن يلوح المعنى الذى اعتقده القلب فتطمئن إليه النفس ، وربما يعضّده الدليل ، فيتضح به السبيل .

وهذا العلم نور يقذف فى قلب المؤمن ، فيتسيّغ القلب به ، وينشرح ، قال الله تعالى : « وَلَـٰكِنْ جَعَلْنَاهُ نُورًا نَهْدِى بِهِ مَنْ نَشَاءُ مِنْ عِبَادِنَا » الآية . وقال تعالى : « فَمَنْ يُرِدِ اللهُ أَنْ يَهْدِيَهُ يَشْرَحْ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ » الآية ، فقيل لرسول الله (ﷺ) : ماهذا الشرح ؟ فقال (عليه السلام) : إن النور إذا دخل فى القلب انشرح به الصدر ، وانفسح ، قيل له : فهل لذلك من علامة يعرف بها ؟ قال : نعم ؛ التجافى عن دار الغرور ، والإنابة إلى دار الخلود ، والاستعداد للموت قبل نزوله .

فالعلم : درجة فى القلب أعلى من درجة الإيمان ، ولذلك فرق الله تعالى بين درجة الإيمان ودرجة العلم ، فقال : « يَرْفَعِ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ ، وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ » .

ويروى عن ابن عباس (رضى الله عنه) أنه قال : للعلماء درجات فوق درجات المؤمنين بسبعمائة درجة ، ما بين الدرجتين ، مسيرة خمسمائة عام .

فإن ازداد العلم ـ صار يقينا ، واليقين إزاحة الشك ، وهو علم راجح فى القلب زايلته الشكوك ، وفارقه الاضطراب ، واستحكم فى النفس ، حتى يكون كأنه عن مشاهدة .

فلهذا قال نبينا (ﷺ) : « إن أقل ما أوتيتم اليقين ، وعزيمة الصبر »
وقال لابن عباس : « اعمل على الرضا ، واليقين ، وإلا فعلى الصبر على ما تكره خير كثير ، وعنه (عليه السلام) : « لا تُرضين أحداً بسخط الله » .

وقال بعض العلماء : إن أقل اليقين ، إذا وصل إلى القلب ملأ القلب نورا وشكرا ، ومن الله خوفا ، ونفى عنه كل ريب ، والتوحيد نور ، والشرك نار ، ونور التوحيد أحرق لسيئات الموحدين من نار الشرك لحسنات المشركين وأراد به اليقين .

وقد أشار القرآن إلى ذكر الموقنين فى آيات كثيرة تدل على أن اليقين : هو الرضا للخيرات ، والسعادات ، وأنه أعظم للعبد من الهبات .

وقال بعض العلماء : أول المقامات المعرفة ، ثم اليقين ، ثم التصديق ، ثم الإخلاص ، ثم المشاهدة ، ثم الطاعة ، والإيمان اسم يجمع هذا كله ؛ أشار هذا القائل إلى أن الواجبات : هى المعرفة لله — سبحانه وتعالى — .

وقال بعضهم : حرام على قلب من شم رائحة اليقين ، وفيه سكون إلى غير الله ، وقيل : اليقين داع يدعو إلى قصر الأمل ، وقصر الأمل يدعو إلى الزهد ، والزهد يورث الحكمة ، والحكمة تورث النظر فى العواقب ، وقال بعض العلماء : ثلاثة من أعلام اليقين ؛ النظر إلى الله فى كل شىء ، والرجوع إلى الله فى كل أمر ، والاستعانة بالله على كل حال .

واختلفوا فى معنى اليقين ، فقال بعضهم : اليقين علم مستودع فى القلب غير مكتسب ، وقال آخرون : اليقين ؛ تحقيق الأسرار بحكم المغيبات . وقال قوم : العلم التعلم بمعارضة الشكوك ، واليقين الشك فيه ، وأشار إلى العلم الكسبى ، وقيل : هو العلم الذى لا يتحول ، ولا ينقلب ، ولا يتغير فى القلب ،

وقال بعضهم : اليقين هو المكاشفة . وقيل : اليقين رؤية العيان بقوة اليقين .

فصل :

ومنازل العباد على قدر تفاضلهم فى اليقين ؛ فالملائكة أعظم يقيناً من الأنبياء والرسل ، والأنبياء والرسل أعظم يقيناً من غيرهم من المسلمين ، وأصل اليقين العلم والإبلاغ فيه ، لأن الأمور كلها من عند الله . وقد يتفاضل الناس فى الدوام عليه، وقلة السهو على قدر تفاضلهم، واليقين يصيبه المسلم وغير المسلم، ولكن لا يستحق به الثواب ؛ إلا المسلم الموفى بدينه .

ويستجاب الدعاء باليقين للناس كلهم : المؤمن وغيره ، ولكن غير المؤمن لا يستجاب له ؛ إلّا دعاء الدنيا خاصة .

ومن كثرة اليقين تكون البراهين والعلامات ، ولكن ليس فى ذلك مما يستوثق لأمر الآخرة ، ولكن يزيد الرغبة والاجتهاد .

وقيل : اليقين استقرار معرفة العارفين ، وقيل : اليقين هو التصديق ؛ يزيد بزيادة الإيمان ، وينقص بنقصانه ، ويتزايد الناس فى اليقين بلزوم القلب للمعرفة ؛ التى يتولد منها اليقين .

وروى أنه قيل : يا رسول الله (ﷺ) بلغنا أن عيسى (عليه السلام) كان يمشى على الماء ، قال : « لو ازداد يقيناً لمشى على الهواء » ؛ فعلى قدر شغل القلب بأمور الدنيا يضعف اليقين .

وروى عن النبى (ﷺ) أنه قال : « أخوف ما أخاف على أمتى ضعف اليقين » ؛ فكل مجاهد على قدر قوة يقينه ، ويقرب من الله — تعالى — على قدر مرتبته .

وقيل: من أمارات المعرفة بالله حضور الهيبة من الله ، وقال النبى(ﷺ) :

« دعامة الدين ـ المعرفة بالله واليقين ، والفعل المانع عن معاصى الله ، والحرص على طاعة الله تعالى » .

ومعنى المعرفة بالله تعالى: أن يعرفه بأياديه الكاملة، وصفته البالغة ، وقدرته التامة ، فإذا عرف العبد ربه لزمت قلبه الرغبة، والرهبة، وامتلأ قلبه عظة وحياء .

وتتزايد المعرفة فى قلب العارف ؛ بحسن التفكر ؛ والاعتبار فى إتقان ما يشاهده من إتقان صنع الله ، وحسن تدبيره فى جميع خلقه .

وقيل : معرفة الله ـ تعالى ـ بحر لا يدرك له قعر، ولا يحيط به بشر؛ وإنما تحوم الخلق على سواحله وأطرافه ؛ بقدر ما تيسر لهم ، وما خاض بعض أطراف بحر معرفته : إلا الأنبياء ، والأولياء ، والراسخون من العلماء على قدر درجاتهم .

وهذه المعرفة ؛ إذا قويت فى قلب العارف لاح له من ربه اللطف الخفى ، والنور الجلى ، واستولى على قلبه حب ربه ، واستأنس بذكره فى الخلوات ، وغلب نور قلبه على نور بصره ، وظهر له مع ذلك المزيد من ربه ؛ جعلنا الله من أهل طاعته ، وتوفانا مع أهل رحمته .

فصـــل :

وأما الإسلام : فمعناه فى اللغة الخضوع ، والاستسلام ، والانقياد ، قال الله تعالى : « قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا ، وَلَـكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا » استسلاما لا إسلاما ، فكان الإسلام على هـذا المعنى عبارة عن التسليم ، والاستسلام لله تعالى .

وقال الله تعالى : « وَمَنْ يَبْتَغِ غَيْرَ الإِسْلامِ دِيناً ؛ فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ » ، وقال النبى (ﷺ) : « المسلم من سلم الناس من يده ، ولسانه ، والمهاجر من هجر السيئات » .

وروى عن النبى (ﷺ) : أنه سئل عن أفضل الأعمال ، فقال: الإسلام ؛ قيل له : أى الإسلام أفضل ؟ فقال : الإيمان .

واختلف الناس فى الإيمان ، والإسلام ، فقال بعضهم : إنهما شىء واحد ، وقال بعضهم : إنهما شيئان ، وقال بعضهم : شيئان ، ولكن يرتبط أحدهما بالآخر ، ولكل قول أصل يبنى عليه . والله أعلم .

وقيل : الإسلام القول ، والإيمان العمل ؛ فمن لم صدق القول بالعمل — فليس بمؤمن ؛ لأن الله — تعالى يقول : « إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ، ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا ، وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ ، وَأَنْفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ، أُولَئِكَ — هُمُ الصَّادِقُونَ » . صدّقوا ايمانهم بأعمالهم .

وروى عن النبى (ﷺ) قال : لا يكون المؤمن مؤمنا ؛ حتى يحب للناس كما يحب لنفسه . من العافية فى الدنيا : من جميع الامتحان ، والآلام ، والأسقام ، والهموم والأحزان ، والفقر والشدائد ، وأن يموتوا تائبين مقبولين عند الله ؛ لأن المؤمن رحيم القلب .

وقال أبو عبيدة (رحمه الله) : العزم على الإيمان إيمان ، والعزم على الكفر ليس بكفر ؛ حتى يفعل .

وقال أبو سعيد (رحمه الله) : الإيمان يزيد ، ولا ينقص ، لأنه إذا انتقص منه شىء بطل كله ، ويقال : إن الإيمان يضعف ، ولا ينقص .

وقيل : كل طاعة لله — تعالى — فهى من الإيمان ، ولا يقال لكل طاعة لله : هى الإيمان ؛ لأن من الطاعة الوسائل ، وترك الوسائل — لا يكفر به العبد ، والإيمان إذا ترك كان تركه كفرا .

ويروى عن النبى (ﷺ) أنه قال : « قال جبرائيل (عليه السلام) : لم يجد المؤمن طعم الإيمان ، ولا يكون مؤمنا حقا ؛ حتى يصل من قطعه ، ويعفو عمن ظلمه ، ويعطى من حرمه ، ويحسن إلى من أساء إليه ؛ فمن فعل هذا

مع استقامته على دين الله ـ كان من المتقين » ، ووعد الله المتقين الجنة ـ اللهم وفقنا لطاعتك ، واهدنا إلى سبيل رضاك يا أرحم الراحمين .

فالإيمان اعتقاد بالقلب ، ونطق باللسان ، وعمل بالجوارح ؛ يزيد بالطاعة والعلم ، ويضعف بالمعصية والجهل « ليس الإيمان بالتحلى ، ولا بالتمنى ، ولكنه : ما وقر بالقلب ، وصدقه العمل ، ولا يدخل أحد الجنة إلا بعمل صالح يتقنه » أى : يحكمه ، والإيمان باطن فى القلب ، وظهور العمل الصالح يدل على زيادته .

فصل :

ومن سُئل عن الإيمان ـ وهو مؤمن ـ فقيل له : أمؤمن أنت ؟ ، فإنه يقول : إن كنتَ تريد أنى من أهل الإقرار بالإيمان ـ فنعم أنا مقر بالإيمان ، وبجميع أحكامه ، وإن كنتَ تريد بالإيمان [الإيمان] الحقيقى الذى قال الله تعالى فيه : « أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا » : فلا علم لى فى ذلك ، وعلمه عند الله تعالى .

فإن قال : وما دليلك على قولك هذا ؟ فقال له : إن المؤمن قد يقال إنه مؤمن بما يبدو له من الاعتراف بالدين والإيمان ، وقد جرت الأحكام فى الشرع فى مثل قول الله تعالى : « فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مُؤْمِنَةٍ » ؛ لم يكلف الناس أن يطلعوا على بواطن العبيد ، وما تسره قلوبهم ، ولكن تجرى الأحكام بما ظهر من علانيتهم فى أحكام التسمية بالإيمان ، والموافقة لأهل الإيمان فى القول والعمل .

ولو لم يكن ذلك كذلك ـ لم يوجد من يقطع بها بإيمانه على الغيب من سره .

وكذلك قوله تعالى : « فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا ؛ أَن يَنكِحَ

الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ ؛ فَمِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ : بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ » فوسع الله لهم على ما يجرى فى ظاهر الحكم ، ولم يكلفهم علم ما غاب عنهم من بواطن القلوب .

وإن كنت تريد أنى مؤمن حقا عند الله ؛ فقل : لا علم لى فى ذلك ؛ لأنى إذا قلت: أنا مؤمن حقا عند الله ـ فقد شهدت لنفسى بالجنة؛ لأن الله تعالى يقول : « أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ ، وَمَغْفِرَةٌ ، وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » ، وأيضاً ؛ إذا قال : أنا مؤمن حقا عند الله : فقد زكى نفسه، وخالف نهى الله ؛ لأن الله يقول: « فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى ».

فلا يجوز لأحد أن يقول : أنا مؤمن حقا ، ولا يكون هـذا من الشك فى الإيمان ، ولا يجوز لأحد أن يقول : إنه من أهل الجنة ؛ لأن ذلك من تكلف علم الغيب الذى لم يجعله الله لأحد من عباده ؛ إلا الأنبياء والمرسلين .

وقيل : قال النبى (ﷺ) لحارثة : كيف أصبحت يا حارثة ؟ قال: مؤمنا ، قال : مؤمنا ؟ قال ، مؤمنا قال : فما حقيقة إيمانك ؟ قال : عزفت نفسى عن الدنيا فاستوى عندى: حجرها وذهبها وكأنى أنظر إلى عرش ربى بارزا ، وكأنى أنظر إلى أهل الجنة يتزاورون ، وكأنى أسمع عواء أهل النار . فقال له رسول الله (ﷺ) : شهيداً سعيداً .

فلما قتل ـ جاءت أمه إلى رسول الله (ﷺ) ، فقالت : إن يكن حارثة فى الجنة ؛ فلا أبكى ، ولا أبالى ، وإن يكن غير ذلك ـ فسترى ما أصنع ، فقال (ﷺ) : يا أم حارثة ، أجنة واحدة هى ؟ إنها الجنان كثيرة ، وإنه لفى الفردوس الأعلى ؛ فرجعت ؛ وهى تضحك ، وتقول : بخ بخ لك ياحارثة .

* * *

القول الثالث والأربعون

فى الشرك ، والكفر ، والنفاق ، وصفة ذلك

وأما الشرك . فمعناه فى اللغة التسوية ؛ قال الله تعالى : « إِذْ نُسَوِّيكُمْ بِرَبِّ الْعَالَمِينَ » .

ومن الشرك أن يقيم العبد معبوداً غير الله ، أو يسمى أحداً غيره بالألوهية كأهل الأوثان ، وينكر وجود البارى ـ تعالى ـ ، أو يجعل له شريكا فى خلقه مما لا يتوهم الغير فيه شركة ، ولا صنعا ، أو يضيف خلقاً إلى غير الله ، أو يصفه بما يخرجه من معنى الألوهية ، بتكذيبه فى كتبه ، أو تكذيب رسله ، وجهله للبعث والمعاد ، والثواب والعقاب ، والجنة والنار ، أو شىء مما لا يسع جهله ، أو يشرك فى عمله أحداً غير الله تعالى ؛ كمن يريد بعمله رياء أو سمعة .

ومن الشرك : قلة ثقة بوجود الله تعالى ، والجزع ، والهلع ؛ حتى قيل : إن قول القائل : لولا كلبنا لسُرقنا ، ولولا فلان، ولولا الشىء الفلانى لهلكنا.

والشرك يلحق العباد فى أقل الخطرات ، كما قال النبى (ﷺ) : « الشرك[1] فى أمتى أخفى من ذرة سوداء فى صخرة صماء فى ليلة ظلماء » .

وروى أن النبى (ﷺ) قال لأبى بكر الصديق (رضى الله عنه) : « ألا أدلك على كلمات إذا قلتها برئت من الشرك ؟ » قال : بلى يا رسول الله (صلى الله عليك) ، قال : قل : « اللهم إنى أعوذ بك أن أشرك بك ، وأنا أعلم ، وأستغفرك لما لا أعلم » .

---

(١) الحديث رواه الحكم عن ابن عباس ، ولفظه : «الشرك فى أمتى أخفى من دبيب النمل على الصفا» ، ورواه الحكيم ، وأبو نعيم فى الحلية عن عائشة بلفظ مختلف م .

وكل من عبد غير الله فقد أشرك بالله ما لم ينزل به سلطانا ، « ومَن يُشرك بالله فكأنما خَرَّ من السماء ، فتخطفه الطَّيْر ، أو تَهْوِى به الرِّيح فى مكانٍ سَحِيقٍ » ، فالمشرك بعيد من الله خارج من رحمة الله .

ومن لم يؤمن بالله ، وملائكته ، وكتبه، ورسله ، وأنبيائه ، وما جاءوا به عن الله ـ كان مشركا ، ومن صدق بالله ، وشك فى نبيه محمد (ﷺ) ، ولم يؤمن أنه رسول الله (ﷺ) ، ولم يؤمن بالقرآن الذى جاء به من عند الله ـ كان مشركا ؛ حتى يقر بالله ، وبرسوله ، وبما جاء به أنه الحق ؛ لأن الله يقول : « فَلَا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ ، حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيما شَجَرَ بَيْنَهُمْ ، ثُمَّ لا يَجِدُوا فِى أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ ، وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيماً » .

ومن آمن ببعض الأنبياء ، وكفر ببعضهم ـ فهو مشرك ، لأنه رد ما جاء فى القرآن ، ومن لم يصدق بجملة القرآن ، وأنكر شيئاً منه ـ فهو مشرك ، ومن لم يؤمن بالمعاد ، أو أنكر البعث : فهو مشرك ، وكذلك من أنكر الجنة والنار ، لأن ذلك فى القرآن ، ومن أنكر الصلاة ، وخطأ من أوجب فرضها : فهو مشرك ويقتل إن لم يتب ، وكذلك الصيام ، والزكاة ، والحج ، والفرائض التى فى كتاب الله ، إذا لم يؤمن بها فقد أشرك .

ومن قال : إن نبيًّا بعد نبينا محمد (ﷺ) ، أو قال : إنه كاذب ، أو ساحر ، أو شاعر ، ولم يصدق به ـ أشرك ، ومن أنكر كتب الله ، أو بعضها ، أو شيئاً منها أشرك ، ومن أنكر الملائكة أشرك ، ومن قال : إن لله ولدا فقد أشرك ، ومن وصف الله بجارحة من الجوارح فقد أشرك ، وقول : يكفر .

فصل :

ومن شك فى الله أنه ليس بخالق ، ولا رازق — كفر ، ومن شك فى أسماء الله بعد قيام الحجة عليه — كفر ، ومن شك فى تفسير التوحيد بعد علمه ، وقيام الحجة عليه — كفر ، ومن شك فى النبى (ﷺ) أنه ليس بنبى ، ولا رسول ؛ فقد كفر ، ومن شك فى القرآن بعد ماسمعه ، أو تلى عليه ؛ فقد كفر .

وأما من آمن بالله ، ورسله ، والقرآن ، وسمع بآياته ، ولم يكن علم بها أنها من القرآن ، فيشك فيها لم يكفر حتى تقوم عليه الحجة ، أنها من القرآن ، فإن شك بعد قيام الحجة عليه كفر .

ومن شك فى سورة من القرآن ، أو فى ثلاث آيات — لم يعذر بذلك ؛ لأن نظم القرآن معجز ، وقول ؛ حتى يشك فى ثلاث آيات ، لأن أقل سورة من سور القرآن ثلاث آيات .

ومن شك فى الثواب والعقاب ، والبعث والحساب ، والوعد والوعيد ، والجنة والنار ، بعد قيام الحجة عليه من كتاب الله ، وحجة المسلمين — كفر .

ومن شك فى فرائض الله — تعالى — التى افترضها على عباده بعد قيام الحجة عليه ، أو شك فى محارم الله التى حرمها على عباده بعد علمه ، وقيام الحجة عليه — كفر ، وكذلك القول فى الملائكة ، ومن شك فى أنبياء الله ، وكتبه ، ورسله بعد قيام الحجة عليه — كفر وأما من شك فى واحد من أنبياء الله ، أو واحد من ملائكته لم يسمع بهما — لم يكفر بذلك حتى تقوم عليه الحجة ، فإذا قامت عليه الحجة ، فشك بعد ذلك ، فقد كفر ، ومن شك فى ولاية المسلمين ، والبراءة من الظالمين بعد علمه ، وقيام الحجة عليه — كفر .

ومن شك ، فقال : لا أدرى هذا الذى فى أيدى اليهود أهو التوراة التى

أنزلها الله على موسى (عليه السلام) أم لا ؟ وهــذا الإنجيل الذى فى أيدى النصارى أهو الذى أنزل الله على عيسى (عليه الســـلام)أم لا ؟ ، إلا أنى لا أشك فى التوراة أنها من عند الله،وأن الله أنزلها على نبيه موسى (عليه السلام) ولا أشك فى الإنجيل أنه من عند الله،وأن الله أنزله على نبيه عيسى عليه السلام- فإنه لا يكون بذلك مشركا ، ولا كافرا .

ومن قال : إن نبى الله عيسى بن مريم له أب - فهو مشرك يقتل إن لم يتب ومن شك فى الجنة ، والنار بعد علمه بهما ، وبعد قيام الحجة عليه كان بذلك مشركا يقتل إن لم يتب .

وكذلك يوم القيامة بعد العلم به ؛ وقيام الحجة عليه به ، وكذلك القول فى البعث ، وكذلك القول فى الثواب والعقاب .

كل هذا لا يسع الشك فيه بعد العلم به ، ومن شك فيه بعد العلم به ، وقيام الحجة عليه ، فهو مشرك .

وقال أبو عبد الله : من تأول القرآن ، أو شيئا منه على غير تأويله ، لم يكن مشركا ، ولكن كافر نعمة ، وإن شك فى آية من القرآن بعد علمه بها فهو مشرك يقتل إن لم يتب ، وأما إن شك فى آية من القرآن ، لم يكن علمها أنها من القرآن ، وهو مؤمن بالقرآن ، إلا أنه شك فى هذه الآية ، لا يدرى أهى من القرآن أم غير القرآن ؟ فإنه لا يكون بذلك مشركا حتى تقوم عليه الحجة ، فإن شك فيها بعد قيام الحجة عليه - فإنه يكون مشركا يقتل إن لم يتب .

ومن شك فى الكعبة بعد علمه بها فهو مشرك،وأما من لم يعلمها ؛ فواسع له جهلها ، ما لم يحضر وقت الصلاة ، فإذا حضر وقت الصلاة فصلى لغير القبلة - فلا يسعه جهل ذلك .

ومن شك[1] فى الجمعة بعد علمه بها ، وقامت عليه الحجة بها كان كافرا ، وقال أبو زياد : إنه يقتل ونحن نقول : إنه كافر ، ولا يقتل ؛ إذا كان مقرا بأن صلاة الظهر أربع ركعات .

ومن شك فى السماء ، والأرض ، والجبال ، والناس ، والدواب ، والشمس ، والقمر ، والنجوم ؛ التى ذكرها الله فى كتابه أم لا ؛ إنه لا يكون بذلك مشركا ، ولا كافرا ؛ إذا كان مقرا أن الله خلق هذا الذى شك فيه . ومن أقر بالله وحده لا شريك له ، وأن محمدا (ﷺ) عبده ورسوله ، وبكل ماجاء به عن الله ؛ إلا أنه قال : إن الله يعجزه شىء ، أو أنه يغفل ، أو يسهو ، أو ينام ، أو ليس هو بقادر ؛ ولا قاهر ، وأشباه هذا ـ إنه يكون مشركا يقتل إن لم يتب .

وكذلك إن شك فى هـذا بعد العلم به ، أو كان جاهلا بذلك ، فقامت عليه الحجة ، ومن شك فى نبوة الأنبياء بعد علمه ، وبعد قيام الحجة عليه ، فهو مشرك .

فصل :

وأما الكفر : فهو فى أصل اللغة التغطية ، والستر ، وفى مفهوم كلام العرب : هو جحود المنعم نعمته . والكفر على وجهين : كفر الجحود ، وكفر النعمة ، فكفر الجحود الذى جهل ربه ، وكفر نعمته ، أو تجاهل ، أو استجهل .

أما من جهل ربه : فهو الذى لا يعرفه ، ولا يثبته كالدهرية ، والثنوية ،

---

(١) لعل أصل الخلاف فى هذا : هل الجمعة فرض عين ، أو فرض كفاية ، وعلى كل حال سواء كانت فرض كفاية أم كانت فرض عين ـ لايسع جهلها على من قامت عليه الحجة بها ، ويمكن كاف فى درء أن يقال لمن قال : إنه لا يقتل أن اعترافه بصلاة الظهر ، وهى أصل الجمعة كاف فى درء الحد عنه ، ولم يرد نص فى قتله إن أنكر صلاة الجمعة يعتمد عليه م .

وجميع ملل أهل الشرك ، أما التجاهل فهو التقصير عما لا تصح المعرفة إلا به إثباتا ونفيا ، كمن لا يعرف ما لا يسعه جهله .

وأما المستجهل : فهو المستعرض لإيصاف خالقه بما لا يليق به ، وأما كفر النعمة : فهو بالقول والفعل ، فهو الكفر الذى يكون من جهة اللغة ، ومن جهة الشريعة .

وقد اجتمعت الأمة على أن الكافر الأصلى ؛ هو المشرك ، واختلفوا فى كفر النعمة ، فنفاه القدرية ، والمرجئة ، والأشعرية ، وأثبته الإباضية ، والصفرية ، والشيعة .

والكفر عند العرب كفران النعمة ، كما قال الله تعالى حكاية عن نبيه سليمان (ﷺ) : « قال : هَٰذَا مِنْ فَضْلِ رَبِّى لِيَبْلُوَنِى أَأَشْكُرُ أَمْ أَكْفُرُ » وقال تعالى : « وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا » ومن كفر فإن الله غنى إن ترك الحج ، وقال تعالى : « لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ » ، وقال النبى (ﷺ) إن انتفاء الرجل من أبيه كفر ومن ترك الصلاة فقد كفر .

فصل :

وأما النفاق فأصله من لغة العرب ، مأخوذ من نافقاء اليربوع ، وهو أحد أبواب جحره ، يتخذه مستخفيا ؛ يخرج منه عند الضرورة ، وإذا خاف ، فأخفاه عن العيون .

وفسر أهل العلم أن النفاق : هو اختلاف السريرة ، والعلانية ، واختلاف القول والعمل ، والمدخل والمخرج . وقد ذكر الله المنافقين فى آيات كثيرة من كتابه .

(١) رواه الطبرانى فى الأوسط ولفظه « من ترك الصلاة متعمدا فقد كفر جهارا : عن أنس م »

واختلف الناس فيهم ؛ فقال قوم : هم مشركون خالف قولهم اعتقادهم ، وقال آخرون : قولهم خالف أفعالهم ، والأصل فى هذا . قوله تعالى : « فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ » الآية .

وذلك أن أصحاب رسول الله (ﷺ) اختلفوا ، فقال بعضهم : القول على حقيقة ماأنتم عليه ، وهم إخواننا ، وإنما ثقل عليهم أمر الهجرة ، والخروج من الوطن — فهم مسلمون مؤمنون ، وقال آخرون : بل هم مشركون لتخلفهم عن الهجرة ، ولقعودهم بين ظهرانى قوم مشركين ، فأنزل الله — عز وجل — : « فَمَا لَكُمْ فِي الْمُنَافِقِينَ فِئَتَيْنِ ، وَاللهُ أَرْكَسَهُمْ بِمَا كَسَبُوا » فأخبر أنهم ليسوا بمشركين ولا مؤمنين ، ولكنهم منافقون .

وأخبر أنه أركسهم بما كسبوا ، ورد على من سماهم مؤمنين،أو مشركين، وسماهم — تعالى — منافقين ، ثم عاتب المؤمنين فيهم ، فقال : « أَتُرِيدُونَ أَنْ تَهْدُوا مَنْ أَضَلَّ اللهُ » الآية ، فوقع العتاب هاهنا على من سماهم مؤمنين .

ثم قال : « وَدُّوا لَوْ تَكْفُرُونَ كَمَا كَفَرُوا ؛ فَتَكُونُونَ سَوَاءً » ، وإنما مودتهم، أن يترك المؤمنون الهجرة كما تركوها هم، فيكفرون كما كفروا.

ثم قال : « فَلَا تَتَّخِذُوا مِنْهُمْ أَوْلِيَاءَ ؛ حَتَّى يُهَاجِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ » فقد انقطعت الولاية بين المؤمنين والكفار ، حتى يهاجروا فى سبيل الله .

ثم قال : « فَإِنْ تَوَلَّوْا ؛ فَخُذُوهُمْ وَاقْتُلُوهُمْ ؛ حَيْثُ وَجَدْتُمُوهُمْ » الآية فصح أنهم قبل التولى — لم يصدر منهم فعل يكونون به منافقين، وترك الهجرة ، وإن وقع التولى ، وهذا الارتداد ، وكان لهم حكم آخر ، وهو القتل .

فمن أثبت النفاق فى الأفعال لمخالفتها الأقوال فهو أقرب إلى الحجة والمحجة؛ إن شاء الله ؛ لأنهم استدلوا بظاهر الآية ، وقضوا بأن النفاق فى الأفعال ،

واستدل من شركهم ، بقوله تعالى : « وَمِنْهُمْ مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ » إلى قوله : « فَأَعْقَبَهُمْ نِفَاقًا فِي قُلُوبِهِمْ إِلَى يَوْمِ يَلْقَوْنَهُ » الآية . قالوا : فلما أخبر عن الوعد باللسان ، وأعقب النفاق فى القلب ـ علمنا أنما سلبهم الإيمان الذى يكون فى القلب عقوبة ، ولن يستقيم النفاق والإيمان فى قلب واحد . وقال آخرون : قد يصح ذلك ، ويقاوم إيمان القلب ، فإن هذا النفاق دغل وغش فى قلوبهم إلى المؤمنين .

والذين قضوا بأن النفاق فى الضمير يفسقون ؛ لأنهم لا يصلون الاعتقادات إلا بنصوص الشارع ، والذين قضوا بهـــذا قد أبعدوا عن أنفسهم أسباب الشرك ؛ لكنهم هدموا قاعدة الخوف ، وسهلوا الطريق إلى الجنة ، والذين قالوا : إنه فى الأفعال عظموا أسباب المخاوف ؛ فهم أحزم ، وهو الصحيح ـ إن شاء الله تعالى ، ولا يستحيل تصرفه فى الوجهين جميعا ، والاحتجاج فى هذا يطول ـ تركته .

وقد جاء الحديث بذكر النفاق فى الأقوال والأفعال؛ كما قال (عليه السلام)[1] : «أربع من كن فيه فهو منافق حقا ، وإن صلى ، وإن صام ، وزعم أنه مسلم : من إذا حدث كذب ، وإن اؤتمن خان ، وإذا عاهد غدر ، وإذا خاصم فجر . وقال (عليه السلام)[2] : « أكثر منافقى هذه الأمة قراؤها » ، وفى حديث حذيفة بن اليمانى قال : كان الرجل فى عهد رسول الله (ﷺ) يتكلم بكلمة يصير بها منافقا ، وإنى لأسمعها من أحدكم فى اليوم عشر مرات . قيل له :

---

(١) رواه البخارى ومسلم ، وأبو داود ، وأحمد ، والبيهقى عن ابن عمرو بألفاظ مختلفة

(٢) رواه أحمد والطبرانى ، والبيهقى عن ابن عمرو ورواه أحمد والطبرانى عن عقبة ابن عامر ، وأخرجه الطبرانى وابن عدى عن عصمة بن مالك . م

المنافقون اليوم أكثر أم كانوا على عهد رسول الله (ﷺ)؟ فقال: اليوم أكثر؛ لأنهم كانوا يخفون نفاقهم، وهم اليوم يظهرونه، وقد كفروا كفرا مبينا.

وقيل للحسن: لا نفاق اليوم، فقال: لو ظهر لكم المنافقون لاستوحشتم فى الطريق، ولو نبت للمنافقين أذناب ما قدر أحدكم أن يطأ على الأرض.

وقيل: سمع ابن عمر رجلا يتعرض للحجاج، فقال: أرأيت إن كنت حاضرا أكنت تتكلم به؟ قال: لا. قال ابن عمر: كنا نعلم هذا نفاقا على عهد رسول الله (ﷺ).

وقال (عليه السلام)[1]: «من كان ذا لسانين ووجهين فى الدنيا، جعل الله له لسانين، ووجهين فى النار». وقال: «شر الناس ذو الوجهين: يأتى هؤلاء بوجه، وهؤلاء بوجه».

وقال أبو مليكة: أدركت خمسين ومائة من أصحاب رسول الله (ﷺ) كلهم يخافون النفاق، وأصل النفاق: تفاوت السر والعلانية، والأمن من مكر الله، والعجب، وأمور أخرى؛ لا يسلم منها إلا الصديقون.

وروى عن جابر بن زيد (رحمه الله) وغيره، فى النفاق وكفر النعمة أحاديث، وآثار كثيرة تركنا ذكرها.

وقيل[2]: إن النبى (ﷺ) قال: «إنى لا أتخوف على أمتى مؤمنا، ولا مشركا، أما المؤمن فحجره إيمانه، وأما المشرك، فيقمعه شركه، ولكنى أتخوف عليهم منافقا عليم اللسان، جاهل القلب؛ يقول ما يعرفون، ويعمل ما ينكرون، وفى ذكر النفاق أكثر [من] هذا - تركته.

* * *

---

(١) رواه أبو داود عن عمار

(٢) روى آخره ابن عدى عن عمر بلفظ: أخوف ما أخاف على أمتى كل منافق عليم اللسان، ورواه جابر بن زيد موقوفا عن أبى عبيدة بن الجراح.

القول الرابع والأربعون

فيما يجوز أن يقال من الكلام، والدعاء

والدعاء فريضة؛ لقول الله تعالى: « ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ » الآية، وقال: « وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى؛ فَإِنِّى قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ » الآية، وقال: « وَاسْأَلُوا اللهَ مِنْ فَضْلِهِ؛ إِنَّ اللهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيماً »، وقال: « ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعًا وَخُفْيَةً؛ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ ».

فأمر الله بالدعاء، وظمن فيه بالإجابة؛ إذا وقع على الوجه المرغب فيه دون المحظور منه؛ لأن ما لا يجوز لا يقع به الضمان بإجابته، لأنه ليس من الحكم أن يقول للناس: سلونى ما لا يجوز لى إن أجبتكم إليه؛ لأن ذلك يقع على غير فعل الحكيم.

ويدل على ذلك أيضاً ما يعرفه الناس من مسألة العبد ربه، الرحمة، والعفو، والغفران عند حادث يحدث به، لا يأمن أن يكون عقاباً نزل به وعند توبته من ذنب قد سلف منه، فإن الدعاء فى مثل هذا وأشباهه قد يلزم، ولا يجوز تركه، وهذه حالة من عرف نفسه بالضعف، والعجز، والاستكانة، وعرف ربه بالقدرة، والقهر؛ والنصر، والإعانة.

واختلف الناس فى الدعاء، فقال قوم: الواجب أن يدعو الإنسان، ويكون سؤاله مقيدا فى العقل والضمير بشريطة حكم الله فيه، وما هو أعلم به من حق تدبيره، لئلا يقع دعاؤه موقع الاعتراض على ربه، والحكم عليه؛ لأن العبد هو المرتوب، ولا تحكّم له على سيده فيما هو أملك به، وأعلم بوجه منه وقال

قوم : يحسن إظهار ما يضمر من ذلك ، ولا يحسن فى أمور أخرى ، وذلك : مثل قول القائل : أحينى ما كانت الحياة خيرا لى ، وأغننى ما كان الغنى خيرا لى. وهذا سائغ فى الدعاء والمسألة ، ولو أفرد الدعاء والمسألة بالحياة ، والغنى بغير إظهار شرط الخيرة كان جائزا ؛ إذا كان عنده ، وضميره على ما يدعو المسلمون .

وقال قوم : إن الدعاء والمسألة لا يحتاجان إلى ضمير يعتقد ، ولا يشترط معهما ، ولا إظهار ذلك أيضاً ، لأن موضع الدعاء هو على ذلك ، ولا وجه لاشتراط الدعاء فيه بإظهار اللفظ ، ولا يعتقده ضمير .

وعندى أنه يجب إذا دعا ربه ، وسأله أن يميته ، أو يفقره ، ونحو هذا ، فلابد له من إظهار الاشتراط ؛ أن يقول : ما كان الفقر خيرا لى فى دينى ، وما كان الموت أنفع لى من الحياة ؛ ولا يرسل المسألة فى هذا إرسالا ، لأن من لم يشترط فى هـذا الموضع خرج دعاؤه مخرج السخط ، والاستصغار لنعم الله ، ولا ينبغى للعبد أن يسأل ربه إلا أن يكون بدعائه مطيعا لربه .

ولا يجوز له أن يسأل ربه ما لو فعله له لم يكن فعله خروجا عن الحكمة ؛ كقول القائل ؛ اللهم أحيى لى ما أمت من أهلى قبل يوم القيامة ، وأرجعهم إلى الدنيا ، أو اجعل عمرى ألف سنة ، أو هب لى ملكا مثل ملك سليمان بن داود النبى (عليه السلام) ؛ فإن فعل هذا ، ودعاؤه كان جاهلا متحكما على الله ، وخروجا عن حد مسألة المتهيب الخاضع إلى حد مسألة المتحكم الملزم ، وليس من مسألة العبد لسيده فى شىء ، وإنما يجرى مجرى الأمر والإلزام ، وإيجاب الفروض .

والمسألة ، وإن كان لفظها لفظ الأمر : فإنها تتصل باسم الأمر بما يجامعها من القصد والإرادة والخضوع ، والاستكانة ، والتواضع وترك الأنفة ،

ولا يجوز أن يقـال : إن العباد يأمرون الله ، وينهونه فى دعائهم له ، ومسئلتهم إياه .

وقيل : إن لفظ الأمر ، والنهى على وجهين ؛ فمـا كان لمن هو دونك فهو أمر ونهى ، وما كان لمن هو فوقك : فهو دعاء ، ومسألة ، وقيل : ما كان لله فهو دعاء .

وأما قول الله تعـالى « : مَنْ ذَا الَّذِى يُقْرِضُ اللهَ قَرْضاً حَسَناً ، فَيُضَاعِفَهُ لَهُ » فمعنى ذلك على سبيل الترفق ، والاستعطاف ، والدلالة على موضع الصلاح للعبد .

ولا يجوز لأحد أن يقول : يارب . لا تجُرْ على ، ولا تظلمنى ، ويجوز أن يقول : « رَبنا وَلاَ تُحَمِّلْنَا مَالاَ طَاقَةَ لَنَا بِهِ ، وَاعْفُ عَنَّا » وإن كان من حكم الله ـ أنه لا يحمل أحـدا مالا طاقة له به ؛ إذ هـذا الـكلام يدل على الاستكانة ، والخضوع .

والدعاء لله ـ تعـالى ـ على ضربين : أحدهما يفعله الله للعبد دعاه ، أو لم يدْعه ، كقوله ـ عز وجل ـ ما حكاه عن ملائـكته (عليهم السلام) : « رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَىْءٍ رَحْمَةً وعِلْماً ، فَاغْفِرْ لِلَّذِين تابُوا واتَّبَعُوا سَبِيلَكَ ، وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ » ، وقد علمنا أن الله ـ تعـالى ـ يدخل المؤمنين الجنة ، وأنه يغفر للذين تابوا ؛ دعا بذلك داع ، أو لم يدع .

والآخر : الذى ليس من حكم الله أن يفعله ؛ إلا بعد الدعاء ـ كدعاء الأنبياء للأشياء التى لولا دعاؤهم بها لما اتفق كونها على سبيل ما اتفقت عليه من الـكثرة .

ومواقيت الأفعال لعلم الله – عز وجل – أن ذلك لا يكون موجبا للحجة ، ولا موافقا موقع المصلحة ؛ إلا بأن يكون بعد ذلك الدعاء ، وقد علمنا بأن المسلمين يوجهون دعاءهم إلى الله فى النصرة على المشركين ، وفى استسقاء الغيث ، وفى كشف ما كان من المكاره وأشباه ذلك رغبة إلى الله – تعالى – وطمعا أن يكون اجتهادهم سببا لاختلاف ما سألوه .

فقد دل على أن من الدعاء ، مالو لم يكن الشىء المسئول فيه ، وإن كنا لا نعرف كل شىء من ذلك بعينه ؛ مما سواه ، ولكننا نعلم فى الجملة : أن مما ندعو به أن الله يفعله دعوناه به ، أو لم ندعه به ، ومنه : ما نعلم أن الله – تعالى – لا يفعله ؛ إلا أن ندعو به ، ومنه : ما ندرى من أى صنفين ؛ فنحن ندعوه بحسن الدعاء ، لما فى ذلك من الوجهين ، وأيضا ؛ فالدعاء يجرى مجرى التسبيح ، والتقديس ، والذكر ، والمسلمون يفعلون ذلك ، والإجابة بموافقة الإرادة .

وفى الخبر : « دعوة المظلوم ، والحاج ، والوالد لا يردها راد ، ولو كان الداعى مشركا ، أو فاسقا . ولو كانت الإجابة لا تكون إلا تشريفا للداعى ، وتعظيما له – لم يجز للنبى (ﷺ) أن يجيب سائلا يسأله ؛ حتى يكون مؤمنا تقيا ، وذهب أن الله – تعالى – يجيب كل داع يدعوه على الشريعة التى لا يجوز [أن] يخرج الدعاء إلا عليها .

وزعموا أن الله – قد ضمن بقوله : « ادْعُونِى أَسْتَجِبْ لَكُمْ » ، وقوله : « وإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِى عَنِّى، فإِنِّى قَرِيبٌ ؛ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ » ، فقالوا : لم يخص بهذا وليا دون عدو ، ولا مؤمنا دون كافر ، فقد دل على عموم كل داع دعا على السبيل التى أمر الله بالدعاء عليها ؛ لأنه ؛ إذا خالف

ذلك ـ خرج من جملة المتضمن لهم الإجابة؛ الذين يفعلون ما أمروا به من الدعاء؛ دون غيرهم.

وقال بعض شيوخنا : إن الله ـ جل ذكره ـ لم يتضمن الإجابة لكل من دعاه بما أمره أن يدعو به، وإنما أعلم العباد أنه ذو إجابة لدعوة الداعي، وهذا وصف يجيز الإجابة لبعض الداعين؛ كما أن البارى ـ جل ذكره ـ وصف نفسه بأنه ذو مغفرة للناس على ظلمهم، وقد تحصل المغفرة للبعض دون الكل.

والذى نختاره، ونذهب إليه : أن الإجابة قد تكون ثوابا، وغير ثواب، وتكون للمؤمن، وغير المؤمن، بحسب ما يعلم الله في فعل ذلك من الصلاح؛ للحجة التى ذكرناها في ما تقدم ذكرنا له. والله أعلم.

فصل :

قال أبو سفيان (رحمه الله) والقنوت في الصلاة، ورفع الإمام يده، وهو يخطب يوم الجمعة ـ بدعة، وإنما كان يشير بأصبعه، وقال عبادة : إنه رأى بشيرا يرفع يديه يوم الجمعة على المنبر، فنهيته، فقال : قد رأيت رسول الله (ﷺ) على المنبر، وما يقول بيده إلا هكذا. وأشار بأصبعه السبابة. وقال أبو المؤثر : يكره للداعى رفع يديه فى الخطبة، والصلاة وغيرها، إلا أنه قد رخص بعضهم فى رفع اليد بالدعاء يوم عرفة. قال : وما نحب رفع اليدين، لأن الله قريب عليم بذات الصدور.

ويروى أن النبي (ﷺ) كان يقول فى دعائه : « اللهم ارزقنى عينين هطالتين؛ تبكيان من خشيتك قبل أن تكون الدموع دماء، والأضراس جمرا »، ولم نر أحدا من أصحابنا يرفع يديه رفعا شديدا إلا أن حاجبا كان يرفع يديه، وكان أحدهم يشير بأصبعه.

فصل :

ولا ينبغى للداعى أن يقول : اللهم ارض عنى كرضاى عنك ، لأن رضا الله أكثر من رضا العبد ؛ ويجوز أن يقول : يارب لا ترزقنى الحرام ، ولا تطعمنيه إياه ؛ لأن الحرام غذاء أهل الكفر والمعاصى ، فمن أكله فقد رزق الغذاء لا رزق التمليك ، ولا رازق غير الله ، ولا مطعم سواه .

واختلف فى قول القائل : اللهم ارحمنى برحمتك ، وتب على بتوبتك .

وروى أبو سعيد (رحمه الله) أن النبى (ﷺ) كان يقول فى دعائه : « اللهم لا تجعل لمنافق على يداً ، ولا منّة » ، وجاء فى الرواية : أن اسألوا الله ببطون أكفكم .

وجاء فى بعض القول : النهى عن رفع الأيدى فى الدعاء ، ورفع الصوت إلا بعرفات ، فإنها ترفع فيها الأصوات بالدعاء وذكر الله ، وأما بسط الأيدى بغير رفع ـ فذلك جائز ، وإرسالها أفضل ؛ لأن ذلك فيه غاية التذلل، والمسكنة.

وحق على السائل أن يخضع ، ويتذلل للمسئول بغاية الافتقار ، والاستكانة من العبد لمولاه ، لأنه لا يملك لنفسه شيئاً، والله ـ تعالى ـ القادر على كل شىء، وقد قال الله تعالى: « وَيَدْعُونَنَا رَغَباً وَرَهَباً » ، وذلك فى القلب لا فى اليدين.

ويجوز أن يقال : اللهم حل بينى وبين الشيطان ، ويقال : إن الله حال بين المؤمنين والكفر ، لأنه أمرهم بالإيمان ، ونهاهم عن الكفر .

ولا يجوز لأحد أن يدعو على أحد بالموت إلا أن يكون الذى دعا عليه بالموت فاسقا مؤذيا للناس ، ونهى عن لطم الخدود ، والدعاء بالويل عند المصائب .

ولا يجوز للمؤمن أن يؤمن على دعاء من لا يتولاه ، ويجوز الدعاء

للمنافق بالعافية ؛ إذا كان فى ذلك رجاء نفع للداعى ، وليس ذلك بولاية .

ولا نحب لأحد أن يقول : اللهم إنى أسألك بحقك على نفسك ، ولا يجوز أن يقال : اللهم إنى أسألك بالله ؛ لأن الله يقول : « ادْعُوا اللهَ ، أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَنَ » .

ولا يجوز أن يقول : اللهم إنى أسألك بحق محمد عليك ، ولا يجوز لأحد أن يقول لإنسان : يسأل الله عنك .

ويجوز أن يقول : أسألك بحرمة محمد (ﷺ) ، ويجوز أن يقول : اللهم إنى أدعوك بأسمائك ، ولا يقول : أسألك بأسمائك .

ويجوز للكاتب أن يكتب لغير الولى : يا سيدى ، ويا مولاى ؛ لأن هذا ينصرف فى اللغة إلى وجوه . ويجوز أن يقال لمن لا يتولى : عظم الله أجرك ، ورحمك الله ؛ إذا كان يتقيه ، وينوى ذلك فى الدنيا .

وسئل محمد بن محبوب (رحمه الله) : هل يجوز أن يقال لمن لا يتولى : أكرمك الله ، أو أحسن الله إليك ؟ قال : نعم . قيل له : ويجوز أن يقال له : أحسن الله جزاءك ، أو ذكرك الله بخيرك ، أو بارك الله فيك ، أو نصرك الله ، أو كلأك الله ، أو صحبك الله ، أو كان الله معك ، أو سلمك الله ؟ قال : لا أدرى أن يقول له شيئاً من هذا . وقال غيره : إنه يجوز أن يقول لمن لا يتولاه : أحسن الله جزاءك : معناه — فى الدنيا ، وذكرك الله بخير ، يريد به المال فى الدنيا ، وبارك الله فيك ، ومن بركته العافية التى يتقوى بها على الطاعة ، والمعصية ، وأما بارك الله عليك — فهو أضيق ، وكذلك ينصره الله : على معنى :

الدنيا ، وكذلك كلأك الله - يجوز فى معانى الدنيا من صحبك الله ، وكان الله معك برحمته فى الدنيا ، وكذلك سلمك الله فى الدنيا .

فصل :

وقيل : كل من ذكر أحداً من المسلمين بما يكرهه ، أو ينتقصه ؛ فلا يجوز له ذلك ، وهو من الغيبة المنهى عنها ، ومن قال : فلان ثقيل الروح ؛ فهو غيبة له ، ولا يجوز أن يقال فى المسلم : إنه سيء الأدب ، سريع الغضب ، نتن الرائحة ؛ لأن ذلك بما يكرهه ، وينتقصه .

ومن قال لمؤمن : هو من شر الخلق وجبت البراءة منه عند السامع ؛ لأنه شهد على مؤمن بالكفر ؛ لأن الله - تعالى - يقول: « إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا » إلا أن يتوب ، ويرجع عن قوله ذلك .

ومن قال : المنافق مشتهر بأكل الحرام ، وظلم الناس ، وشرب المسكر ، ويقر على نفسه بالزنا ، وغير ذلك من انتهاك المحرمات ، ومواقعة الكبائر - أنا خير منه ، فلا يجوز ذلك ، لأن ذلك من التزكية ، والله - تعالى - يقول : « فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى » ، وأما إن قال : أنا خير منه فعلًا فى نفسه ؛ لأن أفعاله عند نفسه طاعة فذلك جائز له ، ومن قال : إنه ليس فى الدنيا خير منه أن يبرأ منه .

وإذا اقتتلت فئتان باغيتان ، فكانت الدائرة على إحدى الطائفتين ؛ فيجوز أن يقال للغالبة انتصرت على المغلوبة ، أو منصورة عليها ، ولا يجوز أن يقال : نصره الله عليها ، ويجوز أن يقال : إن النصر مع الصبر .

ويجوز لمن يقول : أنا أقدر أعمل كذا ؛ على سبيل المجاز لا معنى الحقيقة، لأن العادة قد جرت منه بمثل ذلك . وقال بشير : لا يقال : كل من فعل الكفر فهو بكافر ، ويقال : إن المؤمن واقع الخطيئة ، وأخطأ ، ولا يجوز أن يقال : إنه مخطئ ، ويقال : إنه واقع المعصية ، وعصى، ولا يجوز أن يقال: إنه عصى.

فصل :

قيل اختلف عبد الله بن عباس ، وعبد الله بن مسعود (رحمهما الله) ، فقال ابن مسعود : يجوز للمؤمن أن يقول : أنا مؤمن حقا عند الله ، وقال عبد الله بن عباس : يجوز أن يقال : أنا مؤمن حقا عند نفسي ولا أقول عند الله ، فأرسل عبد الله بن عباس إلى ابن مسعود : إذا قلت إنك مؤمن حقا عند الله ، فقل : إنك في الجنة ، لأن الله يقول : « أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُم دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِم ، وَمَغْفِرَةٌ ، وَرِزْقٌ كَرِيمٌ » وقال ابن مسعود : إن لم تقل إنك مؤمن حقا عند الله ؛ فإنك شاك في إيمانك .

وقال أبو محمد (رحمه الله) : إن سأل سائل فقال : أنت مؤمن ؟ فقل: نعم . عند نفسي ، وأما عند الله ، فلا أدري ، فإن قال : لم لا تقول : إنك مؤمن حقا على غير شرط ؟ ، فقيل : إذا قلت: إني مؤمن حقا ــ قطعت لنفسي بالشهادة برضا الله عني ، فإذا قال : إذا كانت أفعالك كلها طاعة عند نفسك ؛ فلم لا تشهد لها بهذه الشهادة ؟ قال : لأن الله يقول : « فَلَا تُزَكُّوا أَنْفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَى » وقال النبي (ﷺ) : لا تشهدوا لأنفسكم بجنة ، ولا نار .

فإن قال : فإن وصفت نفسك بأنك مؤمن ، وقد مدح الله المؤمنين ، فقل : إني وجدت المسلمين يسمّون كل من كان على مثل ما أنا عليه من الاعتقاد،

والقول ، والعمل مؤمنا ـ فوجب أن تسمى بهذا الاسم فإن قال : أنت مؤمن حقا أم كافر ؟ ، فقل : إن كنت تعنى أنى مؤمن حقا أى سعيد ، فلا علم لى بذلك ، وتلك شهادة غيب محجورة علىّ وعليك ، والسؤال فى الغيب محال ، والمحال ساقط ، وإن كنت تعنى مؤمنا حقا فى حكم ما تعبّدنى الله به فتلك حالات لا يستدل عليها إلا بالأفعال المكفرة ، والأفعال الصحيحة ، وإما فيحال ما أكون عاصياً لله فى حكم دينه ، وإما مؤمن عند نفسى حقا ؛ إذا كنت تائبا إلى الله ـ تعالى ـ من جميع ما عصيت الله فيـه ، مؤديا لجميع ما يلزمنى أداؤه من طاعته .

ولا يجوز لأحد أن يشهد لأحد من الناس بالجنة ، ولو ظهر منه ما يستوجب عليه الولاية : من الفضـل ، والجهاد فى سبيل الله ، والقول ، والموافقة إلا من صح له فى كتاب من كتب الله ، أو شهد له بذلك رسـول من رسل الله ، أو نبى من أنبيائه (صلوات الله عليهم) ؛ وإلا فلا يجوز له أن يشهد له بحقيقة ذلك .

فمن شهد له بحقيقة ذلك بغير هذا الوجه ، ودان به ـ فقد تعاطى من علم الغيب؛ وأخاف ألا يسعه ذلك ، ولا آمن عليـه الهلاك ؛ إلا على اعتقاد الشريطة له ؛ إن كان مات على ظاهر ما صح له من حسن الأعمال الصالحة .

وقال محمد بن جعفر : وقيل : لا يشهد لأحد بالجنـة إلا الأنبياء ، وقيل [هذا] لأبى بكر وعمر لما جاء فيهما ، ولـكننا نشهد لأهل الإيمان بالإيمـان ، والمؤمن فى الجنة ، وأما من مات على الـكفر : فنشهد له بالنار . وقيل : يجوز أن يُشهد لأزواج النبى (ﷺ) (رضى الله عنهن) بالجنة .

وإذا كان رجلان من أهل الولاية : أحدهما يُخرج زكاته ، ولا يتصدق على جار ، ولا قريب ، والآخر يتصدق ، ويعطى الضيف ، ويبذل الأخلاق الحسنة ـ فلا يجوز أن يقال ؛ هذا كريم ، وهذا بخيـــل ، ولـكن يقال : هو أكرم منه .

ولا يجوز أن يقال لوليين : هذا أورع من هذا ، ولا أصدق منه ؛ لأنه يتوهم على الآخر بالـكذب ، وترك الورع ، وأما أفضل منه ـ فجائز ؛ إذا كان كذلك فى ظاهر الأمر ، والمؤمنون يتفاضلون فى الدرجات من غير أن ينقص أحدهم من منزلته فى الفضل .

فصل :

ولا يجوز أن يقال : لغير الولى بعد موته عفا الله عنــه ؛ إلا أن يريد عفا الله عنه ، ولم يؤخذه عند معصيته بالعقوبة .

ولا يجوز أن يقول له : حياك الله ، ومرحبا بك ، ولايجوز لأحد أن يقول لغيره : أعرض الله عنك ، ولا أقبل إليك ، ولا يجوز أن يقال : تعالى الله بالعز والـكبرياء .

ويجوز أن يقال : أستودعك الله . أى أسأل الله أن يحفظك ، ويجوز أن يقال : استحفظ الله إياك ، ويجوز أن يقول : يا رجائى بمعنى : يا من أرجو من جهته ، ويجوز أن يقال لغير الولى : لا نظر الله إليك ، ويجوز أن يقال : إن الله يسمع ويرى ، ولا يجوز أن يقال : يستمع ، ولايفهم ، ولا يفقه ، واختلف فى يدرى ويعرف ، وكل ذلك جائز ؛ إذا كان بمعنى العلم .

ولا يجوز الترحم على الفساق ، وقال أبو محمد : فى الترحم على من لا ولاية له اختلاف ، فمن أجاز: فعلى معنى صرف المنية إلى الله ، قد رحمه حين أخرجه حيا ، وأبلغه رسالة نبينا محمد ﷺ ، ويقال لليل والنهار : إنهما من رحمة الله .

ولا يجوز أن يقال لغير الولى : غفر الله لك ؛ إلا أن يريد بقوله — ستر الله عليك فى الدنيا بما يكره إظهاره، لأن الغفران هو الستر، ويجوز أن يقال للمنافق: إنه جيد ، ويعنى أنه جيد لأهله .

وقال رجل لبشير : إن رجلا يبلغنى عنه الكلام الذى يؤذينى ، ولا يصح ذلك إلا بشاهدى عدل ، وأنا لا أتولاه ، ولا أبرأ منه : هل لى أن أدعو له بشىء من أمور الدنيا ، وقلبى لا يحب له ذلك ؟ فقال : لا بأس بذلك والله أعلم ، فمن تكن له حرمة الإسلام دعى له بأمر الدنيا .

فصل :

ويجوز أن يقال : الحمد لله بما يحمد به نفسه ، وسبح به نفسه ، وهلّل به نفسه ، وينوى به أن نفسه هو الله لا شىء غيره .

ولا يجوز أن يقال : جزاء ربنا الحمد والشكر ؛ لأن الله — تعالى — غنى عن العباد ، وحمدهم ، وشكرهم، وجميع عباداتهم ، وإنما الشكر فضل من الله على الشاكر ، ونعمة منه عليه بما يعطيه من الثواب على ذلك ، ويقال : إن الله أرحم الراحمين ، ولا يقال : أرحم الرحماء .

ويكره أن يقال : نأل الله لا نألك ، ومن طلب إليه منه شىء فقال : ما عندى قليلُ الله ، ولا كثيرُه .يريد من ذلك الجنس الذى طلب إليه منه ، وكان صادقا عليه فى ذلك ، ويجوز أن يقال للولى : لاشق الله عليك، ولا يجوز

ذلك لغير الولى ، ويكره أن يقال : اعتمادنا على فلان بعد الله .

ويجوز أن يقال:اللهم صلّ على محمد كما صليت على إبراهيم،وآل إبراهيم .

وقيل : لايجوز أن يقال الحمد لله الذى كان كذا ، وكذا ، ولكن يقال : الحمد لله ؛ إن كان كذا وكذا .

ويجوز أن يقال : احتجب الله عن خلقه لعزته ، وقدرته ، ولا يجوز أن يقال : احتجب بنوره ، ولا بسمواته ، وقول : لا يجوز أن يقال : احتجب بعزته وقدرته ، لأنهما صفة من صفاته ، وجبتا لذاته ، ولا يجوز أن يقال : هما غيره .

وأما الحجاب الذى ذكره الله هو فى القرآن هو المنع للخلق عن رؤية البارى ـ جل وعلا ـ وليس هو بحجاب ساتر بينه وبين خلقه ، ولكن الله حجب خلقه عن رؤيته .

ويجوز للقائل أن يقول : رضينا بقضاء الله وقدره ؛ فإن قال قائل : فإن قضاء الله الكفر والظلم ، قيل له : إن الكفر والظلم هما من كسب العباد ، والله المقدر لأفعالهم ، وقيل : لايجوز لأحد أن يقول لآخر : الرأى لله ثم لك ، ومن كلام المهنا بن جعفر : استحفظ الله لك ، واستكلئه إياك ومن كلام أبى المؤثر (رحمه الله) : خلق الله الخلق محتاجين إليه ، غنيا عنهم ، وهو الغنى الذى لا تلزمه الحاجات ، وفى سيرة نسيب بن عطية ؛ فقد غير الله أقواما حين تركوا الأمر بالمعروف ، والنهى عن المنكر .

ومن كلام أبى عبد الله محمد بن محبوب (رحمه الله) إلى أحمد بن سليمان

الحضرمى (رحمه الله) : أعز الله كلمتكم ، وشكرا أعمالكم ، وقوّى دعوتكم ، ورد إليكم نعمتكم ، وأفلج حجتكم ، وأثرى أموالكم ، وكثر على الحق رجالكم ، وصدق مقالكم ، ورضى الله آمالكم ؛ ورتق بكم الفتوق ، وأعطى بكم الحقوق ، وأحيا بكم سنة الصادق الصدوق ، وأخمد بكم نار ذوى الفتنة والمروق ، ودفع الله بكم الأعداء ، وداوى بكم الأدواء ، وأوضح بكم سبل الهدى ، أدام الله ستركم ، وأعز نصركم ، وقوّى قلوبكم ، وطهّر عيوبكم ، ومكّن الله بكم الإسلام ، ووصل بكم الأرحام ، وجلا بكم الظلام . شد الله أزركم ، ووضع وزركم ، سكن الله بكم الروعات ، وأذهب بكم الفزعات ، وحقن الله بكم الدماء ، وجلا بكم العماء ، ولا أراكم الله سوءا ، ولا أشمت بنا وبكم عدوا . وأحمد الله أمركم ، ومدح أبرّكم ، ورفع الله قدركم ، وقوى صبركم ، وشكر شكركم ، وأعاذكم جور المسالك ومحل المهالك ، وأحلنا وإياكم دار السلام مع الحور فى تلك الخيام ، وفعل لنا ذلك ولجميع المسلمين ، ختم الله لنا وإياكم بالسعادة ، ورزقنا وإياكم الشهادة .

ومن كلام موسى بن أبى جابر (رحمه الله) : نسأل الله الملك الحق الذى لا إله إلا هو رب العرش الكريم ، أن يوفقنا وإياكم للتى هى أقوم ، وأن يعصمنا من شبهات الضلالات ، ولبس الفتن والجهالات ، والإسلام شرع الله ودينه فى الأولين والآخرين .

ويجوز أن يقال : لطف الله بنا . ويجوز أن يقال : كل بالله لاحق ، أى لقضاء الله وقدره صابر . ويجوز أن يقال : رأيت الله يقول : كذا وكذا ، بمعنى : علمت أن الله يقول : كذا .

فصل :

ولا يجوز أن يقال: ما أبصر الله بعباده، وما أعلم الله بعباده، وما أقدر الله، وما أحكم الله ، وما أكرم الله بعباده ، وما ألطفه وأعلمه ، وما أشبه هذا ؛ لأنه تعجب ، والتعجب منفى عن الله . وقيل : إن التعجب يجوز فى الأفعال ، ولا يجوز فى الصفات الذاتية ، فيجوز أن يقال : ما أحسن صنع الله ، وتدبيره.

ولا يجوز أن يقال: ما أحسن علم الله ، وقدرة الله ، وعزة الله . ولا يقال: إن الله لحسن العلم والقدرة والعزة . ولا يقال فى صفة الله – تعالى – : المتعزز ، ولا المتكبر ، ولا تعزز ، ولا تكبّر ، ولا تجبّر ، ولا افتخر ، لأن الافتخار لا يكون إلا بين النظراء المتضادين . ولا يقال : إن الله – تعالى – بالعز والكبرياء .

ولا يقال : احتجب بقدرته عن أعين الناظرين ؛ لأن القدرة ليس هى غيره، وليس هو ممن يتوارى ويحتجب . ولا يجوز أن يوصف الله بالرأى ؛ لأن الرأى أن يرى الشىء بعد الشىء ، وهو أن يبدو له بعد أن لم يكن .

ولا يقال: هذا حرام فى رأى الله ، ولا فى اعتقاد الله. كما يقال: هذا حرام فى دين الله ، وفى علم الله . ولا يجوز أن يقال : يرى كذا ، ويعتقد كذا . ولا يقال : له مذهب كما له علم . ويجوز أن يقال : نظر الله له ، واختار له . ولا يجوز أن يقال : لِمَ علم الله ؟ ، ومتى علم الله ؟ ، وكذلك ما كان من صفات الذات كقولهم : لم قدّر الله ؟ ، ومتى قدّر الله ؟ ، ولِمَ أراد الله ؟ ، ومتى أراد الله ؟ – هذا غير جائز فى صفات الذات .

ويجوز أن يقال : كلّف الله العباد الطاعة ، وأمرهم بها ، واختلف

في قولهم : سألهم الطاعة ، وطلب منهم الطاعة ، قول : يجوز ، وقول : لا يجوز ؛ وأراد الله منهم — فجائز .

ويقال : وهبت هذا لله — تعالى — وتركته له ، وأقرضت الله . ولا يقال : تصدقت على الله . ولا يقال : أخرج ما وهب له من ملكه .

ولا يقال : إن الله يحذر ، ولا يخاف ، ولا يخشى إلا على معنى العلم ، وفي قوله تعالى : « فَخَشِينَا أَنْ يُرْهِقَهُمَا طُغْيَانًا وَكُفْرًا » أي : فعلمنا .

ولا يقال : إن الله يظن ، وإن كان الظن يجيء بمعنى العلم ؛ كما قال الله تعالى : « الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُمْ مُلَاقُوا رَبِّهِمْ ، وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ لَا يَرْجِعُونَ » أي : يعلمون ؛ لأن الظن يجيء بمعنى الشك ، وبمعنى العلم ؛ فالشك لا يجوز على الله تعالى .

ولا يقال : إن الله يتقي ولا يرجو ؛ لأن الرجاء : قد يكون على الخوف أو الطمع ، وذلك منفي عن الله — تعالى .

ولا يقال : إنه يتخير على عباده ، ولا يتلطف لهم ، ولا يتودد . ويقال : إنه لطيف بهم ، وأنه ودود .

ولا يقال : إنه أشفق عليهم ، ولا يقال : إنه غليظ على الكفار ، ولا عنيف ، كما قيل : إنه غضب عليهم ، ولا يقال : إن شيئاً أشد عليه من شيء ، ولا شيء أهون عليه من شيء ، ولا يوصف بالعجلة . ويقال : وجدت الله صنع كذا وكذا . ولا يقال : أدرك كذا وكذا .

ولا يوصف الله تعالى بالعناية ، ولا بالنصح . ولا يقال : ألزم نفسه كذا . ويقال : أوجب وكتب على نفسه . ولا يقال : قام الله بك ، ولا قعد بك ،

ولا سكن بك ، ولا حرك بك ، وما كان مثله ـ فعلى قياسه . ولا يقال : ما دعا الله إلى كذا وكذا ، ولا ما حمله على كذا وكذا؟ . ولا يقال فى شىء : إن الله احتاج إليه إذا فعله . ولا يقال : ما صيره إلى هذا الفعل لأمر لا يفعله ثم فعله.

ولا يقال، فيما نفى الله عن نفسه من الظلم : اعتذر ؛ لأن المعتذر الذى ليس له على ما أضيف إليه شواهد نافية ، وقد جوّز بعضهم : اعْتُذِرَ ، على غير ما يفعله من اعتذار الخلق على التعظيم .

ولا يقال : إنه مشغول ، لأن من شغله شىء منعه عن غيره ، والله ـ تعالى ـ لا يشغله شأن عن شأن . ولا يقال : إن لله فى صناعته ، ولا هذا صناعة الله . ولا يقال : يمس الله شيئاً ، ولا يمسه شىء ، ولا يحل فى شىء ، ولا يحله شىء ، ولا يقرب ـ هو ـ من شىء قرب المسافة ، ولا يقرب منه شىء ، وكذلك القول : فى البعد على هذا المعنى .

ويجوز أن يقال : إن الله خالق كل شىء ، ولا يقال : هذا ولد الله ، ولا ابن الله ، ولا زوجة الله ، ولا بنات الله ؛ لأنه خلقهم ، كما يقال : أرض الله ، وسماؤه ؛ لأنه خلق ذلك جميعا ، ولكن يقال : عباد الله . ولا يقال : هذا قميص الله ، ولا رداؤه ، ولا نعله ، ولا خُفّه ، وما أشبه هذا ، لأجل أن الله الخالق لذلك ، ومالكه ، ولكن يقال : مال الله ، وملك الله ، وكذلك : هو خالق جميع الجوارح ، ولا يقال : هذه عين الله ، ولا يده ، ولا رجله ، ولا ما أشبه هذا ؛ فلا يجوز إضافته إليه .

وكل ما يستقبح فلا يجوز على الله ، وإن كان محتمل المعنى ؛ لأن القول فى هذا ؛ إنما هو تسليم ، وأمور موضوعة لا على قياس ، وتشبيه ، ولا يجوز أن يضاف إلى الله إلا ما حسن من الأسماء ، والصفات .

ولا يوصف الله بالصعود ، ولا بالنزول ، ولا يقال : حواه مكان ، ولا خلا منه مكان ، ولا فارقه مكان ، ولا وصفه مكان ، ولا يوصف بالقيام والقعود ، ولا الكسل ولا التوانى ، ولا الخلق ولا الفترة ، ولا الشهوة ، ولا الغفلة ، ولا اللهو ؛ بل خَلْقه لجميع ما خلق — صلاح منه لا فساد ، عدل منه لا جور .

ولا يقال : جار ، وأربى ، ولا أسرف . والله تعالى — خلق جميع ذلك كله — سبحانه وتعالى — لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ، ولا يوصف بالضجر ؛ لأن الضجر اغتمام ، وفيه كلام وتضجُّر ، ولا يوصف بالملال ولا السآمة .

وكثير مما وصف به نفسه لا يدخل فى أسمائه الحسنى ، وإن كان الفعل مضافا إليه ؛ من ذلك . لا يقال : إنه زارع ولا زراع ، ولا ماكر ولا مكار ، ولا خادع ولا خداع ، ولا بان ولا بنّاء ، ولا فارش ولا فراش ، ولا ماهد ولا مهّاد ، ولا مشتر ولا مقترض ، ولا جلد ، ولا يقال : بنى فلان بين الله والشمس .

فصل :

ولا يرقى الراقى بكلام لا يعرفه ، ولا يقول : أخذت بكذا ؛ إلا أن يقول : أخذت بالله ، ولا يقال : المستعان الله ، ولكن يقال : الله المستعان ، ولا يقال : ليس وراء الله منتهى ، ولا قدام .

ويكره أن يقال : لا ، والحمد لله ، ولكن يقال : لا ، ولله الحمد ، ويكره أن يقال : عبدى ، وعبدتى ، ولكن : فتاى ، وفتاتى ، ويكره أن يقال : قوس قزح ، ولكن يقال : قوس الله ، ولا يقال : ما أجرأ فلانا على الله ؛ لأن الله أعز من أن يجترئ عليه أحد من خلقه ، ولكن يقال : ما أغر فلانا بالله .

فصل :

ولا تجوز على الله الأينية ، واللمية ، والكيفية ؛ لأن الأينية : سؤال عن المكان ، فيقال : أين هو ، ومن كان له مكان فله حد ، والمحدود مخلوق .

واللمية : طلب للعلة كقول القائل : لم كان كذا ، وهذا إنما يقال : لما لم يكن ، فكان .

وأما الكيفية : فهو استخبار عن الهيئة ، والصورة واللون ، والله تعالى ، لا هيئة له ، ولا لون ، وأما الكمية : فهو عبارة عن المقدار ، والعدد ، والله سبحانه ـ يتعالى عن جميع ذلك ؛ لأنه لا يوصف بكيف ، وأين ، وحيث ، ولم ، ولو .

فمن وصفه أو ذكره بشيء من ذلك ـ فقد طلب له عيانا ، ومكانا ، وحلولا ، واستمكانا ، ومن وصفه : بلِم ؛ فقد سأله عن فعله ، والله لا يسأل عن فعله .

ولا يجوز أن يقال لله . لم يزل ، ولا يزال ؛ حتى يوصل ذلك بصفة من صفات الله تعالى فيقال : لم يزل الله عالما ، ولا يزال عالما ، ولم يزل قادرا ، لأن بهذا يصح الوصف التام .

ولا يجوز أن يقال : إن الله مباين للعالم ، ولا مجاوز له ، ولا يجوز أن يقول : إن الله غاب عن العيون ، ويجوز أن يقال : الحمد لله حق حمده ، وقيل: يجوز أن يقال : لم يزل الله إلها ، وقيل : لا يجوز ، حتى يقال : لم يزل الله إلها لمألوه ، ولا يجوز أن يقال : الله يستمع .

ويجوز أن يقال : الله العلي الأعلى ؛ يريد بذلك علو المقدار ، وارتفاع المنزلة ،

والشأن لا لأنه فى مكان مرتفع . ولا يجوز أن يقال : يا عماد من لا عماد له ، وياظل من لا ظل له ، ويا كنز من لا كنز له .

ويجوز أن يقال : ليت شعرى عن كذا وكذا ؛ كما قال النبى (ﷺ) ليت شعرى ما فعل أبواى ، فأنزل الله ـ عز وجل ـ «وَلَا تُسْأَلُ عَنْ أَصْحَابِ الْجَحِيمِ » ، ومعنى ليت شعرى ؛ أى : ليت علمى ، ومايشعرك ؛ أى : مايدريك.

* * *

القول الخامس والأربعون

فى الملائكة والجن ، وإبليس ، والشياطين ، وخاطر النفس

قيل : خلق الله الملائكة من نور ، وقيل : من ريح ، وخلق الجان من النار ، والنار من النور ، وسميت الملائكة ؛ لتبليغها رسائل الله — تعالى — إلى أنبيائه عليهم السلام . أخذ من الألوكة وهى : الرسالة ، ومن الملائكة من لو أمره الله أن يبتلع السموات والأرض ، ومن فيهن لفعل .

واختلف الناس فى الملائكة . هل هم مكلفون أولا ؟ فقال قوم : هم مأمورون منهيون ؟ لقول الله تعالى : « يَخَافُونَ رَبَّهم مِنْ فَوْقِهم ، وَيَفْعَلُونَ مَا يُؤْمَرُونَ » .

وقال قوم : هم مقصورون على طاعة الله ، مجبولون عليها ؛ كما قال الله تعالى : « يُسَبِّحُونَ اللَّيْلَ وَالنَّهارَ لَا يَفْتُرُونَ » ، وقال : « لا يَعْصُون الله ما أَمَرَهُم ، وَيفْعَلُونَ ما يؤْمَرُونَ » .

وقال أبو سعيد (رحمه الله) عن الشيخ أبى الحسن (رحمهما الله) فى قوله تعالى : « يُعَلِّمُونَ النَّاسَ السِّحْرَ » : إنَّما هُمُ الشَّياطِين ، « ومَا أُنْزِلَ عَلَى المَلَكَيْن » : « هَارُوتَ ومَارُوتَ » أى : لم ينزل عليهم السحر ، وما يعلمان هما من أحد ؛ وإنما كانا يقولان : السحر كذا وكذا ، فلا تفعل كذا وكذا — فتكفر .

وأما قوله تعالى : « وَإِنَّ عَلَيْكُم لَحَافِظِين ، كِرَاماً كَاتِبِينَ » . قيل : لكل آدمى ملكان ؛ أحدهما عن يمينه يكتب حسناته ، والآخر عن شماله

يكتب سيئاته ، قلمهما لسانه ، ومدادهما ريقه ، ومجلسهما على شاربه ؛ فإذا عمل العبد حسنة ـ كتبها صاحب اليمين ، ولم يشر على صاحب الشمال ، وإذا عمل سيئة ـ قال صاحب اليمين لصاحب الشمال : قف سبع ساعات لعله يستغفر ، أو يتوب ، فإذا لم يستغفر ، ولم يتب ـ كتبت واحدة ، ووكل الله بكل عبد ملكين بالنهار ـ وملكين بالليل يتعاقبان عليه .

وقيل : إن الملائكة لا يوصفون بالذكورية ، ولا الأنوثية ، ولا بالأكل ولا بالشرب ، ولا بالنوم ولا بالراحة ، ولا باللحم ولا بالدم ، ولا بالتناسل ولا بالموت قبل فناء الدنيا ، ولا بالطفولية ولا بالهرم ، ولا بالأمراض ، ولا بالأحزان ، ولا الأسف ولا الفرح ، وهم مقيمون فى طاعة الله يعملون بأمره ، كما وصفهم الله تعالى .

فصل :

وأما إبليس (لعنه الله) فهو أب للجن ، كما أن آدم أب للبشر ، وقيل إن أبا الجن غير إبليس (لعنه الله) ، وإبليس ليس من الملائكة : لأن الملائكة لا يعصون الله .

والجن مكلفون كالإنس : لقول الله تعالى : «سَنَفْرُغُ لَكُمْ أَيُّهَا الثَّقَلَانِ» ، ثم قال : « يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالْإِنْسِ » والشياطين كفرة الجن ، ومردتهم ، والحجة على تكليف الإنس ، والجن ـ قول الله تعالى : « وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالْإِنْسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ » أى : ليعرفونى ، ويطيعوا أمرى .

فصل :

وأما الجن : فقيل : إن أباهم سأل الله تعالى : أن يَرى ، ولا يُرى ، وأن

يكون مسكنه تحت الثرى ، فجعل الله له ذلك ، ولذريته ، فمن قال : إن الجن يُرون – فقد كذب القرآن ؛ لأن الله تعالى يقول : « إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ » .

وقال أبو محمد (رحمه الله) من قال : إن الجن يراهم بنو آدم – ويكلمونهم – وإن السحرة ينقلبون حماما – فعليه التوبة ، والاستغفار ، وإن لم يتب برئ منه .

ولا يجوز لأحد أن يقول : إن أحدا من آدم يرى إبليس (لعنه الله) ؛ لأن الله تعالى يقول : « إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لَا تَرَوْنَهُمْ » .

وقال أبو سعيد (رحمه الله) : إن ظواهر القول أن الجن قد يكون منهم ؛ أنهم يتصورون فى صور الدواب ، والطير ، ويطيرون على هيئة الطير ، ويتشبهون فى صور الإنس ، وكذلك بعض الإنس مما يضاف إليه السحر ممن يكون منهم نحو هذا ، وليس ذلك عندى بمعدوم من الإنس ، كما ليس بمعدوم من الجن ، ولسنا نثبت ذلك على الحقيقة ، ولا ننفيه على الحقيقة ؛ إلا أن يصح ذلك . . .

وقيل : إن الله تعالى – خلق الشياطين فى أقبح صورة ، وأشنع هيئة ؛ فلو جعله الله ظاهرا لخافهم بنو آدم ، وتوحشوا منهم ، ولكن أخفاهم الله – تعالى – رحمة منه لبنى آدم ، ورأفة منه لهم ، فالمؤمنون لهم أعداء ظاهرون ، وباطنون ؛ هم الكفار من بنى آدم ، والباطنون هم الشياطين مستورون . فأمر الله المؤمنين بجهاد الكفار ظاهرا ، وجهاد الشياطين باطنا ؛ لينالوا أجر الجهاد الظاهر والباطن .

ومن قال : إن الجن يدخلون فى أجساد بنى آدم ؛ فلا يمكن أن يدخل جسم فى جسم ، فيسكونا ساكنين فى حين واحد ، وبعض يقول : بجواز دخول

الجن فى الناس ، واحتجوا بقوله تعالى : « لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ الَّذِى يَتَخَبَّطُهُ الشَّيْطَانُ مِنَ الْمَسِّ » .

ولا يمكن قول من قال : إن الجن يعلمون الغيب ؛ لأن الله يقول : « لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ الْغَيْبَ مَا لَبِثُوا فِى الْعَذَابِ الْمُهِينِ » ، وبعض يجيز ذلك فى أحاديث لم ذكروها .

واختلف فى الشياطين ، فقيل إنهم يعلمون ما يحدث فى قلوب بنى آدم ، وليس ذلك بغيب ، لأن الله جعل فى ذلك دليلا .

وأما إلقاء الشياطين الأحاديث ؛ فإنه قيل : قد كان ذلك قبل مبعث رسول الله (ﷺ) يسرقون السمع من السماء ، ويلقونه إلى الكهان ، فيزيد فيه الكهان إن من قِبَلهم كلاما ، ويجعلونه أنه منهم كهانة ، وعلما وفراسة .

فصل :

إن قال قائل : إن إبليس من خلقه ؟ قلنا له : إن الله خالق كل شىء ، ولا خالق غيره ـ سبحانه وتعالى ، فإن قال: هو خير أو شر ؟ قلنا له : إن كنت تعنى بدن إبليس ، وخُلُقه ـ فهو شر ، لأنه كثير الشر ، ومحب للشر .

وقيل : كان إبليس عبدا صالحا مؤمنا ، فانتقل من الإيمان إلى الكفر بسوء اختياره ، ولم ينتقل من خلقته إلى غيرها ، وأنه عبد الله قبل خلق آدم ثمانين ألف سنة ، ثم كفر بسبب سجدة لآدم ، وتلك السجدة كانت طاعة لله ـ تعالى ـ فَكَفَرَ وتولى ، وأصلاه الله جهنم وساءت مصيرا .

وإنما خلقه الله كما خلق غيره من الخلق ؛ ليأمرهم بعبادته أمرا اختياريا ؛

فمنهم من آمن ، ومنهم من كفر ؛ فمن آمن بفضل الله — تعالى — ومنّه عليه ، وهدايته له ، وتوفيقه إياه اختار الإيمان على الكفر . ومن كفر فبسوء اختياره للكفر ، ومحبته له ، وشغله به ، ضل وكفر — ولم يجبر الله — تعالى — أحدا من خلقه على طاعة ، ولا معصية .

وقد أمرنا الله بالاستعاذة من الشيطان الرجيم ، والامتناع منه بالله تعالى — فقال : « وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ » ، وقال : « قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ » ، و « بِرَبِّ النَّاسِ » أى : أمتنع بالله ، وألوذ به وأستعين به ؛ فأمر الله واجب علينا أن نفعله .

فصل :

وسئل بشير عن الرجل يهم بالحسنة ؛ أن يفعلها ، كيف يصل إبليس إلى علم ذلك ؟ قال : اختلف فى ذلك ، فقال قائلون : إنه يصل إلى ذلك بالدلالة ، كالذى يتناول الشىء بالرمح وغيره ، وقال آخرون غير ذلك .

وأصح ما سمعت أن قلب ابن آدم كالقارورة فى جوفها نار تنظر من خارجها فإذا هم العبد بالطاعة — سطع ذلك النور إلى دماغه ؛ فيفترق على ثلاثة أقسام ، فمن أراد بعمله وجه الله — تعالى — مخلصاً ، لم يمنع ذلك النور مانع ، ولم يستطع إبليس (لعنه الله) صرفه عنه إلى غيره ؛ لقول الله تعالى : « إِنَّ عِبَادِي لَيْسَ لَكَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانٌ » .

ومن أراد بعمله لله ولغيره — خالطه الشيطان ، ومنع النور من النفوذ إلى العقل ، وأشغله عن تخليصه إلى حالة القبول ، ولبّسه عليه ، وكدّر صفوه ،

وأخرجه من حالة العبادة إلى حالة اللهو، واللغو بغير فائدة فيطفأ ذلك النور، أو ينعكس إلى أسفل.

ومن أراد بعلمه غير الله - طفأ ذلك النور، وكانت مكانه ظلمة فى القلب، وكان عمله وبالاً عليه، ليس له فيه نصيب، وهو مأخوذ به، ومجازى عليه، نسأل الله - تعالى - أن يمن علينا بالتوفيق، والتأييد، والإرشاد، والتسديد؛ لإخلاص العمل له، واجتناب ما نهى عنه؛ إنه ولى ذلك، والقادر عليه.

وقيل: إن الشيطان (لعنه الله) قاعد على جانب قلب آدم الأيسر، واضع خرطومه على فم القلب يوسوس فيه؛ فإذا ذكر العبد ربه خنس؛ وإذا لم يذكر الله وسوس، وهذا هو الوسواس الخناس الذى ذكره الله - تعالى، وخرطومه كخرطوم الكلب فيما قيل، فمن أطاعه فى وسواسه ضل وغوى، ومن خالفه. اهتدى ورجع الشيطان مُنْهزِماً.

وأما معنى إضلال الشيطان للعباد: فهو دعاؤه لهم إلى الضلال، وتزيينه لهم الكفر؛ فمن أطاعه ضل وغوى، ومن عصاه سلم واهتدى ونجا، وليس له من الضلالة شىء، ولا للنبى (ﷺ) من الهداية شىء، ولو كانت الضلالة إليه لأضلّ الناس أجمعين.

فصل:

وأمّا الإرسال فى كلام العرب: فهو الخبر؛ كما قال الله تعالى: «إِذْ أَرْسَلْنَا عَلَيْهِم الرِّيحَ الْعَقِيمَ»، وإرسال تخلية؛ كما يقول الرجل لصاحبه: أرسل دوابك على هذا العلف، أى: لا تمنعها بالحبس.

فإرسال إبليس (لعنه الله) إرسال تخلية، قال الله تعالى «إِنَّا أَرْسَلْنَا

الشَّيَاطِينَ عَلَى الْـكَافِرِينَ » أى : خليناهم ، ولم نمنعهم بالقهر والاضطرار .

وذلك : أن الله ــ عز وجل ــ نهى إبليس وجنوده عن الـكفر ، والدعاء إليه ، والأمر به من غير جبر منـه لهم بذلك ، ولم يرسلهم على الناس تسليطاً عليهم بالـكفر والفساد ؛ لأن الله لا يأمر إلا بالعدل والإحسان ، فلو سلطه وجنوده جبْرا على العبـاد ، [لـكان] أمراً لهم بذلك ما لم يأمر العباد بالحذر من الشيطان ، والله يقول : « إِنَّ الشَّيْطَانَ لَـكُمْ عَدُوٌّ ، فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا » .

وأما ظفر إبليس بالعباد من الشرق إلى المغرب، فقد ذكر الله أن له قبيلا، وهم أعوانه ، وقرناؤه . وقيـل : إنه يدخل على الجن والشياطين ، كما يدخل على الإنس .

وقيل : إن فى الإنسان خاطراً للإلهام ، وخاطراً للوسواس ؛ فخاطر الإلهام ما يدل على مكارم الأخلاق ، والإصابة فى الأمور ، وخاطر الوسواس ما يوقع فى الأباطيل ، ويصرف عن الحق، ويلقى فى الخطايا والرزايا ، والأخلاق الرديئة.

فالوسوسة إذا دخلت فى القلب فهى كالدخان فى البيت ، فما دام الدخان فى البيت فالبيت مظلم ؛ فإذا خرجت منه الوسوسة ثبت الإلهام واستقرار الحق فيه وحذر من الباطل .

لأن الوسوسة من الشيطان،والإلهام من الملك الملهم، قاعد عن يمين القلب، وإبليس نحو يساره ، ومسكنهما الصدر والله أعلم .

وقيل : الخواطر أربعة : خاطر من الله يدعو العبد إلى الانتباه لفعل الخير، وخاطر من الملك الملهم يدعو إلى حب الطاعة ، والمسارعة إليها ، وخاطر

من النفس ؛ يدعو إلى التزين والراحة ، والتنعم فى الدنيا ، وخاطر من الشيطان؛ يدعو إلى الحقد ، والكبر ، والحسد ، والعداوة .

وقيل : من أجاب ناطقا فقد عبده ؛ فإن كان الناطق عن الله ؛ فقد عبد الله ، وإن كان الناطق عن إبليس ؛ فقد عبَد إبليس .

وعبادة إبليس ليست عبادة سجود وركوع ؛ كعبادة الله ، ولكن عبادته : طاعته فيما دعا إليه من قول الكذب ، والزنا ، والسرقة ، وشرب المحرمات ، وأكل أموال الناس بالباطل ، وجميع الظلم والبدع ، وما كان من جميع معاصى الله – تعالى – من جميع الأعمال والأقوال .

فمن أطاع الله وحده – كفر بالشيطان ، وخالفه فى جميع ما يدعو إليه من المعاصى ، ونزّه قوله ، وعمله ، واعتقاده من العيوب : دقيقها ، وجليلها ؛ فيرجى له النجاة ؛ كما قال الله تعالى : « فَمَنْ كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا ، وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَداً » .

فصل :

وقيل : إن الخاطر الذى من قبل الله ابتداء – قد يكون إكراما ، أو إلزاما للحجة ، وقد يكون امتحانا وتغليظا فى المحنة .

و[الخاطر] الذى يكون من قبل الملك الملهم فلا يكون إلا بخير ، لأنه كالناصح المرشد ، وأما الخاطر الذى يكون من قبل الشيطان (لعنه الله) ؛ فلا يكون إلا للشر إغواء ، وإضلالا ، وربما يكون بخير مكرا واستدراجا ، والذى يكون من قبل النفس لا يكون إلا بشرٍّ ، وربما يدعو إلى الخير ، والمقصود منه شرٌّ ؛ كما للشيطان .

وأما الفرق بين هذه الخواطر ، فكل ما وافق الشرع ، أو اقتدى بأحد من الصالحين فهو خاطر خير ، وكذلك إذا عرض على النفس ، ونفرت منه نفرة طبع ؛ لا نفرة خشية وترهيب فهو خاطر خير ، وإن كانت النفس تميل إليه ميلة طبع وحيلة فهو شر ؛ إذ النفس أمارة بالسوء إلا من رحم الله – ولا تميل إلى خير وقيل : إن الذى يكون من قبل النفس يكون ثابتا على حاله ، راكزا فى القلب ، والذى يكون من الشيطان يكون مضطربا مترددا ، وإن كان عقيب ذنب أحدثه الإنسان ؛ فهو من الله – تعالى – إهانة ، وعقوبة للعبد بشؤم ذنبه ؛ لأن الذنوب تؤدى إلى القسوة ، ثم إلى الرين ، قال الله تعالى : « كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَىٰ قُلُوبِهِم مَّا كَانُوا يَكْسِبُونَ » .

وإذا وجدت الخاطر لا يضعف ، ولا ينقص : فهو من حديث النفس ، وإن كان حينا يضعف وينقص ، وحينا يقوى ويزيد ، فهو من الشيطان ، وقيل إن كان الخاطر قويا مصمما فهو من الله ، وإن كان مترددا فهو من الملك الملهم ؛ إذ هو بمنزلة الناصح الذى يرجو الإجابة ، والقبول والخير ، وإن كان عقيب اجتهاد وطاعة فهو من الله .

وأما خاطر الخير الذى يكون من الشيطان استدراجا إلى الشر فذلك ؛ إذا كان راغبا مبادرا إليه بلا خوف منه معه فيه من الله – ومع بصيرة من أمره ، ونشاط إليه : فذلك من الشيطان – نعوذ بالله منه ، من مكائده – ومصائده – ونزغاته . والحمد لله رب العالمين .

* * *

القول السادس والأربعون
في ذكر العلماء، وأسمائهم، وشيء من أخبارهم

فأول العلماء الذين أخذ أصحابنا عنهم دينهم: عبد الله بن العباس بن عبد المطلب ابن عم رسول الله (ﷺ)، وهو الذي قال فيه جابر بن زيد (رحمه الله) حين وقف على قبره الذي دفن فيه: اليوم دفن رباني هذه الأمة، أي: عالمها، وقال أيضا[1] لقيت سبعين رجلا من أهل بدر، فحويت ما بين أظهرهم إلا البحر. يعني: ابن عباس.

ويوجد: أن ابن عباس عمي في آخر عمره، ودفن بالطائف، وقيل: إن رسول الله (ﷺ) أخبره أنه سيعمى قبل أن يعمى[2].

ويوجد: أن جابر بن زيد من قرية فرق[3]، وهو من اليحمد من ولد عمرو ابن اليحمد، وهو مفتي أهل البصرة، وكان ابن عباس يقول: لو نزل أهل البصرة عند قول جابر بن زيد لأوسعهم علما. وفي كتاب الله علما، ويكنى أبو الشعثاء وتوفي سنة ثلاث ومائة من الهجرة، وكان في مرضه يقول: اشتهي نظرة من الحسن بن أبي الحسن البصري، فجاء إليه في الليل، وكان مختفيا

---

(١) يعني جابر بن زيد

(٢) سبب عماه فيما روى أنه رأى جبريل عليه السلام وبعد أن ذكر للنبي صلى الله عليه وسلم رؤيته له أخبره أنه سيصاب بعمى ولا نعرف سبب ذلك.

(٣) فرق من أعمال نزوى وهي سهليها بينهما حوالى عشرة كيلو مترات، ويوجد في الأخبار القديمة أن العمار كان متصلا بينهما. وبها قبر الشعثاء ابنة جابر بن زيد وسميت الشعثاء لشعوثة رأسها، وقد كانت تسأل أباها دهنا تلين به شعرها. ويعتذر لها بقلة ما في يده، وأزماتيده من الدهن وهو المعروف بالسليط عم العمانيين ـ أولى أن يستعمله للسراج، ويقول لها: استعملي الماء الساخن بدل الدهن محقق.

من الحجاج بن يوسف [١] ، وتوفى فى خلافة يزيد بن عبد الملك بن مروان ، وكان جابر أعور عين واحدة .

وعبد الرحمن بن رستم إمام أهل المغرب ؛ ولا أعرف له كنية .

وأبو بلال المرداس بن حدير ، وأصحابه ، وهم أربعون رجلا خرجوا إلى العراق ، فدعوا إلى دين الله ، وقاتلوا أصحاب عبيد الله بن زياد ؛ حتى استشهدوا (رحمهم الله) ولهم خبر مشهور .

وأخوه عروة بن حدير أيضا ، قتله عبيد الله بن زياد ، وحدير : بالحاء المهملة ، والمرداس وعروة وأمهما أديّة .

وقال أبو عبد الله : كان ضمام بن السائب رحمه الله من الندب ، وأصله من عمان ، ومولده بالبصرة ، وكان حاجب أيضا من أهل عمان ، أصله ومولده بالبصرة ، وكان الفضل بن جندب من المسلمين وأصله من عمان ، وكان موسرا .

وقيل : إن حاجبا هو القيّم بأمور المسلمين ، وإذا عناهم أمر جمع لهم السلاح ، ومات وعليه خمسون ألف درهم دينا ، فضمنها عنه الفضل بن جندب ، فقضاها عنه ، وقيل : بيعت فى هذا الدين دار الفضل بن جندب ، كانت له بصحار ، وهى التى تعرف بدار مسلم بن خالد .

وعبد الله بن يحيى طالب الحق إمام المسلمين ـ من كندة من حضرموت ، وخرج المختار بن عوف وهو من مجزّ ، وقيل : من حرمه من باطنة عمان ،

---

(١) كذا قال ابن سعد ، وقال أحمد بن حنبل : توفى سنة ثلاث وتسعين ، وهو الصحيح المطابق لما رواه أبو عبيدة أحد تلامذته حيث قال : وكان أنس بن مالك عند ذلك مريضا ، ولما بلغه موت جابر قال : مات أعلم من على ظهر الأرض ، أوقال : مات خير أهل الأرض قال أبو عبيدة : فمات أنس وجابر فى جمعة واحدة ، وكانت ولادته لسنتين بقيتا من خلافة عمر بن الخطاب . رضى الله عنه .

وكنيته أبو حمزة ، خرج هو ، وبلج بن عقبة ، ووجدت أن بلج بن عقبة من مجز ، فخرجا فى جيش حتى أخذا مكة والمدينة ، وكان يخطب فيهما للمسلمين .

وقال أبو زياد : بلغنى أن المختار بن عوف لما ظهر على المدينة ، ودخل على قبر رسول الله (ﷺ) ، فشكا إليه ما تفعل هذه الأمة من بعده ، ثم خرجت عليهما خارجة من العراق ، فانهزم المسلمون ، وقتل بلج بن عقبة بوادى القرى ؛ وقيل : إن بلجا هذا كان يُعدّ كألف فارس فى القتال ، وخرج المختار ابن عوف إلى مكة فأخذها ، وهذا ما وجدت .

ومن المسلمين أبو الحر على بن الحصين ، وهو من الوفد الذين قدموا على عمر بن عبد العزيز ، وكان بأبى الحر وجع ، وطرحت له وسادة ، فاتكأ عليها ، فذكر عمر بن عبد العزيز ـ عثمان بن عفان ، وقال : كان عثمان خيراً ممن قتله ، فخرج أبو الحر (رحمه الله) ، وطرح الوسادة ، وقال : فإنك لمالك ، تعذر الظلمة ، بل كانوا خيراً منه ، فلم يزل الكلام فيما بينهم ؛ حتى قبل منهم فى عثمان ، ثم قالوا له : إن المسلمين قد شتموا على المنابر ، فأظهر من عذرهم على المنابر . قال : فإنى أخاف أن لا أمكن من ذلك ؛ فقالوا له : إن أئمة العدل لا تسعهم التقية ، وقد قتل المسلمون ، وصلبوا ، وقطعت أيديهم وأرجلهم ، وسملت أعينهم ، وهم يلعنون على المنابر علانية ؛ فأظهر عذر المسلمين ، والبراءة من الظالمين ، فإنه لا يسعك إلا ذلك .

فقبل ابنه عبد الملك بن عمر بن عبد العزيز ، وقال : يا أبت . نقيم العدل ؛ ولو غليت لحومنا فى المراجل بالمشى ، وقال عمر بن عبد العزيز : إن فعلت ذلك عوجلت ، ولكن علىّ لكم أن نميت كل يوم بدعة ، ونحيى كل يوم سنة ، فلم يقبلوا منه ، وقالوا : نخرج عنك على ألا نتولاك .

فقيل : لما أخبر أبو عبيدة مسلم بن أبى كريمة بما كان منه ، ومنهم ، قال: ليت القوم قبلوا منه ، وقيل : إن عبدالملك بن عمر بن عبدالعزيز توفى قبل أن يخرجوا من عند عمر بن عبدالعزيز ، فبعث إليهم عمر ، وقال : جهزوا صاحبكم .

قال : فدخلنا لنغسله ، وجاء عمر فدخل موضعا له كرسى ، فجلس عليه ، فلما أخذوا فى غسله ، ونزعوا عنه ثيابه — غشى على عمر ، ووقع فرفعوه .

وقال له بعض من حضر معه : يا أمير المؤمنين ، هذا ليس لك بمجلس ؛ فلو خرجت إلى الناس ، فعزوك وحدثوك كان أرفق بك ، فخرج وغسلوه ، وكفنوه ، وصلى عليه أبو حمزة (رحمهما الله) .

وقيل : إنه لما ولى عمر بن عبدالعزيز الخلافة — خطب الناس ، وذهب يتبوأ مقيلا ؛ فأتاه ابنه عبد الملك ، فقال له : ما تريد أن تصنع ؟ قال له : يا بنى . أقيل ، قال له : تقيل ولا ترد المظالم ؟ فقال له : يا بنى إنى قد سهرت البارحة فى أمر سليمان ؛ فإذا صليت الظهر — رددت المظالم فقال له : يا أمير المؤمنين ، ومن لك أن تعيش الظهر ؟ فقال له : ادن منى يا بنى ، فدنا منه ، فالتزمه ، فقال : الحمد لله الذى أخرج من صلبى من يعيننى على أمر دينى .

فخرج عمر بن عبدالعزيز ، ولم يقل .

وقيل : وفد رجل من أهل الصلاح — على عمر بن عبدالعزيز ، فأنزله مع ولده عبدالملك بن عمر بن عبدالعزيز ، وكان عبدالملك عزبا ، قال الرجل : فكنت معه فى بيته ؛ حتى صلينا العشاء الآخرة ، وآوى كل رجل منا إلى فراشه ، فلما ظن أنا قد نمنا — قام إلى المصباح فأطفأه ، وأنا أنظر إليه ، وقام يصلى حتى ذهب بنا النوم .

قال : ثم استيقظت ، وهو يقرأ « أَفَرَأَيْتَ إِنْ مَتَّعْنَاهُم سِنِينَ ، ثُمَّ جَاءَهُم

مَا كَانُوا يُوعَدُونَ ، مَا أَغْنَى عَنْهُم مَا كَانُوا يُمَتَّعُونَ » ، ثم بكى ، ثم رجع إليها ، ثم بكى ، ثم لم يزل كذلك ؛ حتى قلت : سيقتله البكاء ، فلما رأيت ذلك قلت : سبحان الله ، والحمد لله ؛ كالمستيقظ من النوم ؛ لأقطع عنه ذلك ؛ فلما سمعنى لبد ، فلم أسمع حسا .

وقيل : لما دفن عبدالملك بن عمر بن عبد العزيز فى قبره استوى عمر قائما ، وأحاط به الناس ، فقال : والله يابنى ؛ لقد كنت برا بأبيك ، والله مازلت مذ وهبك الله لى مسرورا بك ؛ لا والله ما كنت قط أشد سرورا ، ولا أرجى لحظى من الله فيك ؛ مذ وضعتك فى المنزل الذى صيرك الله إليه ، فرحمك الله ، وغفر لك ذنبك ، وجزاك بأحسن عملك ، ورحم الله كل داع دعالك بخير من شاهد ، وغائب ، رضينا بقضاء الله ، وسلمنا لأمره والحمدلله رب العالمين . ثم انصرف .

وفضائل عبدالملك أكثر من هذا .

وكان من الوفد الذى مع أبى الحر ـ جعفر بن السماك ، والحتات بن كاتب : ويكنى بأبى عبدالله بن كاتب ، وأبو سفيان قنبر .

وروى أن الحتات بن كاتب المشهور بالفقه ـ من فقهاء المسلمين ، وقيل : إنه كان من توأم ، وقيل إنه كان ينزل بسمد نزوى من عمان وهو من بنى تميم .

وأبو مودود : حبيب بن حفص بن حاجب ، وأما حاجب ؛ فإنه يكنى بأبى مودود ، وهو من بنى هلال مولى .

وأبو سفيان محبوب من الرحيل بن سيف بن هبيرة من قريش ، وأخوه ، محمد بن الرحيل ، وأما صحار بن العبد : فهو من طاحية ، ومن قوله : « ولو

بنى رجل على ظهر رجلٍ جدارا ، ولم ينكر عليه ـ لزمه » ، وأما أبو عبيدة الكبير : فهو مسلم كان بالبصرة ـ وأبو نوح صالح بن نوح الدهان : من البصرة وينزل فى طى . وأبو صفوة عبدالملك بن صفرة . وأبو أيوب وائل بن أيوب، وهؤلاء كلهم من العراق ، وأكثرهم من البصرة إلا ماشاء الله ، إلا الذين بينا مثل جابر بن زيد. والمختار بن عوف ـ وهو من بنى سليمة من حرمة ـ وبلج ابن عقبة ـ من قرى هنقد من مجز من باطنة عمان . ومن المسلمين : هلال بن عطية الخرسانى ـ صاحب السيرة ـ وقتل عند الإمام الجلندى بن مسعود (رحمهما الله).

ومنهم : خلف بن زياد البحرانى ـ نشأ بالبحرين ـ ثم خرج منها يلتمس الحق ؛ فكان كلما لقى أحدا من المسلمين من أهل الفرق من قومنا ـ طلب منه أن يعرف مذهبه ؛ فإذا عرفه قال له : الحق فى غير هذا ، حتى بلغ البصرة، والتقى بها أبا عبيدة مسلم بن أبى كريمة ، فسأله عن مذهبه ، ونسبه ، فقال له : هذا هو الحق ، وكان عليه ؛ حتى مات (رحمه الله) .

وشبيب بن عطية العمانى ـ وقبره بالغربية ـ ومنهم : أبو المنصور الخراسانى ـ ولا أعرف اسمه ـ وأبو عبدالله هاشم بن عبدالله الخراسانى. وأبو حفص الخراسانى.

ومنهم : أبو المهاجر هاشم بن المهاجر ـ وهو فقيه من فقهاء أهل حضرموت ـ .

ومنهم : أبو بكر الموصلى ، وهو يحيى بن زكريا ـ وهو من أهل الموصل ، وانتقل إلى عمان ، ومات بأزكى ودفن فيها ـ .

والربيع بن حبيب ـ من قرى هنقد ، ومن فقهاء أهل البصرة ، وهو الذى حمل العلم عن أبى عبيدة مسلم ، وحمل عن الربيع من أهل عمان من البصرة ، ونقلوه إلى عمان .

أبو المنذر بشير بن المنذر النزوانى — وهو رجل من بنى نافع من عقر نزوى، وهو يسمّى : الشيخ الكبير ، وكثير مما يوجد فى الآثار ؛ عن بشير الشيخ ، وهو جد بنى زياد من بنى سامة بن لؤى بن غالب .

ومنير بن المنير الجعلانى — وهو رجل من بنى ريام — . وموسى بن أبى جابر الأزكانى — وهو رجل من بنى ضبة من بنى سامة بن لؤى بن غالب — . ومحمد على القشحى — وهو من كندة — . ومحبوب بن الرحيل القرشى البصرى . وهؤلاء [هم] الذين حملوا العلم عن الربيع بن حبيب البصرى الفراهيدى ، وقيل : إنه انتقل الربيع ، ومحبوب إلى عمان فى آخر زمانهما .

ومن علماء عمان : هاشم بن غيلان السيجانى ، ويكنى أبا الوليد ، وأخوه عبد الله بن غيلان ، وولده محمد هاشم بن غيلان ، قبره عند قبر أبيه المعروف بسيجا (رحمهم الله) ، وغفر لهم ، وجزاهم عنا ، وعن الإسلام خيرا .

وأبو عثمان سليمان بن عثمان — من عقر نزوى — . وأبو جعفر سعيد بن محرز ابن سعيد — من نزوى ، وولده عمر بن سعيد ابن محرز . وسعيد بن المبشر ، وولداه مبشر ، وسليمان — أرجو أنهم من عدى من قرية أزكى . وعلى بن عزرة ، وولداه : أزهر بن على ، وأبو على موسى بن على . وأبو جابر محمد بن جعفر . وأبو جابر محمد على . وأبو إبراهيم محمد بن سعيد بن أبى بكر . كل هؤلاء من أزكى .

وأبو زياد الوضاح بن عقبة . وأبو عبد الله محمد بن محبوب . وسفيان بن محبوب . ومجبر بن محبوب بن الرحيل ، رضى الله عنهم ، وكان مجبر بن

محبوب يسمى الثقة . وبشير وعبد الله ، ابنا محمد بن محبوب — من كبار علماء أهل عمان ، وهما الغاية فى العلم والفضل فى أهل زمانهما .

وسعيد بن عبد الله بن محمد بن محبوب ، وهو الإمام الذى قتل بقرية مناقى من قرى الرستاق من عمان ، وقيل : إنه أفضل أئمة أهل عمان ؛ لأنه جمع علما وزهدا ، وشهادة — إلا الجلندى بن مسعود : قيل : إنه مثله ، أو دونه فى الفضل .

وأما أبو عبيدة الأصغر : فهو عبد الله بن أبى القاسم من قرية بسيا من عمان . وأبو إبراهيم محمد بن سعيد بن أبى سعيد بن أبى بكر : من أزكى . وعزان بن الصقر من عقر نزوى من غلافقة . وأبو الفضل محمــــد الفضل ابن الحوارى .

وقيل : إن الفضل بن الحوارى ، وعزان بن الصقر — كانا فى زمن واحد، وكان يضرب بهما المثل فى عمان ؛ لعلمهما وفضلهما ، وقيل : إنهما كانا فى عمان كعينين فى جبين واحد : ولم يفرق أحد بين عينين فى جبين واحد ، إلا أن عزان ابن الصقر مات قبل الفتنة، فلم يختلف المسلمون فى ولايته، وأما الفضل بن الحوارى فقد أدركته الفتنة الواقعة بعمان ، وقيل : إنه قتل تحت راية الإمام : الحوارى ابن عبد الله فى موضع يقال له : اقاع ، قريب من صحار ، ولهم حديث وأخبار ؛ يطول شرحها .

وأبو المؤثر الصلت بن خميس من قرية بهلا ، هو العالم المشهور بالعلم، وقيل: إنه كان أعمى، وولده : أبو محمد بن عبد الله بن محمد بن أبى المؤثر : كان من أهل العلم ، وقيل إنه قتل بالغشب من الرستاق عند بعض الأئمة. وأبو عبد الله

نبهان بن عثمان : من سهال نزوى ، وهو جد بنى معمر ، وكان أعرج ، وأخوه : النعمان بن عثمان .

وأبو جابر محمد بن جعفر الأزكوى : مؤلف كتاب الجامع ـ المعروف بكتاب أبى جابر ـ ، كان أصم ، وقيل : كان مدار أمر أهل عمان يدور على ثلاثة رجال فى زمن واحد : على أعمى ، وهو : أبو المؤثر الصلت بن خميس ، وأعرج : وهو نبهان بن عثمان ، وأصم : وهو محمد بن جعفر .

وأبو الحوارى محمد بن الحوارى القرى : المعروف بالأعمى ، وهو المراد فى جامع ابن جعفر ، وأبو الحسن محمد بن الحسن النزوانى . وأبو مالك غسّان ابن الخضر الصلانى . وأبو مروان سليمان بن الحكم . والمنذر بن الحكم وأبو جعفر سعيد بن الحكم من عقر نزوى . وأبو مروان سليمان بن حبيب . وأبو قحطان خالد بن قحطان : صاحب السيرة المشهورة الهَجَارى . وأبو محمد عبد الله بن محمد بن بركة من بنى سليمة وكان منزله بالضرح من قرية بهلا . وأبو الحسن على بن محمد بن على : من قرية بسيا . وخالد بن مسعود : من عقر نزوى .

ومحمد بن خالد الأعمى : من قرية بدبد . والمقتدر بن الحكم . وعبد المقتدر . وأبو صالح بن زياد مثوبة ، والوضاح زياد بن الوضاح بن عقبة . ومنازل بن جيفر : من عقر نزوى . وسعيد بن أبى بكر الأزكوى : وهو والد محمد بن سعيد . وعمر بن المفضل : من عقر نزوى . وموسى السرى . والحوارى بن محمد ابن الأزهر . ومالك بن غسان بن جُلندا الأخطل البهلانى . والعلا بن أبى حذيفة وعبد المقتدر بن جيفر . وأحمد بن محمد بن خالد . وأبو بكر أحمد بن محمد بن أبى بكر : من نزوى .

ومحمد بن الحسن السرى . والحوارى بن محمد بن جعفر من سمد الشان .
وعمر بن محمد بن جيفر : من سمد الشان أيضا . والقاسم بن شعيب . ومحمد بن عمر
ابن موسى بن على . ومحمد بن عبد الله بن حساس . وأبو صالح بن منازل بن
جيفر . ومحمد بن هارون . وأبو على موسى بن مخلد من سهل نزوى ، وأخوه :
بشير بن مخلد . وأبو الجوزاء مروان بن زياد . ونصر بن حراش . ومحمد بن نصر
الخراسانى . ومحمد بن زايده السموءلى . وإسماعيل بن يعقوب . ومسلمة بن خالد
السّلوتى وعبدالواحد السرى. وشموة بن الفضل الإبراى. وطالوت السموءلى.
وأبو القاسم سعيد بن محمد بن الحتات : من عقر نزوى .

ومحمد بن رياسة . ومهلّب بن عثمان . والصقر بن عزان بن الصقر .
وأبو المنذر سلمة بن المسلم العوتبى الصحارى : مؤلف كتاب الضياء ، وكتاب
الأنساب . وأبو سعيد محمد بن سعيد الكدمى : مؤلف كتاب الاستقامة ،
وكتاب المعتبر . ومحمد بن وصاف : شارح شعر أحمد بن النظر . ومحمد بن
أبى بكر : وهو فى زمان الحسن بن أحمد بن عثمان . وهادية بن إبراهيم : عالم
من أهل فنجا . وأبو مكنف : من قرية إبرا . وفهم بن أحمد : من أهل
الرستاق . وعمرو بن على المعقدى : مؤلف كتاب : الوضع والصلاة والصلة :
من أهل وبل من الرستاق . ومحمد بن سليمان : من عينى من الرستاق .
وأبو الريان على بن عبد الرحمن السّرى .

ومحمد بن يوسف النحلى . وأبو الحسن بن أحمد العمقى . ومحمد بن عيسى
ابن محمد بن عيسى بن جعفر السّرى . ومحمد بن قيس الطيوى . ومملا بن المفيّر
ابن الفيّر . ومحمد بن عمران المهيمى . وغدانة بن يزيد . والأزهر بن محمد بن

سليمان . وأبو الحسن بن داود . وعمر بن أبى القاسم : من أزكى . ومكرم بن عبد الله . ونصر بن سليمان . وأحمد بن أبى جابر المنحى . وعبدالله بن الحكم: من نزوى . وجعفر بن المبشر . وعيسى الخراسانى . وعمر بن محمد المنجى . وجعفر بن زياد : من أزكى .

وعبد الرحمن بن جيفر الضنكى وأحمد بن محمد بن عمر المنجى . وأحمد ابن محمد بن عمر المنقرى . ومالك بن عبد الله بن عمر الغضفانى . والعلاء بن عثمان . وخالد بن سعوة . ومسعدة بن تميم . ومحمد بن نصر : فى زمان موسى ابن على . وعبد الله بن محمد بن زنباع . ورمشقى بن راشد : فى زمان أبى سعيد (رحمه الله) . ويعقوب بن إسحاق الناوانى . وملهى بن يحيى . وهاشم بن يوسف . وسالم بن ذكوان . وعبد الله بن قيس . وأبو هاشم جرير بن نافع الخراسانى . وأبو حفص عمر بن محمد بن أحمد المنجى .

وأبو عبيدة المغربى . ويحيى بن عبـد الله بن محمد بن إبراهيم بن عمر السموءلى . ومحمد بن عثمان : من عقر نزوى . وأبو القاسم سعيد بن قريش : من عقر نزوى . وزمام بن سعيد بن زمام : من بهلا . وأبو محمد نجدة بن الفضل النخلى . ومحمد بن المختار النخلى . والمسيح بن عبـد الله ، وابنه : محمد ابن المسيح : من قرية هيل قريبا من سمائل . وأبو عبد الله محمد بن روح بن عربى : من سهل نزوى . وأبو على الحسن بن سعيد بن قريش: من عقر نزوى. وأبو سليمان هداد بن سعيد : من عقر نزوى .

والقاضى نجاد بن موسى : من قرية منح . وأبو عبد الله محمد بن الحسين

ابن الوليد السمدى النزوى . وأبو على الحسن بن زياد النزوى . وأبو عبد الله محمد بن أحمد السمالى النزوى . وأبو على الحسن بن نصر بن محمد المجارى . وأبو محمد عبد الله بن محمد بن إبراهيم بن عمر السموءلى . والخليل بن أحمد : صاحب كتاب العين : من ودام . ومحمد بن أبى الحسن بن دريد : الشاعر من قدفع . والمبرّد : صاحب الكامل : من المقاشعة من هجار . كل هؤلاء من قرى عمان .

وأبو على الحسن بن أحمد بن محمد بن عثمان من عقر نزوى . وأبو عبد الله عثمان بن عبدالله بن أحمد الأصم : من عقر نزوى ، وكان يصلى فى مسجد الشواذنة. ومحمد بن عثمان : من عقر نزوى . وعثمان بن موسى بن محمد بن عثمان : من عقر نزوى وأحمد بن محمد المعلم : من سهل نزوى . والقاضى محمد بن ابراهيم ابن سليمان بن محمد بن عبد الله الكندى السمدى : مؤلف كتاب بيان الشرع. وأحمد بن عبد الله بن موسى الكندى السمدى : مؤلف كتاب المصنف ، حمل دينه : عن الفقيه : أحمد بن محمد بن صالح النزوانى، وحمل أحمد بن محمد بن صالح : عن محمد بن إبراهيم بن سليمان الكندى السمدى ، وحمل محمد بن إبراهيم هذا دينه عن القاضى أبى على الحسن بن أحمد بن محمد بن عثمان العقرى .

وقيل : إن الحسن بن أحمد هذا كان له مدرسة ، فاجتمع إليه بعض إخوانه، فأرادوا أن يعينوه ، فأبى عن ذلك ، وقال : ما دام تؤخذ منى النخلة من البلاليّة بألف درهم ــ فلا أبغى من أحد معونة .

وقيل : إنه كان قاضى الخليل بن شاذان ، وكان فيما قيل ــ أعلم أهل زمانه .

ومن علماء عمان : أبو سعيد محمد بن سعيد الأزدى القلهاتى : مؤلف كتاب الكشف والبيان . والقاضى الوليد بن سليمان بن بارك[1] الكلوى الأباضى . وإبراهيم بن أحمد بن محمد السعالى .

فصل :

وقيل : إن أبا بكر الصديق (رضى الله عنه) لم يمت حتى استوفى سنين رسول الله (ﷺ) ، ولم يمت عمر بن الخطاب (رضى الله عنه) حتى استوفى سنين أبى بكر (رضى الله عنه) وقال أبو عبد الله : قال أبو عبيدة : دخل المختار بن عوف مكة فجباها عقالين . أى : صدقة سنتين ، وقال أبو عبد الله : كان أبو عبيدة ـ أفقه من ضمام وأبى نوح ، وكان المقدم عليهما ، وعلى جعفر ابن السمان ، ولكن جعفر كان أوضح للأذنى من أبى عبيدة ، وكان هو الحجة فى الدين ، وكانوا كلهم أهل شرف ، وفضل ، وقيل : إن أبا عبيدة أدرك من أدركه جابر بن زيد . (رحمهما الله) .

وقيل : قال ناس من أهل البصرة انظروا لنا رجلا ورعا قريب الإسناد حتى نكتب عنه ، ونترك ما سواه ؛ فنظروا ؛ فلم يجدوا غير الربيع بن حبيب ، فطلبوا منه ذلك . ، وكان يروى لهم عن ضمام ، عن جابر بن زيد ، عن ابن عباس ؛ فلما خاف أن يشيع أمره أغلق بابه على نفسه دونهم ؛ إلا من أتاه من إخوانه من المسلمين .

وكان أبو عبيدة يروى عن ضمام عن جابر وأكثر ما حمل عن صحار ابن العبد. وكان صحار من أهل خراسان ، من فقهاء المسلمين ، وكان فى عصر جابر بن زيد ، وكان المرداس ، وعروة ابنا جدير فى زمان جابر بن زيد .

---

(١) فى نسخة : تارك باناته .

وقيل : إن المرداس ، وجابر بن زيد (رحمهما الله) يفترقان بعد صلاة العتمة ، ويلتقيان عند السحر ، ويقول أحدهما لصاحبه : طال شوقى إليك .

وأما المرداس ، وعروة بن أدية . وقيل إن ضمام بن السائب من أهل عمان : من الندب ، ومولده بالبصرة ، وكان جابر بن زيد ـ من اليحمد من أهل فرق من عمان ، والمختار بن عوف من عمان .

وأما وائل بن أيوب فكان من حضرموت ، ثم سكن البصرة ، وتزوج بها .

وقال أبو عبد الله : إن الربيع بن حبيب أدرك جابر بن زيد (رحمهما الله) والربيع شاب ، وقال أبو عبدالله : كان جابر بن زيد أفقه من الحسن البصرى ، وأفضل منه ، ولكن كان الحسن للعامة ، وجابر لقوم ، وكان له قدر فى أهل زمانه ، وكان أبو الحر على بن الحصين زاهداً فى الدنيا راغباً فى الآخرة .

فصل :

قيل : أول من ولى الإمامة بعمان : الجلندى بن مسعود ، وكان شاريا من شراة عبد الله بن يحيى طالب الحق الكندى ، وقيل : هو وهلال بن عطية الخراسانى ، وأصحابهم (رحمهم الله) بويع فى سنة إحدى وثلاثين ومائة ، ومكث فى الإمامة : سنتين وأشهرا ، ثم قتل .

ثم ولى محمد بن عفان ، ثم عزل ، ثم ولى : وارث بن كعب الخروصى ، وملك اثنتى عشرة سنة ، وستة أشهر ، ثم حمله السيل فى جماعة من أصحابه وغرق ومات .

ثم ولى الإمام غسان بن عبد الله ، وملك خمس عشرة سنة ، ومات ،

ثم ولى الإمام عبد الملك بن حميد ، وملك ثمانى عشرة سنة ، وسبعة أشهر ، وتسعة أيام .

ثم ولى المهنا بن جيفر ، وملك عشر سنين ، وتسعة أشهر ، وأربعة أيام ، ثم ولى الصلت بن مالك ، وملك خمساً وثلاثين سنة ، وسبعة أشهر ، وثمانية عشر يوما ؛ باليوم الذى عزل فيه . وكان محمد بن على ، وبشير بن منـــذر ، ومحمد بن محبوب ، وعلاء بن منير ، وعبد الله بن الحـكم هم المتقدمون فى بيعة الصلت بن مالك مع من حضر من المسلمين .

وقيل : قال أبو زياد ، لما غرق وارث بن كعب ـ قال سليمان بن عثمان لمسعدة بن تميم عند فلج ضوت فى البطحاء، إنا نـكتب إلى أهل السر يأتوننا ، فقال مسعدة : إنما تريد يا أبا عثمان أن تؤخر هـذا الأمر ؛ حتى يجتمع إلينا الناس ، فيختلفون علينا ، ولـكن نقطع الأمر . وقيل : إن وارث بن كعب حمله السيل فى سبعين رجلا إلا اثنين ـ والله تعالى أعلم بصحة ما كتبناه .

فصل :

ثم كان أمر أهل عمان بعـــد اعتزال الصلت بن مالك من الإمامة إلى الاختلاف ، والتنازع ، والتواجد ، وربما جرت بينهم الجنات ، والتعاصب ؛ حتى آل أمرهم إلى الحروب ، والقتال ، وسفك بعض دماء بعض على غير صحة وبيان ، ولا إقامة حجة ، ولا برهان ؛ إلا على الحميـــة ، والعصبية ، واتباع الظنون الردية ، والوحشة بعضهم من بعض بعد ما كانت كلمتهم واحدة ، ونحلتهم واحدة ، من أيام محبوب بن الرحيل ، إلى أيام عزان بن الصقر .

ثم اختلفوا بعـد اعتزال الصلت بن مالك فى ثبوت صحة إمامة الصلت ابن مالك ، وإمامة راشد بن النظر .

فكان فريق من أهل عمان ؛ يتولى موسى بن موسى ، وراشد بن النظر ، ويتولى الصلت بن مالك ، ويدعى دعاوى يحتمل فيها الصواب بموسى بن موسى وراشد بن النظر ، والصلت بن مالك جميعا .

ومنهم : من يتولى موسى ، وراشدا ، وينقم على الصلت أشياء ؛ من أسباب تضييع الصلت للإمامة وتسليمه السكة والخاتم لراشد بن النظر .

ومنهم : من يتولى موسى بن موسى ، وراشد بن النظر على تلك العقدة ، ويقول : إن الصلت بن مالك اعتزل ، ومنهم من يقول عُزل ، ولم يقل عليه : أنه استحق العزل لحدث أحدثه .

ويحتمل فى أقاويلهم هذه كلها العذر للصلت بن مالك ، ولا يحتمل له فى ذلك عذر ؛ وإذا احتمل العذر للصلت بن مالك احتمل العذر لموسى وراشد؛ وإذا لم يحتمل العذر لموسى ، وراشد : لم يحتمل للصلت ؛ فإن كان عزل ، أو اعتزل لعذر ـ فللقائمين بذلك من العذر مثل ماله .

وكان فريق من أهل عمان يبرأ من موسى بن موسى ، وراشد ؛ على تلك العقد ، ويقولون : إن خروجهما على الصلت ظلم وعدوان ، ولا عذر لهما فى ذلك ، ولا لمن تبعهما على ذلك .

عزل الصلت بن مالك بعد خروجهم عليه ، أو اعتزل .

ويتولون الصلت بن مالك على ذلك ، ويعذرونه بالغلبة على أمره ، وخذلان أهل مملكته له ، ولأن أصل عقدته صحيحة بإجماع المسلمين على ذلك ، ولم يصح منه حدث تزول به إمامته ، ويجب عزله ، وبراءته ، ولا يجوز ترك من وجبت ولايته بالإجماع إلا بحدث مكفر يصح عليه بالإجماع .

ومنهم من يبرأ من موسى بن موسى ، وراشد بن النظر ، ويقف عن الصلت بن مالك لموضع مادخل عليه فيه من الشبهة ؛ فمن تولاه من المسلمين على ذلك تولاه ، ولا يشترط فى ولايته شرطا .

وقد كان فريق ممن يبرأ من موسى ، وراشد ، يضيق العذر على الصلت ابن مالك ، لتركه أمانته لأهل البغى ، وهو شار لايجوز له ترك إمامته ، حتى يُقتلَ أو يَقتُل ؛ إذا كان يقدر على محاربة أهل البغى ؛ إلّا أن يتوب من ذلك .

وقد كان فريق من أهل عمان يقف عن موسى ، وراشد ؛ لإشكال أمرهما ، وترك نكير الصلت عليهما ، وسكوت أعلام أهل المصر عنهما فى حين تقدمهما فى ذلك ، وإذ هما دخلا فى ذلك على وجه لم تصح لهما فى ذلك حجة حق على الصلت بن مالك ـ تزيل الشبهة من أمرهما ؛ فتوسعوا بالوقوف عنهما ، ولم يبرئوهما من البغى على الصلت بن مالك ، ولم يبطلوا حكم فعلهما على أنهم يتولون أهل الاستقامة من المسلمين ، من أهل الدار على ما خصه من الحكم فيهما من ولاية ، أو براءة مالم يصح أن المتولى لهما تولاهما بغير حق ، وأن المتبرئ منهما برىء منهما بغير حق ؛ لأن كل أحد منهما مخصوص بعلمه ـ مالم يصح باطله على ذلك بوجه من الوجوه . فهذا ما كان من أمرهم .

ثم لم يقع اجتماع كلمة من أهل عمان على صحة إمامة أحد من أئمة عمان : إلى أيام الإمام : سعيد بن عبد الله بن محمد بن محبوب : رضى الله عنهم جميعا .

فأجمع أهل عمان على صحة إمامته ، وثبوت ولايته من جميع المختلفين

فيمن تقدم قبله ؛ فلم يطعن عليه أحد ، ولم يرتَبْ فى فضله أحد ، ولم يشك أحد فى ولايته .

وقال عبد الله بن محمد بن المؤثر (رحمه الله) : لا نعلم فى أئمة المسلمين كلهم بعمان : أفضل من سعيد بن عبد الله ؛ لأنه كان عالما ، وإمام عدل ، وقُتِل شهيدا : فجمع ذلك كله سعيد بن عبد الله .

ثم بايع المسلمين من بعده راشد بن الوليد، وحمد المسلمون سيرته ، وأخلاقه، وطريقته ؛ إلا أنه خذله رعاياه ، وصار إلى الضعف ، وغلب السلطان على عمان .

وصار أمر عمان إلى التحول : طورا يأتى عليهم زمان ؛ يكون أهل الجور ظافرين عليهم ، وفى زمان يظهر أهل العدل على أهل الجور، وفى زمان يكونون مجتمعين فى حكم الولاية ، والبراءة ، ويختلفون فى حين ، و [هم] فى كل ذلك : أصل مذهبهم واحد ، وتدينهم واحد ، ونحلتهم واحدة .

ولم يبتدع أحد من أهل عمان منهم شيئا من بدع الضلال يخالف فيه أصل مادان به المسلمون من صحة الاعتقاد ، وأصل المذهب ، ولو جرت بينهم الشحناء فى بعض الأوقات من أهل زمان من الأزمان فهم على أصل اعتقادهم فى صحة عقد مذهبهم .

ولو تولى عليهم أهل الجور من أهل دعوتهم ، أو غيرهم ـ فهم على أصل ما كانوا عليه من حكم الشريعة ، وصحة التدين : صالحهم ، وطالحهم ؛ لم ينتحل واحد منهم شيئا غير نحلة أهل الحق من الحق، ولم يدن أحد منهم بدين الضلال.

ولو جرت بينهم الخصومات ، وآلت إلى الحروب ، والقتال ، والحنات لم يحلّ أحد من أهل العلم منهم حراما ؛ حرمه الله ، ورسوله والمسلمون ، ولم

يحرم حلالا أحله الله ورسوله والمسلمون ؛ إلا ما كان يجرى من أهل الظلم منهم والجور ؛ على سبيل التغلب ، والبغى من بعضهم على بعض ؛ لا على سبيل الديانة ، والاستحلال .

وإنما تجرى منهم الجرائم العظيمة ، والمظالم الجسيمة على علم أنهم يخالفون فيها لدين المسلمين ، وأقوالهم ، وأفعالهم : مضيعون لما افترض الله عليهم فيما أمر ونهى .

فلا مطعن لطاعن فى دين أهل هذه الدعوة بهم ، ولا بأعمالهم ؛ لأنهم ليسوا بحجة فى حكم التدين ، لما تعبد الله به عباده ؛ وإنما هم : جبابرة ظلمة ، غشمة فجرة ، منافقون فاسقون باغون ، طاغون مفسدون ؛ برئ الله منهم ورسوله ، والمسلمون .

وأما العلماء الذين هم القدوة ، والحجة على الخلق – فهم أهل ورع واستقامة ، ولم يظهر من أحد منهم – فيما نعلم – خلافا لشرع المسلمين فى بيع ولا شراء ، ولا نكاح ولا طلاق ولا عتاق ، ولا عدة ولا حيض ، ولا ميراث ، ولا شهادة ولا حكم ، ولا تحليل شىء من المحرمات ، ولا تحريم شىء من المحللات فى مال ولا نفس – إلا اختلافهم فى الولاية ، والبراءة فى بعض الماضين من أئمة أهل عمان .

وذلك : لا يدخل عليهم فى صحة أصل مذهبهم ، وحسن اعتقادهم ؛ إلا أن كل أحد متعبد فى خلقه ؛ مما علم منهم ، وكل أحد يعلم ما لا يعلمه غيره فى غيره ، من خبرة أو صحة ، أو شهرة .

ولو علم كل أحد من المختلفين فى الولاية ، والبراءة والوقوف ما يعلمه من خالفه

لم يخالفه فيما جرى فيه اختلافهم من أهل عصرهم ، أو ممن تقدمهم لم يكن بينهم فيهم اختلاف ، لأن أصل مذهبهم واحد ، وأصل اعتقادهم واحد .

ولكن السبب فى التقاطع بينهم ، واختلاف قولهم فى ذلك — تفاوتهم فى النواحى ، والأنفة عن الاجتماع على المشاورة ، والمناظرة فيما بينهم ، وإذا أرادوا أمرا من الأمور التى يجب فيها الاجتماع ، والمناظرة ، والمشاورة .

وهكذا طبع أهل عمان من قبل — وأرجو ألا يزول عنهم — لهم الهمم العالية ، والنفوس الأبية لا ينقادون لسلطان ولا يقرون على هوان ، ولا يستسلمون إلا لغالب ، ومع ذلك لا يتركون المطالب ؛ همة الضعيف منهم كهمة الأمير من غيرهم .

كل أحد [منهم] يريد أن يكون الأمر فى يده . أو بيده من مال إليه بوده ، والناس أتباع له ، وللآخر كذلك وإن لم يكونوا كذلك — إلا من شاء الله — من أهل الصلاح ، والورع والفلاح ؛ فإنهم لا تميل بهم الأهواء ، ولا تأخذهم الحمية : حمية الجاهلية . إلى أن صار الأمر منهم إلى الوحشة من بعضهم بعض ، والتواجد من بعضهم على بعض ؛ حتى حصل بينهم الاختلاف والتقاطع ، والتدارى ، والتنازع :

والأصل : ما ذكرنا من نفور النفوس عن الإصغاء إلى المتابعة ، وأنفتها عن التواصل والمراجعة ، حتى كان ما كان لما سبق فى علم الله أنه سيكون .

وهذا الذى ذكرناه موجود فى أهل كل زمان إلا القليل ممن عصم الله ، ولزم التواضع ، وصدف عن الاستكبار ، والتقاطع — وأراح نفسه من غل الصدور ، ووقف عن إشكال الأمور ، حتى اتضح له طريق الهدى ، وسلم من

الشر والبلوى ، ونزه نفسه من الخواطر الردية ، وحمل المسلمين على حسن الظن بهم ممن غاب ، أو شهد ، أو قرب ، أو بعد ، واتبع أمر الله ، وأمر رسوله ؛ ومن مضى من صالح المسلمين .

وليس الأمور الواقعة بين أهل عمان : كالأمور التى وقع فيها اختلاف أهل الأديان : من اختلافهم فى أصل الدين من التوحيد ، والرسالة ، وأحكام الإمامة ، والرؤية والخلود ، والتشبيه ، والتحديد ، وغير ذلك ؛ مما لا يمكن شرحه إلا في كتاب مفرد فى ذلك .

وأما اختلاف أهل عمان فى الولاية ، والبراءة ، والوقوف ؛ فذلك من سبيل الدعوى ، لا من سبيل التدين بخلاف ما هم عليه من سبيل صحة الاعتقاد فى أصل الديانة . لأن كل أحد منهم يحتج بحجة صاحبه ، وينتهى إلى ما ينتهى إليه صاحبه من العلة ؛ إلا أن كل فريق يدعى على الفريق الآخر بما يوجب عليه الخروج من أصل الديانة التى دانوا بها جميعا فى أصل الديانة ، ولم تصح من أحد منهم بينة على صحة ما ادعاه عليه الفريق الآخر ، إلا [أن] كل فريق منهم يزعم أنه هو المحق والآخر هو المبطل ، ولم يصح اجتماع من أهل العلم ، ليعرضوا الأمور على كافة الجماعة من أهل العلم ، وينظروا فى تصحيح الأمر ، ويردوا الأشياء على أحسن حالها ، إلا [أن] كل أحد توحش من صاحبه ، وجعل يجتهد فى طلب عيب الآخر ، والآخر كذلك ، إلى أن حصل التقاطع بينهم ، وعظمت الإحن ، والعداوات ، وسفكت الدماء .

وربما ذهب بعضهم إلى سلطان الجور من أهل الخلاف لدين المسلمين ،

واستنصروا بهم ، وهم لا يقدرون على الأخذ على أيديهم ؛ حتى رجعت عمان إلى أسوأ حال ، وأضر مآل ، ونهبت الأموال ، وقتل جماعة من الرجال ، وطمست الأنهار ، وخربت الديار ، وأحرقت الكتب ، وامحت الآثار .

فنعوذ بالله من الذل والصغار ومخالفة الصالحين الأبرار ، ونستعينه على ما يحط الأوزار ، ويفك رقابنا من النار ؛ إنه على ما يشاء قدير ، وبالإجابة جدير ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلى العظيم .

ثم إن أمر أهل عمان عاد إلى الحول ، وزالت تلك المحاضرات ، ودرست الضغائن والإحنات ، وخلف خلف بعد السلف وبقيت عمان مقفرة من تلك الرؤساء المتضادين ، والخصماء المتحادين ، ولم يبق إلا ذكر أخبارهم وما ذكروه فى سيرهم ، وآثارهم ، وآل العلم والعلماء فيها : إلى النقصان والآخر إلى النسيان. وحصل التراسل ، والتواصل ، والتزاور بين أهل عمان ؛ فطفئت تلك النيران من القلوب ، وامحت آثار تلك الحروب ، وصارت كلمتهم واحدة . إلا أنه يأتى زمان يقل فيه العلم وأهله ؛ فعلى ذلك أمور أهل عمان ؛ حتى سمعنا أنه يأتى زمان احتاج ملك من الملوك اليعاربة من قرية وبل من الرستاق ــ إلى قاض من أهل الدعوة : فلم يتهيأ له ، وأتى قاضيا من أهل الخلاف ، وهمّ أن يقلب لهم مذهبهم ، ولا أدرى مذهبه من أى الفرق الضالة حتى بان خبره إلى أهل عمان ، وكتب أهل عمان إلى ذلك الملك ، وإلى رعاياه فى زوال ذلك القاضى ، فأزالوه ، وأرسلوا لهم قاضيا من عمان ، وتعلم منهم العلم ناس من أهل الرستاق، وتمسك أهل عمان كلهم بمذهبهم الأصل ، وهو مذهب أهل الاستقامة من أمة محمد (صلى الله عليه وسلم) ، والحمد لله .

وأكثر ملوكهم أهل جور وبغى ، وباطل وفساد ، وظلم وعناد ، وعضدهم على ذلك رؤساء القبائل ، والظلمة من البدو ، ومن كان من السفلة الأراذل ، وساموا أهل عمان سوء العذاب ، وساسوهم شر مصاب ، وعموا بالظلم الكهول والشباب ، وأثروا فيهم القتل والأسر ، والاغتصاب ، والضرب والإذلال ، والانتهاب . ثم أوقع الله بينهم العداوة والبغضاء ، فتقاتلوا ، وتحاربوا ، وتناهبوا وتسالبوا ، ولم يقصر كل فريق عن إساءة قدر عليها فى خصمه من جميع أنواع الظلم ؛ حتى إن القبائل تعادوا ، وتضادوا ، وتقاتلوا ، وتفانوا ، ولو كانوا فى شواهق الجبال ، أو فى أودية من الرمال . ولم يبق بدو ولا حضر ، ولا أهل ماشية ولا مدر ، إلا وقد تجرعوا غصص المخاوف ، وصار الدين ، والأنفس ، والأموال ؛ إلى أشد التالف ؛ إلا من هوّن الله عليه المحنة ، ونجاه من الفتنة، ومن عليه بالعصمة ، وتداركه بالعفو والرحمة . ثم هم كذلك ، ولم يقلعوا عن ذلك ؛ حتى وقعت الحروب ، والشرور فى عمان ، إلى أن أنقذهم الله بالعدل والإحسان ، من الظلم والعدوان بظهور عبده الأرشد : إمام المسلمين : ناصر ابن مرشد ، وذلك فى عام أربع وثلاثين سنة ، وألف سنة .

فقاتله أهل البغى فى بلدانها أشد القتال ، وبارزه بالعداوة ، والجدال ؛ حتى أظهره الله عليهم ؛ فأخرجهم من ديارهم ، وبترهم من قرارهم ، واستوثق من سادتهم ، وأهان عزيزهم ، ومنع ظالمهم ، وقمع غاشمهم ، وأمكنه الله منهم ، وأعانه عليهم ، وأيده بنصره ، وأمده بتوفيقه ، حتى علا الإسلام وظهر وخفى الباطل واستتر ، وفشا العدل فى جميع أقطار عمان ، ونواحيها : من حاضرها وباديها . وفشا العدل فى جميع أقطار عمان ، ونواحيها : من حاضرها وباديها ،

ولم يبق إلا طائفة من النصارى متحصنين فى سور مسقط ، وحصونها ؛

بعد أن نصب لهم الحرب حتى وهنوا ، وضعفوا ، وتفرق أعوانهم ، ووهى سلطانهم وكاد أن يأتى القتل والموت على أكثرهم - فتوفاه الله إليه ، وجميع المسلمين أهل الخير عنه راضون وله موالون .

فاجتمع من حضر من المسلمين ، فبايعوا الإمام : سلطان بن سيف ابن مالك ، وهو : ابن عم ناصر بن مرشد بن مالك اليعربى (رحمه الله) بايعوه قبل أن يدفن الإمام : ناصر بن مرشد (رحمه الله) ضحى الجمعة لعشر ليال خلون من شهر ربيع الآخر سنة ستين ، وألف من الهجرة .

وقام ، وشمر وجاهد ، وما قصّر ، فنصب الحروب لمن بقى من النصارى فى مسقط ، وسار عليهم بنفسه ، فقاتلهم أشد القتال ؛ حتى فشا فيهم القتل ، وحاصرهم فيها ؛ حتى أخرج من بقى منهم عنها صاغرين ، بعد أن قتل مقاتلهم ، وغنم أموالهم ، وسبى نساءهم وذراريهم ، وأخذ سفنهم ، وما أعدوه من سلاح وآلة ؛ لقتال المسلمين ، لم يخرجوا منه بشىء إلا أن يكون خفى على المسلمين موضعه .

ثم حاربهم فى البحر ، فلم تلقهم عساكره فى وجه إلا أخذوهم ، وقتلوهم ، وغنموا أموالهم ، وهم على حروبهم إلى يومنا هذا . ولم يحرك على إمام المسلمين سلطان بن سيف - حركة من جميع أهل عمان ، وهو مهاب عندهم ولم يجترئوا عليه لمخالفة ، ولم يخرج عليه منهم خارجة .

فالحمد لله الذى أبقى دولة الإسلام ، وأبقى على جميع أهل عمان نعمته ، ونشر عليهم رحمته ، ولم يبق فى بُقْعَةٍ من أرض الله : يحيط بها علمنا - يعمل فيها بالعدل : غير عمان .

فإن راعوا هذه النعمة بطاعة الله وشكره ، فهو أكرم من أن يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم ، وإن بدلوا نعمة الله كفرا ، فهو المتفضل على عباده بالعفو والغفران ، والإرشاد إلى سبيل الرضوان ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على رسوله محمد النبي وآله وصحبه .

وشرح ما ذكرنا منه طرفاً يحتاج إلى مجلد كبير ؛ لكن أهل زماننا أكثرهم يعرفون ذلك ، والله أعلم ، وبه التوفيق .

* * *

القول السابع والأربعون
فى رفع مذهب أهل الاستقامة

رفع المذهب : الشيخ أبو الحسن على بن محمد البسيوى . وأبو محمد عبد الله ابن محمد بن بركة . وسعيد بن عبد الله بن محمد بن محبوب (رحمهم الله) ، ومن كان بعصرهم من المسلمين .

عن موسى بن على . ومحمد بن هاشم . ومحمد بن محبوب ، ومن كان بعصرهم من المسلمين .

عن هاشم بن غيلان . وموسى بن أبى جابر . ومنير بن النير . وسليمان ابن عثمان . ومحبوب بن الرحيل البصرى . ومن بعصرهم من المسلمين .

عن الربيع بن حبيب البصرى . وخلف بن زياد البحرانى . وشبيب بن عطية العمانى ، ومن بعصرهم من المسلمين .

عن المختار بن عوف . عن الإمام الجلندى بن مسعود العمانى . وعبدالرحمن ابن رستم الفارسى : إمام أهل المغرب . وجعفر بن السمان ، ومن بعصرهم من المسلمين .

عن المختار بن عوف العمانى . وعبد الله بن يحيى الحضرمى . وعلى بن الحصين . وهلال بن عطية الخراسانى ، ومن بعصرهم من المسلمين .

عن أبى عبيدة مسلم بن أبى كريمة الأزدى البصرى . وفروة بن نوفل . ووداع بن جويرة ، ومن بعصرهم من المسلمين .

عن أبى الشعثاء : جابر بن زيد . والإمام عبد الله بن وهب الراسبى . وزيد بن صحوان العبدى ، من بعصرهم من المسلمين .

عن عبد الله بن عباس . وخزيمة بن ثابت . ومحمد ، وعبد الله ابنى بديل

ابن ورقاء الخزاعيين . وعمار بن ياسر . وبلال . وصهيب . وسالم : مولى أبى حذيفة . ومعاذ بن جبل . وحذيفة بن اليمانى . وعبد الله بن مسعود . وعبد الرحمن بن عوف . وأبى عبيدة بن الجراح . وأبى ذر الغفارى . وعائشة أم المؤمنين ، والخليفتين : أبى بكر وعمر – رضى الله عنهما – والمهاجرين والأنصار – رضى الله عنهم أجمعين . عن النبى محمد بن عبد الله (ﷺ) . عن جبرائيل الأمين . عن الله رب العالمين .

فليس لطاعن فى ديننا مطعن ، والحمد لله رب العالمين .

فصل :

روى عن النبى (ﷺ) أنه قال : أرحم أمتى بأمتى أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، وأشدهم فى دين الله عمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل الأنصارى ، وأمين هذه الأمة أبو عبيدة ابن الجراح .

وقال : ما أظلت الخضراء ، وأقلت الغبراء أصدق لهجة من أبى ذر الغفارى ، وقال : من أراد أن ينظر رجلا يحبه الله : فلينظر إلى سالم مولى أبى حذيفة .

وقال : ليلينى منكم أولو الأرحام ، وكان يصف خلفه : عبد الله بن مسعود وقال : ما لكم ولعمار ؟ يدعوكم إلى الجنة ، وتدعونه إلى النار ، وقال له : تقتلك الفئة الباغية .

وجعل شهادة خزيمة بن ثابت عن شهادة رجلين من المسلمين ، وكان يقال لحذيفة : صاحب سر رسول الله (ﷺ) .

فهؤلاء [هم] الذين أخذنا عنهم ديننا ، وهم الأمناء عندنا فيما نقلوا من كتاب الله ، وسنة رسوله ، وإجماع العلماء المحقين .

وديننا : قول وعمل ، ونية ، وإتباع السنة ، والحمد لله الذى هدانا لهذا ، وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على رسوله : محمد النبي وآله وسلم .

* * *

تم الجزء الأول من كتاب : منهج الطالبين ، وبلاغ الراغبين تأليف الشيخ الفقيه ، العالم العلامة : خميس بن سعيد بن على الشقصى الرستاقى (رحمه الله وغفر له) .

قال المحقق :

تم نقل هذا الكتاب أخذاً من نسختين . إحداهما : بخط خلف بن محمد ابن خنجر بن سعيد بن غفيلة ، وكان تمام نسخها : يوم الاثنين لثمان ليال خلون من شهر ذى القعدة سنة ثلاث وثلاثين سنة ، من بعد المائة والألف هجرية.

والنسخة الثانية: بخط بلعرب بن أحمد بن مانع بن على بن محمد بن إسماعيل الإسماعيلى الأبروى ، وكان نسخه بحصن صور ، وتمامه يوم الجمعة لست ليال خلون من شهر جمادى الأولى سنة ثلاث ، ومائة ، وألف .

وكلتا النسختين : تغلب عليها الصحة ، ونرجع فيما أشكل علينا إلى بيان الشرع والضياء ، والمصنف ؛ فهى أصول المؤلف ــ رضى الله عنهم وأرضاهم .

انتهى الجزء الأول

ويليه الجـــزء الثانى

فهرست الكتاب

رقم الصحيفة	الموضوع

رقم الصحيفة	الموضوع

* * *

رقم الإيداع ٤٣٩٣ / ١٩٧٩

الترقيم الدولى ٨ - ٥٤ - ٢٧٣٩ - ٩٧٧